

الموسوعة التاريخية الحديثة



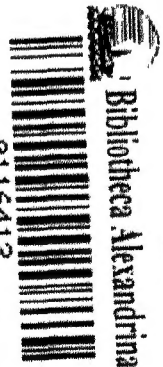
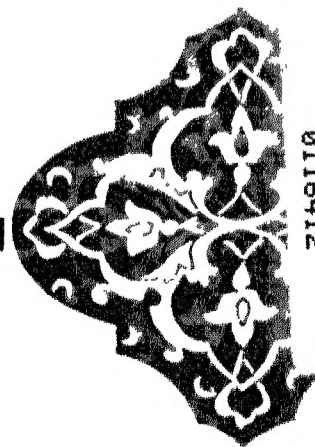
الموسوعة التاريخية الحديثة

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تقريب

الدكتور نور الدين حاطوم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت



دار الفكر

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تأليف

جماعة من المؤلفين الغربيين

تقريب

الدكتور نور الدين جاطوم

أستاذ التاريخ الأدبي الحديث في جامعة الكويت

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
عن ط - ١٩٨١ م

سبع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ،
لا يسع دفتاس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ،
لا يبارح حضي من دار الفكر بدمشق

طبع بالأوسن في دار الفكر هانف (٢١١٠٤١/٢١١١٦٦) ، بريقاً (فكر)
ص ب (١٦٢) دمشق - سورية Tx FKRMGS 411745 Sy



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

الذي يبذل الروح

دفاعاً عن الدار والخلاص من الاستعمار

المقدمة

يتم هذا الكتاب « قضايا عصرنا » كتاب « تاريخ عصرنا » ويوضحه في شرح قضايا العصر الكبرى كقضية الخلاص من الاستعمار والعلاقات بين الشرق والغرب وتطور الحرب والتطور الاقتصادي والاجتماعي والديني والحياة اليومية ، وقضايا الدول الصغرى ، وقضية الحضارة المعاصرة وما أنجزته من تقدم علمي وتقني ؛ وغيرها من القضايا التي تميز عصرنا الحاضر وتفسره .

والأمل أن يتحقق به النفع المرجو والفائدة المتوخاة .

الفصل الأول

نهاية الاستعمار

الاستعمار

كانت المستعمرات تمتد ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، على خارطة الكرة الأرضية ، على أكثر من نصف القارات . ففي أوروبا ، كانت صغرىين بريطانياين : جبل طارق ومالطة ؛ وفي شرقي المتوسط ، احتلت انكلترا قبرص ، وإيطاليا رودس . ونحرت أمريكا ، الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية ، منذ أكثر من قرن ؛ ولكن بقيت كندا الواسعة ، الدومينيون البريطاني ، هوندوراس البريطانية ، جزر الآنتيل الصغرى والغويانة ، موزعة بين انكلترا وفرنسا وهولاندا ؛ وأخيراً بورنويكو وآلاسكا وتعلقان بالولايات المتحدة .

واستعمرت آسيا بشكل واسع كثيراً جداً : احتل فيها الروس الشمال كله والغرب ، سيبريا ، تركستان ، القوقاز ؛ وكان ملك انكلترا امبراطور الهند ويسيطر على سيلان ، بورما ، ماليزيا (مالايو) ، سنغافورة ، هونغ كونغ . وجعلت هولاندا من الهند الهولندية ، اندونيسيا في المستقبل ، مستعمرة زراعية غنية ؛ وجمعت فرنسا فيتنام ، كامبوديا ولاؤس في الهند الصينية ؛ واستعمرت اليابان فورموزا ، كوريا ، مانشوريا وبدأت بفتح الصين ؛ وكانت الصين فعلاً كثيراً أو قليلاً

سيدة تركستان الشرقية والتبت ؛ وكانت مونغوليا مقسمة بين النفوذين الصيني والرومي . وقسمت البلاد العربية من جديد بين انكلترا ، التي استولت على جنوبي شبه الجزيرة العربية ، العراق وفلسطين ، وفرنسا التي احتلت سورية ولبنان ، بصفة انتداب في الغالب .

واستعمرت أفريقية ، عدا ليبيا الصغرى ، البائسة جداً آنذاك ، بكاملها بصفات مختلفة : وكانت مصر التي انضمت اليها السودان بايحاء من السلطات البريطانية ، مستقلة نظرياً منذ ١٩٢٢ ، ولكن الجيش البريطاني يسيطر عليها . وحقت انكلترا على هذا النحو حلم سيسيل رودس ، صابغة باللون الوردي البريطاني شرقي القارة كله ، « من الكاب الى القاهرة » بدومنيون جنوبي افريقية ، الروديسيين ، تانغانيقا ، كينيا ، اوغندا والسودان الانكليزي المصري . وملك ، عدا ذلك ، اربع مستعمرات في افريقية الغربية : غامبيا ، سيراليون ، ساحل الذهب ونيجيريا الواسعة ؛ وحول القارة ، على طول طريقي الهند ، احتلت بعض الجزر والمواقع البحرية : جزيرة الصعود ، القديسة - هيلانة ، زنجبار ، عدن ، موريس وجزر سيشيل .

وبعد أن ضمت فرنسا الجزائر اتمت وحدة المغرب بجمايقي تونس ومواكش . واحتلت اراضي واسعة ونظمتها وهي : افريقية الغربية الفرنسية (A.O.F.) وافريقية الاستوائية الفرنسية (A.E.F.) ، التي تمتد من الغابة العذراء الى القسم الاعظم من الصحراء الكبرى .

وانتدبت فرنسا ، فوق ذلك ، على المستعمرات الالمانية السابقة في توغو وكامرون ؛ وسيطرت ، في المحيط الهندي ، على مدغشكر ، وشاطئ الصومال الفرنسي وجزر الكومور .

و ضم الملك ليوبولد الثاني ، بصفة شخصية ، الكونغو وورثتها بلجيكا بعده . وحافظت البرتغال على فتوحاتها القديمة : جزر الرأس الأخضر ، غينة البرتغالية ، أراضي موزامبيق الواسعة وانغولا .. ولا توجد اسبانيا إلا في شمالي مراکش وفي بضع نقاط من الشاطئ الصحراوي ، وتحت خط الاستواء ، في غينة الصغيرة الاسبانية . وكانت ايطاليا آخر قادمة ، واحتلت ليبيا والصومال ، واريترية ، ثم ضمت في العام ١٩٣٦ امبراطورية اثيوبيا (الحبشة) القديمة ؛ وكان هذا الحادث آخر فتح استعماري .

واستعمرت اوقيانوسيا بكاملها . وجزئت غينة - الجديدة ، أكبر جزيرة في العالم ، بين هولاندة وانكلترا وأستراليا . وحتت الولايات المتحدة جزر الفيليبين . وكانت انكلترا الوطن الأم (المتروبول) للدومينيوني أستراليا وزيلاندة - الجديدة . وتنافس معها ومع فرنسا ارجييلات ميلانيزيا وبولينيزيا الصغيرة ، وما من مكان ، حتى على اطراف القارة المتجمدة الجنوبية ، الا وأرادت الدول احتلاله والاستقرار فيه . وهكذا تم التقسيم الاستعماري للأرض .

فما هي المستعمرة إذن ؟ إنها بلد يتعلق سياسياً بالمتروبول . وكلمة « متروبول » ، أي « المدينة الأم » ، تدل على أصول النظام (المؤسسة) : فقد نشرت المدن اليونانية في القديم « المعمرين » أي الفلاحين في البلاد « البربرية » ، أي في خارج بلاد اليونان ، مثل آسيا الصغرى أو جنوبي ايطاليا . ولم يكن هذا النوع من « مستعمرة الاستيطان » غائباً عن الاستعمار الحديث ؛ وهذه هي حال الجزائر عندما كانت مستعمرة فرنسية ؛ وظلت الدومينيونات البريطانية نماذج لذلك أيضاً ؛ وكان بعضها في أكثره

مأهولاً بالمعمرين ؛ ولم يكن البيض في افريقية الجنوبية إلا أقلية قوية تستخدم عمل اكثريه ابناء البلاد الاصليين .

وفي أمكنة أخرى ، وبخاصة في المناطق المدارية ، لم يكن المستعمرون إلا عدداً ضعيفاً من العسكريين والاداريين ، وأعضاء البعثات التبشيرية ، والفلاحين والتجار يسيطرون ويوجهون الجماهير الكبرى من أبناء البلاد الأصليين . ومثل هذه المستعمرة يسمى « مستعمرة الاستغلال » ، وهو تعبير موروث من جزر قصب السكر في النظام القديم ويفترض هدفاً خاصاً للربح الاقتصادي بنتائجه غير الانسانية . وقد شجب الاشتراكيون هذا المظهر آنذاك على حق نحت اسم « الاستعمار » أو « الاستعمارية » كنظام . ولكن الواقع ليس بسيطاً . لأن المستعمرات لم تفد إلا بعض الافراد أو بعض الجماعات . ولم تكن البنة عنصراً أساسياً في ازدهار البلاد الأم . لأن هذه الأخيرة انطلقت في الغالب في فتوحات بعيدة بداعي العظمة السياسية وبجسد جيرانها . وكانت فكرة « الرسالة الحضرة حمال المتوحشين المهيبة » أحياناً عذراً ، ولكنها كانت أيضاً بالنسبة للكثيرين من مكتشفين ومبشرين وموظفين واقفاً قوياً ، وكما غنى الشاعر الانكليزي كيبليتغ ، كانت عبء الانسان الابيض الذي أخذ على عاتقه تقديم الكوكب .

وليس هذا القول كلاماً عبثاً . إن تقدم البيض النقي ، الذي اتبعه البابائون بشدة وحمية ، جعلهم في القرن العشرين معلمين ومرشدين للمستعمرين بعد أن وجدوهم في الغالب في مستوى العصر الوسيط أو ما قبل التاريخ . ولكن الواقع ، بكونهم معلمين ، لا يحملهم على الامراع بتحرير قاصريهم حتى ولا تصور هذا التحرير بوضوح . ومع ذلك فإن التماس الخارجي والتنظيم الاستعماري آثارا تغييراً بطيئاً في المجتمعات القديمة .

إن التهدة والحدود الجديدة ووسائل المواصلات من موافيه وخطوط حديثة وطرق وطائرات وهو المدن فجرت الأطر السياسية القديمة الضيقة وخلقت كيانات واسعة ومزجت الشعوب . فالى جانب اقتصاد العيش التقليدي المعتمد على الزراعات الغذائية انشئ اقتصاد تبادل مؤسس على المنتجات الجديدة كالسكر والكاكاو والقهوة والشاي والفلو السوداني والقطن والكاوتشوك والكرمة ، النخ . أو على استغلال الموارد الطبيعية كالغابات والمناجم وغيرها . وهذا التصدير يتجه بخاصة نحو الوطن الأم الذي يرسل ، بالمقابل ، منتجاته المصنوعة ، معوضاً بسعر رخيص المصنوعات المحلية . ولا شك في أن هذا التغيير يحدث تحت تأثير التبعية المزدوجة السياسية والاقتصادية . إلا أنه يشكل على الأقل انقلاباً مادياً واجتماعياً ، وبضاف اليه انقلاب الافكار عند العناصر المثقفة على الطريقة الغربية ، « المتطورة » . وما زال هؤلاء قليلي العدد وبخاصة في افريقية وسيكونون خيرة العجينة وعمال المستقبل .

بؤادر الخوصى من الاستعمار

وستسهم عقائدات مختلفة في هذه اليقظة . لقد علم المعلمون الفرنسيون الشعار « الحرية ، المساواة ، الاخاء » . ولقن المبشرون المسيحيون الاخاء البشري . والإسلام يدعو الى الاخاء الاسلامي . كما ان القومية ، التي حررت شعوب أوربه منذ قرن ، ألقت ببقعة الزيت في آسيا وفي البلاد العربية وذكرت بالامبراطوريات الكبرى والحضارات الوضاعة في القديم . وضربت اليابان المثل في التجديد الحارق والانتصارات على أوربه . وانتقلت هي نفسها إلى التسلط والامبريالية . وان عالم السيطرة البيضاء ، الذي غناه كييلينغ ، بدأ يميل ، وبشتر لوثروب ستودارد ب « المد الصاعد للعروق الملونة » .

إن أول تحويل عميق في امبراطورية استعمارية كان من عمل مستعمر مالبث أن أصبح زعيم البلد المستعمر ، الجيورجي جوزيف ستالين . فقد شجبت الاشتراكيون « الاستعمارية » ، وبشر لينين بتحرير الشعوب المستعمرة ورأى فيه واسطة انهيار الرأسمالية . ومنذ استلامه السلطة نادى بـ « مساواة شعوب روسيا وسيادتها »

ومن هنا ظهر تفتح القوميات التي كادت أن تنسف هذا التجميع العظيم للبلاد ، هذا العمل الذي قام به القيصرية الروس خلال قرون . وشجبت ستالين القومية كرجعية إذا كانت منبثقة عن الاقطاعيات والبورجوازيات المحلية ؛ وخول الشعوب من عروق أخرى بعض الاستقلال الذاتي السيامي والثقافي ، وأمن في الوقت نفسه تماسكها بالحزب الشيوعي وتنميتها بالخطط الخمسية . ومن ١٩١٣ إلى ١٩٣٤ ، عرف مذهبه وطبقه . وغلبت عقدة النقص على أمرها ، واستطاع المجموع الكبير الذي أطلق عليه اسم « اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية » أن ينطلق من جديد لحياة جديدة ، حياة القرن العشرين .

والولايات المتحدة ، المنبثقة عن ثورة استعمارية ، احتفظت بعقائدية قلما تصلح للامبراطوريات . فقد خول روزفلت ، منذ ١٩٣٤ ، الاستقلال الذاتي للفلبين . والليبرالية الانكليزية التي أوحى بها التحرير الأمريكي والعادة الداخلية للبرلمانية والاستقلالات الذاتية المحلية ، قبلت ، منذ زمن طويل ، « الحكم الذاتي » في المستعمرات الكبرى البيضاء التي أطلق عليها اسم « الدومنيونات » ، مثل كندا في ١٨٤٠ ، استراليا ١٩٠٠ ، زيلاندة - الجديدة ١٩٠٧ واتحاد جنوبي أفريقية ١٩١٠ . وكان نظام الاستقلال الذاتي الداخلي هذا يسمح لها بتسيير مصالحها بواسطة حكومة وبرلمان وإدارة خاصة .

وظلت قضايا الدفاع والدبلوماسية المتعلقة بها في النطاق الخاص بحكومة لندن . وبين الحربين العالميتين أصبح المجموع « رابطة الشعوب البريطانية » ووضعت الهند على يد نخبائها المتحركة ، التي تثقت في الجامعات الانكليزية قضية صعبة ؛ وكانت مجالس الأقاليم تنتخب الوزراء منذ ١٩١٩ ؛ وكان يتنبأ للأجل البعيد باتحاد مع سلطة مركزية . وأخذت مصر في ١٩٢٢ استقلالها من حيث المبدأ . وفي ١٩٣٢ تخلت انكلترا عن انتدابها على العراق ثم عن شرقي الأردن . وكانت البلاد المنخفضة عرضة لحركة قومية قوية في اندونيسيا ، فردت بعنف ولكنها اضطرت إلى البدء بإعداد برلمان محلي .

وفي فرنسا ، كانت عدم الحركة غالباً . فقد أنشئت بعض المجالس السكّالة المحلية في الجزائر ، والهند الصينية ومدغشكر ، ولكنها كانت مجالس استشارية واقتصادية ويسيطر عليها الأوروبيون .

وأعدت « الجبهة الشعبية » تحرير سورية ولبنان وتونس والتمثيل السيامي للنخبة الجزائرية ؛ ولكن سقوط ليون بلوم ، في ١٩٣٧ ، كان سبباً في في إخفاق هذا التحويل العاجل . ولم يكف تفتح القومية الفيتنامية ، التي تأكدت بثورة ين باي ، في ١٩٣٠ ، لفتح عيون المحافظين على مجيء الأزمنة الجديدة .

وسجلت الحرب العالمية الثانية قيام عالم كوكبي وخراب أوربه الغربية المستشرية على دمارها الخاص . وظهرت بين الغالبين دولتان في الصف الأول : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

وكانت الدولتان مناوئتين للاستعمار وتشجعان حركات التحرير . ولم تظهر هذه الحركات أثناء الحرب . وكونت العرقية المتلوية الاتحاد ضدها

وما زالت الأطر الاستعمارية متينة بعد . وسببت الهند وحدها القلق للانكليز : فقد بشر غاندي بـ « اللاعنف » ، الذي توحى به التقاليد الهندية ، وعارض الدفاع ضد اليابانيين . وسجنه الانكليز مع ثلثيه نهر ، في آب ١٩٤٢ ، وحصلوا على تعاون الزعماء القوميين الآخرين . وخدم مليوناً هندي في الجيش أو في المعامل ، ودحر اليابانيون . ولكن هذا النفي استخدم أيضاً في أماكن أخرى ، في آسيا أو في أفريقية ، وأعطى للمهاجري البلاد المستعمرة العاطفة بقوتها وتقنية الحرب . فمن ذلك أن الأفارقة الذين انخرطوا في جيش الجنرال لوكيرك من ليبيا إلى قلب ألمانيا حافظوا على عقلية فاتحين وقلبي الاستعداد للخضوع . ولذا فإن فكرة « الحرية » التي استنفرت بشكل واسع في النضال ضد النازية لم يعد بالامكان ردها ووضعها في محلها .

وتحملت الدول الاستعمارية الكبرى خسائر مادية ومعنوية فقد احتلت البلاد المنخفضة من قبل الألمان ، وطردها اليابان من إريوانا الغربية ، وظلت خلال أربعة أعوام زائلة من الحارطة . وشهدت الامبراطورية البريطانية إغراق سفنها الحربية ، واستسلام حصن سنغافوره ، واجتياح ماليزيا وبورما ، والهند وجنوبي افريقية مسوقين بصعوبة إلى الحرب ، ومصر جامحة ثم مهددة ، والعراق ثائرة . وخرجت انكلترا من كفاحها الطويل منهكة وغير قادرة على توطيد سيطرة عالمية . وغلبت فرنسا عسكرياً ، واحتلت العدو ، وانقسمت افريقية الفرنسية خلال عامين بين « الفيشيين » و « الغولين » ، واجتاح اليابانيون الهند الصينية ، كما اجتاحت الجيوش الحليفة افريقية الشمالية ومدغسكر ، وضرب اسطولها أو أغرق ، ونحسرت أرضها القومية بحرب احتل فيها الامريكيون المكان الأول ، وخرجت من الحنة مهدمة وفي حالة سياسية قلقلة وغير مستقرة .

ومن جهة الحسم ، كان الانهار عظيماً أيضاً . وبدأ أن العرقية بادت نهائياً مع النازية . وخسرت إيطاليا امبراطوريتها الجديدة . وطرحت اليابان من فتوحاتها بعد كفاح مرير ، ووجدت نفسها بقنبلة هيروشيما طريدة من مستعمراتها السابقة ومن الصين النصف محتلة . ولكن اليابانيين في جنوب شرقي آسيا الخاضع لهم منذ عدة سنوات ، بشروا بسقوط البيض و « آسيا الآسيويين » . وأنبتت هذه البذور نباتها . و « كسبت اليابان المغلوبة الحرب » .

وظهرت بين قصف القنابل والحرائب بعض أمارات العالم الجديد . ففي آب ١٩٤١ التقى تشرشل وروزفلت في البحر وعرفا « ميثاق الأطلسي » حيث يظهر بخاصة صدى بعيد للثورة الفرنسية ، « حق كل شعب في اختيار شكل الحكم الذي يجب أن يعيش فيه » . وفي الجزائر المدينة ، في ١٩٤٤ ، كانت الحكومة الفرنسية المؤقتة محرومة من قاعدة البلد الأم ، فاعتمدت على المستعمرات ورسمت اتجاهات جديدة ؛ ونحلت المواطنة الفرنسية إلى ٦٠٠٠٠ جزائري مع احتفاظهم بنظامهم المدني الاسلامي .

وفي برازافيل انعقد مؤتمر حكام افريقية السوداء ونادى بتمثيل واسع للمستعمرات في البرلمان الفرنسي والمجالس المحلية ، مع شجب فكرة الاستقلال ، ناتي « حتى البعيدة » .

وشهدت العودة إلى السلام في سان فرانسيسكو ، في حزيران ١٩٤٥ ، إعداد ميثاق الأمم المتحدة . أما الفكرة التي قال بها بعض الامريكيين في تحويل جميع المستعمرات الى وصايات مؤقتة فقد أبعدت بعارضة الدول الاستعمارية . وأكتفي بأن أطلق لأمم « وصايات » على « انتدابات » عصبة الأمم السابقة وبعض المستعمرات الايطالية واليابانية السابقة .

- ١٦ -

وكسبت دول انتدابات الشرق السابقة استقلالها بفضل التنافس الفرنسي - الانكليزي . وأخذ مجلس الوصاية ، في منظمة الامم المتحدة ، الذي يضم بالتساوي دولاً وصية ودولاً غير وصية ، منها الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، يستقبل تقارير الأوصياء وملتمسات الشعوب الموصى عليها ويقوم بزيارات دورية لبلاد هذه الشعوب . ووجدت الدول الموجهة نفسها موضوعة تحت وصاية دقيقة . وعدا ذلك ، يجب أن توجه تقارير عن كافة البلاد غير المستقلة ذاتياً ، أي المستعمرات والحميات غير الخاضعة للوصاية ، الى منظمة الامم المتحدة التي تضم جمعيتها العمومية أكثرية من أعضاء غير مستعمرين يسهل عداؤهم أو يصعب كسبهم . وما فتئت منظمة الامم المتحدة تدفع إلى التحرير وتسهله عندما تتوافر الظروف وتستقبل الامم المستقلة الجديدة مهما كانت رقيقة الحال أو سيئة التكوين . لقد بدأ جزر الاستعمار وأخذ قليلاً قليلاً يحرق كل شيء .

المرحلة الاولى

١٩٤٥ — ١٩٥٤

تحرير آسيا

سارت الهند بسرعة على طريق التحرير . كسب الحزب القومي ، حزب « المؤتمر » ، في جميع الانتخابات ، وأمكن للانكليز أن يقرأوا على جميع الجدران « غادروا الهند » . وأعطت الانتخابات البريطانية ، في تموز

١٩٤٥ ، السلطة إلى العماليين الذين قرروا منح الاستقلال ، ولكن مواعده أبعد بسبب اختلافات الهند نفسها .

وصعدت وحدة الدين وشعبية غاندي ونهرو اختلاف الاعراق واللغات لصالح الاكثرية البرهمانية الواسعة : ولكن العصبية الاسلامية ، بزعيمها المحامي محمد علي جناح ، كانت تطالب بدولة مستقلة ، وقد أطلق عليها اسم « باكستان » .

وعندما أخفقت جميع محاولات المصالحة ، أعلم الوزير البريطاني الاول أتلي ، في شباط ١٩٤٧ ، بأن الانكليز سيغادرون الهند في السنة التالية عند أبعد حد . وهذا التهديد بترك البلاد للفوضى ساعد نائب الملك ، اللورد مونتباتن ، على تسوية « التقسيم » بين هندستان وباكستان . وفي ١٥ آب ١٩٤٧ ، أعلن الاستقلال ، وبقي البلدان في الكومنولث .

وكانت الطوابع العالمية تتنبأ منذ نصف قرن بأن الهند ستنفجر عند ذهاب الانكليز . وكانت البدايات ، وحتى يقال ، مأساوية . فقد انطلقت ملايين اللاجئين وعبرت الحدود من دولة لاخرى . ولم تخل الحال من مجاعات ومذابح واسعة . وقد حرم اغتيال غاندي ، في كانون الثاني ١٩٤٨ وموت محمد علي جناح في أيلول البلدين قبل الاوان من مرشدتها غير المنازعين . ومع ذلك فقد تجاوز كل من البلدين أخطار عمره الاول وقويا وحدتها بسرعة . فالعصبية الاسلامية ، الحزب الوحيد في باكستان الذي يعتمد على إيمان حي ويحافظ على عديد من الموظفين البريطانيين ، تغلبت على عوزها للملاكات (الكوادر) واختلافها اللغوي قضايا عصرنا (٢)

ونجزتها الارضية الغريبة . وكانت دولة الهند ، بـ ٣٥٠ مليون نسمة واختلافاتهم وأباطيلهم ، وشقاقهم ، تنصرف بنخبة متناكضة : وكان زعيما المؤتمر نهرو وباتيل « جماعين » .

ان الـ ٥٥٠ دولة اميرية ، التي احترم الانكليز تكتاثرها الذي يرجع إلى عهد العصور الوسطى ، التحقت شيئاً فشيئاً بالحكومة المركزية . إلا أن أميراً واحداً وهو نظام حيدر أباد ، الذي يحكم ١٧ مليوناً ، حاول أن يقاوم ولكنه أذعن بعد غزوه . وكشمير المسلحة ، التي تطالب بها باكستان واحتفظت بها الهند ، أصبحت شوكة مستديمة في العلاقات بين البلدين . وفي ١٩٥٤ التحقت مؤسسات الهند الفرنسية ، وهي رسم من بقايا القرن الثامن عشر ، بـ « الهند الام » برضى فرنسا . وأمن الدستور الهندي ، وان كان اتحادياً ، تفوق الحكومة المركزية التي يسيطر فيها حزب المؤتمر بشكل واسع . وهو يشجب التمييز في الدين والطبقة والجنس . وجنبت القطيعة اللغوية بخاصة بفضل اللغة الانكليزية التي ظلت لغة مشتركة للنخبة المثقفة . وفي ١٩٥٠ أصبحت الهند جمهورية دون أن تترك الكومنولث وتزعم نهرو ، في السياسة الخارجية ، الحزب المحايد .

وسيلان وبرمانيا المجاورتان للهند ، وهما في أكثريتها بوذيتان ، انفصلتا في الوقت نفسه عن الامبراطورية البريطانية ، عام ١٩٤٧ ، وظلت الاولى وحدها في الكومنولث . وعرفت برمانيا أقبح الحن السياسية . وفي تموز ١٩٤٧ ، قذف مجلس الوزراء بالرشاش . إلا أن وزيراً واحداً ، أونو كان غائباً . واستلم السلطة وحاول ، باتباع طريق مزدوج ماركسي وبوذي ، أن يؤمن بقاء بلاده التي هدمتها الحرب ومزقتها الاشباع المسلحة العقائدية أو العرقية .

أما ماليزيا وسنغافورة بوضعها الاستراتيجي الاستثنائي ، وأهميتها الاقتصادية ، نظراً لوجود القصدير والكاوتشوك ، وشعوبها المختلفة جداً من ملاويين أصليين ومهاجرين صينيين ، فلم يتركها الانكليز بسهولة . فقد أنشأوا « اتحاداً » يضم الإمارات الملاوية مع مفوض سام بريطاني . وظلت سنغافورة جانباً « مستعمرة التاج » مع مجلس منتخب .

واندونيسيا (الهند الهولندية) التي احتلها اليابانيون ، ثم الانكليز ، شهدت عودة الجيوش الهولندية . ولكن ، في ١٧ آب ١٩٤٥ ، عند مغادرة اليابانيين ، قام المهندس سوكارنو ، زعيم الحزب الوطني ، منذ ١٩٢٧ ، وأعلن « الجمهورية الأندونيسية » واعترف الهولنديون بالجمهورية ، وحاولوا أن أن تقتصر على جاوا ، وأنشأوا في غيرها دولاً مستقلة ذاتياً . وفي كانون الأول ١٩٤٨ استولوا على عاصمة الجمهورية ، جو كجا كارتا . وعندئذ قام نهرو واحتج أمام منظمة الأمم المتحدة التي دعت الطرفين إلى المفاوضة . وفي تشرين الثاني ١٩٤٩ أقرت معاهدة « الاتحاد الهولندي - الأندونيسي » الذي وضعت فيه « الولايات المتحدة الأندونيسية » على قدم مساواة واحدة مع البلاد المنخفضة في نظام مؤتمرات شبيه بالكومنولث . وبدأت هذه الرابطة السياسية ابناً غير محتملة في نظر القوميين . وبعد أن تغلب سوكارنو على ثورات هامشية وحققت بصعوبة الائتلافات الداخلية بين الأحزاب المسلحة ، دفع ، في ١٩٥٠ ، إلى تبني دستور وحدوي . وفي ١٩٥٤ ، فسخ الاتحاد مع البلاد المنخفضة وطالب باريانة الغربية (غينة - الغربية الجديدة) التي احتفظ بها الاتحاد .

واحتل اليابانيون الهند الصينية الفرنسية وتركوا السلطات الفرنسية

في مكانها ، ثم انتزعوها منها ، في ٩ آذار ١٩٤٥ ، واعتقلوها . وعند مغادرتهم ، بعد هيروشيا ، تركوا المكان في فيت - نام لقومبي حزب فيت - منه المتعاطف مع الشيوعيين والذي يوجهه مفكرون ثقفوا الثقافة الفرنسية وبخاصة المحارب القديم هوشي منه والشاب جياب . ثم اتبع احتلال الجيوش الخليفة ، الانكليز في الشمال ، والصينيون في الجنوب ، باحتلال فرنسي جديد ، في كوشنشين أولاً ، ثم في تونكن . وفي ٦ آذار ١٩٤٦ ، وقعت معاهدة تعترف بـ « جمهورية فيت - نام دولة حرة ... تؤلف جزءاً من الاتحاد الفدرالي الهندي - الصيني والاتحاد الفرنسي » ؛ ومن ثم دخلت جيوش لوكليرك هانوي .

وعندئذ قامت مباحثات في فونتينبلو لتعريف الحالة السياسية الجديدة وطالب هوشي منه بالاستقلال وبكامل البلاد وبحلف سوامي ، بينما أراد الفرنسيون الحفاظ على الجيش والدبلوماسية والكوشنشين . وأخفق المؤتمر .

ومن ٢٣ تشرين الثاني إلى ١٩ كانون الأول ١٩٤٦ قامت الحرب في هايفونغ ، ثم في هانوي بين الجيوش الفيتنامية والفرنسية ، وحافظ الفرنسيون على هانوي واضطرت حكومة الفيت إلى الفرار .

ومنذ ذلك الحين قامت الحرب ودامت سبعة أعوام ونصف . احتل الفرنسيون الدلتا التونكينية والكوشنشين وقسماً من الأنام ؛ وأمسك الفيت - منه بغابات العواسج وقام بحرب عصابات لاتنقطع وما لبثت الحرب أن أصبحت حرباً منظمة انطلاقاً من ١٩٥٠ عندما انتصر الشيوعيون الصينيون في بلدنم وقدموا الأسلحة . وبحث الحكومة الفرنسية عن حل سلمي ، وفي ٨ آذار ١٩٤٩ ، وقعت مع الامبراطور القديم باؤ داي اتفاقات تعترف باستقلال الفيت - نام ، المتحدة تحت تاجه والمرتبطة بالاتحاد

- ٢١ -

الفرنسي . وفي الواقع ، ظلت فرنسا تجهز الأسامي من المجهود العسكري (حتى ٢٣٠٠٠٠ محارب) والمالي (أكثر من ٥٠٠ مليار فرنك سنوياً) دون نتيجة حاسمة . وقام جياب بهجوم ، ولم يدفع إلا بمناورات الجنرال دولاتر دوتاسيني اللامعة . وعندئذ وجه جياب جهوده شطر بلاد تاي ، وهذا مادفع الجنرال نافار إلى إنشاء معسكر ديان بيان فو ، الذي اضطر إلى الاستسلام ، في ٧ أيار ١٩٥٤ . وانهقد مؤتمر في جونيف لعب فيه مانديس فرانس دوراً أساسياً . وقسم اتفاق ٢١ تموز ١٩٥٤ الفيت - نام إلى قسمين : الشمال الشيوعي ، والجنوب حيث خلف الرئيس فغو دينه ديم الامبراطور باؤداي .

وأصبحت لاؤس وكبوديا دولتين مشاركتين في الاتحاد الفرنسي في ١٩٤٦ وتطورتا نحو مزيد من الاستقلال . وتنازل ملك كمبوديا ، نورودوم سيهانوك ، عن العرش ليحافظ على السلطة الفعلية بصفة رئيس لمجلس الوزراء . واجتاحت جيوش الفيت - منه لاؤس مرتين ، واحتفظ الشيوعيون باقليمي الشمال الشرقي .

ونخلصت الصين من الاحتلال الياباني في آب ١٩٤٥ ، ومثلت بين الحلفاء المنتصرين ، والغت « المعاهدات غير المتكافئة » التي فرضها الغرب في بداية القرن . وعادت فيها الحرب الأهلية في ١٩٤٦ ؛ وفي كانون الأول ١٩٤٩ انتصر الشيوعيون ، رجال ماوتسه - تونغ ، وفر تشانغ - كاي - تشيك إلى جزيرة فورموزا (تاي وان) التي تحميها البحرية الأمريكية . وزعم أنه يمثل الصين الحقيقية وحافظ على مكانه في منظمة الأمم المتحدة . وزالت جميع المناطق والامتيازات الأجنبية من البلاد

هذا هو نفع كونغ وماكاو . وحل القضية الاستعمارية التي وضعتها الشعوب الخارجية الدخيلة ، تبنت « الصين الشعبية » مبادئ ستالين مع تكييفها . وإن دستور ١٩٥٤ يحول الاستقلال الذاتي للأقليات القومية . ولكن الجمعية (المجلس) كانت وحيدة . وانتقال الشعب الصيني على سين - كيانغ (تركستان الشرقية) حيث تم ائتلاف من مختلف الشعوب تحت حماية بكين . وأصبح الزعماء المنغوليون منتخبين منذ الآن . واحتلت الجيوش الصينية التبت في ١٩٥٠ . وأسست لجان مستقلة للأقليات الأخرى في نطاق الأقاليم الصينية . وإن اتجاه الصين الجديدة المناوئ لأمريكا بعنف ، وكلمات أمرها « المناوئة للاستعمار » و « المناوئة للإمبريالية » ، وعملها في حرب كوريا (١٩٥٠ - ١٩٥٣) وجهودها لائتلاف « العالم الثالث » حولها ، قد أسهمت في تطور الشعوب الآسيوية وحتى الأفريقية في المرحلة التالية .

الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية)

السياسة البريطانية مطبوعة بالجزيرية والذرائعية . فهي تهتم بالحفاظ على فرديتها وفردية الآخرين . وتحترم ما هو موجود ، وتحافظ عليه ما دامت التغييرات لا تفرض نفسها بشكل واضح . وتهتم أيضاً باهتمام الناجر الصالح بالألا تلقي نفسها في نفقات غير منتجة ، ومن هنا يأتي اختلافها ومرونتها . وهي تثق ، مع ذلك ، بفضيلة النظم البرلمانية التي أعدتها ، وب « الحكم الذاتي » المسؤول والتربية المعطاة في جامعاتها . ولقد طبع هذا المجموع من الطريقة التجريبية والمبادئ الطيبة خلاصها من الاستعمار .

لقد فهم الكومنولث في ١٩٣١ كصيغة مساواة وتعاون بين البلد
الام والدومنيونات البيضاء : كندا ، اوستراليا ، زيلاندة - الجديدة ،
جنوبي افريقية ، ولكل واحد منها ، تحت سيادة الملك ، برلمان ، حكومته ،
وحريته في القرار . وهو نادي سادة متماثلين أو على الاقل متقاربين بالعرق
واللغة والثقافة ويفترض أن لهم مجموعة عواطف مشتركة . ولكن الكومنولث
لا يعوض الامبراطورية البريطانية ، لأن هذه الامبراطورية ما زالت
موجودة لجميع مستعمرات الملونين .

وعندما حرر العمالئون الهند تصوروا توسيع النادي وذلك بأن قبلوا
فيه غير اوربيين ، كواحدة للابقاء على الروابط السياسية على قدم مساواة
واحدة . والحرية متاحة لدخول النادي : وقد دخلته الهند وباكستان
وسيلان ثم ماليزيا ، ورفضت دخوله بورما . وجعل الحد الأدنى من الثقافة
الجامعية المشتركة بين النخب الموجهة ، والعادات التي انشأتها التعاملات
الادارية المتشابهة والعلاقات الاقتصادية الوثيقة هذا الحل الرياضي دائماً
وناجحاً . ولم يكن ملك انكلترا ، الذي ظل سيداً في بعض الدومنيونات ،
من الوجهة الرسمية أكثر من رمز ، ، وشعاراً للنادي ، في الدول
التي أصبحت جمهوريات . وعندما عاد المحافظون للسلطة ، تابعوا ، مع
الكبح بخفة ، هذه السياسة الحكيمة التي تجنب الحملات العسكرية المكلفة
وغير المفيدة ، وتبقي على العلاقات المربحة . ومن الممكن على هذا النحو
تصفية الامبراطورية قليلاً قليلاً ، اما بحذف ، واما ، في الغالب ، بالحفاظ
على روابط الكومنولث المرنة الشبيهة بخيط العنكبوت والقاصرة على مؤتمر
سنوي ومشاورات شبه رسمية عند مقتضى الحاجة .

ولم يكن تطبيق هذا الحل في العالم العربي الذي تخامره عظمة وحدته

الماضية ، ويفصله حماسه الديني للإسلام عن أي تشكيل آخر . وسبق أن استخدم لورانس العروبة ضد الأتراك ، ودعمت انكلترا الجامعة العربية عندما تألفت في ١٩٤٥ . ولكن فلسطين ، التي تشكلت فيها نواة استيطان صهيوني تحت الانتداب الانكليزي ، وضعت قضية شائكة . وفي ١٩٤٨ غادرها الانكليز وتقامم الامرائيليون والملك عبد الله البلاد تاركين حالة حرب عتيدة بين الصهاينة والعالم العربي .

مصر . - وكانت مصر مستقلة مبدئياً وقصر الانكليز احتلالهم على منطقة القناة . وفي ١٩٥٢ خلع الملك فاروق جماعة من الضباط يمثلون الطبقة المتوسطة . يزعم جمال عبد الناصر الذي استلم السلطة في ١٩٥٤ ، وحصل من انكلترا ، في تشرين الأول ، على الجلاء عن القناة .

وأخذ الانكليز ثأرهم في السودان التي وضعت تحت سيادة مشتركة انكليزية - مصرية منذ ١٨٩٩ ، وطالب بها الوطنيون المصريون . وفي ١٩٥٠ نادت الجمعية المصرية بفاروق « ملك مصر والسودان » . ودافعت انكلترا أمام منظمة الأمم المتحدة عن حق « الشعوب في تقرير مصيرها » وشجعت انصار استقلال السودان . ولم تستطع الجمهورية المصرية الجديدة أن تعارض تطبيق المبدأ الديوقراطي . إلا أن انصارها حصلوا على أكثرية عريضة ، ولكن ما أن استلموا السلطة إلا وانجسوا نحو الاستقلال .

الجنوب العربي . - وفي الجنوب العربي وجدت محميات حضرموت وعمان والخليج العربي ، سلطنات من شاكلة سلطنات العصور الوسطى ، تسير قبائل الصحراء ، ولديها مستشارون انكليز ، وكذلك مستعمرة عدن ، هذا الموقع الاستراتيجي الذي حافظت عليه انكلترا كما حافظت على سنغافوره بغيرة وشدة وتعلق .

افريقية السوداء . - وعلى خلاف هذه العوالم العربية التي ظلت على الهامش ، تطورت افريقية السوداء في نطاق الامبراطورية والكومنولث ، ولكن بتأخر ملحوظ عن آسيا التي بدأ تشكيلها الجامعي والبرلماني من قبل ، وأدى اختلاف الحالات الى اختلاف السياسات . فالمستعمرات ، التي يسكنها أبناؤها الاصليون وحدهم ولا يكون فيها الاوروبيون إلا كواد ، كما في نيجيريا ، ساحل الذهب ، سيرايلون ، غامبيا في افريقية الغربية ، اوغاندا في افريقية الشرقية ، عوملت بحجة أكثر من البلاد التي يشكل فيها المعمرون البيض اقلية هامية ومسيطرة سياسياً ، كما في اتحاد جنوبي افريقية ، روديسيا ، تانغانيقا ، كينيا .

في مستعمرات الفئة الأولى ، طبق البريطانيون « الادارة غير المباشرة » بوضعهم ببساطة عدداً صغيراً من الموظفين البيض فوق الزعماء الافريقين التقليديين . وهذا النظام الاقتصادي ، الذي لا يعكس صفو العادات ، تحسن في الربع الأول من القرن على يد أحد عظماء الاستعماريين الانكليز ، اللورد لونغفورد الذي عزز حكم الزعماء بمنحهم موازنات ومحاكم بشكل يمكن الافريقين « من التطور في خط حضارتهم الخاصة » . وهذا النظام ، الذي يحتم التسلسل كما كانت انكلترا في عهد الملكة فيكتوريا ، نجح الى الحد الاعظم في مناطق عرفت دولاً قوية مثل نيجيريا الشمالية أو ، في ساحل الذهب ، الاتحاد الكونغو الى الاسانتي . وكشف فيما بعد عن ضعفه في مناطق القوضى الثابتة ، أو الزعامات الضعيفة ، وبخاصة في المدن الشاطئية حيث تمت نجبة ثقفت في الجامعات الانكليزية أو الامريكية .

وادخلت هذه النجبة المستعربة شيئاً فشيئاً لتنافس الزعماء في المجالس التشريعية ، الهيئات الموضوعة لدى الحكام ، ولكنها كانت استشارية

- ٢٦ -

بصورة بحتة . وعارض فطنة هذه الاصلاحات بخاصة افريقيان عائدان من امريكا : نيكروما في ساحل الذهب و آزيكيويه في نيجيريا . أسس نكروما حزباً يستخدم عمل الجماهير ؛ وقامت مشادات في ١٩٤٨ ؛ وزج نكروما في السجن ، وخرج منه ، عندما ربح حزبه الانتخابات في ١٩٥٠ ، وأصبح الوزير الأول ؛ وتبنى لبلاده اسم « غانا » وحصل على استقلال ذاتي يكاد يكون تاماً . وأكثر آزيكيويه صحف المعارضة (« صحافة زيك ») ودعا « إله افريقية » ضد « الطغاة » الانكليز . وحضر هؤلاء ، بعد تحقيقات واجتماعات عديدة ، اتحاداً فيدرالياً مؤلفاً من ثلاث دول نيجيرية تحت اشرافهم .

سييراليون . - حصلت سييراليون على مجلس منتخب وحكومة افريقيين .

اوغندا . - وفي اوغندا عانى الانكليز مشقة في توحيد بمالك منفصلة تقليدياً أو متعادية . والمهم هو أن البوغاندا ، الملك متيسا الثاني ، الطالب سابقاً في جامعة كمبردج ، طالب باستقلال خاص في ١٩٣٣ ، ونفي مؤقتاً .

اتحاد جنوبي افريقية . - إن النموذج المتطرف لبلد المعمرين هو اتحاد جنوبي افريقية . ففيه يشكل البيض خمس السكان ويسيطرون بشكل كامل على الجماهير السوداء . والاتحاد ، باعتباره دومنيون ، يتمتع إذن باستقلال ذاتي سيامي كامل ، وقد تبنى نظام « العزل » أي الفصل المطلق للاعراق ، والتميز العنصري . وفي شمال الاتحاد توجد ثلاث بلاد بريطانية ، روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند ، وقد ضمت ، في ١٩٥٣ ، في اتحاد فيدرالي بمبادعة روديسيا الجنوبية التي تضم عشر الاوريين الموجهين للبلاد ، وتتطلع الى السيطرة على المجموع .

افريقية الشرقية . - وفي افريقية الشرقية كانت المعارضة أقل

وضوحاً وتميزاً ، والمعمرون البيض أقل عدداً ، مع عنصر آسيوي يمسك
بوضع وسيط . ويبدو أن تالغانيقا ، على كثرة الشعوب السوداء المتطورة
قليلاً ، لا تضع قضايا ملحة ، ولكن الأستاذ جولوس نيويري الكاثوليكي
الملمم بالفكرة العالية قد نجح ، مع ارتياح الانكليز ودون قلقهم ، بتشكيل
حزب جمع بسرعة أكثرية الأفارقة

كينيا . - وفي المستعمرة المجاورة ، كينيا ، وضعت قضية « الدولة
المتعددة الأعراق » ، بالعكس ، بشكل مأساوي . فقد احتكر
المعمرون الانكليز الاغنياء الاراضي العليا ، أفضل البلاد ؛ وسيطروا على
الاقتصاد والمجلس التشريعي . ولم يكن للشعب الافريقي الاكثر عدداً ،
شعب الكيكويو ، المقيم في المعازل ، ما يكفي من الاراضي
ليجابه ثوره . وقد كتب معلم اسمه جومو كينيا ، كان قد عاش في
انكلترا وفي الاتحاد السوفياتي ، كتاباً بعنوان « أمام جبل كينيا »
عارض فيه سعادة الحياة السالفة بالبوؤس الحالي ، والف حزب المعارضة .
وفي ١٩٥٢ نشبت ثورة « الماوماو » ، وهي جمعية سرية تأسست على
السحر ، وكانت تقتل البيض وتبيد مزروعاتهم . وتسليح المعمرون رجالاً
ونساء ، واوقف جومو كينيا . ودام القمع أربعة أعوام . وحسب
أكثر من ١٥٠٠٠ قتل وأكثر من ١٥٠٠٠ معتقل .

ولم يكن بالامكان تجنب قضية كينيا . ووضعتها حركة ماوماو
بشكل وحشي . ولكن الطرق الديمقراطية وحدها استطاعت أن تحلها
سلامياً بالخائنة التي توصلت اليها الحكومة الانكليزية وأحرار المعمرين البيض
في الوقت نفسه مع الزنوج المتطورين .

الاتحاد الفرنسي

لقد بقي الفرنسي في سياسته الاستعمارية صاحب أطيان ، حقوقياً ، مهندساً . ويبعدو أنه ورث عن اللاتينيين تذوق المنشآت الكبرى السياسية الوحيدة النمط ، وعن الغالين بعض المزاج الفوضوي . وعنده فيض من الكرم وأساس من البخل الريفي ونفس طلعة تألف الأجانب وتأصل في عاداته الصغيرة . لقد ورث عن الثورة الفرنسية الحماسة المندفعة للحرية ، وعن لويس الرابع عشر ونابوليون دوار عظيمة لم ينتصر عليه دوماً حسه السليم كفلاح . وأرسته الهزائم أكثر من الانتصارات في نكرة حذرة . وهو مناقش ولكنه طوعاً غير معقول . والحسابات الفطنة والتجربة المتنوعة للسياسة الانكليزية تبدو في عينيه وضيفة . إن ما يلزمه هو أفكار عامة ، أو ، في حال فقدانها ، حروب . والمحافظون الانكليز الماهرون في التنبؤ بالموازات وتكييف سياستهم حسبها ، يعارضهم الفرنسيون الذين يرون ان الشرف يقتضي من المرة الدفاع عشوائياً عما يملك ومهما كان الثمن ، حتى الحسرة التام .

وفي الجمعيتين التأسيسيتين ، جمعية ١٩٤٥ وجمعية ١٩٤٦ ، جرى حادث جديد وذو أهمية لا يمكن حسابها ، وذلك أن أكثر من عشر المقاعد قد احتلها بمثل بلاد ما وراء البحار ، وفي بعض المستعمرات ، احتجز نظام « الهيئة المزدوجة » مقاعد للأوروبيين ، بيد أنهم لم يكونوا إلا أقلية . وقد لعب النائبان السنغاليان ، القاضي لامين غي والاستاذ سنغور ، المتقدمين بالتربية السياسية ، دوراً من المستوى الأول في المناقشة . وكان الاندفاع العام في فرنسا الى الحرية ، ولكن أيضاً الى الوطنية الملحة . فكيف تحرر المستعمرات مع الحفاظ على الامبراطورية ؟ لقد طلب

لامين غي التصويت بالاجماع على منح المواطنة الفرنسية لكل أبناء المستعمرات ، وانتصر التمثيل ، مذهب الجمهوريتين الفرنسيين الاولين ، وتكريس « فرنسا ما وراء البحار » التي صعدت العروق والقارات كما في العالم الروماني القديم ، جدما الأصلي . إنه حلم جميل ، ولكن تحقيقه جاء بعد فوات الأوان . إن عالم ١٩٤٥ ذهب باتجاه معاكس نحو التفتت القومي . فمن ذلك أن النواب الجزائريين والمالغاشيين (من مدغشكر) رددوا صدى هذه النزعات الاستقلالية بأن الحميات ليست بمثلة . وكان الزوج انفسهم يريدون في آن واحد المشاركة في الجمهورية وإدارة قضاياهم الخاصة . وانقسمت الاحزاب الفرنسية ، وأدى دستور ١٩٤٦ الى تسوية ، حل وسط .

تقول الديباجة : « يتألف الاتحاد الفرنسي من أمم وشعوب تضع معاً وتنسق مواردها وجهودها لتنمية حضاراتها العائدة لكل منها وزيادة رفاهها وأمنها . » فالمساواة تبدو معلنة والتمثيل ملغى . وفي الواقع ، إن هذا التعريف لا يطبق مباشرة إلا على « الدول المشاركة » ، الحميات القديمة . « والجمهورية الفرنسية » التي تحتوي المستعمرات هي « واحدة ولا تنقسم » وذات قومية واحدة وبرلمان واحد . ومع ذلك ، فإن ممثلي المستعمرات التي أصبح اسمها « بلاد ما وراء البحار » ، ظلوا في باريس أقلية صغيرة ؛ وبالمقابل خولت لبلادهم مجالس تصوت على موازنتها الخاصة وتمارس رقابة على عدد من الأعمال الادارية . ويصوت البرلمان على تشريعهم من أجل المواد الهامة ، ولكنه ظل خاصاً ، وتخضع القرارات التي يتخذها إلى « جمعية الاتحاد الفرنسي » حيث كان المنسحبون سواسية مع مندوبي فرنسا الام . أما المستعمرات القديمة ، الموروثة عن النظام القديم ،

مثل مارتينيك وغوا ديلوب ، ريونيون ، غويانه ، فقد أصبحت وحدها
مقاطعات ماوراء البحار ، وتسير برمتها بالقوانين الفرنسية .

وبأخذ هذا النظام المعقد بعين الاعتبار في آن واحد العقائدات المختلفة
والحالات المتنوعة ؛ ويبدو أنه يرضي الجميع ، وقد خرج منه ماوراء البحار
مجدداً شبابيه ديموقراطياً ، وعلى ما يبدو ثابتاً متيناً . وفي الواقع ، ان
الدستور انتهى إلى أعداد نخبات من أبناء البلاد الاصلين للعمل السيامي
وأدى إلى الانفصال على مراحل .

ولقد رأينا ماتم لـ « الدول المشاركة » الثلاث في الهند الصينية .
فقد مثلت في جمعية (مجلس) الاتحاد التي كانت غير خيرة بكل مايتعلق بها ،
وفي « مجلس الاتحاد الاعلى » الدوري ، ومالبثت أن انساقت في تحرير
آسيا التام .

إن بلاد ماوراء البحار ، (T.O.M.) ، ببقية من العادة الفرنسية في
فرض وحدة هندسية على النظم كما هي الحال على الحداثى ، أخذت جميعاً
نظاماً واحداً : فقد بقي الحاكم ، ولكن تساعده جمعية خاصة بالبلد ،
تنتخبها ، عدا السنغال ، هيئة مزدوجة : من جهة الاوربيون ، ومن جهة
أخرى ، عدد من حملة الشهادات من « مواطني النظام المحلي » ، أي من
أبناء البلاد الاصلين .

وظلت بلاد أفريقية السوداء ، عدا ذلك ، مجمعة في أفريقية الغربية
الفرنسية (A.O.F.) وأفريقية الاستوائية الفرنسية (A.E.F.) ، واحتفظ
كل فريق بحاكم عام يساعده منذ الآن « مجلس أعلى » تسميه الجمعيات
الوطنية أي الجمعيات الخاصة بكل بلد . وكان الحزب الاشتراكي ، وهو فرع من
الـ S.F.I.O. (القطاع الفرنسي للاممية العمالية) يسيطر على السنغال . ولكن ،

في ساحل العاج ، المنافس تقليدياً ، انشأ الرئيس والطبيب هوفويت -
 بوانيي حزباً مستقلاً ، التجمع الديموقراطي الافريقي R.D.A. الذي
 تحالف مع الحزب الشيوعي والقي في كل افريقية كلمات الامر بمعارضة
 « الاستغلال الاستعماري » . وفي ١٩٥٠ ، بعد مشادات دامية ، تخلى
 التجمع الديموقراطي الافريقي ، بايحاء من الوزير ميتران عن التحالف
 الشيوعي وأخذ منذ الآن ينتشر بحرية في جميع البلاد . وهناك تجمع آخر ،
 مستقل ماوراء البحار ، وقد تألف بصورة موازية وباتجاهات استقلالية .
 وكاث زعيمهم سنغور يطالب بـ : « الجمهورية واحدة ولا تنقسم » ؛
 وسار التجمع الديموقراطي الافريقي خلفه . وأفاد النواب الزوج من
 عددهم ، المزايد رويداً رويداً ، ليحولوا مساندتهم البرلمانية لمختلف
 الحكومات الفرنسية ، مقابل تنازلات : زيادة سلطات مجالس بلادهم ،
 تناقص الهيئة المزدوجة وتوسيع الهيئة الانتخابية . وانتقلت الاكثوية على
 هذا الشكل من المدن المستعربة إلى الادغال التقليدية ، معجلة بذلك
 الانطلاق نحو الاستقلال الذاتي . وأسهم سنغور ثم هوفويت - بوانيي
 في الحكومة المركزية ، وألها بشكل عريض سياستها الافريقية .
 والاعتادات ، التي حولتها فرنسا بصفة « صندوق التوظيف والتنمية » ،
 F.I.D.E.S. ، صعدت ، من ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ ، إلى ٣٢٤ مليار فرنك .
 والبلاد المشاركة (بلاد تحت الرصاية) ، بلاد توغو والكامرون ، لم
 يكن سكانها مواطنين فرنسيين ، ولكنها كانت تعامل بالضبط كبلاد ماوراء
 البحار وتتبع نفس التطور .

ومدغسكر الواقعة بين افريقية وآسيا كانت تتابع حسب هواها
 تطور القارتين ، وقد كانت في القسم الاعظم منها موحدة قبل
 الحرب وبلغة واحدة وأعراف متقاربة جداً ، وكانت تنتخب نواباً استقلاليين
 لايرضهم نظام بلاد ماوراء البحار . وقد أسسوا حزب M.D.R.M. وما

في الادغال العوسجية . وفي ١٩٤٧ نشبت ثورة واتبعت بقمع . واختفت الحياة السياسية حتى ١٩٥٤ عندما حررت حكومة مانديس فرانس الموقف الفرنسي .

وأخذت المستعمرات الصغيرة المبعثرة نظام بلاد ماوراء البحار نفسه . وظهرت في تاهيتي وحدها حركة استقلالية ذاتية .

افريقية الشالية . - وضعت افريقية الشالية قضايا صعبة . وكانت للبلاد الثلاثة أنظمة مختلفة ، فقد كانت الجزائر مستعمرة مقسمة إلى مقاطعات ؛ وحافظت تونس و مراكش الدولتان المحميتان على ملكهما وعلى شيع من الحكم . وكان المعمرون الاوربيون ، وبخاصة الفرنسيون أكثرأ فيها : ١٦٠٠٠٠٠ ، منهم ١٠٠٠٠٠٠ في الجزائر وحدها ، مقابل ١٨٠٠٠٠٠٠ مسلم . وكانت الاختلافات الدينية والاخلاق والعادات وفي الغالب المستوى الاجتماعي تفصل الشيعين . ولم يشأ المعمرون التخلي في شيء عن تفوقهم : وظهرت في صفوف المسلمين حركات قومية .

وكان من اللازم أن تدخل المحميتان بشكل طيعي في الاتحاد الفرنسي بصفة دول مشاركة . ولكن لم يحدث شيء من ذلك . وعالجت قضايا كل منها وزارة الشؤون الخارجية والحكومة الفرنسية ، دون تدخل البرلمان .

تونس

كانت في تونس ، الاكثر عمرا وأحكاماً مدنياً منذ تاريخ طويل حركة قومية ، حركة الدستور . وقد أخذ فرع منها وهو حركة « الدستور الجديد » المكان الاول بفضل زعيم نشيط ومجدد ، الحبيب بورقيبة ، وساندته النقابات وحركات الشبية والصيغ الديمقراطية . وكان بورقيبة يرى تحميراً باتفاق مع فرنسا . ولكن اصلاحات ١٩٤٧ التي أوجدت الوزير التونسي

الاول ، وحكومة نصف - فرنسية ، نصف - تونسية تحت إشراف المقيم الفرنسي ، بدت تأتية في نظر القوميين . وفي ١٩٥٠ بدأت محاولة جديدة نحو الاستقلال . فأوقفها المعمرون . وثارت عصابات مسلحة وأخذت تقوم باغتيالات ، فاتبعت بقمع . ولم يكن بالامكان وجود حكومة تونسية . وهياً مانديس فرانس الحل ، في قرطاج ، في ٣١ تموز ١٩٥٤ ، بالاعتراف ، « دون فكرة خلقية » ، بالاستقلال الذاتي الداخلي ، مع موافقة بورقية . وعقدت المباحثات بين الطرفين .

مراكش . - وشهدت مراكش ، التي ظلت بعقيلة العصور الوسطى ، وقبائلها المائرة ، تشكيل حزب الاستقلال حديثاً على يد نخبة فكرية ، وتابعه السلطان محمد الخامس بعطف . وعندما القى السلطان ، في ١٠ نيسان ١٩٤٧ ، في طنجة ، خطاباً حياً فيه الجامعة العربية وطالب باتحاد أقسام مراكش الثلاثة : الفرنسية والاسبانية والدولية ، سميت الحكومة الفرنسية مقيماً عاماً عسكرياً . واضطر السلطان أن يشجب حزب الاستقلال وبعد حركة معادية قام بها زعماء القبائل بتوجيهه الجلاوي ، اضطر إلى التنازل عن العرش وأعتقل في مدغسكير ، وأصبح على هذا النحو شهيد القضية المراكشية . ولم يستطع خلفه بن عوفقة أن يتغلب على العداء العام وتعددت الاضطرابات . وفي آخر ١٩٥٤ ، فكر بدعوة محمد الخامس .

الجزائر . - وفي الجزائر عارض فريق المعمرين المسيطر على الاقتصاد والسياسة ، الاصلاحات . وكما في المستعمرات الاخرى ، أصبح الجزائريون ، بواقع دستور ١٩٤٦ ، مواطنين . وبعد أن كانت النخبات الفكرية المستغربة ، في السابق بمثلة ، انتقلت منذ الحرب إلى الحكم الذاتي وشهر زعيمها ، فرحات عباس ، ب « اقطاعية » المعمرين . وقامت حركة من أصل قضايا مصرنا (٣)

- ٣٤ -

كادح ، حركة مصالي الحاج تطالب بالاستقلال . وفي ١٩٤٧ صوت على نظام يتحول الجزائر مجلسا (جمعية) مؤلفا من قسمين : احدهما يتفوق فيه الاوربيون ، والآخر جزائري محض ، مع بداية سلطة تشريعية . ولارضاء المعمرين أفسد التطبيق بطب بانتخاب مرشحين « إداريين » . وأوقفت الاصلاحات الموعودة . ولم يعد المسلمون يشقون بالوعود الفرنسية وولوا وجههم شطر الجامعة العربية والعنف . وصرح فرحات عباس نفسه : « لا يوجد حل إلا الرشيش » . وتشكل فريق جديد مري للعمل المباشر . وفي ١٩٥٤ ، انعقدت « جبهة التحرير الوطني » F.L.N. في القاهرة وقامت بالكفاح المسلح في سبيل « الاستقلال القومي » و « تصفية نظام الاستعمار » .

المرحلة الثانية

١٩٥٥ — ١٩٦٥

بلوندونغ

برزت عن الجزر الاوربي أمم ناشئة وحاولت أن تقارب ضعفها على الصعيد الدولي في سبيل جبهة مشتركة . ومن آسيا ، المتحررة الاولى ، انطلقت المبادرة .

في ١٩٤٩ ، في دلهي ، جمع نغرو الآسيويين في موقف مشترك ضد التدخل الهولاندي في أندونيسيا . وفي السنة نفسها تألفت كتلة « عربية - آسيوية » في منظمة الأمم المتحدة ، وباشتراك ليبريا وأثيوبيا أصبحت فيما بعد

الكتلة « الأفرو آسية » . وفي ١٩٥٠ عقدت الفيليين في باغيو أول مؤتمر آسيوي . وفي ١٩٥٤ ، بعد تقسيم الفيت - نام ، افتتح مؤتمر في مانيدا بإيجاء أمريكي وانتهى إلى إنشاء منظمة معاهدة جنوب - شرقي آسيا للدفاع ضد الشيوعية الصينية ؛ واشتركت فيه الباكستان والتايلاند ، مع الفيليين ، والدول التي كانت مستعمرة سابقاً ، ودومينيونات أستراليا ونيوزيلندا ؛ وألحق بالمعاهدة « ميثاق المحيط الهادئ » ، ويذكر بمبادئ « المساواة في الحقوق وحق الشعوب في تقرير مصيرها » . وقبل بضعة أشهر عقد مؤتمر ، في كولومبو ، وضم الهند وأندونيسيا وبرمانيا ، وشجب الاستعمار باعتباره « انتهاكاً للحقوق البشرية الأساسية وخيانة لسلام العالم » .

وفي كولومبو التقى رئيس وزراء أندونيسيا ، ساسترو آميجوجو ، فكرة مؤتمر أوسع آسيوي جامع وأفرو-آسيوي . ولم تكن الصعوبات الداخلية في بلده وضرورة إرجاع جايه ونفوذه غريبة عن ذلك . وفي كانون الأول ١٩٥٤ ، قبل المبدأ في بوغور وثبت المقر في باندونغ ، أكبر مركز اصطياف في جزيرة جاوا ، « مدينة الأزهار » القريبة من البراكين . ودعيت بلاد الكتلة الأفرو آسية جميعاً . وأضيفت إليها اليابان والصين الشيوعية وتركيا وساحل الذهب ، وكان في طريق التحرير . ولم يدع إلى المؤتمر الاتحاد السوفياتي الذي يحتل نصف آسيا ، ولا إسرائيل .

وفي ١٨ نيسان ١٩٥٥ استقبل في باندونغ زعماء ٢٤ بلداً يمثلون مليارات ونصف المليار من الناس ، بحماسة ، وبخاصة نهرو ، وجمال عبد الناصر ، ولا سيما وزير الشؤون الخارجية الصيني ، شوان لاي . وافتتح الرئيس الأندونيسي ، سوكارنو ، الجلسة بقوله : « نعيش منطلقاً جديداً في تاريخ العالم » . وظلت خطابات مشاهير الرجال حذرة . ولكن مندوب العراق هاجم

بعنف في آن واحد الدول الاستعمارية «عدوفا القدر» ، والشيوعية «شكل جديد للاستعمار وأكثر شدة من الاستعمار القديم» . وأعربت باكستان وسيلان ، والتايلاند والفيليبين أيضاً عن حذرهما من الصين . وبشر شوان لاي ، الثبت الجنان ، بالاستقلال ، والتفاهم ، والتسامح ، وأكثر المجاملات ودعا خصومه لزيارة بلاده . ونجح في عمل مؤانسته ، بينما كان نهرو عنيفاً متسلطاً ، تثقلاً وخسر موقفه مرشداً .

وحاول البلاغ الحثامي ، في ٢٤ نيسان ، أن يوفق بين جميع النزعات والاتجاهات ، وبشر بالتعاون الاقتصادي والثقافي ، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ومناوئة العنصرية ، والغاء الاستعمار ، « باعتباره شراً يجب وضع حد له بسرعة » ، وبالسلم .

وأعلم عن مؤتمر في المستقبل ولكنه لم ينعقد . ولم تكن نتائج مؤتمر باندونغ في هذا النص العديم اللون ، بل في واقع اجتماع الشعوب غير الأوربية لمناقشة قضايا عالمها غير المجزء ، (أمية الفقراء) ، كما قال جمال عبد الناصر ، ورمم عمل مشترك . وأصبح الاستعمار ، وهو اتجاه بسيط مضطرب ، فكرة قوة لا تقاوم . حتى ان الدول الاستعمارية ، التي كانت تراقب مراحلها ، فقدت رويداً رويداً مبادتها . وأخذت عدوى الاستقلال تسري إلى افريقية .

وفي ٢٦ كانون الأول ١٩٥٧ ، دعا جمال عبد الناصر إلى مؤتمر القاهرة ليؤكد ، في التحام آسيا وأفريقية ، تضامن القارتين . ولم يكن هذا المؤتمر باندونغ ثانية . لأن كثيراً من البلاد لم تكن « ممثلة » إلا بمنفيين غير مندوبين ، وفيه أخذ الاتحاد السوفياتي المكان الأول . وهذه المظاهر الجديدة ، كزعيم جمال عبد الناصر في وضع نفسه مرشداً ، دفعت فيما

بعد البلاد السوداء إلى المبادرة بعقد مؤتمرات افريقية وتجمعات حسب
وجهات نظر موحدة وواقعية .

الآسيويات

أظهرت باندونغ بعض المعارضات بين الآسيويين . وشهد انبثاق
أخرى كلما نشأت عن التحرر من الاستعمار أمم جديدة . ونجابت
القوميات بقوة الشباب . وقامت منازعات حول أقاليم وحدود ، حتى
وأحياناً وضعت ، في الداخل ، قضايا شبه استعمارية للأقليات المضطربة .
كما أن تنوع المجموعة الآسيوية العظيمة من جغرافيا وعروق ، ولغات ،
وحضارات لم يساعدها ، من جهة ثانية ، على أي اتجاه نحو الوحدة .

وفي الكتلة الاسلامية في بلاد الجنوب الغربي ، لم تبق الوصاية
البريطانية إلا في الجنوب العربي ، القبلي والصحراوي . وفي تشرين الثاني
١٩٦٧ ، أعلن استقلال عدن ، وأخذت البلاد التي غادرت الكومنولث
اسم « جمهورية جنوبي اليمن الديمقراطية الشعبية » . ولم يتوصل العراقيون
العرب إلى الانتصار على الأكراد الثائرين دورياً في جبالهم . ولم تقبل
الباكستان بسيطرة الهند على كشمير الاسلامية ؛ وهدد الحلاف بالانفجار
غالباً . وأخفقت محاولات هنود الشمال لفرض الهندي لغة رسمية أمام معارضة
التاموليين الفخوريين بقدم لغتهم وثقافتهم . وفي ١٩٦١ احتلت المراكز
البوثنالية . ولم تعش برمائيا إلا بالتنازل عن الحكم الذاتي الواسع
للشعوب الاخرى من غير جنس في الاطراف المحيطة .

انرونيسيا

وكان على اندونيسيا التي يتقاتل فيها في الغالب القوميون ومسلمو اليمن

والشيوعيون ، أت تنتصر ، فوق ذلك ، على ثورات الاقليات في جزرها التي لا عدد لها ، في الملوك وسومطره . وان قوة الأمة ، مع اللغة الرسمية « باهاسا اندونيسيا » المشتقة من اللغة المالوية ، هي الجيش بخاصة . ولقد تحمست العاطفة القومية بالمطالبة بإيربانية الغربية (غينية - الجديدة الغربية) ، وقد ترك الهولنديون هذه الجزيرة المأهولة بشعب البابو اللانديسيين في ١٩٦٣ مع وعد بحق تقرير المصير في عام ١٩٦٩ . وعندئذ جاء هدف آخر للقومية يعرض عنها : فقد قرر الانكليز أن تتحد ماليزيا وسنغافوره ومحمياتهم في شمال بورنيو لتشكيل دولة جديدة ، ماليزيا ، (الملايو) ، وشهر سوكارنو بهذا الانشاء كؤامرة امبريالية ؛ وتشكلت فرق مغاوير أندونيسيين في دغل بورنيو واضطروا الانكليز إلى إرسال جيوش . وأخيراً ، في ١٩٦٥ ، عندما تشكلت الماليزيا (الملايو) اصطناعياً للتوازن بين الملاويين والصينيين ، فقدت سنغافوره ، التي أصبحت مستقلة .

وخرجت كمبوديا ولاؤس من الاتحاد الفرنسي دون قول كلمة ، وحاولنا الحفاظ على وجودهما بالحياة . وعاشت الفيت - نام الشمالية تحت نظام شيوعي دقيق رويداً رويداً . وفي الفيت - نام الجنوبية ، طلب نغو دينه ديم ، في ١٩٥٦ ، جلاء الجيوش الفرنسية التي حل محلها الأمريكيون . وانتشرت فيها الفوضى : فقد دخل البوذيون المعارضة ؛ وفي ١٩٦٣ ، قتل ديم وأُقلق تقدم الفيت - كونغ (الشيوعيين) الأمريكيين ، الذين وسعوا تدخلهم المسلح في ١٩٦٥ وقصفوا الفيت - نام الشمالية . وامتدت الحرب وما زالت قائمة .

وعلى نقيض مجموعات الغرب الاستعمارية استطاعت الامبراطوريتان الكبريان الروسية والصينية ، اللتان تحولتا بتعليم ستالين وقوة الحزب

الشيوعي ، أن تعيشا وأن تحققا تماسكاً متزايداً . فقد شاركت الجمهوريات الآسيوية في الاتحاد السوفياتي رويداً رويداً في الحياة السياسية والنمو الاقتصادي للمجموعة ، دون فتح أزمات قومية وعانى الصينيون كثيراً من المشقة مع التبت ، وظلت سيادتهم القديمة عليها نظرية ، حتى ان الدالاي - لاما الإله الحي ، زعيم ثيوقراطية (مشيئة) الرهبان التبتيين ، كاث يهرم بحرية معاهدات دولية . وان احتلال البلاد من قبل الجيوش الصينية في ١٩٥٠ قد اتبع بمحاولة تأنيس ، ولكننا أخفقت . وفي ١٩٥٩ التجأ الدالاي - لاما في الهند . وقامت « اللجنة التحضيرية للمنطقة المستقلة » تعمل تحت رئاسة البانشن لاما . ولكن المقاومة التبتية ، المغلوبة في ١٩٥٩ ، ظلت محسوسة . وفي ١٩٦٥ طرد البانشن - لاما وبدأ التشريك (جعل البلاد إشتراكية) التسلطي في تحويل البلاد . وفي غضون ذلك ، في ١٩٦٢ ، رفضت الصين حدود الهند في هذه المناطق وقامت بحملة عسكرية في جبال هبالايا . وكان الهياج عظيماً ، لا في الهند فحسب ، بل في العالم الثالث كله . وثلاً تظهر الصين بالمظهر الامبريالي أوقفت تقدمها مع الحفاظ على مزاعمها .

تحرير افريقية المراتب

كانت السنوات الخمس ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، في افريقية السوداء ، سنوات التحرير العظيم . لقد انتهت المستعمرات البريطانية في افريقية الغربية ، على مراحل ، إلى الحكم الذاتي ، وترك النظام الفرنسي الوجودي المكان لاتحاد فدرالي زال بدوره . وأخيراً ، وفجأة ، تحررت الكونغو البلجيكية ، وشهدت السنوات التالية طفولة الأمم الجديدة ، ولم يخل

ذلك من أزمات ، ولا سيما في الكونغو ، وتحرير البلاد ذات المعمرين في افريقية الشرقية . وفي ١٩٦٤ ، توصلت افريقية المدارية بكاملها تقريباً إلى الاستقلال .

غانا . - كانت غانا أول المستعمرات البريطانية التي تحررت . ففي استلم نكروما السلطة من قبل ، باتفاق تام مع الحاكم . وفي ١٩٥٧ ، حول الاستقلال . وتركت الأشكال الديموقراطية ، المنسوخة عن البرلمانية القديمة الانكليزية ، المكان بسرعة لنظام تسلطي وشبه مقدس . وحذفت المعارضة . ولم يفقد نكروما جاذبيته كطالب سابق وأصبح رسمياً « اوساجيفو » (الفادي) ؛ وكان الوليد الأول للاستقلال . ونصب نفسه زعيماً لافريقية . ولكن المصاعب الداخلية تعاضمت ، وطرده العسكريون نكروما ، في شباط ١٩٦٦ .

نيجيريا . - وغانا ، رغم تقدمها السيامي وثروتها بالكاكو ليست إلا بلداً صغيراً ، نفوسه ٦ ملايين نسمة ، إلى جانب نيجيريا الواسعة بنفوسها الـ ٥٥ مليون نسمة ووفرة مواردها . ومع ذلك ، فإن تنوع الشعوب النيجيرية ، باعتبارها نوعاً من هند افريقية ، جعل من الصعب على الانكليز تنظيم الاستقلال . والمناطق الثلاث المجزأة من قبل بحكومات متميزة نالت استقلالها في العام ١٩٥٦ . وبفضل تفاهم بين الاحزاب المسيطرة على مناطق الشمال والشمال الشرقي استطاعت الحكومة الفدرالية أن تسير وتعمل . وفي ١٩٦٠ ، أعلن الاستقلال في الكومنولث . وأصبح الزعيم المتحمس القديم ، آزيكويو ، حاكماً عاماً ، ثم ، في ١٩٦٣ ، رئيساً للجمهورية النيجيرية . وفي كانون الثاني ١٩٦٦ ، حدث انقلاب عسكري واستلم السلطة . وكانت مشكلة نيجيريا ، وهي خلق بريطاني ، تعايش شعوب

مختلفة جداً : مسلمون متسلسلون على طبقات في الشمال ، ومتطورون
فوضيون سابقون ، ووثنيون في الجنوب . وفي ١٩٦٧ ، حاولت شعوب إيبو
في الجنوب الشرقي الانفصال بإنشاء جمهورية بيافرا . وفي سيراليون ،
اختلف «الكريول» ، قدامى الأرقاء المعتوقين في القرن التاسع عشر
والمثانكلز ، مع شعوب الداخل الأفريقية الأفاج . وتغلب هؤلاء
بعددهم وخول الاستقلال في العام ١٩٦١ . وغامبيا الصغيرة نفسها
شهدت هذا الاستقلال بمنح لها في العام ١٩٦٥ .

أفريقية الشرقية . - وفي أفريقية الشرقية نجد أن أوغاندا ، التي
تشكلت بالقوة بتجمع عدة بمالك ، لم تنج من الانفجار إلا بفضل عناد
الانكلز . واستطاع النظام الفدرالي فيها أن يعمل ويسير ، وأعلن
الاستقلال في ١٩٦٢ .

كينيا . - بعد قمع ثورة الماو ماو ، طالب بالسلطة سلميياً نقابي
اسمه توم مبيوا . وعقدت مائدة مستديرة في لندن في كانون الثاني
١٩٦٠ ؛ ولاقى عناءاً في التغلب على معارضة المعمرين ، ولكن جناحاً
ليبرالياً بينهم انتهى بقبول مبدأ جمعية (مجلس) بأكثرية أفريقية وتصويت
موسع . وعندئذ قام النزاع بين الأفارقة : أنصار الوحدة ضد أنصار
اتحاد رخوا لا تكون فيه القبائل أكثرية . وانتهت مائدة مستديرة جديدة ،
في ١٩٦٣ ، إلى دستور حل وسط ، تسوية ، وإلى الاستقلال . وسحب
جومو كينياوا من السجن وأصبح رئيس الحكومة .

تانغانيقا . - وتغلبت تانغانيقا ، بفضل المهارة المتواضعة والصلابة
التي كان عليها يوليوس نيريري على مختلف الصعوبات . وانتصر حزبه

الذي يضم شعوباً لا تعد ، في انتخابات عام ١٩٥٨ التي وضع الانكليز لها نظاماً أصيلاً وهو نظام القوائم الثلاثية (الافارقة ، الاوربيين الآسيويين) . وفي ١٩٦١ ، خول الاستقلال . وعلى طول الساحل ، استقلت جزيرة زنجبار ، المحمية البريطانية القديمة ، في كانون الاول ١٩٦٣ . وبالحال أخذ الأفارقة ، الذين يؤلفون الاكثية ، يقتلون العرب الاقلية الموجهة منذ قرون وأعلنوا حكومة متعاطفة مع الصين الشيوعية . وفي ١٩٦٤ ، ذابت الدولتان معاً وأصبح نيريري رئيساً لجمهورية « تانزانيا » المتحدة .

اتحاد الروديسيتين ونياسالاند - بقيت تسوية مصير « الاتحاد الروديسيتين ونياسالاند » وهو من انشاء المعمرين ، وقد قامت ضده احزاب ونقابات أبناء البلاد الأصليين في البلاد الثلاثة . وفي ١٩٥٩ تفجرت الاضطرابات الدامية في نياسالاند . وعقدت الحكومة البريطانية عدة موائد مستديرة دون نجاح ولم تستطع الظفر على معارضة السير دوي ويلينسكي ، وهو سائق سابق لقاطرة بخارية ثم أصبح رئيس الاتحاد . وفي ١٩٦٣ ، قوي الضغط الانكليزي . وحل الاتحاد وخولت أولاً نياسالاند الاستقلال وأصبحت «مالاوي» ثم خولته روديسيا الشمالية وأصبحت «زامبيا» .

أما الجمهورية الفرنسية التي لا تنقسم فقد خضعت في أراضيها الافريقية إلى تغيير كامل . وذلك أن الفكرة الاتحادية قبل بها معظم السياسيين الزنوج ، وفي الوقت نفسه رأى كثير من الفرنسيين بعد الصحافي ويعون كادتيه أن التضحيات المالية التي يقدمها الوطن الأم لتنمية بلاد ما وراء البحار مفرطة . وأقنع الافارقة اليسار الفرنسي بالاستقلال ، كما قبل اليمين « الكاديريية » ؛ وهكذا شجب الجانبان التمثل .

توغو - وفي ١٩٥٥ ، أخذت توغو ، البلد المشارك ، نظاماً خاصاً ، مع حكومة منتخبة وضعت لدى الحاكم . وكان للخوف من جذب غانا ، المتحررة من قبل ، تأثير في ذلك . ولكن المثل مالبت أن تعمم في كل الحد الذي يسمح به دستور ١٩٤٦ . وتعاون هوفويت - بواني ، وزير الدولة ، مع ديفير وزير فرنسا الاشتراكي فيما وراء البحار ، لاعداد ، القانون - السكادر الذي صوت عليه في ١٩٥٦ ، والذي ينشئ « مجالس حكومة ، تنتخبها جمعيات « مجالس ، البلاد . وهكذا حصلت البلاد على سلطة تنفيذية ، لا على اتحاد فيدرالي . واحتج سنغور على هذه « البلقنة » في افريقية التي كانت ثأراً لساحل العاج من التفوق السابق للسنغال .

وفي رأي الافارقة ، لم يكن هذا الوضع الجديد إلا مرحلة . فقد ظل الحاكمون رؤساء مجالس الحكومات المنتخبة . وأراد بعضهم أن يظلوا حاكمين ، وآخرون ، في الواقع ، تركوا السلطة لنائب الرئيس ، زعيم الاكثريه . وعندما استلم الجنرال دوغول السلطة ، في حزيران ١٩٥٨ ، احتفظ بهوفويت - بواني في فريقه (جماعته) وقبل اتحادية لا يمكن اجتنابها . ووضع مشروع الدستور « أمرة » ، ويوجبه يمكن لكل بلد أن يحافظ على نظامه المندمج بالجمهورية الفرنسية أو أن يصبح جمهورية داخلية في الأمرة . وقام دوغول برحلة لتهيئة الاستفتاء على النظم الجديدة . واستقبل بحماسة في تاناناريف ، في برازافيل ، وعبيد جاب ، ولكنه لاقى في كوناكوي رفض سيكو توديه النقابي المتعاطف مع الماركسية ، كما لاقى ، في داكار ، أصواتاً معادية من قسم من الجمهور . ولكن مجموع البلاد عدا غينة أجاب « نعم » ؛ وأصبحت كلها جمهوريات مستقلة في « الأمرة » . غير أن بلاداً صغيرة جداً كالصومال والكمورور صرحت بالحفاظ على « الوضع الراهن » .

وزال اتحادا افريقية الغربية الفرنسية (A. - O. F.) وافريقية الاستوائية الفرنسية (A. - E. F.) ولم يستطع سنغورا الحفاظ معاً إلا على السنغال والسودان تحت اسم « الاتحاد المالي » . ولكن استقلال غينة والماركسية حركا الزعماء السودانيين . وانتظمت « الأسرة » بشكل ضعيف : فقد تألف مجلس تنفيذي من رؤساء جميع الجمهوريات بنعقد دورياً ، مع اشتراك وزراء الشؤون العامة (الدفاع والشؤون الخارجية ، والمواصلات ، الخ .) .

وفي الاجتماع السادس للمجلس التنفيذي في سان لوي - السنغال ، في كانون الأول ١٩٥٩ ، طلبت مالي « يقل صلاحيات الأسرة » أي عملياً الاستقلال . فقبل دوغول . ولم يقبل هوفويت - بواني أن يبقى في صف أدنى ، وانسحب من الأسرة متبوعاً بآخرين . وكانت هذه نهاية النظام .

وفي ١٩٦٠ ، أصبحت جميع الجمهوريات مستقلة ، ولم تعد الأسرة بالنسبة لبعضها إلا شكلاً للتحالف ، دون نظم مشتركة . وغدت « البلقنة » شاملة عندما انفصلت عرا اتحاد مالي نفسه في ١٩٦٠ وعادت كل من السنغال ومالي (السودان سابقاً) إلى حياتها المنفصلة الخاصة .

وهكذا توصلت المستعمرات الفرنسية إلى الاستقلال في نفس الوقت الذي توصلت اليه المستعمرات الانكليزية ، مع اختلاف الطرق . ولم يمنع هذا الاستقلال التعاون الذي عبر عنه من جانب فرنسا بمنع اعتمادات وارسال أساندة وفنيين . هذا وان الحياة البرلمانية ، في المجالس الفرنسية ، كالاسهام في مجالس البلاد وفي الفرق الوزارية الاولى ، قد ساعدت في خمسة عشر عاماً ، على تشكيل موجبين اعتادوا الأشكال الديموقراطية والمسؤوليات . وقد جمع زعماء الأحزاب قليلاً قليلاً حولهم الجماهير المتكاثرة ،

وعندما وصلوا السلطة ، نزعوا إلى دمج أو إلى بعثرة المعارضات لاهادة جمع شعوبهم وتنظيم بلدهم . وبين هؤلاء الرؤساء في الجمهوريات الجديدة ، كان سنغور في السنغال ، سيكوتوريه في غينة ، هوفوبت - بواني في ساحل العاج ، بوغاندا في جمهورية افريقية الوسطى ، تسيرافانا في مدغسكر ، معروفين أكثر من غيرهم في الخارج ، وكانوا أكثر تمثيلاً لشعوبهم ، كما كان تكوينهم الثقافي والسياسي فرنسياً .

ولكن التشكيل السياسي كان يعوز الكونغو البلجيكية . وهذا القلب « قلب الظلمات » العظيم ، كما كان يسميها جوزيف ككونراد ، يسكنه القليلي العدد ، البدائيين ، المتناثرين عبر الغابات والسباسب لم يكن له من وحدة غير الادارة البلجيكية التي تساندها الشركات الرأسمالية الكبرى والبعثات التبشيرية المسيحية . ولم تكن هذه السيطرة الأبوية لتتصور تطوراً سياسياً ، أو ترى في الديموقراطية التي تنشرها فرنسا منذ ١٩٤٥ في الجانب الآخر من النهر ، إلا طيشاً خطراً . ومع هذا فان أفضل تلاميذ البعثات ، من صغار الموظفين ، ومستغدمي التجارة ، ورجال الأعمال ، والتجار ألفوا نخبة ضعيفة مطالبة . وأسس أحدهم ، كازافوبو ، في ١٩٥٠ ، في ليؤبولد فيل ، حزباً اقليمياً ، الأباكو ؛ وأنشأ آخر ، لوموبا ، في ١٩٥٨ ، حزباً وحدوياً (الحركة الوطنية الكونغولية) مطبوعاً بطابع الجامعة الافريقية المتعاطفة مع الماركسية . وفي كانون الثاني ١٩٥٩ نشبت ثورة في العاصمة ونهبها الجمهور . وانتقل البلجيكيون فجأة من العجز السياسي إلى الوعود المتطرفة وبشروا بالاستقلال . وافتتحت مائدة مستديرة في بروكسل ظهرت فيها جميع المزايدات . وفي ٣٠ حزيران ١٩٦٠ أعلن الاستقلال ، بعد

انتخابات جعلت من كازافوبو رئيساً للجمهورية ولومومبا رئيساً لمجلس الوزراء .

وكان لعدم التميؤ للاستقلال الشبه التام نتيجة مباشرة وهي الفوضى . فقد ثار الجيش بعد سبعة أيام ، وغادر البلاد عدد من الأوروبيين دون أمن . ومزقت الانقسامات القبلية والعقائدية البلاد في كفاحات وحشية وفي حكومات مرتجلة . وأدى انفصال كاتانغا ، ثروة الكونغو المعدنية ، باجاء من موسى تشومبه ، إلى تدخل الأمم المتحدة . وقتل لومومبا ولم يستطع أحد إقامة حكم مركزي يعترف به الجميع . وقامت محاولات لاعادة البناء ، ولكنها اتبعت بأزمات دامية زادت الدعاية والأسلحة الأجنبية أواراً واشتعالاً .

وفي ربيع ١٩٦٤ ، بلغت الفوضى أقصاها . وقام تشومبه في باريس والعواصم الافريقية بدعاية شخصية كثيفة ، وأكثر الاتصالات ، وانتقد بشدة الجهاز الحكومي ، وبخاصة ، الجنرال موبوتو . وما زال هذا به حتى قدم له رئاسة مجلس الوزراء ، وفي شهر تموز دخل رئيس كاتانغا السابق العاصمة الكونغولية ظافراً ، ولم يدم حكمه أكثر من سنة . وفي تشرين الأول ١٩٦٥ ، خول موبوتو نفسه جميع السلطات . ولما رأى تشومبه حريته مهددة عاد وأخذ طريقه إلى المنفى ، ولم يتدخل ، مع ذلك ، عن الأمل بشار مدو ، وهياً في مدريد عودته إلى الكونغو .

فهل تجمعت ظروف الانقلاب ، عندما طار ، في ٣١ آب ١٩٦٧ ، على متن طائرة - تاكسي ، صحة أربعة من معاونيه ؟ وهل أحببت المؤامرة ؟ الثابت هو أن الطائرة ، بعد أن حطت مرتين في بالما وفي ايبيزا ، اقلعت في الاول من ايلول نحو الساعة ١٨ وأخذت

- ٤٧ -

طريقها نحو الجنوب ، واضطرت أن تعود إلى الأرض وان تحط على أرض بوفارق العسكرية ، على ٣٠ كيلو متراً من الجزائر العاصمة . وانتهت مغامرة تشومبه . وزج في السجن بأمر من الرئيس هواري بومدين ، الذي يبدو أنه قبل طلب موبوتو .

وبعد أن تحررت حكومة كينشاسا الكونغولية بهذا الرهن ، قامت باخضاع المناطق المنشقة وتقويم الحالة الاقتصادية والمالية . وأعقب هذه الدرامة الكونغولية الشك عن غير حق بالكفاءة الافريقية على التنظيم . وليس الكونغوليون مسؤولين عن تأخر التطور الواضح جداً . وفي ١٩٦٨ ، حصلت غينة الاستوائية على استقلالها بعد أن ظلت حتى ذلك الحين أرضاً اسبانية .

افريقية الشمالية والشمالية - الشرقية

تونس . - من بين بلاد المغرب الثلاثة ، شهدت تونس وحدها وضعها يدخل في تسوية تعاقدية . فقد نصت اتفاقات حزيران ١٩٥٥ على الانتقال التدريجي للصلاحيات وعلى بقاء التعاون . وبعد أن ظل الحبيب بورقيبة منقياً زمنياً طويلاً ، عاد ظافراً ، ولكن اعتداله أثار معارضة صالح بن يوسف الذي أنكر مؤتمر حزب الدستور عليه عمله ، فقام بأعمال الارهاب ثم فرّ إلى القاهرة . وساعد التطور السريع للقضية المراكشية بورقيبة على المطالبة بالانحياز . وفي آذار ١٩٤٦ ، اعترفت فرنسا باستقلال تونس . وأصبح بورقيبة رئيساً لمجلس الوزراء ثم رئيساً للجمهورية ، عندما أعلنت الجمعية (مجلس الأمة) سقوط الباي ، في تموز ١٩٥٧ ، وجمع جميع القوى السياسية والنقابية في داخل حزب الدستور الجديد ، وقام بحذف

الانظمة المتبقية عن العصور الوسطى كتعدد الزوجات ، وانحطاط المرأة ، ومراعاة الصوم في رمضان ، ولم ينج بعمله هذا من المهاجمة واتهامه بالتجديف في أمور الدين غير أن الاهتمام بالحفاظ على شعبيته وامتداد الحرب في الجزائر ، حيث كان التونسيون يساعدون حوكمة التحوير الوطنية ، أدبا الى عدة أزمات في العلاقات الفرنسية - التونسية .

ففي ١٩٥٧ ، علقت فرنسا المساعدة المالية . وفي شباط ١٩٥٨ قصفت الطائرات الفرنسية قرية ساقية سيدي بن يوسف التونسية بصفة أعمال انتقامية ، فأثارت تظلم بورقية الى منظمة الأمم المتحدة وطلبه بالانسحاب الكامل للجيش الفرنسية . وفي ١٩٦١ ، هاجم التونسيون قاعدة بنزرت الفرنسية فأدى ذلك الى رد دام . وأخيراً تدخلت اتفاقات للجلء عن بنزرت واستئناف العلاقات الدبلوماسية . ولكن اقتصاد تونس الفقير اضطرها الى الحفاظ دوماً على الاتصال بالغرب ، مع انضمامها الى الجامعة العربية ، ومثل فيها العنصر المعتدل .

مراكش . - واذا سهلت الاتصالات السابقة بتركيا ، والبورجوازية المثقفة في المدن ، وإدارة بورقية الطالب الباريزي سابقاً ، التطور الحديث في تونس ، فإن مراكش ، باستقلال قبائلها الجبلية ، ومدنها التقليدية ، وتاريخ تحويلات ليوتي الحديثة العهد ، واحترامها للسلطان ، الزعيم الديني والرابطة الزمنية الوحيدة ، تبدي منظوراً قديماً أخنى عليه الدهر . إن النخب الدينية والفريق المستغرب الصغير ، اللذين يوجهان حزب الاستقلال ، استخدمما نفي محمد الخامس كخميرة للقومية . فقد تعممت الاضطرابات حتى ان الحكومة الفرنسية اضطرت ، في آب ١٩٥٥ ، الى اطلاق مراح السلطان من منفاه . وبعد مروره بفرنسا ومناقشات على نظام مستقبل مراكش ، عاد ، في تشرين الثاني ، في روعة الحماسة الشعبية .

وقدم الجلاوي نفسه خضوعه . وفي آذار ١٩٥٦ ، اعترفت فرنسا باستقلال مراكش . وقام السلطان عندئذ بمفاوضات أدت ، في السنة نفسها ، الى تخلي اسبانيا عن الريف المراكشي والى الغاء نظام طنجة الدولي . وهكذا ، شهدت مراكش وحدتها الأرضية تعولها ، في وقت فسحت الانقسامات القبلية القديمة المجال الى التنظيم الوحدوي وتوفي محمد الخامس في ١٩٦١ . وخلفه ابنه البكر تحت اسم الحسن الثاني ملكاً على مراكش وزعيماً زمنياً لشعبه . وقد حاول هذا الأمير الشاب ، المربى حسب الانظمة الغربية ، أن يجعل من بلاده دولة حديثة مع تركيز السلطة في يده . ورغم انضمام مراكش الى الجامعة العربية ، فقد عرفت ، في كل حين ، كيف تحافظ على علاقاتها الطيبة مع فرنسا ومع الولايات المتحدة وتقبل منها مساعدة جوهرية .

الجزائر . - في عام ١٩٥٤ ، دخلت الجزائر الحرب ضد فرنسا ، وقسمت « جهة التحرير الوطنية » البلاد الى ولايات مستقلة ، فرق صرية عسكرية وإدارية معاً . وفي آب ١٩٥٥ ، أدى قتل المعمرين المنظم في شمال قسنطينة الى أعمال انتقامية امتدت الى السكان المدنيين . وتعمقت الوحدة بين الاوربيين والمسلمين . واستولى الفزع على انصار الحل المعتدل فشايخوا القومية الجزائرية . وكان المعمرين ، بايحاء من الحاكم العام سوستيل ، ببشرون بعد فوات الأوان بسياسة « الدمج » التي أطرحوها في الزمن الذي كان من الممكن أن تكون قابلة للحياة . وفي فرنسا ، تطورت حكومات اليسار باتجاه معاكس ونزعت الى الاعتراف بـ « الشخصية الجزائرية » . وجاء غي موليه الى الجزائر ، في ٦ شباط ١٩٥٦ ، فشم ، وتأثر بالمتطرفين الاوربيين . وزيد المجهود العسكري قضايا مصرنا (٤)

وأتم بـ « البحث عن العناصر المناوئة من السكان والقبض عليها » . فأجابت « جبهة التحرير الوطنية » بتنظيم أصولي وارهاب مدني أدى الى رد دراكوني في الجزائر العاصمة ، في ١٩٥٧ . ومع ذلك فقد كانت البلاد العربية تحاول البحث في القضية الجزائرية في كل عام في الامم المتحدة . وطلبت الحكومة الفرنسية من المجلس التصويت على تسوية تمهيء بعض « الشخصية » لجزائر مقسمة الى أقاليم مستقلة تبدو موجهة لتقسيم أرضي ، فأثارت غضب كل من المعسكرين ، في شباط ١٩٥٨ ، وتشكلت فرق « نشيطة » اوروبية للقيام بأعمال العنف .

وفي ١٣ أيار ١٩٥٨ ، احتل النشيطون الحكومة العامة وألقوا « لجنة السلام العام » . وتنازلت الحكومة الفرنسية والجمعية الفرنسية وفادتا الجنرال دوغول . وفي ٤ حزيران ، جاء هذا الى الجزائر والقي من ميدان المدينة على الثوار كلمته الشهيرة « فهمتمكم » . وفي الواقع ، رفض الدمج وحاول صيغاً مختلفة ، وخوات « خطة قسنطينة » اعتمادات عظيمة للتقدم الاقتصادي ؛ وعرض « سلام الشجعان » ؛ وأخيراً « حق تقرير المصير » ، في ١٦ ايلول ١٩٥٩ ، بعد أن نجح بالضبط من تصويت معاد في الامم المتحدة . وفي كانون الثاني ١٩٦٠ ، قرر نشيطو الجزائر أنهم خينوا ، وهاجموا الدرك ، حرس الامن ، وأقاموا المتاريس خلال اسبوع . وجرت مفاوضات مع « جبهة التحرير الوطنية » انتهت بالاخفاق في مولن ، في حزيران ١٩٦٠ ، ثم عقدت في ايفيان ، في أيار ١٩٦١ ، بعد محاولة حركة عسكرية في الجزائر العاصمة ، في نيسان ١٩٦١ . وبدأت المفاوضات صعبة . ومع ذلك فقد قتل نشيطو « منظمة الجيش السري » الموظفين ، وطبقوا « طرد العربي » ، وقاموا باغتيالات بالقبلة في فرنسا نفسها ، دون أي نتيجة إلا تحويل الرأي ضدهم ، الذي

طلب السلام . وفي ١٨ آذار ١٩٦٢ ، أبرمت أخيراً اتفاقات ايفيات معترفة بسيادة الدولة الجزائرية ، مع بعض الضمانات للاوربيين . ولكن الحالة فسدت من جديد بعدة اغتيالات من منظمة الجيش السري (O.A.S) ، ورد من جهة التحرير الوطنية ، والدعر عند الاوربيين وهجرتهم الكشيفة . وفي الاول من تموز جرى استفتاء نظم بموجب الاتفاقات واختار الجزائريون الاستقلال بكثافة . ولم يسد الاتفاق بينهم ، مع ذلك ، على الشكل النظامي الذي ستبناه الدولة الجديدة . وتفاقم الاضطراب بمناسبات الاشخاص . وأخيراً ، حذف الوجهاء والثوريون القدامى ، من أمثال فرحات عباس ومصالي الحاج ، لصالح محاربي جهة التحرير الوطنية و « شهداء » الحركة . واسندت رئاسة الجمهورية الجزائرية الفتية الى أحد هؤلاء الاواخر ، احمد بن بلا . ودام حكمه قليلاً . وفي ١٩ حزيران ١٩٦٥ ، عزله انقلاب عسكري من وظائفه وأجبره على الاقامة المراقبة في منطقة بليدا ، وأخذ مكانه الكولونيل هواري بومدين قائد الجيش ومنظم الحركة .

وظلت المعونة الفرنسية الثقافية والفنية والمالية مقبولة في الدولة الجزائرية الجديدة ، التي صنعتها الحرب ، والمتسلطة والمتجهة صوب العروبة وصوب الاشتراكية الفلاحية .

وزالت الامبراطورية الايطالية ، من جانبها ، مع الحرب ، وارجع استقلال اثيوبيا ، وتخلت ايطاليا عن مستعمراتها السابقة : ليبيا ، اريترة والصومال . ولاقى أعضاء منظمة الامم المتحدة عناء في الاتفاق على تقرير مستقبلها . فقد احتل الانكايين ليبيا الشالية ، والفرنسيون فزات ، واستقبلت البلاد الامير السنومي ملكاً . وأعلن استقلال ليبيا في ١٩٥١ .

وعاشت ، باعتبارها جزءاً من الصحراء الكبرى ، على المساعدات الانكليزية والامريكية حتى اكتشاف البترول .

وأصبحت اريتريه ، في ١٩٥٢ ، دولة متحدة مع اثيوبيا ، التي ضمتها في عام ١٩٦٠ . وعهد بالصومال الى الوصاية الايطالية التي أمنت تطورها الاداري والسياسي . وأعلن الاستقلال في ١٩٦٠ والتحق بها الصومال الانكليزية . وطالبت الصومال بالاراضي المأهولة بالصوماليين في جميع البلاد المجاورة ؛ ولكنها في القسم الاعظم منها صحراوية ، وتتوصل الى العيش بمشقة .

وتحررت مصر تماماً من الاحتلال البريطاني ، ولكن شعبها ، المفرط في زيادته والبائس ، يتطلب جهوداً مكلفة للتصنيع . ولما لم ينل الرئيس جمال عبد الناصر اعتمادات غربية ، لبناء سد أسوان ، قرر تأميم قناة السويس ، في تموز ١٩٥٦ . وفي ٢٩ تشرين الأول ، هاجمت الجيوش الاسرائيلية المصريين واحتلت سيناء وتوصلت لحافة القناة . وفي ٥ تشرين الثاني ، نزل جيش حملة فرنسي - انكليزي في بورسعيد وتدخلت منظمة الأمم المتحدة ببادرة اتفاق عليها بين موسكو وواشنطن ، وفرضت انسحاب جميع القوات الأجنبية من مصر . واستعاد جمال عبد الناصر أرضه وحافظ على ملكية القناة . وفي شباط ١٩٥٨ ، ذابت مصر وسورية في « الجمهورية العربية المتحدة » ، ثم انسحبت منها سورية فيما بعد ، ولكن مصر حافظت مؤقتاً على ، اسم « الجمهورية العربية المتحدة » (ج . ع . م) وهي أيضاً مقر الجامعة العربية ، وتدخلت في اليمن لدعم الحركة الجمهورية . والغيث التسوية الانكليزية - المصرية بشأن السودان في الفاتح من كانون الثاني ١٩٥٦ وأعلن استقلال السودان . وفي

السودان نفسها وضع حكم الجنوب النيلي والوثني ، من قبل مسلمي الشمال ، قضية مع ما يلزمها من ثورات وقمع ، وما زالت هذه القضية شائكة ولكنها في طريق الحل .

وفي الشرق الأوسط ما زالت اسرائيل دولة معتدية على حق عرب فلسطين بأرضهم . وفي ربيع ١٩٦٧ حاصر الرئيس جمال عبد الناصر خليج العقبة ومنع البحر الاحمر عن الملاحة الامرائيلية وأبرم اتفاقاً عسكرياً مع الاردن . وفي ٥ حزيران هاجمت اسرائيل البلاد العربية المجاورة : مصر وسورية والاردن وسجلت في ستة أيام نصراً على جميع الجبهات ، واحتلت سيناء حتى قناة السويس ، والضفة الغربية لنهر الاردن ، والقطاع العربي في القدس ، ومرتفعات الجولان في سورية المشرقة على بحيرة طبرية ، والأراضي الزراعية الخصبة التي تحيط بها .

التجمعات افرريقية والمقاومات البيضاء

ليست القارات إلا تعبيراً جغرافياً يغطي وقائع مختلفة جداً ولعلها تكون مصنوعة لتحريك العواطف الجماعية . ولذا فإن الوحدة الافريقية (الجامعة الافريقية) ، التي أنشأها الحلامي الامريكي دوبوا ، الذي دعا خمسة مؤتمرات من ١٩١٩ إلى ١٩٤٥ ، تتوجه إلى زئوج القارات الخمس في العالم . ومثل ذلك فكرة « الزنجية » التي أطلقها الانتيلي سيزير . وكذلك الجامعة العربية التي تأسست في العام ١٩٤٥ تضم بخاصة الشعوب الناطقة بالعربية من افرريقية الشمالية وجنوب - غربي آسيا . وبعد مؤتمري باندونغ والقاهرة أخذت فكرة الجامعة الافريقية شكل قارة متناظرة مع آسيا . وعقدت عدة مؤتمرات ضمت ممثلي الدول المستقلة في افرريقية البيضاء والسوداء ، ومندوبين ، متطرفين عموماً ، عن الشعوب التي ما زالت

مستعمرة ؛ ومن هنا خرجت الشدة المناوئة لفرنسا في مؤتمر اكروا الاول ، في نيسان ١٩٥٨ وشجب المؤتمرات التي تلتها لبقايا الاستعمار ، وبخاصة العرقية في جنوبي افريقية . ونوجت الحركة في أدبس - أبابا في أيار ١٩٦٣ . وحضر رؤساء الدول الافريقية المستقلة بما يشبه الاجماع شخصياً هذا المؤتمر . وافترقوا بعد أن أنشأوا « منظمة الوحدة الافريقية » التي تقتضي احترام الحدود المتبادلة ، والتحكيم في حالة خلاف ، والانعقاد السنوي وأمانة عامة .

هذا وان سعة وتنوع القارة وكذلك الاتجاهات العقائدية للدول قد أبقّت على الأقل تجمعات ضيقة . وكان اتحاد مالي الفيدرالي واتحاد غانا - غينة - مالي مؤقتين ، ولكن فريقي مونروفييا (عاصمة ليبيريا) والدار البيضاء ، الأول نصير غربي ، والثاني أقل منه ، داما عدة سنوات . وقد أسس الاعضاء الناطقون بالفرنسية ، في الفريق الأول ، الاتحاد الافريقي والملاغاشي لعمل دبلوماسي مشترك ؛ ثم زال هذا الاتحاد عند انشاء « منظمة الوحدة الافريقية » ، ولكنه عاد فتأسس في ١٩٦٤ تحت اسم « المنظمة المشتركة الافريقية والملاغاشية » (O. C. A. M.) . ويوجد أيضاً تفاهم اقليمي محدود ، مثل « تفاهم » شاطئ العاج - فولتا العليا - داهومي - نيجر ، والتعاون الاقتصادي لدول افريقية الاستوائية الفرنسية سابقاً والكمرون ؛ وانشى « اتحاد دول افريقية الوسطى » (كونغو - كينشاسا ، تشاد ، جمهورية افريقية الوسطى) ، في نيسان ١٩٦٨ . وبقيت الجامعة العربية مع تبعيتها للقارتين آسيا وافريقية .

ومع هذا فلم تبلغ بعد الجامعة الافريقية ولا حركة الاستقلالات

جنوب افريقية . وأصبح اتحاد جنوبي افريقية صخرة مقاومة المعمرين البيض . وتواصل هؤلاء ، وعددهم ٣ ملايين ، منذ قرون ، ويزعمون الاستمرار في حكم أكثر من ١٠ ملايين زنجي ، في معظمهم كادحين ومحرومين من الحقوق السياسية . ونظم الفصل العرقي المطلق في مذهب سياسي الدولة تحت اسم « التمييز » ، وأدى إلى تشكيل بعض « باتوستان » ، أقاليم مأهولة بالزنج ولها وزارات ، تحت رقابة الحكومة . وظلت احتجاجات الدول الافريقية والثورات الداخلية وشجب منظمة الأمم المتحدة (٧٨ من أجل جنوب - غربي افريقية وحده ، الذي توجهه افريقية الجنوبية) دون مفعول . وأصبح الاتحاد جمهورية في ١٩٦٠ وانفصل عن الكومنولث في ١٩٦١ . وقد وضعه تصنيعه ودخله القومي بوضوح جانباً بالنسبة للدول الافريقية الأخرى .

ونضم لوديسيا الجنوبية ، التي أصبحت لوديسيا ، ما يقارب عشر سكانها من الاوربيين ، ومعظمهم ولد في افريقية ، وقد خوات منذ ١٩٢٣ استقلالاً ذاتياً واسعاً وظل المعمرين يسيطرون عليها . وبعد قطيعة الاتحاد الفيدرالي ، رفضت توسيع التصويت الذي أرادت انكلتوا أن تفرضه عليها ، وفي ١٩٦٥ أعلنت جانبياً استقلالها .

وحافظت الحكومة البريطانية على ثلاثة مناطق في اتحاد جنوبي افريقية وهي : بتشوانالاند ، باسوتولاند ، سوازيلاند التي أصبحت مستقلة من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٨ تحت اسم بوتسوانا و ليسوتو من أجل المنطقتين الاولى والثانية .

ورفضت البرتغال ، من جانبها ، الدخول في طريق الانفصال عن مستعمراتها : غينة البرتغالية ، انغولا ، موزامبيق . وقامت منازعات

- ٥٦ -

مسلحة، في المستعمرتين الاولى والثانية ، من قبل المنظمات الافريقية المحلية ، مع ردود فعل شديدة جداً من قبل الجيش البرتغالي المتزايد تدريجياً . وكان مبدأ حكومة سالازار يقصد أقاليم برتغالية صغيرة . وفي الواقع، لم يس التمثيل السيامي إلا قسماً ضعيفاً من السكان .

أوربي ، امريكي ، اوقيانوسيا

إذا كان المستعمرون في الغالب بيضاً فيوجد مستعمرون بيضاً أيضاً . إن مالطة المستعمرة الانكليزية منذ بونابرت طالبت في العام ١٩٥٣ بنظام الدومينيون وأصبحت ، في ١٩٥٢ ، دولة عضواً في الكومنولث وأعلن استقلالها في أيار ١٩٦٤ . وإن جزر الدوديسكاليز ، التي كسبتها ايطاليا في ١٩١٢ ، عادت الى الوطن الام ، اليونان ، في ١٩٤٨ . وجزيرة قبرص التي ضمها دزرائيلي ، لم يكن لها نفس المصير بالرغم من مطالبات اكثريتها اليونانية والاضطرابات المسلحة المتكررة دون انقطاع فقد عارضت الاقلية التركية والجيش الانكليزي في ذلك ، وأدت اتفاقات بين البلاد الثلاثة ، في ١٩٥٩ ، الى تبني الاستقلال مع مشاركة الاقلية في الحكومة التي لم تمنع قيام الحلاف . وفي كندا المستقلة ذاتياً والمزدوجة اللغة رأت الاقلية الفرنسية نفسها متصاغرة فطالبت باستقلال (كيبيك) . وأصبحت آلاسكا ، في ١٩٥٨ ، الولاية التاسعة والاربعين في الولايات المتحدة .

وتضع بعثرة جزر الآنتيل قضايا سياسية صعبة . فقد أصبحت بورتوريكو ، منذ ١٩٥٢ ، دولة حرة مشاركة للولايات المتحدة . وأصبحت الآنتيل وغويانه الفرنسية ، بناء على طلبها ، في العام ١٩٤٦ مقاطعتين ، ولكن حركة استقلالية ظهرت فيها مقلدة الآنتيل البريطانية:

واستطاعت انكلترا ، في ١٩٥٨ ، أن تجمع الآنتيل البويطانية في اتحاد ما لبث أن انفجر ، بعد أربعة أعوام ، الى مجرة استقلالات ذاتية مربعة العطب ضعيفة . وتحورت كذلك غويانة الهولندية وكراساو . وفي امتدادات المحيط الهادي المترامية الاطراف لم تساعد البعثة اللا متناهية للارخبيلات الصغيرة على إشادة دول مستقلة يمكن أن تعيش . الا أن ارخبيلات ساموا وحدها استقلت في ١٩٦١ . وقسمت غينة - الجديدة (ايربانه) بين اندونيسيا واستراليا . أما كاليدونيا - الجديدة وقاهيتي فيها بلاد ما وراء البحار بالنسبة للجمهورية الفرنسية . وأصبحت هاواي الولاية الخمسين في الولايات المتحدة . وظلت كثير من الجزر مستعمرات أو مناطق احتلال . ولم تظهر أي حركة بولينيزية جامعة أو ميلانيزية جامعة . وبدأت اساءة استعمال الاستقلالات المتناهية في الصغر وغير القابلة للحياة تتلاءم بصعوبة مع ما يتطلبه العالم الحديث من دولة .

نتائج اللا استعمار

نهضة الامبراطوريات والاطوان الأمم

ماذا بقي في عام ١٩٦٨ من الامبراطوريات الاستعمارية ، من هذه البقع الملونة بألوان الاوطان الأم التي كانت ، في ١٩٣٩ ، تحتل مكاناً واسعاً على الكرة المسطحة ؟ إن الجواب بـ "لا شيء" ، مبالغ فيه . وإذا نظرنا الى الخارطة وجدنا أن الجزر واسع ، ولكنه غير شامل . والخارطة نفسها تطلب أن تفسر ، لأن الانظمة الجديدة ، في البلاد التي بقيت تابعة ، قد تحولت بصورة عميقة .

فالامبراطورية البرتغالية ، بالرغم من أن المستعمرات سميت « أقاليم » بقيت أقرب الى النظام الاستعماري القديم ، وهي تهاجم في آن واحد في الداخل من قبل الانصار المسلحين ، وفي الخارج بشجب اجماعي من البلاد المستقلة ، ولكنه في الغالب لفظي . والوضع العسكري الحالي يبدو راكداً .

والجموعتان الكبيرتان الوحيدتان اللتان بقيتا على صلات قوية هما : من جهة ، الاتحاد السوفياتي ؛ ومن جهة أخرى الصين وملحقاتها . فقد بقي فيها النظام الاستعماري . وحلت محلها استقلالات حكومية وثقافية . ولكن الوحدة قوية بدكتاتورية الحزب ، والانظمة المشتركة ، وتنفيذ الخطط الاقتصادية والمبادلات في شبه قارة واسعة اكتفائية . وهذا النظام التسلطي ، الذي يحمل دفعة ستالين كانت نتيجته انتزاع آسيا الوسطى بقوة من عصرها الوسيط الاقطاعي أو القبلي وتجهيزها بعناصر حياة جديدة .

وليس الكومنولث أكثر من شبح للامبراطورية البريطانية . لقد بقيت كندا وأستراليا وزيلاندة - الجديدة ملونة بلون الورد وظلت الملكة سيدة لها ، ولكن هذا الرمز المخفف للاصول مازال يثير غضب الكثير من الكنديين الفرنسيين ؛ لقد بحث كندا الاتحاد الجاكي (علم المملكة المتحدة) من علمها لتنيب عنه ورقة شجرة الجيرممشق أو القيقب . وفي الواقع ، ان البلاد الثلاثة لها حكومتها الخاصة وسياستها المستقلة . وقد تحرر باقي الامبراطورية كله عدا بعض الغبار من الجزر ونقاط الاستناد . وبقي العدد الاكبر من الجمهوريات المستقلة في الكومنولث بشكل طوعي ، وبالرغم من أنها تسلك سياسات مختلفة وأحياناً متعارضة بالسلاح ، كما هي حال الهند والباكستان ، فقد حافظت على عادة النادي البريطاني ، ولا تخلو هذه الاتصالات الدورية من فائدة .

وزالت « فونسا ما وراء البحار » بتمامها تقريباً . ولم يبق إلا بعض أراضي صغيرة ، بعضها مقاطعات من نوع الوطن الأم : مارتينيك غواديلوب ، الاتحاد (ريونيون) ، غويانة ، والأراضي الأخرى مستقلة : مثل القديس بطرس - و - ميكلون ، أراضي الآفار والابساس الفرنسية ، (وهو اسم أطلق على شاطئ الصومال الفرنسي في ١٩٦٧) ، الكومور ، كاليدونيا - الجديدة ، بولينزيا الفرنسية . ولما لم تستطع هذه المقاطعات والبلاد فيما وراء البحار أن تعيش حياة مستقلة فقد أفادت على هذا النحو من الخدمات والموازنات الفرنسية .

واطرحَت الولايات المتحدة أو امتنعت بعض مستعمراتها القديمة . وشهدت بلجيكا والبلاد المنخفضة وإيطاليا واليابان انحاء امبراطورياتها تماماً على الحارطة . والمواقع النادرة التي مازالت اسبانيا تمسك بها بعدد على الشاطئ الأفريقي هي مستقلة ذاتياً أو شبه خالية من السكان .

والقارة المتجمدة الجنوبية نفسها ، التي بدأت بقعتها العظيمة البيضاء غير البشرية تتلون ، على أطرافها ، بالوان الاوطان الام المختلفة ، قد حيدت باقفاق دولي وفتحت للبحث العلمي وحده .

إذن لقد انتهى العصر الاستعماري . فما هي نتائج هذا الحمران بالنسبة للاوطان الام ؟ لقد تصور لينين ثورة واسعة مسلحة تكون نتيجتها الهامة والاساسية دمار الدول الاستعمارية والعالم الرأسمالي . وفي الواقع ، ان الانعتاق ، باستثناء بعض الاحوال وحرب الهند الصينية والجزائر ، قد تم على الاكثر بصورة سلمية . ومن جهة أخرى ، إذا خسر بعض مواطنها وظائف أو ملكيات فلا يبدو أن الاوطان الام في مجموعها ، قد شكت من ذلك بشكل عظيم وملحوظ . ذلك لان ازدهارها قائم على عملها وعلمها وتنظيمها ومواردها الخاصة وأقل بكثير مما

يظن على مستعمراتها . حتى ان هذه المستعمرات ، مع خطط التنمية ، تنزع لان تكون أعباء . أما وقد تحررت الاوطان الام من د حمل الانسان الابيض ، فبإمكانها منذ الآن أن يكون لها اتجاهات مختلفة ومتنوعة .

لقد تخلصت الدول ، فرنسا ، بلجيكا ، البلاد المنخفضة ، إيطاليا ، ألمانيا من مستعمراتها واستطاعت أن تندمج في السوق الاوربية المشتركة وبسهولة أكثر من انكثروا التي مازالت منهكة في تبعيتها للكمونولث هذا ولم تنقطع الصلات بين الاوطان الام الاوربية القديمة وبناتها فيما وراء البحار ، وإنما اتخذت طابعاً حراً وتعاقدياً . ولا شك في أن المساواة ليست إلا اسطورة بين الاوطان الام السابقة الغنية برؤوس الاموال المتراكمة منذ عصور والتقنيات المتحسنة الكاملة ، والمستعمرات السابقة التي انسحبت منذ قليل من حالة التخلف والتي مازال مستوى حياتها العام ضعيفاً . ومن هنا خرج التعبير « الاستعمار الجديد » الذي استعمل أحياناً بشكل مبيء لوصف العلاقات الجديدة . وفي الواقع ، ان « الاستعمار زال مع السيطرة ؛ ولم يبق إلا الرأسمالية والعلاقات التجارية ومساعدة الموازنة والمؤثرات السياسية والثقافية . وإن الدول الجديدة تستطيع أن توسع أو أن تضيق أهميتها تبعاً لمنافعها وحسب ظروف حملها وهي في الغالب صعبة .

قضايا المنهربين من الاستعمار

في البلاد التي كانت في السابق دون وحدة وذات بيئة قديمة ، ثم أبت عليها الادارة الاستعمارية ، لم يكن الاستقلال ، في الواقع ، إلا نقطة انطلاق ؛ فقد خول السماح وتقريباً الالتزام بإنشاء دول حديثة تنزع إلى اللحاق بمستوى القرن العشرين . ومن هنا خرجت عدة قضايا .

الحدود . - لقد كان لدى الدول الناشئة في الغالب من الحكمة ما لم يجعلها تجادل في الحدود الموروثة عن الاستعمار ، بالرغم من أن هذه الحدود كانت نتيجة صدف التقدم الكشفي أو العسكري . حتى ان المنازعات لم تثر تغيرات حاسمة : (مراكش - موريتانيا ، الجزائر - مراكش ، الصومال - اثيوبيا ، الهند - الباكستان ، اندونيسيا - الملايو) . وان تدخل منظمة الامم المتحدة أو منظمة الوحدة الافريقية أو الدول المعنية قد ساعد حتى الآن على الحفاظ بسهولة على الوضع الراهن .

الوحدة . - وهذه الحدود الاستعمارية تجمع في الغالب بلاداً عظيمة الاختلاف من الوجهة العرقية واللغوية والتاريخية . فكيف يكون الحفاظ على هذه الابنية الغريبة اللامتجانسة عند ذهاب السيد المشترك ؟

لقد كانت قضية الوحدة القضية الملحة أكثر من غيرها . وقد لاقت الهند عناء ومشقة في التغلب عليها واضطرت أن تقبل بـ « فصل » الباكستان . واضطر سوكارنو أن يجمع الثورات في بعض الجزر . وفي افريقية السوداء ، قام النضال ، وأحياناً كان غنياً كما في كونغو - كينشاسا ، ضد « القبيلة » أي النعرة العرقية ؛ وقد انيب الزعماء التقليديون بموظفين وأحياناً طرح امم العرق . وجرت محاولات لان يناب مناب هذه الاوطان في السابق امم الوطن الكبير الذي هو الامة الجديدة ، مع رموزه : العلم ، النشيد الوطني ، الزعيم ، الشعارات ، والاعمار التاريخية من جديد . وفي بعض الحالات جمعت الحدود في دولة واحدة أكثرية وأقلية تتعارضان جملة ، وتضطران إلى مداراة جميع الظروف ، كما هي الحال في كندا ، أو تؤديان الى خلافات حادة كما في السودان والعراق وقبرص وبافرا .

العمران السيامي والاداري - ان النظام الديموقراطي الذي نقله

الغربيون ، مع احترامه للمعارضة وازدهار الاحزاب ، لا يتفق والحاجات الشديدة للبلاد المناضلة في سبيل وجودها وحياتها . لقد احترمت الاشكال الديمقراطية في الدساتير ، ولكن ، في الواقع ، في غالب الاحوال ، تم التوصل إلى نظام الحزب الوحيد أو على الاقل المسيطر بشدة وبضم ممثلي جميع العناصر والنزعات المختلفة بغية التماسك والتفاد . لقد استلمت نخبة صغيرة السلطة واحتفظت بها والفت أوليغارشية قليلة التجدد . ثم ان العقلية القديمة البالية للجماهير غير المثقفة وعاداتها القبلية الابوية أدت في الحالات القصوى إلى تمجيد رئيس الدولة الذي أصبح يعتبر رجلاً أرسلته العناية الإلهية . وبقيت الانتخابات طقوس دورية ، ولكن المرشحين كانوا يعينون سلفاً من قبل الحزب الذي يطهر نفسه من كل منافسة ممكنة . ورد "هامش حرية التعبير إذن إلى العدم . وليست الديمقراطية المستعارة إلا دكتاتورية تخاف من ظلها ومهددة وبالانقلاب . والجيش الوطني ، أداة النظام ، يمكن عندئذ أن ينقلب عليها ، وهذا ما حدث في عدد من الدول منذ ١٩٦٥ .

لقد افادت الادارة الاستعمارية كقالب للقيادات ، في البلدان التي كانت مستعمرة ، والمصالح التقنية . وأخذ الموظفون الملحقون القدامى والشبان المجازون ، الذين يحملون الدبلومات والشهادات ، مكان الاداريين الاوربيين بل وحتى طرقهم .

ولكن تدخلت في الغالب نظم موازية : فرع الحزب ، القومونات الريفية حيث تتدرب النخب الصغيرة على تحمل المسؤوليات المحلية .

التطور الاجتماعي والثقافي .- وفي الوقت نفسه قام الاعداد الاجتماعي ان المجتمعات القديمة ، بالهامها الديني أو السحري وقياداتها الوراثية ، وطبقاتها ، وتوازنتها الدقيقة بين العائلات ، وأصناف العمر ، والاجناس ، لا تتفق مع الازمنة الحديثة

ولا مع الحدود الموسعة . وهذه العوالم الصغيرة القديمة التي زعزعتها الاستعمار كثيراً أو قليلاً تتحمل صدمة الاستقلالات الحديثة . وعلى العموم ، ان المجتمعات قاومت بأفضل من المتوكل . لقد حذف بائيل في الهند المراجعات لا الطبقات . ولكن ظهرت طبقات جديدة : الاغنياء ، الموظفون ، السكادحون . وخلف احترام التعليم احترام التقليد . والبرقي الثقافي عام وكثيف وجامعيري ، والتربية العليا تستعمل لغات مشتركة ، وفي الغالب الانكليزية أو الفرنسية ، تساعد على التفاهم بين العناصر والأعراق ، وتعرض وجهات نظر جديدة على الكوكب ، منتزعة الوجدانات من عالم الأجداد والاسلاف المغلق .

النتيجة

ولكن في الغالب توضع قضية التقدم الاقتصادي بعجل ويظهر حلها أكثر عسراً من غيرها . لقد أدخل الاستعمار العالم الحديث في مجتمعات قديمة محافظة كانت تعيش في ملجأ عزلة نسبية ، في عاطفة استقرار وانسجام تعتمد على الاسلاف والدين . وتؤلف الاقطاعات ، والحروب المحلية والمجاعات جزءاً من هذا الاطار السلفي المقبول كأمر الطبيعة نفسه . واليوم ، انقلب هذا العالم وانكشف عالم آخر تتجه صوبه آمال الأمم الجديدة التي شعرت بتخلفها الاقتصادي وضعف مستوى حياتها بالنسبة إلى البلاد المتقدمة . و « الأمم السكادحة » تطالب بالمساواة أو على الأقل بالتقدم .

ويحسب أن ثلاثة أرباع البشرية متخلفة أي أن دخلها لكل فرد أخفض من الوسطي العالمي الذي هو ٥٠٠ دولار . وفي عدد من البلاد الأفريقية نجد الوسطي فيها أخفض من ١٠٠ دولار . وقد يكون من الصعب حساب الدخل في مناطق يلعب فيها اقتصاد المعيشة الدور

الأسامي دوماً . ولا يمتد التخلف فقط على المتحررين من الاستعمار حديثاً ، بل على بلاد مستقلة منذ الأزل كالصين والتايلاند وشبه جزيرة العرب وإيران ، الخ . وكل أفريقية عدا جنوبي أفريقية ، وكل آسيا الموسمية ، عدا اليابان ، وكل أمريكا اللاتينية ، عدا الأرجنتين ، متخلفة على درجات مختلفة .

وأساب هذا التخلف عديدة . وأكثرها يقيناً هي :

- ١ - تأخر في التطور من عدة قرون لا يمكن تعويضه في بضع سنوات .
- ٢ - البنيات الاجتماعية غير المتكيفة ، مع فقدان أو عدم كفاية المحركين المنشطين ورؤوس الأموال .
- ٣ - الاقتصاد القديم البالي القائم على الزراعة بصورة أساسية .
- ٤ - الدورات التجارية والاستثمارات المالية التي تكون في أيدي الدول الأجنبية الصناعية التي تشهر أحياناً بأنها « استعمار جديد » .
- ٥ - الديموغرافية السريعة .

وقد ظهرت هذه الأخيرة فجأة في القرن العشرين . ويمكن أن يذكر بين أسبابها انتهاء الحروب المحلية والمجاعات ، إمكانات جديدة للاستخدام والمواصلات ، إنابة الطب الحديث مناب قدامى العرافين الشافين ، والكيمياء الصيدلانية التي ساعدت على معالجة الجماهير . وزاد التناسل ، وبخاصة تراجعت وفاة الأطفال العظيمة . ومن هنا خرج فائض شبه عام في الولادات على الوفيات وزيادة قتيحاوز غالباً ٢٪ ، وحتى ٣٪ من السكان في العام . غير أن الموارد لا تنمو بنفس الوتيرة ، ومن هنا يتأتى خطر تضخم مستحكم لهذه الحالة . بل ومن الممكن الكلام ، في بعض الأحوال ، عن « بلاد في طريق التخلف » .

- ٦٥ -

إن المجاعة الكوكبية والحروب المعوزة سيكونان المستقبل القريب نسبياً إذا لم تنقلب هذه الوتيرة إما برفع سد أمام مد السكان ، لأن بعض البلاد النادرة ، كاليابان ، دخلت في هذا الطريق الذي أخرته في بلاد أخرى القوميات والوراثات العقلية ، واما بتنمية الاقتصادات المحلية بسرعة .

إن فقر معظم الدول الجديدة لا يسمح لها بالانسحاب من التغلف بجهودها الوحيدة بوثيرة لائقة . ومن هنا يخرج اللجوء إلى المساعدة الأجنبية تحت شكل منح أو قروض على الأموال العامة ، والمساعدات بالأشخاص بارسال الفنيين والاستثمارات الفردية الخاصة . وتدخلت هيئات دولية كالبنك الدولي للاعمار والتنمية (B.I.R.D) ومختلف فروع منظمة الأمم المتحدة . ولكن الدول كانت لها الدور الهام . فمن ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥ وظفت الولايات المتحدة ٢٥ مليون دولار في البلاد المتخلفة ، وبخاصة في أمريكا اللاتينية وفي آسيا .

وتأتي فرنسا مباشرة بعد في هذا الطريق : فقد وظفت ٧٧٦٧٠٠٠ دولار في الدور نفسه . ويأتي جهدها أول جهد بالنسبة إلى ثروتها وعدد سكانها : ٢٠٢٪ من الدخل القومي الفرنسي ، بينما بذل الولايات المتحدة يعادل ٩٪ من دخلها القومي . وقد انفصل عن فرنسا ٤٣٠٠٠ فرنسي للمعونة الفنية ، منهم ٢٩٠٠٠ للتعليم .

وكانت هذه المساعدة مستعملة الى ٩٠٪ منها في منطقة الفرنك . وهذه المنطقة هي إرث النظام الجرمكي القديم في المستعمرات ثم في الاتحاد الفرنسي ولكنها تلعب اليوم بشكل واسع لصالح الدول التي أصبحت مستقلة : أفريقية الفرنسية سابقاً ، مقاطعات ماوراء البحار وبلاد ماوراء البحار .
قضايا عصرنا (٥)

- ٦٦ -

والعملات في هذه المجموعة قابلة للتبادل تماماً . والتسويات مع الخارج تنسق وتقاص ، وما زالت توجد بعض التفضيلات الثنائية الجانب . وهكذا مازال يحافظ على الاقتصادات الضعيفة . حتى ان بعض البلاد ، التي خرجت من منطقة الفرنك مثل مالي وغينة ، تفكر بالدخول فيها ثانية .

وحاولت فرنسا في هذه السنوات الاخيرة أن تنقل قسماً من حملها إلى شركائها في السوق المشتركة وتنوع استخدامه . وما زالت المعونة إلى المتخلفين تحتل أكثر من ١٥٪ من الدخل القومي الفرنسي ، و ٧٠٪ من المساعدة تذهب نحو بلاد منطقة الفرنك .

وهناك مظهر آخر للنضال ضد التخلف وهو إعداد خطط محلية وإنشاء هيئات تعاونية وثابتة للدولة لتنفيذها . وتلجأ معظم الحكومات إلى المساعدة الأجنبية وإلى التحويل الداخلي . وقد اعتمد بعضها بادئ ذي بدء على تجنيد الدولة للقوى المنتجة ، من نوع شيوعي ، مع مساعدة الاتحاد السوفياتي أو الصين ، وسعتم محدودة ضيقة ، ولكنها لا تخلو من مفعول أو أثر . وحسباً تكون العقائدية ، إن لم يكن التطبيق ، معتمدة على هذا النظام أو ذاك ، تبدو الدول الجديدة ليبرالية أو اشتراكية .

المظاهر العالمية

ولا ترجع هذه الاختلافات في العقائد ، إلى ثروة البلاد أو إلى فقرها ، ولا إلى حالتها الاجتماعية ، بل إلى التكوين الثقافي للفئة الموجهة مصطبغة بالماركسية أو غير مصطبغة . ومن هنا يخرج التعاطف مؤكداً كثيراً أو قليلاً مع الشرق أو الغرب وأحياناً ، كما في أفريقية السوداء ، تخرج التجمعات والمعارضات . وفي الواقع ، مامن أحد من المرجحين

الهم إلا في بلد شيوعي بشكل واضح مثل فيت - نام الشمالية ، بطرح بحرية المعونات من أي مكان أنت ، شريطة أن تكون مفيدة . ومن هنا تخرج تغيرات الموقف تبعاً للظروف . وليست مع ذلك حكرة « البلاد السائرة في طريق التنمية » ولكنها ضرورية لها تقريباً .

لا لأن الاستقلال خديعة . ولكن الواقع هو أن إمكان استخدام مثل هذه الحرية يبرهن على ذلك . ومن المؤكد أن معظم الدول الفتية المدارية في العالم الثالث (تعبير فقد قيمته) في الحالة الحاضرة هي في حالة انحطاط وضعف حيال الدول الكبرى البكر في المنطقة المعتدلة الشمالية : الولايات المتحدة ، أوربه ، الاتحاد السوفياتي ، الصين ، اليابان . وان العالم الاستعماري سابقاً سيظل علماً تابعاً ما لم يبلغ مستوى القرن العشرين من وجهة نظر رابعة : إقتصادية ، مالية ، فنية وثقافية .

وما زالت هذه البلاد بعيدة عن ذلك ، لأنه لا يمكن الصعود من قاع القرون في بضع سنوات . ولكن بعضها ، بفضل الطبيعة والتنظيم الطيب ، تبدو أنها تستطيع التقدم بسرعة .

وهناك عقبة للتنمية وهي كثرة الحدود . ولا شك في أن دولاً واسعة مثل الهند وأندونيسيا ذات امكانية جغرافية تؤمن تقدمها في حدودها إذا سمحت الوحدة والنظم (المؤسسات) بذلك .

ولكن كثيراً من الدول الجديدة تبدو محكوماً عليها ، بصغرهما وطبيعتها القاسية وضعف سكانها ، بالنبعية طويلاً للدول الشمالية أو لجيرانها ، اللهم إلا إذا تغطت بكرامة في ركودها . لقد « تبلقت » افريقيه على عكس تيار العالم . وإن الفيروس القومي ، الذي أنت به أوربه ويعود إليها اليوم ، قد عدى الدول الجديدة . والشعارات القومية سهلة على

الموجهين لتحويل الرأي عن الصعوبات الداخلية والسماح لنمو الجيش ،
 منذ السلطة وأحياناً خرابها . إن الصوفية الوطنية هي واسطة من وسائط
 صناعة الوحدة المحلية ، ولكنها تخاطر بخلق خلافات وتمنع من تشكيل
 المجموعات الكبرى الوحيدة القابلة للحياة في حالة العالم الحاضرة .

إن صغر الكوكب بوسائط المواصلات الحديثة غير مستعد للعزلة .
 وإن حواجز المحيطات والبحار والغابة العذراء قد أخضعت على أيدي
 الملاحين من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، ومن ثم على
 أيدي المكتشفين في القرن التاسع عشر . وزالت نهائياً بالحطوط الحديدية
 والطرق المعبدة ؛ والطائرة اليوم ، والصواريخ بعد قليل ، تلغي المسافات
 وتقرب الشعوب . ومنظمة الأمم المتحدة مقدمة متواضعة بعد ،
 لحكومة الكوكب . والدول الحديثة المنبثقة عن الخلاص من الاستعمار
 وجدت فيها مكانها . وكان هذا الاخاء ضرورياً لإزالة العرقية وعقدة
 النقص . وبقيت المساواة على الأقل ظاهراً ريثما تنتظم شروط الحياة المادية
 والفكر وتتوحد ويستطيع الناس السير بحق بخطوة واحد نحو الازمنة
 الافضل ، .

الفصل الثاني

العلاقات بين الشرق والغرب

نهاية الأحلاف

(١٩٤٥ — ١٩٤٧)

لقد انعقد في بوتسدام ، من ١٧ تموز الى ٢ آب ١٩٤٥ ، أول مؤتمر دولي بعد الحرب ، وفي الواقع ، آخر اللقاءات الكبرى لـ « ذروة » ، زمن الحرب ، ووجب انتظار عشرة أعوام ليروى من جديد اجتماع مماثل للكبار وفي المستوى نفسه .

لم تدع فرنسا الى المؤتمر : لأنها لم تستعد مكانتها بعد ، وحضرت بريطانيا - العظمى ، ولكن تشرشل ، أثناء الاعمال ، توك المسكات للميجر اتلي . وظاهر الامر ، لم يتغير شيء ، فقد تابع العمالي الاول وبيغن في وزارة الشؤون الخارجية الخط الذي رسمه تشرشل . ولكن الدفع لم يكن نفسه ، بواقع الرجال ، وأيضاً بواقع أن الامة البريطانية ، تحت دافع العمالين الذين رفعتهم الى السلطة لذلك ، كرس ما بقي لها من طاقة للقيام بثورة اقتصادية واجتماعية حولت ، خلال فترة من الزمن ، الانكليز عن العالم . وبعد قليل ، صرحت بريطانيا العظمى بعدم المشاركة : ففي شباط ١٩٤٧ ، أعلنت حكومتها بأنها غير قادرة على دعم الحكومة اليونانية . وفي ذلك اليوم ، ألغت الامبراطورية

المتفطرة الصولجان رسمياً . ومن قبل ، ترك ممثلوها في بوتسدام الادوار الاولى لستالين وترومان .

ولم يحل كبير شيء في هذا المؤتمر . فقد استعجل الامريكيون بوضع النقطة النهائية للحرب . وأبدى ستالين قليلاً من العجلة خلق شيء قطعي حيث يوجد ربح منتظر . وتقرر إنشاء « مجلس وزراء الشؤون الخارجية » ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، بريطانيا العظمى ، الصين وفرنسا ، ليقوم بأعداد معاهدات السلام مع الدول التابعة لألمانيا وهي : ايطاليا ، هونغاريا ، بلغاريا ، رومانيا ، فنلاند .

أما المعاهدة مع ألمانيا فستحضر فيما بعد . ولم يتفاهم إلا على التعويضات ، على أن تترك للاتحاد السوفياتي حصة الأسد التي كانت أيضاً حصة الفقير . وقد دعم الانغلو - ساكسون ، في مؤتمر السلام ، ضم الاتحاد السوفياتي لكونينغسبرغ وقسم من بروسيا الشرقية . وقبلوا بالاعتبار الأراضي ، الواقعة في شرقي نهرى الأودر والنايس ، جزءاً من المنطقة السوفياتية ، وأن يعهد بإدارتها مؤقتاً الى بولونيا ، وكان ستالين يعرف فضائل الوقت !

وأثار مصير رومانيا وبلغاريا صداماً يصور مستقبلاً قريباً . وكان الانكليز والامريكيون يشكون من أن السوفياتيين يمارسون فيها السلطة وحدهم ، دون أن يسمحوا للسكان بأن يضعوا لأنفسهم نظاماً ديمقراطية ، ودون أن يتركوا لأعضاء البعثات الحليفة وسائل ممارسة وظائفهم ، حتى ولا حق التجول : ويقال « إن ستاراً حديدياً ، أسدل حولهم ، كما أكد تشرشل . ولم تنته الحرب في الشرق الأقصى ، ولم تمض ثلاثة أشهر على انتهائها في اوروبا إلا وظهرت الصيغة التي تعبر بعد

قليل عن انفصال الحلفاء الى معسكرين ، وكل معسكر يضم جزءاً من الذين كسبت الحرب ضدهم .

أما الآن ، فلا يظهر الانفصال ، لأنه ، إلا في بعض الاحوال الثانوية ، لا يجر الى خلاف . وانطلق الكيوان العظيان الحاميان في مشاريعها ، حتى أصبح الصدام بينها شبه مستحيل ، وعلى الأقل في الحال .

ماذا يريد الامريكيون ؟ تسريح الجيش ؟ إنهم يسرحونه : و « الاولاد » (الجنود) يعودون إلى بلادهم . وإعطاء العالم برلماناً للشعوب ؟ من ٢٥ نيسان إلى ٢٦ حزيران ١٩٤٥ ، وضع مؤتمر سان فرانسيسكو نظم منظمة الأمم المتحدة التي عقدت جلستها التدشينية في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٦ . ونهتهم آسيا أكثر بكثير من أوربة . وعليهم تقع مسؤولية « تربية » اليابان من جديد . وفي الصين كان مبعوثهم الخاصون يحاولون بعناد أن يوفقوا بين الشيوعيين وحكومة تشانغ - كاي - تشيك . وقد خصص الجنرال مارشل لذلك سنة ١٩٤٦ . وكان يراد كثيراً ، في واشنطن ، وضع حد لما اعتبر آخر مرحلة من الحرب العالمية الثانية .

وكان موقف ستالين معارضاً . فهو لم يعلن الثورة العالمية ، ولا توسع الشيوعية ، ولكن أعماله ذهبت في هذا الاتجاه . فقد زاد الاتحاد السوفياتي رقعة أرضه في الغرب والشرق : وكان الدولة الوحيدة التي خرجت أرضاً موسعة بالحلاف . وكانت معاهدات السلام ، التي وقعت في باريس ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ ، مع حلفاء ألمانيا الحمة ، كذلك ، فرصاً لامتداد سطح الشيوعية . وفيما يتعلق بإيطاليا ، دعم ستالين مطالب يوغوسلافيا الشيوعية في تريستا . وفي بولسدام طالب بسيادة دولية مشتركة (كوندومنيوم) على ليبيا ، وكان ذلك منه أول محاولة لوضع

قدمه في أفريقية . وفي رومانيا ، وبلغاريا ، وهونغاريا ، خولت المعاهدات الاتحاد السوفياتي القدرة على الحفاظ « الى أجل غير مسمى » ، على جنود الاحتلال ، والحق الاقتصاد بواسطة « شركات مختلطة » ، وفوق كل شيء ، رغم أن ذلك لم يكن مكتوباً في أي مكان ، تمكن الحزب الشيوعي السوفياتي من مساعدة الاحزاب الشقيقة الرومانية والبلغارية والهونغارية على الاستيلاء على السلطة .

ومع بولونيا ، بدت العملية دقيقة كثيراً : فقد وجدت حكومة بولونية في المنفى في لندن . وفي حزيران ١٩٤٥ ، قبل الانغلو - ماسكون بتجربة « حكومة مؤقتة بولونية لوحدة وطنية » ، ولم يستطع فيها « بولونيرو لندن » أن يلعبوا فيها الادور الرهائن . أما « بولونيرو موسكو » ، فقد كانت الجيوش السوفياتية تدعمهم بقوة ، واستطاعوا شيئاً فشيئاً للسيطرة على السلطة والرأي . وأعطتهم انتخابات ١٩ كانون الثاني ١٩٤٧ أكثرية ساحقة .

وفي تشيكوسلوفاكيا ، احتل الشيوعيون ، مواقع قوية (٣٨ ٪ من أصوات انتخابات أيار ١٩٤٦) . وخيب الغربيون منذ قليل رجاء ببنيس ، فعقد حلفاً وثيقاً مع الاتحاد السوفياتي ونادى بالتضامن السلافي ، وكان الاستراكي فيولنغور ، رئيس مجلس الوزراء ، « رفيق طريق » الشيوعيين .

وفي يوغوسلافيا ، أقام تيتو ، دون عناء ، السلطة الشيوعية : فمنذ ١٩٤٤ ، سحبت الحكومة البريطانية دعمها للجنرال ميهاييلوفيتش لتعطيه الى زعيم الانصار الشيوعيين .

وفي اليونان ، استعرت الحرب الاهلية . فهل دفع ستالين الشيوعيين اليونانيين الى حمل السلاح ؟ من الممكن أنهم عملوا بأنفسهم أو بدافع

من الشيوعيين اليوغوسلافين والبلغاريين ولكن انتصارهم كان على الاقل انتصاراً سوفياتياً .

وانضمت تطلعات الاتحاد السوفياتي على تركيا في الاشهر الأخيرة من الحرب . وفي يالطا ، طالب ستالين بالاشراف على المضائق . ولم يقترح ، في شهر آب وايلول ١٩٤٦ ، بأن تكون المضائق مفتوحة للجميع ، كما أوحى ترومان ، بل بحجة من قبل تركيا والاتحاد السوفياتي معاً . وفسخ في آذار ١٩٤٥ المعاهدة السوفياتية - التركية لعام ١٩٣٥ وطالب بأراضي تركية كانت قديماً تابعة للإمبراطورية الروسية .

وفي ايران ، رفض السوفييتون الجلاء المسبق للجيوش الاجنبية الذي كانت تطالب به الحكومة ، وعجلوا الامور ، ودعوا الى تأليف « جمهورية أذربيجان المستقلة » على أيدي شيوعيي حزب توديه و « جمهورية شعبية كردية » ، في غرب ايران . حتى إنهم استطاعوا أن يفرضوا وجود ثلاثة شيوعيين في الحكومة المركزية . وكان رد الفعل البريطاني شديداً ، في آب ١٩٤٦ ، حتى تخلى السوفييتون ، وحافظت ايران على سلامتها الارضية .

وفي الصين ، كانت سياسة ستالين غامضة . لقد نهبت الجيوش السوفياتية بجد ماندشوريا . وعندما اجلت عنها ، تركت المكان للجيوش الشيوعية ، بالرغم من احتجاجات تشانغ - كاي - تشيك . ومر كل شيء كما لو كان يفكر في موسكو بأن يجعل من ماندشوريا دولة مستقلة ديمقراطية شعبية . ووجدت العاطفة نفسها عندما دعا ستالين ، في تموز ١٩٤٩ ، كاؤكانغ ، نائب ماو ، إلى ماندشوريا ووقع معه معاهدة . وشهدت السنون نفسها محاولات تقارب بين مونغوليا الخارجية تحت السيطرة السوفياتية ، ومونغوليا الداخلية .

وفي سين - كيانغ الغربية ، كانت الاقليات القازاك والقرغيز وغيرها هدفاً لدعاية مدعومة . فهل وضع ستالين مشروعاً لتجزئة جزئية للصين ؟

وفي ١٩٤٥ أو في ١٩٤٦ ، لا يعلم ، نصح الشيوعيين الصينيين بالايعادوا فتح الحرب الاهلية . ووقع نفسه ، في آب ١٩٤٥ ، معاهدة مع تشانغ - كاي - تشيك ، وأقام لديه سفيراً حتى انتصار ماو . ولم يتخل عن الشيوعيين الصينيين الذين كانوا لا يريدون الانفصال عنه ، ولكنه لم يعتقد بانتصارهم . وكان يخشى إثارة رد فعل أمريكا . ونصح للسبب نفسه شيوعي فرنسا وابطاليا بعدم القيام بالثورة ، وشجعهم على الوصول إلى السلطة بطريقة « حصان طرواده » وذهبت المحاولات التي تابعتها الامريكيون في الصين في هذا الاتجاه . ولو نجحت لكان التطور نفسه في بكين وفارسوفيا (وارسو) أو براغ ربما كان هذا مشروع ستالين . فإذا كان يفكر ماو ؟ لقد قبل بالمفاوضة مع الحكومة الصينية تحت الحماية الامريكية ، ولكنه بدا صعباً شديداً . ومع ذلك ، فان تشانغ - كاي - تشيك ، بالرغم من الضغوط الامريكية احبط العملية .

وهكذا كان ستالين يوسع رقعة الشيوعية حول الاتحاد السوفياتي مستخدماً معاً وسائل الدولة السوفياتية والوسائل التي يتصرف بها باعتباره زعيماً غير منازع وقوياً ، رغم أنه كان دون صفة ، لجميع الاحزاب الشيوعية في العالم . وساعده هذا الارتباط على تغطية فتوحاته ، تحت طواهر حركة عفوية نحر الشيوعية ، واربك الرد عليه . وكانت مقاومة الغربيين لهذا التقدم تافهة أو عديمة . وفي الصين ، ذهب امتناعهم حتى المجاملة . ولم يلق الدفع السوفياتي عقبات جديدة إلا في ايران وفي اليونان

حيث اصطدم ببريطانيا العظمى ؛ وفي المانيا ، حيث اضطر تضامن زمن الحرب الحلفاء السابقين على تسوية مصير المغلوب معاً .

وهل كان روزفلت يفكر بحذف القضية الالمانية باجبار المانيا على الاستسلام دون شرط ؟ ان الحوادث تكذب هذا الحساب . لقد كانت المانيا محرومة من كل سلطة يمكن أن تتكلم باسمها ، أو تأخذ باسمها تعهدات ، ولذا وقعت بكاملها على عاتق الحلفاء . وكانت عليهم أن يقرروا كل شيء من أجلها ، نيابة عنها ، وحتى نظامها الداخلي . وطالبت فرنسا بتجزئتها : وذلك بأن تنفصل الضفة اليسرى لنهر الراين وتوضع تحت الاشراف السيامي لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا والبلاد المنخفضة ؛ وان تقسم إلى بلاد لتصبح دولاً مستقلة . وان «دول» منطقة الرور ؛ وان تلتحق السار بفرنسا . وهكذا تقطع الالمانية بشكل واسع في الغرب كما هي الحال في الشرق . وما يبقى منها يدار بسلطة اتحادية لامركزية جداً .

وإذا استثنينا السار ، والرور ، جزئياً ، فان الانكليز والامريكيين لم يقبلوا المقترحات الفرنسية . وكان الفرنسيون يعتمدون على المساندة السوفياتية ؛ ولهذا وقعت جزئياً معاهدة ١٩٤٤ ، ولكن ، أثناء انعقاد مؤتمر باريس ، في تموز ١٩٤٦ ، خرج مولوتوف أخيراً من صمته ، وافاد بأنه ضد النظريات الفرنسية من أجل وحدة المانيا السياسية . واعتبرت الحكومة الفرنسية اتحاد الثلاثة الكبار ضدها . وهذه هي النقطة الوحيدة التي كانوا على اتفاق بشأنها .

ومنذ ذلك الحين بدأ المظهر المزدوج للسياسة السوفياتية حيال المانيا . لقد ضمت حكومة موسكو أو أعطت إلى بولونيا أجزاء واسعة من الأرض الألمانية . وفي مؤتمر باريس عارضت توحيد المانيا الاقتصادي ، وأجبرت

الانكليز والامريكيين على العمل بشكل منفصل وعلى توحيد منطقتيها اقتصادياً ، مقدمة لتقسيم ألمانيا . وفي الوقت نفسه ، قالت عن نفسها بأنها نصير الوحدة الألمانية ، وحكومة مركزية ألمانية . وشهرت بإنشاء « المنطقة المزدوجة » كمشاهدة تجزئة . وهكذا احتفظت بوسيلة تأثير على الرأي الألماني بغية «إبالة» جديدة : وكان على الألمان أن يعلموا بأن لهم في السوفييتين حماة لوحدهم القومية .

وعقد وزراء الشؤون الخارجية أيضاً مؤتمراً بشأن ألمانيا والنمسا في موسكو ، في شهري آذار ونيسان ١٩٤٧ ، ثم في لندن ، في تشرين الثاني وكانون الأول . ولم يكن ذلك إلا تأكيداً وتعميقاً لاختلافاتهم . وعندما انعقد آخر هذه المؤتمرات انتهى زمن الأحلاف . وبدأت « الحرب الباردة » .

الحرب الباردة (١٩٤٧ - ١٩٥٣)

في ١٢ آذار ١٩٤٧ ، طلب ترومان إلى الكونغرس اعتمادات لمساعدة اليونان ، لأن حكومتها لا تستطيع مجابهة الثورة الشيوعية . وكانت تركيا أيضاً بحاجة إلى نجدة ، وكان من اللازم تصور مد هذا الدعم إلى بلاد أخرى ، لأن الولايات المتحدة رأت من واجبها أن تساعد الشعوب على ألا تقع تحت نير «الانظمة الجمعية» ، كما حصل ذلك لشعوب رومانيا وبلغاريا وبولونيا . وقال ترومان :

«أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تكون في دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولات الاستعباد التي تكون بواقع أقاليم مسلحة أو ضغوط أجنبية . وإني لأعتقد بأنه يجب علينا أن نساعد الشعوب الحرة على أن تصنع قدرها بأيديها الخاصة . إني أعتقد أن مساعدتنا يجب أن

تقوم بصورة أساسية على دعم اقتصادي ومالي ، لاغنى عنه للاستقرار الاقتصادي وحياة سياسية منسجمة ومنظمة

« إن بذور الانظمة الجمعية يغذيها البؤس والعدم . وتنمو وتتكاثر في تربة الفقر والفوضى الفاحشة . وتبلغ نموها الأقصى عندما يموت أمل الشعب بحياة أفضل . وهذا الأمل ، هو مايجب إبقاؤه على قيد الحياة . » وهذه العقيدة هي « مذهب ترومان » . وكان نصه مفاجأة . فقد اعترف ليون بلوم بأنه لم يتذوق « التدليل على الخطاب ولا كلماته » ، ولم يقطع مرة واحدة ، من الجهة الاخرى للاطلسي ، الصلة مع العادة الخطرة في في الدلالة بنفس النعوت على النظام الهتاري والنظام السوفياتي .

والواقع أن الأمريكيين حكموا منذ ذلك الحين باستحالة إدخال الحكومة السوفياتية شريكاً يمكن أن يوثق به في سيادة مشتركة من اثنين أو أربعة ، وكان توسع الشيوعية يخيفهم .

وكان الاتحاد السوفياتي يحتفظ تحت الاعلام بجنود عظيمة ، وتوارى من جديد عن الأنظار ، وكانت الأخبار التي تتسلل تكشف بأن لا أمل من الآمال المعقودة أثناء الحرب في رؤية نظمه وسياسته الداخلية تتطور نحو أشكال أكثر ليبرالية قد نحقق .

وكان تيتو سيداً في يوغوسلافيا . وكان رئيس حكومة براغ غوتفالد شيوعياً ، ورئيس حكومة وارسو ببيروت شيوعياً أيضاً ورئيس حكومة صوفيا ، ديميتروف ، أميناً سابقاً للكونغرس (الشيوعية الدولية) . وفي هونغاريا ، بدأ الشيوعيون بالقضاء على حزب صغار الملاك ، وكانت له الأكثرية في البلاد . وفي رومانيا ، لم يكن غروتزا وتاتاريسكو إلا صوريين . وقد أوقف مانيو ، في تموز ، مثل بيتكوف في بلغاريا في ٥ حزيران . وبدأ أن فنلانده كانت غير قادرة على الخروج من الفلك

الشيوعي ، ووجد شيوعيون في حكومتها . ونجت إيران بمشقة من الفتح من الداخل . وحاول الشيوعيون أن يثيروا الثورات بين الشعب التركي . وفي اليونان ، بدا انتصار الثوار .

وفي الصين ، أخذت الجيوش الحكومية بن - نغان ، العاصمة الشيوعية ، في ١٩ آذار ١٩٤٧ ، ولكن القوات الشيوعية عاودت تجمعها . وفي ٣٠ حزيران قامت بهجوم لم يتوقف إلا بالنصر .

وكان التهديد بثقل أوربة الغربية . فقد طالب الشيوعيون بالمشاركة في الاشراف الدولي على الرور ، وقادهم هذا إلى الراين . وفي ايطاليا أبعد دوغاسيري الشيوعيين عن الحكومة ، ولكن حزبهم ظل قوياً في البرلمان بفضل دعم اشتراكيي نيئي ، بفضل الاتحاد العام الايطالي للعمل . وفي فرنسا كان الحزب الشيوعي أول الأحزاب من حيث عدد أفرادهم ونفوذهم الانتخابي . وكان زعيمه نائباً لرئيس مجلس الوزراء ، وأحد موجهيه وزيراً للدفاع الوطني . وفي ٥ أيار ١٩٤٧ ، أخرج الوزراء الشيوعيون من الحكومة ، ولكن ، في ٢٣ أيار ، امتنع ممثل فرنسا في منظمة الامم المتحدة عن التصويت بشأن اليونان ، رافضاً شجب المساعدة التي أتت بها الدول المجاورة على حدودها للمتمردين .

إلا أن الحكومة البريطانية وحدها الفت جبهة ، ولكن العبء كان ثقيلاً جداً . وفي شباط ١٩٤٧ ، اعلمت حكومة صاحب الجلالة واشنطن وآثينة بانها مضطرة مادياً إلى التخلي عن اليونان ، في أبعد حد في الاول من نيسان .

وإذا لم يتم أحد مقامها ، فان بلداً آخر سيقع في تبعية الاتحاد السوفياتي ، ومعه ، قبل قليل ، شرقي البحر المتوسط كله . وعندئذ قام الامريكيون حقاً بعبء العالم الحر وتوجيهه . وفي هذا التاريخ لم يكن

مسموحاً لهم أكثر من التفكير بأنهم في دخولهم الحرب لا يقومون في السياسة العالمية إلا بغارة موقنة .

ويعتبر عادة مشروع مارشل تطبيقاً لـ « مذهب ترومان » . وفي الاصل ، كان يستجيب لارادات مختلفة بصورة محسوسة .

في ٥ حزيران ١٩٤٧ ، صرح الجنرال مارشل بأن على الولايات المتحدة أن تساعد العالم لاستعادة صحته الاقتصادية ؛ وقال أيضاً ان الحكومات والاحزاب التي تحاول أن تطيل البؤس البشري لتجني منه ربحاً ما مستطدم بمقاومة الولايات المتحدة ، ولكنه أكد أيضاً بأن هذا العمل من الولايات المتحدة ليس « موجهاً ضد أي بلد ولا أي مذهب » . وأجاب على سؤال وجهه بيفن بأن أوربة كما كان يفهمها كانت « منطقة في غرب آسيا التي تضم الاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى معاً » .

وعندئذ ، في ١٧ و ١٨ حزيران ، اقترح وزير الشؤون الخارجية الفرنسي والبريطاني على مولوتوف أن يدرس معها هذه القضايا .

قبل ستالين . وافتتح المؤتمر في باريس في ٢٧ حزيران . وبدأ خلال فترة ، كما كتب ترومان في مذكراته « أن الاقتراح الاقتصادي لم تكن له نتيجة واحدة وهي النهوض الاقتصادي ، بل أيضاً دفع الستار الحديدي » . ولم يفقد الوهم تماماً في دمج الاتحاد السوفياتي في وحدة الامم ، وكانت خطة مارشل آخر ظاهرة للفكر روزفلتي . وقد أعطاها رفض ستالين معنى آخر .

وجدة الاقتراح لاتعني عرض مساعدات اقتصادية لأوربة لان الامريكيين كانوا يساعدون الشعوب الاوربية منذ سنوات . ولكنهم كانوا يريدون أن يعطوا منذ الآن إلى هذا العرض طابعاً عضوياً أكثر من قبل ولم يجيبوا الطلبات الفردية المقدمة من الحكومات . وكان على هذه الحكومات أن تتفق لتتسبق تنمية بلادها وتقديم مجموع حاجاتها معاً .

وهذا ما جعل ستالين يتراجع . لقد رحب بالمساعدة الامريكية ، ولكنه لم يكن اليريد اياً كان يتدخل في الشؤون الاقتصادية الداخلية للاتحاد السوفياتي ، أو حتى يستعلم بشكل دقيق عنها . وطلب مولوتوف بأن كل دولة حرة في تقديم قائمة بحاجاتها ، دون الاهتمام بالتنسيق الدولي ودون قبول تحقيق ولا مناقشة بشأنها .

ورفض الفرنسيون والبريطانيون ، ولا شك لان الامريكيين لم يقبلوا بأن تكون مساعدتهم بهذا الثمن . وكانت القطيعة .

ثم جاءت مرحلة ثانية فأسقطت الاوهام . لقد دعت حكومتا لندن وباريس الحكومات الاوربية ، إلا حكومة أسبانيا ، أن تمثل نفسها في مؤتمر يفتتح في باريس في ١٢ تموز . ومال اليوغوسلافيون والتشيكوسلوفاكيون والبولونيون والرومانيون إلى إجابة الدعوة الفرنسية - البريطانية بقبول حسن . حتى ان حكومتي براغ ووارسو (فارسوفيا) أرسلتا قبولهما .

وفجأة ، تدخل ستالين : فقد دعت الحكومات التابعة لاقباع مثل الاتحاد السوفياتي . وبخاصة ، دعي غوتفالد ومازاريك إلى موسكو وعنفوا كثيراً . وخضع الجميع . وهكذا تم الفصل بين الاوربيين .

وبرهنت ترددات حكومات « المجن السوفياتي » على أن خضوعها للاتحاد السوفياتي لم يكن لا شاملاً ولا مخلصاً أو غير قابل للدفع . فقد أوشك الاتصال الطويل مع بلاد الغرب أن يشجع رغباتها بالاستقلال . وكذلك ، بتابعة طريقة « حصان طروادة » زمنياً طويلاً ، ومحاولة لعب لعبة الديمقراطية البرلمانية ، أو شك شيوعيو البلاد الرأسمالية أن يتذوقوا حل التسوية ، ويفقدوا الروح الثورية ، وعاطفة « الامة الكادحة » التي كان أساسها التعلق غير المشروط من قبل كل حزب بالاتحاد السوفياتي .

وقد استطاع ستالين أن يحكم على حق بأن الوقت قد حان لرد الفعل وأمر بقلب كامل لـ « الخط العام » .

دعا فجأة إلى بولونيا ، في ٢٢ ايلول ١٩٤٧ ، مندوبي تسعة أحزاب شيوعية أوربية : الاتحاد السوفياتي ، بلغاريا ، هونغاريا ، بولونيا ، رومانيا ، تشيكوسلوفاكيا ، يوغوسلافيا ، إيطاليا وفرنسا .

عرف جدانوف السياسة الجديدة بقوله : ان القوى التي تعمل على الصعيد العالمي انقسمت إلى معسكرين أساسيين : المعسكر الامبريالي والمناوى للديموقراطية ، والمعسكر المناوى للامبريالية والديمقراطي ؛ وان الاشتراكيين « من نوع بلوم في فرنسا ، أتلي وبيفن في انكلترا ، شوماخر في المانيا ، رينيو في النمسا ، ساراغات في ايطاليا ، ليسو إلا « أعوانا أمناء للامبرياليين » ، يخفون سياسة الاشقياء وقطاع الطرق [٥٥٥] تحت قناع الديموقراطية والاسلوب الاشتراكي .

واتهم ، بعده ، كاردلي وجيلاس رفقاءهما في فرنسا وايطاليا بأنهم لم يعرفوا الاستيلاء على السلطة بالقوة عندما كانت الظروف مواتية ، وفسدوا على هذا النحو تومع الشيوعية في اوروبا .

إلى أي شيء أدى تحليل جدانوف ونقد اليوغوسلافين المر العنيف ؟ أولا ، إلى تشكيل هيئة مشتركة ، مكتب استعلامات الاحزاب الشيوعية ، أو « كومنفورم » ، ثبت مقره في بلغراد ، وأعلن عن دوره بأنه كان أفضل تنسيق للعمل على المقياس الدولي . وبالتالي ، إلى ترك الوسائل السلمية والطرق البرلمانية ، وأذن إلى استئناف النضال ضد « اشتراكيي اليمين » .

ولم يرض شهران إلا وقام الشيوعيون الفرنسيون والشيوعيون الايطاليون باضرابات كبرى ثورية أدت إلى الهزيمة ، والشقاق النقابي ، وعزلة الاحزاب الشيوعية ، وباختصار إلى قلة وسائل تأثير الشيوعيين على الرأي قصابا عصرنا (٦)

بل وأيضاً إلى شد أواصر نظام الحزب ، وصلابة الاقتناع ، وعتين روابط كل
حزب بموسكو

ولم تكن هذه السياسة قاصرة على أوربة الرأسمالية . ففي شهر أيار
١٩٤٨ ، قام الشيوعيون بثورة مسلحة في ماليزيا ؛ وفي أيلول ، كان دور
أندونيسيا ، ودولتي حيدر آباد ومادراس ، في الهند ، ثم دولة الفلبين ،
وفي بداية ١٩٤٩ ، دولة برمانيا .

وفي الهند الصينية ، اتسعت الحرب ، وما من شك في أن الشيوعيين
كانوا محرضي الفيت - منه . ففي كل شهر ، كانت جيوش ماو -
تونغ تلقي نجاحات جديدة ، وفي الاول من تشرين الاول ١٩٤٩ ،
دخلت الصين في المعسكر « الاشتراكي » . وفي ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ،
اجتازت قوات كوريا الشمالية خط العرض ٣٨ واثالت على كوريا الجنوبية
واضطرت الجيوش الامريكية إلى الجلاء تماماً تقريباً . وفي تشرين الثاني
جاء « متطوعون » صينيون لنجدة رفقايم الكوريين .

وفي الطرف الاوربي للقارة العجوز ، أخذت المجاهدة بين المعسكرين
في المانيا شكلاً درامياً .

وبعد مؤتمر لندن في ١٩٤٧ ، اتفق الغربيون على أن يهيئوا معاً
نظام المناطق الغربية الثلاث في المانيا . جواباً لذلك ، غادر السوفييتيون ،
في آذار ١٩٤٧ ، المنظمات الرباعية في برلين وأقاموا اشرافاً عسكرياً على جميع
العلاقات بين القطاعات الغربية من برلين والمناطق الغربية من المانيا . وأخيراً ،
عندما وضعت العملة الجديدة ، الدويتش مارك في التداول في المناطق الثلاث
في الغرب ، نظموا ، في آخر حزيران ، الحصار التام للقطاعات الغربية
الثلاثة في برلين . ولولا « الجسر الجوي » الذي ساعد على تمرير المدينة
لكان من اللازم التنازل وترك برلين للسوفييتيين ، أو اللجوء الى القوة .

وعندما رفع الحصار ، في أيار ١٩٤٩ ، قبيل المؤتمر الحنسامي لوزراء الشؤون الخارجية ، الذي عقد في باريس ، في أيار وحزيران ١٩٤٩ ، دون نتيجة ، أصبحت ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية دولتين منفصلتين . وكان لكل واحدة منها علمها . وحضر دستور جمهورية ألمانيا الاتحادية . وفي ٤ آب ١٩٤٩ ، أجريت انتخابات عامة في ألمانيا الغربية . وفي أيلول انتخب تيودور هويس رئيساً للجمهورية ، واديناور مستشاراً . وفي تشرين الاول ، أنشأ السوفييتون جمهورية ديمقراطية ألمانية ، وخوات ظاهراً استقلالاً واسعاً وفي الواقع ، كانت أكثر الدول التابعة رقابة وبشكل وثيق .

وفي الوقت نفسه ، وبدافع سوفيائي ، دشنت الحركة الشيوعية الدولية حملات الاضطراب العالمية التي تؤلف طريقة من الطرق المميزة لـ « الحرب الباردة » . وفي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ، قطعت المنظمات النقيابة الغربية العلاقات مع « الاتحاد النقابي العالمي » ، ولكن هذا الاتحاد حافظ في صفوفه على الاتحاد العام للعمل : C.G.T. الفرنسي وعلى C.G.I.L. ، وظل أداة ناجعة للعمل في العالم الحر . وفي آب ١ٹ٤٨ ، انعقد في فروكلانو (بريسو) ، مؤتمر عالمي للمفكرين من أجل السلام وولد حركة مناضلي السلام التي قامت ، في آذار ١٩٥٠ مع « نداء ستوكهولم » ، بحملة توقيعات واسعة لصالح « التحريم غير المشروط للسلاح الذري » ، فحصلت على ٥٠٠ مليون توقيع ، وطالبت ، في تشرين الثاني ١٩٥٠ ، ببنفاق سلام بين الحزمة الكبار والاعتراف بالصين الشيوعية . ومن الممكن أن فكر ستالين لحظة بأن يجعل من مجلس السلم العالمي نوعاً من منظمة منافسة لمنظمة الامم المتحدة : فقد ذكر هذا المشروع في اجتماع للمجلس العالمي ، في تشرين الثاني ١٩٥١ في فينا .

وهكذا ، قامت الكتلة الشيوعية خلال خمسة أعوام بهجوم عام ضد العالم الحر .

والحادث المميز : هو أن هذا الكفاح كان محموم على محيط القارة العجوز . أما أفريقية وأمريكا اللاتينية فقد تركتا جانبا ، أو ما يشبه ذلك .

ونظم المعسكران نفسيهما واشتداهذه المعركة . وعندئذ أصبح المعسكر الاشتراكي كتلة بحق . وعادت الايام الحالكه في الاتحاد السوفياتي . وتدنى مستوى الحياة إلى الدرك الاسفل ، وعاث الارهاب من جديد وبأقوى بما كان . وكان المفكرون و « الآفاقيون » (اليهود) بخاصة هدفاً لذلك . لان أفكار الغرب يمكن أن تؤثر بهم بسهولة أكثر من غيرهم . وفي هونغاريا وبولونيا ورومانيا « صفى » الشيوعيون سياسياً حلفاءهم الاشتراكيين وسجنوا بعضهم ، وأجبروا الآخرين على الموافقة على حظر الحزبين العماليين في حزب واحد ، باسم وحدة الطبقة الكادحة . وفي تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت مواقع الاشتراكيين متينة بخاصة ، أخذت القضية طورا مسرحياً . وأثار الشيوعيون ، باعتبارهم سادة النقابات ، حركة شعبية وقاموا بانقلاب ، « ضربة براغ » . وجاء زورين ، النائب الاول لوزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي ، لتوجيه العملية .

ووجهت الضربة الغاشمة ضد يوغوسلافيا . فقد أصبح تيتو مشبوهاً : ووجد مرات عديدة على خلاف مع ستالين ، من قبل ، أثناء الحرب . وكان الحزب الشيوعي اليوغوسلافي يقيم علاقات متلاحقة جداً مع الشيوعيين الغربيين ، كما كان الدعم الاسامي للشيوعيين اليونان في ثورة اعتبرها ستالين مجرد مغامرة . وكان تيتو يناصر فكرة اتحاد بلقاني يمكن أن يزيد في البلقان وفي العالم الشيوعي نفوذ يوغوسلافيا ونفوذه .

ولا شيء من هذا أدى إلى نتيجة مادام الحزب الشيوعي اليوغوسلافي معتبراً كابن بكر للكنيسة الشيوعية . ولكن عندما أصبح مشبوهاً دار

كل شيء ضده ، وأصبح كل شيء دليلاً على الحيانة . ففي أي تاريخ حدث هذا التغيير ؟ على ما يبدو أن ستالين قرر أن يرد تيتو إلى حظيرة العقل . عندما قرر انشاء الكومنفورم . ولهذا دفع اليوغوسلافيين إلى التشهير بعدم الكفاءة الثورية عند الايطاليين والفرنسيين .

وهكذا لم يستطع تيتو ، في وقت المحنة ، أن يعتمد على مساندهم . ولهذا أيضاً اختيرت بلغراد لتكون مقراً للكومنفورم : وأقيمت ، في العاصمة اليوغوسلافية ، أركان شيوعية موالية للاتحاد السوفياتي .

فتح السوفياتيون العداء في ١٨ آذار . وأخبروا تيتو بأنهم سيستبدعون فنيهم العسكريين من يوغوسلافيا . وتلا ذلك مراسلة سرية . لم يثر تيتو ، وأعرب عن خيبة أمله ، وحزنه ، وإرادته في أن يبقى أميناً لسياسة التضامن مع الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بالرغم من الشقاق . ومع ذلك ، رفض الشخصوس إلى بخارست للمثول امام الكومنفورم ، وكان يعلم ما كان ينتظره إذا ما غادر البلاد .

وفي ٢٨ حزيران ١٩٤٨ ، وضع الكومنفورم قراراً عن « الحالة في الحزب الشيوعي في يوغوسلافيا » . وكان شجياً ، ولكنه شجب جماعي . ولم يكن السوفياتيون وحدهم في وضع هذه الانتقادات ، أو في القاء نداء إلى « القوات السلمية للحزب الشيوعي في يوغوسلافيا » ، لتفرض خطأ جديداً للتوجيه . بل وقفت كافة الاحزاب الشيوعية ضد الانحراف اليوغوسلافي .

وقال ستالين بأن ما عليه إلا أن يرميء بأصبعه الصغيرة فلا يوجد تيتو . وما انهار تيتو . وتخلّى عنه شيوعيو البلاد الأخرى . وغمر الحصار الاقتصادي ، الذي قرر ضده ، البلاد في أحلك الشقاء . ومع ذلك فان ستالين كان يعتمد قبل كل شيء على « القوى السلمية » في الحزب

الشيوعي اليوغوسلافي ، على الشيوعيين اليوغوسلافيين الذين كانت مساعدتهم مقبولة عنده . وهكذا كان يعمل دوماً ضد الموجهين المقاومين في أقسام (شعب) الأمية : كان يثير ضدهم معارضين ، وكانت الكومنتون تلفظ تحكيمها لصالح هؤلاء المعارضين . وفي هذه المرة ، كانت قضيته مع واحد منهم ، ولم يكن هذا زعيماً لحزب فحسب ، بل رئيس دولة ، وتحت تصرفه « وسائل إدارية » تعطل ضرر المعارضين ، وقد استخدمها دون أن يرتجف .

وجر شجب تيتو تطهيراً شديداً في أحزاب البلاد التابعة ، ونحت الاتهام بـ « التيتية » أوقف وحوكم وسجن وشنق أحياناً كل من أبدوا بعض الصفات « الموضوعية » ، للخيانة . وهكذا هلك الألباني دوزدييه ، والهونغاري راجك ، والبلغاري كوستوف ، والتشيكي سلانسكي ، وطرح البولوني غومولكا والرومانية آنا بوكرا في السجن . وقوى زوال هؤلاء المعارضين المتوقعين والارهاب الذي نشره حذفهم تماسك الأحزاب وخضوعها لموسكو . وساد نوع من الحمى الجنونية من طرف لآخر في العالم الشيوعي ، من براغ الى بكين .

أما « معسكر الامبريالية » فلم يبد نفس الصفة الكثيفة . ومع ذلك ففي هذه السنوات نظم « الغرب » نفسه .

في آذار ١٩٤٨ تعهدت فرنسا وبريطانيا العظمى وبلاد البينيلوكس الثلاثة ، بميثاق بروكسل ، بأن تتعاون في حال عدوان . ومع ذلك فقد شعر الموقعون بضرورة تشكيل سياسة دفاعية أوسع . وطلبوا مساعدة الولايات المتحدة . وهكذا بدىء باعداد ميثاق الاطلسي ، الموقع في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، الذي ولد منظمة معاهدة شمالي الاطلسي ، هذه المعاهدة التي لم يخطئ السوفييتيون ، ولا شك ، عندما قالوا في مذكرة

احتجاجهم ، بأنها مناقضة للمعاهدة الانكليزية - السوفياتية لعام ١٩٤٢ ،
والمعاهدة الفرنسية - السوفياتية لعام ١٩٤٤ ، واتفاقات يالطا واتفاقات
بوتسدام .

وفي الطرف الآخر من القارة أقامت الولايات المتحدة منظمة معاهدة
جنوب شرقي آسيا ووقع الميثاق في مانايلا ، في ٨ ايلول ١٩٥٤ ، وضم
الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، أستراليا ، زيلاندة الجديدة ،
الفيليبين ، الباكستان ، التايلاند وانتهى تطويق الاتحاد السوفياتي نحو الجنوب
بإبرام حلف بغداد ، في ١٩٥٥ ، الذي ضم أولاً الباكستان ، إيران ،
العراق ، تركيا وبريطانيا العظمى ، وأصبح في آب ١٩٥٩ ، بعد إنفكاك
العراق ، منظمة المعاهدة المركزية ، سنتو .

وفي الحقيقة ، كانت الدائرة ضعيفة مربعة العطب وبخاصة في المركز
فمن هذه التجمعات الاقليمية الواسعة ، ثبت واحد منها . فقد تطورت أوربه
الغربية بسرعة نحو الوحدة بتراكم نظم (مؤسسات) : المنظمة الاوربية
للتعاون الاقتصادي (C.E.C.E.) التي انشئت بتطبيق خطة مارشل وشملت
١٧ بلداً ؛ مجلس أوروبا (١٩٤٩) ؛ الامرة الاوربية للفحم والفولاذ
(C.E.C.A.) التي اقترحت في العام ١٩٥٠ وتبنت في ١٩٥١ و ١٩٥٢ .
وابتداء من ١٩٥١ تم تصور إنشاء جيش أوربي أوحى به الحكومة
الفرنسية للوقاية من عودة تسليح ألمانيا الذي اقترحه الامريكيون ،
لأن « الفراغ العسكري » في أوربه كان مخيفاً منذ افتتاح الحرب
في كوريا .

وحتى ذلك الحين ، كان الامريكيون يعتقدون بأنهم قادرون بالتهديد
والقيام بتدابير انتقامية ذرية على تثبيط كل عدوان آت من الكتلة
الشيوعية . وأوضحت حرب كوريا الامتاحة المعنوية بالمبادرة الى

الأسلحة الغامضة لتسوية خلاف موضعي . وشهد ذلك بالهياج الذي أثاره عند الحلفاء الاوربيين للولايات المتحدة وهم ترومان في استخدام محتمل للقنبلة الذرية في كوربا . وكانت بحسن أن ترد الى الأسلحة التقليدية أهميتها .

والواقع ، أن السوفييتيين حاولوا بالحال أن ينزعوا من الامريكيين حصر السلاح الذري . وفي بوتسدام ، في تموز ١٩٤٥ ، عندما أعلم ترومان بأن الجيش الامريكي يتصرف بالقنابل الذرية ، لم يبد ستالين هياجاً ولا فضولاً ، كما لو لم يفهم أهمية الأمر . وفي الواقع ، كان السوفييتون يقومون من قبل باصطياد العلماء الألمان تماماً كالامريكيين ، وبعد ستة أسابيع ، في ايلول ١٩٤٥ ، كشفت مغادرة موظف في سفارة الاتحاد السوفياتي في كندا عن أن السوفييتيين كانوا يحاولون منذ سنوات الاستيلاء على السر الذري .

وكانت سياستهم في المادة الذرية طوال هذا الدور مزدوجة . فقد كانوا يحاولون أن يجرموا الولايات المتحدة من الافادة من تسليحها الذري . وفي منظمة الامم المتحدة ، التي وافقت جمعيتها ، في كانون الثاني ١٩٤٦ ، على إنشاء « لجنة الطاقة الذرية » ، التي ستعمل حتى بداية ١٩٤٨ ، طلبوا وضع القنبلة خارج القانون ، وتقديم الأكدا س ، وإبلاغ السر الذري إلى جميع أعضاء منظمة الامم المتحدة . وكانت هذه الاجراءات ، العامة ظاهراً ، تهدف بصورة أساسية الى الولايات المتحدة ، وبصورة ثانوية الى بريطانيا العظمى وكندا . وفي الوقت نفسه ، كانت حركة السلم تقوم بحملة عبر العالم لتقيم بادیء بدء استنكار العالم ضد استعمال محتمل الوقوع للسلاح الذري .

ولم يمنع هذا الشجب للحرب النووية السوفييتيين من محاولة تسليح أنفسهم ذرياً . ففي أي تاريخ أصبحوا سادة الطاقة الذرية ؟ أكد

مولوتوف ، في ٦ تشرين الثاني ، من قبل ، بأن « مر القنبلة الذرية لم يكن واحداً منذ زمن طويل » . هل كان هذا منه كلام دعاية ؟ وهل كان يلمح إلى اكتشافات أصيلة للعلماء الذين يشتغلون في الاتحاد السوفياتي ، أو إلى كشف من نوع آخر يقوم بها الجواسيس الذين ، أكدت فضائحهم الكثيرة المدوية على وجودها ، منذ قضية أوتاروا ؟ وفي ٢٣ ايلول ١٩٤٩ ، علم بأن قنبلة ذرية فجرت في الاتحاد السوفياتي . وبدأ سباق التسلح النووي .

وحافظ الامريكيون على تقدمهم ، ولكنهم خسروا حصر السلاح الذري . وتم التوصل إلى « توازن الارهاب » .

الانفراج (١٩٥٤ - ١٩٥٧)

في تموز ١٩٥٢ ظهر في موسكو آخر مؤلف لستالين وهو : « القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي » . وخصص فيه فصل لـ « حتمية الحروب بين البلاد الرأسمالية » .

إذا قاربنا هذه النظرية من التحليل الذي قام به جدانوف ، في ايلول ١٩٤٧ ، لأخذت معناها كاملاً . إنها تعني بأنه يجب على الشيوعيين ألا يحفظوا ، كخط موجه ، الفكرة في أن العالم مقسم الى كتلتين حكم عليهما بالمجابهة ، وربما بالسلاح ، بل أن يحلوا محلها نظرية أخرى تقول بأن إحدى الكتلتين ، الكتلة الرأسمالية ، مدفعة بالتناقضات العتيدة التي يحسن تفجيرها ، لأن الحكومات الرأسمالية إذا عارض بعضها بعضاً وضعت بهذه الخلافات ، تحولت عن كل عدوان ضد الاتحاد السوفياتي وسهلت الثورة في بلادها الخاصة التي يحكم عليها سباق التسلح والحرب بالبؤس والشقاء .

وفي المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، عندما صنف غروتشوف مختلف البلاد إلى ثلاث فئات : البلاد الاشتراكية ؛ « البلاد المؤيدة للسلام » ، أو « البلاد المحايدة » ، (الهند ، برمانيا ، اندونيسيا ، افغانستان ، مصر ، سورية ، فنلندة ، والنمسا) ؛ وأخيراً الفئة التي تؤلفها الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، فرنسا ، ألمانيا الغربية ، اليابان ، إيطاليا ، تركيا ، إيران والباكستان ، لم يفعل شيئاً سوى أنه أعطى تعبيراً حسيّاً مشخّصاً لنظرية ستالين .

ولم يذكر ستالين هذه النظرية إلا ليبر عقائدياً « المنعطف » الذي تبنّا وتمّ من قبل ولا شك .

ومن الممكن أن يفكر بأن الاقتراح الذي قدمه ، في ٢٣ حزيران ١٩٥١ ، جاكوب مالك ، بالبدء بمحادثات بين المتحاربين في كوريا بغية الهدنة ، لا يخضع إلا للاهتمام بإنهاء العمليات العسكرية الباهظة التي توسّك أن تدور بشكل مميّ ، ولكن المفاوضات ، التي بدأت في ١٠ تموز ، دلت على أن الجانب الشيوعي لم يكن مستعجلاً في الانتهاء الى شيء . ومع ذلك فقد عاود مالك الصيغة القديمة في « امكانية التعايش السلمي للنظامين » . وفي ٣٠ تشرين الأول ١٩٥١ ، أخبرت جريدة « البرافدا » ، عن اجتماع لجنة مبادأة للدعوة إلى مؤتمر اقتصادي دولي يعقد في موسكو ، في نيسان ١٩٥٢ . وموضوعه ، إقامة « تعاون سلمي » [٠٠٠] بتمتية العلاقات الاقتصادية ، ، يعبر عن الرغبة في قطع طرق الحرب الباردة . وربما يجب إعطاء المعنى نفسه لمؤتمر الشعوب من أجل السلام الذي دعي إلى فيينا ، في ١٢ كانون الأول ١٩٥٢ ، لدراسة الوسائط التي تسود فيها « المفاوضات السلمية » على « حلول القوة » . وعلى كل حال ، كان معنى المدكرة التي قدمها ستالين فجأة إلى الغربيين ، في ١٠ آذار ١٩٥٢ ، في موضوع ألمانيا ، واضحاً . فقد رسم فيها الخطوط الكبرى لمعاهدة

سلام مع الارادة الواضحة في خلق عواطف تعاطف حيال الاتحاد السوفياتي في الرأي الالمانى . ألم يقرأ فيها أن « الحقوق المدنية والسياسية يجب أن نخول [...] إلى قدامى العسكريين في الجيش الالمانى ، ومن ضمنهم الضباط والجنرالات ، إلى قدامى النازيين ، باستثناء من عوقبوا على الجرائم التي ارتكبوها ، ليسمح لهم بالمشاركة في إعادة المانيا ديموقراطية ومسالمة ؟ »

وهذا يعني مرة ثانية محاولة لأن يرى الالمان بأن سياسته في روح معاهدة رابالو والميثاق الجرمانى - السوفياتى تبقى ممكنة .

وعجلت وفاة ستالين بقلب سياسة الاتحاد السوفياتى الخارجية . وكان خلفاؤه بحاجة ، لتدعيم سلطتهم ، إلى توتر أقل في الخارج ؛ فضلاً عن ذلك أرخوا الوثائق الذي كان يشده الحزب والدولة على الشعب .

وفي ماتم ستالين ، أكد مالمكوف اخلاص السوفياتيين لـ « المبادئ الليينية - الستالينية في امكانية التعايش الممدد والتنافس السلمى بين النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكي » . وفي ٣٠ آذار ١٩٥٣ ، صرح شوران - لاي ، لدى عودته من موسكو ، بأنه يقبل بأن يعهد بالجنود الصينيين الذين وقعوا أسرى في كوريا إلى دولة محايدة وأن يتركوا أحراراً في اختيار مصيرهم . وأمكن استئناف المفاوضات ، ووقع اتفاق الهدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣ .

وانطلاقاً من هذا التاريخ كثرت الحركات والفعال التي يمكن أن يعتقد بها بأن السياسة السوفياتية قد تغيرت . وفي ٤ آب ١٩٥٣ ، قبل السوفياتيون اقتراح مؤتمر أربعة لتسوية القضية الألمانية . وانعقد في برلين من ٢٥ كانون الثاني إلى ١٨ شباط ١٩٥٤ . ولم يسوّ فيه شيء . ولكن « الحوار » استؤنف .

وفي ١٩٥٤ ، بدا أن الدبلوماسية السوفياتية كانت مهمة بموضوع واحد . وكان ذلك نصراً للاتحاد السوفياتي ، في ٢١ هوز ، عندما أبرمت اتفاقات جوريف التي كرسست تقسيم فيت - نام .

ومنع ذلك ، علق السوفياتيون كثيراً من الأهمية على أوربة . فقد تجسد مشروع جيش أوربي . وتمهيات خطة أمرة الدفاع الاوربية (C. E. D.) . واستعمل خلفاء ستالين وسائط تقليدية لاختراق المشروع ، طوراً بتقديم تحالف الاتحاد السوفياتي إلى فرنسا ، ضد عودة نشأة الخطر الألماني - كما فعل مالنكوف في ٨ آب ١٩٥٣ - ، وطوراً ، بتمثيلهم إلى الألمان ، في مذكرة ١٥ آب ١٩٥٣ ، ان أمرة الدفاع الاوربية تجعل من ألمانيا الغربية دولة تابعة ، وتستعبد شعبها لسنوات طويلة . وفي فرنسا ، فشل انضمام الشيوعيين والوطنيين المشروع ، في ٣٠ آب ، ولكن اتفاقات لندن ، في ٣ تشرين الاول ، وباريس ، في ٢٣ تشرين الاول ، كرسست دخول ألمانيا في منظمة معاهدة حلف شمالي الأطلسي .

وبصفة رد انتقامي ، ألغى السوفياتيون ، في ٧ أيار ١٩٥٥ ، المعاهدة الانكليزية - السوفياتية لعام ١٩٤٢ والمعاهدة الموقعة مع فرنسا في كانون الاول ١٩٤٤ . وللإجابة على انشاء المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي (O. E. C. E.) ، ألغوا ، في كانون الثاني ١٩٤٩ ، مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة (الكوميكون) ، ووقعوا كذلك ، في أيار ١٩٥٥ ، في وارسو ، معاهدة التعاون العسكري بين البلاد الاشتراكية .

وهناك إعلان آخران يتعلقان بهذا الموضوع . ففي ١١ نيسان ١٩٥٥ ، شخص المستشار النمساوي إلى موسكو ، وتعهد السوفياتيون بتوقيع المعاهدة المتناقش بها منذ ثمانية أعوام . وفي ١٥ أيار ١٩٥٥ ،

عادت النمسا من جديد دولة مستقلة ، محدودة في مبادعاتها بتعهد بالحياة ، ولكنها مستقلة ذاتياً .

وبصورة موازية ، دعا السوفييتيون آديناور للشخص إلى موسكو ، في ايلول ١٩٥٥ : وقبل الاتحاد السوفياتي إقامة علاقات دبلوماسية مع جمهورية ألمانيا الاتحادية . وظل الغربيون يجهلون سلطات بانكو^(١) . ومرة أخرى حاول السوفييتيون أن يحوا الانطباع الذي تركته الحملات ضد إعادة التسليح الألماني و « المطالين بالتأثر » في بون .

وكان التجديد في مكان آخر ، ولم يكن في انعقاد مؤتمر جديد للأربعة ، في جوفيف ، في تموز ١٩٥٥ ، وعلى مستوى رؤساء الحكومات في هذه المرة ، لأنه لم يخرج من هذا المؤتمر شيء حسي ، باستثناء الترخيص الذي أعطي للأمريكيين في نشر مجلة في موسكو ، ولزم كل الفن الشيوعي في الدعاية للاعتقاد بظهور « روح جوفيف » ، بل في رحلة بولغادين وخروتشوف وميكويان إلى يوغوسلافيا ، في أيار ١٩٤٥ .

ان فكرة معاودة عقد العلاقات مع اليوغوسلافين يرجع تاريخها إلى ما بعد وفاة ستالين ، وربما كان المبادء في ذلك بيرويا الذي أخذ عليه ، بعد « تصفيته » بأنه ترأسل مع رانكوفيتش . وإذا كان الامر على هذه الحال فان من حذفوه استأنفوا برنامجهم ، لأنهم أكثروا العروض باتجاه بلغراد ، وكفوا عن الهجوم على تيتو ، ودفعوا الامتيازات حتى أنهم قدموا علناً اعدارهم : وعندما جاء خروتشوف إلى بلغراد صرح بأن مسؤولية القطيعة تقع على الاتحاد السوفياتي . و الصحيح أنه تحمل

(١) بانكو Pankow حي في برلين على نهر البانكة ، وهنا يعني مقر حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية .

بيرويا (المصفى ، في تموز ١٩٥٣) ، هذا الخطأ ، وهذا ما جعل تيتو يرفع كتفيه . واستؤنفت العلاقات بترحيب شيوعي العالم كله : حتى ان ماو تse - تونغ ، الذي لم يقم بعد علاقات دبلوماسية بين الصين الشيوعية ويوغوسلافيا ، أرسل سفيراً إلى بلغراد وهدايا إلى تيتو .

وبهذه المصالحة ، حاول السوفييتون أن يعيدوا وحدة الكتلة الشيوعية ، بل وأيضاً أن يجرّدوا تيتو من السياسة الخارجية التي جعلت منه أحد محركي لعبة السياسة العالمية ويأخذوها لحسابهم من جديد .

وأراد تيتو بعد شجبه أن يظهر بأنه لم يكن خادماً الامبرياليين فظل بعيداً عن الغربيين ، مضيفاً على هذا النحو حصاراً آخر طوعياً إلى الحصار السوفييتي . ولكن عوز يوغوسلافيا ، الذي كان يحدّد بتهديم سلطته ، اضطره إلى قبول المساعدة من الغرب ، وبخاصة من الولايات المتحدة . وأخيراً ، ودون التخلي عن المبادئ ، وضع سياسة أصيلة .

لقد تقرب من الاشتراكيين الغربيين مفيداً من باطل ملائم أوجده بينهم شجب موسكو له والظاهر القومي والديموقراطي لاشتراكيته . وفي كانون الاول ١٩٥٢ ، أرسل بعثة طبية الارادة إلى الهند وبرمانيا . وفي ١٩٥٤ ، قام بهذه الرحلة بدوره ، ثم ذهب إلى مصر وتكلم عن « مناطق سلام » خارجة عن الكتلتين .

وتبع السوفييتون اليوغوسلافيين في هذين الطريقتين . وقدموا عروضاً إلى الاشتراكيين الغربيين . واستقبل بولفانين وخروشوف ، في لندن ، من قبل العماليين الذين ردوا لهما الزيارة ؛ وأرسل الاشتراكيون الفرنسيون أيضاً وفداً إلى موسكو ، في نيسان ١٩٥٦ ، بينما قام غمي مواليه وكريستيان بينو ، رئيس مجلس الوزراء ، ووزير الشؤون الخارجية ،

في شهر أيار ، برحلة رسمية إلى الاتحاد السوفياتي وفي المؤتمر العشرين ، أشار خروتشوف إلى « الأهمية الاستثنائية » لوحدة عمل الشيوعيين والاستراكيين ، وليجعلها سهلة ، أكد بأن اللينينية لا تنفي « الطريق البرلماني » كوسيلة للمرور إلى الاشتراكية .

وحتى ١٩٥٤ ، لم يكن من الشيوعيين إلا التهمك اللاذع والشم لزعماء الدول التابعة سابقاً وتقول عن نفسها بأنها محايدة . وكانت الطريقة التعبوية المنبعة آنذاك ألا يترك الاعتقاد بأن من لم يكن شيعياً يمكنه أن يواجه ضربة إلى الامبريالية والرأسمالية . وإذا فعل ذلك ، فليخضع الجماهير ، وبهذا الواقع ، يكون عدواً أخطر من يزعم كمالهم .

وقام الصينيون بمبادرة التقارب مع الحايدين ، ففي نيسان ١٩٥٤ . وقعت حكومتا بكين ونيودلهي اتفاقاً على التبيت . وذكرت ديباجته النقاط الخمس للتعايش السلمي . وقامت الحكومتان مع حكومة برمانيا التي انضمت اليها بحملة لصالح هذا الميثاق الجديد . وكانت النتيجة ، المؤتمر الأفرو آسي الذي عقد في نيسان ١٩٥٥ ، في باندونغ ، حيث لعب شران - لاي الأدوار الاولى بين نهرو وجمال عبد الناصر . وتم التقارب باسم السلام وعدم تدخل الحكومات في القضايا الداخلية للبلاد الاخرى ، وفي الشهر التالي ، اقترح السوفياتيون على جمال عبد الناصر أن يبيعوه أسلحة .

وكرست رحلة بولغانين وخروتشوف المسرحية إلى الهند وبرمانيا ، في تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٥٥ ، تبني الاستراتيجية الجديدة : وهي أن العالم مقسم إلى ثلاث فرق ؛ وما على بلاد آسيا وافريقية وامريكا اللاتينية ، التي كانت طويلة أو التي ظلت تابعة أو تدور في فلك الدول

الكبرى الغربية ، إلا أن تعلن عن نفسها بأنها « محايدة » ،
« غير ملتزمة » لضعاف الكتلة الرأسمالية ؛ ومن الممكن التأثير عليها
أما بالوسائل الرسمية للدولة السوفياتية ، وأما بواسطة الأحزاب الشيوعية
المحلية ، لذهاب بها نحو الشرق لتابعة حركة الاستقلال التي قفصلها عن
الغرب .

ومنذ ذلك الحين ، أتى السوفييتون بمساندتهم لكل حركات الاستقلال
في افريقية انطلاقاً من ١٩٥٦ (في آسيا ، سويت قضية الاستقلال فيها
عملياً في هذا التاريخ) ، ولحركات الاستقلال في أمريكا اللاتينية .
وعندئذ دشنت الحكومة السوفياتية أيضاً سياستها في العون الاقتصادي
للبلاد المتخلفة النامية وأعطتها أهمية كبرى نفسية وسياسية بتركيزها على
بعض البلاد التي لعبت دور الشاهد أو الدليل ، بتعلقها بإنجازات مسرحية ،
وبالقيام بضجة كبرى حولها .

وكان ذلك لكل من كان يتلقى ، من الشرق أو من الغرب ، شكر
العالم الثالث . وأعطيت إشارة المنافسة في تموز ١٩٥٥ ، عندما عقدت
الصفقة التي كشف عنها جمال عبد الناصر في ٢٧ ايلول : فقد رفض
الغربيون أن يبيعوا أسلحة إلى الحكومة المصرية ، فأبرمت اتفاقاً مع
تشيكوسلوفاكيا على أن تقدم لها مصر القطن والرز مقابل تجهيزاتها
بالأسلحة . فردت الحكومة الأمريكية مقترحة على عبد الناصر عونها
لبناء السد العالي في اسوان . ولكنها ، في ١٩ تموز ١٩٥٦ ، ردت
على ارسال الأسلحة السوفياتية والتشيكية إلى مصر ، وعلى اعلان خبر
اجتماع كبار الحياذ الثلاثة : تيتو ، نهرو ، عبد الناصر ، وأعلنت بأنها
سحبت عرضها في تمويل السد العالي في اسوان : وبعد عامين ، في
خريف ١٩٥٨ ، قامت الحكومة السوفياتية مقامها بإنشاء هذا السد .

وبدا للقضية معنى أكثر دلالة ، لاسيما وات الولايات المتحدة ، منذ آخر الحرب ، بدت بأنها الدولة المناوئة للاستعمار . فقد كانت الأمريكيون أوفياء في هذا لتقاليدهم التاريخية وللتشجيعات والوعود التي كان ينفذها الرئيس روزفلت ، ولذا كانوا يدعمون حركات استقلال الشعوب المستعمرة بدعم ، في الحقيقة ، معنوي أكثر منه مادي ، ومعطى بشكل صري ، لأن الدول الاستعمارية المعنية كانت حليفة الولايات المتحدة ؛ ولذا لم يكن من قبيل الصدفة أن تركت معاهدة شمالي الاطلسي خارجاً عن المنطقة التي نظمت أمنها ، الامتدادات الامبراطورية لبلجيكا وبريطانيا العظمى والبرتغال .

وفي هذه السنة ١٩٥٦ ، أي في الوقت الذي أبعد فيه البريطانيون والفرنسيون تقريباً تماماً عن الشرق الادنى ، ووجد فيه الأمريكيون المجال رحباً ، اصطدموا بالمنافسة السوفياتية .

ومنذ الآن فصاعداً ، سيكون العالم الثالث ميداناً من الميادين المفضلة للمواجهة بين الشرق والغرب .

وجرت العادة في أن تنسب العودة إلى مناخ الحرب الباردة ، التي كانت عظيمة بخاصة في آخر ١٩٥٦ وفي ١٩٥٧ ، إلى الهزات الدرامية التي آثراها « الخلاص من الستالينية » في العالم الشيوعي . وقد عمل الموجهون السوفياتيون على إثارة « تناقضات » بين مختلف دول الكتلة الامبريالية ، دون أن يشكوا في أنهم كانوا يشيرون شيئاً منها في معسكرهم الخاص ، حتى وجد أن النظام الشيوعي كان على شفا الانهيار في هونغاريا ، وتزلزل على قاعدته في بولونيا . ووطدوا الحال بسرعة قضاياعصرنا (٧)

باستعمال الشكل الاقوى ، فاثار ذلك في الغرب كله رد فعل شديداً لاسيما وأنه كان يتصور كثيراً بأن « الشيوعيين قد تغيروا » .
ومع ذلك ، فان هذه الحوادث كانت الحوادث الصحيحة المعاصرة لـ « حرب السويس » التي أظهرت التناقض بين سياسة الانفراج التي يطبقها السوفييتون حيال بريطانيا العظمى وفرنسا ، وسياستهم الجديدة حيال العالم الثالث . ولم يترددوا بين الاثنين ، واختاروا الثانية . فقد تلقت بريطانيا العظمى وفرنسا وامرائيل من موسكو ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، مذكرات مهددة يلج فيها إلى إرسال قذائف ذرية موجهة . وكانت النورفيج وألمانيا والدانيمرك هدفاً لتهديدات مماثلة في بداية ١٩٥٧ . ومضى زمن « الانفراج » .

وفي ٥ كانون الثاني ١٩٥٧ ، سمح الكونغرس الامريكى للرئيس بأن يتدخل في الشرق الأوسط في حالة هجوم شيوعي « مباشر » ، وأن يساعد مالياً بلاد هذه المنطقة من العالم التي تقبل على هذا النحو بأن تكون محمية ضد عدوان شيوعي . وهذا ماسمى بـ « مذهب آيزنهاور » ، قبل عشرة أعوام ، في بداية الحرب الباردة .

التعايش السلمى (١٩٥٧ - ١٩٦٣)

في تشرين الثاني ١٩٥٧ ، وبمناسبة الذكرى السنوية لثورة تشرين الأول ١٩١٧ ، عقد ممثلو ٦٤ حزباً شيوعياً في موسكو أعظم اجتماع شيوعي منذ المؤتمر السابع للكونغرس في ١٩٣٥ . وعرف « قرار الـ ١٢ حزباً » ، « الخط العام » للحركة الشيوعية الدولية .

لقد أكد فيه أن « المبدأ الليبني في التعايش السلمى للنظامين ، الذي

« تستجيب له المبادئ الخمسة التي عبرت عنها معاً جمهورية الصين الشعبية وجمهورية الهند ، والاحكام التي تبناها مؤتمر بلاد آسيا وأفريقية في باندونغ ، تؤلف « الأساس الراسخ الذي لا يتزعزع للسياسة الخارجية في البلاد الاشتراكية » .

و تأكد فيه أيضاً أن « الاوساط الامبريالية العدوانية في الولايات المتحدة تريد بسياستها ، « سياسة حالات القوة » ، إقامة سيطرتها على معظم بلاد العالم » . وأنها أصبحت « مركز رد الفعل الرجعي العالمي وأقبح أعداء الجماهير الشعبية » ، وانها ترفض تخفيض التسليح ، وتحريم استخدام وصنع الاسلحة الذرية ، وانها تخلق « بؤرة » خطيرة للحرب في قلب أوروبا ، بمساعدة توليد الروح العسكرية في ألمانيا الغربية ، كما تخلق أيضاً تهديداً للسلام في الشرق الأدنى بـ « مذهب آيزنهاور - دالاس الشهير » ، وانها تخلق به مركزاً آخر في جنوب - شرقي آسيا مع « الكتلة العدوانية لمنظمة معاهدة حلف جنوب شرقي آسيا » .

ويبدو أن جميع الشيوعيين اتفقوا على هاتين النظريتين . وساد التفاهم ظاهراً .

لم يقدر الموجهون الصينيون التشهير بجرائم ستالين . والتقوا ، في هذه النقطة ، مع توريث في فرنسا ، ومع تولياني في إيطاليا ، ولكنهم ، خضعوا مثلها إن الـ « تشرين الأول » البولوني والثورة الهونغارية ، والاضطراب التي تعرضها هذه الهزات لحركة الشيوعية ، مبررة تحفظاتهم ، ساعدتهم على زيادة سلطتهم . فقد دعموا السوفييات في تدخلهم المسلح في هونغاريا ، ومن الممكن أنهم أرادوا ذلك منذ منعوا المكتب السياسي للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيياتي من الاستسلام . وفي ٦ كانون الثاني ١٩٦٧ ، قطع

شو ان - لاي رحلة كان يقوم بها في الهند ليذهب إلى موسكو ، وفارسوفيا ، وبودابست ويظهر فيها بأوضح شكل تضامن الحزبين .

وقارب جاء الحزب الشيوعي آنذاك من سمت الرأس . وظهر الحزب الثاني للأمية مساوياً للأول ، وكان السوفيياتيون بحاجة لمساندة سلطته ليؤمنوا سلطتهم ، وقد دلت رحلة شو ان - لاي على ذلك ، وصححوا في الاتجاه الذي دل عليه الصينيون انتقاداتهم حيال ستالين وعبادة الشخصية . وفي ١٥ تشرين الاول ١٩٥٧ ، تعهدوا ، باتفاق سري ، أن يقدموا للصين نموذجاً للقنبلة الذرية والمعلومات الفنية الضرورية لصنعها . وجاء ماو شخصياً إلى المؤتمر الشيوعي الكبير في تشرين الثاني ١٩٥٧ وسجل فيه نقاطاً . مجد تفوق ربح الشرق على ربح الغرب ، وعجز القنبلة الذرية عن إيقاف حركة البشرية نحو الاشتراكية ، لأنه سيبقى ، بعد حرب حرارية - نووية ، ما يكفي من الرجال لبناء المجتمع الجديد . وبهذا التواضع الخادع أشار إلى تفوق الحزب الشيوعي السوفياتي بواقع تجربة ثورية ، تجربة الاتحاد السوفياتي بواقع القوة التقنية (ألم يطلق من أرضه وبعلمائه ، في ٤ تشرين الاول ١٩٥٧ ، أول « سبوتنيك » ، قمر تابع ،) ؟ واتخذ من هذا التفوق حجة ليؤكد أن معسكر البلاد الاشتراكية يلزمه رأس ، وأن الحركة الشيوعية يلزمها زعيم ، وهذا الرأس ، هو الاتحاد السوفياتي ، وهذا الزعيم ، حزبه الشيوعي .

يبدو إذن أن الاتفاق تام . وفي الواقع بدأ الحلاف . لأن الاعتراف للحزب الشيوعي السوفياتي في الاتحاد السوفياتي بدور الموجه نفر شيوعي بلغراد . ولم يوقع الوفد اليوغوسلافي القرار . وهكذا عمل ماو على اخفاق محاولة التقارب مع يوغوسلافيا . ثم ان الاعتراف للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي بدور الزعيم ، يعني ، أيضاً ، المطالبة بأن تجد الحركة

الشيوعية الدولية بنية عضوية شبيهة ببنية الكومنتون ، مع هذا الفارق ، وهو ، ان الحزب الشيوعي السوفيياتي في هذه المرة ، لا يستطيع فرض إرادته بشكل سهل كما في السابق . لقد قدم ماو التاج للسوفيياتيين ، ولكن لينتزع منهم واقع السلطة . ولقد فهموا ذلك ، حتى ان خروتشوف ، في المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيياتي ، رفض بأن تكون للحزب صفة الزعيم ، واكتفى بصفة الطليعة . وفي هذا التاريخ ، وبالرغم من أنه لم يتسرب شيء إلى الخارج ، قام النزاع بين الطرفين .

وفي آخر تموز ١٩٥٨ ، ذهب خروتشوف فجأة إلى بكين . وظن بأن القصد كان قضايا عسكرية ، لأن المارشال مالمينوفسكي كاث في الرحلة . وفعلاً ، في ٢٣ آب ، بدأت القوات الصينية بضرب جزر كيموي وماتسو مدة ستة أسابيع ، دون نتائج ملموسة . وبدأ أن الحكومة الصينية كانت تنأهب لاستعادة فورموزا . ولا شك في أن الدعاية شمرت بالعدوان الأمريكي - الفورموزي ، وان السوفيياتيين لعبوا دور الحلفاء الاوفياء ، فشاركوا في التظاهرة بتأخر ملحوظ : ففي ٨ ايلول ١٩٥٨ ، كتب خروتشوف إلى آيزنهاور « بأن العدوان على الصين [...] إنما يكون عدواناً على الاتحاد السوفيياتي ... » .

وأثار الموجهون الصينيون هذه الأزمة ليجلقوا في البلاد الحمى النفسية الجماعية التي هم بحاجة اليها لمشروع من طبيعة أخرى تماماً . وعجل خروتشوف ليجاول إيقاف جنون « الوثبة الكبرى إلى الامام » ، و « القومونات الشعبية » . ولم يخش سوء الظن الذي بسببه للشيوعية إخفاق هذه المحاولات وأكثر من ذلك أثرها على الفلاحين السوفيياتيين من التهديد الذي تثقل عليهم به هذه التجارب الصينية فحسب ، بل كاث يعلم أيضاً بأن هذه التجارب كانت موجهة ضد الهيمنة السوفيائية

- ١٠٢ -

على الحركة الشيوعية العالمية . وحاول ماو أن يذهب إلى أبعد ما عمل في الاتحاد السوفياتي في « إنشاء الشيوعية ، ليبرر ترشيح الحزب الشيوعي الصيني و « رئيسه » لدور الطليعة والزعيم .

وتجاوز ماو اعتراضات خروتشوف ، ولكن السوفياتيين أعلموا الحكومة الصينية ، في ٢٠ حزيران ١٩٥٩ ، بأنهم لن يقدموا لها المعلومات الموعودة المتعلقة بالقنبلة الذرية ؛ وفي آب ١٩٥٩ ، في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني كان ماو ، الذي أعلن في كانون الاول ١٩٥٨ بأنه لن يطلب تجديد انتدابه لرئاسة الجمهورية ، هدفاً لمجموع مفاجيء قام به المارشال بنغ ، عضو المكتب السياسي ، وكان يعمل على ما يبدو باتفاق مع خروتشوف . وعندما علم ماو بذلك دفع الضربة ، وحذف خصومه . ولما جاء خروتشوف إلى بكين ، للاحتفال بالذكرى العاشرة للنصر الشيوعي في الصين ، كان بينه وبين ماو محادثات ينقصها اللطف والوداعة ، ولم ير الرجلان الواحد الآخر بعد ذلك .

ومنذ آخر ١٩٥٧ ، كان السوفياتيون أقوياء بالجاه الذي خولهم إياه إطلاق أول قمر اصطناعي ، سبوتنيك ، وأقوياء أيضاً بموافقة وتجنيد مؤتمر الاحزاب الشيوعية لسياسة التعايش السلمي ، فاستعادوا حبال الغرب سياسة الابتسام . وفي ٢ تشرين الاول ١٩٥٧ ، اقترحوا على منظمة الأمم المتحدة ، بواسطة وزير الشؤون الخارجية البولوني ، واباكي ، أن تنشأ في اوروبا منطقة يحرم فيها تخزين الاسلحة النووية . وفي كانون الاول ١٩٥٧ ، وجهوا إلى جميع الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة مذكرة ليوحوا بانعقاد مؤتمر عام في جنيف لنزع السلاح ، هذا الاقتراح الذي سيتحول بعد قليل إلى إقتراح مؤتمر ذروة . وفي ٣١ آذار أعلموا بأنهم علقوا تجاربهم النووية .

وهذا الاندفاع في سبيل السلام لم تعاكسه فحسب الازمة التي أثارها في الشرق الأدنى اضطرابات لبنان والثورة العراقية ، في تموز ١٩٥٨ ، بل أيضاً ، محاولات الصينيين على كيموي وماتسو ، في آب وابلول ، وكان هذا أول تداخل للخلاف الصيني - السوفياتي في العلاقات بين الشرق والغرب . ثم استؤنف بعد قليل ، وشهد في جوفيف تعاقب المؤتمرات الدولية : المؤتمر الدري ، مؤتمر ايقاف التجارب النووية ، مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية بشأن برلين ، في أيار - آب ١٩٥٩ . وشهد ما هو أكثر من ذلك : ففي ابلول ، ذهب خروتشوف إلى الولايات المتحدة . وكانت محادثاته مع آيزنهاور في معسكر ديفيد دون نتيجة ، ولكن الشيوعيين تكلموا بوفرة عن « روح معسكر ديفيد » كما كانوا قد تكلموا عن « روح جوفيف » .

وفي الوقت نفسه ، قبل خروتشوف أن يزور فرنسا ، وجاءها في آذار ونيسان ١٩٦٠ ، محاولاً في كلامه الضرب على الوتر المناويء لألمانيا .

وبينما كان السوفياتيون يتابعون هذا العمل الذي يزيد في جاههم في العالم ويسهل « التوغل الشيوعي » ، أثارت الحكومة الصينية عمليات عسكرية ، ضعيفة الاهمية في الحقيقة ، ضد الهند حيث التجأ الدالاي - لاما ، في آذار ١٩٥٩ ، وكانت ذلك ، في رأي السوفياتيين ، « لمنع نقص التوتر الدولي » ، و « تعقيد الحالة قبيل تبادل الزيارات بين الرئيس آيزنهاور ونيكيتا خروتشوف » ، حسب عبارات بلاغ لوكالة ناس ، في ٩ ابلول ١٩٥٩ ، طبقاً على من يستغلون في هذا الاتجاه « حادث الحدود الصينية - الهندية » ، ولكن الصينيين اعتبروا على حق بأنها تعنيهم . وإلى نشر هذا البلاغ يصعدون بالوقت الذي أصبحت فيه الاختلافات بين الاحزاب الشيوعية عامة . ولجواب ، نشروا ، في نيسان

١٩٦٠ ، تحت عنوان « لتعش الليينية » شجيباً ل « إعادة النظر الحديثة » ؛ وكان المظهر البغيض في نظرهم لهذه السياسة « التعايش السلمي » الذي كانوا مع ذلك يحركه الرسميين .

ولعب هذا الهجوم دوره في إخفاق مؤتمر الذروة الذي كان عليه أن يفتتح في باريس في ١٦ أيار ١٩٦٠ . وأفاد خروتشوف من طائرة أمريكية اسقطت فوق أراضي الاتحاد السوفياتي ، في مهمة تجسس فونوغرافي جوي ، ليمنع انعقاد المؤتمر . ولكن هذا التفجير كان يؤلف قبل كل شيء جواباً لاتهامات الصينيين ويؤكد ضد سلطة الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في داخل الحركة الشيوعية الدولية .

* * *

وبعد أن تخلص خروتشوف من المؤتمر حاول أن يرد الصينيين إلى العجز . هاجمهم فجأة ، في حزيران ١٩٦٠ ، في بخارست ، أثناء الاجتماع الدولي الذي كان المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الروماني حجة له . وطلب التصويت ، من ممثلي الأحزاب الشقيقة المندوبين لهذا المؤتمر ، على نص يشجب المواقف الصينية ، ولكن الصينيين تجنبوا الشجب وقرروا الدعوة لمؤتمر جديد . وعقد هذا المؤتمر في موسكو ، في تشرين الثاني ١٩٦٠ . وفي غضون ذلك استدعى السوفييتيون ، في شهر تموز ، خبراءهم من الصين .

وانتهى مؤتمر الـ « ٨١ حزباً » على تصويت إجماعي . ولم يكن هذا الاجتماع إلا واجهة . لأن الخلاف تفاقم . وشجب الصينيون من جديد « التعايش السلمي » الذي يقود إلى الاستسلام أمام المساومة الأمريكية بالحرب ويثبط عزيمة الثوريين في البلاد الرأسمالية ، ودعموا أيضاً ، وبكثير من القوة ، بأن محرك الثورة العالمية لم يكن الثورة المناوئة للرأسمالية التي يقوم بها العمال الاوريون ، « المتبرجزون » ، كثيراً ، بل حركة التحرير القومي

للشعوب المستعمرة والنصف تابعة ، هذه « المنطقة المتوسطة » التي هي أيضاً « منطقة الزوابع » . ونجحوا في أن ضموا إلى نظرياتهم الالبانيين والكوريين والفيتناميين والاندونيسيين والاورستاليين وأكثريه اليابانيين ، وقسماً هاماً من الحزب الشيوعي في الهند .
وتنمياً الانفصال في الأهمية وبدأ بانها تبنت خط صدع له صفة عرقية .

واستمر الخلاف في دائرة مغلقة حتى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، في تشرين الأول ١٩٦١ ، الذي غادره شوان - لاي جهاراً ، لأن خروتشوف سمح لنفسه بمهاجمة الرفاق الالبانيين علناً .

وليحذف السوفييتون أهمية الانتقادات الصينية ، ضاعفوا الدعم الذي ساندوا به الحركات الثورات في البلاد المتخلفة . وفي ١٩٦٠ ، فتحوا في موسكو « جامعة صداقة الشعوب » لطلاب العالم الثالث ، وأصبحت هذه الجامعة جامعة لومومبا بعد قتل الزعيم الكونغولي في شباط ١٩٦١ . والثورة التي حدثت في الكونغو ، في ٦ تموز ١٩٦٠ ، بعد بضعة أيام على إعلان الاستقلال ، استوعت اهتمامهم إلى هذه النقطة وهي أن دبلوماسيهم سيطردون من ليوبولدفيل . وفي أيلول ، ذهب خروتشوف شخصياً إلى منظمة الأمم المتحدة . ودور الحذاء الذي ضرب به درجه مشهور كثيراً ، ولكنه أقل معنى من زيارته لحي هارلم ، وقد زاره كاسترو قبله ، وكان في ذلك اسهام لم يخل من تأثير في بقطة « القضية السوداء » .

وفي ١٨ آب ١٩٦٠ جاء إلى لاهافانا أول سفير سوفياتي كان من الممكن أن يرى في كوبا منذ ١٩٥٢ ، حين كان كاسترو محتفل ، في ٢٤ آب ،

- ١٠٦ -

ب صداقة الاتحاد السوفياتي والصين . وهكذا توطد تطور عجلت به الحملة المناوئة لكاسترو في جون الحنازير ، في نيسان ١٩٦١ . وفي كانون الاول ١٩٦١ ، اعترف كاسترو علناً بالماركسية - اللينينية ، ومن بعد ذابت حركته « حركة ٢٦ تموز » مع الحزب الشيوعي لتعطي حزباً جديداً أصبحت له مكانته في الامة الشيوعية .

ومنذ الآن ، أصبح تحت تصرف الشيوعيين « قاعدة اضطراب » في امريكا اللاتينية ، وسيكرسون أفضل جهودهم لهذه القارة : فقد خيبت افريقية آمالهم ، من سيكوتوريه إلى نيكروما إلى جمال عبد الناصر . وكانوا يرون أن القوة الامريكية ضعيفة بخاصة في هذا المكان من العالم . وفي ١٩٦١ ، انطلق الحزب الشيوعي الفنزويلي ، كما فعل كاسترو ، في الكفاح المسلح .

وعندما دخل كينيدي ، في كانون الثاني ١٩٦١ ، الى البيت الابيض مال إلى التفاهم مع الاتحاد السوفياتي ، وبتفكير في تقسيم العالم أقل من التفكير في الروح التي سادت ميلاد منظمة الامم المتحدة . ولا شك في أنه كان يعرف أيضاً الحلاف الذي يفرق الصينيين والسوفياتيين . أفلا يحسن القيام بتنازلات إلى السوفياتيين تحت سلطتهم ، وتساعدهم على الدفاع لدى جماعتهم عن سياسة « التعايش السلمي » ، ومنع شو نفوذ الصينيين ، الذين يؤلفون الحزب الذي يخشى أكثر من غيره في الحركة الشيوعية ، لانه أكثر ثورية ؟

وفي ٣ و ٤ حزيران ١٩٦١ . التقى كينيدي بخروتشوف في فينا وكانت المحادثة مخيبة واعترف كينيدي نفسه بأن الحفرة لم تسد ، ولكنه أكد ، محتفظاً بالامل ، بأن طرقاتاً للاتصال قد فتحت .

ولم تكافأ هذه النوايا الطيبة . وربما حضت السوفياتيين على استعمال الشدة : ومن الممكن أن يكون خروتشوف وزملائه قد تصوروا أن كينيدي

يعمل ويتكلم كما لو كان يفعل ذلك عن ضعف ! وفجأة ، في ١٣ آب ١٩٦١ ، آثار الشيوعيون في برلين أزمة شبيهة بأزمة ١٩٤٨ وفصلوا بيجدار ، « جدار العار » نصفى المدينة . وفي ٣٠ آب ، أعلنوا عن عزمهم على استئناف التجارب النووية . وأعلنت بعض التصريحات المهددة بعض الشعوب ، الايطاليين مثلاً ، بأنها ستحذف من الخارطة إذا تركت الامريكيين يقيمون قواعد ذرية على أراضيهم .

وبعد عام ، بلغ التوتر نقطة حرجية ، في تشرين الاول ١٩٦٢ ، بأزمة كوبا . وفي الربيع عاد المناخ السيامي الدولي صافياً من جديد ، ولكن ليخفي بشكل أفضل مشروعاً خطيراً . فقد حصل خروتشوف من كاسترو على حق يمكن السوفيياتيين من إقامة مراكز لإطلاق للصواريخ في كوبا . وفي ١٨ تشرين الاول ، علم كيندي بأنه الاهتمام منصرف في الجزيرة لانشاء عشرة مراكز للإطلاق ، وان ٢٥ سفينة شحن سوفياتية تحمل الصواريخ في طريقها إلى لاهافانا . فاطلق في الحال إنذاراً : بتقويض المراكز وعودة سفن الشحن ادراجها . وقرر حصار كوبا وربما كان هذا الحادث أخطر بحاجته بين الشرق والغرب منذ الحرب . وتماسكت الكتلتان . ودعم الصينيون السوفيياتيين رغم أنهم ، على وجه الدقة وفي نفس الوقت ، قاموا بهجوم جديد على الجبهة الهندية ، وأكدت الحكومات الاوربية تضامنها مع الولايات المتحدة .

وفي ٢٧ تشرين الاول ، تنازل السوفيياتيون ، ولا شك بعد أن حصلوا على ضمانات مربية لكوبا . ومع ذلك ، فقد لاقوا اخفاقاً . وأنقذوا الظاهر مؤكدين بأنهم أنقذوا السلام .

وإذا كان السلام في خطر فعلى من يعود الخطأ ؟ ولكن هل كان السلام حقاً في خطر ؟ لم يحاول السوفيياتيون المجابهة . لقد كانوا يأملون

بتغيير توازن القوى بمفاجأة . وفكروا بأنه إذا ما أقيمت صواريخهم في كوبا ، فإن الأمريكيين لا يمكنهم أن يستخدموا القوة لاجراجهم منها . ولما لم تلعب المفاجأة دورها ، لم يكن عندهم على وجه التأكيد لحظة لاستخدام القوة لإتمام مشروعهم .

وبعد هذا الخطر ، كان من الممكن توقع عودة الحرب الباردة . ولكن الذي حصل ، بالعكس ، كان مظاهرات ودية . وبدأ أن كينيدي كان يريد أن يفيد من ذلك لالتوجيه ضربات جديدة إلى السوفيائين ، بل ليدفعهم إلى أن يطبقوا باخلاص قولهم الخاص في التعايش السلمي . وفي نيسان ١٩٦٣ ، قرر الأمريكيون والسوفيائيون إقامة خط هاتفي مباشر بين واشنطن وموسكو « الهاتف الأحمر » . وفي ٢٥ تموز أبرمت في موسكو معاهدة وقعتها ، في ٥ آب ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى لاييقاف التجارب النووية . ولم يزل اغتيال كينيدي ، في تشرين الثاني ١٩٦٣ ، مناخ هذا الانفراج . وفي ٢٠ نيسان ١٩٦٤ ، أعلنت الحكومات الثلاث نفسها ، بمبادرة الرئيس جونسون ، تخفيض صنع الاسلحة الحرارية - النووية . وحتى في برلين ، بدا كل شيء يسير بشكل أفضل . ففي عيد الميلاد في ١٩٦٣ ، حصل السكان على وثيقة مرور لاجتياز « جدار العار » ؛ وفي أيلول ١٩٦٤ ، قضى اتفاق بان يفتح الجدار أربع مرات في الاثني عشر شهراً القادمة . وقرئ في صحيفة « الانسانية » في ٥ تشرين الثاني ١٩٦٤ : « في القول لا إلى غولد ووتر ، المرشح الجمهوري في انتخاب الرئاسة ، قال الشعب الأمريكي لا إلى الفاشية وإلى الحرب » . وفي نيسان ١٩٦٣ « أتى البابا يوحنا الثالث عشر بدعم الكنيسة الكاثوليكية لهذه السياسة بنشره على اكليريوس العالم الكاثوليكي رسالته الرسمية « على الارض السلام » .

آخر ما بعد الحرب

هل أبرم الكيوان اتفاقاً مريباً ؟ إن الشيوعيين الصينيين يتمعنونها بالتواطؤ. ودون الذهاب أيضاً إلى بعيد، أصبح من المبتذل تصور اتصالات مريبة ، ومحادثات تثبت فيها الحدود التي يحترمها كل واحد منها . ومن الأفضل الكلام عن تفاهم ضمني صادر عن طبيعة الأمور : لقد شل الأمريكيون والسوفييتيون بتوازن قواهما والاستحالة المعنوية في المبادرة إلى الأسلحة النووية . وربما تقاربوا بوحدة المسؤوليات التي تثقل عليهم ، وكان موجهوم ولا شك مأخوذون بنفس الاهتمام في منع بعثرة الأسلحة الذرية : لأن هذه البعثرة تخفض نسبياً قوتهم ولا تساعدهم في الإشراف على استخدام هذه الأسلحة ، والاستعمال الذي يقوم به أو يمدد به فريق ثالث يوشك أن يجبرهم إلى حيث نجحوا حتى الآن بالألأ يذهبوا إليه .

ثم ان اهتمامات ومشاغل داخلية جنبت أيضاً حكومتهم عن المغامرات الخارجية . وتحملت الولايات المتحدة بخفة ونشاط ثقل المبادرة الى الأسلحة ولكن وصول الشعوب الافريقية إلى الاستقلال الوطني أيقظ بالمقابل ، « القضية السوداء » . وأخذت ثورة السود أشكالاً عنيفة خرج منها ماضٍ ظن بأنه زال ، بمتزج باقتباسات عن حرب العصابات الثورية على أساس الارهاب . وبعد ذلك ، وبنوع من عدوى العنف ، جاءت حركة المعارضة في حرب فيت - نام ، وبخاصة في الأوساط الفكرية ، تزيد إضطرابات الشارع ، اضطراب الأفكار .

وفي الاتحاد السوفياتي ، لم يبلغ تراخي الاستبداد نسباً تمكن الرأي ، إذا وجد ، من التأثير على السياسة الدولية للحزب ، ولكن الاقتصاد ضاقت أنفاسه . لأن جهد التسليح والاكتشاف الكوني لم يفتر ، ومتطلبات

السكان ، بدءاً بـ « الطبقة الجديدة » أخذت تتزايد دون انقطاع ويجب محاولة إشباعها وإرضائها .

إن نظام « الانسان الحر » المحرب منذ ربيع ١٩٦٤ ، والمعمم انطلاقاً من كانون الثاني ١٩٦٥ ، والمرسم ، أي الذي جعل رسمياً ، من قبل اللجنة المركزية في أيلول ١٩٦٥ ، كان عليه أن يحسن كماً وكيفاً انتاج السلع الاستهلاكية ، ولكن هذه الرجعة الجزئية في ممارسة اقتصاد السوق ، إذا دفعت اضطرابات داخلية ، فقد أفسدت جاء العقائدية الشيوعية في العالم ، وهددت ، في الاتحاد السوفياتي ، بفعل بقعة الزيت وبتجاوز النطاق الذي جهدت المحاولة في إبقائها فيه .

لقد تجنب الكيبران إذن المجابهات ، إما بتوقيع اتفاقيات جديدة ، معاهدة في نزاع سلاح الفضاء ، في ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٧ ، وإما باستعمال الفطنة والحذر والتعقل للحفاظ على هيمنتها أو لزيادتها . ومها يقل الشيوعيون الصينيون ، فإن السوفياتيين لم يتخلوا عن نصرته الشيوعية في العالم . فهم يشيرون دوماً بأن التعاش السلمي هو الشكل الحاضر لنزاع الطبقات على المقياس الدولي ، والطريقة التعبوية التي يوصون بها هي طريقة « الطريق السلمي » ، أو « البرلماني » ، وعلى الشيوعيين المحليين أن يعقدوا تحالفات واسعة لدخولهم من جديد في الحياة السياسية السوية ووصولهم إلى السلطة بوسائل قانونية .

وبدت هذه الطريقة التعبوية ناجحة بعد أن ساعدتها نسوية علاقات معظم الدول الغربية مع الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية . ولم يبد في إيطاليا ، وفي فرنسا ، وفي بعض الأوقات في اليونان ، ان الشيوعيين أبعدوا عن الأمل بالسلطة . وفي شيلي ، قبل انتخابات الرئاسة ، في ٤ أيلول ١٩٦٤ ، أمكن الاعتقاد بانتصار المرشح الذي قدمه الشيوعيون

تحت عنوان الجبهة الشعبية . وفي فنلاند ، في ٢٧ أيار ١٩٦٦ ، ولأول مرة في أوروبا الغربية منذ ١٩٤٨ ، دخل ثلاثة شيوعيين الحكومة . وتابعت الولايات المتحدة سياسة « الاحتواء » ، وفي هذه المناطق من العالم التي لم يتفق فيها على خطوط تقسيم النفوذ كثيراً أو قليلاً بشكل رسمي غداة الحرب ، سجلت نجاحات عظيمة ، حتى انها قامت بالعملية بنفسها أو أن هذه العملية ذهبت في اتجاه سياستها دون أن تكون لها مباشرة يد في شيء .

وفي الفاتح من نيسان ١٩٦٤ ، قلبت « الثورة الوطنية » ، التي قام بها الماريسال كاستيلو برانكو ، غولارت الذي كان الشيوعيون يعتمدون عليه للذهاب بالبرازيل إلى « الديمقراطية الوطنية » . وفي ١٩ حزيران ١٩٦٥ ، كان ابن بلا د بطل الاتحاد السوفياتي منذ رحلته التي قام بها إلى موسكو في ٢٥ نيسان ١٩٦٤ ، قد طرح سافلاً بانقلاب عسكري بدا انه انتزع الجزائر من جذب الشرق وفي ٣٠ أيلول ١٩٦٥ ، حاول الحزب الشيوعي الاندونيسي ، الذي يتباهى بأنه كان أقوى حزب في العالم الحر ، بناءً على نصيحة الموجهين الشيوعيين الصينيين وبمشاورة سوكارنو ، ضربة قوت كان اخفاها سبباً في القضاء عليه ، ثم سقط سوكارنو ، في ١٢ آذار ١٩٦٧ بعد أن أجل ثم عجل . وفي ٢٤ شباط ١٩٦٦ ، استولى الجيش على السلطة في اكوا في غياب نكروما الذي ذهب إلى الصين في رحلة رسمية : حتى انه لم يستطع الدخول ثانية إلى غانا . وفي اليونان ، البلد الذي حاول الشيوعيون ، منذ آخر الحرب ، جره تحت هيمنتهم ، قام قسم من الجيش واستحوذ على السلطة في ٢١ نيسان ١٩٦٧ .

وفي كل هذه الضربات ، كانت الـ C.I.A. موضع اتهام دون تقديم أي دليل مقبول ، ولكن هذه الضربات ، في الواقع ، ذهبت في اتجاه

السياسة الامريكية ، وعلى الأقل اذا لوحظت في خطوطها الكبرى . وقد حصل أن مشاريع لم يشجعها الامريكيون ولم يروجوها أضعفت أعدادهم ، من حكومات انضمت إلى معسكر السوفيياتين أو أن السوفيياتين وجدوا فيها وسيلة لاستخدام نفوذها: وهكذا في حزيران ١٩٦٧ ، أعطت حرب إسرائيل ضد العرب ، خلال فترة من الزمن ، ضربة توقف للتوغل السوفياتي في الشرق الأدنى وزعزعت سلطة جمال عبد الناصر ، ولحد قليل ، سلطة الحكومة السورية التي ظهر بين أعضائها شيوعي منذ الفاتح من آذار ١٩٦٦ .

ولفترة ، تحت ضربة أزمة تشرين الاول ١٩٦٢ ، ولا شك ، التي دلت على أن السوفيياتين يحاولون إقامة قواعد عدوان بالقرب من أراضي الولايات المتحدة ، وربما أيضاً تحت تأثير اغتيال الرئيس كينيدي في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٣ ، وتغيير الرئيس ، حصل تحول في الإدارة والرأي الامريكيين . وبدأ أن الاوهام الروزفلتية و «أوهام الأمم المتحدة» أصبحت تابعة منذ الآن للماضي . ودل التدخل في سان - دومينغ على عدم ترك تشكيل كوبا ثانية في البحر الكاريبي الذي قرر الشيوعيون اللاتينيون الامريكيون منذ اجتماع لاهافانا ، في تشرين الثاني ١٩٦٤ ، تركيز جهودهم عليه .

وبنفس الروح وبنفس دعم الرأي قسام جونسون (المنتخب في ٣ تشرين الثاني ١٩٦٤) في ٧ شباط ١٩٦٥ ، بالقصف الجوي الاول لفيت - نام الشمالية التي تدعم فيها الحكومة حرب العصانات التي تقوم بها في الجنوب جبهة التحرير الوطنية ، وهي منظمة تابعة للحزب الشيوعي الفيتنامي . وهكذا بدأ ، وربما دون أن يراد في موسكو ، نزاع تجابه فيه الكبريان ، وكان أحدهما يعمل بشخص وسيط ، ولكن دون أن

يخفي نفسه ، ولم يستطيعا استخدام جميع وسائلهما ، خشية أن يوجدوا مخاطرة بنزاع ذري . ولم يستطيعا الانسحاب ، لان انسحاب الامريكيين يمكن أن يأخذ ظاهرة اخفاق ويسبب ، على ما يبدو ، اشتعال حرب العصابات في أمكنة أخرى ، في أمريكا اللاتينية ولا شك ، كما حصل ذلك في أفريقيا بعد هزيمة فرنسا في الهند الصينية ، ولأن السوفيياتين ، في الحالة الحاضرة للحركة الشيوعية الدولية ويعجلون ولا شك بتقويضها إذا ما سحبوا عن الشيوعيين الفيتناميين عونهم بالمال والعتاد والفتين : وبالفعل ، فان الشيوعيين المناصرين للصينيين يأخذون عليهم ضعفهم ، ويأمحون بأن « المتشككين » في موسكو لا يحرصون ولا شك على انتصار حزب شياع ، إن لم يكن قد فعل ذلك ، فريق « الماركسيين - اللينينيين » الحقيقيين .

والمثال الدامغ للشلل ، في حالة نزاع ، هو أن توازن قوى الطرفين ضرب حس الكيرين . حقاً لقد بدا أن السوفيياتين ، في هذا النوع من المجابهة الجامدة ، أحرزوا فائدة خفيفة ، لأنهم ، وليس لهم ما يخشون لا من الرأي العالمي ولا من الرأي غير الموجود في الاتحاد السوفياتي ، اضطروا الامريكيين إلى زيادة جهدهم دون انقطاع ، حتى ان ثمة بالرجال بدأ يحرك رأياً مرتبكاً بعد أن رأى البلاد منخرطة في طريق مسدود لأسباب لا تبدو له واضحة جداً ، وهذه الحالة بخاصة تخيف على الصعيد المعنوي لشعب اعتاد على التفكير بأن جميع القضايا يمكن أن تحل وبسرعة .

وإذا جنبنا تهديد حرب عالمية ثالثة شغلت الافكار ، عن حق أو عن باطل ، فإن شلل الكيرين أعاد إلى الدول الصغرى والمتوسطة حرية قضايأ عصرنا (٨)

العمل التي تخلى عنها بعض هذه الدول طوعاً أو جزئياً ، أو انتزعت من الأخرى . ولم تلعب اللعبة الدولية فحسب بين واشنطن وموسكو ففما كان بسميه الشيوعيون ، في زمن الحرب الباردة ، المعسكرين أو الكتلتين بدأت أو تأكدت مشقات ؛ وارتسمت سياسات مستقلة ، كما بدأت مبادعات على نقيض إرادة الكبار . وارجعت استحالة الحرب الحرارية - النووية الحرب الكلاسيكية ، أي إلى الأسلحة التقليدية حقوقها . وانتهت الحالة التي وجدت غداة الحرب وكان الكيوان جامدين ، هذان اللذان ظلا حتى ذلك الحين في حركة دون انقطاع . وبتمجيد أحدهما الآخر سحب كل واحد منهما من الآخر جزئياً وسائط فرض الجمود نفسها على حلفائهما أو على تابعيهما . وكانت هذه نهاية ما بعد الحرب .

وعرف المعسكر السوفييتي نظاماً قاسياً جداً . وهو وحده يمثل بحق ظاهرة كتلة ، وإن انهاره يكون مسرحياً وضخماً بالنتائج المستقبلية .

وقد امت أزمة كوبا للشيوعيين الصينيين الفرصة للقيام على خروثشوف « المغامر » . وأصبح الجدل بين موسكو وبكين عاماً وزاد عنفاً . وفي كل إجتماع منذ الآن للمنظمات الكبرى التابعة للحركة الشيوعية الدولية (F.S.M. ، حركة السلام ، منظمة التضامن الافرو آسي وغيرها) يرى المندوبون الصينيون والمندوبون السوفييتيون في حالة نزاع . ولإرضاء العاطفة الوطنية وإضعاف سلطة الاتحاد السوفييتي في العالم الثالث ، طالب ماوتسه - تونغ بالاراضي التي تنازلت عنها الصين سابقاً إلى روسيا القيصرية . وفي تموز ١٩٦٤ ، صرح إلى إشتراكيين يابانيين بأن السوفييتيين يحتلون كثيراً من الاراضي التي ليست لهم في أوروبا وفي آسيا . وفي ١٦ تشرين الاول ١٩٦٤ انفجرت أول قنبلة صينية .

وبعد أن أبعد ماوتسه - تونغ نصف أبعاد عن السلطة في ١٩٥٨ -

١٩٥٩ ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية ، انصرف الى الحركة الشيوعية الدولية : وتشكلت على جميع القارات تجمعات شيوعية مناصرة للصينيين وتألفت أحياناً بشكل أحزاب . وكلها تعترف ببطل ماوتسه - تونغ ، وسيقال فيما بعد بـ « فكره » . وهكذا ارتسمت إطلاقات أهمية شيوعية جديدة ، وأعطى الماريشال لين - بياؤ ، نائب رئيس المكتب السياسي ، لها كلمة الأمر ، في ايلول ١٩٦٥ ، وهي : تطويق الغرب بإثارة الحرب الأهلية في آسيا ، في أفريقية وفي أمريكا اللاتينية وبفضل لين - بياؤ ، وطد ماوتسه - تونغ نفوذه على الجيش الصيني ، وبمساعده آثار ، في نيسان ١٩٦٦ ، لاستعادة كامل السلطة ، هذه « الثورة الثقافية » التي كان أثرها الثاني انتشار امم و « فكر ماوتسه - تونغ » في كل مكان في العالم ؛ وأصبح كتابه « الكتاب الأحمر الصغير » إنجيل المناضلين الثوريين العديدين على جميع القارات .

وحاول السوفييتون أن يردوا إلى الحركة الشيوعية تماسكها . واقترح خروتشوف عقد مؤتمر شيوعي دولي . ودعا إلى اجتماع تحضيري ، ورفضت كثير من الاحزاب المدعوة المجيء أو لم تجب . وربما يكون هذا الاخفاق هو الذي حمل زملاء خروتشوف على ابعاده ، في ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ ، وجعلوه مسؤولاً عن الدورة الحادة التي أخذها النزاع . والواقع ، بعد ذهابه ، هو أن الجدل انقطع بعض الوقت ، ولكن رحلة كوسينغين إلى بكين وإلى هانوي ، في ٥ - ٦ شباط ١٩٦٥ ، أقنعت الجانبين بأن نواياهما المتبادلة ظلت نفسها ، واستؤنفت الهجمات بعنف ، في آذار ١٩٦٥ ، في موسكو ، بعد انعقاد المؤتمر التحضيري الذي مثل فيه تسعة عشر حزباً من الـ ٢٦ حزباً المدعوة .

وفي تشرين الثاني ١٩٦٧ ، أثناء أعياد الذكرى الخمسين لثورة تشرين الاول (في التقويم الرومي) ، كان المؤتمر الدولي دوماً في حالة

تحضير ، وكثير من الاحزاب تجنبت شجب موجبي الحزب الشيوعي الصيني ، بينما بلغ حلق السوفيائين نقطة الذروة ، حتى انهم اظهروا في جرائدهم ، في تشرين الاول ١٩٦٧ ، مقالاً يخرج الصين من صف البلاد الاشتراكية ويتم « الطغمة العسكرية » التي توجهها بتحضير خطط عدوان شبيهة بـ « خطة تاناغا » في السيطرة على آسيا ثم على العالم .

ولم يؤد هذا الخلاف إلى تأسيس أحزاب من طاعة صينية ، بل ان بعض الاحزاب ، التي ظلت وفية لموسكو ، تشجعت لأخذ بعض الحريات حيال السوفيائين . وفي ١٩٥٦ أذيعت فكرة اختلاف السياسات القومية لأن اختلاف الطرق التعبوية التي تتبناها مختلف الاحزاب الشيوعية لا يضر بالتأسك الاسامي للحركة . ولكن الشقاق الصيني شجع على الخروج على النظام ، وأفاد الكثيرون من ذلك ، ولم يستعمل السوفيائيون ضد بعضهم تدايير انتقامية مخافة أن يروهم يشايعون المعسكر الصيني ، وأوضح مثال على ذلك ، وليس الوحيد في نوعه ، الحزب الشيوعي الروماني ، لأن انشقاقه النهضي يذكر ، علاوة على ذلك ، بأن قضية القوميات لم تحل في أي مكان في اوروبا الشرقية .

والى الشقاق الصيني يضاف شقاق آخر . فتحت الضغط السوفيائي قطع فيديل كاسترو العلاقات مع الشيوعيين الصينيين الذين تنجبه شطرم تفضيلائه المذهبية ، وخطب ضدهم خطاباً عنيفاً ، في ٦ شباط ١٩٦٦ . ولكن تشيعة لموسكو ، التي كانت مضطرة لمداراته ، لم يمنعه من أن يشجع في أي مكان في امريكا اللاتينية طرق حرب العصابات التي لم يجرأ الشيوعيون المناصرون للسوفيائين أن يشجبوها ، بل قالوا بأنهم قليلة النفاذ وضارة . ومن ٣١ تموز إلى ١٠ آب ١٩٦٧ ، عقد كاسترو في لاهافانا

مؤتمر منظمة التضامن اللاتينية - الامريكية (O.L.A.S) التي أرسى قواعدها أممية شيوعية ثالثة بين أممية موسكو وأممية بكين .

وفي آب ١٩٦٣ ، اقترح الثلاثة الموقعون على معاهدة موسكو أن يعرضوا المعاهدة على موافقة جميع الحكومات فرفضت الصين الشيوعية توقيعها ، وفرنسا أيضاً . وكان ذلك ، من جانب الحكومتين لأسباب مختلفة ، رغبة واحدة في اظهار الاستقلال حيال الدولة التي تمارس الهيمنة . وربما حثت وحدة الموقف هذه ، في فرنسا ، السلطة على تصور سياسة مشتركة مع الصين الشيوعية : ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩٦٤ ، اعترفت فرنسا بالصين الشعبية . وفي تموز ١٩٦٤ أكد رئيس الدولة الفرنسية بأن « التوزيع بين المعسكرين يتجاوب متناقضاً مع الحالة الواقعية » ، وينسب إليه مشروع تأليف « قوة ثالثة » وستكون أوربه ، وستنضم إليها بلاد أمريكا اللاتينية حيث قام برحلة في أيلول وتشرين الأول ١٩٦٤ .

وفي ٢١ شباط ١٩٦٦ ، أعلن دوفول انسحاب فرنسا من منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، وطلب من جيوش هذه المنظمة أن تجل عن الارض القومية . وفي ٣١ آب ، في رحلة إلى فنوم بينه ، نصح الامريكيين بالجلاد عن فيت - نام . وفي الوقت نفسه ، رسم تقارباً مع البلاد الشيوعية . وفي ٤ شباط ١٩٦٥ أتى على ذكر أوربه التي تذهب من الاطلسي إلى الاورال . وفي حزيران ١٩٦٦ ، ذهب إلى الاتحاد السوفياتي ، وفي ايلول ١٩٦٧ إلى بولونيا ، وفي أيار ١٩٦٨ إلى رومانيا . وقامت الحكومة الالمانية ، من جانبها ، مقلدة فرنسا ، بسياسة تقارب مع الديمقراطيات الشعبية ، وكانت النتيجة المحسوسة الاولى المعاهدة التجارية الجرمانية - الرومانية لعام ١٩٦٧ ، التي زعزعت تضامن البلاد

الاشتراكية ، ورأى الشيوعيون في المانيا الشرقية أنهم خينوا بهذا الشكل من التعامل مع بون .

وفي الواقع ، إذا أثارت سياسة التقارب هذه مع الاتحاد السوفياتي تحسناً خفيفاً في المبادلات التجارية والثقافية ، فقد اصطدمت باختلاف أسامي في الارادات . لقد كان السوفياتيون في كل لقاءاتهم مع ممثلي فرنسا يحاولون الحصول على تصريحات خاصة بآثاره قطيعة بين فرنسا والمانيا ، ولا شك ، معاودة البدء مع المانيا بسياسة رابا للو ، كما حملت على الاعتقاد بذلك رحلة آجويي إلى بون ، في ٢٨ تموز ١٩٦٤ ، لتهينة زيارة خروتشوف . ولكن هذه الزيارة لم تقع .

وإذا عرفت العلاقات الفرنسية - الالمانية ، بالفعل ، بعض البرودة عندما كان ايرهارد مستشاراً ، في تشرين الاول ١٩٦٣ - كانون الاول ١٩٦٦ ، فان التحالف نفسه لم يبدأ ، والحكومة الفرنسية رفضت الاعتراف بأن يكون تقسيم المانيا قطعياً ، هذا التقسيم الذي يؤكد الشيوعيون ، على لسان غومولكا ، ضرورته في تشرين الاول ١٩٦٧ . ويتعلق بهذه القضية ولا شك بسط الاتحاد السوفياتي أو عدم بسط هيمنته على أوربة الغربية .

فهل تضع نهاية ما بعد الحرب من جديد وعلى الصعيد الاول القضية الفرنسية - الالمانية التي أصبحت الآن قديمة ؟ أو أن غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل جيوش ميشاق وارسو (فارسوفيا) في آب ١٩٦٨ سيغير الحالة تماماً ؟ .

الفصل الثالث

تطور الحرب

١٩٤٥ ميراث الحرب العالمية الثانية

في ٩ آذار ١٩٤٥ ، اسقطت ٢٨٠ طائرة مقاتلة على طوكيو ١٦٧٠ طون من القنابل المحرقة في معظمها . ودمرت هذه د العاصفة النارية ، ، التي دامت ست ساعات ، ٤٠ ك م^٢ من المدينة . ووجد على إثرها ٨٤٠٠٠ قتيل على ٦٧٠٠٠٠٠ نسمة .

وفي ٦ آب ١٩٤٥ ، اسقطت طائرة مقاتلة على هيروشيما قنبلة واحدة انفجرت على ارتفاع ٤٠٠ م ، فحلقت ١١ كم^٢ بهبوب الريح والنار . ووجد ٧٠٠٠٠ قتيل على ٢٤٥٠٠٠ نسمة . واطلقت طائرة مقاتلة أخرى قنبلة بمائة على فاجازاكي بعد ثلاثة أيام : ووجد ٤٠٠٠٠ قتيل . وهذان البرقان الأكثر ضياءً من الف شمس أنهما الحرب العالمية الثانية بتسارع عظيم طبع أيضاً نهاية عصر والدخول في عصر جديد . ولكن ، بعد أكثر من خمس سنوات من محن لا سابق لها ، كان الانفراج الذي سببه السلام عاماً . وقليل من الناس كانوا يتساءلون عما حدث بعيداً جداً . وأسمع البابا ييوس الثاني عشر ، وحده ، صوت القلق ، ومر هذا الصوت غير ملحوظ .

- ١٢٠ -

ومع ذلك ، فإن هذا السلاح المطلق ، دون رجوع ، سلاح العلماء ، الذي كان من الممكن أن يختم الحرب بصورة مستقلة عن الحالة الاستراتيجية والعسكرية في ذلك الحين ، قد صدر ، كهذه الأخيرة ، عن القوة العلمية والصناعية ، والاجتماعية أيضاً ، في المعسكر الغالب وعكسها . وكما في الحرب العالمية الأولى ، تغلبت بصورة قطعية هذه القوة الشاملة القادرة على دعم حرب الجماهير ، جماهير الرجال ، واكداس العتاد ، حتى ظهر المعنى الاستراتيجي والتعبوي أقل أهمية من ثقل الوسائط . لقد جند الاتحاد السوفياتي ١٩ مليون رجل ، والولايات المتحدة ١٤ مليون . وأنشأت هذه الأخيرة ٨ ملايين طون من السفن أثناء الحرب و ٢٩٦٠٠٠ طائرة (٤٥٠٠٠ في الخدمة في القوة الجوية وحدها في الولايات المتحدة في ١٩٤٥ ، أي ما يماثل ٣٣٠٠ طائرة فرنسية في ١٩١٨) . وهذا ، فإن المدرسة الاستراتيجية الفرنسية القديمة في السنوات ٢٠ و ٣٠ (بيتن ، دوبيني ، وبران ، الخ) ترى وجهات نظرها مؤيدة فيما وراء مفاجآت المعارك الأولى . لأن الحرب الحاطفة ، لم تدم إلا عامين ، أي عندما لم يكن لنتار علاقة إلا مع بلاد لم تكن مهيأة للحرب لا مادياً ولا معنوياً .

إن حرب ١٩٣٩ - ١٩٤١ كانت حرب حركة في ١٩١٤ مضاعفة بحرك البنزين : وفيها نقلت معركة نهر المارن إلى بحر المانش والمتوسط .

وحرب ١٩٤١ - ١٩٤٣ كانت حرب استنزاف . فقد قدم السوفياتيون نفقاتها في البر ، ولكن دون استقرار في الجبهة بسبب امتدادها . وتحملها الانغلو - ساكسون في البحر . وكانت حرب تقدم أيضاً ، وفيها لعبت افريقية الشالية دور الدردنيل وماكيدونيا في الحرب العالمية الأولى .

وحرب ١٩٤٤ - ١٩٤٥ كانت حرب ١٩١٨ ، وانتصار العدد والاحتياطات الضخمة والقوة الهائلة . وقد أصبحت الاستراتيجية بحق « فن

توزيع واستعمال الوسائل العسكرية لانجاز أهداف السياسة (ليدل هارت)^(١). وكان نموذج الستراتيجي الجنرال مارشل الذي أعطى ، في ١٩٤٢ ، الأولوية لأوربة على المحيط الهادئ . ولكن على نقيض ١٩١٤ - ١٩١٨ ، حيث كانت التجديدات الدبابات والطائرات بخاصة من مضمار الاختراع اليدوي والتقنية والتنظيم الصناعي ، في نشوء العمل المسلسل ، أضاف النزاع الأخير ، إلى تحسين الوثيرة الصناعية ، عمل الخبايا المخطط والمنظم . وأدخلت أركان الجيش حساب الاحتمالات (بحث العمليات) في مزج وترتيب الاسلحة وتقييم الفن العسكري في قضايا نقل الجيوش وتموينها ، وحتى التنبؤات الجوية . وإذا كان « المتعم الروحي » يطلب الانتظار فان « تسارع التاريخ » يبدو بخاصة تسارعاً للعلوم وتطبيقاتها .

في البر . - زاد وزن الدبابة (احتى ٦٠ طن) لصالح التصفيح بالفولاذ (حتى ١٠٠ م م) ، وقطر فوهة المدفع (٧٥ ، ٨٨ أو ١٢٢ م م) ، بينما بلغت مرعتها ٤٥ كم في الساعة ، والمسافة الممكنة قطعها لاستهلاك وقودها ١٥٠ إلى ٢٠٠ كم ، حدهما الأعظم ، لأن أعداءها تضاعفت عدداً وضبطاً (مدافع ، بازوكا ، مطاردات - مقاتلات) . ولم تعد المصفحات فارساً وحده ، بل اندغمت بالاسلحة الأخرى (المشاة ، المدفعية ، المدافع المضادة للطائرات ، م . ط ، ومصحلة الهندسة) في « تجمعات تعبوية » منقولة بكاملها (ناقلة واحدة لكل ٥ إلى ٧ رجال) ، وهذا يؤدي إلى وفرة الخدمات أي الدعم التمويني ، حيث نجد ٤٠ إلى ٤٥٪ من جنود الفرقة غير محاربين .

في البحر . - لم تعد « السفينة الرئيسية » مدرعة بل حاملة طائرات ، وعليها تقوم طائرة الانقضاض المطاردة والمقاتلة ، بمغامرات مشابهة بنتائجها

(١) ليدل هارت LIDDEL HART

لتتائج الطائرات القائمة على الأرض ، مقام الطائرة النسافة البطيئة ذات الجناحين .

والاساطيل ، من مجموعة سفن حربية و « تاسك فورسز » (١) حسب التعبير الامريكى ، تتألف من فريق من حاملات الطائرات (٢٠٠ أو ٣٠٠ طائرة) تحميها عمار أخرى ذات مهمة مضادة للجو ومضادة للغواصات أو بحرية (طرادات ، مدمرات ، ناقلات بستول ، وسفن ورشات) .
وشد تنظيم سير القوافل وتشكيلات الاساطيل لتأمين حماية شاملة بتركيز أعظمي للثيران والأجهزة الكشفية (كشف الغواصات والاعمق ، والرادار) ضد الأعداء المهاين من طيارة وغواصة . وقد تحسنت هذه الاخيرة بعد أن زودت بمحرك ديزل أكثر قدرة ، وأبعد مسافة ، شنورشيل (٢) ، المحرك الذي تبنته البحرية الألمانية في ١٩٤٣ ، وهو يساعد على تجديد الهواء دون الصعود إلى السطح .

في الجو . - لقد كسبت السرعة ٥٠٠ ك م في الساعة ، من أجل المطاردات في ١٩٣٩ ، أكثر من ١٠٠ ك م بقليل في الساعة . ولكن إذا بدأت الطائرات ذات المراوح تصل إلى أقصى إمكاناتها ، فقد كسب الدفع النفث دفعة واحدة ، في ١٩٤٥ ، ١٠٠ ك م إضافية في الساعة (غلستر « ميتيور » البريطانية ، لوكهيد « شوتنغ ستار » (١) الامريكية) وحتى ٣٠٠ ك م في الساعة من أجل الـ Messerschmitt ME - 163 الألمانية (على حساب نطاق عملها ، أي المسافة القصوى التي يمكن أن تبعد فيها عن نقطة تموينها بالمحروقات) . وهذه الزيادة في السرعة ترافقها زيادة

(١) تاسك فورسز Task Forces

(٢) شنورشيل SCHNORCHEL

(١) Gloster : Meteor , Lockheed » Shooting Star

في الوزن ، محسوسة بخاصة عند المعاتلات : فقد بلغ وزن المعاتلة بمقدار عشرة أمثال . ولكن التطور الجوي العظيم الآخر كان في الصاروخ الألماني : فقد بلغ مدى الـ V2 ٣٥٠ كم وصرعته ٢٠٠٠ كم في الساعة . وهذا ما كان ، أثناء الاستسلام النازي ، سبباً في « اصطدام حقيقي للعلماء » في أوربة الوسطى من قبل السوفياتيين والأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين . لأن الغزو سيكون منمراً للجميع .

ولكن الحالة الجغرافية السياسية والجيوستراتيجية هي التي ظهرت ، فضلاً عن ذلك ، جديدة لا سيما وإن الحلاف كان عاماً .

« في ١٩٤٥ ، كانت البنية الجغرافية السياسية للعالم ذات قطبين : فقد كان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية يسيطران على مناطق انهيار سيامي في أوربة وفي آسيا ، حيث أدى نفاد قوى الدول الكبرى المعجوز إلى قطع الروابط الاستعمارية القديمة » (لوسيان بواريه)^(١) واجتئح حلفاء « الكبارين » ونهكت قواهم كالمفلولين . وزالت أوربة القديمة : « في اليوم الذي تعانق فيه الأمريكيون من عام ١٩٤٥ بفرح في تورغاو ، على نهر الإلب ، فقدت أوربة استقلالها »^(٢) . إن الجيش الأحمر ، الذي يحتل ويسيطر على أوربة الوسطى والبلقانية ، عدا اليونان ، كان على ٢٠٠ كم من الراين الفرنسي ، و ١٢٠٠ كم من جبال البيرينيه ، و ١٥٠ كم من استانبول ، و ١٢٠٠ كم من السويس ، و ١٠٠٠ كم من الخليج العربي . وفي آسيا ، يحتل مانشوريا ، ويسيطر على كوريا الشمالية ، كما استقر في الكوريل وفي الجزء الجنوبي من ساخالين ،

(١) لوسيان بواريه Lucien Poirier

(٢) ف . او . ميكش = F. O. Mikshe

- ١٢٤ -

على حساب اليابان المغلوبة التي برهنت سابقاً د في فتوحاتها الموقته ،
ولكن المدوية ، على ضعف النظام الاستعماري وضعف الانسان الأييض .

من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩

تحت المحصر النووي الامريكى

لقد رد التسريح من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ الأعداد العسكرية
الامريكية في الجيش إلى ١٥٠٠٠٠٠٠ رجل ، أي بتخفيض ٨٩ ٪ ،
والاعداد السوفياتية إلى ٢٥٨٠٠٠٠٠ رجل ، أي بتخفيض ٧٥ ٪ ؛
وتفانم أيضاً هذا الحلل الناتىء بالجغرافيه . لأن الجيش الأحمر ، الذي يسمى
الآن د الجيش السوفياتي ، يسيطر بكتلته ، كما رأينا ، على اوروبا
والشرق الاوسط وقليل من آسيا ، في الوقت الذي كانت الولايات
المتحدة لا تقيم فيه إلا أعداداً ضعيفة من جنود الاحتلال في المانيا ،
والنمسا واليابان . وكان معظم قواها ، بما بقي منها في الولايات المتحدة ،
أي على أكثر من ٧٠٠٠ كم من الراين وعلى ١٠٠٠٠ كم من بحر
الصين : د لقد عاد الاولاد (الجنود) إلى الدار ، . وكان الرئيس
ترومان يتدرب على السلطة ، وبنى سياسته أيضاً على قرارات يالطا :
الجلء لصالح الروس عن بعض المناطق الألمانية التي حررتها الـ G . I وعلى
وعود منظمة الأمم المتحدة الناشئة التي أقيمت على الضفاف النيويوركية
من ايست ويفر لتحريرها بشكل أفضل من الذكريات السيئة التي
خلفتها عصبة الأمم في جونيف .

ولاشك في أن القنبلة الذرية كانت موجودة ، ولكن ولاشك
أيضاً يحسن ، حوالي ١٩٤٦ ، الكلام عنها تقريباً بالمفرد . لقد كانت أداة

نادرة ومزعجة ولا يتصور أحد تهديداً باستخدام محتمل لها حيال حليف
البارحة ، ولا سيما في مسالك السلطة في واشنطن ، حيث تتكاثر الطبقة
المستنيرة المسماة « التقدمية » . إلا أن ضربة بيل هاربر وعت من
قرروا مصير هيروشيما وناغازاكي . ولعبت القنبلة الذرية ، عقب الحرب
مباشرة ، دوراً مهماً تماماً ، وكان السوفييتون يزايدون بالاقلال من أهميتها
في نهاية النزاع .

واستأنف ستالين الآن سياسة القياصرة في الوصول إلى « البحار الدافئة »
باقامة مفاوضات سياسية ، في العام ١٩٤٦ ، في الجيش . وفي المحيط
الهادئ ، فكر بالبقاء في ماندشوريا ، ولكن انتصار ماوتسه - تونغ ،
الذي لم يعمل ستالين على تشجيعه ، قرع جرس هذا الامل الروسي
بالتأكيد كما فعل بالسابق انتصار توغو على روجستفانسكي في ١٩٠٥ .
وفي الشرق الاوسط ، كان يأمل بالبقاء أيضاً في اذربيجان وفي كردستان
الارانية ، ودفع حزب اليسار المتطرف توديه ، الذي كان يشارك في
الحكومة الايرانية حتى طهران والخليج العربي . ولكن اليقظة البريطانية
القديمة ، التي مازالت قوتها توهم بعد ، احبطت كلآ من هاتين المناورتين ،
بينما رفضت تركيا أن تخاف بنسبة المضائق . وفي أوربة ، كان ستالين
يرمي إلى مضيتي سكا جراك والكاتيغات ، ولكنه لم يحصل الا على تحديد
جزيرة بوو نهولم الدانماركية في البحر الباطيك ، حتى ولا على اكليركي باتجاه
سبيتزبرغ . وفي البلقان ، أثار ودعم بواسطة دول تابعة (البانيا ، بلغاريا ،
يوغوسلافيا) ثورة ماركوس اليونانية . ودون ان يتدخل
مباشرة كان وجود الجيش السوفييتي بالقوة ، في أوربة الوسطى ،
يدعم تطور « النمو التاريخي » . وفي داخل المحن الروسي ،
اقامت الحكومات التابعة بالرغم من جميع الاحكام

- ١٢٦ -

الانتخابية . وفي الخارج أسهمت الاحزاب الشيوعية في السلطة في فنلنده وفرنسا واطاليا ، ولم يبق إلا الانتظار .

وفي فرنسا ، بالضبط . اخفقت الاضرابات العامة العنيفة في ١٩٤٧ . وفي اليونان . اتجهت الحكومة نحو واشنطون ، لان العون التقليدي البريطاني لم يمتد . ولجأه هذه الحالة ، أذيع ، في آذار ١٩٤٧ ، مذهب ترومان ، وبعد أن كانت الولايات المتحدة منومة ، حتى ذلك الحين ، باتفاقات يالطا والاعمال الاولى لمنظمة الامم المتحدة ومجلس الامن (وقد جاء تبدد الهم هنا من ٣٠ رفضاً سوفياتياً جمدت المناقشات حتى ١٩٤٩) ، وجدت نفسها مسوقة الى معاودة دور الحكم والدركي الشاق والصعب الذي تخلت عنه الدبلوماسية والبحرية الملكية البريطانية مكرمة .

وهذه الجأه التي أخذت شكل الحرب الباردة تسارعت بحصار برلين و « ضربة براغ » في ١٩٤٨ . ومع ذلك ركب ستالين مركباً خشناً . وبعد أن أصبح الجنرال مارشل أميناً للدولة ، أكد اختياره في العام ١٩٤٢ : فقد تخلى عن الصبن الوطنية في آسيا ، وهذا ماساعد أيضاً على إحباط المزاعم السوفياتية في ماندشوريا ، كما رأينا ، وأعطى الأولوية لأوربة بانقاذ اقتصادها ب (خطة مارشل ١٩٤٧) . وفي حزيران ١٩٤٨ ، تبنى مجلس الشيوخ الامريكى قرار فالد نبرغ الذي يفضل المشاركة في الاتفاقات الاقليمية .

ووقعت فرنسا ، بريطانيا - العظمى والبينيلوكس في آذار ميثاق العون في حالة عدوان . وهكذا قرع جرس (أي أعلن زوال) الانعزالية الامريكية التي جنبت في ١٩١٧ و ١٩٤١ . وفي ١٩٤٨ و

١٩٤٩ ، وضع موضع التنفيذ ، وبشكل موازٍ للعدون الاقتصادي ، برنامج مساعدة عسكرية يستأنف روح قانون « الاعارة والتأجير » في العام ١٩٤١ . وكان تتويج هذه السياسة توقيع معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، في واشنطن ، في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، من قبل اثني عشر بلداً غربياً : بلجيكا ، كندا ، الدانمارك ، الولايات المتحدة ، فرنسا ، بريطانيا - العظمى ، ايسلندة ، ايطاليا ، اللوكسمبورغ ، النورفيج ، البلاد المنخفضة ، البرتغال . وتنص التعهدات المتخذة على التسوية السلمية للخلافات بين الدول الاعضاء (المادة ١) ؛ والتعاون الاقتصادي بين الموقعين (المادة ٢) ، وتعزيز وسائل مقاومة العدوان بالجهد الفردي والعدون المتبادل (المادة ٤) والعدون المتبادل في حالة عدوان (المادة ٥) .

وكانت هذه المعاهدة بعيدة عن تشجيع زيادة التوتر بين الشرق والغرب . وعلى العكس ، اتبعت بانفراج : ففي ١٢ أيار ، رفع الاتحاد السوفياتي حصار برلين وثاسكت « المدينة المقطعة » وقاومت بفضل « جسر جوي » . وفي ٢٣ أيار أدت مناقشات وزارية إلى المرونة في قضايا برلين والمانيا والنمسا ؛ وفي آخر تشرين الاول ، تركت الثورة اليونانية وشأنها فانتهت .

وبالمقابل ، سجل التفجير التجريبي للقنبلة الذرية السوفياتية الاولى نهاية الحصر النووي الامريكي في أيلول ١٩٤٩ . ولبضع سنوات أيضاً - الزمن الذي تأخذ فيه القوة الذرية بعض الاشتداد - نجد أن الـ ٢٠٠ فرقة سوفياتية وتوابعها لاقتعدال إلا بقوى الولايات المتحدة الجوية ، ومن ضمنها طائرات B-36 ، بحركتها الستة ذات العمل البعيد المدى ، القاذائف المعنية للقنابل الذرية التي مازالت صغيرة الأبعاد . وقد بدأت هذه الطائرات منذ عهد قريب تحل محل القلاع القديمة العليا B-29 . وبينما كان الروس منكبين بحرارة

- ١٢٨ -

وبسرية على نشاطهم النووي ، تركت الولايات المتحدة نفسها تفاجئ :
ان الدراسات الاولى على الصاروخ « اطلس » يرجع تاريخها إلى عام
١٩٤٦ ، ولكنها أجلت ؛ وكان يعمل دون عجل على أجهزة قصيرة المدى
(فايرستون « كوربورال » ، ١٣٥ كم ؛ مارتن « لأكروس » ، ٣٧
كم) التي لم تصبح عملية « قابلة للاستعمال في الكفاح » إلا بعد
. ١٩٥٥ .

وفي آسيا ، كانت صين ماو القارية البلد الشيوعي الوحيد (مع
يوغوسلافيا المنشقة) دون حاميات سوفياتية ، وكانت تحد منذ الآن
كوريا الشمالية والتونكن حيث اخذت الحرب ، التي كان يقودها جيش
الحملة الفرنسية ضد الفيت - نام ، امتداداً آخر . أما تشانغ - كاي -
تشيك ، فقد انطوى مع آخر جيوشه إلى فورموزا وبعض الجزيرات
المجمولة التي دخلت على هذا النحو في التاريخ : كيموي ، وما تسو .

من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٤ : صرب باردة وضراجات حارة

إن تفجير أول قنبلة ذرية روسية يسجل أول تكاثر ذري وبداية
سباق الاسلحة النووية . وإذا ظلت لجنة العالم أو بنهايمر ، المكلفة
بدراسة امكان صنع جهاز حراري نووي ، تقاوم ، في تشرين الاول ١٩٤٩ ،
طرح هذا الاحتمال كما فعلت في العام ١٩٤٦ (ولا يغفر ذلك لرئيسها ...)
فان ترومان أخذ على عاتقه قرار هذا الانجاز في ٣١ كانون الثاني ١٩٥٠ ،
تحت ضغط الكونغرس والرأي العام الامريكى معاً المقتنعين بحق ،
أن السوفياتيين يضعون اللقم مزدوجة . وبينما كانت القنابل الذرية
الامريكية الاولى تتوج وتختم بمجهود حرب ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، تفجرت

القنبلة الروسية في وقت فرضت الرسالة الشيوعية نظامها بالقوة على المجن الرومي وحاولت امتداد هذا الاخير ، وأثارت بشكل لا يمكن اجتنابه أول سباق لتسلح مابعد الحرب . وهذا السباق ، كما سيروى ، إذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة هذا التسليح ، سينمو دون اي توقف آخر إلا توقف العلم والتقنية ، وبشكل مستقل منذ الآن عن التطور الدبلوماسي : ففي القديم كان من الممكن التمهّل ، وحتى إيقاف سلاسل الصنع ، وهذا يرى ويعيد الثقة ؛ واليوم يتعلق كل شيء بصورة أساسية بعقل العلماء الذي يصعب على الدبلوماسيين سبره .

وهذا « السلام العجيب » الذي يسمى جرياً على الألسن « الحرب الباردة » سيكون درامياً في « نقطة حارة » (هذا « العالم المنتهي » يولد ولاشك مفردات جديدة) ، من آسيا حيث تعتقد الحركة الشيوعية بأن اليقظة الغربية الناشئة فيها مخدوعة كثيراً . وهذه النقطة الحارة ستكون كوريا .

وبعد أن أمن الروس تابعهم ، كوريا الشمالية ، بتأسيس الجمهورية الشعبية و كيم ايل - سونغ رئيساً ، سحبوا جيوشهم . وكذلك فعل الامريكانيون في كوريا الجنوبية ، في ١٩٤٩ ، ولكن بظاهر عدم الالتزام الذي حاوله كيم ايل - سونغ ، دون فطنة ، في إعادة توحيد البلاد لصالحه وبالقوة . ففي ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، اتخذت الجيوش الشمالية قراراً حاسماً وجريئاً واجتازت الخط الوهمي الفاصل لخط العرض ٣٨° (١) وانهالت نحو الجنوب . وأثار ترومان التدخل الامريكي

(١) في القديم كانت الاستراتيجية ، من طبيعة جغرافية بخاصة ، تتكيف حسب

قضايا عصرنا (٩)

- ١٣٠ -

بعد ثلاثة أيام . ونجح الجنرال ماك آرثر د في الحلد الأقصى ، في التماسك في حصن فوزان ، ثم قام بهجوم معاكس ودمر جيش كوريا - الشمالية بفضل انزال د جنود بحرية ، في انشون ، على ارتفاع سيؤول ، كما ألف جيشاً ممتازاً من كوريا الجنوبية . ودُفِعَت الفلول الشيوعية حتى نهر يالو ، على الحدود الصينية ، حيث فاجأها جيش د متطوعين ، ٣٠٠ فرقة ، ٣٠٠٠٠٠ رجل تحت قيادة لين - بياؤ : وكانت الجيوش والقيادة صينية ، والعتاد روسياً . ولما هوجمت القوى الامريكية والجنوب - كورية ووجدت نفسها مبعثرة بشكل مروحة ، بعيداً عن قواعد تمويها ، مع ما التقي بها من وحدات وضعتها تحت تصرف منظمة الأمم المتحدة ثلاثة عشر بلداً (بخاصة بريطانيا العظمى ، اوستراليا ، تركيا ، اثيوبيا ، فرنسا ، الفيليبين ، الخ .) ، اضطرت أن تتراجع في شروط صعبة حتى ١٠٠ كم في جنوب خط العرض ٣٨ ° ، ثم وطدت الحاملة بنقل الجبهة رويداً رويداً إلى ارتفاع الحدود القديمة حيث استمر القتال . وأراد ماك آرثر أن ينقل الحرب الجوبة وحتى الذرية إلى د المعبد الماندشوري ، ولكن ترومان منعه . وأخيراً وقعت الهدنة في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، بعد أن توفي ستالين قبل بضعة أشهر وفاز ايزنهاور في انتخابات الرئاسة على وعده بارجاع د الاولاد إلى الدار ، بأمرع وقت ، ودعم هجومه في السلام باعلامه الصينيين صراً بأنه سيلجأ ، عند الحاجة ، لقطع دابر

التنسيات الدبلوماسية الاصطناعية ، في اتباع الأنهار ورؤوس الجبال شريطة أن تتم برؤوس الجسر والمنافذ الممكنة في الحلد الذي تسمح فيه حالة القوة . أما في هذا اليوم الذي غدت فيه الاستراتيجية في خدمة الدوافع العقائدية المجردة ، فإن التنسيات تتبع طوعاً خطوطاً خيالية (كخط عرض ٣٨ ° في كوريا ، وخط عرض ١٧ ° في فيت - نام) لم تكن لتفقد في القديم الجغرافيين والسياسيين إلا في تلافى د نقص « الطبيعة أو المعارف البشرية » كالحود بين الولايات المتحدة وكندا وتقسيم الدول التي قولف الغرب الاقصى الامريكي) .

الحصام ، إلى الطريقتين اللتين فضلها ماك آرثر قبل عزله . أما الحدود الجديدة ، التي تتبسع الجبهة ، فقد ظلت بصورة محسوسة على ارتفاع خط العرض ٣٨ ° ، أي حافظت على الوضع الراهن قبل الحرب .

لقد اشترك ما يقارب ٥ ملايين رجل في هذه الحرب المحدودة ، التي دامت ثلاثة أعوام وكلفت ١٦٢٠٠٠٠٠٠ ميت (٨٥٠.٠٠٠ ما بين قتيل وجريح ومفقود في كوريا الجنوبية ، و ٢٠٠.٠٠٠ في كوريا الشمالية) . وفي كوريا الجنوبية وحدها ، التي انثال عليها مليون ونصف كوري لاجئ من كوريا الشمالية حين الدفع نحو نهر يالو ، دمر ٤٠٪ من من الجهاز الزراعي ، و ٧٠٪ من القوة الصناعية . وقد كلف خطأ ستالين وكيم ايل - سونغ في الحساب البلاد غالياً ولا شك .

أما الفكرة الاستراتيجية ، التي أمسكت بالأمريكيين عن الاندفاع حتى الأعماق وشجبت مذهب ماك آرثر ، فقد ملخصها الجنرال برادلي على هذا النحو : « ليست الصين الشيوعية بالأمة القوية التي تحاول السيطرة على العالم . وبصراحة ، حسب رأي زعماء أركان الجيش ، إن هذه الاستراتيجية ، استراتيجية ماك آرثر ، التي تبحث عن نصر عسكري ، ستعشرنا في حرب باطلة وفي أماكن مضلة ، وفي زمن خاطيء ، وضد عدو بمذاق » .

لقد تطورت الأفكار منذ ذلك الحين ، ولكن في بداية سنوات ال ٥٠ ، ظلت نظرية مارشل ، في أولوية أوربة ووضع سد أمام الاتحاد السوفياتي ، سائدة دوماً .

وفي أقل من ثلاثة أشهر بعد بداية حرب كوريا ، انعقد مجلس نواب وزراء الشؤون الخارجية في حلف الأطلسي لدراسة الدفاع عن المنطقة التي تغطيها منظمة معاهدة حلف شمالي الأطلسي ضد عدوان من

نفس النوع واتخذ « ستراتيجية الأمام » متنبأً بدفاع أقرب ما يكون إلى « الستار الحديدي » للجيولة دون أخذ رهائن فجأة . وأدى هذا الاختيار إلى عدد من النتائج .

إن استراتيجية منظمة معاهدة شمالي الأطلسي ، وهي لغاية دفاعية بصورة أساسية ، أسست ، منذ الأصل ، على مفهوم مضلل مشبث للعزائم وهذا التضليل يعتمد على فكرة رد انتقامي ذري ، ولكن التهديد به لا تكون له صفة مطلقة إلا بعد بضع سنوات . وفي الحاضر يقوم الحساب على القوات الكلاسيكية . أما الـ ١٤ فرقة حليفة ، التي توجد في ذلك الحين في أوربة الغربية من رأس الشمال إلى ترينستا ، فقد كانت بوضوح غير كافية لتلعب دوراً آخر غير دور سحب جرس الخطر ، دوراً يستطيع موظفو الجمر أن يقوموا به بأقل النفقات . ولذا اعترف المجلس نفسه ، في ١٨ كانون الأول ١٩٥٠ ، بأن « اسهام ألمانيا سيكون من نتيجته تعزيز الدفاع عن أوربة » ، بينما نجد ، في ايلول ١٩٥١ ، أن اليونان وتركيا ، المنعزلتين حتى ذلك الحين ولكنها مرتبطتان عسكرياً وجانبياً بالولايات المتحدة ، قد دعيتا للاشتراك بالحلف، وهذا ما تم في ١٨ شباط ١٩٥٢ .

وأدى إحباط فرنسا لأمر الدفاع الأوربية (C.E.D.) ، وهي مع ذلك فكرة فرنسية ، بصورة معاكسة إلى تسليح ألماني جديد أكثر استقلالاً بفضل اتفاقات باريس ، في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٤ ، التي أكرست آخر نظام الاحتلال في ألمانيا الغربية ، ووصول هذا البلد وإيطاليا إلى حلف الأطلسي ، وتعهد بريطانيا - العظمى في إبقاء أربع فرق وقوات جوية على القارة ، وإقامة تشكيل عسكري أكثر اندماجاً . أما الرئيس

- ١٣٣ -

آيزنهاور فهو ممنوع دستورياً من توقيع اتفاق يمكن أن يجر بصورة آلية بلده إلى الحرب (لأن اعلان الحرب امتياز للكونغرس) ، وقد تعهد علناً باسم الولايات المتحدة ، في ٥ آذار ١٩٥٥ ، في ابقاء قوات في شرقي الأطلسي « ما بدا ذلك ضرورياً » ، وعلى هذا فالجيش الامريكية نوعاً ما رهائن تضامن الولايات المتحدة وأوربة . وقد أجاب الاتحاد السوفياتي على ذلك في ٤ أيار ببارام ميثاق وارسو (فارسوفيا) مع توابعه الأوروبية ، ولم يكن ذلك في الواقع إلا تنقيحاً شاملاً لـ ٢٥ معاهدة ثنائية سابقة .

وبدا بسرعة جداً في الغرب أن التخطيط الذي وضعه مؤتمر لشبونة في شباط ١٩٥٢ لا يمكن أن يدوم . حقاً ، لقد كانت فرنسا قد جندت مائة فرقة في ١٩٣٩ ، والمانيا ١٣٠ ، وبلجيكا وهولنده بين ٢٠ و ٣٠ . والـ ٥٠ فرقة والـ ٤٠٠٠ طائرة الموعودة يمكن أن تظهر هدفاً محدوداً بالنسبة للأفكار غير العليمة . ومع ذلك فقد كان هذا كثيراً جداً ، اذا أخذت بعين الاعتبار الامكانيات المالية لثختلف البلاد ، والالتزامات الخارج - أوربية من بعضها (بريطانيا العظمى وفرنسا) وثن العتساد العسكري الحديث ، فضلاً عن انه اختيرت ، لجاهة الجماهير البشرية في الشرق وقوة الذرية الناشئة ، طريقة تعبوية مؤسسة على سهولة التحرك والانتشار ، أي على آلية برية تماماً شاملة تقريباً وارتباطات راديو مدفوعة للحد الأقصى (١) .

(١) ان إعاشة قطعة فرقة سرميائية (٢٠٠٠٠ الى ٢٥٠٠٠ رجل ، منها أكثر من ١٠٠٠٠ بقليل في الجبهة) كانت تكلف آنشد من ٢٠ الى ٣٠ مليون دولار ، مقابل ٣٥٠ مليون لقطعة امريكية معادلة ، وتتطلب ١٥٠ الى ٢٠٠ طون من المؤن في يوم معركة ، مقابل ٦٠٠ الى ٨٠٠ طون لفرقة امريكية .

- ١٣٤ -

وهذه الحالة تسوق الى بعض الجدل . فقد استنتج ف . او . ميكش، وهو من أفضل الخبراء الغربيين، من هذا الثقل التموييني نقطة ضعف كبرى جداً ، بعد معرفة ماسينجم عن تنمية الاسلحة النووية ، وكلفة باهظة تمنع من تشكيل الوحدات العديدة الضرورية في حالة عدم اللجوء إلى الاسلحة الذرية .

ولكن المبادئ الامريكية تغلبت وبدىء باستعمال مدافع ذرية من ٢٨٠ مم ، وصواريخ قصيرة المدى (رdstون « هونست جون » ، كرايسلر « رdstون » ، (٢٢ كم) وسبيرى « مرجانت »^(١) ، (١٣٥ كم) . وبالرغم من مناورة التحويل النفسى ضد الاسلحة النووية التي تؤلفها حركات السلام منذ نداء ستوكهولم ، فان استراتيجيية « الاحتواء » الامريكية المعتمدة على انطلاق « محيطي » ، من قواعد عسكرية على محيط الاتحاد السوفياتي كله مع مجته فتمت « المظلة الذرية » لآمرية الجر الاستراتيجية (S.A.C.) وهذه الآمرية ، المجهزة بمقاتلات ذات أربع محركات نفائة B-47 يمكن تمويينها وهي طائرة وتستطيع أن تدمر بضربة قنابل ذرية جميع الاهداف المعادية الكبرى ، اتخذت لنفسها شعاراً جريئاً ، « السلام حرفتنا » ، يجد الاستراتيجية العامة الامريكية التي يكون طموحها بكسب الحرب المحتملة أقل فمن منع إثارتها وحماية « الوضع الراهن » .

ولكن ، في ١٢ آب ١٩٥٣ فجر السوفياتيون قنابلهم الحرارية النووية الاولى (القنبلة الهيدروجينية) ، وبعد ستة أشهر منافسهم الامريكيون : ومن الواضح للجميع ، منذ الآن ، أن الخصمين ، في الموضوع الذري ، متساويان تقريباً في البحث .

وفي الوقت نفسه انتهت في ديان بيان فو وفي جونييف حرب الهند

(١) رdstون Redstone ، هونست جون Honest John ، كرايسلر

Chrysler ، سبيرى Sperry « مرجانت Sergeant »

- ١٣٥ -

الصينية الاولى . وهذا النزاع الاستعماري ، المنحل رويداً رويداً إلى نزاع عقائدي والموسع بظهور الشيوعيين الصينيين على حدود تونكن وبلاد التاي ، كان خارج قدرة وسائل فرنسا . ولقد دفعت هذه الدولة لحساب الغرب ، الذي يجهله بعد ، نفقات نوع من حرب لما ينته الكلام عنها .

والآن والقيت - نام منقسمة إلى قسمين : في شمال خط العرض ١٧° أقيم النظام الشيوعي . وفي الجنوب ، حيث اتي أكثر من مليون لاجئ ، بالرغم من الاخطار من كل نوع ، كما في كوريا ، تسلم ديم السلطة .

من ١٩٥٤ الى ١٩٥٩

تفصيل ثنائي ومرب ثورية

في نطاق الحرب النووية المحتملة الوقوع يسجل ظهور القنبلة الهيدروجينية درجة تسارع عظيمة ، وهي تعبيراً هامة كظهور القنبلة الذرية ، وستراتيجياً أكثر أهمية أيضاً .

لقد انتقل قطر المنطقة الخطرة للتفجيرات من ٥ إلى ٥٠ كم ، والقوة التفجيرية من ألوف الاطنان إلى ملايين الاطنان ، والقوى المقاومة لتساقط النشاط الاشعاعي من أقل من ١٠٠ إلى أكثر من (١٠٠٠) كم . ومنذ الآن ذاب فن الحرب في كل ماهو مفرط وعجيب ، (ادمون كومبو)^(١) ، مفرط جداً وعجيب جداً حتى ان الضربات تحسب دون أن تعطى .

(١) ادمون كومبو Edmond Combaux

وإذا بدا هذا الفن عظيماً جداً وشاملاً جداً حتى وثق به الاستراتيجيون الجدد ، فالواقع هو أنه لم تحصل أي مجابهة بين الدول النووية ، بفضل مايسمون « توازن الارهاب » ، ويبقى أن سياء العالم ما فتئت تتغير تحت ثقل عوامل أخرى ، مثل النزاع في الهند الصينية الذي انتهى وجنى منه بعض مئات « الزعماء العسكريين » موارد حربية غلبتهم وأقنعتهم . وفي الوقت الذي أعطت فيه العلوم الصحيحة إلى الناس سلاحاً نووياً جديداً وصاروخاً على مقياسه ، أعطت العلوم الانسانية طريقة كفاح مناسبة وتامة لكل من يتهمون النظام الاستعماري القديم أو يريدون الافادة من من انهياره : وهذه هي الحرب الثورية . إنها حرب ضروس ، بربرية ، شاملة ، في متناول أفقر الناس والاقليات التي قررت بانها لن تخسر شيئاً بتخطئة الغرب الذي اعتاد على رفاهه المعنوي والمادي وشل نفسه بـ « تناقضاته الداخلية » .

ودلت حرب الجزائر على ميكانيكيات النظام وحدوده ، لأنها دارت على باب فرنسا .

ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه الحرب التي دامت ثمانية أعوام ربما لعبت دوراً في المجابهة الاستراتيجية العامة بين الشرق والغرب ، دوراً كان أخيراً لصالح فرنسا . فلو كانت الجزائر مستقلة قبل ١٩٥٩ ، مثل مصر جمال عبد الناصر ، لكان من الممكن ولا شك أن تظهر على مائدة الحرب الباردة وبذل القوى على حساب الغرب ، وبخاصة منظمة معاهدة حلف شمالي الأطلسي المطوقة من الجنوب . ولو كانت مستقلة بعد عام ١٩٥٩ لنشأت بعد بداية « التعايش السلمي » . وإذا استقلت منذ ١٩٦٢ ، فقد جنبت ، قبل كروبا ، من أن تكون رهن « قضية الصواريخ » ، عندما كانت

الولايات المتحدة أقل تهيؤاً للتدخل بصورة نافذة ، وفرنسا في عسر من أمرها للقيام بهذا التدخل .

وفي كل هذا الدور ، كان الغرب ، في الواقع ، يقاتل متراجعا . ويبدو أن الحركة الثورية وجدت ، بعد طرق الحرب ، أسلوباً سياسياً : وهو اسطورة باندورنغ ، التي ولدت في مؤتمر الدول الافرو آسية في نيسان ١٩٥٥ ، مفتاح كلمات سحرية تضعها وقائع الاستقلال للبعض ، والشروط الخاصة الداخلية للجميع ، خلال بعض الوقت للاستعمال ، بضع سنوات كافية لتؤكد على الصعيد العسكري والستراتيجي ما أظهره تورغو^(١) ، في ١٩٤٥ ، وهو الانحاء الفردي للوجود الاوربي .

وقد اعتمدت هذه الملاحظة في مضار آخر بظهور أسلحة نووية تخول أبعاد نتائجها أولوية مطلقة للستراتيجية الجوية النووية التي تستطيع الولايات المتحدة وحدها استعمالها تجاه الاتحاد السوفياتي . والمخاطرة دون حد بـ « بيرل هاربور ذرية » - الواقع في السياسة ليس ارادة الحضم الحقيقية ، التي تجمل ولا يمكن إلا تقديرها ، ولكن الخوف الذي يوحى به حسب عديد من العوامل من كل نوع - مخاطرة ممكنة منذ الآن بواقع تنمية القوة النووية والجوية السوفياتية ، « بيرل هاربور » التي يمكن أن تجتاح البلاد وتزيل كل امكانية للرد ، وتخلق حالة خطرة للغاية . وقد حل الستراتيجيون والفنيوت الامريكيون القضية بمساعدة منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، بتنمية نظام تنبيه خطوط الرادار ذات القوة العالية وسلاسل نقل الراديو في طبقات الجو الملامسة للارض وطبقات الجو العليا ، بل وأيضاً بالابقاء في حالة طيران بشكل دائم على قسم من مقاتلات آمربة الجو الستراتيجية التي

(١) تورغو Torgau .

- ١٣٨ -

تبعد عنها قواعد محيط (أطراف) الاتحاد السوفياتي بفضل تنمية تقنية الترمين في حالة طيران . ولا تصبح القوات البرية أكثر من « نظام تنبيه على الارض مخصص لاثارة الرد الاستراتيجي الكثيف ، نطاق إطلاق النار ، كما يقول الجنرال بوفر (١) .

والنتيجة الاخرى لهذا المنفذ في المفراط هي إمكانية تحديد ذاتي ثنائي في استخدام الاسلحة النووية يذهب حتى عدم الاستخدام المطلق ، وهذا يمكن أن يعطي الاتحاد السوفياتي فائدة استراتيجية عظيمة بفضل تفوقه بالوسائل البشرية والتقليدية على محيط القارة الاوراسية (الاوربية - الآسيوية) كله .

ولقد أخذ فوستردالس ، أمين الدولة في عهد الرئيس آيزنهاور، حوالي ١٩٥٥ ، على عاتقه مسؤولية نشر المذهب المسمى « الرد الانتقامي الكثيف » :

« سيكون الدفاع الموضعي هاماً دوماً ، ولكن لا يوجد دفاع موضعي يستطيع وحده أن يحتوي قوة العالم الشيوعي البرية العظيمة . ولذا يجب أن يعزز الدفاع الموضعي بعنصر التثبيط والتضليل وصرف النظر عن العدوان الذي تؤلفه القدرة على ممارسة ردود انتقامية كثيفة . وهكذا فإن المفهوم النووي يستوعب في الغرب ، كل فن الحرب : بموجب برنامج يسمى « MC - 70 (حسب رقم الوثيقة التي أقرته) ، وقد بدأت دراسته في ١٩٥٦ وانتهت في ١٩٥٧ ، وكان الامريكيون يتنبأون بإمكان إعطاء الجيوش الحليفة ، عند اللزوم ، أسلحة ذرية يحتفظ بها حتى ذلك الحين تحت إشرافهم ، ومن ضمنها أسلحة ذرية تعبوية تساعد الوحدات الكبرى

للجيش البري ، القليلة العدد كثيراً ، على مجابهة الجماهير السوفياتية وهي وهي في حالة أقل نقص ممكن . ولهذا الغاية نظمت الفرق الامريكية المسماة «بانتوميك»^(١) (وهي على خمسة وحدات ومجهزة بأسلحة ذرية تعبوية) ، وفي فرنسا، بعد التجريب المسمى تجريب «الرمح» (جافيلو)^(٢) وإنشاء الفرقة السابعة الميكانيكية السريعة ، نظمت الفرق المسماة «بمؤذج ١٩٥٩» .

وفي الوقت نفسه ، ينضم الاكثر غرابة إلى الاكثر افراطاً . ان الرادارات الامريكية المقامة في تركيا تسجل مسارات صواريخ سوفياتية عديدة بشكل كاف لتدل على أن الاتحاد السوفياتي يعتبرها قذائف ممتازة لقوته الضاربة . وفي ١٩٥٧ سجلت مرامي من ٦٠٠٠ كم (من ١٠٠٠٠ كم حسب قول خروتشوف) وهي امكانيات أيدها إطلاق القمرين التابعين الاولين «سبوتنيك» في ٤ تشرين الاول و ٣ تشرين الثاني . وهذه النجاحات المثيرة حملت على الاعتقاد بأن السوفياتيين يملكون الآن سبقاً علمياً حاسماً على منافسيهم الذين تركوا المجال للاعتقاد بهذه النظرية التي قبل الكونغرس والشعب الامريكي بفضلها التضحيات والمجهدات التي حكم بأنها ضرورية . وهكذا فإن الصواريخ المتوسطة المدى (I.R.B.M. من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ كم) دوغلاس «ثور» وكرايسلر «جوبيتر»^(٣) دخلت في الخدمة في الوقت نفسه . ووضعت ثلاثون من هذه الاخيرة في تركيا ، و١٥ في ايطاليا . وفي كانون الاول ، ١٩٥٧ ، نجح أول إطلاق للجهاز عابر القارات I.C.B.M بصاروخ جنرال ديناميكس «أطلس» بلغ مدى ١٠٠٠٠ كم في أيار ١٩٥٨ .

(١) بانتوميك Pentomiques

(٢) جافيلو Javelot

وفي شهر تموز من هذه السنة قامت أول غواصة بدفع نووي ،
«نوتيلس»^(١) ، بجولة تحت جليد القطب الشمالي . وكانت الاولى من سلسلة جولات
تولف مجموعة قواعد لاشيه لها ولا يمكن الكشف عنها ، بفضل نفاذ وعناد
الاميرال المساعد ريكوور^(٢) ، وانشئت لاطلاق ١٦ صاروخ «بولاريس»
تحت الماء . وأصبحت هذه الصواريخ الاخيرة (I.R.B.M.) من مدى ١٦٠٠
الى ٢٠٠٠ كم) جاهزة للعمل في أيار ١٩٥٩ .

وهذا المفرط المدفوع بالعجيب بحث رجال الدولة على إعادة تقييم
سياستهم . ففى خريف ١٩٥٦ ، ترك الغرب الجيش السوفياني يسحق
الثورة الشعبية الهونغارية ، في الوقت الذي اتفقت فيه واشنطن مع
موسكو على تعديل بريطانيا العظمى وفرنسا اللتين غامرتا في السويس
كما في أجمل أيام العصر الاستعماري . ومنذ الآن ، تبدو المحافظة على
« الوضع الراهن » ، المستقر بالتضليل المزدوج القطب للولايات المتحدة
والاتحاد السوفياني ، أهم من أي اعتبار آخر . وقد كرس خروتشوف
هذه السياسة وأعطاها اسم « التعايش السلمي » ، « مبدأ لينيني » ، ما وراء
القبر ، وكذلك آيزنهاور في مقابلة معسكر ديفيد ، في ١٩٥٩ . وبعد
أن أخذ رئيسا الدولة قياس العالم ، هذا « العالم المنتهي » ووسائل
تدميرهما المتبادلة ، أقاما بين عاصمتيهما « الهاتف الأحمر » الذي يجاور
جهازه منذ الآن درج (قطر) الضغط على زر الحرب .

ولكن هدوء الناس غير مقبول ، وستأتي منازعة هذه السياسة من
الخارج .

(١) نوتيلس Nautilus

(٢) ريكوور Rickover

من ١٩٥٩ الى أياضنا

النظر الذري ونزاع التضامن

وهذا الدور ، الذي فتح في معسكر ديفيد ، في ١٩٥٩ ، مطبوع أيضاً في أصله بعدة حوادث أخرى . وبأقي أولاً النزاع الصيني - السوفياتي ، الذي ظهر على الصعيد العسكري بسحب كل مساعدة فنية سوفياتية ، وبخاصة ، في حزيران ١٩٥٩ ، برفض تقديم معلومات موعودة وضرورة لانحياز القنبلة الذرية . وبصورة موازية للتشكيك الذي قامت به بكين بـ « زعامة » موسكو العقائدية ، أثارت باريس في الوقت نفسه قضية اصلاح منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي خلال قضية مجلس الادارة (الديركتوار) الذري . ونجد هذات الجدلان بالافادة من التفجيرات النووية التجريبية في الصحراء الكبرى عام ١٩٦٠ ، التي سجلت بشكل ملموس إرادة فرنسا تشكيل قوة ضاربة قومية ؛ وبالافادة من النزاع الفيتنامي الثاني الذي نشأ من جديد في عام ١٩٥٧ وأخذ سعة جديدة نحو ١٩٥٩ .

ولا شك في أن بريطانيا العظمى تملك أيضاً منذ أكثر من خمسة أعوام قوة ضاربة ، ولكن هذه القوة تظهر عضواً ودبلوماسياً ، متممة للقوة النووية الامريكية ومربطة بها قليلاً . أما باريس ، التي رفضت توقيع معاهدة موسكو في عدم التكاثر الذري ، فقد قدمت قوتها باستقلال كامل ، أداة سياسية ضد « الهيمنتين » ، ضد الازدواجية القطبية واشنطون - موسكو ، وكان آخر ظاهرة مدوية لـ « التناقضات الداخلية » في العالم الرأسمالي ، هذا العمل الفرنسي الذي تواجد مع النزاع العقائدي

موسكو - بكين ، « تناقض داخلي » ، خاص بالعالم الشيوعي ، مدعوم هو أيضاً ، في ١٩٦٤ ، بأول محاولة نووية صينية .

وفي صعيد القوى المسماة « القديمة » ، أو « التقليدية » ، وعلى جنود مجندة مجموعها ٣٣٠٠٠٠٠ رجل تقريباً ، يبلغ الجيش البري السوفياتي ٢٠٠٠٠٠٠ رجل موزعين إلى ١٤٠ فرقة ، وأقل من نصفها بقليل جنود كاملة النشاط . وإذا رابطت الأكثرية الضخمة من هذه الوحدات في بلاد تابعة وفي روسيا الأوروبية ، فقد وجد الثلث في شرقي الأورال ، ويلاحظ ، منذ الأزمة الصينية - السوفياتية ، أن عدداً من الفرق انتقلت من أوربة إلى سيبيريا . وطالب الصينيون بأقسام من بلد حليفهم السابق . ويستطيع الاتحاد السوفياتي ، بقوى البلاد التابعة ، أن يضع في صف القتال ، في نطاق ميثاق حلف وارسو ، ٣١٠٠٠٠٠ تقريباً في وحدات برية ، مقابل عدد من الجنود معادل تقريباً لجنود منظمة معاهدة حلف شمالي الأطلسي ، التي تضع الولايات المتحدة في داخلها في الصف ١٥٠٠٠٠٠ رجل (منها ٢٢٥٠٠٠ في أوربة) مقابل ٨٧٠٠٠٠ في ١٩٦١ و ٩٧٢٠٠٠ في ١٩٦٤ . وهذه الزيادة ، في الجيش البري للولايات المتحدة تنجم بوضوح عن متطلبات الحرب في فيت - نام ، وتجعل الأعداد الكلية للقوات الأمريكية تتجاوز منذ ١٩٦٦ أعداد القوات السوفياتية بمائة ألف رجل تقريباً .

أما ما يتعلق بالقوات الجوية (١) ، فتحت تصرف الأمريكيين ١٤٠٠٠ جهاز (طائرة) من كل نوع (٨٥٠٠٠٠ رجل في الكل للقوة

(١) ولا يدخل فيها ٩٥٠٠ طائرة (٢) ها هيليكوبتر) مرتبطة عصبياً بالجيش البري والطيران البحري .

الجوية () ، مقابل ١١٠٠٠ للسوفياتيين ؛ ويجب أن يلاحظ أيضاً أن المطاردات - المقاتلات ، التي تدخل في هذا الصنف ، قادرة على حمل أسلحة ذرية وأن قوة النار الكلاسيكية أعلى من النار التي كانت تستطيع القاءها المقاتلات الثقيلة في الحرب العالمية الثانية .

ويخدم بحرية الولايات المتحدة ٧٦٢٠٠٠ رجل ، وكان عندها في العام ١٩٦٩ ، ١٥ حاملة طائرات ثقيلة مهاجمة ، وعشر حاملات - طائرات مضادة للغواصات تحمل ١٨٠٠ طائرة ، و٧ حاملات هليكوبتر ، ٣٢٥ طراداً ومدمرة (١) ونحو مائة غواصة بدفع كلاسيكي ، دون حساب اسطول توبيني من الصعب تقييمه بصورة مقبولة .

أما الاتحاد السوفياتي فان سقف اسطوله حول ٢٢٠ سفينة (طرادات ومدمرات) ، وهو يضم بخاصة أكثر من ٣٣٠ غواصة ذات دفع كلاسيكي . وعلّة هذه البحرية الأخيرة هي ولا شك بعثرتها ، كما في عهد القيصرية ، بين البaltيك والمتجمد الشمالي والبحر الاسود والمحيط الهادي .

ولكن هذه الأرقام ، - الهامة كنوع من عظمة ، لأنها تختلف كل سنة ، ويحسن أن نلاحظ أيضاً أن قدرة النار الكلاسيكية ، في الوحدات الجوية والبحرية أو البحرية قد تضاغت أو بلغت ثلاثة أضعافها منذ ١٩٤٥ وأضيفت إليها إمكانات استخدام الأسلحة الذرية («التعبوية») ، - ليست شيئاً دون معرفة المذاهب الاستراتيجية عند البلاد الأخرى ، واختلافاتها ومعرفة الظروف الدولية أيضاً .

ويجب أن يفهم أن التفضيل النووي كخط ماجينو يمكن أن

(١) مها ١٢ طرداً ، ٢٩ بارجة ، و٢٧ مدمرة مطلقة صواريخ مضادة للطائرات .

- ١٤٤ -

يكون ايجابياً لاسيما . وقد كتب الجنرال بوفر : « ان أساس الفكر التضليلي هو أنه يجب الا نطلق تنبؤاتنا في الدفاع من يوم ما ، بداية النزاع ، ففي ذلك الحين ، تكون الدراما في الواقع كاملة ... أما مايتبعها فهم قليلا ، لانه لا يوجد غالب ومغلوب ، بل خصمان مدمران بعمق . واللعبة الحاسمة تلعب قبل إثارة الاسلحة ، وهدفها منع هذه الاثارة مع حل الخلاف . ان استراتيجية التضليل تقتضي أن يضع الخصم نفسه في وضع يهدد خصمه بخطورة ويخوفه من رد فعل خطر ، مع تجنب الحركات غير القابلة للرجوع إلى الوراء . »

والتصور الشبه الكامل لاستراتيجية التضليل هذه كان قضية كوبا في ١٩٦٢ : ان إقامة الصواريخ الروسية في هذه الجزيرة جعل عبئاً كل تشكيل للخطر والدفاع في الولايات المتحدة ، وكان بإمكان هذه أن ترد باجتياح كوبا بالقوات الكلاسيكية في وقت كان فيه الاتحاد السوفياتي بعيداً جداً ولا يستطيع مساعدة الكاستريين بنفس النوع من الوسائل . وكانت على موسكو أن تختار اما اجلاء صواريخها لتجنب غزو كوبا ، ومن الممكن بنفس الضربة تكتيس النظام الشيوعي ؛ واما القيام بزيادة نزاع على أساس أسلحة نووية . وحلت القضية بانتخاب خروتشوف العنصر الاول من الاختيار .

وسيطرت المعطيات الاستراتيجية نفسها على « حرب الايام الست » بين العرب واسرائيل ، فقد وجدت موسكو نفسها في استعالة من دعم العرب حتى الاعماق ، مع وفرة العتاد العسكري السوفياتي الموضوع تحت تصرفهم أمام خصم كان همه استخدام التقنية الحديثة في « حرب خاطفة » على طريقة رومل .

وفي وقت لم تتكامل فيه القوات الضاربة القومية بعد ، عدا الروسية والانغلور ساكسونية ، ظلت قضايا كوبا والشرق الاوسط وقضية فيت - نام أيضاً أمثلة تضليل ثنائي في عالم نووي ومزدوج القطب أيضاً . ومن الواضح جيداً ، وقد أصبحت الميكانيكية أكثر تعقيداً انطلاقاً من الزمن الذي لعبت فيه اللعبة بثلاثة وأربعة ، الخ . ، ان « اللاعبين » الاولين السيدين المطلقين في لعبتها لم يكونا مستعجلين جيداً ، بالرغم من كل مايفصلهما ، في رؤية تجسيد التكاثر الذري ، ومن هنا خرجت معاهدة موسكو .

وقد بين الجنرال بوفر في كتابه « تضليل وستراتيجية » الظرف الذي تتضمن فيه قوة ثالثة نووية فوائد ، أي بصورة أساسية استغلال الاحلاف في الحلد الذي يستطيع فيه العمل المشترك المتجدد الدائم أن يذهب بالرفيق الاسامي إلى الحفاظ على سياسة الدفاع الشامل ، ومن ضمنها الدفاع عندما لا تكون مصالحه الحيوية داخلة مباشرة في القضية ، بل منافع حليفه .

وهذا الاعتبار أجابت القوة الضاربة البريطانية التعريف جيداً ، في سياق هذا التسلسل من الافكار . وفي الحلد الذي أظهرت فيه الدبلوماسية الفرنسية حاضرة لإرادة عمل مستقلة بصورة مطلقة في أبعاد الروابط مع منظمة معاهدة شمالي الاطلسي ، وفي توكيدها ضد « الهيمنتين » ، الخ ، فسدت اللعبة ، ونشأ من جديد عدم استقرار العالم ، لأن صعوبات حرب قالب ، وهي عظيمة في المستوى الكلاسيكي ، توجد هنا ، في زمن السلام ، متفاقمة بالبعد النووي للرهان . وهكذا تفكر الولايات المتحدة حيال فرنسا ، ولا يحكم الاتحاد السوفياتي على الصين بشكل آخر ، فيما وراء منازعات التشريفات العقائدية .

قضايا عصرنا (١٠)

وأمام بلقنة^(١) العالم الموروثة عن العصر الاستعماري في بلاد العالم الثالث ، والمتجددة بصعود القومية في أوربة ، والمدعومة بتسكاتر ذري يحاول الأميركيون والسوفييتون كبسح هذا التسكاتر ، ويقبلون سترايجيتهم وقوتهم على ضوء حرب الفيت - نام التي أخذت عنها الدروس . والبلقنة هي القوضى التي لا يمكن رصدها في عصر الديموغرافيات السائرة بخطا مربعة . وتعززت آثار هذه البلقنة بتخفيف وتصغير أبعاد الاسلحة الكلاسيكية : مدافع هاون ضخمة ، مدافع دون رجعة ، بازوكا مضادة للدبابات والطائرات ، أسلحة آلية من كل نوع ، صواريخ بحر - بحر تطلق من سفن حربية صغيرة خفيفة ومربعة ، الخ وهذه الوسائل المتكيفة مع مالية وبساطة الشعوب الفقيرة يقابلها البسط الباذخ للقدرة الامريكية التي تقلدها كثيراً أو قليلاً الدول الصناعية الأخرى .

إن مردود الطائرات الحاملات الضخمة قد تضاعف بـ ٢٠ في ١٩٦٩ بطائرات C - 5 - A المقارنة بطائرات C - 124 في ١٩٥٠ . ففي أقل من ثلاثة أيام يمكن أن تنقل على هذا النحو فرقة إلى أوربة مع ٥٠٠ طن من العتاد . وبصورة موازية ، في نفس التاريخ ، دخلت الخدمة أساطيل شاحنات مربعة ومختصة بحسب البرنامج « تموين الانتشار السريع » (F.D.L.) ، وهي أنواع من المعامل والمستودعات تتلاقى في البحر على الدوام وتساعد على تأمين الدعم التمويني للوحدات الأولى عند انزالها . وهذه العملية الأخيرة تشبه إذن قليلاً عملية « اوفرلورد » في حزيران ١٩٤٤ ، التي أصبحت ضعيفة أمام النار الذرية اليوم : إن السفن الأساسية تستطيع أن تبقى على ٣٠ كم من الشواطئ ، عوضاً عن ٣ كم ، ومن بطنها تنطلق هوفر - كرافت على محدة هواء تقطع من ٣٠ إلى ٤٠ عقدة عوضاً عن

(١) البلقنة كثرة الدول الصغيرة ، والكلمة مأخوذة من البلقان .

٨ عقد للزوارق القديمة . وفي البر ، وحدات منقولة بالهليكوبتر ، من نوع الفرقة الأولى المنقولة جواً ورهن التجريب حالياً في فبت - نام الجنوبية ، تثبت الحشم لتسحقه تحت نار المدفعية والطيران . وباختصار ، ستراتيجية وطرق تعبوة على مقياس « البلاد الغنية »

وهذا البذخ في الوسائل التقليدية يساعد على تجنب سياسة القواعد في الخارج ، غير الشعبية دوماً عند من يسيرها لأنها تكلف غالباً ، وعند من تنجز عنده لأنها تشخص الصفة المميزة للحماية والتبعية خلف مع من هو أكبر منه . وكذلك ، تصبح هذه القوات بخاصة وسائل للحفاظ على « الوضع الراهن » ، بـ « نيران الغابة » .

ويبدو أنه لا يوجد مجموعة صواريخ مضادة للقذائف غير التي تصنعها موسكو متبوعة بواشنطن والتي تبدو ميزتها قاصرة بصورة أساسية على إحباط القوات الضاربة القليلة السعة ، أي للحفاظ ، على الأقل لبضع سنوات على الصفة المزدوجة القطب للحالة الستراتيجية العالمية . والغواصات المسماة « غواصات المطاردة » ذات الدفع النووي مدعومة ولا شك لأن تلعب نفس الدور حيال الغواصات مطلق الصواريخ ، اما لجمايتها أو لتدميرها . ويملك الأمريكيون ثلاثين عمارة من هذا النوع تستطيع لدى خروجها من قاعدتها أن تأخذ طريق بعض الغواصات مطلق الصواريخ ذات القدرة النووية الصغيرة لتعديلها أو لتقويضها . ويملك بريطانيا العظمى منها كثيراً . وقد تخلت فرنسا عنها لبضع سنوات ، ولكن هذا يقيد قوتها الضاربة تحت المانية في المستقبل .

أما الاتحاد السوفياتي الأكثر تقليداً ، و الأكثر بزية و الأكثر قارية ، فيقترب من المعطيات الأمريكية . وفي حالة نزاع مع الصين ،

يكون لأول مرة في التاريخ الرومي ، في حالة نقص عددي ، وهذه الفرضية غير مستبعدة منذ الآن ، حتى ولو بدت بعيدة بعد .

وهذا البسط في الوسائل ، والطرق ، والامكانيات التعبوية والاستراتيجية ترافقه بالبداهة « مصلحة جوميني » فكري على مقياسه . ونحن منذ الآن بعيدون عن عصر الاستراتيجيين أصحاب العبقرية الفردية من نوع جوميني وكلاوزويتز أو غيرهما . وإذا وجد أيضاً في أوروبا ، من هؤلاء الباحثين المنعزلين الذين تعتبر اسهاماتهم رئيسية في الغالب مثل : ريمون آرون ج. بوتول^(١) ، ف.أو. ميكش ، كميل روجرون^(٢) ، مثلاً ، فقد نشأت مشاغل (ورشات) حرفية حقاً مثل معاهد الدراسات الاستراتيجية في لندن وباريس ، وهي ذات صفة نصف - عامة . أما أمريكا التي لا تدخر شيئاً ظاهراً ، قطعاً ، فلديها « معامل » حقيقية للبحث الاستراتيجي والعمليات ، مثل معمل راند كوربوريشن^(٣) الشهير أو معهد هدسون^(٤) واشتهرت فيما وراء الاطلسي أسماء هرمان خان ، هنري كيسنجر ، برنارد برودي ، وليم كوفمان ... وان اخفاقهم النسبي في تحليل بعض مظاهر حرب فيت - نام يجب ألا يضل ، لاننا مازلنا في التماسات الاولى ولم يبرهن بعد على أن الموازنة الشاملة سلبية .

وفي داخل هيئات البحث والتحري هذه يعاون المهندسون والفنيون

(١) جوميني Jomini وكلاوزويتز Clausewitz

(٢) بوتول G. Bouthoul

(٣) كميل روجرون Camille Rougeron

(٤) راند كوربوريشن Rand Corporation

Hudson Institute (٥)

- ١٤٩ -

والعسكريون بنجدة كبيرة من الجذاذات المنقوبة . ووزن أفكارهم ، بالعقل
الالكتروني ، أعظم في الغالب من وزن السلطات البرلمانية في القرار الذي
يمكن أن يتخذه رئيس دولة . ولا يخلو الأمر من خطر ممكن على الدولة
وعلى العلوم الانسانية التي تهدد بالانحطاط ، بالمقابل . ومع ذلك يبقى أمل
« الجبراء بالانسانية » .

الفصل الرابع

التطور الاقتصادي والاجتماعي

مرفئ

في ١٩٤٥ ، وجد أن سعة التعمير بعد هزيمة ألمانيا واليابان ، والخوف من رؤية عودة الدكتاتورية السياسية تحت غطاء الاكتفائية الاقتصادية ، والرغبة في الرفاه والرغد والامن والفراغ التي تملك طبقات أوسع من السكان دوماً ، والارادة الاجتماعية في السلام ، تنطاب عملياً التوسع المستمر في الانتاج والمبادلات ، والاستخدام الكامل ، والارتفاع المنتظم للاجور المباشرة وغير المباشرة ، والحماية ضد المرض والحوادث والشيخوخة والدفاع عن التوفير المكتسب بالعمل ، والجهد المشترك .

كيف الوصول الى ذلك ؟ إن الجواب عند الاتحاد السوفياتي حاضراً تماماً : فهو يقول : إن اشتراكية ماركس وآنغاز العالمية وحدها ، التي أعاد فيها النظر لبنين وتممها ، تأتي بحل منطقي ، عادل ومطابق لتطلعات الشعوب . وإن الغرب الرأسمالي يرفض هذه النظرية ، ويبقى مخلصاً لمثل الحرية والملكية الفردية ، والمشروع الخاص ، ولكنه ليس صاحب القضية وحده . لأن تأثير العمال مافئء في ازدياد . والاحزاب الشعبية ، ونقابات العمال تشهر بمساوىء البورجوازية ؛ وترفض قانون ازيمات الاقتصاد الدورية الذي يوالي ، بدقة نواس الساعة ، الوفرة والعوز ، باعتباره مناوئاً للمجتمع ؛ وتنكر صفات العيار الذهبي كواسطة وحيدة لاستقرار العملات ، وحذف التضخم

النقدي ، وتنشيط الاعتماد ؛ وان التدخل المعمم للدولة ، التي فرضت نفسها منذ أزمة ١٩٢٩ وبخاصة أثناء الحرب لتنشيط انتاج التسلح ، وتجنب الاسراف وتقنين الاستهلاك ، يظهر لهم لاغنى عنه تماماً في زمن السلام أيضاً لرفع الدمار ، وتأمين التوسع الاقتصادي والعدالة الاجتماعية ، ووضع النظام في الاموال الداخلية والخارجية . ولما كانت هذه الثباتات غير قابلة الرجوع فمن الواضح ان المشروع الخاص لا يمكن أن يقوم بالمسؤوليات الثقيلة ، وإن أكثر الناس تردداً يقنعون أنفسهم أخيراً ويدعون . ألم يبرهن اللورد كينز أن الازمات الاقتصادية التي تعتبرها كليات الحقوق حتمية ليست من صنع الافراط في الانتاج ، الذي يؤدي الى هبوط الاسعار ، والاجور ، وزيادة البطالة ، بل ، بالعكس ، تنأى منطقياً عن سوء استهلاك دائم تستطيع الدولة أن تحذره نهائياً بالزيادة المنتظمة في القوة الشرائية لدى الجماهير ؟ ألم يكن ايروين فيشر أول من شهر بأن الاستقرار المزعوم للعملة ليس إلا وهماً يدفع العمال تكاليفه ؟ والبرنامج الجديد الذي طبعه في العام ١٩٣٣ ف.د. روزفلت في أكثر الجمهوريات قوة وليبرالية ، ألم يبرهن على أن الدولة يمكن أن تتدخل بشكل شامل في جميع القضايا الاقتصادية والاجتماعية والنقدية دون تقويض المشروع الخاص ودون سوق البلاد الى الشيوعية ؟

ومنذ ذلك الحين ظهرت آخر وسوسات الغرب الرأسمالي : ان الليبرالية الكاملة لا تنضم أكثر من ندرة من الاتباع ، والدولة ربة العمل فكتسب حق المدينة ، وتصبح المنشط أو الوصي على قطاعات الانتاج الواسعة ؛ والمشروع الخاص نفسه ، يطلب منها مساعدة وحماية . و « الاقتصاد المختلط » نشأ رسمياً منذ عهد قريب ، وليس بالضرورة اشتراكياً ؛ وهو يعتمد على دعمتين : القطاع العام ، والقطاع الخاص . وتختلف أهميتها النسبية بصورة

عظيمة من بلد لآخر حسب مزاج الشعوب ، والتقاليد التاريخية ، وضرورات الظروف السياسية والاجتماعية . ولا مفر لأمة ديموقراطية اليوم من أوامر النظام . هذا هو الحادث الأول الملحوظ بعد الحرب .

والحادث الملحوظ الثاني ، هو أن التنظيم الدولي الذي يجب أن يؤمن نمو الاقتصاد العالمي قد وجد ، في ١٩٤٥ ، على الورق على الأقل ، على خلاف ما حدث في ١٩١٩ ، بالرغم من الجهود التي حاولها الرئيس ولسون في حينه ، واهميته في العام ١٩٤٥ هي أنه كان أكثر عقلانية وأكثر كمالاً من التنظيم الذي نجم عن معاهدة فرساي .

في ١٥ آب ١٩٤١ ، عرف رئيس الولايات المتحدة مبادئ هذا التعاون الدولي الجديد بتوقيع ميثاق الأطلسي مع ونستون تشرشل ؛ وهذا الميثاق الذي قبلته ، في الأول من كانون الثاني ١٩٤٢ ، خمس وعشرون « أمة متحدة » ، ومن ضمنها الاتحاد السوفياتي ، يتبنا بإقامة روابط سياسية بين جميع الأمم دون تمييز في العقائدية ، ودون اهتمام في حينه بما ستقره الأسلحة ، بل أيضاً وبخاصة بوصي بالتعاون الدولي على الصعيد الاقتصادي ليؤمن للجميع ظروف عمل أفضل ، وتقدماً اقتصادياً وضماناً اجتماعياً ، (المادة ٤) ، وتخويل « جميع الدول الصغرى والكبرى ، الغالبة والمغلوبة ، وعلى قدم المساواة في الحقوق ، الوصول الى التجارة والمواد الأولية في العالم الضرورية لازدهارها الاقتصادي » (المادة ٥) . وما قيل سيعمل ، حتى قبل أن تنتهي الحرب وتأسس منظمة الأمم لمتحدة في سان فرانسيسكو في حزيران ١٩٤٥ . ومنعت منظمات مختصة ، مثل منظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة (F.A.O.) ، المنظمة الدولية للعمل (O.I.T.) ، منظمة الطيران المدني الدولية (O.A.C.I.) ، منظمة الصحة العالمية (O.M.S.) ، منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اونيسكو)

صندوق النقد الدولي (F.M.I.) ، البنك الدولي للاعمار والتنمية (B.I.R.D)
نظمها الاساسية او تمهيات لأخذها . أما الاتفاق على الاتفاقية العامة على
للتعريفات الجمركية والتجارة أو G.A.T.T. ^(١) فقد وقعت ٢٣ أمة في
جونييف ، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٧ .

وأخيراً ، لم يكن الاقتصاد العالمي بكل بساطة مسرحاً - ومن
الممكن القول ميداناً مغلقاً - للنزاعات إلا منذ القرون التي انصرفت فيها
بعض الدول التي كانت ، في القرن التاسع عشر ، توجه القضايا الدولية
دون أن تهتم كثيراً بما تريد أو تفكر مئات الملايين من الناس الذين ودوا
الى السكوت أو الى العجز ، أو على الأقل حشروا بالقوة في قضايا لا
تتعلق بهم إلا من بعيد . ومنذ الآن ، ستصطدم دول الغرب شيئاً فشيئاً
بعنف مع جماعات أخرى منظمة ، أو في طريق التنظيم ، توجب أن
تكون سيدة مصيرها . وهكذا تشكلت في عام ١٩٥٠ كتلة الدول
الشيوعية التي تحددت الدول الرأسمالية المتقدمة على الصعيد الاقتصادي
والاجتماعي . وبعد عشر سنوات قامت البلاد السائرة في طريق التنمية ،
أو العالم الثالث ، المتكاثرة دوماً كلما انهارت الامبراطوريات الاستعمارية ،
وبحثت في الاستقلال عن الطريق التي تؤدي بها الى الازدهار .

ومنذ الآن ، ولاول مرة في تاريخ الانسانية ، ارتسمت ملامح
اقتصاد عالمي حقيقي . ومازالت الحواشي بعد غير واضحة والبنيات
ضعيفة ، ومع ذلك لنؤمن أن الثورة الاقتصادية الحقيقية والاجتماعية لما
بعد الحرب هي هنا . ومامن احد يستطيع بعد أن يتنبأ بأهميتها .
وفي الظاهر ، ان سادة الامس هم أيضاً سادة اليوم ، ولكن ليس هذا
إلا وهماً سيؤول حسب الظروف والزمن .

(١) من GENERAL AGREEMENT ON TARIFFS AND TRADE

- ١٥٤ -

وهذه هي الاختلافات والتحول ، ومنافسات العقائدية والمصلحة والجاه التي أقيمت على ذكرها هنا باختصار . والتفسير الوحيد للاحصائيات المسماة « العالمية » لا يؤدي إلا إلى تأويل دون أساس عملي ، لأنه لا توجد احصائيات عالمية لمجموع النشاطات الصناعية والزراعية والاجتماعية والنقدية ، والاحصائيات ، التي يدل عليها كما هي ، هي ناقصة تقريباً دوماً ، وقائمة على معطيات قابلة للمناقشة تضيف تحت عنوان واحد منتجات او قيماً لاتساعد طبيعتها وخواصها المتفرقة إلا على مقارنات سطحية .

١٩٤٥ — ١٩٥٠

التعمير

لنعد الى ١٩٤٥ . وقبل البحث عن تنمية الاقتصاد العالمي يجب تعميم ماخبرته الحرب . ففي اوروبا وفي آسيا ، سبب الكفاح والقصص واحتلال البلاد ، من قبل الغالبين الموقتين الكثيرون الطلاب ، خسائر بشرية مرفعة للحد الأقصى (٥٠ مليون على الاقل من الجنود قتلوا في الحرب ، من مدنيين سيحقوا تحت القصف ، ومنفيين اغتيلوا في معسكرات الاعتقال ، دون عدد المفقودين ، والمشوهين) ، وتخريبات مادية يستحيل الكشف عن حسابها .

وكان التعمير وقلب اقتصاد الحرب الى اقتصاد السلام ، مع ذلك ، مريعين جداً ، ووجد الغالبون والمغلوبون بعض التوازن الاقتصادي والاجتماعي في أقل من خمسة أعوام . إلا أن التضخم النقدي وحده الذي سببته نفقات الحرب ترك آثاراً عميقة لما تتمتع به بعد .

الاتحاد السوفياتي

كانت الخسائر السوفياتية ثقيلة : ٢٠ مليون من العسكريين والمدنيين قتلوا أو فقدوا ، ١٧٠٠ مدينة ، ٧٠٠٠٠ قرية ، ٣٢٠٠٠٠ معمل ومصنع تمثل ٦٠٪ من الانتاج الصناعي كانت بحاجة الى تعمير . وبالأجمال ، ضاعت ٦٧٩ مليار روبل .

ومنذ الفاتح من كانون الثاني ١٩٤٦ ، أطلق ستالين الحطة الخمسة الرابعة « خطة النصر والتعمير » . ووضع ٢٥٠ مليار روبل تحت تصرف الاقتصاد من أجل وسائل الانتاج الجديدة .

وأوقف الإصلاح النقدي ، في كانون الأول ١٩٤٧ ، التضخم النقدي وفرضت على السكان تضحيات ثقيلة . وبادلت الدولة مبدئياً ١٠ روبلات قديمة مقابل روبل واحد جديد ، مع تفاوت مشهود كان الكولخوزيون ، الذين انهوا بتدبير ارتفاع الاسعار بالسوق السوداء ، ضحايا الأساسية .

وانجزت الحطة الرابعة في أربعة أعوام ونصف . فقد انشئ أو جدد أكثر من ٥٢٠٠ معمل ؛ وساعدت الـ ١٣٠٠ مشروع ، التي نقلت اثناء الحرب إلى الاورال ، سيبيريا الغربية وقازاكيستان ، على زيادة سعة الانتاج بشكل عظيم بالنسبة الى ما قبل الحرب . وفي ١٩٥٠ ، تجاوز استخراج الفحم ٢٦٠ مليون طن ، أي ٥٠٪ أكثر مما كان في ١٩٤٠ ، وأصبح حوض الدونetz من جديد « موقد الاتحاد السوفياتي » . وتضاعفت رجة الآلات الصانعة . وكان الانتاج الصناعي ، في ١٩٤٩ ، أعلى بـ ١١٪ من انتاج ١٩٤٠ . وتبعث الزراعة الحركة ، ولكن بأكثر بطءاً وكانت التقارير الرسمية متفائلة ، وتؤكد بأنه عمل شيء جديد ، وأن السير سريع ، ويعمل أفضل . واعدت الحطة الخامسة وكانت تتوقع زيادة القدرة الصناعية من ٧٠ الى ٨٠٪ ؛ وهذا يساعد الاتحاد السوفياتي على إدراك ، او حتى تجاوز ، البلاد الرأسمالية الأكثر تقدماً من غيرها .

بريطانيا العظمى

كلف المجهود الحربي بريطانيا العظمى ١٤ مليار جنيه . وغطت الواردات الضريبية منها الثلث (٥٥٥ مليار) ؛ وصدت بيع الحقيبة الخارجية (٢٥٥ مليار) ، وتصفية الرأسمال القومي (٣ مليارات) والتضخم النقدي الفرق .

لقد قصفت مدن عديدة ومعامل كثيرة بشكل خطير . وخسر الاسطول التجاري ثلثي وزنه ، والاحتياطيات النقدية ، المرتفعة قليلاً نسبياً في ١٩٣٩ ، نقصت بمقدار النصف ؛ ولم تبلغ صادرات ١٩٤٤ إلا ثلث حجم ١٩٣٨ ، وصعدت الديون الخارجية حتى ٥ مليارات جنيه أثناء الحرب ، وفي ١٩٤٥ ، ارتفعت أيضاً الى ٣٥٠٠ مليون ، منها ٢٥٠٠ مليون لاعتماد الكومنولث . وأصبحت المملكة المتحدة دولة مدينة لأول مرة منذ أكثر من قرن ؛ وبلغ رقم ديونها الداخلية ٢٠ مليار جنيه .

وواجهت المملكة المتحدة دور التقدير الاقتصادي بضربة مسرح سياسية . فقد كرست الانتخابات العامة في تموز ١٩٤٥ هزيمة محافظي ونستون تشرشل . وبعد أن أصبح الميجر اتلي زعيم حزب العمال الوزير الاول ، حاول تطبيق برنامج « الديمقراطية الصناعية » الذي حضر قبل الحرب العالمية الثانية ووضع أثناء الحملة الانتخابية في عام ١٩٤٥ . وأصبح بنك انكلترا ، مناجم الفحم ، الكهرباء ، الغاز ، الطاقة الذرية ، النقل ، الطيران المدني والراديو مباشرة أو تقريباً « ملكية عامة » . وكانت ردود الفعل ضعيفة . ووافق كثير من الانكليز بيغن ، وزير الشؤون الخارجية المقبل في الحكومة العالية ، على اتهامه ، في ٧ نيسان ١٩٤٥ ، المحافظين بسوق البلاد منذ عشرين عاماً الى الهاوية .

وفي الواقع ، لم يعرف القطاع الخاص ، بين الحريين ، الحفاظ على الصناعات الأساسية في مستوى المنافسة الدولية . ولم تعط مناجم الفحم الحجري ، العديدة جداً ، إلا مردوداً ضعيفاً . وسعر كلفتها مرتفع . وكانت الصناعة الحديدية أقدم صناعة في أوربه ونضم ٤٠٠ فرن عال بطلت موضتها ، ضعيفة القدرة ، وقليلة المردود . ووجدت الصناعة النسيجية سيدها : اليابان ، الخ .

وبالرغم من مقاومة الجناح الأيمن العمالي ، أمت صناعة الحديد بدورها في ١٩٤٩ ، ونجحت صناعة النسيج من التأميم لأنها متنوعة كثيراً . واكتفت الحكومة برقابة سوق القطن الخام وحرصت بريطانيا العظمى قبل كل شيء على استرداد تفوقها النقدي . فلم تتوصل لذلك . وفي ١٨ ايلول ١٩٤٩ ، خفضت قيمة الجنيه الاسترليني مرة ثانية ، وانتقل تعادله بالنسبة للدولار من ٤٠٣ إلى ٢٨٠ دولار ، وهذا يكرس قطعاً تفوق الدولار . ومع ذلك ، وبفضل نظام الشعب ، والتضحيات التي فرضها على نفسه والمساعدة الأمريكية ، تحاشت بريطانيا العظمى رقابة القطع ، وعسكت بتعهداتها الخارجية ، ووطدت بالتدريج توازن ميزان حساباتها . حتى ان العجز ، الذي بلغ ٢٩٨ مليون جنيه في ١٩٤٦ ، و٤٤٣ مليون في ١٩٤٧ زال في ١٩٤٨ وتحول إلى فائض في ١٩٤٩ (٣١ مليون) ، وفي ١٩٥٠ (٣٠٠ مليون) . ولم تتجاوز احتياطات القطع ملياراً من الجنيهات ، ولكن الحكومة أنبات بأنها ستستغني في المستقبل عن مشروع مارشل . ولم تسمح لعبة البوكر هذه للجنيه بأن يجد ثانية قابليته الحرة للتبادل . ولكنها حركت الرأي الدولي بشكل ملائم ، وهذه هي الغاية المتوخاة .

فرنسا

كان في فرنسا ٦٠٠٠٠٠ قتيل عسكريين ومدنيين ، ٣٠٠٠٠٠ مقعد ، ملايين الأسرى والمنفيين ، المتناقصين بالحرمان أو بالجروح ؛ ٧٤ مقاطعة منكوبة ، ٢١٥٠٠٠ مشروع صناعي وتجاري ، ٦١٠٠٠ مستغل زراعي خرب أو تضرر ، و فرغت البلاد من جواهرها الاقتصادي . وتمثل الخرائب رأسمال يقدر بـ ٣٥٠٠٠ مليار . وارتفعت نفقات الاحتلال إلى ٨٥٦ مليار فرنك . والمصاريف الكلية للحرب (١٩٦٠ مليار) وقد غطي ثلثها بواردات الموازنة ، والباقي بقروض قصيرة ومتوسطة الأجل ، وبسلف من بنك الاصدار .

وقبل أن تنتهي المعارك ، دخلت فرنسا بعزم في طريق التأميم . وطالب مجلس المقاومة القومي وأحزاب اليسار والنقابات بمصادرة الاموال التي كسبها الحونة وتجار السوق السوداء ، وكذلك حرمان « الاقطاعيات الاقتصادية والمالية » من حقوقها ، وكان ذلك في فكر اليسار ، يدعو إلى الاختلاط دون تمييز .

وفي الفاتح من تشرين الأول ١٩٤٤ ، وافق الجنرال دوغول على هذه السياسة مع بعض الفروق الدقيقة وأكد بقوله : « يجب على الدولة أن تأخذ على عاتقها ادارة المصادر الكبرى للثروة العامة ، مع الحفاظ على وسائل العمل الكبرى التي هي في نشاط الناس المبادمة والربح المشروع ، . وفي كانون الأول ١٩٤٤ ، أمتت مناجم فحم الشمال وبا - دو - كاليه وخطوط الملاحة . وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٤٥ ،

كان دور معامل رينو^(١) . وفي ١٩ أيار ، غنوم والرون ، وفي ٢٥ حزيران ، الطيران الفرنسي ، الطيران الازرق ، الطيران الفرنسي عابر الاطلسي ؛ وفي الفاتح من كانون الاول ، بنك فرنسا وأربعة بنوك كبرى للودائع . كريدي ليونيه ، الشركة العمومية ، المؤسسة القومية للحسم ، والبنك القومي للتجارة الداخلية ؛ وفي ٨ نيسان ١٩٤٦ ، الكهرباء والغاز ؛ وفي ٢٥ نيسان التالي ، ثلاثين شركة تأمين .

واردات أحزاب اليسار والنقابات أن تمتد التجربة إلى نشاطات أخرى ، وبخاصة إلى جميع أشكال التأمين ، والصناعة الحديدية ، وبنوك المصالح ، وتمت أكثرية الرأي العام ، بالعكس ، أن يكبح جماح تشريك الاقتصاد مخافة أن تدمره الاشتراكية .

واعتقد عديد من النقابيين وأعضاء اليسار ، بتأثرهم بالدعاية ، ان الاحتكارات ، المؤممة تملك في صناديقها كنوزاً مخبأة ؛ والواقع ، ان الصناديق فارغة ؛ وان تعميرها وتحديثها يتطلبان توظيفات كثيفة . ومع ذلك ، فقد نجحت العملية بفضل خطة التحديث والتجهيز ، ومبادلة المساعدة الامريكية ، التي قدمت بصفة خطية مارشل (أكثر من ٧٠٠ مليار فرنك) بالفرنكات ، وإلى كفاءة واعتدال نظيرة الفنيين المكلفين بهذا العمل الدقيق ، بعد أن أثارت النقابات بعض الاضرابات المثيرة دون غدير مباشر .

واختلفت الآراء على أفضل طريقة لامتصاص التضخم النقدي وتثبيت العملة والاسعار ، فقد امتدحت أحزاب اليسار استخدام الوسائل الميكانيكية ، من تجميد الحسابات ، واقتطاع كثيف على الاموال ،

ورقابة القطع ، وسياسة التقشف . وأنت على ذكر المثل البريطاني وفي الغالب على الأكثر أيضاً التجربة البلجيكية التي تحمل اسم وزير المالية في حينه ، كميل غوت . وأنكرت الأحزاب المعتدلة نفاذ هذه الوسائط الميكانيكية في بلد تحمل تضرعات ثقيلة جداً أثناء الحرب ، ولا يفهم بأن يحرم من التوفير الذي جمعه بقوة الظروف أثناء الاحتلال ، ويرى بأن يستخدمها لتعمير تموينه وتحسين مستوى حياته . وتقول : ان تجريد هذا التوفير ، ولو كان يحفض القيمة ، يعطي الفرنسيين انطباعاً بأنه يحرمهم من حقهم ونخبهم ويزعجهم ويسبب معاملتهم . وان بريطانيا - العظمى لم تذهب إلى أبعد من ذلك . والتجربة البلجيكية لا يمكن أن تفيد مثلاً ، لأن بلجيكا عمرت أكاداسها مباشرة بفضل اعتماد المليارين دولار الذين تملكتهما بموجب التنظيم الأمريكي للاعادة والتأجير . ولكن هذه الحالة ليست نفسها بالنسبة لفرنسا ، المدينة ب ١٩ مليار دولار ، ولا يوجد عندها ما تدفعه .

أخذت الحكومة بين هذين الاتجاهين المتعاكسين واختارت حلاً وسطاً . وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، أعلن بليفين ^(١) تجريد الاموال الفرنسية في الخارج ؛ وصرح : بأن الفرصة متاحة لمهاجري الحدود لأن يقوموا بما يلزم ويكونوا في الحالة التي يتطلبها القانون . وفي ٣ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، طرح م . لوبيرك ، وزير المالية ، قرض التحرير الأكبر (دخل دائم ٣٪ بالقيمة الاسمية) . وتجاوزت النتائج الآمال : ففي يوم الختام ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، اكتسبت ١٦٤٠٤ مليار ، منها ١٢٧٠٢ مليار نقداً حديثاً و ٣٧٠٢ مليار أسناداً على الخزينة ، من أكثر

(١) بليفين Pleven

(٢) لوبيرك Lepercq

من ٢٠٣٠٠٠٠٠٠ موفر ، وهذا ماسمح بالاقبال من التداول النقدي وتحويل قسم من الدين الداخلي القصير الاجل إلى دين طويل الاجل . وفي ٢٩ و ٣٠ آذار ١٩٤٥ ، بوشر بمبادلة الاوراق النقدية ، دون اقتطاع ولا تجميد ، فرنكاً مقابل فرنك . وبعد بضعة أسابيع ، قررت ضريبة قومية استثنائية على رأس المال ، تضرب بشكل ثقل أغنياء الحرب وتدفع أرباعاً ، وصوت على القانون بالاجماع إلا صوتاً ، في ٣٠ تموز ١٩٤٥ . ولم تعط العمليتان الفوائد المرجحة . لقد أملت الحكومة بالا يجرأ المستغلون على تبديل أوراقهم النقدية ؛ والواقع أن ما يقارب كامل الاوراق النقدية الملغاة قد قدم إلى كرات الحزينة للاستبدال . وأتت الضريبة على رأس المال بـ ١١٨ مليار فرنك في أربعة أعوام و « خمسة » أرباع ، ولكنها أصبحت غير شعبية جداً حتى ان الموفرن لم يكتتبوا في اصدارات اسناد الحزينة واضطرت وزارة المالية أن تتعهد بحذف كل أثر للاضبارات في محفظاتهم . وظل اليسار ، مع ذلك ، يطالب بالكثير من الشدة على المستغلين ، وصنف بينهم في مكان جيد المزارعين الذين ، كما تقول الاشاعات ، خبأوا الاوراق النقدية من فئة الـ ٥٠٠٠ فرنك في أوعية غسيلهم .

وصدقت الحكومة القول . وفي صباح يوم من شهر كانون الثاني ١٩٤٨ قررت تبديل هذه الاوراق بقيمتها الاسمية . وكان القرار غير شعبي وغير مفيد . ولم توجد أوراق نقدية في أوعية الغسيل ، وكل ما وجد يكاد يكون ورقتين للعائلة في المناطق الزراعية ؛ ودخلت مباشرة إلى الصناديق العامة ٣١٥ مليار على ٣٢٠ مصدر . وكانت العملية غامرة .

ولم يوقف التضخم النقدي ؛ واستمرت أسعار المفرق في صعود ، وانتقلت قضايا عصر (١١)

- ١٦٢ -

قرينتها (نسبتها) من ٤٠٠ في ١٩٤٥ إلى ١٠٠٠ في ١٩٤٧ . وتحملت فرنسا عندئذ تخفيضات نقدية متتابة : في ٢٦ كانون الاول ١٩٤٥ ، كان الدولار يساوي ١١٩ فرنك بلفين ، ؛ وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٨ ، ٢١٤ فرنك ماير ، ؛ وفي ١٧ تشرين الاول من السنة نفسها ٢٦٣,٥ فرنك كوي ، ، وفي السعر الموازي صعد الدولار إلى ٣٥٠ فرنك .

ومع ذلك تحسنت الحالة الاقتصادية في فرنسا بفضل جهد البلاد ، وأيضاً بالمساعدة الخارجية التي قدمتها الولايات المتحدة . وهبط عجز ميزان الحسابات من ١٧٣٨ مليون دولار في ١٩٤٨ إلى ٧٠٦ مليون في ١٩٤٩ وإلى ٢٣٨ مليون في ١٩٥٠ .

المانيا

في ٨ أيار ١٩٤٥ ، لامست ألمانيا قاع الهاوية : لم يكن لها دولة ، أو ادارة ، أو حدود . وانهار اقتصادها : وسحق الطيران بالقنابل مدنها الكبرى كلها ، وخسرت ٦٠ إلى ٩٠٪ من رأسمالها غير المنقول . وبالجملة وجد ٣ ملايين مسكن بحاجة إلى إعادة بناء . وكلفتها الحرب ٥٥ مليار رايخشمارك (د م) . وكان منظور المستقبل قامئاً . كانت الحطة الأمريكية التي وضعها هـ . مورغنتاؤ^(١) وزير الخزانة ، وقبلها ف . د . روزفلت ، تتنبأ بمحذف الصناعات الاساسية : الصناعات الحديدية ، والميكانيكية ، والكيمياء ، رمز عسكريتها ؛ وعلى أن تتركس في المستقبل طاقتها إلى أعمال الحقول او إلى بعض الصناعات التحويلية ؛ وأن

(١) هـ . مورغنتاؤ H . Morgentau

تفك معامل سلاحها الاساسية ، وأن تحل مؤسساتها الصناعية الكبرى (كونتسرن) (١) .

وقسمت اتفاقات بوتسدام ، في آب ١٩٤٥ ، ألمانيا إلى أربع مناطق ، ولكنها أوصت بأن تصان وحدة الامة الاقتصادية ، وهذا قول يناقض بعضه بعضاً .

وفي غضون ذلك ، عاش الشعب عيش البؤس . وكتب رئيس الولايات المتحدة السابق هوبرت هوفر : « لم يعرف شعب اوري منذ قرون حالة بائسة كهذه الحالة » . ولم تكن بطاقات التغذية لتعطي حقاً إلا بما يعادل ٧٠٠ الى ٨٠٠ حرور (كالوري) في اليوم ؛ وكانت وسائل التدفئة غير كافية . واستعمل الغضار مقام الصابون . وكانت الاجور في المنطقة البريطانية التي تشمل الرور تساعد نظرياً على شراء بدلة كل أربعين عاماً ، وقميص كل عشرة أعوام ، وزوج من الاحذية كل ثلاثة أعوام ورفع التضخم عملياً كل قوة شرائية للرايخشمارك ؛ وكانت السبجارة الامريكية أو الانكليزية تقوم بوظيفة العيار النقدي . وفي طفرة تضامن قومي استثمرى أرباب العمل والعمال على رفع الانقراض ، وتحديد وسائل الانتاج . وخولتهم سلطات الحلفاء دعماً ثميناً .

وفي ٢٠ حزيران ١٩٤٨ ، سحب الرايخشمارك من التداول وعوض بالدويتش مارك (د . م) ، مضموناً بالدولار . وكالسكر ، خرجت السلع المكسدة صراً من مكمها ؛ وغصت المخازن بالمنتجات الغذائية ، والألبسة ، والأحذية ، والتبغ . وأصبح تحت تصرف أصحاب المشاريع والعمال نقد له قوة شرائية ، فعاودوا تذوق الجهد الانشائي . وبعد قليل بدأ ما أسمي بـ « المعجزة الألمانية » .

اليابان

في ايلول ١٩٤٥ ، كان في اليابان ١٠ ملايين منكوب ؛ ٢٠٢٠٠٠٠٠٠ دار هدمها قصف القنابل . ونقدت اكداس السلع الغذائية والمواد الأولية ، ولكن القنبلة الذرية نجت البلاد من خراب شامل . وحت الابقاء على الامبراطور على رأس الأمة البلاد على النظام وعلى الجهد . وفي ١١ ايلول ١٩٤٥ ، اعلم الجنرال مارك آرثر اليابانيين أن الاشراف الاقتصادي الذي فرضه عليهم سيقصر على الضرورات الخاصة بالاحتلال .

ومرح الجيش في زمن قياسي . وفي تشرين الأول ، سمح لليابان أن تتاجر مع الخارج ، على ألا تستورد ماهي قادرة على انتاجه بنفسها . وبعد شهر ، حلت التروستات (الاحتكارات) الأربعة الكبرى : ميتسوي ، ميتسوبيشي ، ياسود ، سوميموتو . ووضع مشروع اصلاح زراعي يحدد سطح كل مستغل بخمسة هكتارات .

واستمرت الولايات المتحدة في تخفيف الابعاء التي فرضتها الهزيمة . وتخرب ال ٥٠٥ معامل المسجلة في القائمة السوداء . وكانت تصفية التروستات ظاهرة أكثر منها حقيقية .

وفي ١٩٤٨ ، استعادت الزراعة رقماً انتاجياً يساوي ٩٠٪ مما كان قبل الحرب ؛ وقدمت ١١ ٢٥٠ ٠٠٠ طن من الرزم مقابل ١٢ ١٥٥ ٠٠٠ طن في ١٩٣٩ - ٤٠ ؛ والجماعة ، التي جعلها ضياع بعض المصادر التقليدية في التموين (مثل ماندشوريا ، كوريا ، فورموزا) والعودة الكثيفة للجنود الذين كانوا يعيشون في الخارج ، وتزايد السكان (نحو ٨٠ مليون جملة) حتمية ، قد جنبت . وفي ١٩٤٦ ، كان ثلثا اسطول الصيد في حالة يمكن من معاودة الحياة البحرية . وبالرغم من معارضة بريطانيا العظمى والهند ،

- ١٦٥ -

استعادت الصناعة النسيجية في العام ١٩٥٠ نصف قدرتها الانتاجية التي كانت قبل الحرب . وزادت نقابات العمال بشكل عظيم عدد المشتوكين (٦ ملايين في ١٩٥٠ مقابل نحو ٥٠٠.٠٠٠ في ١٩٤٦) ؛ ولكنها بدت سهلة المراس . وفي ٢٥ نيسان ١٩٤٩ ، استقر اللين على أساس ٣٦٠ ين في الدولار الواحد ، وهذا ما أنهى التضخم النقدي الذي شهد الكتلة النقدية تنقل من ٣٥٧ مليار ين في ١٩٣٩ إلى ٢٢١ مليار في ١٩٤٩ .

١٩٥٠ — ١٩٦٠

التوسع الاقتصادي والاجتماعي

يسيطر عليه النزاع بين الكبيرين

الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي

في ١٩٥٠ ، خلفت التنميةُ التعميرَ . واستعدت جميع الدول لنجرب هذه المغامرة، التي تمثلها الزيادة المنتظمة للانتاج ، والتجارة، والدخول، والانخفاض الذي لا يقل عنها انتظاماً في أسعار الكلفة ، واستقرار الأسعار، والتي تجعل القضايا الاقتصادية والاجتماعية والنقدية تأخذ بالتدريج القسط الأوفى من الاهتمامات الحكومية .

ولما كان التنظيم الدولي غير قادر بعد على تنسيق الجهود فقد حاولت كل حكومة أن تجد الحل على شاكرتها .

وهكذا فتح عهد جديد لمنازعات دون هوادة ، موشاة بـ « المعجزات » يدمغه لأول وهلة التجابه المثير والأصيل مما لم يحدث له في الماضي نظير بين أقوى أمتين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . اللتان تتنازعات

في سبيل التفوق العالمي ، لا بالسلاح ، بل بالانتاج الصناعي ، وان
كشوف النصر يعبر عنها بالاحصائيات وبالنسب المئوية .

الاتحاد السوفياتي

لقد اختار السوفياتي هذا الصعيد لأن العقائدية الماركسية تأمره
بذلك . فحتى ١٩٣٩ عاش منطقياً على نفسه ؛ وظل البلد الاشتراكي الوحيد في
العالم . ومن ١٩٣٨ إلى ١٩٣٩ ، لم يكن للخطط الخمسية من هدف
آخر غير تحويل الاقتصاد الزراعي للاتحاد السوفياتي إلى اقتصاد صناعي
مجهز بصناعات قوية أساسية . وقد اقتضت في ذلك العصر اطماع
الكرملين على اللحاق بالمانيا في انتاج الفحم ، الفولاذ ، الخ . ، دون أن
يتم كثيراً بما يفعله جيرانه . ولم يتم بذلك ما دام ماركس ، وآغا ، ولينين
أوضحوا التناقضات الأساسية للرأسمالية التي تقود هذه الاخيرة إلى خسرتها ،
وعرفوا قوانين الاشتراكية العلمية ، التي تحذف نزاع الطبقات والبطالة
والأزمات ، وتعوض روح الكسب بالمنافسة الاشتراكية ، وتوفق
بين جميع النشاطات الاقتصادية والاجتماعية بالتنظيم الشامل وتسوق الشعوب ،
على مراحل ، إلى الشيوعية . وعندئذ تزول الدولة لأنه لا جدوى منها ،
وبيصح التوسع الاقتصادي انعكاساً طبيعياً للمجتمع ، وتفرض النعمى والحرية
نفسها نهائياً ، لأن كل إنسان يعمل حسب طاقاته ويأخذ حسب حاجاته .

واعتقد الاتحاد السوفياتي أن الحرب العالمية الثانية اتاحت له حظاً
غير مؤمل في نجاح القدر . وقد اعترف بذلك علناً كل من ستالين ومولوتوف
وقالا ، بأن النتيجة الوحيدة والدائمة لهذا النزاع ستكون انتشار الاشتراكية
في العالم . وبعد نصر ستالينغراد ، في شباط ١٩٤٣ ، حررت الجيوش
السوفياتية بالتدريج أوربه الشرقية والوسطى واقامت فيها حكومات

مالية للكرملن . وعندئذ لم بعد الاتحاد السوفياتي وحده يمثل الاشتراكية في العالم ، فقد أوجد زبائن من الديمقراطيات الشعبية : بولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، هونغاريا ، منطقة الاحتلال الألمانية ، رومانيا ، بلغاريا ، التي ظلت ودية له . أما يوغوسلافيا فقد استعادت حريتها في ١٩٤٨ ؛ والبنانيا تقربت فيما بعد من الصين . وبفضل هذا الظرف الثمين ستحاول بسعادة كثيرة أو قليلة تحقيق « التقسيم الدولي للعمل الاشتراكي بالتخطيط المتعدد الجوانب » في قلب الكوميكون^(١) ، جراب خطة مارشل والمنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي (O. E. C. E) .

ومهما تكن أهمية الدور الذي تمسك به الدول التابعة لموسكو ، وبالمقابل مهما يكن عدد وقيمة البلاد الغربية التي تجمعت في العصر وراء الولايات المتحدة بواسطة خطة مارشل أو ميثاق شمالي الاطلسي ، فالنقاش تسيطر عليه المنافسة المباشرة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، في سبيل التفوق الصناعي الذي لا يحسب بالحجم فقط ، بل برأس السكان . وهذا هو رهان التعاضد السلمي . ويقول الاتحاد السوفياتي عن نفسه بأنه واثق من أنه سيغلب ، لأن انتاجية الاشتراكية ستكون في رأيه أقوى من انتاجية الرأسمالية . ويبدو أن الولايات المتحدة غير مقرر أصلاً أن تقدم له الدلائل على ذلك .

(١) في البدء كان الكوميكون يضم الاتحاد السوفياتي ، بلغاريا ، هونغاريا ، بولونيا ، رومانيا وتشيكوسلوفاكيا . واشتركت فيه البانيا في ١٩٤٩ ، (وخرجت منه في ١٩٦٢) والمانيا الشرقية في ١٩٥٠ ، ومنغوليا الخارجية في ١٩٦٢ ، ويوغوسلافيا منذ ١٩٦٤ مع نظام حاس . ويضم الكوميكون اليوم الاتحاد السوفياتي والست دول التابعة الاوربية ، ويوغوسلافيا ومنغوليا الخارجية .

الولايات المتحدة

لقد كان التطور الاقتصادي للولايات المتحدة مستقيماً تقريباً منذ ١٩٥٠ ؛ وحذفت نوبات الركود أو التوسع الاقتصادي المهدد بالتضخم النقدي على العموم بسرعة . ولم تسبب الحرب العالمية الثانية خسائر جديده . فالحسائر بالرجال كانت نسبياً ضعيفة (٢٩١٠٠٠ قتيل في الحرب على ١٢ مليون مجنداً) ؛ وتم التغيير من جديد بسرعة ودون حادث عظيم ؛ وطالبت النقابات بأسبوع ٤٠ ساعة ، وزيادات كثيفة في الاجور ، التي زادت ، مع ذلك ، من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ من ٢٤ دولار في الاسبوع وسطياً إلى ٤٤٫٥ دولار ؛ وظهرت مزاجها السيء باضرابات في مناجم الفحم ، والصناعة الحديدية ، وصناعة السيارات والخطوط الحديدية ، ولكن الحكومة قاومت جيداً . وبقي ١٨٥ مليار من التضخم النقدي جاهزة للامتصاص . وبلغت نفقات الحرب ٣٤٢ مليار دولار ، قدمت منها الواردات الضريبية ١٥٧ مليار فقط ؛ وانتقل الدين العام من ٤٠ مليار في ١٩٣٩ إلى ٢٦٠ في ١٩٤٥ ؛ وأتت الولايات المتحدة بمساعدة كثيفة إلى حلفائها الاوربيين . وبالرغم من الابعاء ، فقد بدأ التوسع الاقتصادي دون صعوبة واستمر بوتيرة مرضية . وسيطرت الولايات المتحدة دوماً على الدول الصناعية الأخرى ، في الانتاج ، والمبادلات ، ومستوى الحياة ، ولا يهدد أحد تفوقها . فهي تحتل المكانة الاولى في العالم في انتاج فحم البيتوم والانتراست (٤٧٤ مليون طن في ١٩٦٧) والبتترول (٤٠٠ مليون طن) ، والكهرباء (١١٥٦ مليار كيلو وات ساعي) والفولاذ (١١٨ مليون طن) ، والالومنيوم (٢٥٥ مليون طن) ، والاممنت (٦٣ مليون طن) ، والسيارات (١١ مليون سيارة) ، الخ . وانتقل الانتاج القومي الخام من ٢١٥ مليار في ١٩٤٦ إلى ٣٨٩ مليار دولار في ١٩٥٥ وإلى ٨٤٠ مليار في ١٩٦٨ .

ويتمتع كل امريكي بدخل سنوي متوسط يساوي ٣٣٠٠ دولار ، مقابل ١٠٠٠ دولار وسطياً للأوروبي . وزادت أسعار الفرق وسطياً من ١٥٥ إلى ٢٥٥٪ كل سنة . وافادت الشركات الاقتصادية القوية كحديد الرمح . فانتاجها الصناعي يساوي ربع الانتاج العالمي . والولايات المتحدة دوماً أول مصدر ومستورد في العالم . وارتفعت النفقات ، التي تخصصها للبحث العلمي ، من ٥ مليارات دولار في ١٩٥٤ - ٥٥ إلى أكثر من ٢٥ مليار في ١٩٦٧ - ٦٨ . وزادت انتاجية الاقتصاد . ب ٦٧٪ بين ١٩٤٧ و ١٩٦٤ بينما لم يزد عدد الرجال الساعين في الوقت نفسه إلا ٤٥٪ ؛ وفي ١٩٦٨ ، خصصت ما يقارب ٨٠ مليار دولار إلى الدفاع الوطني ، دون أن يتلف التضخم النقدي النقد بصورة رصينة .

وهذا التفوق ، تنسبه الولايات المتحدة إلى الثروات الطبيعية في أرضها (٩٥٣ مليون كم^٢) ، وإلى حركية سكانها (٢٠٠ مليون) ، وإلى الثقة التي تحولها إلى المبادأة الفردية وإلى المشروع الحر .

ورفضت الولايات المتحدة كل عقائدية ترجع إلى الدولة لتأخذ على عاتقها ادارة كل شيء وعارضت تخطيط اقتصادها . وتقول ان الدستور أعطى السلطات للشعب ، وإلى الكونغرس ، وإلى الرئيس ، ولم يعطها للموظفين ، وقضيف : التخطيط كلام فارغ اقتصادي ، والأرض واسعة جداً ، وشروط الانتاج والحاجات مختلفة كثيراً جداً ليصبح من الممكن « بصورة مسبقة » تثبيت نظام للعمل ، والتنبؤ بما سيحدث في خمسة أو عشرة أعوام . وان التخطيط المحدود في الزمان والمكان يجب أن يكفي المشروعات والسلطات العامة ؛ ولهذا على الاقل حق التدخل إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك . ولما كان جميع الناس على اتفاق في هذه النقطة فلا خوف عليهم من الخطأ .

ورغم هذه النتائج المرضية، فإن خصوم الرأسمالية الأمريكية يظنون يؤكدون بأن تناقضات الرأسمالية تسوق الولايات المتحدة حتماً إلى تجشم أزمة جديدة أو إلى عطف اقتصادها نحو الاشتراكية . ويقولون : التناقض الرأسمالي مشهود في الزراعة ؛ وإن حركة تركيز المستغلات تتابع بانتظام . والميكنة تزيد الانتاج فلا يجد منافذ ؛ وأسعار البيع غير كافية ؛ وعلى الدولة أن تمنع مساعدة مالية آخذة بالتوسع من سنة لسنة (٧٠٠ مليون دولار في ١٩٦٠ ، ٣ مليارات في ١٩٦٦) ؛ ويستدين المزارعون بازدياد من سنة إلى أخرى (٢٣ مليار في ١٩٥٩ ، ٣٦ مليار في ١٩٦٥) .

ولا نجد الزراعة الأمريكية بعض التوازن إلا في زمن الحرب ؛ ففي زمن السلم ، تعيش في حالة أزمة مستديرة ، مقنعة بالنسائج البراقة التي حصلت عليها الصناعة والتجارة . ولكن هذه النتائج ، كما يضيف الخصوم ، لا تبرق إلا على السطح ، ويجاولون البرهنة على ذلك . وتتولى الاحتكارات التوسع الاقتصادي . وقد انتقل نصيبها في رقم الاعمال الوطني من ٣٠٪ في ١٩٤٦ إلى أكثر من ٤٠٪ في ١٩٦٨ ؛ وتحذف تدريجياً المشاريع الصغيرة والمتوسطة ؛ وتحكم على قسم من العمال بالبطالة ، وازدادت هذه الأخيرة بشكل لا يمكن اجتنابه في السنوات التالية ، بسبب صعود الأتمتة (١) (الآلية) وآثارها . ان ثلاثة إلى أربعة ملايين أمريكي على الأقل دون عمل . والنسبة المثوية للعاطلين لا تنزل تحت ٤٪ من الشعب العامل ؛ ونصعد حتى ٢٥٪ بين الزوج وفي المناطق المحرومة . ويؤكد الخبراء ، بأن الانتاج القومي الخام السنوي ، إذا كانت الناس يعملون، سيكون أعلى من ٣٠ إلى ٤٠ مليار دولار بما هو اليوم ، ولكن هذا ليس إلا فرضية . ومن ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ ازداد عدد الشباب في سن العمل بـ ٢٠ مليون ؛

رحتى إذا حل هؤلاء الشبان محل العمال الذين بلغهم حد السن ، بمنافسة ٧ مليون ، يبقى أيضاً ١٣ مليون استخدام جديد للانشاء . وفي الواقع ، يلزم أكثر من ذلك (على الأقل ٢ إلى ٣ مليون) إذا تعممت الأمتة « المعامل دون رجال » وطرحت في البطالة عمالاً هم على كل حال محمين بشكل مميء ضد البطالة والمرض والشيخوخة . والضمان (الأمن) الاجتماعي مازال ناشئاً والنققات الطبية وطب الأسنان غير مدفوعة ؛ ومعاشات التقاعد والعجز عن العمل غير مؤمنة إلا لمن سجلوا عقوداً لدى شركات التأمين أو التضامن (التكافل) . وواقع التبعية لشركة من شركات التضامن لأخذ التقاعد يربط العامل بالمشروع الذي يشغله ويجذف كل مرونة لسوق العمل .

ويتابع المراقبون : امث الدولار لا يسيطر على الاسواق النقدية بعد أن أضعفه التضخم النقدي . وقد لوحظت الاعراض : ان ميزان الحسابات في عجز بشكل ثقیل منذ ١٩٥٨ : ٣٥٥ مليارات إلى ٢٥٥ مليار حسب السنوات ؛ وسقطت احتياطات الذهب في البنوك الاتحادية في عشرة أعوام من ٢٣٥٥ مليار إلى أقل من ١١ مليار . والأسعار الداخلية تميل إلى الزيادة . ونفقات الحرب (نحو ١٠٪ من الانتاج القومي الخام) تغذي التوسع الاقتصادي ؛ والتشويكات في الخارج (٤ إلى ٦ مليار دولار في العام) تسهل التصدير ، ولكن هذه مخارج اصطناعية وخطرة : فالأولى تولد التضخم النقدي ؛ والثانية البطالة ، لأن فروع الاحتكارات المقامة في الخارج ، بدفع أجور أخفض ، تنافس منافسة مخيفة الشركات في الوطن الأم ، التي تصدر في شروط حسنة أقل .

وهذه الدعاية التي تتعمم ، لم تترك الحكومة والشعب الامريكيين لا مبالين . إن بعض الأحداث التي ذكرت في أعلاه لا تستحق المناقشة .

ولكن الشيء القابل للنقاش أكثر من غيره بكثير ، ربما يكون التفسير الذي يعطى عنه .

ما من أحد ينكر خلل توازن الزراعة ، ولكن النتائج بالنسبة للأمة أقل خطراً بما يراد أن يقال ، لأن عدد الزراعيين نسبياً ضعيف بالنسبة لمجموع الشعب العامل (يكاد يكوث ٥٪) . ونصيب الشركات الكبرى في رقم أعمال الأمة يزداد بانتظام ، ولكن ليس بالضرورة على حساب المشروعات الصغرى (التي تضم أقل من ٢٥٠ مستخدم) التي تحميها الحكومة بالقانون المضاد للاحتكارات ، والتي تستفيد في الغالب من نشاط الاحتكارات ، باعتبارها مساعدة لها .

والبطالة هي دون منازع النقطة الضعيفة في الاقتصاد الأمريكي ، ولكنها تميل إلى التناقض منذ بضع سنوات . والضمان الاجتماعي غير كاف ، ولكن عدد المستخدمين التابعين لصناديق معاش خاصة مازال يزداد : فقد كان ٤ ملايين في ١٩٤٠ ، وانتقل إلى ٢٥ مليون في ١٩٦٥ ؛ وسيكون ٤٢ مليون في ١٩٨٠ ، وبشكل تكون فيه الصناديق مضمونة برأسمال ٢٢٥ مليار دولار .

ومر الدولار بأدوار كان فيها فارغاً من محتواه بشكل رصين . ولكن تفوقه لم يبد مهدداً البتة . وكان ميزان التجارة فائضاً عن الحد باستمرار (٤ إلى ٦ مليار دولار) ، وأقل عجز ميزان الحسابات السلطات الدولية ؛ ومن الممكن أن يخفض ، ولكن ربما كان ذلك على حساب الاقتصاد العالمي ، الذي يرى على هذا النحو ضحور احتياطات القطع التي يتصرف بها ؛ أما التسميات المباشرة وغير المباشرة للولايات المتحدة في الخارج ، فهي تتجاوز ٦٠ مليار دولار ومن الممكن على وجه الاحتمال أن تفيد كضمان للمقد .

وفي الواقع ، ان الانتقادات التي توجه إلى السياسة الاقتصادية والاجتماعية للولايات المتحدة لا تصدر عن اتجاهات قوية في الرأي العام الأمريكي . إن النقابية الأمريكية الممثلة بـ « الاتحاد الأمريكي للعمل »^(١) وكونغرس المنظمة الصناعية^(٢) والتي تضم ١٨ إلى ٢٠ مليون مشترك ، تناضل لزيادة الاجور ، وتجديد الاتفاقات الجماعية (أكثر من ١٥٠.٠٠٠) ، وامتداد الضمان الاجتماعي والتقاعد ، والاستخدام الكامل . وتشهر بأخطار الأتمنة دون أن تنتقد مبادئها ، وطالب لتجنب ذلك بالثقافة المسلكية المتسارعة وبخاصة اسبوع الخمس وثلاثين ساعة . وقال جورج مينى^(١) ، رئيس الاتحاد الأمريكي للعمل وكونغرس المنظمة الصناعية ، يوماً مازحاً : ليس لواشنطن اختيار : وعليها أن تفرض اسبوع الخمس وثلاثين ساعة أو أن تعدم بالخصائص قسماً من اليد العاملة الأمريكية . وبالمقابل ، ان النقابات لا تشكك في نظام المشروع الحر ، بل وأفضل من ذلك ، تدافع عن مبدئه ، حتى في الخارج ، ولكن ليس هذا من ذوق « جذري اليسار الجديد » ، الذين يأخذون على وجهي الحزب الديمقراطي والنقابات بأنهم مسنون كثيراً ومحافظون كثيراً ؛ ولكن هؤلاء الجذريين (الراديكاليين) ، المنتقن من بين المفكرين ، لا يهتمون بالرأي العام وربما أقل من ذلك ، أبضاً بالعمال المتطورين « ذوي الياقات البيضاء » .

(١) الاتحاد الأمريكي للعمل :

American Federation of Labor (A . F . L .)

(٢) كونغرس المنظمة الصناعية :

Congress of Industrial Organisation (C . I . O .)

في ١٩٥٥ ، اتحاد المركزان مع بعضها ، وفي ١٩٦٨ عادا علياً الى حريتهما .

(١) جورج مينى George Meany

ومع ذلك ، فإن الحكومة والشعب في حالة قلق دائم . فالشيوعية أطلقت تحدّيا : ولكنها أزالاه . ولهذا السبب فإن « المجتمع العظيم » الذي امتدحه ل . ب . جونسون يذكر في كثير من النقاط بالبرنامج الجديد الذي طبقه الرئيس ف . د . روزفلت . والبرنامجان يعلنان الحرب على الفقر ، مقدرين بأن ٣٠ إلى ٣٥ مليون أمريكي « فقراء » لأن دخلهم السنوي أقل من ١٥٠٠ دولار (في اندونيسيا يكاد يصل إلى ٣٠ دولار في العام) .

إن الاقتصاد الأمريكي في كامل توسعه . والانتاج القومي الحام يزداد من ٣٠ إلى ٤٠ مليار في العام . وفي كل سنة توظف المشاريع الخاصة ٨٠ مليار دولار وتحقق أرباحاً مرتفعة أيضاً أي ما يعادل تقريباً الانتاج القومي الحام في فرنسا . ولم تفسد نفقات الحرب في فيت - نام التوازن الاقتصادي واستقرار النقد .

ولتحافظ الولايات المتحدة على تفوقها ، ترى نفسها مع ذلك مضطرة لأن تضع اقتصادها القومي في الاقتصاد الدولي ؛ وهي بحاجة إلى البلاد السائرة في طريق النمو لتجهزها بالمواد الأولية التي تنقصها ، كما هي بحاجة للبلاد المصنعة لشترى منتجاتها المنتهية ، وتستمر في تحويل اقتصادها بغية تخفيض سعر الكلفة ، وتوزيع الدخل بشكل عادل ، ولتفتح منافذ جديدة ، مع بقائها ودية للحرية والملكية الفردين . وفي هذه النقطة الأخيرة ، تمنعها سياسة الكتلة الشيوعية من قلب كل شيء وجعله خاضعاً لإدارة الدولة ونوجيها دون أن تنكر ذاتها وتفقد ايمانها بنفسها ، ولكن تعقيد الاتجاهات المتضاربة التي تجتاز العالم تضطرها تدريجياً لأن تقبل بأن أفضل طريقة للحفاظ على التفوق الاقتصادي وعلى جاهها السياسي تقتضي التخلي ، كما فهم الرئيس ج . ا . كينيدي ذلك ، عن فكرة « الزعامة »

في سبيل « الزمالة » المعقولة والمقبولة ، لأن الأمم المستقلة تريد أن تنصح وأن تساعد ، ولكنها ترفض أن تكون مقادة .

الاتحاد السوفياتي

هل يستطيع الاتحاد السوفياتي كسب الرهان في اللاحق يوماً بـ « البلاد الرأسمالية الأكثر تقدماً من غيرها » ، وينصر الاشتراكية ؟ الجواب ، بالنسبة للمرجحين ، ايجابي دوماً ، ويجاولون اثباته بالأرقام ^(١) . فمن ١٩٥٨ إلى ١٩٦٨ ، انتقل الانتاج السوفياتي للكهرباء من ٢٣٥ مليار كيلوات ساعي إلى ٥٠٩ مليار ؛ وانتاج الفولاذ من ٥٥ مليون طن الى ١٠٢ طن ؛ وانتاج البترول من ١١٣ مليون طن إلى ٢٨٩ مليون ؛ وانتاج الغاز الطبيعي من ٣٠ مليار م^٣ إلى ١٣٠ مليار . وفي غضون ذلك ، تضاعف رقم اعمال الانشاء الميكانيكي والصناعة الكيميائية . وإذا أخذنا بقول كروسيغين ، رئيس مجلس الوزراء ، نجد أن وثيرة التوسع الاقتصادي وسطياً ٩١٪ في العام في الاتحاد السوفياتي ، مقابل ٣٥٩٪ في الولايات المتحدة ، ٣٥٪ في بريطانيا العظمى ، ٥٦٪ في فرنسا و ٦٢٪ في جمهورية المانيا الاتحادية . وبصورة منتظمة ، يتناقص وقت العمل (٤٠ ساعة في الاسبوع ، دون ساعات اضافية) ، وتزداد الاجور ، وتخفض الضرائب غير المباشرة .

(١) ولسوء الحظ ، إن الاحصائيات الصادرة عن الشرق ، وأكثر من ذلك أيضاً الاحصائيات التي يرسلها الشرق الأقصى الشيوعي للغرب ، هي مقتطعات ، دون إمكانية تحقيق ورصد . فهي تتكلم طوعاً عن الانتاج الصناعي ، لا عن التجارة الخارجية ، وميزان الحسابات ، والاحتياجات النقدية ، والانتاج القومي الخام ، ومستوى الحياة . وإذا اعطت دلائل مرقمة فيجب الحذر منها ايضاً ، لأن الروبل رسمياً يعادل الدولار ، ولكن فقط لأن الحكومة السوفياتية قررت ذلك وحدها على هذا النحو .

- ١٧٦ -

وإذا أضيف إلى انتاج الاتحاد السوفياتي نشاط الاعضاء الآخرين في الكومبيكون ، فإن الانتاج الصناعي للكتلة الشيوعية العالمية يمثل أكثر من ٤٠٪ من الانتاج العالمي ؛ والكومبيكون يجهز ١٣٥ مليون طن من من الفولاذ ، ٦٨٠ مليار كيلوات ساعي ، ٣١٠ مليون طن من البترول ، ١٢٢ مليون طن من الاسمنت . وتنبأت الخطة الخمسية الجديدة للاتحاد السوفياتي (١٩٦٦ - ١٩٧٠) بأن الاتحاد السوفياتي في ١٩٧٠ ينتج وحده ٦٧٥ مليون طن من البترول ، ٢٤٠ مليار م^٣ من الغاز الطبيعي ، ١٢٩ طن من الفولاذ ، ١٥٠٠.٠٠٠ سيارة ، ١٠٥ مليون طن من الاسمنت ، الخ . وهذه الأرقام الأخيرة يمكن أن تشير ، بيد أنها غير قابلة للرصد ، حتى انها إذا طبقت الحقيقة يوماً ما ، تبقى أخفض من الأرقام التي تطابقها في الولايات المتحدة .

لقد حسبت المجلة الامريكية الكبرى « اخبار الولايات المتحدة وتقرير عن العالم »^(١) ، في عددها الصادر ، في ٣١ كانون الثاني ١٩٦٦ ، ان الانتاج القومي للكتلة الاوربية (الاتحاد السوفياتي وتوابعه الستة) من ١٩٥٥ - ١٩٦٥ ، انتقل من ١٩٠ مليار دولار إلى ٣٧٠ مليار ، وهذا يكاد يعادل نصف ما كان عليه الانتاج القومي الحام للولايات المتحدة في ١٩٦٦ . ويرى خبراء آخرون ، على عكس التوكيدات الشيوعية ، ان الانتاج الصناعي للكومبيكون ، وقد دخل فيه الصين الشيوعية ، لا يتجاوز ثلث الانتاج العالمي . ولما كان كل تحقيق وصين مستحيلًا ، فلا يوجد الا يقين للحفظ ، وهو أن الاقتصاد السوفياتي ، منذ ١٩٥٠ ، بما بانتظام اكيد ؛ وقد بدش العكس : لأن الاتحاد السوفياتي يتصرف ب ١/٤ سطح الارض (٢٢٥٠ مليون كم^٢) ؛ ويضم تحت تربته ثروات لا حد لها . وشعبه

(١) « U . S . News and World Report »

- ١٧٧ -

عديد (٢٣٥ مليون) ، وشاب ومخصب . ومن الجلي أيضاً أن هذا التطور لم يتم ، لولا الصفاء الذي تؤمنه له منطقياً الاشتراكية العلمية وعدم نزاع الطبقات وحماة المنافسة الاشتراكية .

ومن حيث المبدأ ، تخذف سياسة التخطيط الشامل ، في الواقع ، البطالة والأزمات الاقتصادية . وإذا لم يوجد بطالة في الاتحاد السوفياتي ، على اعتبار أن جميع الناس ، مبدئياً ، يجبرون على العمل ، فلاقتصاد السوفياتي غير معفى من الأزمات ، ومن خلل التوازن الدائم بين الانتاج والاستهلاك ، وعدم كفاية العرض بالنسبة للطلب ، والتضخم النقدي العتيق ، والاسراف ، وسوء الصنع ، والعجز في داخل المشاريع . وللاقتناع بذلك ، يكفي أن نقرأ التقارير الرسمية المنشورة منذ ١٩٥٣ ، وأحدث من ذلك ، التقارير التي قدمها اليكسي كوسينين وليونيد بريجنيف إلى دورة الابعنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (٣٧ إلى ٢٩ ايلول ١٩٦٥) وفي المؤتمر الثالث والعشرين المنعقد في موسكو في آذار - نيسان ١٩٦٦ . لأن أكثر من نصف المشاريع السوفياتية في حالة عجز : لأن قواعد الانتاج ومبادئه غير محترمة ، وإذا احترمت فكثير من المشاريع لا تهم في معرفة ما إذا كان الانتاج يطابق الحاجات

ان الزراعة السوفياتية ، التي كانت مصدرة تحت حكم القيصرية ، لم تصل إلى تغطية حاجات السكان . والكولخوزيون يفضلون زراعة قطعة الارض التي خصصت لهم شخصياً (٢٥ آر في الحد الاعظم) ، والعناية بقطيع الماشية الذي ينحصر أكثر من تكريس كل جهودهم لأعمال التعاونية الزراعية . ود الانتاج التجاري ، الذي يصدر عن هذا العمل الشخصي ، والذي لم يجزأ ستالين نفسه على حذفه ، مازال يغذي الأسواق الحرة ؛ وبمثل من قضايا عصرنا (١٢)

٣٠ إلى ٥٠٪ من مبيعات الاستهلاك ، بالرغم من الاسعار المرتفعة المطبقة فيها . وفي هذه السنوات الاخيرة ، وحتى ١٩٦٦ ، اضطرت الحكومة السوفياتية ، لتأمين اللحمة بين انتاج العام السابق واللاحق ، أن تستورد الحبوب من أمريكا الشمالية ومن أوربة وأن تدفع هذه المشتريات ذهباً . ويرى الخبراء الغربيون ان خروج الذهب الروسي باتجاه الغرب قد ارتفع من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥ إلى ٣ مليارات دولار ؛ وان احتياطات المعدن الاصفر التي يتصرف بها الاتحاد السوفياتي هبطت إلى ٢ مليار دولار، وهذا المبلغ ضعيف نسبياً بالنسبة إلى بلد يتطلع لأن يلعب دوراً دولياً .

ان سياسة زرع الاراضي العذراء (٤٠ مليون هكتار) أو حتى التنمية الصناعية لبلاد الشرق (الاورال ، سيبيريا الغربية ، سيبيريا الشرقية) لم تعط النتائج المتوخاة . ولم تكن نسبة توسع هذه الاراضي أعلى من نسبة روسيا الاوربية القديمة ، بالرغم من رؤوس الاموال التي خصصت لها . وتمت التنمية الصناعية فيها على حساب التنمية الزراعية .

وأخطر من ذلك أيضاً ، ان سياسة التخطيط نفسها عرفت مصيراً متغيراً . فقد تمسك ستالين بشدة بشكل الخطط الخمسية . ونخلى بولغانين عن المبدأ في ١٩٥٦ ، وبعد صمت بضعة أشهر ، أطلق خروتشوف الخطة السبعية ١٩٥٩ - ١٩٦٥ ، مضاعفة بخطة منظور إلى المستقبل من ١٥ إلى ٢٠ عاماً . وفي ١٩٦٥ ، عاد كوسيجين وبريجنيف إلى شكل الخطة الخمسية .

وتجشمت البنيات الادارية والمسلكية تغييرات لا تنقطع . وأعطى ستالين الاولوية إلى التنظيم الشاقولي الذي يعتمد في الذروة على

الغوسبلان^(١) والوزارات الفنية ، التي توجه كل واحدة منها في اختصاصها ، مجموع الانتاج السوفياتي . وفي ١٩٥٧ ، شهر غروتشوف بمساوىء النظام الموصوف بأنه مناوئء للمديموقراطية وغير فاجع ، ووضع التنظيم الصناعي في المناطق تحت رقابة مجالس المناطق الاقتصادية « سوفنار خوز »^(٢) . وفي ١٩٦٥ ، حذف كوسيغين وبريجنيف مجالس المناطق الاقتصادية « سوفنار خوز » وأقام الوزارات الفنية .

وقاومت المكتبية (الديوانية) أي البيروقراطية وحدها كل هذه التغييرات التي لعنها تباعاً لينين ثم بولغانين ، وغروتشوف وكوسيغين بانها بوضع الحواجز في طريق الاقتصاد وتثبیط المنافسة الاشتراكية .

وقلت البلاد الاشتراكية التابعة الشكاوى نفسها لأنها تحملت نفس الآلام التي تحملها الاتحاد السوفياتي ، وطبقت العلاجات نفسها . ولانعاش المنافسة الاشتراكية رأت الاحزاب الشيوعية نفسها مضطرة ، في العام ١٩٦٥ ، لأن تعيد ثانية توطيد أفكار الربع ، والرقابة الشديدة جداً على أسعار الكلفة ، والكيفية ، والمرونة في الانتاج وفي البيع ، حسب طرق الاستاذ ليبرمان .

ومما زال الاتحاد السوفياتي وتوابعه بعيدة جداً عن تحقيق الشيوعية وحتى الاشتراكية الكاملة . ومن الممكن أن يتساءل ما اذا كانت تتوصل اليها ذات يوم وما إذا لم يوجد تناقض أسامي بين سياسة التأميم وسياسة التخطيط المعممين وتحقيق اقتصاد منسجم تطابق نشاطاته حاجات السكان المختلف بعضها عن بعض بازدياد . إن سياسة التخطيط وحتى البيروقراطية

(١) الغوسبلان Gosplan (مجلس التخطيط)

(٢) سوفنار خوز Sovnarkhoz

يمكن أن يكون لها بعض النفاد عندما يراد انشاء صناعات أساسية (الطاقة ، الحديد ، الاسمنت ، المعادن) في بلد متأخر بعد ، يتصرف مع ذلك بيد عاملة واسعة وبثروات طبيعية وافرة . وطرق الصنع في هذه الصناعات بسيطة نسبياً : لأن الآلات حلت محل الانسان بسهولة . ومادامت الحطط الخمسية تتابع هذا الهدف وحده ، في العصر الستاليني ، فقد حصلت على نتائج ايجابية وحتى مثيرة ؛ ومنذ أن اتسعت الحاجات في سلع الاستهلاك ، شعرت سياسة التخطيط بصعوبات جدية في التكيف ، وغاصت البوروقراطية في اللامبالاة والعجز بسبب نقص التصور والتفصيل والمرونة . ولذا يجب ألا نعجب إذا لم تزد صناعات التحويل السوفياتية انتاجها إلا بـ ٥٠٪ أثناء الخطة السبعية (١٩٥٩ - ١٩٦٥) ، وان الصناعة الكيميائية تبدي تأخراً عظيماً ، وان صنع وتوزيع السلع الاستهلاكية (منسوجات ، أحذية ، الخ ..) كانتا معينين وغير متكيفين ، ومتأخرين بشكل عريض جداً عن صنع وتوزيع البلاد الرأسمالية ، وان احتياطات التخازن تغص بالبضائع الكاسدة ، كما اعترف بذلك اليكسبي كوسيفين أمام لجنة الحزب الشيوعي ، دون أن يعجب أحد من ذلك .

وفي الواقع ، انتهت الخطة السبعية بنصف - إخفاق . فقد شيدت مساكن غطت ٥٥٦ مليون متر مربع ، ولكن وعد بـ ١٠٠ مليون زيادة . وكان يجب اعطاء التفضيل لصناعات السلع الاستهلاكية ، إلا أن نصيب سلع الانتاج في مجموع الانتاج ، صعد ، بالعكس ، من ٦٨,٨٪ في ١٩٥٠ الى ٧٤,٨٪ في ١٩٦٤ . والأهداف المتوقعة في ١٩٥٨ لأجل ١٩٦٥ لم تبلغ بالنسبة للفحم ، الغاز ، المنسوجات الاصطناعية ، السيارات ، الدراجات النارية ، الاسمنت ، الاحذية ، وأجهزة الراديو

والتلفزيون ، الخ . ولهذا اقترحت الحطة الخمسية الجديدة للعام ١٩٧٠ أهدافاً أكثر تواضعاً من الاهداف التي تنبئ بها في الأصل .

هذا ولما كان التوسع الاقتصادي سبب وجود النظام نفسه والقوة الضاربة لدعايته ، فقد حاول الاتحاد السوفياتي أن يسد نقص صناعاته التحويلية والاستهلاكية ببيادلات ، في داخل الكومبيكون ، ومع البلاد السائرة في طريق التنمية ، وأخيراً بشراء أجهزة من البلاد المصنعة الغربية .

ومن ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ ، زادت التجارة بين بلاد الوحدة الشيوعية ب ٤٥٠٪ ومثلت ، في ١٩٦٨ ، ٧٢٪ من التجارة الخارجية لجميع الاعضاء . وبحسب الاتفاقات المبرمة حديثاً بين الاتحاد السوفياتي وبلاد الكومبيكون الأخرى ، يجب أن تبلغ المبادلات السوفياتية ، في الدور الخمسي (١٩٦٦ - ١٩٧٠) ، ١٥٠٢ مليار دولار مع جمهورية المانيا الديمقراطية ، ١١ مليار مع تشيكوسلوفاكيا ، ٩٠٥ مليار مع بولونيا ، ٧٠٨ مليار مع بلغاريا ، ٤٠٢ مليار مع رومانيا و ٦٠٣ مليار مع هونغاريا . وهذه الارقام مرتفعة جداً وربما تكون وهمية . والكومبيكون ليس وحدة (امرة) أعضاؤها متضامنون بشكل وثيق وشديد . إن خطة التقسيم الدولي للعمل الاشتراكي لم تحصل على الاجماع . وان رومانيا ، وهونغاريا وحتى بولونيا لا تريد ، في المضار الصناعي ، ان تترك المجال لجمهورية ألمانيا الديمقراطية أو تشيكوسلوفاكيا . وأكثرها حرماناً تفرص على تنمية صناعاتها الاساسية والتحويلية بشكل لا تكون فيه « بستاني » الديمقراطيات الشعبية الاخرى ، كما قال في ذلك بمنل رومانيا في دورة من دورات الكومبيكون .

والمساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي منذ ١٩٥٠ إلى الشعوب

السائرة في طريق التنمية - بضعة مليارات دولار - هي ثنائية الجانب ، ومؤسسة مبدئياً على المقايضة . ولما لم يكن للبلاد المتخلفة ما تقدمه إلا المواد الأولية ولا تستطيع أن تفي مشترياتها بالعملات القومية ، فإن العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفياتي والعالم الثالث محدودة .

ولذا وجب على الاتحاد السوفياتي أن يتجه شطر الولايات المتحدة ، وأوروبا الغربية واليابان للحصول على التجهيزات التي تنقصه . والدول التابعة تضغط ضغطاً شديداً على موسكو في هذا الاتجاه . والدول الغربية لا تترك فرصة مناسبة تمر لزيادة منافذها ؛ ووقعت معاهدات تجارية عديدة مع بلاد الشرق ، ولما كانت هذه الأخيرة تدفع وارداتها بصادراتها ، فإن امكانيات التبادل قليلة أيضاً ، وبخاصة مع الولايات المتحدة . ومع ذلك ، فإن هذه المبادلات تفتح في حصن الكومينكون ثغرة نوسك أن تتسع إذا ما قبلت الدول الغربية أن تبسح بالاعتماد بلاد الشرق معاملة بحرة بكاملها . وقد جازف الاتحاد السوفياتي ، وضرب المثل : فقد أنشأ في داخل اقتصاده الاكتفائي مشاريع مهمتها التجارة مع الغرب باستخدام طرق مشابهة في سير العمل والتمويل .

وهذا التطور في الاقتصاد السوفياتي نحو بعض « الليبرالية » في داخل المشروع وفي علاقاته مع الخارج لا يسمح بأن نستنتج أن الاتحاد السوفياتي يرجع تدريجياً إلى شكل ما من أشكال الرأسمالية . ان موجهي موسكو يمنعون ذلك عن أنفسهم بشدة . والحزب يحافظ على جميع سلطات القرار ، وسياسة التخطيط مستمرة في تنظيم الانتاج والمبادلات والحياة الاجتماعية . والرأسمالية البورجوازية تبقى عدواً يجب كفاحه ، وليس للتعيش السلمي هدف آخر . والاتحاد السوفياتي يحتل بقوة المكان الثاني بين الأمم الصناعية . وليس له أي حظ في مستقبل قريب في ثل عرش الولايات المتحدة .

١٩٦٨ - ١٩٦٠

اضطراب البنيات

يرى منذ ١٩٥٨ ، ان النزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي لا يحتكر الانتباه الدولي ، وفقد جاذبية المفاجيء الذي انتقل مباشرة نحو قارات أخرى . وبفضل خطة مارشال ، والمنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي ، والاتحاد الاوربي للمدفوعات ، استعادت أوربه الغربية قواها : فالجنيه الاسترليني ، والفرنك الفرنسي ، والمارك الألماني ومعظم العملات الاوربية الاخرى وجدت في ١٩٥٨ قوة مبادلتها الحرة . ومنذ ١٩٥٣ أقامت الأمرة الاوربية للفعمم والفلولاذ همزة وصل بين فرنسا ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، وايطاليا وبلاد البينيلوكس الثلاثة ، ثم جاء دور السوق المشتركة في محاولة التوحيد التام للقوى الاقتصادية في الدول الست ، في ١٩٥٨ ؛ وفي السنة التالية ، أسست بريطانيا العظمى ، مع السويد ، النرويج ، الدانمارك ، النمسا ، سويسرا والبرتغال ، الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة (١) .

وفي آسيا ، عادت اليابان والصين إلى مكانهما في المحفل الدولي ؛ وأخيراً ، حرر انحلال الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى معظم الشعوب الآسيوية والافريقية من الوصاية الاوربية ، واهتزت امريكا الجنوبية بدورها لا برغبة الاستقلال السيامي الذي كسبته مبدئياً منذ قرن ، وانما بارادة التغلب على البؤس الذي يقهرها . ومنذ هذا الحين بدأ ما أسميناه انقلاب البنيات الاقتصادية والاجتماعية .

(١) كانت فنلندا دولة شريكة في هذه الرابطة .

التنافس في على المكان العالمي الثالث بين المعجزتين : ألمانيا واليابان

إذا كان المكان الاول والثاني بين الدول الصناعية تحتلها بقوة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، فإن المكان الثالث موضع منافسة حديثة العهد ، لا هراة فيها ظاهراً ، بين جمهورية ألمانيا الاتحادية واليابان وإذا وصلت هاتان الدولتان إلى قمة التسلسل فلا عجب في ذلك . وما هو أكثر من ذلك ، الدرس الذي يخرج من هذا الصعود . ففي القديم نشب الحرب لكفاح الحزم وقصاصه ، ونهبه ، ومنعه من الضرر . وقد علمتنا الحرب العالمية الثانية أن يميز منذ الآن بين الحكومات والشعوب ، وأن يهيا كل شيء لتدمير الحكومات ، وأن يبادر من بعد إلى النوض بالشعوب . وهكذا خول إلى المغاوبين حظ غير مؤمل فيه ليجدوا أنفسهم بعد الهزيمة أقوياء ، إذ لم يكونوا أكثر من ذلك ، كما كانوا قبل الحرب ، والأكثر من ذلك هو أن جمهورية ألمانيا الاتحادية واليابان تظهران بظهر « معجزتين » بنفس الاسلحة الاقتصادية والنفسية والفنية . يقول المانيو الغرب طوعاً : لسنا إلا أمة صغيرة ؛ لقد اقتطع من أرضنا ، في ١٩٤٥ ، ٤٨٪ من السطح الذي كانت تحتله في ٣١ كانون الاول ١٩٣٧ . وهي لا تساوي ، ب ٢٤٨٠٠٠ كم^٢ ، نصف الارض الفرنسية ، وأكبر بقليل من ولاية أوريغون في الولايات المتحدة ؛ وثقنها المواد الأولية ، إذا استثنى الفحم ، والليغنيت والبوتاس ؛ والزراعة ، وإذ كانت كثيفة ، لا تغطي الحاجات . وشعبها ، ٥٩ مليون نسمة ، لا يساوي ثلث شعب الولايات المتحدة أو ربع الاتحاد السوفياتي . وبالرغم من هذا التواضع الظاهر والحسارة الحقيقية في الاراضي والسكان ، فقد سميت

جمهورية ألمانيا الاتحادية ، في بضع سنوات ، إلى الصف العالمي الثالث في الإنتاج الصناعي ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وإلى الصف الثاني في التجارة بعد الولايات المتحدة ، وقبل بريطانيا العظمى ، بعد أن تجاوزتها في ١٩٥٨ .

لقد فاجأ التوطد السريع للاقتصاد الألماني زملاءه في الغرب كما أقلق الاتحاد السوفياتي وتوابعه . ولذا فقد جرى الكلام لأول مرة في موضوع المعجزة الاقتصادية . ومع ذلك فالإيضاح سهل .

لقد كانت ألمانيا بصورة تقليدية مشغلاً صناعياً . وتنتج بضائع ممتازة بأسعار كلفة تنافس غيرها ، وتحاول أن تبيع قسماً هاماً منها في الخارج ، مؤمنة لشعبها مستوى حياة مرتفعاً . وإذا وجدت معجزة ، فهي هنا . ورغماً عن المواد الضعيفة الطبيعية ، واستلهاماً من المبادئ ، وتطبيقاً للطرق التي تذكر في بعض النقاط الطرق التي هي في موضع الشرف في الولايات المتحدة ، وجدت ألمانيا الحل لهذه القضية المزدوجة التي مازالت ، بالنسبة للآخرين ، حلقة مفرغة .

وجمهورية ألمانيا الاتحادية منذ ١٩٤٩ ديموقراطية برلمانية تنفذ في الصعيد الاقتصادي إلى « الاقتصاد الاجتماعي للسوق » الذي اقترحه عليها ل . ارهارد في ١٩٤٩ . وهذه العبارة صيغة معقدة « تحاول أن توفق بين الاقتصاد الحر ، والمنافسة الحرة ، والمبادأة الخاصة مع المثل الأعلى للتقدم الاجتماعي » . والألماني يؤمن دوماً ببناقب الدولة ، شريطة أن تكون هذه الأخيرة متعددة الأشكال واتحادية . والدولة الاتحادية اليوم فاعلة ، وحامية ، وحاسبة تتقاسم بعض الصلاحيات الأساسية (المالية ، التعليم ، الشرطة) مع الأقاليم الحريصة على امتيازاتها . وتطرح كل تخطيط منظم للاقتصاد ؛

وتتق بالمبادعه الخاصة الفردية ، وتشجع سير العرض والطلب وتتدخل إذا كانت المصلحة العامة داخلة في القضية . وتلعب « الكونتسرن » الكبرى في جمهورية ألمانيا الاتحادية دوراً يشبه قليلاً دور التروستات في الولايات المتحدة : وهي قليلة العدد ، وتؤمن الانتاج بكثرة كما وكيفا . وبعض هذه الكونتسرن (فولكسفاغن ، سيمنس ، تيسين ، دايمليور - بنز ، باير كروب ، هوش ، غوتهوفنوغس - هوت ، A.E.G ، باديشه - آنيلين ، الخ) ، التي يتنوع رقم أعمالها بين ٦ و ١٠ مليار دويتش مارك ، تتمتع بشهرة عالمية . وتصرف بأجهزة فنية حديثة جداً وتحصل على نسبة انتاجية مرتفعة (٥ إلى ٦ ٪ في العام) وتقدر وسائل مالية قوية تطلقها في المعركة الاقتصادية ، متأكدة من المساندة غير المشروطة التي تخولها إياها المصارف الكبرى الخاصة (دويتش بانك ، درسدنر بانك ، الخ .) .

ومنذ ١٩٤٩ والشعب الألماني يكافح في سبيل رخائه وازدهاره . وكانت البدايات صعبة : من ١٩٤٩ إلى ١٩٥١ كانت التجارة الخارجية في عجز ، والأسعار ترتفع بسرعة ، وعدد العاطلين مليونان . ومنذ ١٩٥٢ ، انضح التوسع الاقتصادي ، وتسارعت وتيرته بانتظام في السنوات التالية . وانتقل رقم الأعمال في الصناعة من ٨٠ مليار دويتش مارك في ١٩٥٠ إلى ٣٥٠ في ١٩٦٤ ، والانتاج القومي الخام من ١١٣ مليار في ١٩٥٠ إلى ٢٨٢ مليار في ١٩٥٠ وإلى ٤٥٠ مليار في ١٩٦٧ . ومنذ ١٩٥٣ ، والتجارة الخارجية رابحة باستمرار : فقد صعدت الصادرات من ١٦١ مليار دويتش مارك في ١٩٥٢ إلى ٨٦ مليار في ١٩٦٧ ؛ والواردات ، من ١٦٢ مليار إلى ٧٠ مليار . والدويتش مارك نقد من أقوى

العملات في العالم ؛ وبلغت احتياطات القطع في البنك الاتحادي ٣٥ مليار دويتش مارك في تموز ١٩٦٨ .

وجهورية المانيا الاتحادية مدينة بنجاحها الاقتصادي والاجتماعي إلى الطرق التي أمنت في ١٩١٤ قوة الامبراطورية : العمل والبيع ، مع النظام والجد والثبات والحركة التي لا يثبطها عزمها شيء ، وهي تلقي بكل قواها في المعركة ، مع القناعة الحازمة التي حرص فالتر راينار^(١) على تحقيقها حين قال إلى أبناء وطنه : « الاقتصاد قدرنا » .

ولكن المداليا ، مع ذلك ، لها قفا من عدم الاستقرار والقلق الدائم . والالمان لا يقومون عادة بنصف العمل : فاما أن يغرقوا في التشاؤم أو أن يصبحوا معجبين بأنفسهم . وهم ، إذا تطلبت الظروف ، قادرون على تضحية الفضل بل الضروري شريطة أن يؤمنوا بعدالة قضيتهم وأن يتقوا بزعمائهم ؛ وإذا أحسوا بالازدهار على بابهم ، أرادوا أن يستخلصوا منه كل الربح . وإذا قرروا الانطلاق إلى فتح المنافذ الخارجية ، فإن « كونتسرناتهم » ومصارفهم تجازف بكل الاخطار : يعرضون اعتمادات واسعة طويلة الأجل ، وعندئذ يكونون تحت رحمة أزمة (وهذه حالة كروب) أو حتى تقهقر ، ولدى الاعراض الاولى يتملكهم الخوف .

والأمثلة على ذلك كثيرة في سياق تاريخهم . ولكن ، منذ ١٩٥٨ ، بدأ الإنذار الجدي في ١٩٦٥ : إن الطلب الداخلي القوي للسلع الاستهلاكية ، والرغبة النشيطة في النعمى والرفاء ، وزيادة الاجور ، والمطر الغزير من « الهدايا الانتخابية » للعمال ، إلى أصحاب الدخل ،

(١) فالتر راينار Walter Rathenau

إلى الخطوط الحديدية ، إلى المتقاعدين ، إلخ ، قبل اقتراع ايلول ١٩٦٥ ، أثارت أزمة تضخم اقتصادي ، وهبط فائض التجارة الخارجية ، أثر الواردات الكثيفة ، إلى ٩.٢ مليار في ١٩٦٥ : وصعد إلى ١٧ مليار في ١٩٦٧ . ولأول مرة منذ زمن طويل ظهر في الموازنة الاتحادية ، في ١٩٦٦ ، عجز ٧.٢ مليار . وفجأة ، ما كان بالأمر « معجزة » ، أصبح بالنسبة للكثيرين « مراباً » . وتجمعت حكومة ارهارد انتقادات شديدة ، واستقالت وحلت محلها في آخر عام ١٩٦٦ حكومة « الائتلاف الكبير » بين الديمقراطيين - المسيحيين والاشتراكيين ، يرأسها المستشار كيسينغر^(١) ثم تحسنت الحالة الاقتصادية في ١٩٦٧ . ومع ذلك ، فإن اقتصاد جمهورية المانيا الاتحادية آخذ بالتحويل لأسباب داخلية وخارجية .

لقد ظل « الاقتصاد الاجتماعي للسوق » رمز الازدهار ، ولكن تيارات فكرية وعملية جديدة ظهرت وأوشكت أن تغير نسب القوة بين الدولة وأصعاب العمل والعمال .

إن جمهورية المانيا الاتحادية ليبرالية ، ولكن الواقع ، هو أن الدولة الاتحادية والاقليم تشرف مباشرة ، بواسطة مؤسسات الدولة ، وشركات الحق العام ، والمشاريع المختلطة ، على قسم هام في بعض النشاطات الأساسية : ٦٠٪ من الفحم والليغنيت ، ٣٨٪ من فلز الحديد ، ٧٠٪ من الألومنيوم ، ٦٠٪ من انتاج الكهرباء ، ٤٥٪ من صناعة السيارات ، و ٦٠٪ من المصرف . وإن موجهي بعض الفروع ، وبخاصة مناجم الفحم الخاصة ، يرجون أن تتدخل الدولة أيضاً وبنشاط أكثر ، ودون الذهاب حتى التخطيط ، وتؤمن تنسيقاً طويل الأجل للاقتصاد ، بغية تجنب الاسراف ، والمنافسات العقيمة أو الافضل توزيع التثمارات ببرامج انتاج

(١) كيسينغر Kiesinger

متكيفة مع الاستهلاك . وقد ذهبت نقابات العمال إلى أبعد من ذلك أيضاً : فقد طالبت ، بامم الديمقراطية ، بحق المشاركة في تسيير المشروعات الخاصة ، والعامه أو الجماعية ، والتخطيط إلى أجل متوسط وإلى أجل طويل لكل الاقتصاد . وتبدي نقابات العمال في جمهورية ألمانيا الاتحادية بعض الاصاله : أولاً ، انها وحدوية ، متجمعة حول « اتحاد رابطات العمل الألمانية » (١) . وتأسس هذا الاتحاد في العام ١٩٤٩ ، ويضم اليوم ٦٥٥ مليون مشترك . أي أكثر من ثلث الأجورين . والاتحادات المسلكية التي تؤلفه وقعت اتفاقات جماعية مع أصحاب العمل . ولذا فهو يتمتع بقوة سياسية واجتماعية عظيمة تتضاعف بقوة اقتصادية خاصة به .

ويسير اتحاد رابطات العمل الألمانية واتحاداته الست عشرة ثروة تقارب المليار دويتش مارك . وفي ١٩٦٤ ، صعدت الحصص ، التي يدفعها الاعضاء وحدهم ، إلى ٤٥٠ مليون دويتش مارك . وبعد أن تدفع جميع النفقات الجارية ، يبقى له كل سنة فائض نفقات من ١٥ إلى ٢٠ ٪ . ولذا تحول اتحاد رابطات العمل الألمانية الى صاحب مصرف ، ومؤمن ، وقاجر ، وقائم على بناء مساكن ، وصياد في مد البحر . ويحتل مصرف النقابات الصف الرابع بين مؤسسات الاعتماد الكبرى برقم أعمال ٤٥٥ مليار دويتش مارك . وفي ١٩٦٥ ، أنت شركات تأمين النقابات في الصف الاول للتأمين على الحياة وفي الصف الثالث لمجموع نشاطات هذا الفرع . وشادت شركتها الاساسية للانشاء ، منذ ١٩٤٥ ، أكثر من ٢٣٠.٠٠٠ مسكن من أجل تمييز بلغ ٥٥٢ مليار دويتش

مارك . وبلغ رقم أعمال شركتها في تجارة الجملة نحو ٢ مليار دويتش مارك سنوياً ؛ وهي أهم مشروع الماني لتجارة المنتجات الغذائية ، وفي الوقت نفسه صانع هام جداً للسلع الاستهلاكية ، من المنسوجات إلى الاثربة الروحية . وتسير النقابات الصناديق التي اوكلت اليها كمشروع رأسمالي . ولا تتردد في الاسهام في تعويم الشركات الموجودة في صعوبة إذا كانت مصلحة العمال داخلة في القضية . وفي الوقت نفسه ، تدافع بشدة عن الحقوق الاجتماعية للمشاركين فيها . وتناضل في سبيل زيادة الأجور (٨٪ في ١٩٦٥) ، وامتداد العطل المسأورة ، ومنح اجرة الشهر الثالث عشر .

وفي سنوات الشباب الاولى للجمهورية ، كسبت النقابات مطالبتها : وحضت مشتركها على التضحية بغية تشجيع نهوض الاقتصاد القومي . ومن ثم ، لم تعارض في نزاع التأمين عن رأسمال بعض المشاريع الضخمة (فولكسفاغن ، بروبساغ ، فيبا)^(١) وبيع اسهامات الدولة بشكل قسائم لرأسمال ضعيف تحت اسم الأسهم الشعبية ، ، وتخلي عنها بالأولوية بأسعار منخفضة جداً لكل من يبررون دخلاً متواضعاً . واليوم وقد عاد الازدهار ، ترى النقابات أثر للعمال الحق في أن يأخذوا تعويضاً عن التضحيات التي قبلوا بها في دور العوز ، تحت شكل اسهام واسع بالارباح ، وأن يتقاسموا مع أصحاب العمل مسؤولية المشاريع . وقال الرئيس لودفيغ روزانبرغ : التعاون في التسيير يعني نهاية الدكتاتورية الموجودة في كل مكان لجماعة واحدة ، وتحقيق ما يسمى الالتزام الاجتماعي للملكية الخاصة . وفيما يتعلق بالنقابات ، يكون التسيير المشترك تاماً إذا كان لهذا التسيير امكانية الاشراف على القدرة الاقتصادية . وقد عملت شيئاً من

volkswagen , Preussag , veba (١)

الماضي وعرفت أن الخطر يوجد كلما كانت القدرة الاقتصادية مستغلة من جديد على الصعيد السيامي . وطبق التسيير المشترك في المناجم والصناعة الحديدية منذ ١٩٥١ . والتوسع الذي يطالب به اتحاد رابطات العمل الألمانية يقلق أرباب العمل والحكومة الديمقراطية - المسيحية ، لأنه يزيد أيضاً في قدرة النقابات الاقتصادية والمالية حتى يجعلها عملياً صاحبة الانتاج الصناعي . وهذا ما تقوله هيئة أرباب العمل على الأقل . ولكن النقابات على غير وفاق معها في هذا الرأي ، والنقاش ما زال بعد في أوله

والظل الآخر في لوحة المشاريع هو نقص اليد العاملة . يوجد أكثر من مليون أجنبي يعملون في المعامل الألمانية ؛ ويلزمها مليونان ، ولكن اسهامهم غير قابل للتوسع ؛ والمصادر تنضب ، وعدد الألمان الشبان الذين سيدخلون خلال السنوات القادمة في الحياة المسلكية سيكون أقل ارتفاعاً من عدد العمال الذين سيتقاعدون . وهذا التطور ، الذي يعارض ما نراه في الولايات المتحدة وفي البلاد الأخرى ، يمكن أن يؤلف ضرراً ثقیلاً جداً بالنسبة لاقتصاد جمهورية ألمانيا الاتحادية: فإذا قل العمال ضعف التوسع (٣٪ وسطياً مقابل ٦ إلى ٧٪ في ١٩٦٥) ؛ وارتفعت الاجور، وتزايد خطر التضخم النقدي . والتضخم النقدي والبطالة وباءان يجشاهما الألمان . لأنها ، خلال مرتين ، في ١٩١٩ - ١٩٢٣ و ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، دمرتا الطبقات الوسطى وقادها إلى اليأس . وتعتمد ألمانيا على زيادة الانتاجية لتابعة توسعها .

وأخيراً ، ان جمهورية ألمانيا الاتحادية لا تنسى بأنها جزء من أجزاء ألمانيا ١٩٣٧ . ففي الجهة الأخرى للخط اودير - نايس يعيش ١٧ مليون الماني تحت سيطرة السوفييتين . وجمهورية ألمانيا الديمقراطية تحتل المكان الثامن في أوربه بين الأمم الصناعية والثالث عشر في العالم في التجارة

الخارجية (٣ مليارات دولار قيمة الصادرات في ١٩٦٤) : وانتاجها القومي الخام يتجاوز سنوياً ٤٠ مليار دولار . ولا تمتنع جمهورية المانيا الاتحادية عن التفكير فيما اذا كان بالامكان حذف هذه البقعة البيضاء ، من خارطتها السياسية ، لان اعادة الوحدة تعطي المانيا المتشكلة من جديد قوة اقتصادية وتجارية تساعد على مقارنة نفسها مع الاتحاد السوفياتي في الانتاح وربما مع الولايات المتحدة في التجارة الخارجية .

وعندما يهدد الخطر ، يميل الألمان إلى التجمع من جديد والاتحاد للجبهة في مجتمع مبني ، حسب كلمة المستشار السابق ارهارد ، نوع من وحدة اقتصادية واجتماعية مهيأة لحذف نزاع الطبقات نهائياً بتعاون جميع القوى الاقتصادية بغية هدف واحد ؛ وتحريك الازدهار الاقتصادي ، والعدالة الاجتماعية ، وتعزيز القوة السياسية ، باتفاق مع جيرانهم المباشرين والبعدين ، وعند الحاجة بدورهم اذا تطلبت الظروف ذلك بشكل مطلق .

اليابان

في خمسة عشر عاماً ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً خارقاً يصعب تفسيره وإيضاحه وكانت حرب كوريا ، في ١٩٥٠ ، نقطة الانطلاق . فقد أرخت الولايات المتحدة رقابها واشرفها وسمحت بتنمية الصناعات الاساسية . ومنذ ذلك الحين ، زاد الانتاج القومي الخام وسطياً ب ١٠٪ في العام ، أي بوتيرة مضاعفة لوتيرة المانيا وفرنسا ، وثلاثة اضعاف وتيرة الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى وفي عشرة أعوام ، ازدادت الصادرات ب ٤٣٠٪ مقابل ٢٧٥٪ في المانيا ، و ٢٠٠٪ في فرنسا ، ١٣١٪ في بريطانيا العظمى ، والتشميرات المقارنة في الانتاج القومي

- ١٩٣ -

الحام ايم برين بما في مجموع بلاد منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية O.C.D.E (٣٢ ٪ مقابل ١٦ ٪) . وفجأة ، عرف العالم المعجب منذ ١٩٦٦ ان اليابان تحتل من بعيد جداً المكان الاول في الانشاءات البحرية (بأكثر من ٤٥ ٪ من الوزن المطلق في البحر) ، وفي صنع الترانزستورات ؛ والثاني في الالكترونيات بعد الولايات المتحدة (الاتحاد السوفياتي موضوع جانباً) وانتاج السيارات (قرابة ٤ ملايين سيارة) ؛ والثالث في انتاج الفولاذ (أكثر من ٦٣ مليون طن في ١٩٦٧) ، بعد الولايات المتحدة والفولاذ (أكثر من ٦٣ مليون طن في ١٩٦٧) ، بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وقبل جمهورية المانيا الاتحادية ؛ والرابع في الصناعة الكيميائية ، والميكانيك ، بعد الولايات المتحدة ، وجمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا العظمى .

وهذا النجاح الذي حققته اليابان يرجع الى نظامها الاقتصادي والاجتماعي اكثر مما يرجع الى ثرواتها المادية الضعيفة نسبياً . إن تربتها فقيرة بمصادر الطاقة والفلزات المعدنية . ان ما يقارب ١٦ ٪ من اراضيها صالح للزراعة ، والزراعة فيما لا تغطي إلا ٨٠ ٪ من الحاجات الغذائية لـ ١٠٠ مليون ياباني يتزاحمون على ٣٧٠٠٠٠ كم^٢ . وبالمقابل ، يزعم اليابانيون بأنهم يملكون افضل تقنية في العالم بفضل مشاريعهم الكبرى وقدرتهم الاسطورية على تطبيق أفكار الآخرين ، والى ثبات ومهارة مايسمون ، سامورائي^(١) الاقتصاد^(٢) .

والى الزايباتزو^(٢) (الاحتكارات) القديمة (ميتسوي ، ميتسو بيشي ،

(١) السامورائي عضو طبقة المحاربين في التنظيم الياباني قبل ١٨٦٨

(٢) الزايباتزو Zalbatzu

سوميموتو التي اعيد بناؤها بعد ١٩٥٠ ، انضمت احتكارات كبرى مستقلة كثيراً أو قليلاً ، وبخاصة في الصناعة الحديدية (ياباتا ، ميتسوسو ، فوجيزيتسو ، نيبون كوكان ، الخ^(٣)) ، وفي المنشآت البحرية (ميتسوبيشي ، يوكوجيما ، الخ) ، وفي صناعة الآلات والتجهيزات الكهربائية (هيتاشي ، سينساكوشو ، توكيو شيبافرا ، ديتشي ، الخ) . والاقتصاد حر لبرالي ، ولكن اليابان ، على خلاف جمهورية ألمانيا الاتحادية ، تبنت نظام التخطيط الاكثري او الاقل مرونة ، وهو يبدى على الأقل صفة خاصة وجبهة . فمنذ ١٩٤٥ ، هيأت اليابان سبع خطط مختلفة بمدتها وأهدافها . ولم تتوصل واحدة منها الى الحد الذي ثبت لها في الاصل . فمن ١٩٤٨ الى ١٩٥٢ ، كانت الاقتصاد الياباني خاضعاً من حيث المبدأ لـ « خطة إعادة الاعتبار الاقتصادي الاولى » ، وزالت هذه الخطة منذ ١٩٤٩ لصالح « خطة إعادة الاعتبار الاقتصادي الثانية » ، (١٩٤٩ - ١٩٥٣) ، ولكن في ١٩٥١ استعيض عن هذه الاخيرة بـ « خطة الاستقلال الاقتصادي » ، (١٩٥١ - ١٩٥٣) . وفي ١٩٥٥ دخلت في حيز التطبيق « خطة الاقتصاد السكاني الداخلي » (١٩٥٥ - ١٩٦٠) ، التي تركت المكان ، في ١٩٥٦ ، إلى خطة خمسية اولى (١٩٥٦ - ١٩٦٠) وحلت محلها في ١٩٥٨ خطة خمسية ثانية (١٩٥٨ - ١٩٦٢) . وفي أيار ١٩٦١ اعلنت الحكومة بأنها تدرى مضاعفة الدخل القومي بفضل خطة عشرية (١٩٦١ - ١٩٧٠) عززت في ١٩٦٤ بخطة وسيطة (١٩٦٤ - ١٩٦٨) ذات أهداف محدودة كثيراً .

وتتمتع اليابان حتى الآن بيد عاملة فتية غزيرة وقليلة الطلب غير ملحاحة ، وتقتضي التقاليد اليابانية من الياباني الذي يدخل في مشروع ان يبقى فيه حتى تقاعده (٥٥ عاماً) او وفاته . ولا يسرح ، حتى ولو اعوزته

الكفاءة او النفاذ . ويتقاضى اجراً منخفضاً نسبياً ، يتمم بفوائد غير مباشرة : مسكن مجاني ، مصاريف انتقال ، مكافآت على الارباح . ومع الزمن يرى ان اجرته ترتفع (مبدئياً ٥٪ في العام) تبعاً لقيمتها المسلكية أقل مما ترتفع لقدمه واعبائه العائلية .

وبفضل التوفير الذي يجمعه العمال ، استطاعت اليابان أن تطبق سياسة التسميرات الكثيفة التي دفعت الانتاج وساعدت على زيادة دخل اليابانيين وعلى تراكم وفرة عتيد جاهر للتوظيف من جديد ، حسب تطور وصفته منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية بأنه « حلقة مغلقة » .

واليوم ألا تخاطر هذه الحلقة المملأة بأن تتحول الى حلقة مفرغة ؟

وخلافاً للظواهر ، ينمو الشعب الياباني بسرعة أقل نسبياً من الشعب الأمريكي ، والسوفيياتي أو الفرنسي . والمجرة الريفية كانت هامة جداً في السنوات الأخيرة (٧٠٠ ٠٠٠ وسطياً في العام) ، واليوم ، يتردد فائض اليد العاملة الزراعية في الذهاب الى المدن المحرومة من المساكن الجاهزة . والشبان ، في إزدباد عظيم ، يتابعون دراسات طويلة ، وتأخر دخولهم في الحياة المسلكية . وتقلل سلطة ارباب العمل في المشاريع مرونة سوق العمل . وتطالب النقابات باجور مرتفعة وتوسيع الضمان الاجتماعي ، وتخفيض زمن العمل . وكلما تلاحق التوسع ، أراد الياباني أن يعيش بشكل أفضل ويشتري الكثير من السلع الاستهلاكية ، وامت السوق الداخلية وتضخم طلب الواردات ، وجفت احتياطات القطع ، وتضائل الوفرة ، وقلت إمكانيات التوظيف التي يغذيها هذا الوفرة . وبنفس الشكل ترتفع الاسعار الداخلية ، ويهدد التضخم النقدي ، ويصبح التصدير صعباً ، وترداد الواردات .

- ١٩٦ -

والموجهون اليابانيون يدركون الخطر ، ولكن ليس لهم خيار . وليس لهم إلا حل واحد : الفرار إلى الأمام ، والانتاج والبيع دوماً بازدياد ، كما تنبأت بذلك الحطة العشرية ١٩٦١ - ١٩٧٠ .

والنتائج الحاصلة اليوم مثيرة : لقد بلغ الانتاج القومي الحام قرابة ٧٠ مليار دولار في ١٩٦٤ ، وتجاوز ١١٥ مليار في ١٩٦٧ وقارب انتاج المانيا الاتحادية . والدخل القومي الحام بحسب رأس كل ساكن ، بعد ان كان أعلى بقليل من ثلث دخل فرنسا وألمانيا ، هو في سبيل اللحاق بهذين البلدين مع ٩٢٥ دولار مقابل ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ .

والياباني يناضل في سبيل مشاريعه كما يناضل عندما تكون الامة في خطر . والعلاقات بين الشركات الكبرى والدولة ، في الحالة الحاضرة ، مرضية لأن كلا من الطرفين لا يستطيع الاستغناء عن الآخر .

ومع ذلك تبقى بعض نقاط سوداء . ان الشركات الكبرى جداً مزدهرة ، ولكن كتلة الشركاء الصغرى والمتوسطة تحيا حياة ضئيلة ، ولا تؤمن لأشخاصها إلا عطاءً ضعيفاً .

والاقتصاد الياباني تعوزه رؤوس الأموال لمتابعة توسعه ، وهو يزيد في تسميراته في الخارج بغية تأمين حاجاته بالمواد الأولية (وبخاصة الطاقة) والمنافذ التي تنقصه . ولكن هذه الرغبة الشديدة في الاستقلال القومي لا تجعله يرحب بالتسميرات الخارجية :

ان المليارين دولار اللذين تنصرف بهما البلاد في العام ١٩٦٨ كاحتياطي نقدي لا يكفيان لاطفاء نتائج تراجع محتمل للتجارة الخارجية .

وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت المنسوجات تسهم بأكثر من نصف صادراتها . واليوم تسهم الآلات والمنتجات المعدنية والاجهزة من كل

الانواع ، وبخاصة الآلات البصرية والتوانزيستورات باقساط متساوية في المبيعات في الخارج . ومنذ بعض الوقت كان « الانتاج الياباني » مرادفاً لشيء قليل القيمة ؛ واليوم تستطيع البضاعة اليابانية ان تنافس بجودتها البضائع الاوربية والامريكية . ويجب ايضاً ايجاد مشترين . ومصير اليابان يتعلق بجهزها وبخاصة بعمالها الاجانب ، كما يتعلق ايضاً بمتطلبات شعبها . واليابان ايضاً بلد يستهلك قليلاً ويثمر كثيراً . وهذا منوط بمعجزة . ولكن هل تتجدد المعجزات حسب المراد وعند الطلب ؟

تنافس بريطانيا العظمى وفرنسا

على المظان الخامس

بريطانيا العظمى

إن النضال على المكان الخامس والسادس يضع بريطانيا العظمى في حالة تنافس ومعارضة مع فرنسا . وهذا النضال لا يدور في شروط مستقيمة كالشرط الذي يضع جمهورية المانيا الاتحادية في مجابهة مع اليابان . أولاً لأن العوامل الأساسية تختلف . إن بريطانيا العظمى بمرافولوجيتها ونشاطاتها الصناعية والتجارية أقرب إلى جمهورية المانيا الاتحادية من فرنسا . والأمتان بالرغم من كل شيء لهما نقاط مشتركة : الانتاج القومي الحام متعادل تقريباً في كلا البلدين ، وبخاصة ، الاهتمامات القومية متشابهة ، وتنتزع فيها السياسة بالاقتصاد بشكل دائم . وهما تريدان أن تكونا قويتين ومحبرتين ومحترمتين . وتحاولان أن ترتبطا بعملاء من أمم أقل أهمية تسير خلفها . ولكل منهما تجربة قديمة في القضايا الدولية الاستعمارية .

ولا تنتجان معجزات ، ولذلك تدر كان اليوم أن ماضيها الوجيه لا يضمن لها المستقبل .

إن أرض المملكة المتحدة ضيقة (٢٤٢ ٤٤٣ كم^٢) وتضم شعباً عديداً (٥٥ مليون نسمة) وكثيفاً (٢٢٢ نسمة في الكيلو متر المربع) . والصناعة تشغل ٤٨٪ من الشعب العامل (٢٥ مليون مأجور) . وقد بلغ الانتاج القومي الخام ١٠٥ مليارات دولار في ١٩٦٧ .

وصادات المملكة المتحدة أخفض بوضوح (١٢٥٣ مليار دولار) من صادرات جمهورية ألمانيا الاتحادية (١٦٥٢) ؛ والواردات أعلى بصورة خفيفة (١٥٥٤ مليار في بريطانيا العظمى ، ١٤٥٥ في جمهورية ألمانيا الاتحادية) . وتعطي المملكة المتحدة انطباعاً في أنها لا تعيش إلا من أجل نقدها . والجنيه الاسترليني لا يرمز فحسب إلى قدرة الصناعة ، واشعاع التجارة ، وجاء مدينة لندن في العالم ، بل يرتفع تقريباً إلى صف الإلهة . وفي ايلول ١٩٣١ ، عندما خفضت بريطانيا العظمى ، لأول مرة في تاريخها ، قيمة الجنيه الاسترليني ، كان رد الفعل الاجاعي للانكليز : « الذهب يصعد » ، لأنه لا يستطيع أحد في انكلترا أن يشك بثبات النقد . ولذا لم تلق الاسعار الداخلية ارتفاعاً وحيماً . وعند أقل انذار ، يهرع البريطانيون إلى « مرير الام المريضة » ويقبلون بنفس التضحيات التي تفرضها الحكومات عمالية كانت أو محافظة : زيادة الضرائب لتوازن الموازنة ، تخفيض الواردات ، واذن تخفيض مستوى الحياة ، لاقبال العجز في الميزان التجاري ، النقد أغلى ، بسبب ارتفاع سعر الحسم الذي تعلن عنه الصحافة الكبرى بأحرف الاعلان ؛ كبح رفع الاجور ، الخ . وهذا ما يسمى فيما وراء بحر المانش « تطبيق سياسة التقشف » .

ومنه يستخلص بعض العزة على اعتبار أن هذه السياسة نجحت في انقاذ
جاء الجنيه . ولسوء الحظ كانت هذه السياسة شبه دائمة . ولها محاذير
اقتصادية واجتماعية جديدة . فهي تكسر اندفاع المشاريع ، وتقلل هوامش
التمويل الذاتي ؛ وتؤخر تحديث المعامل ، وتضعف قدرة المنافسة حيال
الخارج ، وتسبب احتياء العمال . والضمور التقني بعبارة قوي له في
الغالب اصداء وانعكاسات مشؤومة أكثر من التضخم المعتدل . والارقام
تؤكد ذلك : إن وتيرة التوسع الاقتصادي أضعف بكثير في بريطانيا
العظمى (٢ إلى ٣ ٪ في العام وسطياً) مما في بلاد السوق المشتركة
(٤ إلى ٦ ٪) ؛ وسعر الكلفة في كثير من الصناعات يكون
مرتفعاً كثيراً جداً ؛ وعجز التجارة الخارجية ينقل باستمرار على ميزان
الحسابات ، وبالتالي على تماسك الجنيه . واحتياجات القطع ضعيفة : فعند
أقل انداز نجد الحكومة نفسها مضطرة لطلب المساعدات الخارجية . وعندئذ
يتكلم عن أفول : ومع ذلك فإن بريطانيا العظمى تخرج دوماً من المشكلة
ناجحة ، والابضاح بسيط أيضاً .

لقد بنت بريطانيا العظمى شهرتها الاقتصادية والمالية أولاً على قدرة
صناعاتها (لقد كانت في القرن التاسع عشر أول مشغل في العالم) ،
ثم على قدرة تجارتها الخارجية التي تعتمد على اسطول يسيطر على المحيطات ،
لأنها تقتصر بشحنات الذهب والاياب ، وأخيراً ، على نظام مصرفي
ليس له أي معادل بسعة وتنوع الخدمات التي يستطيع تقديمها . إن
الليبرالية التي كانت انكلترا أول من تبنتها منذ ١٨٤٤ وآخر من تخلى عنها
في ١٩٣١ - ٣٢ ، حولتها النفوق الصناعي والتجاري ، مع قضية
زراعتها . وكان من الممكن في لندن شراء وبيع أي نوع من البضاعة
آتية من أي بلد وبأي مبلغ من المال .

وفي الصعيد المالي ، حافظت بريطانيا العظمى على بقايا جملة ، بالرغم من عودة الحماية الجمركية التي فرضها الكومنولث ومنطقة الاسترليني منذ ١٩٣٢ ، وبالرغم من المنافسة المتزايدة القوية لرؤوس الأموال الأمريكية والدولار منذ ١٩٤٥ ، وبالرغم من الحسائر المالية التي سببتها الحرب العالمية الثانية . ومن المؤكد ، ان احتياطات القطع (الذهب والدولارات) غير كافية دوماً لتسمح للجنه بأن يمسك بالدور الصعب كثنائي نقد عالمي للاحتياطي ، بعد الدولار . ففي آخر ١٩٦٧ ، لاستئناف المقارنة مع منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين ، كانت هذه الاحتياطات أخفض بما يزيد عن ٥٠٪ من احتياطات فرنسا (٢٥٧ مليار دولار مقابل ٦٤١ مليار) ومساوية تقريباً إلى احتياطات سويسرا (٢٥٨ مليار) ، وأضعف من احتياطات إيطاليا (٤٥٥ مليار) ؛ وقد أرادت الظروف ذلك على هذا النحو ، وأيضاً تقليد يبدو أن بنك انكلترا يمسك به بالرغم مما يدي من أخطار جدية . وبالمقابل ، ان مدينة لندن تملك دوماً كفلاء . ونظامها المصرفي أفضل نظام منظم في العالم ؛ فالشميرات المباشرة المخصصة إلى الخارج بلغت أيضاً مبلغاً مرتفعاً جداً من ٤ إلى ٥ مليارات جنيه ، وإن كان من الصعب تقدير مبلغها بدقة وضبط . والشميرات الخاصة بالخارج في بريطانيا العظمى لا تتجاوز ١٥٤ مليار جنيه ، والديون واعتمادات الحكومة البريطانية الطويلة الاجل تقع تقريباً قليلاً في المستوى نفسه . ولا تريد بريطانيا العظمى أن تتخلى عن هذه التوظيفات الخارجية ، حتى انها تحاول أن تزيد . وهذا الخروج لرؤوس الاموال يثقل ميزان الحسابات ، ولكن الفوائد والدفع تعطي بشكل مستديم تغطيات جوهرية . والكل يسهم في الحفاظ على اشعاعها المالي في العالم .

ولهذا توحى بريطانيا العظمى أيضاً بالثقة إلى دائتها وإلى كل من يحرون عقودهم التجارية بالجنهات الاسترلينية . ولهذا أيضاً ، ليس لأحد مصلحة في سقوط للجنهه يسبب في العالم كله خسائر جوهريه وأحياناً غير قابلة للإصلاح .

والخطر هو أن الهرم يعتمد اليوم على قاعدة اقتصادية ضعيفة جداً . فإذا أرادت بريطانيا العظمى أن تستعيد توازنها وجب عليها السير في الطريق المعاكس للطريق الذي قادها إلى التفوق المالي في القرن التاسع عشر . يجب عليها بناء صناعاتها من جديد لتجعلها أكثر منافسة ، وزيادة صادراتها ، وانعاش زراعتها من جديد لتقلل الضغط الذي تمارسه واردات السلع الغذائية على ميزان التجارة ، وفتح منافذ جديدة لتعوض التي فقدتها في الكومنولث ومنطقة الاسترليني ، التي يدور أعضاؤها في تلك الولايات المتحدة أو الأمم الصناعية الأخرى . وقامت بجهد محمود وإيجابي في الصعيد الزراعي : فزراعتها هي الزراعة التي تحتل نسبياً أضعف نسبة مثوية في عالم الشعب العامل (٤٪) ، إذا استثنينا موناكو ومدينة الفاتيكان ، كما ذكر بسخرية أمين سر وزارة الخارجية المساعد في بداية عام ١٩٦٦ . ولكنها لم تكن بقوة وزادت انتاجها بانتظام ، بفضل مساعدة السلطات العامة الجوهريه (نحو ٢٥٠ مليون جنيه في العام) . وبعض الفروع الصناعية تتحمل المقارنة مع فروع الخارج (البترول ، الصناعة الكيماية ، الملاحه الجوية ، الالكترونيك ، الخ .) ، ولكن التوسع الاقتصادي يصطدم عموماً بعقبات عظيمة : من هيئة أرباب عمل تنقصها الحركية ؛ ونقابات عمال تتعلق بالشكليات وملحاحه كثيرة الطلب ؛ ودولة تبعث دوماً عن التوازن بين القطاع الخاص والقطاع العام .

والانتاجية البريطانية تبقى ضعيفة ، ٢ إلى ٣٪ في العام ، وهذا

ما منع المأجورين من الحصول في ١٩٦٧ على زيادات أكثر من ٨٪ .
وان نقابات العمال المتجمعة حول مركزها (١) (كونغرس اتحاد العمل) ،
الذي يضم ٩ ملايين مشترك ، تدافع بحدة عن حقوقها ، فيما يتعلق
بالأجور ، والضمان الاجتماعي ، والاستخدام الكامل ، ومعاشات التقاعد .
ولا أحد يلومها على هذا الموقف إذا كان شعورها بالمصلحة العامة واضحاً ،
ولا تؤدي مطالباتها رأساً إلى التضخم النقدي . وان هيئة أرباب العمل
تعتبرها ضيقة التفكير أجنبية ، ومتعلقة بالشكليات ، وحيثية التقاليد
البالية . والاحزاب السياسية تطالب باصلاح بنيتها لتتجنب تشكيل دولة
في الدولة . وهي في الواقع مركزية جداً عندما يراد نضال مبدأ .
وتبقى مختلفة جداً عندما يناقش مطالب عملية . والقطاعات المحلية تحرص
على استقلالها . ونقابات الفروع ، التي هي في حالة توسع ، لا تهتم بالقطاعات
التي مازالت متخلفة وغير نامية . وبحسب الرأي العام تجتاحها بورقراطية
تضيع وقت الناس . ويعتبر عمال الخطوط الحديدية أكثر العمال شغياً
وعمال المناجم أكثرهم تعقلاً وحكمة .

وليس لبريطانيا العظمى مذهب اقتصادي واجتماعي معين ومعرف
« بصورة مسبقة » كالولايات المتحدة وألمانيا الاتحادية . إن عمل الدولة
يتعلق بالحزب الذي يحصل على الاكثريه في مجلس العموم . ويبقى
حزب المحافظين وفياً للمشروع الحر ؛ ومشجعاً لزيادة الانتاجية ، وتخفيض
الضرائب المباشرة ، ومنح ميثاق يكفل للعمال ضمان الاستخدام ، وتحسين
شروط الحياة ، والترقية بالاستحقاق وحتى المشاركة في الارباح . والحزب
العمالي يحلم بديموقراطية صناعية مؤسسة على تأميم الصناعات الأساسية ،

- ٢٠٣ -

واستملاك الاراضي وبلدتها ، وتدخل السلطات العامة في جميع النشاطات لتحريك التوسع والاستخدام الكامل ، وارتفاع الاجور بانتظام ، دون افساد استقرار النقد ، الخ .

وظلت صناعة الحديد حتى هذا اليوم الضحية الأساسية لسياسة وقف وانطلاق ، حسب نتائج الاستشارات الانتخابية . ويبدو على الأقل أن الكل متفقون على تدخل مدعوم ونافذ من قبل الدولة ، بغية اعطاء الاقتصاد البريطاني الدفع الذي ينقذه . وقد سمى المحافظون في ١٩٦٢ مجلس التنمية الاقتصادية القومية ^(١) لتحريك سياسة التوسع . وأنشأ حزب العمال وزارة الاقتصاد القومي لتطبيق خطة طويلة الأجل (١٩٦٤ - ١٩٧٠) حسب الطريقة الفرنسية . وتوقعت هذه الخطة وثيرة توسع اقتصادي ب ٤٪ تقريباً في العام ، وفائض ٢٥ مليون جنيه في ميزان التجارة ، و ٢٥٠ مليون جنيه في ميزان الحسابات في ١٩٧٠ ، وأنشاء مليونين استخدام جديد ، وزيادة الانتاج القومي الخام الذي انتقل من ٣٢٨ مليار جنيه ١٩٦٤ إلى ٤١ مليار في ١٩٧٠ .

وعندما وصل العماليون إلى السلطة ، في خريف ١٩٦٤ ، كانت الحالة المالية خطيرة : كان عجز الميزان التجاري في ١٩٦٤ يتجاوز ٥٦٠ مليون جنيه ، وعجز ميزان الحسابات ٧٥٠ مليون . وبفضل المساعدة الخارجية (من الولايات المتحدة ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، فرنسا ، إيطاليا ، وبنك النقد الدولي ، الخ .) ، التي وضعت ٤ مليارات دولار تحت تصرف بريطانيا العظمى ، تغلبت الحكومة العالمية مؤقتاً على الازمة المالية بالطرق الكلاسيكية في التعشيف . ولكن المساعدة الخارجية ، عند

قول الاقتصادي الأمريكي الشهير ، دوبرت تريفين^(٢) ، ليست إلا مبدئاً ، وسياسة التشفيف ليست إلا مخرجاً . وكان على الشعب الانكليزي أن يختار بين تدخل سلطة الدولة وتوجيهها (ايتاليسم) والحرية ، واتبعين سياسة مختلفة عن الماضي بعد أن انهارت قواعده التقليدية ، لأن الكومنولث ومنطقة الاسترليني تترنحان . وثقلت بريطانيا العظمى من قبل اندازات جديدة : فمنذ ١٩٥٨ ، لم تكن لتشغل إلا المكان الثالث في العالم في التجارة العالمية ، والمكان الخامس بين الأمم الصناعية ، بعد الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، وجمهورية المانيا الاتحادية ، واليابان ، واضطرت للمرة الثالثة أن تخفض قيمة الجنيه بـ ١٥٪ في تشرين الثاني ١٩٦٧ .

إن بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تصعد المنحدر ثانية إلا ببسط تجارتها الخارجية . وقد حاولت ، في ١٩٥٨ ، أن تجد التوازن بين الكومنولث ، الذي يتمتع بجمانية جمركية لبضائعه عند دخولها إلى الوطن الأم ، وبلاد أوربة القارية ، التي قدمت لها ميدان عمل رجباً ، من أجل صادراتها ، ولكن سنة من بينها ، لم تكن قليلة الشأن ، أنشأت السوق المشتركة ومهرته بتعرفة خارجية واحدة . وفي ١٩٥٨ ، حاولت بريطانيا العظمى أن تدور حول العقبة ، واقتوتحت أن ينشأ في قلب منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية O.C.D.E. منطقة مبادلة حرة واسعة ، فعارضت فرنسا برفضها . وعندما يئست المملكة المتحدة من القضية ، وقعت في ١٩٥٩ ، في ستوكهولم ، مع ست أمم أوربية أخرى ، ميثاق الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة A.E.L.E. ، دون أن

- ٢٠٥ -

تقطع علاقاتها من أجل ذلك مع السوق المشتركة ؛ وحاولت في ١٩٦١ ، أن تقبل في داخل هذه السوق شريطة ألا يغير هذا الدخول في شيء علاقاتها مع الكومنولث . وللمرة الثانية أيضاً ، رفضت فرنسا في ١٩٦٣ ، ولم تأس بريطانيا العظمى لذلك . ولما كان ثلث صادراتها على الأقل يذهب نحو بلاد الوحدة الاقتصادية الأوروبية C.E.E. وبلاد الرابطة الأوروبية للمبادلة الحرة ، فقد ألقت بفكرة تقارب وثيق بين أوربه الست وأوربه السبع ، على أمل أن تكون المستفيد الاسمي من العملية وتفرض مدينة لندن كمرکز مالي لاوربه المبادلة الحرة هذه . ثم كرر هارولد ولسون ، الوزير الأول ، طلبه للقبول في السوق المشتركة . واعتمدت بريطانيا العظمى ، في هذه المرة ، على أن لا تقيم فرنسا عبثاً في سبيلها ، لأن باريس ، مثل لندن ، ترفض كل فكرة فوقية . وهذا وهم ، ولكن في الواقع ، أن اجمل احترام قدمته السوق المشتركة لبريطانيا العظمى هو الاعتراف بأن دخولها في الوحدة الاقتصادية الأوروبية سيقلب المعطيات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية وستدخل السوق المشتركة في بداية العام ١٩٧٣

فرنسا

تحتل فرنسا مكاناً خاصاً في الاقتصاد الدولي . ففي اوربه الغربية ، تحتل الصف الاول في امتداد أرضها (٥٥١٠٠٠ كم^٢) ؛ وتربتها غنية ، ومناخها متنوع ، وموقعها الجغرافي استثنائي .. ولكن تحت - تربتها فقير بالمواد الاولية الطاقية ، وفلذها الحديدي آخذ بالتفاد ، ونسبة الحديد فيه ضعيفة ، وكثافتها الديموغرافية (٥٠ مليون نسمة ، أي بمعدل ٨٨ نسمة في الكيلومتر المربع) أدنى جداً من كثافة البلاد المنخفضة وبلجيكا وجمهورية المانيا الاتحادية ، وإيطاليا أو بريطانيا العظمى . وهذا

يوضح ، في جزء على الأقل ، سلوك الفرنسي أمام القضايا الاقتصادية والاجتماعية أو النقدية .

والفرنسي ، بحسب موهبته واستعداداته ، ليس صاحب مصرف ، أو تاجراً ، أو صناعياً ، بل هو صاحب أطياف ، وقد انقاد للفتوحات الاستعمارية ؛ ولم يبحث عنها . وهو يعلم أو يعتقد بأنه يستطيع العيش برفاهية على أرض ميلاده ، فلماذا يذهب ويفرض على ذاته تضحيات بنفسه نفسه نحو قارات مغايرة أو معادية ؟ ان نخبة الشباب الانكليزي تعتبر منذ عهد قريب بأنها تتسربل بالعار إذا لم تنجب نواحي الامبراطورية ؛ والشباب الالماني يتعلم طوعاً اللغات الاجنبية ليذهب ويفتح المنافذ الخارجية ؛ أما الشاب الفرنسي فيجرب أولاً حظه في الوطن الأم .

والاقتصاد في خيال فرنسا ؛ فهي زراعية ، ثم صناعية ، ثم تجارة . وتبقى في حالة توازن بين هذه النشاطات المنتجة المختلفة ، وهذا يخفف من الازمات ويشجع على النهوض السريع . ففي فرنسا ، لا يتكلم مطلقاً عن معجزة اقتصادية ، لأن التوسع يتقدم على أفضل وجه ، وبقدرة تجديد مذهشة ، بعد تقهقر أو أزمة سياسية ، بفضل قيمة فنيها ، وبدها العاملة ، وتصور باحثها ، وارادتها في الغلاب إذا كانت العزة القومية داخلية في القضية . وعندما كانت القضية تأسيس السوق المشتركة للدول الست ، في ١٩٥٥ ، قال خصوم الوحدة الاقتصادية الاوربية : إن فرنسا لا تستطيع أن تتحمل منافسة المانيا الصناعية ، وان بنياتها ضعيفة جداً ؛ وحر كيتها غير كافية . وفكر الالمان ، دون أن يقولوا كثيراً ، أن من الصعب عليهم التفاهم مع صناع وأصحاب دكاكين ، وبرهنت النتيجة على أن الاقتصاد الفرنسي انسحب بدقة ومهارة من القضية ، واضطر

الامان أنفسهم إلى الاعتراف بأن التقنية الفرنسية في كثير من المواطن كانت على الأقل مساوية لتقنياتهم بالرغم من أن كونتسرناتهم تنصرف بوسائل اقتصادية ومالية أعلى من وسائل المشاريع الفرنسية .

ويؤكد الاحصاء الدولي تقريباً دوماً بأن فرنسا تتجنب الحدود المتطرفة لتضع نفسها في وسطي مشرف جداً في جميع الميادين تقريباً ، وهذا يسمح لها بالقبض غالباً في الفضاءا الدولية على دور الحكم والنظام ، والمسيطر . فلا عجب اذن من أن الفرنسيين لا تسهمهم كالامريكيين والانكليز والامان واليابانيين القضايا الاقتصادية أو النقدية ، لأن نوالي الركود والازدهار ، لم يسبب في زمن السلام نكبات ويهدد أسس ازدهارها ورفاهها ، كما في البلاد المجاورة الاخرى ، لدى أقل الاخطاء السياسية الثقيلة جداً ، كما كانت الحالة بعد الازمة العالمية في عام ١٩٢٩ . وإذا ردت ملايين الفرنسيين ، كما في المانيا ، بالتضخم النقدي إلى حالة البؤس ، لكانت أكثر حساسية بكثير بارتفاع الاسعار، وإذا اعتقدوا أن عملهم يتعلق فقط بقوة تقدم أو ضخامة منافذهم الخارجية ، كالبريطانيين ، أقاموا سدوداً قوية ضد هبوط قيمة النقد أو ناضلوا بكثير من الحماسة في سبيل التجارة الخارجية .

الفرنسي فردي ، لأنه يجب أن يحكم في جميع القضايا ، وأن يفهم شخصياً معطيائها ، ويقدر الحلول التي تقترح عليه ، ويحكم مباشرة على النتائج ، ولكنه لا ينتقد بانتظام تدخل الدولة . وإذا أخذ انطباعاً في أن الدولة تخدم مصالحها الخاصة ، دعمها ؛ وبالمقابل ، إذا أرادت الدولة أن تفرض عليه التزامات يرى بأنها ضارة له ، ثار ، ولا تفوته الفرصة في اظهار استيائه . وإذا أوحى اليه وزير المالية (بوانكاريه ، بينية مثلاً)

بالثقة ، قبل بأن يقرضه كل وفرة ، وإذا أعدت الحكومة ضريبة على رأس المال أو هددت ماله ، كنز المال بالحال وانتظر . وإن « جدار المال » ، الذي اصطدمت به حكومة اليسار ، لا يؤلف في الواقع إلا كثرة من صغار الموفرين الذين يخافون .

ولذا فمن الصعب جداً التحديد بضبط حواشي الاقتصاد المختلط كما يعمل في فرنسا . والمشروع الخاص فيها يسيطر ، ولكنه يتواءم مع الصناعات المؤممة التي كانت الدولة تمارس عليها رقابة شديدة جداً عندما كانت خاصة . ومع ذلك ، فقد غيرت فرنسا بشكل عميق ، منذ بضع سنوات سلوكها وطرق تفكيرها وعملها .

لقد جربت أولاً أن تنظم اقتصادها وأن تضع نوعاً ما نظاماً بين القطاع العام ، والقطاع الخاص ، وأبواب العمل ، والملاكات (الكادرات) والعمال والدولة بالتخطيط المرن . وهذه عبارة أصيلة تحاول ، منذ ١٩٤٦ - ٤٧ ، أن نوحى ، وأن تنور ، وأن تقنع أكثر من أن تفرض توجيهات صلبة . وقد أعطت الخطط الأربع الأولى (١٩٤٧ - ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ - ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ - ١٩٦١ مع خطة وسيطة ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، ١٩٦٢ - ١٩٦٥ ، نتائج قاطعة ومقنعة ، وحضت على متابعة شبيهة اجماعية في فرنسا ، وحضت على تقليدات أمينة كثيراً أو قليلاً في بريطانيا العظمى ، وبلجيكا ، والبلاد المنخفضة وإيطاليا ، النخ . ودخلت الحطة الخامسة في حيز التنفيذ في عام ١٩٦٦ ؛ وفيها وسعت الحكومة بصورة محسوسة أهدافها وذلك بأن عهدت إليها بعمل دقيق بتوزيع الدخل بشكل أفضل ، وفي ذلك ما يخاطر بالمعارضة أكثر من الاتحاد . وفي هذه الفرضية ، يجب بالفعل أن يؤخذ من البعض ما يعطى للآخرين ، على

حين أن المهمة الأساسية للتخطيط حتى الآن كانت تحريك التوسع الاقتصادي الذي يهتم به كل الناس .

لقد أشعر ضياع الامبراطورية الاستعمارية ، الذي تم بين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، باستقلال افريقية السوداء ، وبدء تنفيذ السوق المشتركة فرنسا بأنه من غير الممكن أن تنطوي على صعيدها بعد أن ضاعت منافذ ما وراء البحار أو تعرضت للخطر وفسدت ؛ وأن الرفيقات الخمس في الوحدة الاقتصادية الأوروبية C. E. E. سيكون لها طريق حر على أسواقها ؛ ولذا لا مندوحة عن الاستعداد للنضال ، وبالتالي التنظيم . وهذا ما حاولت أن تفعله . ومنذ قيام الجمهورية الخامسة ، بحثت عن وضع لعدم الاستقرار النقدي . وأعطت خططها في الاستقرار ، التي طبقت في ايلول ١٩٦٣ ، بعض نتائج ظاهرة بالتنظيم التسلسلي لأسعار البيع دون أن تخفف الاعباء التي تثقل أسعار الكلفة .

ووضعت الأزمة الاجتماعية ، في أبار - حزيرات ، كل شيء على بساط البحث من جديد بارتفاع الأجور (١٥٪ وسطياً) وما طابقها من زيادة في الاعباء العامة والخاصة .

وعرفت فرنسا منذ ١٩٥٠ توسعاً اقتصادياً تساوي وتيرة تقريباً وتيرة الدول الأوروبية الأخرى ، وأعلى من وتيرة الانغلو - ساكسون ؛ ولكن الحرب الاستعمارية التي اضطرت فرنسا لدعمها حتى وصول الجنرال دوغول إلى السلطة ، وحتى اتفاقات إيفيان في ١٩٦٢ ، أفسدت بشكل رصين توازن اموالها الخارجية والداخلية . فمن ١٩٥٢ إلى ١٩٥٥ كان ميزان الحسابات فائضاً . وفي ١٩٥٦ ، ارتفعت خسائر القطع إلى ٧٥٠ مليون قضايا عصرنا (١٤)

دولار وإلى ١٣٧٠ مليون في ١٩٥٧ . ونقّدت الاحتياطات عملياً . ولم يرجع الفرنسيون الأموال إلى الوطن بالقطع النادر ، ولم يثق الخارج بالفرنك . وبفضل المساعدة الخارجية التي قدمتها المصارف الأمريكية والأوربية بسرعة ، وصندوق النقد الدولي F.M.I. ، الخ ، وبتخفيض النقد بنحو ٢٠٪ ، وعودة الثقة ، سقط هجز ميزان الحسابات إلى ١٠٠ مليون دولار في ١٩٥٨ وتحول إلى فائض ١١٥٤ مليون في السنة التالية . ومنذ ١٩٦٠ ، زاد مستوى حياة الفرنسيين بانتظام نحو ٥٪ حسب الإحصائيات الرسمية . وبلغ الانتاج القومي الخام ٥٠٠ مليار فرنك في ١٩٦٧ ، مقابل ٩٠ مليار في ١٩٥٠ ؛ ولم توازن التجارة الخارجية الواردات (٦١٢٣ مليار في ١٩٦٧) والصادرات (٥٦٢٣ مليار) ، وأبدى ميزان الحسابات في ١٩٦٧ فائض ٥٥٥ مليار . وفرنسا ، بحسب رأس كل ساكن ، هي البلد الذي يبذل جهداً كبيراً لصالح البلاد السائرة في طريق التنمية (١٥٤ مليار دولار في ١٩٦٤) ؛ واحتياطياتها من القطع ترقم بما يزيد على ٣٠ مليار فرنك، وكلها تقريباً محسوبة ذهباً (٥٠٠٠ طن) أثناء أزمة أيار ١٩٦٨ .

واليوم تجابه فرنسا بالمنافسة الدولية ولا يمكنها التخلص منها لتزدهر . والنجاحات التي حصلت عليها لا يمكن أن تخفي ضعف بنيانها ٪ : إن زراعتها التي تشغل ١٩٪ من الشعب العامل ، مازالت مجزأة كثيراً . ومشاريعها الصناعية ضعيفة الأبعاد كثيراً جداً . وينقصها في الغالب روح المبادرة ، ولا تجرأ مصاريفها على تحمل الاخطار التي تقع عادة عليها . إن مسؤوليات القرار والتنفيذ خاصة بإدارة متكاثرة الفروع أكثر مما هي خاصة بثلي الشعب . والحركة النقابية فيها ليست وحدوية كما هي في بريطانيا العظمى ، وفي ألمانيا . والمراكز العمالية الثلاثة :

الاتحاد العام للعمل ، والاتحاد الفرنسي الديموقراطي للعمل، وفرنسا
 العالية تجمع على الأساس عندما يجب انتزاع ارتفاع اجور وفوائد اجتماعية
 أخرى من الدولة أو من القطاع الخاص . ولكن الاتحاد الفرنسي
 الديموقراطي للعمل وفرنسا العالية لا يرغبان بالاختلاط ، أو الوحدة ،
 كما يقترح عليهما الاتحاد العام للعمل دورياً . ولا يرجو أحد هذه الثلاثة
 قيام حكم الاصناف المهنية ، أو يمدح المشاركة في التسيير كما في المانيا .
 وهي تحرص على تأكيد استقلالها حيال الأحزاب السياسية - حتى الاتحاد
 العام للعمل الذي يعرف بتعاطفه مع الحزب الشيوعي . وتحذر الدولة
 وما تسميه « تكنوقراطيتها » (فنيها) الذين يمارسون سلطتهم بناء على
 دراساتهم النظرية في الميكانيكيات الاقتصادية دونما نظر كافٍ إلى العوامل
 البشرية . وقد حافظ موجهوها على صفات العاطفية التي نشطت رواد القرن
 التاسع عشر . ويضمون بين صفوفهم قليلاً من الاقتصاديين المختصين ، على
 خلاف النقابات الامريكية والالمانية . ويتمون بالتوزيع العادل للثروات
 المكتسبة أكثر بكثير من شروط الانتاج التي يتوكون الاهتمام بها إلى
 القطاع الخاص أو إلى الدولة .

وربما عرفت فرنسا منذ أن فقدت امبراطوريتها أكثر من بريطانيا
 العظمى الطريق الذي يجب أن تسلكه لتنمية اقتصادها ، وهذا يعني
 تنظيم أوربه وفتح المنافذ الخارجية بالاتحاد . ولكنها مازالت مترددة ،
 كبريطانيا العظمى ، على اختيار سياسة ، على الصفات العائدة للقطاع
 الخاص والعام . وحسب مزاج الحكومة أو حكم الانتخابات العامة ،
 تعطي التفضيل لاحدهما أو للآخر ، دون أن تدرك بأن هذا هو أفضل
 وسيلة لتنشيط نشاط كل منها . وفرنسا ، كبريطانيا العظمى ، ترفض بأن
 تقبل بأن الاقتصاد هو السبب الأكبر للعيش والأمل .

سراء الصين الشيوعية وضراؤها

بسمع في الغالب ما يقال في الغرب ان الصعوبات السياسية ، التي تفصل جمهورية الصين الشعبية والاتحاد السوفياتي ، وكلاهما ماركسيان - لينينيتان ، تتأتى بشكل أساسي عن الفاصل بين تطورهما الاقتصادي والاجتماعي . فقد تأخرت الصين تاريخياً بثلاثين عاماً عن الاتحاد السوفياتي ، وتحكم على الأمور كما كان السوفياتيون يحكمون عليها أيضاً في زمن شيوعية الحرب ، والسياسة الاقتصادية الجديدة (النيب = N.E.P) ، أو حتى خطة ستالين الخمسية الاولى ، بينما تجاوز الاتحاد السوفياتي مرحلة الثورة الكادحة ليستقر في نظام أكثر تطوراً ، وأكثر وعياً لمسؤولياته الدولية ، بعد أن أنضجته التجارب التي تعنه على المرونة والصبر حيال الرأي العام الخاص به وبالعالم الخارجي . ومنذ تشرين الاول ١٩٤٩ ، الذي يسجل قيام نظام ماوتسه - تونغ ، مر التاريخ الاقتصادي للصين الشعبية بأربع مراحل متميزة :

١ - في المرحلة الاولى التي تذهب من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٧ ، نسخت الصين حرفياً طرق الاتحاد السوفياتي . وظهرت نفسها كتابع أو تلميذ لموسكو .

وفي ١٩٥٣ ، ألقت خططها الخمسية الاولى (١٩٥٣ - ١٩٥٧) المخصصة لاقامة « أساس تصنيع البلاد والدفاع الوطني الحديث » . واعتمدت على قوتها الديموغرافية (٧٠٠ مليون نسمة) واحتياجاتها بالمواد الأولية التي تقدرها بسخاء بـ ٢٠.٠٠٠ مليار طن من الفحم ، ١٠ مليارات طن من فلز الحديد ، ٢ إلى ٣ مليار طن من البترول ، ٢٠ مليون طن من المانغانيز ، أكثر من مليوني طن من التانغستين ، الخ . موزعة على الـ ١٠ ملايين كيلومتر مربع التي تغطيها أرضها .

وبالرغم من المساعدة الفنية والمالية من الاتحاد السوفياتي ، فان نتائج الخطة الخمسية الاولى لم تطابق الآمال : ركزت الزراعة ؛ وبقي « فلاحو الاربعين قرناً » متعلقين بشدة بقطعة الارض التي أعطاهم إياها الاصلاح الزراعي الصادر في ٢٨ حزيران ١٩٥٠ ، وبينياتهم العائلية ، وحتى بطرقهم الزراعية القديمة في الغالب ، لعدم وجود الاسمدة والآلات ودوروس الاموال ؛ ولم يقبلوا إلا مع الحذر والتردد والمقاومة الرقابة الاشتراكية لتعاونيات الانتاج . ولم تسر الصناعة والتجارة بأفضل من الزراعة . والتشويرات ضعيفة . والملاكات غير موجودة . ووسائل النقل غير الكافية تؤمن بشكل سيء الارتباطات الضرورية بين أقاليم واسعة ومختلفة . وعند الصين من الخطوط الحديدية ما يقارب ٢٥٠٠٠ كم ومن الطرق المعبدة ١١٢٠٠٠ كم ، بينما نجد في فرنسا ١٠٠٠ طول الخطوط الحديدية ٤١٠٠٠ كم ، وطول الطرق المعبدة ٧٢٠٠٠ كم .

٢ - في ١٩٥٧ ، استعدت الصين لطرح خططها الخمسية الثانية (١٩٥٨ - ١٩٦٢) . وكانت هذه بداية المرحلة الثانية . وكانت هذه الخطة تستلهم دوماً من الطرق السوفياتية . وتعطي الاولوية أيضاً إلى الصناعات الثقيلة : فقد صعد استخراج الفحم من ١٢٠ مليون طن في ١٩٥٧ ، إلى ٢٣٠ مليون طن في ١٩٦٢ ؛ وانتاج الفولاذ من ٣٥٠ مليون طن إلى ١٢ مليون ؛ وفي الوقت نفسه يجب أن تنتقل المحاصيل من ١٥٤ مليون طن إلى ٢٤٠ مليون . ولكن الحماسة كانت مفقودة . وفجأة استأنفت بكين علناً وبشكل مفتوح حريتها حيال الاتحاد السوفياتي ، ربما لأن هذا الاخير رفض زيادة مساعدته وحتى الابقاء عليها في مستوى السنوات السابقة ، وأعلنت أن الصين تواجه المرحلة الثانية من ثورتها : « القفزة إلى أمام ، وتنظيم القومونات الشعبية . و « القفزة إلى أمام ،

- ٢١٤ -

نفترض أن الصين تسير على ساقها : الزراعة والصناعة ، كما قال ماوتسه -
توئع في آب ١٩٥٧ . ولا تعتقد الصين أن الطريق الوحيد للتقدم ينطلق
من التصنيع الكثيف والسريع للبلاد ، كما فعل ستالين في ١٩٢٨ . فهي
لا تريد أن تضحي الزراعة في سبيل الصناعة ، بل يجب أن تسير الصناعة
والزراعة معاً . وتوطد التواقت في داخل القومون الشعبية . وأصبحت القومون
الشعبية ، د حيث وضع كل شيء بالمشاركة بغية تدمير كل أثر للملكية
الخاصة ، ، د الوحدة الأساسية لسلطة الدولة الاشتراكية ، ؛
وهي تشمل كل النشاطات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والعائلية والسياسية
والادارية ، وتخطط على المقياس المحلي الانتاج الزراعي والصناعي ،
والمبادلات ، والتوزيع والتشعيرات . وفي الحقيقة ، إن النظرية مطابقة
تماماً لتوصيات لينين الذي يحذ القومون أكثر من المشروع لاقامة الخلايا
الاساسية .

ومن الوجهة العملية ، لم تعط القفزة إلى أمام النتائج المرجحة .
ورأت الصين أن تزيد انتاجها الصناعي ب ٦٥٪ في العام بحملة الفولاذ
الشعبي ، التي جندت ٦٠ مليون عامل . وشادت كل قومون أفراناً عالية
ولكن نقص الكفاءة الفنية وضعف الوسائل الموضوعية تحت تصرف
العمال ، والجزع (عدم الصبر) ، الذي تحمل به الشعب نظام القومونات
الشعبية الشديد جداً ، أدت إلى اخفاق حاد . ولذا يجب فك الأفران
العالية على عجل واعتبار ٣ مليون طن من الحديد الصلب دون قيمة .
ولزيادة المصيبة كانت محاصيل الأرياف في ١٩٥٩ - ٦٠ - ٦١ في حالة
عجز واضح بسبب الفيضانات والجفاف . ومع ذلك فقد أوقبت التجربة ثمارها :
فقد تحمل النظام الصدمة ؛ ووجد الجذب ولكن دون سحابة . ولم تنم
الصناعة حسب الوتيرة المؤملة ، ولكن البلاد مهتت بشبكة كهربائية

كثيفة نسبياً ، وعلى الأقل في المناطق الكثيفة السكان . وقبلت الحكومة المركزية ، بالمقابل ، بأن يحصل على مزيد من المزارعين وأن يترك لهم بعض الحرية في العمل وفي الحياة العائلية . وعاشت القومونات ، وفي ١٩٦٢ - ٦٣ - ٦٤ سجلت وفرة نسبية . وانتهت « الفترة الدرامية » في ١٩٦٤ .

٣ - وبعد صمت طويل ، قابلت الصين المرحلة الثالثة . وبدأت ، في آخر ١٩٦٥ ، بتطبيق خطة خمسية جديدة (١٩٦٦ - ١٩٧٠) ؛ وألغت هذه الخطة على التصنيع (الكيمياء ، النقل ، الطاقة ، المنسوجات) دون إهمال البنيات الزراعية . ولم ترق الحكومة ، لفطنة منها ، الأهداف التي يجب بلوغها ؛ ولذا لا يعلم على وجه الدقة الاقتصاد الصيني في بداية ١٩٦٦ وبحسب المعلومات الرسمية أو تعميمات الخبراء الغربيين ، بلغت وتيرة التوسع الصناعي ٥ إلى ٨ ٪ في ١٩٦٤ ، و ١١ ٪ في ١٩٦٥ ؛ وصعد انتاج الفحم إلى ٢٢٠ مليون طن ، وانتاج الفولاذ إلى ٩ مليون طن ، وانتاج الكهرباء إلى ٣٢ مليار كيلو وات ساعي في ١٩٦٥ . وارتفعت المحاصيل في ١٩٦٤ إلى ٢٢٠ مليون طن ، وتحسنت في ١٩٦٥ .

ووجد الاقتصاد الصيني في ذلك العصر أيضاً في نزاع مع صعوبات جديدة : لأن الزراعة تتعلق بشكل وثيق بطبيش الطبيعة ، ولا تستطيع الصين أن تحقق اللحمة في المحصول إلا بفضل واردات سنوية من ٥ إلى ٦ مليون طن من الحبوب تأتيها من الغرب أو من أستراليا . وفي ١٩٦٢ ، كانت ترى أن تلحق ، وحتى تتجاوز ، بريطانيا العظمى في الانتاج الصناعي ، ولكنها ما زالت بعيدة عن ذلك . وانتاجها القومي الخام ينمو بانتظام : وقد انتقل من ٢٠ مليار دولار في ١٩٥٠ إلى ٥٠ - ٦٠ مليار في ١٩٦٧ ، وهذا ضعيف جداً بالنسبة لبلد مأهول كالصين . وثلاثا

مزارعيها تقريباً مصنفاً في فئة « الفلاحون الفقراء » ، وهذا يعني بأنه لا يوجد عند الفلاحين ، للعبش ، إلا ما تعطيهم قطعة الارض النعيلة التي يتصرفون بها ، وللعمل ، إلا وسائل عصر آخر .

واستنجدت الصين ، لتعجيل تنميتها الصناعية ، بالبلاد الرأسمالية ؛ وبجئت عندها عن معامل كاملة . وفي ١٩٦٥ ، رقت تجارتها الخارجية ٣٥٥ مليار دولار كان ثلثها مع البلاد غير الشيوعية . وتكاد تساوي هذه التجارة تجارة سويسرا . وليست أعلى إلا بقليل من تجارة ميناء هونغ كونغ (٢٥٥ مليار دولار) . ومستوى الحياة في الصين الشعبية أدنى بوضوح في وسطه من المستوى الذي تتمتع به البلاد الحرة ، مثل فورموزة أو هونغ كونغ (٥٨٠ دولار في العام لكل رأس ساكن) ، وهذا لا يشجع الدعاية الشيوعية في الشرق الاقصى .

٤ - وعندئذ واجهت الصين الشيوعية المرحلة الرابعة من تاريخها ، وربما كانت أصعب مرحلة : وهي مرحلة الثورة الثقافية . ولا يمكن معرفة نتائجها ، لأنها لم تنته : وقبل أن تبدأ ، جرت العادة في الصين ألا تنشر احصائيات رسمية ، وأن تترك الأمور تتكلم عن نفسها . ومن المبادئ الأساسية للثورة الثقافية أن الاقتصاد خادِم متواضع للسياسة ، ولذا ، لئلا نأخذ إلا مثلاً واحداً ، فان الاجور تتعين حسب القناعات العقائدية للعامل ، قبل أن تؤخذ بعين الاعتبار قدراته المسكينة .

لقد غيرت الثورة الثقافية شروط العمل في الارض وفي المعمل وأشركت بجد شبكة طرق المواصلات وكانت قليلة الامتداد .

وتختلف تقديرات المحاصيل والانتاجات الصناعية حسب المصادر . ففي سنة ١٩٦٧ ، لم يتجاوز انتاج الجيوب ١٧٥ مليون طن . وصعدت

واردات الجبوب في ١٩٦٧ إلى أكثر من ٥ ملايين طن . وتختلف الإحصاءات بالنسبة للفولاذ بين ١٢٥٥ و ٢٥ مليون طن ، والفحم بين ٢٤٠ و ٣٠٨ مليون طن ، والبتروك بين ٨ و ١٢ مليون طن . والدخل بالنسبة لرأس الساكن ٩٠ دولار في العام .

ولذا لا يمكن الاعتماد إلا على افتراضات أو على تعميمات لا تسمع بإعطاء حكم على عمل ماو . واليقين الوحيد بالنسبة للمستقبل هو أن الصين خزان كبير للمواد الأولية واليد العاملة . والشعب ذكي ، شغال ، ويتكيف دون جهد مع التقنيات الحديثة . والنقدم الذي قامت به الصين على الصعيد النووي يقدم الدليل على ذلك . إلا أن هناك نقطة سوداء على الصعيد الاقتصادي : وهي كيف الوصول إلى تغذية هذه الكتلة البشرية بشكل ملائم مع العلم أن نسبة الولادة فيها مرتفعة إلى الحد الأقصى . كما وأن هناك نقطة سوداء سياسية : كيف ينظم شعب بساق دوماً وباستمرار إلى الثورة ، أي إلى التغيير ، وليس عنده طبقة وسطى لتفيد كمسير . وشرط النجاح الاقتصادي ، قبل كل شيء ، الاستقرار السياسي .

إن مذهب ماو يدور في حلقة مفرغة .

قيام العالم الثالث والنضال الرولي

إن آخر جزء في المجموعة هو العالم الثالث . والتعبير حديث ، ولقد ولد بمناسبة مؤتمر باندونغ ، في نيسان ١٩٥٥ . ولأول مرة في التاريخ يجتمع ٢٩ بلداً آسيوياً وإفريقيات ، والآسيويون يسيطرون بعدددهم بشكل واسع جداً ، لتؤكد أمام الدول الغربية والكتلة الشيوعية بأنها منذ الآن سادة مصيرها ، وإنما تريد أن تنظم معاً اقتصادها ، ولكن دون أن تبعد

مساعدة الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى ، والاتحاد السوفياتي أو الصين الشيوعية ، وانها تطبق حيال الجميع ، حسب تعبير البانديت نهرو ، سياسة « الحياض الایمچاي » . ثم ان بلاداً أخرى من آسيا وافريقية المنحدرتين من الاستعمار ، وبلاد امريكا اللاتينية وحتى بعض البلاد الأوربية جاءت تضخم كتائب العالم الثالث الذي يضم اليوم ٧٥ إلى ٨٠ أمة تتصف جميعها تقريباً بصفات واحدة وتعيش في الغالب من ثمره الزراعة أو استخراج بعض المواد الأولية الصناعية . والاكثوبة فيها تتعاطى بشكل فردي أو مايقارب ذلك الزراعة ؛ ولا تتصرف باحتياطات نقدية ؛ وتؤمن منافذها الخارجية أكبر قسط من وارداتها ، ولكن لما كانت هذه الأخيرة تأتي عن منافسة ثلثي بيوع المواد الأولية على الأقل ، لذا كانت متغيرة للحد الأقصى . ان ٦٠ إلى ٨٠٪ من الشعب أمي غير متعلم لا يعرف القراءة والكتابة . والبنيات السياسية والادارية غير مستقرة . والدخول بحسب الرأس وفي العام ضعيفة للغاية (٢٠٠ إلى ٣٠٠ دولار) . وفي البدء كان يقال عنها ، مع شيء من الاحتقار ، بأنها بلاد متخلفة غير قادرة بوسائلها الخاصة على الخروج من بؤسها ، مهما كان النظام السائد فيها رأسمالياً أو شيوعياً .

ثم أصبحت ، نحو ١٩٦٢ ، « بلاداً في طريق النمو » . ماذا جرى؟ هل المراد تغيير بسيط في التسمية ؟ لا على وجه الصحة . ان معاملتها بـ « متخلفة » أوجدت عندها عقدة نقص ، وشكت منها إلى السلطات الدولية .

وأجيب طلبها بنوع من اتفاق ضمني : ولكن هذا التغيير في الاسم يتفق أيضاً مع تغيير في الواقع . وقد حيت الدول الكبرى بشكل ملائم قيام العالم الثالث . وقررت أن تمدد بالمعونة الاقتصادية والفنية والمالية

أو القدية . وشدت « الأوطان الأم » مع المستعمرات القدية أو اصر ظهرت في المضار الاقتصادي بمخاضة مستحيلة الحل وإلا فإن هذه البلاد التي أصبحت مستقلة ، تنهار في القوضى . واستمرت في مساعدتها بشكل أو بآخر ، وإلى جانب هذه المساعدة الثنائية وفي أكثريتها عامة ، أي من دولة إلى دولة ، نظمت أو عززت قليلاً قليلاً مساعدة متعددة الجوانب بوساطة الهيئات الدولية التي رأت بهذا الواقع تزايد أعمالها ومسؤولياتها بشكل عظيم .

وعاد الأمل إلى معسكر العالم الثالث بعد هذا الدعم الدولي من الدول الرأسمالية أو الدول الشيوعية ، واستحق أعضاء الوصف الأكثر تفاؤلاً وهو : « البلاد السائرة في طريق التنمية » .

إلى أي درجة يندفع هذا العون المباشر بأشكاله المختلفة ؟ ان لجنة معونة التنمية (C.A.D.) ، التي تعمل في داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين (O.C.D.E.) تعطي معلومات دقيقة عن العمل الذي تقوم به الدول الكبرى في الغرب مع اليابان ؛ والمبلغ السنوي للمساعدة التي تقدمها هذه الدول يتراوح بين ٨ و ١١ مليار دولار في العام ؛ ولكن هذه المساعدة تبدي صفات مميزة خاصة : فهي في ثلثها تقريباً مساعدة عامة وثنائية وتمنح بصورة أساسية تحت شكل منح . وتقوم أربعة دول (الولايات المتحدة ، فرنسا ، بريطانيا العظمى ، جمهورية ألمانيا الاتحادية) بالقسط الأكبر من الجهد المالي ، وتأتي فرنسا في الصف الأول في مبلغ المساعدة بالنسبة إلى دخلها القومي . ومساعدة البلاد الاعضاء في لجنة معونة التنمية (C.A.D.) هي نسبياً على حالها منذ بضع سنوات . ولا يعلم على وجه الصحة المساعدة التي يقدمها الاتحاد السوفياتي والصين (جرى الكلام على مليار دولار في العام) ، لأن هذه المساعدة ثنائية فقط

وتخول غالباً بشكل مقايضات ومنح أو اعتمادات طويلة الاجل .
 والمساعدة المتعددة الجوانب غير عظيمة بعد . وتميل إلى التوسع
 والنمو وبخاصة إلى التنظيم على الصعيد الاقليمي (كاتفاق اوروبا الست
 مع ١٨ بلداً افريقياً ، مثلاً) ، أو على الصعيد العالمي (مثل البنك
 الدولي للاعمار والتنمية B.I.R.D. وفروعه ، وصندوق النقد الدولي
 F.M.I. ، ومنظمة الامم المتحدة) .

وبإيجاء من فرنسا ، أبرمت الوحدة الاقتصادية الاوروبية ، في ٢٠
 كانون الاول ١٩٦٢ ، في بروكسل ، ووقعت بالاحرف الاولى في ٢٠
 تموز ١٩٦٣ في ياولنده^(١) ، مع ١٨ بلداً افريقياً زنجياً كان معظمها منذ
 قليل يؤلف جزءاً من الامبراطورية الفرنسية ، اتفاقاً ذهب حتى اقامة
 علاقات نظامية (من حيث المؤسسات) ، سياسية ، اقتصادية ومالية
 دائمة بين المتعاقدين ، بغية تشجيع أو حماية وصول المنتجات الافريقية
 إلى الاسواق الاوروبية وشد الاواصر السياسية معها .

وعند الانطلاق ، كان المراد عدم التخلي عن البلاد التي أصبحت مستقلة ،
 ولكن اقتصادها يعيش من المساعدة المالية ومن المنافذ التي قبلت بها
 الاوطان الأم ، وبخاصة فرنسا والمملكة المتحدة . ولو تركت هذه
 البلاد فجأة لنفسها ، لما استطاعت التغلب على الصعوبة التي يخلقها بصورة
 آلية الانتقال من الاستعمار إلى الاستقلال . وتهدف الاتفاقية إلى حث
 البلاد الافريقية على ادخال انتاجاتها في المنافسة على السوق العالمية ،
 وبخاصة على السوق الاوروبية ، حيث تدخل المنتجات المدارية لهذه البلاد
 مجاناً ، كما كانت الحالة دوماً مع فرنسا . وبالتدريج ، حذفت أسعار
 التفضيل ، التي تستفيد منها هذه المنتجات في فرنسا . ومقابل ذلك ،

رضيت أوربة الست لزميلاتها الافريقيات بمساعدة خمسية من ٨٠٠ مليون دولار جملة ، منها ٦٨٠ مليون مساعدات خوفا الصندوق الاوربي للتنمية لبلاد ماوراء البحار (F.E.D.O.M) . وهكذا تشكلت منطقة انتقال للبضائع بين اوربة الست و ١٨ بلداً افريقياً وصفها رئيس لجنة الوحدة الاقتصادية الاوربية C.E.E. بأنها حادث وحيد في التاريخ و لأن هذه هي المرة الاولى لبلاد اوربية كان لها مستعمرات وتشترك مع مستعمراتها السابقة التي أصبحت مستقلة ، على قدم مساواة كاملة من الحقوق ، .

والبنك العالمي (أو البنك الدولي للاعمار والتنمية) وصندوق النقد الدولي ، اللذان أنشئا في بريتون وودز في ١٩٤٤ ، بقومان بعمل أوسع من عمل اتفاق اوربه الست - افريقية السوداء ، لأن عملها يتعد إلى جميع القارات .

ووجد البنك العالمي B.I.R.D وفرعه ، الرابطة الدولية للتنمية (A.I.D.) استعدادهما الحقيقي في العالم الثالث . فمئذ ١٩٤٧ ، أقرض البنك العالمي والرابطة الدولية للتنمية نحو ١٠ مليارات دولار ، نصفها إلى الشرق الاوسط ، إلى الشرق الاقصى ، وإلى افريقية ، بغية تنمية وسائل النقل ، وبناء السدود ، واشادة المعامل ، وتحسين الاراضي ، الخ . وبلغت الوتيرة السنوية ، لقروض البنك العالمي ، مليار دولار تقريباً . وعمل البنك قاطع أيضاً بالبعثات التي يرسلها إلى البلاد الجديدة للكشف عن مواردها ، ومساعدتها على استغلال ثرواتها الطبيعية وايجاد رؤوس الاموال الخاصة الضرورية لتوسعها .

ودخل صندوق النقد الدولي ، في ١٩٦٧ ، بشكل مثير في قضية العالم الثالث وبواسطة القضايا النقدية والذهب . فقد بحثت الدول النقدية الكبرى

في الغرب ، التي تسمى أيضاً جماعة العشرة (الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، كندا ، اليابان ، السويد ، والدول الاعضاء في السوق المشتركة ، عدا اللوكسمبورغ) ، منذ عدة سنوات عن واسطة لزيادة السيولة الدولية على وجه الاحتمال . وقررت في ٢٩ ايلول ١٩٦٧ ، في ريو دو جانيرو ، في الجمعية العمومية لصندوق النقد الدولي ، الذي يضم ١٠٦ أمم ، أن تسمح لصندوق النقد الدولي بزيادة « حقوق السحب » بانتظام ، أي سحب اعتماداته الجاهزة ، تبعاً لحاجات التجارة العالمية . ولا يراد من ذلك إلا بداية تنظيم دولي لأسواق رؤوس الاموال ، ولكن صندوق النقد الدولي رأى نفسه قد كرس ليكون محطة لاغنى عنها لتمويل وتجارة البلاد السائرة في طريق التنمية . غير أن هذا القرار الذي اتخذ في ريو دو جانيرو يمكن أن يكون منعطفاً في تطور المساعدة المتعددة الاطراف التي كانت ، كما قلنا آنفاً ، ضعيفة نسبياً .

وتناولت منظمة الامم المتحدة القضية من علي . وفي ١٩٦١ ، اقترحت على الجمعية العمومية ، تحت عنوان « عقد منظمة الامم المتحدة للتنمية ١٩٦٠ - ١٩٧٠ » ، برنامجاً واسعاً في « مكافحة الفقر والموض ، والجهل » . وصوت على هذا البرنامج في ٩ كانون الاول ١٩٦١ والهدف الذي يجب بلوغه هو التالي : رفع النسبة الصغرى لنمو العالم الثالث إلى ٥٪ ، وحتى ، إذا كان ممكناً ، إلى ٦٪ في العام ، وبشكل يرى فيه أن مستوى حياة الشعوب المتخلفة قد تضاعف في عشرين أو ثلاثين عاماً ، إذا لم تختلف نسبة النمو الديموغرافي . وترى منظمة الامم المتحدة أن هذا الهدف غير مستحيل البلوغ : « ان التجربة المكتسبة في العقد الاخير (العشر سنوات) ، كما ورد في أحد التقارير تساعدنا على القول عن يقين شبه مطلق بأن جميع البلاد المتخلفة تقريباً ،

عندها ، بالقوة ، بإيرادها الطبيعية والبشرية ، الوسائط التي تؤمن لشعبها مستوى حياة لائق . ووسائل الوصول إلى ذلك متنوعة جداً ويجب أن تنسق : تخطيط قومي ، ثم اقليمي ، بين الأمم ؛ التعليم والثقافة المسلكية ؛ استقرار أسعار المواد الأولية ، بأسعار مجزية ، بإنشاء الكداس النازمة ، وبتطبيق قرينة تركيبة أو سعر متوسط ، وبتمثيل انخفاض الأسعار في مصيبة مغطاة بالتأمين ، ورفض منظم للأسعار باتفاق مع البلاد المستهلكة ، أو أيضاً بالتصفية المجانية ، أو بسعر رخيص جداً ، للفوائض ؛ تنمية الصادرات الصناعية للعالم الثالث في البلاد المصنعة ؛ زيادة المساعدة المالية للعالم الثالث ، التي ، يجب أن تتضاعف في عشرة أعوام ، وتنتقل من ٨ أو ٩ مليارات دولار إلى ١٦-١٨ مليار ؛ تجنيد القوى البشرية ، بغية استعمال أفضل لليد العاملة ، وتحسينها كينافاً وصحة وتقنية .

أما الذين يرون أن هذا البرنامج الطموح يكلف غالباً ، فقد أجابهم منظمة الأمم المتحدة ، في شباط ١٩٦٢ ، بأن من السهل إيجاد رؤوس الأموال إذا قبلت البلاد السبعة (كندا ، الولايات المتحدة ، فرنسا ، جمهورية ألمانيا الاتحادية ، الصين الشعبية ، المملكة المتحدة ، والاتحاد السوفياتي) ، التي تجمع ٨٧٪ من النفقات الكلية للتسلح - أي ١٢٠ مليار دولار - أن تقيم السلام بينها ، وأن تخفض ، إن لم تحذف ، تسليحها ، ولكن هذا قصة أخرى .

وعندما قبل البرنامج ، طلبت الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة ، في كانون الأول ١٩٦١ ، إلى الأمين العام أن « يشاور أعضاء المنظمة فيما إذا كان من المناسب عقد مؤتمر دولي يتعلق بالتجارة » . وحاز هذا المشروع على موافقة العالم الثالث : وكان مطابقاً لبرنامج مطالبه « تجارة

للمساعدة ، ، وهذا يعني منافذ لا مساعدة مالية . وعرضت الصورة بشكل فج فلم تطابق على وجه الصحة ما يرجوه العالم الثالث . ولم يرفض هذا العالم الثالث تقبل المعونة الفنية والاقتصادية أو المالية ، ولكنه أراد أن تكون منسجمة مع امكانيات التنمية لتجارته الخارجية . والمساعدة المالية ، بخاصة ، عندما تأخذ شكل منحة ، توجد عقدة تبعية والحق ؟ أما امتداد المنافذ الخارجية فهو ، بالعكس ، علامة ازدهار وقدرة اقتصادية . ودعم الاتحاد السوفياتي بدوره المشروع : ولم تكن البلاد الصناعية في الغرب معادية له ، رغم ما مزج قبولها من خوف في أن المؤتمر قد يكون حجة لوضعها في موضع الاهتمام مرة أخرى أيضاً . وتقرر أن يكون المؤتمر في جنيف من ٢٣ آذار إلى ١٥ حزيران ١٩٦٤ .

وحضرت مائة وعشرون أمة هذا المؤتمر الماموت ، الذي لا سابق له : وانقسم المجموع بصورة طبيعية إلى ثلاث فرق : بلاد الغرب الصناعية ؛ البلاد الاشتراكية ، مع الاتحاد السوفياتي ، وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا كزعماء الصف ؛ والعالم الثالث ، المؤلف من ٧٥ بلداً على الأقل ماذا خرج من هذا المؤتمر ؟ أولاً تأكيد منشط : فلم ينته باخفاق ككل المؤتمرات التي حاولت بقليل من الطموح ، قبل الحرب العالمية الثانية ، أو حتى بعده ، توطيد رابطة دائمة اقتصادية أو نقدية بين البلاد الواقعة بسويات مختلفة في التنمية ومستوى الحياة . وكان من الممكن أن نخشى صدامات عنيفة في الاتجاهات بين الفرق الثلاث ، ومتطلبات العالم الثالث التي قد تضطر البلاد المصنعة إلى رفض دون استثناء ، ومزايدة البلاد الاشتراكية . لا شيء من هذا : لقد كانت النظريات متضاربة ، ولكنها عرضت مع الرغبة في الوصول إلى تفاهم ، أو على الأقل إلى تسوية على ما هو أسامي . وتناول القرار الأكثر تشخيصاً

وتجسيدا الأحكام النظامية (من النظم) . وقرر مؤتمر الأمم المتحدة في التجارة والتنمية أن يجتمع على فترات منظمة ، كل ثلاثة أعوام ، وأن ينشئ هيئة دائمة : مجلس التجارة والتنمية ، ويتألف من ٥٥ عضواً منتخباً .

وهذا المجلس يتصرف ، على الأقل ، بثلاث لجان : المنتجات الأساسية ، المواد المصنوعة ، « غير المنظورة أو اللامرئية والمرتبطة مالياً بالتجارة » . ولكل دولة ممثلة في المؤتمر صوت ، وتأخذ قرارات المؤتمر في المشاكل العميقة بأكثرية ثلثي الممثلين الحاضرين . وتكفي الاكثرية البسيطة في قرارات المجلس الاخرى .

وكان من الممكن أن تعتبر هذه النتيجة مخيبة لو لم تلتها المناقشات على هذا المشروع النظامي . وفي الواقع ، أبدى المؤتمر أهمية رئيسية ، من جهة ، لأنه كرس رسمياً وجود ، حتى ، ولحدا ما ، حيوية العالم الثالث كرفيق للدول القديمة الصناعية في اوروبا وامريكا أو آسيا ؛ ومن جهة أخرى ، لأنه وضع اتهامات ومطالب ، والكلمة ليست قوية ، البلاد المتخلفة التي لم تكن ممثلة هذه المرة بالأمم المستعمرة القديمة ، والهيئات الدولية ، والجهراء أو الزعماء السياسيين ، بل مباشرة بمندوبي الدول التي تؤلف أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية . ماذا يريد إذن هذا العالم الثالث ؟ انه يريد بصورة أساسية زيادة دخله بحسب رأس الساكن . وكيف الوصول إلى ذلك ؟ إن المساعدة المباشرة الثنائية لا تكفي ، لأن النتائج الخيبة التي تنجم عن ذلك تثير جدلاً في الرأي العام في البلاد المانحة ؛ وتقرب أيضاً من الاستعمار الجديد ؛ وبالمقابل ، ان المساعدة المتعددة الجوانب المرجوة هي أيضاً تافهة .

قضايا عصرنا (١٥)

وقد أشار الصك النهائي للمؤتمر الأول للأمم المتحدة في التجارة والتنمية إلى هذه الاهتمامات المختلفة بدقة : « إن فائض الصادرات على الواردات ، الذي ظهر في البلاد السائرة في طريق التنمية في ١٩٥٠ ، قد تحول في ١٩٦٢ إلى عجز ٢٠٣ مليار دولار ، بينما كانت مدفوعها الصافية عن واردات التسميات والواردات غير المرتبة قد صعدت ، نحو ١٩٦٠ ، إلى نحو ٣٠٣ مليار دولار . وغطي هذا العجز بالمساعدة المقدمة وبآتي مختلفة من رؤوس الأموال . ومع ذلك ، فإن الفرق بين حاجات واردات البلاد السائرة في طريق التنمية ودخولها من الصادرات كان آخذاً بالتوسع . وأصبح ٢٠ مليار دولار في العام ، في ١٩٧٠ .

ولم تتغير الحال ، وعلى الأقل ظاهراً ، منذ ذلك العصر . والمؤتمر العالمي الثاني للتجارة والتنمية ، الذي عقد في ١٩٦٨ في نيودلهي ، لم يفعل شيئاً سوى أن أثبتنا . ومع ذلك ، يقال الآن ان العالم الثالث مؤلف من « بلاد أقل تنمية » ، وهذا يعني أنه يلاحظ بعض التقدم في تطوره الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وأنه من الممكن أن يغذي الأمل بأن هذه الدول « الأقل تنمية » ستلحق يوماً الدول المصنفة بين الدول النامية .

ما هو هذا التقدم ؟ لقد أشار إلى ذلك ج . د . وودز ، رئيس البنك الدولي للاعمار والتنمية ، في افتتاح المؤتمر في ريو دو جانيرو في عام ١٩٦٧ بقوله : « إن التوسع الاقتصادي في العالم الثالث يتطور بوتيرة ٥٪ في العام ، وهذا يطابق تذبذبات عقد (العشر سنوات) منظمة الأمم المتحدة ويراد هنا الوسطي ، لأن نسبة التوسع ، بالنسبة لعشرة بلاد على الأقل ، تتجاوز ١٠٪ في العام . وبالمقابل ، بالنسبة للأخرى ، مازالت هذه النسبة بعد ضعيفة كثيراً . والعالم الثالث مهور تدريجياً بطبقة

تحتية عقلانية وحديثة ، وبصورة أساسية في مضمار الطاقة والنقل . وما يسجل له هو ، ان يقظة وجدان بعض بلاد العالم الثالث بالمسؤوليات التي تقع عليها في تحويل حياتها الاقتصادية والاجتماعية ، واستحالة اعتبار البلاد النامية كهيئات احسان يمكن أن تؤخذ معها كل الحريات حتى مصادرة فائدة ورأسمال الاموال المستقرضة . وأخيراً وبخاصة ، كما أشار أيضاً رئيس البنك العالمي ، « لقد قبل لأول مرة في التاريخ تحسين مصير البشرية كغاية وهدف ومسؤولية على السلم الدولي » . ولكن هذا الرصيد الذي له ، وإن كان جذاباً ساحراً ، يزن قليلاً جداً بالنسبة للدين الذي عليه ومواقفه الأساسية هي : الديموغرافية القافزة ، التعليم غير المكيف ، وعدم الامكانية المباشرة في تنظيم المواد الاولية والمنتجات المنتهية على المستوى العالمي ، وأخيراً عدم الاستقرار السيامي .

إن الديموغرافية القافزة في العالم الثالث هي همّ المؤسسات الدولية العظيم . فقد بلغ سكان العالم أول مليار في ١٨٥٠ ؛ والثاني ، بعد ثمانين عاماً تقريباً ، في ١٩٣٠ ، والثالث ، ثلاثين عاماً بعد الثاني ، في ١٩٦٠ ، والمليار الرابع يجب أن يتجاوز في ١٩٧٥ ، أي ما يقارب ١٥ عاماً بعد الثالث ؛ وفي العام ٢٠٠٠ سيكون سكان العالم ٦ إلى ٧ مليار نسمة ؛ وفي القرن التالي يتكلم عن ١٠ ، ٢٠ وحتى ٣٠ مليار ، حسب تقولات الحاسبين .

وتؤوي البلاد المتخلفة ثلثي سكان العالم . وفي آخر القرن ، سيكون سكان آسيا ٤ مليارات نسمة ، وافريقية أكثر من ٦٠٠ مليون ، وأمريكا اللاتينية أكثر من ٦٥٠ مليون ، وأوربه ٦٠٠ مليون ؛ والاتحاد السوفياتي ٤٢٠ مليون ، وأمريكا الشمالية نحو ٤٠٠ مليون .

بأي الوسائط يمكن تغذية هؤلاء السكان بشكل أفضل ، أو بكل

بساطة منعهم من الموت جوعاً ؟ إن منظمة الأغذية والزراعة ^(١) ترى بأنه يجب زيادة المحصول الزراعي الحالي بثلاثة أضعافه ، ويعترف مرجعها بأن هذه القضية تسبب لهم دواراً .

والموقع الثاني، لما يجب على العالم الثالث ، هو التعليم . فمن المستحيل تحريك وتنشيط التوسع الاقتصادي في عالم تتطور فيه التقنية دون انقطاع وتأمر بالتقدم وتوجه المنافسة ؛ والتعليم المعطى لشعوب العالم الثالث يخالف لهذا الاتجاه ، وهي تفتح المدارس الثانوية والكليات لدراسة الآداب أو الحقوق ، ويحمل كلياً التعليم الفني ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن ينتج ، كما قال ج . دودز ، مزارعين وصناعيين ، وفنيين ، ومعلمين ، لتأمين الثقافة المسلكية .

والموقع الثالث : هو الصعوبة القصوى التي يشعر بها في تنظيم التجارة العالمية لاجابة أمنية البلاد الأقل تنمية . وفي الوقت الحاضر ، يتم التطور باتجاه معاكس : إن الحصة العائدة لتجارة العالم الثالث في التجارة العالمية لا تمثل أكثر من ١٩ ٪ من الصادرات مقابل ٢٧ ٪ في ١٩٥٥ و ٢٢ ٪ في عام ١٩٦٠ . وقبل الحرب العالمية الثانية ، كانت بلاد آسيا وأفريقية وأمريكا الجنوبية تصدر ١١ مليون طن من الحبوب في العالم . ومنذ بضعة سنوات لا تصدر فعصب بل تجد نفسها مضطرة لاستيراد كميات من الحبوب متزايدة دوماً (٢٥ مليون طن في العام) دون تجنب المجاعة مع ذلك .

وفي الهند لا يسجل ٦٠ مليون مزارع ، ولا من بعيد ، المحاصيل التي يحصل عليها على نفس السطح ٦ ملايين مزارع أمريكي .

والمواد الأولية ، كما رأينا ، هي العنصر المحرك ، وفي الوقت نفسه المثبت لاقتصادات العالم الثالث . فيجب أن تزداد منافذها وأسعارها بانتظام . ومنذ آخر الحرب العالمية الثانية ، أطلقت البلاد الأقل تنمية صوت الانذار ، ولم يسمع هذا الصوت حتى السنوات الأخيرة .

إن الدول الأنغلو ساكسونية ، التي تراقب أو تشرف مباشرة أو بشكل غير مباشر على هذه الأسواق ، دعمت بأن من الوهم لإرادة محاولة تنظيم على السلم الدولي . والأسباب التي ذكرت لصالح هذه النظرية هدية : أن هذه الأسواق تسير وتعمل مبدئياً حسب قانون العرض والطلب . وتتمثل تحولات فنية دائمة بمنافسة المنتجات التركيبية ، وتطور الحاجات ، والموضة ، وتقديم الكيمياء ، النع ؛ وجرت محاولات تنظيم جماعي عديدة وأخفقت ، وحتى إذا نجح بعضها ، فليس له قيمة المثل ، لأن كل مادة أولية هي حالة خاصة جداً لها تقاليد ، وقواعد سيرها ، وحركتها الخاصة ، وأخيراً ، وبخاصة ، إن التنظيم الدولي للسوق الذي توجهه وتراقبه بالضرورة الدول ، يؤدي إلى توجيهية ضخمة تذهب باتجاه معاكس للغاية التي يبحث عنها .

وفي ١٩٦٠ ، مع ذلك ، اقترحت فرنسا خطة ، بخاصة من أجل الأسواق الزراعية ، ودافع عنها أمام الهيئات الدولية ولفريد بومغارتنر^(١) ، أ. بيزاني ، أ. فور^(٢) . ولما كانت نجاح التقدير والاعتبار ، رغم أن بعض البلاد الجديدة ، وبخاصة أستراليا ، كندا ، الأرجنتين ، صرحت بوضوح بأنها تحرص على الحفاظ على حررتها في العمل . غير أن التنظيم العقلاني للأسواق ، مع ذلك ، ضرورة : وسينتهي بفرض نفسه ، لأن البلاد السائرة في طريق التنمية تجعل منه أساساً لبرنامجها ، الذي يكتمل بضرورة فتح البلاد المصنعة حدودها كثيراً لمنتجات العالم الثالث المحولة .

ويبرهن ختام مؤتمر ريو ، وأعمال منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ، وأعمال السوق المشتركة على السير في هذه الطريق . ففي ريو ، طلب من صندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي للإعمار والتنمية ، أن يقدموا في الجمعية العمومية الآتية لصندوق النقد الدولي مشروعات تنظيم أسواق المواد الأولية التي تستطيع

Wilfrid Baumgartner (١)

E . PISANI , E . FAURE (١)

فيها هاتان الهيئتان أن تمسكا بدور رئيسي . وفي داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية درست الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وجمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا معاً إمكانية شراء المزيد من منتجات العالم الثالث المنتهية .

إن البلاد السائرة في طريق التنمية تدفع نوعاً ما الفداء لاستقلالها ، وتدفعه غالباً وما فتئت تستدين كل يوم بازدياد . وانتقلت ديونها العامة من ٢٨ مليار دولار في ١٩٦٣ إلى ٣٣ مليار في آخر ١٩٦٤ ، وإلى ٣٦٫٤ مليار في آخر ١٩٦٥ وإلى أكثر من ٤٥ مليار في ١٩٦٨ . وعندما كانت هذه البلاد تحت سيطرة الخارج السياسية أو الاقتصادية كان لها عند مقتضى الحال عذر في القاء وزن تخلفها على الاستعمار أو على أنانية الاحتكارات ، الرأسمالية . واليوم ، هي سيدة قراراتها ولكنها لا تحسن استعمال هذه الحرية . ولا يعلم أحد أيضاً ما إذا كانت كبرياء الموجهين ، المتفاقمة ببؤس سكانها ، ستؤدي إلى العقل أو إلى المغامرة . ومنظورات الاقتصاد العالمي تفتح إذن على مجهول رهيب لا تحذره العودة إلى رأسمالية القرن التاسع عشر ، ولا الانتساب غير المشروط إلى الاشتراكية السككية الشاملة التي ضحت في سبيلها بعض الشعوب حريتها منذ بضعة عقود من السنين .

وأخيراً يبقى الأمل في أن الدروس القاسية من ماضٍ مخيب ، وتقدم التقنية ، والمعرفة الأفضل للمعطيات الأساسية للاقتصاد العالمي ، والأهداف التي يجب بلوغها ، ستدفع الأمم النامية والأمم السائرة في طريق النمو لتوحيد جهودها في دفع التضامن والثقة للبرهنة على أن المساواة الاقتصادية بين من هم أغنياء ومن يريدون أن يكونوا مثلهم تبقى الأساس الأكيد للحرية السياسية والازدهار . وهي من أكثر المعجزات الاقتصادية صحة وأكثرها نفعا والتي استطاع العالم أن يسجلها .

الفصل الخامس

التطور الديني

مدخل

العالم الديني ، مهما كان تسميته ، يتأثر بقوة بالتغيرات التي تحدث في العالم الديني . وكانت هذه التغيرات عظيمة في جميع الميادين طوال النصف قرن الذي انقضى منذ تفجير الحرب العالمية الأولى . فقد كان العام ١٩١٤ بحق بداية عصر جديد . وظهر ذلك بوضوح بعد الحرب العالمية الثانية . وتنتصف العشرون سنة ، التي خلّت بين الحرب الأولى والثانية ، بأنّها عصر متوسط ، وفيه حاول النظام القديم أن يتأسك على أي حال أو يعمر نفسه . ولكن وجود الاتحاد السوفياتي ، والفاشية في إيطاليا، والنازية في ألمانيا ، خارج هذا النظام ، يهون بما يكفي على أن المراد هنا كان إصلاحاً مضطرباً وجزئياً ولاسيما بعد أن انعزلت الولايات المتحدة . وفي الدور نفسه ، تجسدت الحركات القومية في أجزاء العالم الواسعة التي ما زالت تسيطر عليها الدول الاستعمارية . وبحث الصين بألم عن طريق استقلال ذاتي حقيقي ، وأدى التقدم السريع في التقنية ، في مختلف الميادين ، إلى حركات سكانية وتغيرات اجتماعية عظيمة .

وظهر كل هذا للانظار بعد الحرب العالمية الثانية . وشهد عندئذ

انهيار الامبراطوريات الاستعمارية ، الواحدة بعد الأخرى ، ووصول الشعوب الجديدة إلى الاستقلال ، تارة بشكل سلمي وتارة بعد كفاح طويل ومرير . ويظهر ، من جهة أخرى ، أن ظرف الفلاح مال إلى التحول بعمق ، حتى إنه فقد معظم طباعه التقليدية ، في البلاد المتقدمة الاقتصاد . وإن الثروة الصناعية الجديدة التي يعتبر استعمال الحاسبة الالكترونية صفة من صفاتها الأساسية ، توجد ظروفًا اقتصادية واجتماعية جديدة ، وإن العالم ينزع إلى الانقسام لا بحسب الاتجاهات العقائدية المعتادة ، بل بين بلاد متقدمة وبلاد في طريق التنمية . والبحث جار ، في كل مكان تقريباً ، عن نظام جديد لم تظهر قواعده بعد بوضوح جداً .

كل هذا يضع للأديان ، لكل الأديان ، قضايا بكاملها قديمة وجديدة معاً . أو ، إذا أريد ، مستديرة ، حتى أن الأديان ، التي تقترح ، في هذا المعنى على المؤمنين بها حقيقة غير زمنية ، اضطرت أن تتكيف مع تغيرات التاريخ المستمرة دون انقطاع . ولكن هذه التغيرات كانت سريعة كثيراً في العقود الأخيرة . ولم يكن هذا ، كما يدعم البعض ومما بصرياً صرفاً . لأن التقدم المادي يتضخم باستمرار . وكلما تقدم عظم التقدم وانتهى بالتفتت ككرة الثلج عندما تصبح ثقيلة جداً . ولم نصل بعد إلى هذا الحد ، ولكننا بدأنا نحشاه .

ومما تكن الأديان ، فالمطلوب منها أن تتكيف بسرعة أكثر فأكثر مع ضرورات تحول دون انقطاع ، وهذا هو الجديد ، كالطبيعة الخاصة للقضايا . وهكذا ، حتى عصر حديث نسبياً ، ناضت الأديان والمذاهب ، بخاصة ، بعضها ، وأحياناً ، وفي الغالب كثيراً ، والأسلحة بيدها . وهي اليوم مهددة كلها جميعاً بنازعة عامة لا توفر واحدة منهن ، وتطرح على بساط البحث الحاد الديني نفسه ، وعالمها جميعاً أن تحمي نفسها من إلحاد

قد لا يكون دوماً منظماً وعقائدياً ولكنه يكون على الأقل شديداً عندما يبدو تحت شكل رفض عملي وهادئ . وتستطيع بعض الأفكار بصورة شرعية أن تتساءل ما إذا كانت الحاجة الدينية لم تفقد هذه العمومية التي حرص التاريخ السالف كله أن يعترف لها بها وما على الديانات ، منذ الآن ، إلا أن تبرهن على ضرورتها الدائمة ، وتبرر تعددها في عالم آخذ بالضيق

التغيرات المنجزة

العالم المسيحي

الكنيسة الكاثوليكية . لقد كان من صفات الكنيسة الكاثوليكية انها سبقت من بعيد حركة الخلاص من الاستعمار الحالية . فقد قدس البابا بيوس الحادي عشر منذ بداية حبريته (١٩٢٢ - ١٩٣٩) أساقفة ملونين ، وظهر في كثير من الحالات ، تحت طائلة اثارة استياء الدول الاستعمارية آنذاك ، إرادة الكنيسة بالأ يتضامن العمل التبشيري مع المشاريع الاستعمارية ، كما كانت القاعدة في الماضي غالباً .

وأكثر من ذلك ، خلال الدور نفسه ، أن عدداً متعظماً من المبشرين كانوا يظهرون كل أهمية تتعلق بالثقافات الأصلية الوطنية ، حتي ان أحدهم وهو الأب ليب كان يعتقد بأنه لا يستطيع تبشير الصين إلا إذا تصب أي جعل نفسه صينياً . وعلى مثاله، الأب مونسان^(١) من ليون، الذي تهند لبشر الهند ، ولم يكن المراد بالنسبة إلى هؤلاء المبشرين ، تشكيل مسيحيين عديدين كثيراً أو قليلاً ، بل مسيحيين منفصلين

IE P. LEBBE (١)

Montchanin (٢)

بمسيحياتهم نفسها عن بيئتهم المحيطة . فعوضاً عن جعل الصين والهند مسيحيين ، كما كانت ترى في الماضي غالباً أو اسبانيا مسيحيين ، ولا أقل غالبية أو أو اسبانية لأنها مسيحيان ، بل أكثر من ذلك ، بالعكس . لقد تخلي تدريجياً في بلاد ما وراء البحار عن إشادة كاتدرائيات باروكية ، أو غوطية - مستعارة أو بيزنطية - مستعارة بأسلوب كنيسة الكارمل في ليزيو أو القلب الأقدس في مونمارتر في باريس . ولكن بحث في البناء والتزيين عن إيضاح الرسالة المسيحية باستعمال الأساليب الوطنية الأصلية في البلاد . وهكذا نعت الكنيسة إلى الانفصال عن الظرف المتوسطي والانساني في الغرب ، الذي كان ظرفها ، لتصب الشراب نفسه في كؤوس أخرى ، وبلغت عمومية ما فتئت تنادي بها ولكنها كانت في الغالب عمومية مخفية بأسلوب غربي بخاصة .

وبصورة موازية ، يلاحظ أن أشكالاً أخرى من التبشير ضرورية في البلاد التي دانت بالمسيحية قديماً ، وإن مؤلف الأب غودن « فرنسا بلد رسالة » يبدد الهم الذي كان يعيش عليه الكثير من الكاثوليكين الفرنسيين ، وهو أن بلاد الغرب التي الفت في العصر الوسيط البلاد المسيحية ، هي بلاد كانت المسيحية فيها دين الأكثرية وإن دراسات تفصيلية ، ومن بينها التحقيقات الكبرى التي قام بها غبريل لوبرا^(١) ، أبدت وجهات نظر الأب غودن وإذا كانت الغرب أكثر مسيحية في الماضي مما هو عليه اليوم ، فذلك أمر يترك للمؤرخين البت فيه ، ولكن من المؤكد بأنه اليوم ، في أكثريته ، ليس كذلك ، إن في الأرياف ، عدا بعض

(١) ليزيو Lisieux مدينة في شمال فرنسا .

(٢) غودن Godin .

(٣) Gabriel LEBRAS .

الاستثناءات ، أو في المدن . وإذا أرادت الكنيسة أن تجد من جديد اشعاعها القديم فعليها ألا تعتبر نفسها بأنها قائمة ، ببنية الايوشيات والخوريات في البلاد ، بل في حالة بعثة ارشالية ، وعليها أن تنقل الرسالة المسيحية إلى أناس نسوها ، بل وأيضاً إلى أشخاص لا عد لهم لم يعرفوها الا من الخارج ، بشكل ظاهرات تقليدية وغير مبررة في نظرم . والأنجيل أيضاً جديد بالنسبة إلى جماهير العمال في المدن الكبرى ، كما كان كذلك بالنسبة لأرقاء القديم الوثني أو البرابرة الذين اجتاحتها الامبراطورية الرومانية .

وأبدى البروتستانت من جانبهم ملاحظات مماثلة ، وخاصة في البلاد التي يؤلفون فيها الأكثرية . والأقليات ، في الواقع ، مصونة ضد انتزاع المسيحية ، وأيضاً يجب الاستعمال هذا الاصطلاح إلا مع الحيطه والحذر ، لأنه من الممكن الوصول إلى التساؤل هل هذه الجماهير غير المسيحية اليوم كانت بحق غير مسيحية في الماضي ، ومن جهة أخرى ، إن حركية الشعوب الحاليين ، التي تقيم في مكان وتعمل في آخر ، والحركة العظيمة التي تخلي الأرباب لصالح المدن ، تجعلان التبشير المحلي عقياً كثيراً أو قليلاً ، حيث يستطيع جميع المؤمنين التابعين للكنيسة تشكيل طائفة . والطوائف اليوم ليست محلية بل مسلكية . ونشر الدين يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الوسط الاجتماعي أكثر من الناصل المحلي . وهذا أيضاً ما فهمه باعجاب بيوس الحادي عشر عندما أنشأ العمل الكاثوليكي المتخصص ، أي المنقسم إلى فروع بقدر ما يوجد أوساط اجتماعية كبرى .

ولكن تحريك هذا العمل الكاثوليكي ذهب إلى ماوراء هذه الضرورة البسيطة . فقد كان القصد أيضاً إشراك العلمانيين بصورة وثيقة في العمل التبشيري . وحتى ذلك الحين ، ومنذ قرون ، كانوا في الكنيسة عنصراً سلبياً . ويكتفون بأخذ كلام الله عن الأكليركيين ، ولكنهم لا

يحملونه بأنفسهم . ثم إن الصعوبات المتزايدة في سوتق الكهنوتيين وأيضاً ،
بمخاصة ، إن كون الانسان لا يقبل في أيامنا أن يعتبر قاصراً ، اضطراراً إلى
النظر في دور العلمانيين في الكنيسة وتخويلهم مسؤوليات خاصة في جهد
التبشير في العالم . وبدرجات مختلفة ، ومع الأخذ بعين الاعتبار التقاليد
المختلفة ، شهد حدوث نفس الحوادث في المذاهب المسيحية الأخرى .

ولاشك في أن هذه المذاهب تأثرت بشكل متفاوت بالتغيرات الكبرى التي
حدثت في أوربة منذ الثورة الروسية في العام ١٩١٧ . فقد كانت
الكنيسة الأرثوذكسية متحدة بالدولة بشكل وثيق . وبقيت في روسيا
وحتى في الامبراطورية العثمانية القديمة على الحال التي أقرها في القديم
الأباطرة البيزنطيون . ومنذ سنة ١٩١٧ ، انفصلت الكنيسة عن الدولة بصورة
مطلقة أكثر مما كانت عليه الحال في الغرب . ووجدت ، فوق ذلك ، دون
دفاع معرضة لمبادعات دولة مناوئة للدين رسمياً . ولم يكن بالامكان تصور تغير
مفاجيء وجذري أكثر مما كان . كما ان تداعي الامبراطورية العثمانية
في ١٩١٨ لم يكن له نتائج أقل خطراً ، مع الزمن ، على كنائس
تركيا وبوغوسلافيا ورومانيا ، والكنيسة اليونانية هي اليوم تقريباً الوحيدة
التي تتمتع بعد بنظامها القديم .

وبعد الحرب العالمية الثانية خضعت كنائس رومانيا وبلغاريا وبوغوسلافيا
والبانيا إلى نظام مماثل ، مع بعض التفاصيل تقريباً ، لنظام الكنيسة
السوفياتية . وما من كنيسة حتى بطريركية القسطنطينية إلا وتعاين
صعوبات جديدة داخل الجمهورية التركية . ومن الممكن القول ان كل هذه
الكنائس تقريباً وضعت لها قضايا جديدة بصورة مطلقة ، وفي الغالب ،
مع قليل من الوسائط ، لمواجهتها وحلها .

ومن جهة أخرى ، منذ الحرب العالمية الثانية ، إن تشكيل بولونيا

وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وهونغاريا بشكل ديمقراطيات شعبية تستلهم من عقائدية الاتحاد السوفياتي نفسها ، وضع كثيراً من الكاثوليك والبروتستانت في حالة مشابهة حالة الأرثوذكس . والبروتستانت ، وبخاصة الكاثوليك ، كثر في سلوفينيا وكرواتيا اليوغوسلافية وفي ترانسلفانيا الرومانية . والحق يقال ، إن حالة الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية في بلاد الديمقراطية الشعبية ليست على وجه الصحة مشابهة حالة الأرثوذكس في الاتحاد السوفياتي . ويحصل أن فصل الكنائس والدولة فيها لا يكون بنفس الدقة كما في فرنسا ، ولكن عليها أن تجابه جميعاً دعاية رسمية مناوئة للدين ، وليست هذه حال الكنيسة في الغرب .

وليست هذه الدعاية إلا مظهراً شديداً لحالة واقع يتبد كثيراً أو قليلاً في كافة العالم ، ويؤثر بخاصة على الطبقة العاملة في البلاد المتقدمة أكثر من غيرها في الغرب . وإذا كانت فرنسا ، كما يقول الأب غودن ، بالاجمال ، بلد رسالة ، فإن هذه الرسالة في الأوساط العمالية تكون عاجلة وشاقة . وكما يجب على المبشر في الهند أن يجعل نفسه هندياً ، لبشر أو فقط لبمس ، وفي الصين صينياً ، وفي افريقية افريقياً ، فلماذا لا يجعل المبشرون أنفسهم عمالاً في الأوساط العمالية .

ومن هنا خرجت تجربة الكهان - العمال الشهيرة ، التي قام بها أيضاً عدد من الرعاة البروتستانت . وقد انقطعت هذه التجربة ، ولم يتخل عنها ، وسمح بها قرار جديد لمجمع الفاتيكاني الثاني . وهي تستجيب فعلاً لضرورة بديهية . ففي المجتمعات الصناعية المعاصرة ، أخذ عالم العمل أهمية لم تكن له في الماضي . وإن من يحولون بأيديهم وأدمغتهم العالم يظهرون كالجناح السائر للبشرية . ولذا صرح بيوس الحادي عشر بأن أعظم محنة للكنيسة كانت في ضياع الطبقة العاملة .

وبعد ، أليس التوفيق ممكناً بين الكنيسة وعالم العلم الذي يرتبط بها بشكل وثيق ، وبشكل حيوي ، وهذا يعني التوفيق مع العالم الحديث بكل ما عنده من نوعي ؟ وقد اعتقد الأب تيلارد دوشاردن^(١) ان هذا التوفيق الضروري ممكن ، بل ويفرض نفسه شريطة أن تعود المسيحية إلى مصادرها الخاصة من جهة ، ومن جهة أخرى ، أن تشترك ، لا باستسلام وإذعان ، بل بحماسة ، في هذا المشروع العام في تحويل العالم الذي يميز عصرنا . يجب الخروج بصراحة من كون ثابت ، كوف اللاهوت التقليدي ، لمجابهة واقع كون حركي ، في حركة ، وفي تطور . والكنيسة لا تعارض التغيير أو تقاومه مدامت قادرة ، كما فعلت في القرن الماضي ، وشجبت الديمقراطية ، قبل أن تقبلها أو أحياناً أن تغفر بها ، وعليها ، بالعكس ، أن تظهر مستعدة لكل التحويلات التي تتلاءم مع سلامة رسالتها ، بل وأحياناً أن تسبقها . وليس باتجاهها نحو الماضي ، وعلى الأقل الماضي القريب ، بل باتجاهها نحو المستقبل ، الذي تستقبله بهذه الثقة ، ثقة من لا يشك في رسالتها الخاصة .

الوسلام

الاسلام منتشر في جميع أصقاع العالم ، ولكن كتلته الكبرى في آسيا وفي أفريقيا . وهو منقسم ما بين مسلمين سنين ومسلمين شيعة وأكثر الشيعة تقريباً منتشرون في إيران وفي العراق . ولقد تغيرت حالة المسلمين منذ سقوط الامبراطورية العثمانية وحذف الخلافة الاسلامية في عام ١٩٢٤ . ولا شك في أن ملك المملكة المغربية ظل خليفة ولكن سلطته لا تتجاوز حدود مملكته . وان زوال الامبراطورية العثمانية كان

من نتيجته تحرير العرب وإنشاء عدد من الدول العربية المستقلة . والخلاص من الاستعمار ، الذي تلا الحرب العالمية الثانية ، حرر الدول الإسلامية في أفريقيا الشمالية من المحيط الأطلسي حتى قناة السويس . وفي الشرق الأوسط ، نجد الباكستان أيضاً دولة إسلامية ، وفي الشرق الأقصى ، في قسم على الأقل ، ماليزيا وأندونيسيا . وبعض الدول في افريقية السوداء إسلامية أيضاً بكاملها أو في قسم منها . ومن الممكن القول ان جميع البلاد الإسلامية في الوقت الحاضر ، مستقلة عدا بعض الاستثناءات الطفيفة .

وهذا التغيير الذي أحدثه التحرير أيقظ المسلمين من رقادهم ولكنه وضع أمامهم قضايا عديدة تركها الاستعمار في حالة سبات . ولا يمكن مع ذلك أن نجهل أن اليقظة الإسلامية كانت سابقة لهذه الحوادث . منذ القرن الماضي بدت في مصر وفي الامبراطورية العثمانية ضرورة تحديث الاسلام ، إذا أراد المسلمون أن يتكيفوا مع التحويلات التي تحدث في باقي العالم . وكانت هذه نزعة محمد علي باشا في مصر والسultan محمود الثاني في الامبراطورية العثمانية . وهناك حركة أخرى ارتسمت في شبه جزيرة العرب منذ آخر القرن الثامن عشر : وهي الحركة الوهابية التي خرجت عنها المملكة العربية السعودية . ولكن هذه المحاولة في تجديد الاسلام كانت ذات صفة دينية واضحة . ومن الممكن أن تربط بها بشكل غير مباشر على الأقل حركة العلماء التي كانت عظيمة الأهمية في الجزائر منذ ١٩٣٠ . ولا شك أن القصد كان تحديث بل أيضاً إرجاع الاسلام إلى نقاوته البدائية بتخليصه من الشوائب والبدع التي علفت به منذ بضعة قرون . وقد قام العلماء في سبيل ذلك بنضال مستمر ضد النساك والفرق الدينية التي كانت تتعاون مع الادارة الفرنسية وحاولوا أن يعلموا اللغة العربية الفصحى لغة الأمة العربية كلها .

وهذا الجهد المبذول يظهر أن الإصلاح الاسلامي في البلاد العربية كان يرمي الى غايتين : الغاية الدينية والغاية القومية . واللغة العربية لغة الاسلام ، وهذه الصفة لها قيمة دينية عظيمة ، كما هي لغة العرب جميعاً . وبعد الحرب العالمية الثانية تحرر العرب وانقسموا إلى دول مستقلة بعضها ملكي وبعضها جمهوري ، ولكنها جميعاً تتطلع الى الوحدة العربية الشاملة . وكما ان العرب ليسوا كلهم مسلمين ، فكذلك المسلمون ليسوا كلهم عرباً ، وما زال الاسلام والعروبة في تعاطف مستمر ، والاسلام رسالة العرب .

وقد عرف الاسلام بين جميع الأديان الحالية ، في القرن الفائت ، نجاحاً تبشيراً كبيراً ، وبفضل الحالة الجديدة التي أوجدها الاستعمار الأوربي في افريقيه السوداء ، انتشر الاسلام بسرعة على حساب عبادة الأرواح في داخل القارة السوداء ، بينما انتشرت المسيحية في الشواطئ . ونتج عن ذلك انقسام عميق بين شعوب من أصل واحد . فعندما يصبح بعضهم مسيحيين والآخرين مسلمين يولون ظهورهم لبعض . وهناك حداث غريب حدث عند زواج الولايات المتحدة : وهو أن النزاع العنصري ، الذي يقسم البلاد ، دفع من اتخذوا موقفاً راديكالياً في هذه القضية إلى المناداة بالاسلام ، حتى ان هذا الدين أصبح بتأصله في أمريكا عامماً بشكل حقيقي . وما ذلك إلا لأن الاسلام في أصله دين تحرير وثورة على الظلم والاستعباد ودفاع عن كرامة الانسان .

وقد يشبه في أن تكون القضايا الدينية ، التي يضعها توسع الاسلام العظيم ، خطيرة للغاية . لأن قوة الاسلام في بساطته الدقيقة التي تجعله مباشرة في متناول الأفكار الفجة وغير المصقولة . ومن جهة أخرى ، لا يرى المسلمون كالمسيحيين تفريقاً بين الروحي والزماني . بل ان هذين العنصرين بظلالان مرتبطين بشكل وثيق وعلى الأصح غير متميزين .

والاسلام كالمسيحية يقاوم بشكل فريد النزعات المناوئة للمدين ، كالعلمانية في تركيا ، ومنذ الحرب العالمية الثانية ، الماركسية التي نفذت إلى الطبقة المثقفة الاسلامية ، والنقاش مازال قائماً بين أنصار الاشتراكية وأضدادها . والقصد من كل هذا النقاش هو الانتقال السريع من حياة العصر الوسيط إلى المجتمع الصناعي الحديث . ولذا فان القضايا التي توضع للاسلام ليست أقل خطورة من القضايا التي تجابهها في الوقت نفسه المسيحية واليهودية ، وهي من حيث الأساس واحدة . لأن القضايا في أعماقها قضايا ثقافية أكثر منها دينية ، ولكن كيف يميز الثقافي من الديني ؟

اليهودية

اليهودية دين أقلية من الناس عرفت بكرهها للبشر وبكره البشر لها وما ذلك إلا لأن معتققي هذا الدين يعتقدون بأن دينهم خير الأديان ، وأنهم خير البشر ، وأنهم طائفة ممتازة دون سائر الخلق جميعاً . وهذا ما جعلهم ينطرون على أنفسهم دون الاندماج في الأوساط التي يوجدون فيها . وكبرياؤهم الوهمية في أنهم شعب الله المختار أبعدت الناس عنهم . هذا فضلاً عن أن أنانيتهم دفعتهم إلى البحث عن منافعهم الخاصة على حساب الآخرين واضطهاد الحكومات والشعوب لهم . ومنذ القرن الفائت أخذت اليهودية شكلاً سياسياً عرف تحت اسم « الصهيونية » التي قامت بدعايتها بين يهود العالم للعودة إلى أرض الميعاد ، فلسطين ، ومكنتهم الامبريالية الاستعمارية والمنافع الدولية من احتلال هذا الجزء من الوطن العربي وتشكيل دولة « اسرائيل » على حساب العرب ؛ الأمر الذي يخالف طبائع الأشياء وخصائص هذا العصر .

قضايا عصرنا (١٦)

- ٢٤٢ -

واليوم نجد ثلاث طوائف يهودية كبرى :

- ١ - يهود الولايات المتحدة وعددهم أكثر من خمسة ملايين ، وبينهم عدد عظيم من اللاجئين من أوربة الوسطى .
- ٢ - يهود امرائيل والاتحاد السوفياتي ، وعددهم كل فريق في كلا البلدين مليونان .

٣ - يهود الشرق الأوسط وافريقية الشمالية

ويهاجر اليهود من مختلف بلاد العالم إلى امرائيل ، واستعمال اللغة العبرية يساعد على تمثيل هذه العناصر اللامتجانسة .
وتوضع قضايا متشابهة في الطوائف الكبرى الثلاث ، التي أتينسنا على ذكرها ، وأيضاً في الطوائف الأقل عدداً وأهمية ولكنها عظيمة في فرنسا وبريطانيا العظمى . إن قسماً عظيماً من اليهود الحاليين تركوا دين أجدادهم . وهذا الحادث مماثل لحادث التنصل من المسيحية الذي تشكرو منه مختلف المذاهب المسيحية ويظهر الخروج الذي بلغ كافة الأديان في العالم ، وبصف أدواء واحدة ويضع قضايا واحدة . واليهودية ، عدا ذلك ، منقسمة إلى نزعات مختلفة ومتعارضة ، من اليهودية المتشددة الأصلية الحذرة إلى الحرية الواسعة . ومنذ زوال المحكمة اليهودية العليا لا يوجد لليهودية سلطة مركزية تستطيع أن تشرع في الأمور الدينية .

الاروبان الاخرى

وهذه الأديان الثلاثة المسيحية والاسلام واليهودية تؤمن بالسّه واحد شخصي ، عظيم ، متسام ؛ وتغطي أوربة وأمريكا كلها تقريباً والقسم الأعظم من أفريقيا ، وجزءاً كبيراً من آسيا . والدبانات « البدائية » ، وإن كانت في تراجع مستمر ، مازالت تضم كثيراً من الأتباع في

بعض أجزاء من العالم . حتى ان الأضاليل التي تعيش بعدها تبلغ في الظاهر أكثر المناطق حضارة ، وكثيراً من الناس يستحيل تقديرهم على وجه الصحة . وفي بعض الأحيان يعتقد بأنها تستعيد على هذا الصعيد المواقع التي تخلت عنها في مكان آخر ، وتفيد مخرجاً لعاطفة دينية لا تشبعها الديانات التقليدية ، ولا يجهزها العلم الوضعي بأي غذاء .

وهناك ديانتان عظيمتان تسودان الشرق الأقصى ، أي أكثر قسم مأهول بالسكان في العالم ، آسيا الرسمية ، الهند ، الهند الصينية ، الصين ، اليابان : وهما الهندوسية والبوذية . والهندوسية تطبقها على العموم الجماهير الهندية ، وتلاقي بعض الأصداء في الغرب . وتعتبر الهند مع سورية وشبه جزيرة العرب الأم الكبرى للاديان . ويبدو أن الفكر الديني في الهند يقاوم أحياناً بأفضل من غيره نفوذ العلم المعاصر ، النازع للقداسة . وكان عمل غاندي عملاً دينياً بصورة أساسية . وهو الوحيد من بين معاصرينا الذي غيرت أفكاره وجه العالم .

وحالة البوذية ، الهندية الأصل أيضاً ، تختلف ظاهراً . ومن الصعب القول ماذا أبقى منها انتصار الشيوعية في الصين ، لأن الدالاي - لاما طرد من التبت . وفي اليابان يقاوم تعابش الشنتوية ، الديانة الوطنية ، والبوذية ، النفوذ المسيحي الملحوظ بعمق ، والنفوذ العلمي الماركسي وغير الماركسي . ومن المؤكد أن اليابان القديمة التقليدية لا تستسلم للموت بالرغم من الهزيمة والاحتلال الأمريكي الذي تبعها .

وهنا أيضاً ليس المراد الدين وحده ، بل الثقافة القومية المرتبطة ببعض العناصر الدينية .

وفي برومانيا (بورما) والفيت - نام يلاحظ في العشرين السنة الماضية نهضة

بوذية فريدة . وإذا لبست في الفيت - فام لبوساً سياسياً وأحياناً مؤثراً
بفضاعة ، فهذا لا يمنع من أن الواقع كان واضحاً وعظيماً . ومن المؤكد
أن من السهل التوفيق بين البوذية والايان الحديث بالعلم أكثر من أي
دين آخر في العالم . ولسنا متأكدين من أنه لم يؤخذ بعين الاعتبار
الفكر البوذي بين مركبات الماركسية الصينية ، وكذلك التقليد
الكونفوشيوسي ، الذي لا يمكن أن يعتبر تقليداً دينياً بخاصة .

النزاع الفراسخ من العالم

وفي ختام هذه اللوحة السريعة للحالة الدينية الحاضرة في العالم ، لا
يمكن الخلاص من انطباع عام . إن انسان اليوم ممزق بين عقائدات
متنافسة ، وممزق أيضاً ، على وجه التأكيد ، بين تقاليد مختلفة ، ولكنها
تبدي صفة عامة في إقامة رابطة بين الأرض والسماء . والكونفوشية
وحدها كانت فلسفة أكثر منها دينياً ، ولذا لاقت العقائدية الماركسية
نجاحاً خاصاً في بلاد الصين والفيت - نام المتأثرة بالتقاليد الكونفوشيوسية .
ولكن ، في كل مكان ، غير هذه البلاد الآنف الذكر ، يوجد نزاع
حاد كثيراً أو قليلاً بين التقاليد الدينية المتجددة بصورة وثيقة بالثقافات
الوطنية أو العرقية ، والعقلانية العامة التي ينتسب إليها العلم .

وهذا ما يمكن أن يسمى لاقديسية أو علمنة العالم . إن الانسان ،
الذي كان ينتظر حتى الآن من القدرات العليا والسرية تحقيق رغباته
أو مخاوفه ، لا ينتظره إلا من نفسه ، ومن جهد إرادته التي يوجهها
العقل . وهنا يوجد تحرير وترقية وسمو أكيد لاستطيع الأفكار الدينية أن
تشجعها بصورة فجأة دون فحص . وعلى جميع الأدبان أن تحسب حساب
هذه الحركة العامة وربما غير القابلة للرجوع مهما كانت خيالات الأمل التي
طبعت تاريخ البشرية في هذا القرن .

وهذا يعني انتزاعاً مؤلماً يشعر به بكثير أو قليل من القوة ، حسب الأشخاص . لأننا ننفصل عن التقاليد القديمة التي دامت عدة قرون ، والتي كانت قالباً تشكلت فيه ببطء أيماناً وثقافتنا . ولقد نقلت مختلف الديانات بعمق إلى هذه التقاليد ، حتى أصبحت بالنسبة للكثير من الأفكار غير منفصلة عنها . ومن هنا يخرج نزاع ظاهري أكثر مما هو واقعي يعارض في كل مكان بين الدين والعلم . وذلك لأن الماركسية تزعم بأنها علمية وتناضل بقوة خاصة العاطفة الدينية ، ولكن يوجد عودات للشعلات ، كما شوهد ذلك أخيراً في أندونيسيا ، حيث وقف الاسلام ضد الماركسية . وكل ما نستطيع معرفته مما ير في الاتحاد السوفياتي يدل على أن الايمان الارثوذكسي حي فيه دوماً ، لا في الجماهير الريفية أو الشعبية فحسب ، بل أيضاً في بعض الأوساط الفكرية ، وأحياناً من مستوى عال جداً . وهذا اخفاق أكيد للدعاية الرسمية ، ولكنه مفعم بالمعاني لأنه يدل على أن الدين يمكن أن يعيش ثامناً ، مع أنه يكون محروماً من التسهيلات المادية التي أفاد منها في السابق . وذلك لأنه يستجيب لحاجة ليست شيئاً آخر غير الحاجة إلى المطلق .

ونحاول الماركسية من جهتها ، أن ترضي هذه الحاجة ، ولهذا ليس مستحيلاً أن يرى فيها تعبير عن العاطفة الدينية . فمن المتعالي أصبح المطلق فيها حالاً ، وليس حالاً في الله ، بل في الانسان . ولا شك في أن الماركسية تبدو عاجزة عن دفع الموت ، ولكنها تعد ، بالمقابل ، بنوع الألم في هذا العالم . وهذا هو حجر العثرة لكل الأديان . وليست الماركسية مجردة من منطقة مقدسة ومن مقولات غير قابلة للنقاش على مشكلة عقيدة : اتجاه التاريخ ، دور الطبقة الكادحة العاملة ، ودور

- ٢٤٦ -

الحزب ، الذي هو تعبيرها الروحي الموهوب لحير البشرية ، وأخيراً ،
المكان ، التسلسل ، الذي يراد ديمقراطياً . ولكنه يتمتع بسلطة شبيهة
بسلطة أي تسلسل آخر من أصل ديني .

وأصبح هذا « الدين ، الجديد ، مع فروق في اللون ، دين قسم
كبير من الطبقة العاملة في خارج الاتحاد السوفياتي وأيضاً دين بعض النخبات
الفكرية . وإذا نجا العالم الأنكلو - ساكسوني لحد كبير من التبشير
الماركسي ، فليس ذلك لأن القيم الدينية القديمة قاومت فيه بشكل أفضل
بما في غيره ، بل لأن التقاليد الموروثة والوطنية القوية تقاومه في انكسارها ،
ولأن الولايات المتحدة أمة من الرواد استطاعت الفردية الطهرانية أن
تنتشر فيها زمناً طويلاً دون عقبة في عالم شبه بكر ، حيث أخفى
النضال ضد الطبيعة و « الهمج » التفاوتات الاجتماعية ، التي تظهر في
العالم القديم أكثر مما في غيره .

ومهما يكن ، فإن الوجه الديني للعالم أصبح ، منذ ١٩٤٥ ، مختلفاً
بشكل عميق عما كان عليه طوال القرن الفائت . أما الذين اعتقدوا بزوال سريع
للأديان أمام أنوار العقل والعلم فقد ضلوا ضلالاً بعيداً لقد هزت الأديان في
أسسها التقليدية ، ولكنها عاشت وقاومت جميع العواصف ، وبرهنت على
أنها تستجيب لحاجة جوهرية ولا شيء غيرها قادر على أن يسد مسدها .

الحركة الدينية

من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٨

الكنيسة الكاثوليكية

في ربع قرن ، للمرة الثانية ، من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ ، وجد الكاثوليك الأوروبيون وكاثوليك العالم أجمع منقسمين بين أمم متحاربة . ولكن بينما كانت الحرب العالمية الأولى بصورة أساسية حرباً قومية ، أبدت الحرب العالمية الثانية مظهراً عقائدياً ملحوظاً كثيراً . لقد كانت الديمقراطيات تناضل ضد الفاشية ، وبخاصة ، ضد العرقية الهتلرية الماثوثة للمسيحية من أساسها . وكان من الطبيعي والشرعي أن تتخذ الكنيسة موقفاً . ولكها لم تفعل ذلك ، ولم يكن هذا بسبب بعض الصفات الخاصة في شخص البابا بيوس الثاني عشر فحسب ، بل ، أيضاً ، وبخاصة ، لأن الاتحاد السوفياتي ، أي « البولشفية المملوكة » ، أصبح في العام ١٩٤١ ، الخصم الأساسي للهتلرية ، ويمكن أن يكون أحد كبار المستفيدين من النصر . إن الحوف من بلشفة أوربة قد سيطر على جبهة بيوس الثاني عشر بكاملها .

وقد حفر هذا الموقف ، أكثر من أي وقت مضى ، الحفرة التي فصلت المسيحيين المسمين « التقدميين » الذين يفكرون بأن على الكنيسة أن تنفصل عن التقاليد ، ولو كانت جلية ، شريطة ألا تفكرن أساسية ، بغية التكيف مع العالم الآتي ، وبهذا تستجيب بشكل أفضل لانتظار الناس ، وتبدو أمينة لتعليم مؤسستها والمسيحيين الآخرين ، أي جمهور غير نشيط من المؤمنين المعتادين ولا سيما أقلية من الأحناف الذين أعلنوا

الحرب دفعة واحدة على العالم الحديث وبيرون في الكنيسة الحامية الأساسية
لحضارة في خطر الموت .

وهؤلاء يملكون ، في الواقع ، بوعي أو عن غير وعي ، المسيحية ، وأولاً
الكاثوليكية مع الحضارة التي حملتها بصورة أساسية منذ نحو ألفي عام ،
وينكرون ، على هذا النحو ، عمومية الكنيسة ، دون أن يدركوا ذلك .

وليس من العدل أن يزعم بأن حبرية البابا بيوس الثاني عشر كان
يسيطر عليها الأحناف من أولها لآخرها . ولم يعوز هذا البابا التقوي الذكي
أن يرى بوضوح بعض ضرورات عصره ، وأن تغيرات عظيمة في الكنيسة
نفسها لا غنى عنها في أقصر مهلة . فقد حرر ، مثلاً ، المفسرين الكاثوليك
من بعض القيود التي أصبحت لا تحتل . وفسح المجال لقيام تجربة
الكهان - العمال قبل أن يتخذ بها قراراً ، وظل يقدس الأساقفة
الملونين ، كما فعل سلفه ؛ وعمق المذهب السامي للبابا بندكت الخامس
عشر والبابا بيوس الحادي عشر ؛ وأراد أن تكون الكنيسة موجودة في
العالم في كثير من الخطب التي وجهها إلى الرجال والنساء من كل ظرف .
ولكن شاغله الأسمى كان في شد القطيع الكاثوليكي حول العرش الحبري .
ومن هنا يبدو الحبل النسبي لحبرية متسلطة وشخصية جداً . وسيعاكمه
التاريخ على ما فعل وبخاصة على ما لم يفعل .

وفي عهد خلفه البابا جان الثالث والعشرين ، تغيرت الحال فجأة ،
وبشكل غير منتظر . وكان البابا مسناً ، وانتخب ليكون بابا انتقالاً ؛
وهذا الرجل الممحي الذي لم تنح الفرصة لشخصيته أن تظهر ، لم يكنف بقلب
التعاملات بسذاجة : فقد أعلن ذات صباح وبهدهد بأنه قرر دعوة الجميع
المسكوني . وفي الحقيقة كانت القضية تطرح على بساط البحث منذ أن

قطع أخذ روما ، في ٢٠ أيلول ١٨٧٠ ، مجمع الفاتيكان الأول .
ولا شيء يعارض معاودة افتتاح المجمع المنقطع أو الدعوة لمجمع جديد
منذ اتفاقات لاتران ، في ١٩٢٩ . ولا شك في أنه اتخذت بعض
التحضيرات البعيدة ، في حبرية البابا بيوس الثاني ، ولكن وجدنا وهلة
واحدة أمام الأمر الواقع . لقد كان القصد ، كما يرى البابا جان الثالث
والعشرين ، « د آحيورنا منتو »^(١) أي تصحيح أوضاع الكنيسة .
لقد حدثت تغيرات كثيرة منذ ما يقارب القرن حتى بدا لا مندوحة
عن إصلاح البنيات الكنسية وإعادة النظر في مجموع العلاقات بين الكنيسة
والعالم في منظور جديد تماماً ، وللقيام بهذا العمل لا يمكن للمجمع أن
يكون تكراراً بسيطاً للمجمع السالف ، بل يجب بجمع آخر ، وهذا
المجمع هو مجمع الفاتيكان الثاني . وقد عقدت الجلسة الأولى في خريف
١٩٦٢ برئاسة البابا جان الثالث والعشرين الذي توفي في الربيع التالي ،
بعد حكم قصير جداً ، ولكن هذا الحكم سمح له بأن يعطي للكنيسة ،
اتجاهاً لا رجعة فيه مهما كانت التغيرات التي عرفناها منذ وفاته والتي
سنعرفها ولا شك أيضاً . وكان لدى جان الثالث والعشرين من الوقت
ما يمكنه من نشر مرسومين جديدين هامين : الأول في «التعليم العالي»^(٢)
« مائير ايت ماجيسترا » الذي يتم التعليم الاجتماعي ، ورسوم « الشؤون
الحديثة » ،^(٣) « ديروم نوفاروم » الذي أصدره البابا ليون الثالث
عشر ، في ١٨٩١ ، ورسوم « السنة الأربعين » ،^(٤) « كوادرا

. AGGIORNAMENTO (١)

. mater et Mogistra (١)

. Rerum Novarum (٢)

. Quadra gesimo Anno (٣)

جيسيمو آلو ، الذي أصدره البابا بيوس الحادي عشر في ١٩٣١ ؛ ولكن بخاصة مرسوم « على الأرض السلام » في ١٩٦٣ الذي يعرض بعبارات لا تنسى مذهب الكنيسة السلمي . وفي الظاهر ، إذا اكتفينا بالمصادر ، نجد أن جان الثالث والعشرين لم يعمل سوى أن استأنف ووضع تعليم أسلافه . ولكن نسق هذا المرسوم كان جديداً تماماً لأن البابا لا يترجعه فيه إلى « البطارقة ورؤساء الأساقفة والأساقفة المتفقين مع الكرسي الرسولي » ، فحسب ، بل إلى كافة المؤمنين و « إلى جميع الناس ذوي الإرادة الطيبة » أيا كانوا . ولم يكن هذا القول عبثاً . وفي الواقع ، ان جميع الناس من ذوي الإرادة الطيبة يمكنهم أن يسمعوا الرسالة الطيبة وقد سمعوها . وإن القلق الذي يشدنا أثناء النزاع الطويل الأليم الذي نحملة البابا العظيم والحزن الذي تركه موته كانا قلقاً وحزناً شاركت بهما الإنسانية جمعاء ، دون تمييز مذهب ودين أو عقائدية . فبفضل جان الثالث والعشرين أصبحت الكنيسة في الواقع ، لا في الحلق فقط ، كنيسة عامة .

وعبر عن كل هذا أخيراً في قرارات الجمع الذي انتهى بعد أربع دورات ، في ٨ كانون الأول ١٩٦٥ ، ولم يكن العمل المنجز إلا بداية . ويستحق ما تستحقه قرارات التطبيق التي ظهر عدد منها ولم تظهر كلها . ويتعلق بخاصة بالروح التي تحرك المؤتمرات الأسقفية المكلفة بتطبيق قرارات الجمع في كل بلد . ولا نستطيع منذ الآن أن نلاحظ حالة في عز تطورها ولم يثبت فيها شيء نهائياً . وكان خلف البابا جان الثالث والعشرين معاوناً مخلصاً صفيّاً للبابا بيوس الثاني عشر ، الذي حرص عدة مرات ، أن يثار لمذكرته ضد الأحكام التي يراها غير عادلة وشديدة جداً ، ولكن الكاردينال مونتين كان أيضاً صديقاً لجان الثالث والعشرين ويبدو أن البابا الأخير اعتبر بأن لا أحد أهل ليخلفه ويكمل عمله الذي

قام به . وفي الحدد الذي كان فيه حكم جان الثالث والعشرين طباقاً أي مناوئاً مضاداً لحكم بيوس الثاني عشر ، وهذا غير صحيح بشدة ، كانت حبرة بولس السادس تمثل نوعاً من تركيب .

لقد لاحظ البابا بولس السادس تماماً الصفة التي لا رجعة فيها للتغيرات التي دخلت في الكنيسة ؛ ولكنه لم يكن أقل انتبهاً للاضطراب الذي تخاطر هذه التغيرات باحداثه في الوجدان الكاثوليكي . كان إيطالياً كاسلافه ، ويعلم أنه يجب أن تصلح حكومة الكرسي الرسولي بشكل عميق وأن قدول ، ولكن يبدو أنه كان يخشى الاضطراب الذي يمكن أن تدخله التحويلات المفاجئة في إدارة الكنيسة . وكان يسير في كل شيء مع الحذر والحزم ، وأحياناً نفخر . فزياراته للأرض المقدسة ، والهند والأمم المتحدة ، وفاطمة ^(١) ، وتركيا ، النج ، أظهرت إرادته بالاتصال شخصياً بالعالم الحالي ، وليس فقط بالعالم الكاثوليكي ، أو العالم المسيحي . ومرسومه « تقدم الشعوب » ^(٢) هو بصورة مطلقة في خط مرسوم « على الأرض السلام » . واتصالاته ببطريرك القسطنطينية ، آثينا - غوراس ، هيأت أو أنجزت التقارب بين الكاثوليكية والأرثوذكسية ، بعد عشرة قرون من القطيعة (الحيدة) . وأبقى أيضاً على اتصالاته بمجلس الكنيسة المسكوني ، ولم يكن استقبال رئيس أساقفة كانتون بري حادثاً أقل من غيره شأناً في فترة حكمه ، كما أنهم أيضاً يجعل علاقات الكنيسة طبيعية مع الحكومات الماركسية في أوروبا الشرقية .

ومنذ الآن أصبحت الأسقفية مشاركة بصورة وثيقة أكثر من أي

(١) فاطمة FATIMA مدينة بالبرتغال ويحج إليها لزيارة العذراء .

(٢) Populorum Progressio

وقت مضى بحكم الكنيسة . ومن الممكن أن تكون ذات يوم مشاركة في انتخاب الحبر الأعظم . وعلى أي حال ، منضم حكومة الكرسي الأقدس منذ الآن عدداً من الأساقفة يمارسون وظيفة رعية . حقاً ، لقد ظلت مشاكل مختلفة معلقة ، ومن بينها ، قضية العزب الكنسي وتحديد النسل . وقد استأنف البابا حديثاً بحق الأولى ، الموقف التقليدي للكنيسة ، ولكن من الملاحظ أن هذا القرار الحبري أثار في في البلاد المنخفضة احتجاجات اعتساد العالم الكاثوليكي عليها قليلاً ، وفي الحقيقة ، أظهرت الكاثوليكية الهولندية منذ بضعة سنوات في الصعيد المذهبي استقلالاً فريداً في الرأي ، حتى ان جمعاً للأساقفة الأوروبيين عقد في البلاد المنخفضة ، في تموز ١٩٦٧ ، لدراسة القضية مع الأسقفية الهولندية . وقد استأنف المرسوم الحبري « حياة البشرية » الصادر في ١٩٦٨ أيضاً رقابة الولادات أكثر من المذهب السالف للكنيسة ، وأثار أيضاً ردود فعل مختلفة في عالم مسيحي مازال مطوعاً حتى ذلك الحين .

وبقيت قضية من القضايا الكبرى ، وهي قضية الفقر ، إذ يجب القضاء عليها دفعة واحدة في « الانتصار » الذي انساقَت الكنيسة فيه بالظروف التاريخية منذ الإصلاح الكاثوليكي أو الإصلاح المعاكس في القرن السادس عشر . وكنيسة المسيح ليس من واجبها أن تكون كنيسة الفقراء فحسب ، بل يجب أن تكون أيضاً كنيسة فقيرة ، وهذا لا يطبق على الأموال المادية فحسب ، بل أيضاً على الفقراء ، وقبل كل شيء . ويجب أن تكون الاختيارات في هذا المعنى غير قابلة للإلغاء . والكنيسة المجردة وحدها من كل صفاء تقليدي مع السلطات الزمنية ، كنيسة متواضعة ، أما التي لا تشهر الحقيقة كسلاح فلها حظ في بلوغ العالم المعاصر . ولقد حكم الجمع أكثر من مرة في هذا المعنى ، وتكيف

معظم الأساقفة مع هذه التوجيهات ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالعلامات الخارجية لمنصبهم . وقد ضرب البابا نفسه المثل لغيره . وبقي مع ذلك شيء كثير يجب عمله لأنه يجب تغيير حالة فكرية ، وذلك في ظروف مختلفة كظروف كنيسة أسبانيا وكنيسة بولونيا مثلاً .

ومن الصعب اليوم تقدير ما ستكون النتائج المباشرة والبعيدة لهذا التغيير في الكنيسة الكاثوليكية . ونحن الآن في منتصف المأزق ومازلنا بعيدين جداً عند بلوغ الضفة الأخرى . وبينما تقوم الكنيسة بهذا التغيير الخطر في الاتجاه ، ولا تضحي في الحقيقة بشيء أسامي ، يستمر العالم من حولها في التغيير . والكنيسة لا تستطيع ويجب ألا تأخذ بعين الاعتبار يوماً فيوماً ، جميع هذه التغيرات ، بل عليها أن تعطي نفسها بنية مرنة بشكل كاف لتقبلها ، وادخالها عندما تبدو دائمة . وفي الحقيقة ، ليست القضية بصورة وحيدة وأساسية قضية بنية . إنها روح جديد يجب أن ينعش منذ الآن فصاعداً هذه الهيئة الكبرى بكاملها موحدة ومتفرقة ، بل الروح الذي تؤكد الكنيسة بأنها الامينة عليه وات العالم الحالي بحاجة عاجلة اليه . وإن موت بابا ، مثل جان الثالث والعشرين كان حزناً عاماً حقاً . وإن إيماناً جميلة ستظهر للكنيسة إذا أصبحت عموميتها في الحلق عمومية في الواقع . وما عليها أن تجذب جميع الناس لطاعتها ، بل أن تعرف كيف تخاطبهم بلغة يفهمون على فهمها .

الكنائس الأخرى

من الصعب رسم لوحة كاملة عن مجموع الكنائس غير الكاثوليكية في العالم . وعليها أن تحل بصورة جوهرية القضايا نفسها كالكنيسة الرومانية ، وهذا ما دفعها إلى التقارب من بعضها ، بالرغم من اختلافها الأقصى في

في مجلس الكنائس المسكوني . وقد انضمت إلى الكنائس المنبثقة عن الإصلاح البروتستانتي كنائس الشرق ، وبخاصة ، الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، حتى ان المجلس المسكوني يمثل اليوم ، أمام الكنيسة الكاثوليكية ، مايقارب كامل الكنائس الأخرى . وقد ظل المجلس زمناً طويلاً مجهولاً من قبل السلطات الرومانية ، أما اليوم فقد اعترف به ، لأث مراقبين كاثوليك رسميين أسهموا في دوراته ، وحضر كذلك مراقبون بروتستانت وأرثوذكس مجتمع الفاتيكان الثاني . وهنا يوجد تقارب واقع سيذهب كثيراً إلى أبعد من إجراء مجاملة بسيط . إن حواراً انقطع منذ قرون يستأنف الآن عمله على أسس جديدة .

ويجب مع ذلك ألا ننتظر ، كما أسلفنا ، نتائج مباشرة وربما يكون من المرجو ألا يعجل بهذه الحركة . فإذا تم الاتحاد يوماً ما فسيم في احترام التنوع ومع بقاء البروتستانت والأرثوذكس على حالهم يكون لديهم شيء يأخذونه من الكاثوليكية، وبالمقابل وهذا ما برهنت عليه الطائفة البروتستانتية الفرنسية عندما ناقشها تايزيه (١) وفي المحادثات القديمة ، كانت النقاط توضع من قبل مختلف المذاهب على هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الرسالة المسيحية ، وهذا ما عين اتجاهاً روحياً كاملاً لاسيبل لتكرانه ، ولكنّه يستطيع ، بالعكس ، أن يغني كل من اتجهوا وجهة مخالفة ، وبعضهم يوحناويون وآخرون بولسيون والمسيحية الكاملة يمكن أن تضم هذه الاتجاهات المختلفة . ونحو هذه المسيحية الكاملة تتقدم اليوم مختلف المذاهب المسيحية ، كل منها على شاكلته الخاصة وقد تم عمل روحي عظيم في النصف قرن الأخير ، وانتعشت البروتستانتية بأعمال كارل بارط (٢) ، والارثوذكسية بأعمال سولوفيف (٣)

TAIZE (١)

KARL BARTH (٢)

. SOLOVIEV (٣)

وآخرون كثيرون ، والكاثوليكية بأعمال ثيلارد دوشاردن . وليس ضروريا أن يلتقي كل هذا مع بعضه بعضاً . ولكن حالة جديدة ومتجددة دون انقطاع قد وجدت وأفاد منها المسيحيون جميعاً . لقد تعددت المبادلات واللقاءات والحلقات ، اما على الصعيد اللاهوتي ، وإما على الصعيد التفسيري ، أو على الصعيد الرعوي بل والطقسي (الليتورجي) وإن تنوع الكنائس ثروة شريطة ألا ينقلب هذا التنوع إلى معارضة ومنافسة . ويبدو ، بالرغم من بعض الأعراض المؤسفة ، وإسكن المنعزلة ، ان الروح الضيقة والمغلقة ومنازعات الكهنة في تراجع .

واليوم المسيحيين مصلحة ، وهم يفهمونها في مجمرها ، وذلك في ألا يقيموا على ما قسمهم في الماضي القريب نسبياً ، بل أن ينظروا جميعاً نحو المستقبل ، وبهذا الاعتبار فإن يجب اللعنات المتبادلة ، في ١٠٥٤ ، بين روما والقسطنطينية ، وكذلك الصلاة المشتركة في كنيسة القديس - بولس - خارج الأسوار في ختام مجمع الفاتيكاني الثاني ، واقعان مليئان بالمعاني : ولكن العمل لا يمكن أن يقتصر على أن يكون عمل أركان عامة ، بل يجب أن ينحدر حتى مستوى الجماهير ، ولا يمكن أن يقتصر على الجماهير المؤمنة كثيراً أو قليلاً ، بل أن يمتد إلى الجماهير التي تعيش في اللامبالاة الدينية . إن الكنائس تجابه اليوم قضية اللامبالاة الدينية ولا سيما قضية الاتحاد المناضل . وما يمكن أن يقال ، في الختام ، هو أن المسيحية في جميع الحالات التي لبستها خلال قرون وجدت نفسها بصورة متناقضة مسوقة ، بظروف العالم الجديدة ، إلى الحالة التي كانت عليها في القرون الأولى . وعليها أن تعاود اتصالها بمصادرها ، فهي تجد نفسها غريقة في عالم يجدها رويداً رويداً ، ولكن حاجاته الروحية لا ترضى بعقائد موعضة . وان مسؤولية المسيحيين اليوم هي ألا يغيبوا عن العالم .

الاسلام

يضم الاسلام اليوم ما يقارب ٥٠٠ مليون مؤمن ، وهومن الوجهة العددية هام كالمسيحية . والقسم الشيعي فيه باق ولكنه لا ينمو . والاسلام السني ، بالعكس ، ينفذ رويداً رويداً إلى افريقيه السوداء ويمتد حتى زنج الولايات المتحدة ، ولكن يوجد نزاع بصورة أساسية في تركيا وإيران والبلاد العربية بين أنصار التقليد وأنصار التحديث ، وربما تكون الباكستان قد أعطت للاسلام في شخص الشاعر محمد إقبال (١٨٧٣ - ١٩٣٨) العبقرية القادرة على تجديد الدين الاسلامي مع الرجوع به إلى مصادره الأولى ، وقد رأى فيه بعضهم أنه كان للاسلام كما كان تيلارد دوشاردت بالنسبة للكاتوليكية . وهو القائل : يجب على الانسان د أن يكون خليفة الله على الأرض ، . وبدأت بعض اتصالات في القاهرة ومراكش وتوملينين (١) .

بحوار بين المسيحيين والمسلمين ، ومن الممكن أن يؤتى عمل المستشرق لوي ماسينيون ثماره ذات يوم ، لأن الاسلام بعد كل شيء ، ليس في معزل عن القضايا التي تشغل المسيحية واليهودية في عصرنا الحاضر ، وهو أيضاً لا يستطيع أن يقاوم إلا بالعودة إلى شدة ونقاوة إلهامه الأول ، وإهمال البدع والأباطيل المخربة التي علفت به عبر تاريخ طويل ، وإذا أريد البقاء على التوازن الصحيح ، يجب أن يتجاوب الاصلاح على الصعيد الديني مع الثورة على الصعيد السيامي .

اليهودية اليوم

من الصعب تقدير عدد اليهود على وجهه الصحة . يضاف إلى ذلك

١ . Toumlinine

ان اليهودية ليست كسائر الأديان ، فليس لها عقائد ، ولكنها تتضمن قواعد وطقوس واضحة جداً . وتبعاً لهذه القواعد يمكن تمييز اليهود الاحرار والمحافظين والأحناف . ومن المفيد أن نلاحظ نهضة فـكر يهودي أصلي يأخذ مصدره من ظرف ديني . وبهذا الاعتبار يمكن الرجوع إلى ادمون فليسغ^(١) ، في فرنسا ، الذي عمل على اكتشاف التقاليد اليهودية عن اليهود وعن الأجانب . ومن جهة أخرى ، دل رجال مثل لوفيناس وليون آشكينامي ويدلون كل يوم كيف تجابه اليهودية قضايا العصر الأساسية .

ومثل ذلك مارتن بوبر الذي أظهر روحانية اليهودية الحالية في أوروبا الوسطى ، كما أظهرت أعمال الأستاذ شالم في القدس الصوفية اليهودية . والملاحظ أيضاً هو تحول العلاقات اليهودية - المسيحية ، والدعابات الواسعة التي يقوم بها الصهاينة لاستعطاف العالم . وبعد الحرب العالمية الثانية نشر جول اسحاق كتاباً بعنوان « يسوع وامرائيل » وعلى اثره قامت حركة صداقة يهودية - مسيحية أدت إلى تعريف نقاط سيليزبرغ^(٢) العشرة ، ويراد بذلك النغيمات التي يجب أن تطرأ على التعليم المسيحي لئلا يكون مصدراً لمقاومة السامية ، وبمساعيه لدى القاتيكان وبخاصة لدى البابا بيوس الثاني عشر ولا ميا جان الثالث والعشرين حصل على أن تتغير طقوس يوم الجمعة الأقدس (الجمعة الحزينة) في هذا الاتجاه . وأخيراً ، صوت المجمع على تصريح يتعلق باليهود وينفي عنهم نهائياً صلبهم للسيد المسيح . هذا فضلاً عن أن خلق دولة امرائيل يضع قضايا كثيرة لليهود والمسيحية والاسلام .

. Edmond Fleg (١)

. SEELISBERG (١)

الاديان الاخرى

من الصعب متابعة منحى تطور الأديان الأخرى بين ١٩٤٥ و ١٩٦٨ . والحادث الذي يلفت النظر ، وربما يكون لأجل طويل أهم حادث ، هو ظهور أديان جديدة في نقاط مختلفة في العالم ، وخاصة في افريقية السوداء ، في الفيت - نام وفي أمريكا المدارية . وهذا التعداد على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

وهذه الأديان بصورة عامة مزيج من عدة مذاهب مختلفة تختلط عياراً من المسيحية مع عناصر أخرى اسلامية وبوذية وروحانية وبرهمانية أو كونفوشيوسية . والوحي الحديث هو عموماً في أصل هذه الحركات الدينية التي لا تعيش طويلاً ، ولكما تستطيع أن تكون نقطة انطلاق لتحويل ديني في أقسام هامة من البشرية وأكثر الناس اليوم آخذون بالبحث عن عاطفة كرامة ثقافتهم الخاصة .

وقد أبدت هذه الثقافات دوماً صفة دينية . ولا يمكن انقاذها وبخاصة تحريكها الا ناعطائها أساساً دينياً لا يتعارض مع متطلبات أوامر الحياة الحديثة . ومن هنا يخرج هذا المزيج من المذاهب الذي تظهر فيه العناصر المقتبسة عن المسيحية وتمثل الحداثة . ويجب أن يلاحظ أيضاً أن هذه الأديان الجديدة تنتشر عموماً بين الطبقات الفقيرة في المجتمع ، وتعتبر كثيراً أو قليلاً بصورة سقيمة عن تطلعات الطبقة الكادحة في العالم الثالث ، كما عبرت المسيحية في الماضي عن تطلعات الطبقات الكادحة في الامبراطورية الرومانية ، ولكن يوجد اليوم شيء جديد تماماً لم يعرفه القديم الأدنى : وهو الانتقال المفاجيء لحالة من العصر الوسيط أو حتى أقدم من ذلك إلى مجتمع حديث يتطلع إلى التصنيع وطابع هذا الانتقال هو الهجرة العظيمة من الأرياف نحو المدن ، التي تميز العالم الثالث أكثر من المجتمعات الصناعية .

الماركسية ودين العلم

لقد أظهرنا سالفاً وجود جانب ديني في الماركسية ، ولكن الماركسية نفسها ليست إلا شكلاً مميزاً بخاصة للدين الجديد الذي ينزع لأن يكون دين القسم الأعظم من البشرية ويمكن أن يسمى دين العلم أو دين التقنية . وهو في الحقيقة دين الانسان . إن جميع الأديان التقليدية عندها شيء مشترك ، وهو أنها تخضع الانسان إلى قوة أعلى منه تظهر بالروحي . ومن هنا تظهر مواقف الاستسلام والاذعان والعبادة التي فرضتها . وكلها ، أوكها تقريباً ، تعبر عن وجود الشر في العالم نتيجة للسقوط وتطلع إلى أن تجد أخيراً الحالة السالفة لهذا السقوط .

فهي تتجه إذن نحو ماض تريد إعادة بنائه . ومن البديهي أن هذا ليس إلا تقريباً أو تخميناً فجاً جداً ، ولا يزعم مطلقاً وصف الروحانية الأصلية الحقيقية في المسيحية والأديان الكبرى الأخرى ، في شكلها النقي والأسمى . ولكن الحادث الديني في الحد الذي يكون فيه حادثاً جماهيرياً يبدى صفات عامة .

ومنذ أن قلب العلم وبخاصة قلبت تطبيقات العلم التقنية العالم ، ومنذ أن فتح الانسان الجو والفضاء ، ومنذ أن أصبحت العجائب العقلانية يومية ، وبخاصة منذ أن رأى كل يوم اختراعاً جديداً وتراجعت إلى مالا نهاية امكانيات الانسان ، أخذ بطل جديد مكان الأبطال القدامى : بطرلة أسطورة التقدم اللامتناهي . وهو تقدم لا يقودنا إلى الجنة الأصلية ، إلى الانسجام البدائي ، ولكنه يتقدم ، بالعكس ، نحو ما وراء الانسان ، نحو ما هو أعظم وما هو أفضل . وأن أكثر تجارب العصر مأساة ، والله يعلم أنه لم يفتنا شيء منها ، لم تعمل شيئاً . وفي كل مرة نجدنا

أمام ظاهرة فظيعة بخاصة للبرية البشرية ، ونجد أحداً يقول في وسط التجيذ العام : «من المحزن حقاً في عصرنا أن من الممكن أن نرى هذا» ومن المستحيل أن نعبر بشكل أفضل عن الاقتناع بأن البشرية في حالة تقدم ، وأن القباحات التي يؤسف لها إنما هي بقايا محرنة لحالة سابقة ، وقد تخطاها الزمن لحسن الحظ . وإذا لم يكن حكم العقل اليوم فسيكون غداً أو بعد غد .

ونعتقد بأنه من غير المبالغ أن نتكلم عن دين جديد يعارض بصورة مطلقة جميع الديانات السابقة ، وقد أضعفها جميعاً كثيراً أو قليلاً . أما أن يتفق هذا الايمان الجديد بالتقدم مع ألف باطل ، فقد قلنا ذلك ، ولكن هذا لا ينقص في شيء أهمية هذا الحادث الجديد والعام ومن البديهي ، أن الايمان بالتقدم يأخذ أشكالاً مختلفة ، وأنه ليس نفسه ، مثلاً ، في الولايات المتحدة ، حيث يكون الانسان مفعماً بالثقة بالمبادأة الفردية ، قبول طوابعات الاقتصاد الفرنسي باستيا ، في حرية العمل والمبادأة الحرة ؛ وفي الدول الماركسية ، حيث ينتظر كل شيء ، بالعكس ، من التخطيط العقلاني للاقتصاد .

ولكن هذه الفروق ، بالرغم من المنازعات التي تثيرها ، إنما هي إجمالاً فروق صغيرة في إيمان مشترك . إن الأمريكيين لا يتقنون أقل من الماركسيين بالتقدم . ولكنهم يتقنون به بشكل مغاير . وهذا يشبه المعارضة اللاهوتية بين الكاثوليك والبروتستانت ، التي أثار الكثير من الحروب الدموية ، ولكنها نشأت مع ذلك من إيمان واحد بيسوع المسيح .

والديانات قتراجع في الحدا الذي تظهر فيه غير قادرة على تجديد نفسها بإيجاد انبثاقها الروحي الأصلي من جديد ، لأن التعارض بين الدين والعلم

تعارض باطل . ان ميدانها متميزان بصورة مطلقة ، وان تقدم أحدهما يمكن أن يحول العالم ولا يس في شيء الميدان الخاص بالدين ، بيد أن الذي يحصل هو أن جميع الديانات تمت في ظرف تاريخي جعلها متضامنة ليس فقط مع بعض الشروط الاجتماعية ، بل وأيضاً مع صورة للعالم . وصورة هذا العالم تتغير . ولكن الدين لا يكون شيئاً إذ لم يكن بطبيعته نفسها متسامياً في التاريخ ، وهذا صحيح بالنسبة للمسيحية بخاصة والديانات السماوية عموماً ، ويجب أن يكون في جميع الديانات التي يكون لها سبب في البقاء .

وإن جميع النقاش بين الأديان واللادين المعاصر يؤدي في الواقع إلى هذا الشيء : فبالنسبة للأفكار التي ترفض الديانات الحالية ، تمثل هذه الأديان أشكالاً عفى عليها الزمن لأنها مرتبطة بينات اجتماعية أو عقلية لاغية . والقضية هنا هي معرفة ما إذا كان الواقع حقاً كذلك . وليست ، كما يمكن أن يعتقد ، قضية نظرية بصورة محضة ، وأن حلها يمكن أن يبحث عنه في نقاش أكاديمي . إنما قضية عملية تحل بالتاريخ الذي سنحياه ، وبالتاريخ الذي نحضره .

وفي الحد التي تكون فيه الماركسية بكيتهما نظرية وعملية تكون ملتزمة بعنف أكثر من أي عقائدية أخرى في النزاع المناوئ للدين . وترى الماركسية ان زوال الأديان القديمة سيكون نصراً حاسماً للانسان على اغترابه الأسامي . وإذا ما تخلص الانسان من الدين ، وأصبح وحده على حد تطور غير محدود ، استطاع أخيراً أن يعطى كل قوة ، غير متخذ قائداً آخر غير عقله . وهناك حادثان غيرا نوعاً ما الرؤيه الماركسية ، وإن لم يعترف الماركسيون بذلك بعد بوضوح : من جهة ، ان المقاومة التي يلقونها ، حيث يكونون على السلطة ، بأشكال دينية تبدو لهم مع ذلك

متصلة ؛ ومن جهة أخرى ، التحويلات التي رأوها تحدث منذ نصف قرن في بعض الأديان القديمة ، ولا سيما المسيحية . ويبدو أن بعض المسيحيين عندهم من الإرادة والامكان للتعاون دون فكرة خلفية في تحويل العالم .

وبالتالي يجب ، على الأقل لوقت ما ، قبول نوع من تعايش ، ولنا هنا ، على ما نعتقد ، إلا في بداية تطور سيتلاحق دوماً شك خلال عقود ، وسيعرف أزمت لا يمكن التنبؤ بنهايتها الأخيرة . ولكن سيكون لها على وجه التأكيد أثر في تحويل الحالة الدينية في حاضر البشرية .

ولكن إذا راهن الماركسيون على التقدم . فإن الكثيرين المتكاثرين بين المؤمنين يرفضون مثل هذا الرهان . وفي معنى من المعاني يأسون من مستقبل الإنسان والعالم . ويرفضون كل تسليف بعيد المدى ولا يعتبرون أن الدواء الشافي يكون في حذف التفاوتات الاجتماعية ونهاية نزاع الطبقات . وهذا التشاؤم منتشر كثيراً في الحلقات الفكرية في الغرب . ويطابق في الجماهير نوعاً من الاستسلام العملي للحياة كما هي ، وهو استسلام قديم قدم الإنسانية نفسها ولا شك . وهؤلاء المفكرون بالمعنى الدقيق ، ليسوا خصوصاً للأديان القائمة . حتى أنهم ، لأسباب مختلفة ، لا يتخلون كلياً عن العادات الدينية . وهم في الأعماق ، أقرب إلى الانحياز منهم إلى التقدميين . وعندهم حنين إلى ماض آفل ، كانت فيه التمزقات مقنعة بقوة التقاليد . وعندئذ يكونون ، بالنسبة للأديان ، حلفاء يخشون . لأنهم يعارضون تطورها وإصلاحها الضروري ، ويرتبط هذا بذلك بشكل وثيق . وهم يهملون خبرة العلم ، ولكنهم يشيرون إلى عدم اليقين والنواقص . والمؤلفات الكبرى التي وضعت في الزمن الأخير ، مثل مؤلف تيلارد ، تبدو لهم سابقة لأوانها . ولا يلاحظون بأنها ستكون دوماً كذلك ،

لأن العلم لا ينتهي ، ولكنها مع ذلك ضرورية في كل عصر ، لأن من الحاجات الأساسية للإنسان أن يفكر بالمجموع ولا يمكن أن يكتفى بعالم يظل الى الأبد غير مفهوم .

ملاحظات ومنظورات

إن المنظر الذي نراه أمام أعيننا منظر تطور سريع جداً للبشرية. ونحن في العصر الذي سماه نيلارد عصر « التكوكب » . ماذا يعني ذلك ؟ أولاً ، لقد أصبح كوكبنا الآن معروفاً بكامله ويحتله الإنسان ، وأكثر من ذلك دقة أنه مغطى بقياس بشري آخذ بالتكاثف ، وهو من الكثافة بصورة كافية ، حتى ان أي حركة تحدث في نقطة ما من هذا القماش تنعكس حالاً على المجموع وهذا التضامن البشري ، الطبيعي نوعاً ما ، سيصبح بالتدريج ملاحظاً كلما ساعدت الرحلات الكونية الإنسان على أن يشاهد بعينه الكواكب ككل ، وكل صغير تماماً .

وكل هذا حدث في دور قصير بشكل لا يصدق . إن الخطوط الحديدية ، الملاحة البخارية ، البرق ، المحرك ذي الانفجار ، الطيران ، الراديو - تلفزيون ، الصواريخ الكونية ، تسجل بين بداية القرن التاسع عشر والنصف الثاني من هذا القرن . ونحن الآن أمام عالم أصغر بكثير من عالم الناس في القديم ، ومع ذلك فإن الفلكيين بنظيرهم القوية الحاضرة مافتؤوا يتعمقون في الفضاء حتى أبعاد مدوخة ، ولا يتعمقون بالزمان أقل من ذلك وفي السابق كانت الأرض واسعة والفضاء ضيق والزمن محدود . وفي الحاضر أصبح الأمر على عكس ذلك . إن جميع الأدبان نشأت وعظمت في عالم آخر وممت كثيراً أو قليلاً في وعاء مغلق .

ومنذ عهد قريب كان من الممكن رسم خارطة للأديان تظهر فيها بوضوح المناطق المسيحية والاسلامية والهندية والبوذية ، الخ . ومثل هذه الخارطة لم تفقد بعد كل حقيقة .

ومع ذلك يجب أن تتغير الخارطة في بعض نقاط أساسية . فيجب أن تخفف فيها الألوان كثيراً أو قليلاً ، لإظهار الامبالاة الدينية التي يلاحظ تقدمها في كل مكان تقريباً ، ولكن يجب أيضاً أن تزيد قليلاً في خط مختلف الألوان للدلالة على أن بين مختلف الديانات تماساً أكثر بكثير مما كان لها في العالم قديماً . وليست منفصلة بحدود صفيقة كتيمة . والاتجاهات الدينية اليوم عمومية كل ما يقطع القماش البشري من طرف لآخر

وان أي خارطة ، مهما تصورهاها كاملة دقيقة ، لا يمكن أن تلاحظ الوقائع التي مافتىء الزمن يبدل فيها ويغير . ولنأخذ ، مثلاً على ذلك ، الديانة الكاثوليكية ، ذات البنية القوية والمركزية . فكم من اختلاف يذهب حتى المعارضة بين كاثوليكي اسباني وكاثوليكي فرنسي ! في اسبانيا ، مازالت الكاثوليكية بعد دين الدولة . إنها تمتزج بالاسبانية ، والبروتستانت فيها يشكون من تمييزات شاقة . والعلاقات بين الكنيسة والدولة فيها من نوع قديم أخفى عليه الدهر ، ولذا فمن الطبيعي في هذا الطرف السيامي - الاجتماعي أن تتغلب القوى التقليدية على قدرات التجديد . ومع ذلك فان الاكليركي الاسباني الشاب اليوم من أكثر الاكليركيين حركية في العالم . أما في فرنسا ، فيمكن القول بأن القضية ، بالعكس موضوعة بشكل مغاير . ولكن كل كاثوليكية قومية لها فرق ألوانها الخاصة . إذ لا يمكن ، مثلاً ، مقارنة الكاثوليكية البلجيكية ، ذات التقليد الأكثر

القوي ، بالكاثوليكية الهولندية ، التي كانت دوماً ، وحتى الوقت الحاضر ، أقلية وتبدو اليوم جريئة حتى التهور وعدم الفطنة والحذر ؛ ولا مقارنة هذه بالكاثوليكية الانكليزية ، الأقلية ، أيضاً ، ولكنها مغايرة لها تماماً . وكَم من الفروق أيضاً ، في الصعيد اللغوي الواحد ، بين الكاثوليكية الألمانية والكاثوليكية النمساوية والكاثوليكية السويسرية ! ونجد نفس المنظر في جهة الديمقراطيات الشعبية ، وأحياناً في داخل الجمهورية الواحدة : فبين الكاثوليكية البولونية والكاثوليكية الهونغارية تقسع الكاثوليكية السلوفاكية التي كانت متأثرة بهونغاريا بقوة ، ولكنها تبدي بعض التشابه مع الكاثوليكية البولونية . أما الكنيسة التشيكية فهي تختلف عن الكنائس التي أتينا على ذكرها . وكذلك إذا قارنا حالة الكنيسة في مختلف بلاد أمريكا اللاتينية ، رأينا اختلافات عظيمة بين المكسيك والأرجنتين مثلاً . وكذلك القضايا التبشيرية توضع بشكل آخر تماماً في افريقية السوداء وفي آسيا الموسمية . . .

وإذا انتهى كل هذا بتشكيل انسجام معقد ، فهذا هو البديهي الذي سطع في الجمع المسكوني . ومن الممكن القول كذلك في المذاهب المسيحية الأخرى والعلاقات فيما بينها . ففي بلاد إيرلندا وفي كندا ، التي تغطي فيها الكاثوليكية والبروتستانتية على وجه الصحة تقريباً معارضا قومية ، لا يمكن أن تكون العلاقات من طبيعة العلاقات التي توجد في فرنسا ، مثلاً ، لأن كلا منها تأصل في الأرض القومية . وفي ألمانيا الأمس ، كانت يميز بسهولة ، كما في سويسرا ، البلاد الكاثوليكية والبلاد البروتستانتية . ومنذ آخر الحرب العالمية الثانية ، غير مد شعوب الشرق كل هذا ، وعلى الأقل في ألمانيا الاتحادية ، والحالة الدينية في هذا

الجزء من ألمانيا تشبه أكثر مما في الماضي ، مع نسب مختلفة ، حالة فرنسا . وفي إيطاليا ، يعطي وجود الكرسي الأقدس الكاثوليكية سياء فريدة ، وقد أصبح هذا بديهياً بخاصة منذ توقيع اتفاقات لاتران ولاسيا منذ سقوط الفاشية .

وبصور عامة ، إن الأشكال التقليدية الأديان الكبرى حافظت على نفسها بشكل أفضل في كل مكان كان فيه الدين عنصراً انشائياً لثقافة قومية في نزاع مع ثقافة أخرى . وقد شوهد ذلك ، في الهند ، مثلاً ، لأن المنازعات منذ الاستقلال بين الهندوسيين والمسلمين فسجت في الغالب بحالاً لمدايح نظيفة ، ولاقى غاندي فيها حتفه . واليوم أيضاً ، في فيت - نام الجنوبية لا أحد يجهل النزاع العنيف بين البوذيين والكاثوليك . وفي السودان خلاف بين المسلمين والمتنصرين من أبناء الجنوب ، وفي الأرض المحتلة يبدو التمييز على أشده على ما له من صفات سياسية وعنصرية واستعمارية .

وهكذا فإن التوحيد المادي للعالم لم يخفف الاختلاف الديني ، حتى انه في بعض الحالات ، بالعكس ، زاد في حدته . ومن العسير ، بل ومن المستحيل ، ألا تحدث تداخلات بين الدين والثقافة . فما من ثقافة حتى الثقافة الماركسية ، وبعض الماركسيين يعترف بذلك ، إلا ونفذت فيها القيم الدينية ، بعض القيم وليس غيرها . أما وأن تكون الثقافة الغربية مصطبغة بالقيم المسيحية ، فهذا بديهي لا يحتاج لبرهان . أما الثقافة الصينية والثقافة اليابانية فهي قيم بوذية ، وفي الهند تختلط الهندوسية بالجمهورية الهندية التي تسمى بشكل لا مبال مواطنها هندوياً ، وهذا خطأ . ولكنه صفة مميزة ، ولا يوجد دين عنده فكرة قوية عن العمومية في

التنوع كالفندوسية . وحالة الاسلام بمثابة حالة المسيحية . فهو لحد ما مرتبط بالثقافة العربية ، والعروبة والاسلام بمتزجات ويتأثر كل منهما بالآخر .

وتوحيد الأديان والثقافات شر يصعب اجتنابه ، ولكن يجب التغلب عليه ، لأن الثقافات خاصة ، منها كانت مزاعمها ، والأديان كونية وعالمية بطبيعتها وبخاصة عند الكاثوليك وعند البروتستانت ، وحالة الارثوذكس تختلف قليلاً ، وذلك لأنهم دفعوا جيداً إلى أبعد من المسيحيين الآخرين توحيد الكنائس مع مختلف الأمم ، ووضعوا القضايا التبشيرية بعبارات أخرى تختلف عن المسيحيين الآخرين . والأمور في البلاد الاسلامية أقل تقدماً ، لأن الاسلام ما زال يعتبر نفسه أمة سياسية دينية . والهند حتى الآن هم الوحيدون الذين يعترفون بأن اختلاف الطرق الدينية مشروع تماماً ، وهذا لا يمنعهم ، بالعكس ، من أن يوجهوا نحو الغرب جهداً تبشيراً عرف بعض النجاح .

إن حالة العالم ، كما وصفناها اجمالاً ، تضطر شيئاً فشيئاً تختلف الأديان أن توضح كل ما عندها من عام . والتقارب واضح في المستوى الروحي بخاصة . وإن تقدم الدراسات الدينية يكشف كذلك عن الصلات والقرباة كالاختلافات . وقد صوت مجمع الفاتيكان الثاني على تصريح بشأن الأديان غير المسيحية يفتح على وجه التأكيد منظورات ما كان ليظن بأنها ممكنة منذ قرن فقط . وهناك محاولة يؤمل ألا يستسلم المسؤولون الدينيون لها : وهي نوع من حلف - مقدس بين الأديان ضد اللادين الذي يهددها جميعاً بشكل متساو تقريباً ، ولكن هذا الحلف سيكون له عيب جميع التآلمات التي هي من هذا النوع : لانه ينزع إلى أن يثبت بعبارات

جدلية مجابهة لا يمكن أن تكون خصبة ومثمرة إلا إذا فرضت ،
بالعكس ، المحبة والتفاهم .

والمرجور والمحتمل لحسن الحظ أن تتعلم الأديان المختلفة احترام بعضها وأن تتعارف
كثيراً ، وإذا وضعت لها جميعاً مجابها للعالم الحديث قضايا متشابهة ، فيجب
على كل منها أن تنهأ لحماها الخاص وأن تستلهم من ثقاليدها الروحية
الخاصة ، وعلى كل منها أن تختزع جوابها . ومن المؤمل ، بالرغم من
جميع العقبات القديمة والحديثة أن تنتقل جميع الأديان الكبرى من عمومية الحق
إلى عمومية الواقع ، ويعني لا يمكن فيه ، لبضعة عقود ، وضع خارطة دينية
لهذا العالم الذي بدأت حدوده بالانحسار . وإذا لم يختز الناس وطهم فلمهم الحق
بأن يختاروا دينهم مع الأخذ بعين الاعتبار فقط تفضيلاتهم الروحية ، وكل
اختيار من هذه الاختيارات يقتضي جواباً على الأسئلة التي يضعها العالم
الحديث . ومن الواضح ، مثلاً ، أن المجمع المسكوني ، في الوقت الذي
صوت فيه على التصريح بشأن الأديان غير المسيحية ، قد صوت أيضاً
على قرار بشأن حرية الوجدان . كما أنشئت لجنة دائمة لدراسة القضايا التي
يضعها الاتحاد المعاصر .

لقد وضع الفيلسوف الفرنسي برغسون في السابق الدين المفتوح أمام
الدين المغلق . وبعد خمس وثلاثين عاماً على نشر كتابه « ينبوع الأخلاق
والدين » أصبح هذا التحليل مقبولاً . ومن الممكن القول عن جميع
الأديان الكبرى بأنها تأسست كديانات مفتوحة ، ولكن الظروف التاريخية
لنموها قادتها إلى الانغلاق على نفسها كثيراً أو قليلاً . وفي فترة حياة
الإنسان ، استطعنا أن نرى الكاثوليكية تنتقل من مغلقة إلى مفتوحة .
وسلكت البروتستانتية هذا الطريق ، وحتى الأرثوذكسية ، في الحد الذي

- ٢٦٩ -

قطعت فيه الثورة ، ثم الدياسبورا الكبرى التي نجمت عنها ، الصلات الزمنية الثقيلة .

وحالة اليهودية في الحقيقة أصعب ، لأن الشعب « المختار » مغلق على نفسه كهنوتياً ، ومنطوق على ذاته .

والاسلام ينادي بالوحدة والترفع الإلهيين أمام كل المغريات الحديثة في الوجود . ومن الممكن للأديان الثلاثة أن تضم جهودها لمكافحة الأديان المتكاثرة في العالم الحديث . وربما تستطيع حالة الشرق وروحانيته المتحمسين كثيراً ، في بعض الأوساط ، أن تقدم للعالم المقبل قوة لا غنى عنها تقابل نشاط الغرب المفرط .

ولن نذهب ، مع ذلك ، نحو صهر عام لجميع المذاهب له اغراؤه ويرحب بمحاولاته . وإذا بقي كل دين من الأديان الكبرى بذاته في كل ما عنده من أسامي ونقي ، فيجب أن يسمو بالإنسان الحديث بكليته الروحية والمادية . ولقد أفاد الاتحاد والمادية في التشهير بكل خداع الروحانية المراتية ومذهب « تصور الآلهة بصورة البشر » الذي ولى زمانه .

ونقترب من ساعة الحقيقة التي ينتصر فيها كل من وجدوا في إخلاصهم ووفائهم جواباً مقبولاً اليوم وغداً لأسئلة وقلق البشرية المتخلصة من أساطير الطفولة . ومن المسموح للإنسان أن يفكر بأن الدين يحتوي على جميع بزور هذا التركيب الحي ، ولكن شريطة أن يخلصها بقوة من جميع الكشافات الثقيلة التي تراكت حولها في عصور التاريخ .

الفصل السادس

الحياة اليومية

في ٨ أيار ١٩٤٥ وعندما كانت الاجراس تفرع وتجاوب من قرية لقرية وتنبئ بالنصر على المانيا وتزعق صفارات الخطر السامية أخيراً ، كانت أوربة بكاملها تشكو التقنيات القاسية في المسكن والكساء والغذاء .

لقد دمر القصف والمعارك ملايين العمارات ، وقلبت طرق المواصلات ، وخربت أنابيب الماء والغاز ، وشنت شمل العائلات ، وأخضعت الحياة اليومية إلى ألف صعوبة جديدة لن تزول بسهولة ويسر .

ونظراً لفقدان وسائل النقل ، ظل التموين مجعاً في أماكن الانتاج ، وكانت السفن تصل من أمريكا وتنزل البنزين والحنطة واللحم والأقمشة ، ولكن كل شيء كان أولاً مخصصاً للجيش اللجبة الملتمة . وكانت السوق السوداء تحول منه قسماً وافراً .

وكانت الصحف الفرنسية التي تنبئ بسقوط المانيا لا تظهر إلا على ورقة واحدة ، ولكنها تتضمن دوماً عنواناً ضخماً للتموين ، وظل هذا العنوان سنوات أيضاً . وفي أيار ١٩٤٥ ، لم يكن للفرنسيين حق إلا ب ٣٥٠ غراماً من الخبز في اليوم ، و ١٠٠ غرام من اللحم في الاسبوع

- ٢٧١ -

و ٥٠٠ غرام من السكر في الشهر ، و ٧٥ غراماً من القهوة الحقيقية و ٨ ليترات من الحُر . ونظراً لفقدان الاكداس المخزونة لم يمكن بالامكان توزيع الحصة المعينة على المادة الدسمة في الشهر والمحددة بـ ٥٠٠ غرام إلا بعد ثلاثة أسابيع عن الموعد المقرر . وكان الغاز يقطع في الساعة العشرين . من المستحيل الحصول على الاحذية والالبسة والناقلات دون قسيمة

وبدت الحالة ميؤوساً منها ، حتى ان جريدة « العالم » الفرنسية لم تتردد في أن تكتب : « ما الفائدة من كسب الحرب إذا لم يوجد في خمس وعشرين عاماً شبان فرنسيون لاقامة الحراسة على الراين » .

النهوض السوفييتي البطيء :

إذا استثنينا البلاد المحايدة والولايات المتحدة ، حيث رفعت الحرب الانتاج الصناعي إلى أكثر من ٧٥٪ ، وحيث تحول كل هذا المال الجديد مباشرة تقريباً بعد النصر ، ، إلى سلع استهلاكية ، لم تكن الحياة اليومية ، في كل مكان ، بالفعل ، الا صورة هزلية لما كانت عليه في العام ١٩٣٩ .

كان لدى الاتحاد السوفييتي نحو ١٨ مليون ميت ، ١١ مليون منهم مدنيون ، وفقد قسماً عظيماً من قطيعه ، والكثير من العمارات ، حتى ان ٢٠ مليوناً سوفييتياً ، في ١٩٤٥ ، كانوا يعيشون مكدمسين في مهاجع مؤقتة ويأكلون في مطاعم جماعية . واجتاز الاتحاد السوفييتي أزمة غذائية عميقة جداً ، حتى ان ملايين الأشخاص ماتوا جوعاً في ١٩٤٦ وفي ١٩٤٧ . وبلغ سعر الحُبز والسكر والحليب ، الذي لم يتغير منذ ١٩٤٠ ، ثلاثة أضعافه فجأة في السوق الرسمية . وأصبح اللحم

مفقوداً . ويذكر شتاء ١٩٤٦ - ٤٧ - المعركة على الاقل - بشتاء ١٩٤١ - ٤٢ الخيف عندما كان الزحف الالماني باتجاه موسكو يفسر كل التفتيرات ويبرها .

وأمام هجوم البؤس اليومي ، كانت الستالينية مخيفة أكثر من أي عدو يهدد الاتحاد السوفياتي من الخارج . وكان المهم أن تخفى على الاجانب الحالة الاقتصادية المحزنة لشعب يحكم كثيراً من الشعوب الاخرى .

ويجب الانتظار حتى ١٩٥٢ لتخرج من المشاغل السوفياتية الالبسة والاحذية والادوات المنزلية كما في ١٩٤٠ ، وليستطيع المدنيون التصرف بها ، ولكن مع زيادة الساعات الاضافية ونفس القوة الشرائية التي كانت قبل اثني عشر عاماً .

ويلاحظ أيضاً عند قراءة الصحافة السوفياتية ، إن هذه العموميات المتفائلة تخفي وقائع مخيبة . إن المقالات ، التي تلوم النوعية الرديئة أو تشير إلى فقدان الحيرات الارضية المتواضعة ، لا حصر لها . وتقول صحيفة « اذفستيا » : « لماذا يجب في موسكو قطع كيلو مترات للعتور على زلاچ ، وشكالة ، أو رتاج باب ؟ » . وتتكلم صحيفة « ترود » عن الحالة في كارلوف ، وهي مدينة نفوسها ٨٠٠٠٠٠ نسمة : « لا يمكن أن يوجد في كارلوف فرشة قوارير واحدة ، أو أقل فتيل لمصباح بتول ، أو صندوق بريد ، أو وضم لعرق اللحم في المطبخ » . وبالرغم من كل شيء . فأت سنوات ١٩٥٢ - ٥٣ ، مع الترددات والحذر والانتقطاع والحوادث المؤسفة ، تؤلف هنا وهناك ، آخر منطقة الظل وبداية عصر جديد .

-٢٧٣-

المانيا : من العام صفر الى اوزدهار

هل يلزم من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ ، سبعة أعوام ، لجميع الامم ، لتعويض
خسائر الحرب ديموغرافياً واقتصادياً ؟

وهل تلزم سبعة أعوام لجميع الناس ، المصابين في أحوالهم ، ليعودوا
في الطريق الى النقطة الصحيحة للسعادة اليومية حيث فاجأتهم الحرب ؟
ليس لهذه الأسئلة جواب واحد . لأن كل شيء لا يتعلق بنسبة
التخريبات فحسب ، بل أيضاً بشجاعة الناس ونظامهم كموارد ظاهرة للتعجير
واختيار الاولويات .

كانت المانيا مسحقة ، منهوبة ، بتراء ، وقد ولد فيها البؤس والجوع
هذه المقطوعة الرباعية :

- الزوج يرقد في قبر جندي .
- والمرأة تنام في سرير زنجي .
- سقط الرجل في سبيل الوطن .
- وسقطت المرأة في سبيل سجارة .

ان المانيا ، التي كانت فيها ٥٠٠ غرام من الزبدة تمثل أكثر من
اجرة العامل الشهرية ، والمدن مدمرة بنسبة ٧٥ ، ٨٠ وحتى ، كما هي
حالة كوبلانس ، ٨٦٪ ، المانيا المغلوبة تنهض بسرعة في الحد الذي
يعني فيه النهوض تعيينات أكثر غذاءً ومساكن بنيت بسرعة على حين
ان فرنسا وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي كانت منتصرة .

لقد حاولت فرنسا وانكلترا ، بالفعل ، ان تمسكا بامبراطوريات
كبوى اخذت تنزلق بين ايديها ولا يمكن للمليارات ولا الجنود ان توقفها .
قضايها عصرنا (١٨)

-٢٧٤-

وكان على روسيا ان تفرض امرها في الاراضي المكتسبة حديثاً وتنمي جهازاً عسكرياً كبيراً بغية حمايتها من تجديد مفاجأة ١٩٤١ القاسية . كانت ألمانيا الاتحادية دون جيش ، وقد هلك ٢٠ ٪ من سكانها تماماً مقابل ٤ ٪ في هولندا ، ٣ ٪ في فرنسا ، ٢ ٪ في انكلترا ، وقصفت معاملها او فكت ، ولكنها استطاعت بفضل اصلاح نقدي غاشم وبفضل رجل موهوب ، وبفضل خصومها السابقين وروح النظام الذي يعرف أخيراً كيف يستخدم بسلام ، ان تستعيد صحتها ونشاطها ، حتى ان الكثيرين سموا هذا النهوض « معجزة » .

لقد هلك مايقارب ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة ، و ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة منوا بخسائر واضرار . وبعد عشرة أعوام على نهاية الدرامة ، في ١٩٥٥ ، خرجت من الأرض ٣٣٢٥٠٠٠ سكناً جديداً . ولم تكن ألمانيا ، بين جميع بلاد اوروبا ، من اجل انتاج الفحم والكهرباء ، والسيارات ، بعيدة عن انكلترا ، بينما تصنف في الرأس في كثير من الميادين التي تم الحياة اليومية . لقد تغير الفحم والحديد ، في الواقع ، الى اجور ، وغذاء ، وتزجية اوقات الفراغ عندما لاتضع السياسة عقبة أمامها . وكان تأثير هذه السياسة على حياة كل يوم محسوساً في جميع بلاد الديمقراطية الشعبية حتى ١٩٦٢ ، على الأقل ، ولا حاجة لمغادرة الارض لألمانية لاكتشافه . ولم تدمر برلين الشرقية بشدة كبرلين الغربية . وعندما بدأ كل شيء ، كان شطرا المدينة متساويين في الضراء . ولكن قبل ان تنفصل المدينتان بجدار ، كانتا آخذتين بالانفصال بشكل مرئي ايضاً : من جهة البؤس والتقتير ، ومن جهة الوفرة . وعندما غصت برلين الغربية بالأطعمة الأرضية وازدات بلايين الأنوار المنبعثة من ملايين العمارات الجديدة وفكرت بحل قضايا المواصلات التي وضعت في شوارع وسعت بشكل عظيم ، لم تعمر برلين الشرقية

سوى ممارات استعراض ؛ وكان من الفسطان القطني ينل ثلثي اجرة ضاربة على الآلة السكّابة ، واللاجئون يفرغون الشرق قطرة قطرة من مادته وجوهره ، ويهجرون بلداً لا يستطيعون فيه العمل حسب هوام ، او الأكل اذا جاعوا ، او القراءة او الكتابة او التفكير كما يحلو لهم .

وفي صيف ١٩٥٦ سجل الهارب الألف الطامع في مغادرة البؤس كمغادرته الدكتانورية البوليسية .

وهكذا ، بعد عشرة اعوام على آخر الحرب ، وجدت بعض شعوب الغرب سعادة الحياة ، وشعوب أخرى مازالت دوما في الطريق اليها .

كل الشعوب عندها فقرائها

ولتسهيل عمل الاحصائيين ، صنف الأمم الى ثلاث فئات : فهي الفئة الاولى : الولايات المتحدة الامريكية ، كندا ، وبلدان او ثلاثة بلاد أخرى بمتازة وفرتها الحرب ؛ وفي الفئة الثانية : انكلترا ، المانيا الغربية ، فرنسا ، بلجيكا ، ايطاليا ، وعدد من بعض الأمم الواقعة في وراء الستار الحديدي ؛ وفي الفئة الثالثة ، أخيراً : جميع الشعوب الأخرى . وهي أكثر عدداً وأكثر بؤساً ايضاً . وهي أكثر بؤساً لأنها أكثر عدداً . ولكن من لا يرى ، خلال هذا التصنيف الاعتباري جداً ، مناطق الظل والنور ؟

وفي الحقيقة ، ان الأمريكيين يستحقون أن يكونوا خارج السباق . لأن المواطن الأمريكي لم يكن عنده من المال في أي وقت مضى للصرف كما كان عنده في ١٩٦٥ . إن أربعة أمريكيين على خمسة يعتبرون الفسالة ضرورة ؛ وسبعة على عشرة الهواء المكيف حداً أدنى للرفاه . وواحداً على اثنين يرى العيش غير ممكن دون سعادة في منزله . و بـ ٨٠

مليون سيارة ، و ٧٠ مليون تلفزيون ، و ٨٩ مليون هاتف ، يفوق
الأمريكيون البالغ عددهم ٢٠٠ مليون ، بوضوح الأوروبيين الموحدين
احصائياً .

وأخيراً ، العامل الأمريكي يملك أكثر قوة شرائية عندما تفتقر
البیوض واللحم والسجائر وغيرها من السلع الاستهلاكية أيضاً .

ولكن هذه الأمة الغنية عندما فقراؤها . فقد قدر الرئيس كينيدي
عددهم بـ ١٥٪ من عدد السكان . إن الزوج أو البورتوريكيين ، الذين
يعملون محل البيض ، لا يكسبون بأفضل وجه إلا ثلثي الأجرة ،
ويعيشون كمكومين في الغيتو (المعازل) ، التي يعين رفض البيض لمساكنهم
حدودها . وهم أول من يخضعون لهجوم البطالة ، وحياتهم اليومية
نفسياً ومادياً ، عدا بعض الاستثناءات ، لا يمكن أن تشبه بحياة أبناء
وطنهم البيض .

وفي داخل جميع الشعوب « الممتازة » توجد اختلافات على هذا النحو،
ولكنها ولا شك في البلاد الشمالية (السويد والنرويج) ملحوظة
بشكل أقل . ولكن بأي شيء تشبه الحياة اليومية لريف صقلي حياة
بورجوازي ميلاني ، وحياة فلاح أو عامل مناجم اسباني حياة صاحب
مصرف مدريد ؟

ولا ننسى ، في فرنسا ، أن المنطقة الباريسية تمثل ٢٥٪ من الدخل
القومي ، بينما تجبو منطقة الليموزن والفراش - كورنتيه بعيداً في الخلف
بين المناطق المحرومة ؟

وفوق ذلك يمكن أن نكتب ، بفضل الجريدة ، والسبنا ، والراديو
وبخاصة التلفزيون ، أن التطلعات والمتطلبات واحدة وإن لم تكن
الحياة واحدة .

وأخيراً ، لا يفوتنا بلد نجد فيه السياسة الزراعية ، وهي ليست الا مظهراً من مظاهر السياسة القومية ، تسام دون انقطاع في تغيير اسلوب حياة السكان . وهذه هي حال الاتحاد السوفياتي . ففي ١٩٥٣ ، وفي ١٩٥٤ ، وفي ١٩٥٥ نقصت البطاطا ، واللحم ، والبيض والسكر خلال نصف السنة ، بينما ، في ١٩٦٣ ، لزم تقنين الحبز خلال عدة أشهر ، وفي ١٩٦٥ ، استورد كميات كبرى من الحبوب .

وعدم الاستقرار في ظروف الحياة ، وهي ظروف تتغير باستمرار في داخل كل بلد ، وتخضع لقوانين الثروة والمناخ والموهبة والسياسة ، يجعل التعميمات كلها ضعيفة .

ومن الممكن على الأقل محاولة استخلاص بعض حقائق مشتركة عامة على الناس في أمريكا الشمالية وأوربة .

تناقص مصدرة الطعام في موازنات اوسر

في السنوات المباشرة التي تلت بعد الحرب ، كان الطعام يحتفظ ، في اعمامات الجميع تقريباً ، بالمكان الهام الذي كان له خلال الحرب . وكان الناس جوعاً ، وطلبوا جوعاً . وكانت ملايين الرجال والنساء تخصص الأسامي من دخلها لشراء الطعام ، لأن الحصول عليه كان مستحيلاً عليهم إلا بالسوق السوداء .

ولكن كل شيء أخذ يتغير مع عودة الوفرة والمنافسة . ففي نفقات البيوت الفرنسية ، انتقلت حصة التغذية من ٤٦٪ في ١٩٥٠ إلى ٤٣٪ في ١٩٥٥ ، و ٣٦٪ في ١٩٦٠ ، و ٣٥٪ في ١٩٦٢ . ولا يعني هذا أن الناس يتغذون أقل من قبل كثيراً ، بل بالعكس تماماً ، ولكن زيادة الدخول لم تفد في سد الحاجات الأولية التي ليست قابلة للانساع ، بل في سد الحاجات الاجتماعية - النفسية .

ولا تذهب هذه النفقات ، مع ذلك ، إلى مراكز واحدة ، لأن الأعراض تدل على أن الصيغة « كسب الحنة » حلت في المفردات الشعبية محل العبارة « كسب خبزه » المستعملة منذ قرون مديدة . وفي الواقع أخذت ربات البيوت تشتري منذ الآن الكثير من الحلو والحضر « الطازجة » ، ولحم البقر (بزيادة ٣٥٪ في عشرة أعوام) ، والمعلبات (كونسرو) ، ونقصت حصة الحبز ، الذي لم يزد استهلاكه في عشرة أعوام إلا بمقدار ٥٪ ، بينما إزداد الشعب الفرنسي بـ ١٠٪ ، والحضر اليابسة ، والبطاطا ، وجميع السلع المعتبرة أقل نبلاً ، وتحتاج زمناً أطول لتحضيرها للأكل والتي تذكر بأزمة التفتيرات الشاقة عندما كان اللفت ومشتقاته يظهر غالباً على موائد العائلات .

وفي هذا الصعيد ، كما في جميع الصعيد الأخرى ، ينضم الإعجاب بالدارج (السنوية) إلى قلة الوقت ، لأن الكثيرات من النساء يعملن ومن هنا تأتي كثرة الاقبال على الصعود المحضرة ، بالضرورة ، وفي كل مكان في العالم المصنع تنتج العلل نفسها المعلولات نفسها . لأن الأرقام إذا كانت في الولايات المتحدة أكثر تعبيراً بما في فرنسا وفي الاتحاد السوفياتي حيث يمثل مركز الطعام هو ٥٠٪ من موازنة الأسرة ، فإن هذه النسبة أخذت تتناقص منذ الآن من سنة لأخرى .

وما لا يعطى للغذاء يذهب للرحلات ، وتزجية أوقات الفراغ والعناية بالصحة والدار بخاصة .

المنزل المهرف رقم واحد

إذا أصبح السكن في الولايات المتحدة بالنسبة للكثيرين أكثر وأفضل من السيارة رمزاً للنجاح الاجتماعي ، وإذا استطاع محققو « منبر شيكاغو »

أن يهتموا بتحقيقهم على هذه الجملة : « المنزل دليل ملموس للنجاح ويعتبره ساكنوه هدفاً ورمزاً كالمسكن ، فإن الحال لا تبدو على مثل هذا الشكل بالنسبة لأكثرية الأوروبيين الواسعة .

إن « المولعين بالاستقرار » ، لاستئناف كلمة العالم الاجتماعي الأمريكي فانس باكارد^(١) ، ليسوا أقل عدداً في هذه الجهة من الأطلسي . ويعلم الدور الدعائي والسيامي الذي لعبه الاتحاد السوفياتي في تخصيص منزل في المدينة و دانتشا ، ولكن عوامل عديدة منعت دوماً اعتبار قضية السكن محولة . إن التخريبات التي سببتها الحرب كانت في بعض البلاد عظيمة ، ولم تتم التعميرات بالعناية المرغوبة ، وفي الاتحاد السوفياتي ، مثلاً ، صرح في ١٩٥٩ - ١٩٦٢ وحدها أن ١٢٪ من العمارات الجديدة غير صالحة للاستعمال ؛ وأن قوانين الاجارات أو الاستغلال أبطأت ، وهذه حالة فرنسا في وثيرة البناء .

وفي كل مكان سبب التفجر السكاني طلباً متزايداً على المساكن . وأخيراً ، نشأت في كل مكان حاجات جديدة .

إن دعائم النشر كالجرائد والتلفزيون ، والرحلات والسينما ، وكذلك التعب العصبي من الأيام الطويلة التي تضي فيها التنقلات كالعامل ، والحاجة المتزايدة للرفاه والصفاء في داخل أسرة ليس لها الأبعاد التي كانت لها في الماضي ؛ إن كل ذلك يسهم في جعل المنزل الهدف الأساسي الذي توبع طويلاً وبلغ بمشقة .

بمشقة : ففي ١٩٤٩ ، على ٦٥٠٠٠ عائلة فتية تأسست في السنة ، في المنطقة الباريسية ، كان ٢٢٠٠٠ ، أي الثلث ، تسكن في الفندق . ولم

تحسن النسب منذ ذلك الحين . ومن الصحيح دوماً ، في ١٩٦٦ ، كما في ١٩٤٦ ، ان نصف سكان منطقة السين يعيش بمعدل ثلاثة أشخاص أو أكثر ، في الغرفة ، وصعد رقم المساكن المفرطة في زيادة السكّات بشكل حرج في فرنسا إلى أكثر من مليون .

وخلال زمن طويل ، لم يخصص الفرنسيون ، الذين يسكنون بشكل مبدئي ، إلا مبالغ ضئيلة للسكن . وفي ١٩٤٨ أيضاً ، كان الباريسيون يدفعون أجور منازلهم بشكل أقل مما يدفعه سكان نيويورك ومونتريال ، وستوكهولم أو ميلانو ، بينما كان الكساء والغذاء يكلفانهم أكثر من ذلك . ولكن الحال ليست نفسها اليوم . ففي موازنة الفرنسي انتقل الموقع (المسكن) من ١٣٠٣٪ في ١٩٥٠ إلى ١٦٠٤٪ في ١٩٦٠ . واستمرت حصته في الزيادة بصورة منتظمة .

وهذا المنزل الذي يحصل عليه بعد الكثير من المساعي والحرمات والصعوبات إنما هو صدقة يجب تزيينها بوسائل مخصصة للتخفيف من الأعمال المنزلية الشاقة للمرأة ، التي تكتشف بدورها عالم الآلات النافذ والمعقد .

لأنه ، إذا كان كثير من النساء يعملن (بمثلن ٤٤٪ من مجموع المأجورين في بلد مثل تشيكوسلوفاكيا) ، فإن النساء اللواتي يقعن في المنزل لا تساعدن في أعمال المنزل والخدمات والطوافات على المنازل إلا نادراً ، بعد أن كن من المراهقة إلى الوفاة يشاركن في الماضي حياة كثير من العائلات البرجوازية .

وخدمة ، التي زالت تماماً من الولايات المتحدة ، هي الآن في طريق الزوال في فرنسا كما في سائر البلاد التي يرتفع فيها مستوى الحياة . ولكن الآلات قامت بديلاً ، وفي كل سنة تكسب الرقيات الآلية

معارك جديدة . فهي تهاجم منازل لم تزورها في الماضي ولم تدع إليها امرأة خدمة في السابق . وهي تتعفن وتتعدد . وبمقارن النشر الذي يلع بصورة أساسية على « التبسيط » الذي تأتي به في سياق الحياة العائلية وبفضائل الاعتماد ، نراها تنفذ بشكل عريض إلى الطبقات الشعبية .

وفي هذا النضال في سبيل التجهيز بالأجهزة المنزلية الكهربائية الحديثة نجد العمال في وضع حسن عموماً . ففي فرنسا ، مثلاً ، نجد في المساكن الكهربائية والثلاجات (البرادات) في تقدم على الوسطي القومي . أما الريفيون فتأخرون عن العمال في هذا المجال .

ولكن السعاة انطلقوا في الهجوم على الارياف ، والوتيرة السنوية لتقدم البيع ، التي كانت في فرنسا ، في السنوات ٥٠ إلى ٦٠ ، أكثر من ٢٥٪ في الثلاجات ، وأكثر من ٢٣٪ في الغسالات ، وأكثر من ١٢٪ في المساكن ، وتتابع مع بعض التوقف .

واليوم - ولكن الأرقام تتحرك دون انقطاع - على ١٠٠ منزل فرنسي نجد ٥٢ منزلاً عندها ثلاجة ، ٤٥ عندها سيارة ، ٤٣ عندها مكينة كهربائية ، ٤٥ عندها تلفزيون ، ٣٨ عندها غسالة ، ٣٠ عندها مسجل كهربائي .

وفي هذا السباق إلى الرفاه المنزلي ، نجد فرنسا بعيداً وراء الولايات المتحدة ، وبريطانيا العظمى وألمانيا . ولكن محافظة الشمال فيما تأتي في الرأس ، مثلاً ، بـ ٦٨ غسالة لكل ١٠٠ منزل .

ومن هنا نرى ما عمل وما يبقى للعمل .

هل الاعتماد بروتستانتى غالباً

هل بإمكان ما عمل أن يكون كما كان لولا تعميم الاعتماد ؟ لقد قام الاعتماد منذ زمن طويل ، في سبيل الافضل والاقبح بدور عظيم في الولايات المتحدة ، واصطدم ، وما زال يصطدم أيضاً ، في فرنسا ، بحذر طبقة الفلاحين التي لا تأمن على غدها ، وبعدها قسم من الطبقة البرجوازية ، طبقتان اجتماعيتان اعتادتتا منذ أجيال الا « تأكلتا حنطتهما غير ناضجة » ، وإلا « تعيشا فوق وسطيةها » وهناك ألف حكمة اقليمية تمنع القرض عن إناس يرون في الاعتماد صورة ملاك سيء ، وفي بعض الكنائس الفرنسية بسمع كهان بشرون على المنبر الدين الحظر التالي لزيادة البيع بالاعتماد .

ولذا ، وبينما يمثل العمال ٣٣ و ٨٪ من يشترون بالاعتماد والمستخدمون ٣٣٪ ، لا يمثل أعضاء المهن الحرة إلا ٨٪ والمزارعون ٢ و ٢٪ .
ويبدو أن الماضي قد سلم بتفكير كارل ماركس عندما قال « الاعتماد بروتستانتى غالباً » ، لأن الفرنسي لا « يستهلك » إلا ١٠٠ فرنك اعتماد في العام ، مقابل ١٦٠٠ فرنك للأمريكي و ٢٥٠ فرنك للبريطاني . ولكن الامور آخذة بالتطور بسرعة . ففي الفاتح من كانون الثاني ١٩٦٤ ، كان مبلغ القروض يمثل ، في الواقع ، خمسة أضعاف أرقام ١٩٥٥ وخمسة عشر ضعفاً أرقام ١٩٥٢ .

والاعتماد مخصص بصورة أساسية لشراء السيارات ، لأن أكثر من ٤٠٪ من السيارات الجديدة تشتري بالاعتماد ، والاجهزة الكهربائية المنزلية . والاعتماد أيضاً غالى جداً ، بالرغم من الاجراءات الحكومية الحديثة ، ولكنه يساعد على الوصول مباشرة ، منذ الزواج مثلاً ، على

-٢٨٣-

امتلاك بعض نعم هذا العالم ، السعادة أو تصور هذه السعادة . وهذا على الأقل ما تؤكد جميع وسائل الاعلام . ولا تضيف أن الاعتماد لا غنى عنه لحسن سير اقتصاد آخذ بالتوسع وأنه يسهم بشكل قوي في تصريف انتاج في نمو مستمر .

لقد دخلنا ، في الواقع ، في حضارة العدد والامراف . ومن يحفظ مشبه في أعين الوطن والمعامل ، لأنه يجب الطرح للتجديد . وهكذا في الولايات المتحدة ، النموذج الذي تتبعه الامم الاخرى المتطورة كثيراً أو قليلاً ، ولكنها تحتاز الواحدة بعد الاخرى جميع مراحله ، لا يوجد من يسير الآلة إذا توقفت ، بل باعة فقط . والحرك المعطل لا يصلح بل يغير .

وليس القيام ببعض الاعمال المنزلية من شأن العامل ، بل البورجوازي الذي يتخذ وسيلة للتسلية . ويوجد كثير من هذا النوع في الولايات المتحدة ، لان ١١ مليون منزل تملك في داخلها ورشة يتمرن فيها رب العائلة على العمل المنهي اليسدوي ، بهوى مفيد للمنزل ، في وقت العوز . وانتهى زمن الانبار والمحازن والاقبية التي تحفظ فيها الامهات البقايا ويقلن « قد ينفع هذا يوماً » .

والاوربيون أنفسهم ، الذين عاشوا بضعة أشهر ، في زمن الحرب ، على الاكداس التي جمعتها أجيال أكثر منها مسكنة وبصراً بالعواقب ، ينسون الآن تذوق الاقتصاد في منازل صغيرة جداً ولا تتسع إلا للأساسي والمباشر .

ومهمة الاكداس أن « تدور » بسرعة . ففي بوسطن تصور موجهو مخزن فايلين « الكبير أن ينزلوا البضاعة التي لا تباع من الطابق الرابع

إلى الطابق الثالث بعد ثمانية أيام على العرض . ويتفق مع هذا «التراجع» انخفاض في الاسعار بـ ٢٠٪ . وبعد ثمانية أيام ، تبدأ مرحلة جديدة ، وهي إنزال البضائع إلى الطابق الثاني وتخفيض ٤٠٪ . وأخيراً تنزل إلى الطابق الاول وتباع بأقل من ٧٥٪ من ثمنها . والنقابة، إذا أمكن استخدام هذه الكلمة للبضاعة التي عرضت شهراً في الحزن ، توصل فيما بعد الى جيش السلام (الخلاص) أي إلى مؤسسات الاحسان الدينية .

الحزن ، هذا هو العدو . هذا هو نقد جميع هذه المخازن الكبرى المنشأة تبعاً لعدد سكان الجوار والمونة فقط بالكميوات أو الحافلات (واغونات) الكاملة ، والمصنوعة لزبائن دون عقد ، اعتادوا أن يختاروا دون دليل بين عشر أو مائة نوع معروفة ، ولكن بأسعار معلن عنها . ودون وسطاء ، في الواقع ، إن لم يكن ذلك في لحظة الدفع .

وفي الولايات المتحدة ، من ١٩٣٦ إلى ١٩٦٠ ، زال على هذا النحو مليون مركز بيع ، ونشأت ٣٦٠٠٠ سوق مركزي ، تقوم بـ ٧٠٪ من رقم أعمال الطعام .

وفي هذا الصعيد ، كما في الكثير من غيره ، وضعت أوربه على المقاييس الأمريكي . يوجد ٤٢ « خدمة حرة » من أجل ١٠٠٠٠ سويدي ، ١٢ من أجل ١٠٠٠٠ سويسري ، و ٨ من أجل ١٠٠٠٠ بريطاني .

وفي فرنسا ، الأرقام أقل افصاحاً بكثير .

وإذا كان صحيحاً ، من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٣ ، أن أكثر من ٢٣٠٠٠ مؤسسة تجارية غذائية وأكثر من ١٣٠٠٠ دكان نسيج قد زالت ، ففي الوقت نفسه كان توسع النشاط والابداع ، على الأقل في الطعام ، أكثر منها عدداً بكثير . وهناك مخازن كبرى ، مثل مخزن الربيع في باريس ، فهو يستخدم ١٣٠٠٠ شخص ، ولكن التجارة الصغرى لم تحذف . وهي

مدينة بجبانها ، ولا يعلم لأي زمن ، لفردية الزبائن الفرنسية أكثر منها لجهود التجديد التي جرت محاولتها هنا كما في مكان آخر ، ولكنها لم تعرف في البلاد الأخرى نفس النجاح . ومثل مخزن الربيع ، توجد مخازن كبرى في كل مدينة أو عاصمة كبرى تكتظ فيها النفوس البشرية .

بعض صور الحركة

ودونما كل أو ملل تعود وسائل الإعلام وتكرر شعار كسب الوقت . إن السيارة التي تدور « بـ ١٥٠ كرونو » : كسب للوقت . وكسب للوقت ، السوق المركزي . وكسب للوقت الغسالات الكهربائية ، والثلاجات المجمدات للمنتوجات الغذائية ، والمكنسة الكهربائية ..

وهذا الكسب للوقت ماذا يعمل به ؟

أولاً ، إذا كان صحيحاً أن ساعات العمل في العالم الغربي آخذة في كل مكان بالتناقص ؛ وإذا كان صحيحاً ، باستثناء بعض بلاد البحر المتوسط ، أن اليوم المستمر له في كل مكان حق المدينة ، أي حق القيام بالأعمال ، فإن الأشياء ليست بسيطة جداً .

إن الوقت الذي يقضى في العمل لا يمثل أكثر من ست إلى سبع ساعات في اليوم ، ولكن يجب ، في الغالب ، أكثر من ساعة ونصف لبلوغ مكان العمل . ومثل ذلك للعودة . والمسافات الأهم من غيرها ليست نادرة وكل شيء يسهم في تطويلها . ففي ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ كم تملك كل مدينة كبرى تاجها من المدن - التابعة التي فقدت كل شخصية وسميت ببساطة « المدن - المهاجع » . وهذه المدن ، التي هي خزانات للشعب ، تحرر كل صباح مئات الألوف من الناس وتركهم لمشاكل

المروور . وشيئاً فشيئاً يميل سكان الضواحي في الغالب إلى تقليد هذه الجماهير الأمريكية التي تتوكل سياراتها في براكات واسعة واقعة على حدود المدينة العملاقة وتلجأ بعد ذلك إلى وسائل النقل تحت الأرض .

وهذه الرحلات اليومية ، التي تكون فيها ١٠٠ كم شيئاً عادياً للكثير من الناس ، كانت تؤلف قبل قرن مغامرات فائقة وشاقة . أما اليوم فتشجع على هجرات هامة دوماً . لأن ولادة الانسان وحياته وموته في نفس الدار ، وفي نفس القرية وحوله عائلة بجمعة وجيران معروفون ، لم تعد مثلاً أعلى للحياة . وعلى الأقل لمن يريدون متابعة الثروة في سباقها المربك .

ولم يعد المنزل بالنسبة للكثيرين سوى مكان مرور ، ويحسن حقاً أن يجعل ساراً على قدر الإمكان ، ولكن يعلم انه قابل للتغيير . أما فكرة البعثة العائلية الدائمة فهي مرتبطة بسهولة الترحال ، وضرورات الدراسة والتنقلات التي تقوم بها المعامل ، من أقصى البلاد لأقصاها ، بحثاً عن أراضي واسعة أو مواد أولية أقل كلفة .

والفلاحون أو العمال الشيوخ هم الذين يتعلقون بعدد بالأرض ومنظر الجدود . أما الشباب فهم مأخوذون رويداً رويداً بمثل الحركية الاسطورية الأمريكية . ويقدر ، في الواقع ، في كل سنة أن ٢٠٪ من سكان الولايات المتحدة يترك مكاناً في سبيل آخر ، ملاحقاً عملاً أكثر نفعاً وفائدة . وهكذا تبعت ملايين الرجال والنساء المعامل على الأكثر . إن مصانع الطائرات والرحاب البحرية تجذبهم . وهم الآن في خدمة الذرة ، تحت شمس كاليفورنيا .

وينتقلون بسهولة لاسياً وأنهم كلهم يملكون ناقلات وأن سيارة « القافلة » تنوب عندهم أحياناً مناب سكن أو مأوى ، وأنهم كلهم

بفضل الهاتف والراديو والتلفزيون على اتصال بكل ما يحدث ويبدع .
وكل ما ينمو من الأرض من أقصى البلاد الواسعة لأقصاها .

ويذكر ، على سبيل المثال ، أن موظفاً في مكتب لسوق الزنوج
العاطلين عن العمل في شيكاغو كان يسأل العمال ، كشئ طبيعي في هذا العالم ،
عن رقم هواتفهم ، وكانوا كلهم قد جاءوا إليه بسياراتهم .

وفي هذا البلد ، الذي ليست فيه السيارة ، رغم ملاحظات بعض
علماء الاجتماع ، دليلاً على الثروة والنجاح الاجتماعي ، يوجد ٨٠ مليون
سيارة تسهل العمل اليومي والهرب العائلي بأعطائنا إلى الإنسان ، حبيس
عالم المدن ، الحركية التي لا غنى عنها .

وهذه المدن العظيمة الضخمة ، التي تغطيها سماء دنيا ورمادية باستمرار
تقريباً تكثف الصخب كله والروائح كلها ، يجب تركها . ان نيويورك
تفرغ كل مساء ، تاركة للجمال الوحيد لمنظر الاسمنت والفولاذ ، ملايين
النوافذ المتارة على امتداد المكاتب الشاغرة . وتفرغ باريس في نهاية كل
أسبوع عمل .

والسيارة - التي في سبيلها يحرم الانسان نفسه من الغذاء ، ومن
أجلها قد يناضل عندما يجب إيجاد محل له ، السيارة - المرأة ، فتح
سنوات ٥٣ إلى ٦٠ ، التي انتقلت فيها نسبة العائلات العمالية الآلية ،
في فرنسا ، من ٨ إلى ٢٤٪ ، فتسح اكتسب نهائياً في ١٩٦٤ ،
السنة التي اشترى فيها المستخدمون والعمال ثلث السيارات الجديدة -
أصبحت هذا البساط السحري الذي يوصل ، أفضل من القطار وأفضل من
الطائرة الجديدة بعد ، إلى ملكوت العطلة الصيفية هذا الملكوت الذي
هو هدف جميع الاحلام وجميع الاناقات والعنايات .

ولكن السيارة ملكوت مكلف ككل الملكوتات ، ولكن الغربيين ما فتنوا يستقون منه التجديدات وآيات السحر والفتنة .

وبعد أن كانت العطلة ، حتى ١٩٣٦ ، في فرنسا ، مثلاً ، قاصرة على بضعة آلاف من الأشخاص « المتمازين » ، أصبحت الآن ، بفضل تطويلها وكثرة الصيغ الوجدانية ، وقلة كلفتها ، تتناول جمهوراً واسعاً من الناس آخذاً بالازدياد كل سنة .

في ١٩٥٥ عممت الحكومة الفرنسية الاسبوع الثالث للعطلة وجعلته رسمياً في ١٩٥٦ . وبعد عشرة أعوام أصبح الاسبوع الرابع هادياً وعممه قانون صدر في ١٩٦٨ ، وشيئاً فشيئاً ، في الغالب ، تنافس عطلات الثلج ، في توزيع الوقت الحر وإمكانيات الموازنة ، عطلات الشمس .

في ١٩٦١ ، وجد أن ٦٢٪ من الفرنسيين ، الذين سألهم المعهد القومي للاحصائيات ، لم يأخذوا عطلة خارج مدينة إقامتهم . ثم استؤنف البحث ، بعد ثلاثة أعوام ، ف لوحظ أن نسبة المستفيدين من العطلة ازدادت بـ ١٠٪ ، على حين أن مدة الزمن الذي يقضى في العطلة ازدادت بـ ٩٪ ، وإن موازنة العطلة ازدادت ١٠٪ في العام ، وموازنة ترقية أوقات الفراغ عند الفرنسيين انتقلت بين ١٩٥٠ و ١٩٦٣ من ٩٥٧ إلى ١٣٦٪ في نفقات العائلة .

إن منظر فرنسا المدينة الحالية في آب ، لان ٤٠٪ ممن يتمتعون بالعطلة تكون عطلتهم في هذا الشهر ، ومنظر شواطئ الاطلسي أو البحر المتوسط ، المكتظة كاملاً بالاجساد البشرية ، مألوف جداً ولا حاجة للاصلاح على هذا الحادث الذي يس أيضاً جميع البلاد الاوربية .

ولا يكتفى بالذهاب من نقطة لاخرى ، ومبادلة منزل في مدينة

كبرى مقابل « استبحار » دار على شاطئ البحر ، على حافة الأمواج .
وبفضل تكاثر عدد السيارات الخاصة (في فرنسا ١٢٥٠٠٠٠ في ١٩٤٩ ،
وأكثر من ٨٠٠٠ ٠٠٠ في ١٩٦٥) ، وهي سيارات لا يستعملها الكثير
من العائلات بحق الا في شهر أو أسابيع آب ، أصبح المنتمون بالعطلة ،
بالنسبة لأصحاب الفنادق ، زوار ليلة ، ثم يسافرون مع القجر نحو آفاق
جديدة وغذاء اقتصادي علي العشب .

والفرنسيون ، الذين كانوا مجهلون في السابق الجغرافيا ، يجتازون الآن
الحدود ، وذلك في سبيل البحث عن أسعار مفيدة أكثر من مناظر جديدة
وهيئات جمالية تمل الى التفاهة ، لأن السياحة لا تنمي الا دولكلور الهوى
النفسي ، ويتجمعون ، في اسبانيا ، مثلاً ، في المدن ، التي تكاد تكون
كلها فرنسية لمدة ثلاثة أشهر .

وأخيراً ، ارتفع الستار الحديدي ، وبعد بضع سنوات على وفاة
ستالين ، أصبح الاتحاد السوفياتي والديمقراطيات الشعبية والصين نفسها ،
وبحيرة أكثر او اقل ، ارضاً للسياح تقطعها افواج منظمة . وسيكون
المقابل صحيحاً أيضاً . لأن هؤلاء الروس والرومانين والبلغاريين والبولنديين ،
الذين ظلوا حتى الآن تحت الحراسة الشديدة في داخل الحدود ، سيروا
الناس أخيراً .

عالم « الباقات البيضاء »

المراقب الذي يزور الصين بصورة منتظمة ، يلاحظ حديثاً ان
الجمهير الصينية تميل إلى الانتميز عن الجماهير الأوروبية ، لا عن جماهير باريس
أو نيويورك ، بل عن جماهير مازالت كامدة بعد ، جماهير بودابست أو موسكو .
قضايا مصرنا (١٩)

لقد مضى بعيداً الزمن الذي كانت فيه البدلة ، في الواقع كما في صور القواميس ، تساعد على معرفة الأمة ، وفي داخل كل أمة ، على الاقليم ، وأصبحت البدلة نفسها الآن لجميع الاقليم ولجميع الأمم .

وليست الاختلافات ، عندما توجد ، التفاصيل رقيقة تسجل تأخراً عن الموضة لا ارادة بالابتعاد عنها .

وفي الشارع ، أصبح من الصعب التمييز بالنسيج عاملاً من صاحب حرفة أو موظف مصرف . ولم تعد البدلة بدلة طبقة .

والرغبات نفسها ليست رغبات طبقة . فبتخفيض الأسعار سبب الانتاج الكثيف في المعامل زوال الحرف اليدوية . واعطت وسائل الاعلام ، التي تراها ملايين العيون ، في الوقت نفسه ، نفس الرغبة الى اناس مختلفين جداً ، بعيدين عن بعضهم بثبات أو بالوف الكيلومترات . وبدلاً كل شيء على هذا النحو في متناول الجميع ، كان يكون بواسطة قناة الاعتماد . ونشأ في الغرب مجتمع بظواهر طراز حياة وحيدة الشكل .

والطبقات الاجتماعية توجد دوماً ، ولكنها تتعارف شيئاً فشيئاً وبصعوبة . فالمساكن ، واوقات الفراغ ، ووسائل النقل ، والمفردات نفسها ، تحت ضغط الجريدة والراديو ، أصبحت واحدة ، ومن هذا القالب المشترك يخرج اناس متكيفون فوراً مع الحضارة والانتاج وفكرة الجماهير .

وبعداً الا يدل على شيء ان ٨٠ ٪ من الاميركيين المسؤولين صرحوا بأنهم اعضاء الطبقة الوسطى ، لأن كل العالم يريد ان يكون كذلك ، وأن الايطاليين اختاروا بأن يعطوا لأنفسهم يوماً علماً سياسياً و الانسان العادي ، ، الفابل للتغيير والمغفل ، لا عاملاً ولا فلاحاً ، عضو هذه الطبقة الثالثة ، التي تلتهم بسرعة الطبقات الاخرى !

وفي امريكا الشمالية ، كما في اوربه ، بالفعل ، كان جيش العمل
الواسع اولاً فلاحاً ، ثم عاملاً في فجر القرن العشرين . واليوم يأتي العمال
والفلاحون ويزيدون صفوف « الباقات البيضاء » : مستخدمين في التجارة ،
والمكاتب ، والادارة ، ويمثلون في الولايات المتحدة ٥٣ ٪ من المأجورين .
وفي فرنسا ، ايضاً ما فتئ رقمهم في تكثر . ويساقون بخاصة من بين
الفلاحين الشبان . وفي عشرة أعوام (من ١٩٥٣ الى ١٩٦٣) ، زال
٣٨٥٠٠٠ مستغل زراعي فرنسي . وفي ثمانية أعوام فقدت المحافظات
النورماندية والبروتانية ومحافظات وسط فرنسا ، محافظة الفار السياحية ،
ومحافظة افواه نهر الرون الصناعية ٢٠ ٪ من شعبها الزراعي العامل .
هذا وان ٦٠ ٪ من الفرنسيين يعيشون في المدن ، ويقدر أن يكون هذا الرقم
٨٠ ٪ في ١٩٨٥ .

الثورة الريفيه

وهذا الخلو من السكان في الارباب حادث عالمي ، طبيعي ، قديم ،
ولكنه أخذ يتسارع كلما تطلبت الآلات اراضي ممتدة للقيام بعملها بصورة ناجعة .
وان تعقيد وسعر هذه الآلات ، وطرق الزراعة وتربية الحيوانات الثورية
التي تنجبه إلى صياغة النبات أو الحيوان ، واخراجهما عن قوانين الجنس ،
وتكييفهما مع الحاجات العالمية ، تضطر المزارع إلى التخلص من القواعد
القديمة . وها هو ذا الآن صناعي وتاجر ، تلزمه أفكار ومفاهيم واكثر من
ذلك محاسبة وعلم الوراثة والاقتصاد السيامي .

وهذا الانسان الذي لا يشبه في شيء الفلاح التقليدي ، فلاح روايات
جورج سان ^(١) وفلاح لوحات ميه ^(٢) ، هذا الانسان الذي يختلف

Millet (٢)

George Sand (١)

عن أبيه ، وجيرانه الاكثر سنأ منه أو الذين يعيشون في أقاليم مجزأة أو متخلفة ، أصبح الآن يحيا نفس اسلوب حياة انسان المدينة .

في ١٩٢٦ ، انهى الاديب الفرنسي فرنسوا مورياك ^(١) على هذا النحر قطعة من الشجاعة الادبية مرفها ظل الكاتب الفرنسي لارويير : « الريف مأهول بالعجائز الدرداء من سن الخمسة وعشرين عاماً » .

ولم يكن هذا صحيحاً بعد اربعين عاماً لان الفلاحين أخذوا يهتمون بأنفسهم بعناية كسائر الفرنسيين . والنفقات الصحية تعتبر من بين النفقات التي زادت بشدة في اوروبا منذ آخر الحرب العالمية الثانية . وان ادخال وتوسع الضمان الاجتماعي مسؤولان لحسن الحظ عن هذا الحادث .

وهم يهتمون بأنفسهم ، وبفضل السيارة ، والتلفزيون ، وهذه المجالات التي ترى عالم البساقين الباهرة والبيوت المنظمة جيداً ، نجد عندهم أهداف الحياة اليومية التي تراها عند جميع أبناء وطنهم .

العالم على السائفة الصغيرة

ويجب أن نصر ، مرة اخرى ، على الدور الذي تلعبه في العالم وسائل المواصلات الحديثة . وذلك لأن الانسان لا يعيش فقط بالخبز والخطب ، بل تلزمه العاب . ففي الديموقراطيات الشعبية شوهدت الأعياد السياسية التي كانت أعياد التزام وتضم كثيراً من المشاركين لاسيما وأنها دون منافسة؛ ورويداً ورويداً هجرت لصالح لذائذ اخرى . وشوهد أن فرنسا كلها مغرمة بتقليبات « انترفيل » ^(٣) . وهذه الأعاجيب المقدسة ، التي تدخل في

François Moriac (٣)

La Bruyère (٤)

Intervilles (١)

صفاء العائلات والمحادثات وأحياناً الأحلام ، هي ما تسمى غربيتا غاربو ، شارل بوابه ، جيمس دين . مايس زيترون ، كاترين لانجيه ، لالو ، دومايه .

وهذه الحاجة في المشاركة بحياة العالم دون الخروج من المنزل ، وكون الانسان ممثلاً ومشاهد عامة فهي تصيب أولاً أفقر الناس مالا ومعرفة . وقد لوحظ على هذا النحو أن الراديو والتلفزيون في الاتحاد السوفياتي قد فتحا البيوت أكثر من الأجهزة المنزلية ، والملابس الغربية التي يلبسها الانسان حسب هواه ، والأقراص (التسجيلات) ، وأب أقل البيوت ثروة في فرنسا كانت أول البيوت التي اشتوت تلفزيون يحمل محل السينما ، والملعب والقصة ، والجريدة اليومية .

في ١٩٦٥ ، وجد ١٦ مليون تلفزيون في الاتحاد السوفياتي ، ولكن أيضاً ٧٠ مليون في الولايات المتحدة ، ١٤ مليون في انكلترا ، ١١ مليون في ألمانيا الغربية ، ٦ ملايين في فرنسا . وعلى هذا النحو نجد أن مئات الملايين من الناس يمكنهم في نفس اللحظة أن يروا ليونوف يخرج من قمره ويسهر في الفضاء ، وغامودي^(١) يكسب سباق الـ ٥٠٠٠ متر في مكسيكو ، وونستون تشرشل يقدم آخر تمثيل له إلى العالم ، ويحضر معجياً دفن قرن كما يحضر دفن انسان .

وبلغ المسرح والرياضة وحتى السياسة جماهير طارئة غير متوقعة اسماء تحضروها . ان المؤتمرات الصحفية المتلفزة لا تسمى هكذا الا بالتنازل عن مفردات تخطاها الزمن . وهي في الحقيقة مؤتمرات حقيقية للشعب ، هذا الشعب الذي يصعد به ، دون أن يباً ، حتى ايشيل^(٢) الشاعر المأسوي

Gammoudi (١)

Eschyle (٢)

- ٢٩٤ -

اليوناني ، وحتى جاري^(٣) الكاتب الفرنسي ، حتى أكثر أمرار الحياة والطب مربة نارادة بضعة عشرات محبي الفن والبديع ، ومحبي الظهور ، ورجال المواهب الذين يحكمون التلفزيون الذي يشغل قسطاً كبيراً من أوقات فراغنا .

وها هو ذا التلفزيون الذي صنع ليكون سهل الحمل ، وسيكون بعد قليل كالترازيستور رفيق المعسكر وسائق السيارة والمتنزه في نزهته .

ومن يريدون الخلاص منه آخذون رويداً رويداً بالتراجع ، ويشعرون شيئاً فشيئاً أنهم غرباء عن عالم مغلق من نظارة التلفزيون بمن تجمعه لغة واحدة ، ومعبودات واحدة ، وامثال واحد .

وهكذا تم الزمان الذي بدأ مع ولادة الراديو ولا حاجة للانسان لمعرفة القراءة والكتابة ليكون رجلاً سياسياً . وإن الراديو والتلفزيون اللذين ينشران الثقافة العامة لا ينشران بأقل منها الثقافة العالمية الكونية . ان جميع الموضوعات الآن فقدت قدسيتهما ، وان الولادات كتجديد الولادات تشغل موائد عائلية كانت تأتي من قريب على ذكر هذه الأمرار بالمشاركة الحبيبة للورود والفلقات والملفوف .

حكم ١٧ - ٢٤

انتصرت المرأة والمراهق .

بالنسبة للمرأة ، لقد مضى زمن طويل وحركة التحرير في وضع حسن ، وكان الرق النسوي في الغالب شكلاً للحكم . وتمت ثورة الخمسين سنة الأخيرة ، وأصبحت المرأة سيدة مطلقة تقريباً في الحياة اليومية . وليست فقط سيدة الطعام كما كانت منذ الأزل ، بل اللباس والسكن وتربية أوقات الفراغ .

واذا تصفحت المجلات الاسبوعية النسوبة التي تثقلها وتغنيها وسائل الاعلام الوفرة ، فهم عندئذ ، بالاغراءات التي تكون هدفاً لها ، ان المرأة أصبحت في جميع المرافق تقريباً (في فرنسا يبدو ان السيارة نجت منها بشكل عريض) ، اكبر «مشتوبة» في العالم الغربي .

انها تشتري بالمال الذي كسبه زوجها ، ولكن ايضاً ، بالمال الذي تكسبه ايضاً ، لأن النساء اذا لم يكن دوماً كثرات شيئاً فشيئاً للعمل (في فرنسا نسبتهن نفس النسبة التي كانت في ١٩٠٠) فهن يسجلن نقاطاً فيما يمكن ان يبدو فتحاً مزدوجاً مستحيل التحقيق : مساواة الأجور ، والوصول الى جميع الوظائف . ومن الملاحظ أخيراً ، في الولايات المتحدة ، ان النساء ، من ٤٥ الى ٦٤ عاماً ، اللواتي انتقلت نسبة نشاطهن ، في عشرة اعوام ، من ٢٩ الى ٤٢ ٪ ، هن المستفيدات الأساسيات من انشاءات الاستخدام .

ان تطور دور المرأة كان بطيئاً نسبياً .

وبسرعة اكثر بكثير يشق المراهقون طويقهم . ولا شك ان الباكورة موجودة في كل العهود ، وان الجنرال بومبي - رابوتين ، في سن السادسة عشر عاماً ، كان يقود قطعة جيش في سهول اللورين ، وات باسكال كتب في سن الـ ١٦ عاماً محاولة في المخروطيات ؛ وفي الثامن عشرة اخترع الآلة الحاسبة . ولكن الشبيبة كلها مأخوذة اليوم بأفطع الثورات . فلها جرائدها ، نواديها ، اقراسها (٢٣ مليون قرص دمت ، في ١٩٦٢ على يد الشبان الفرنسيين) . ولها آلهتها ، وموضاتها . ولم لا ؟ لقد أصبحت الشبيبة وهنا . اليس عندها المال الضروري والرغبة الضرورية للاستجابة لجميع المغريات ؟

- ٢٩٦ -

والتفجر السكاني ، الذي تلا سنوات بعد الحرب في كل مكان (في ١٥ عاماً زاد الشعب الفرنسي أكثر مما زاد في قرن ، وازداد العالم بـ ٥٧ مليون نسمة وفوه في ١٩٦٤) ، لم تكن له نتائج الا على السكن والتعليم .

لقد قلب التجارة وطرح في السوق ملايين المستهلكين - ٥ ملايين فرنسي عمرهم بين ١٥ و ٢٠ عاماً - أثرت أذواقهم ومتطلباتهم على حياة الراشدين اليومية . فالشبان هم في أصل النجاح الفائق الذي لاقاه الترانزستور وسيارة الرياضة ، والشرع ، والتزحلق على الثلج (السكي) ، وموسيقى الجاز التي سجلت أو لعبت في صالات كان ملاكوها يرتجفون خوفاً على كراسيهم . لأن هؤلاء الشبان عندهم المال . هذه هي السكلة الكبرى التي أطلقت . ويقدر على هذا النحوب ٥ مليارات فرنك ، في ١٩٦٥ ، المال الذي صرفه فتيان الـ ١٥ - ٢٠ عاماً الفرنسيون ، وأن موازنة أحمر الشفاه للفتيات الأمريكيات ، في ١٩٦٢ ، بلغت ٢٠ مليون دولار ، وموازنة مزيلات الراحمة مليون ٢٥ ، وما يقارب الـ ٢ مليون من « فتيان العشرة أعوام » يملكون سيارة . وإذا كسبوا هذا المال بالعمل على هامش دراساتهم (وهذا اليوم غالب جداً) أو أخذوه من أوليائهم ، فهم مستقرون بصلابة ، منذ ١٤ عاماً ، في عالم المستهلكين . فكيف لا يبدلونه بصورة جذرية وليس عندهم ذوق ولا سن التوفير ، بل ذوق وسن المغامرة المباشرة ؟

المال في العصر الاول

ان أهمية المال في الحياة اليومية لا يرجع تاريخها إلى ١٩٤٥ . ولكن المال لم يعد امتيازاً وقلقاً لطبقة اجتماعية . ولنفكر بالفلاحين الذين يعيشون في اكتفائية كاملة تقريباً ، ولا يقبضون بعض الأوراق النقدية ، إلا بعد

يسع عجل . وبالعالم ، فأجرتهم الثابتة تحدد الأفق باستمرار ، ولا ينجدهم
الاعتماد . وبالنساء المحددات لنفقاتهن ، ليس فقط بسبب موارد العائلة ،
ولكن بارادة الزوج الطيبة . والفتيان الذين ترضيهم مرآة بخمسة فلوس
أو لعبة منها فرنك واحد . . .

إن مئات ملايين الناس ، الذين يستجيبون لجميع اغراءات الأعلام
والجارات المنظمة بصرة علمية ، دخلوا اليوم في دورة المال سيداً أكثر
منه خادماً .

ومن الخطأ ، عندما ترى الجماهير تقف يوم العيد ، الأحد مثلاً ،
لا أمام الكاثدرائيات بل أمام مائدة الشراب حيث تسلم قسائم الرهان على
الثلاثة خيول الأولى في السباق ، ومن الخطأ أن يوجد ، في كثير من
المليارات المتروكة للصدقة ، الدليل على أن الفرنسيين عندهم مال كثير .
بل ، بالعكس ، الدليل على أنهم لا يملكون منه ما يكفي لارضاء العطش
إلى حياة أفضل الذي استول عليهم دون تمييز طبقة من أخرى .

محاولة تعريف السعادة

عندما كتب سان - جوست : « السعادة فكرة جديدة في أوربة » ،
كان الفلاحون والعمال الفرنسيون يحبون حقاً حياة بسيطة ، ولكن
الفلسفة تدخل في عبارة سان - جوست أكثر من تذوق التقدم المادي المباشر .
السعادة ؟ أي سعادة ؟ ان تعريفها يختلف حسب العهود ، والأديان ،
والطبقات الاجتماعية . وعلى أي حال ، يدل على ذلك باختصار بالصورة التي
أعطاها صحفي باريس في ١٩٦٥ آخذاً بعين الاعتبار دعوى قتل : « في
العام الأربعين ، كان لدى ماري - لويز كل ما يمكن أن تشتهي مرأة :
منزل جميل ، بنت ساحرة ، شعرها ذهبي ، وزوج مجامل ، ضابط طيران

- ٢٩٨ -

لامع يبشر بمستقبل جميل جداً ، زوج أراد دوماً سعادة ذويه ، قدم إلى زوجته سيارة رياضة وأغدق اللعب على ابنته .

المنزل ، والسيارة ، والتسلية ، اللذات الثلاث التي توجه الحياة اليومية لكثير من الغربيين ، تذكر على هذا النحو حتى في قصة جريمة حب ، كما لو كانت قادرة على اشباع جميع الرغبات ، وطرد جميع الأهواء وجعل جميع العواطف فضولاً .

المنزل ، السيارة ، التسلية ، هذه الكلمات مفتاح حياتنا اليومية تعطي مع ذلك فكرة ناقصة عن التطور المادي للناس .

ان عالم الأغنياء الميسورين ، أو ، على الأقل ، عالم الذين ينمون في طريق جميع التحسينات التقنية ، يقابله ويعارضه ، في الواقع ، عالم المتخلفين ، والسيشي التغذية والسيشي السكن والمتعلمين قليلاً .

وتبقى التقديرات ناقصة جداً ، ولكن ما يشبه الحقيقة أن أكثر من ثلثي الناس تابعون لهذا العالم البائس . وعددهم يزداد ، كل سنة ، وبسرعة جداً ، وجمهور الشيخي التغذية يعظم ، بينما يتناقص على الأقل في النسبة المئوية - جمهور الممتازين . وقد اجتمع في بلغراد ، في ايلول ١٩٦٥ ، بمناسبة المؤتمر الثاني العالمي للسكان ، ألف خبير من جميع البلاد وتنبؤوا بأن سكان الأرض لا يبلغون ما يقارب ٧ مليارات انسان في العام ٢٠٠٠ فحسب ، بل أيضاً ان الجماعات الهامة ستنفجر من هنا إلى ١٩٧٥ في مناطق مختلفة من الكرة .

ذلك أن تقدم الطب لا يحمل ثماره فقط في العالم الغربي ، لأن مفعوله كان جذرياً أيضاً عندما طبق في البلاد الجديدة . وترى الصين ، الهند ، اندونيسيا ، البرازيل ، مصر ، الجزائر ، على هذا النحو ، كل سنة ،

أن عدد الأفواه التي يجب اطعامها يزداد بنسب تفوق بكثير نمو الانتاج .
ولنأخذ مثل مصر . فمن ١٩١٣ إلى ١٩٥٧ ، ازداد الدخل القومي
بـ ٦٥٪ . وفي الوقت نفسه ازداد الشعب ٨٢٪ . وهذا التفاوت في النسبة
سيؤدي بصورة طبيعية إلى انخفاض هام في الدخل الوسطي للفرد .

تحت قشرة الحضارة

لقد ظل التفاوت بين الطبقات الاجتماعية واسعاً في جميع البلاد المسماة
« بلاد في طريق التنمية » .

لنحك قشرة الحضارة ، يظهر العصر الوسيط من جديد . ففي هذه
البلاد شقت طرق فسيحة وشوارع عريضة ، وشيدت أبنية ضخمة جديدة
بمائلة لما في اوروبا وامريكا ، وتحررت المرأة ، ودرست في الجامعات ، وفتحت
سينما ، ووضعت برامج للراديو والتلفزيون تعمل ليل نهار . وفي الأرياف
وزع الاصلاح الزراعي الأراضي على الفلاحين ، ولكن معظم القرى مازالت
في حالة متأخرة ينقصها الماء والكهرباء ، ولا يتوصل إليها إلا بصعوبة
وبواسطة طرق غبراء في الصيف ، موحلة في الشتاء ، وتؤلف عقبة
للمواصلات أكثر منها رابطة بين القرى والمدن .

وفي هذه القرى يعيش السكان في أكواخ من الطين والتبن معرضين
لكثير من الأمراض المستوطنة . والفقر فيها ضارب أطنابه ويفسر جميع
الآلام الأخرى . والوفيات كثيرة ، ومع ذلك فالسكان في تزايد .
وبالرغم من الجهود التي تبذلها الحكومات في رفع مستوى حياة هؤلاء
السكان ، يبدو أن عليها الكثير والكثير للوصول بهم إلى العيش الكريم ،
لان التخلف ما زال مقيماً وتحتاج ازالته إلى زمن طويل .

الحياة اليومية للفلاح هندي

الارقام تدهش وتحير .

ومع ذلك ، فمن الصحيح أن الدخل السنوي لبعض الفلاحين المصريين لا يتجاوز ٣٥ فرنكا ، وكثير من العمال الفلاحين في مصر السفلى آباء ستة أو سبعة أطفال يكسبون ما يعادل فرنكين فرنسيين في اليوم .

وفي هذه الظروف ماهي الاجابة التي يجب توجيهها إلى جميع العروض ، إلى جميع مغربات الحضارة والآلة ؟

بالنسبة للملايين من الناس الكمات والاشياء الجديدة ليست الا آلهة من سماء لا يمكن الوصول إليها ، من سماء خاصة بالبيض ، بالمستعمرين وبالاغنياء . الحياة اليومية إذن تقضى في أعمال صغيرة ، تأملات صغيرة ، ثروة طويّة ، واغفاءات مدبّدة .

والطائرات النفائّة الحديثة تشق سماء الهند . ونحت عشرة الاف متر ، وعلى ارض تضاعف سكانها في ستين عاماً ، يعيش هندي « المتوسط » بما يقابل ١٠١ فرنك في اليوم . ويوجد فقراء أفقر من هؤلاء الفقراء . وهؤلاء (٥٠ مليون تقريباً) لا يتصرفون الا بـ ٢٥ فرنك في اليوم : وهو ثمن ربع لتر من الحليب .

إن ثلاثة هنود على أربعة فلاحون ، وريفيين هنديين على أربعة لا يملكان ارضاً ، ويؤجرون بالملايين إلى كبار الملاكين ، ويعيشون بمنزلة القردة والفئران والأبقار المقدسة على طعامها .

وهنا ، ورغم نجاحات الخطط الخمسية التي لاتزاع فيها - يتعمل الريفي دوماً ما اسماء المؤرخ تيبود مالد (١) « وزن مالا وزن لها » :

أي الأمية ، عدم معرفة القراءة والكتابة ، والتقاليد التي تدوم حتى النصف الثاني من القرن العشرين ، وحركات وافكار من قرب آخر ، وديانة ضيقة ، أخيراً ، تقطع قسماً من السكان عن الحياة اليومية العادية .

ويسكن الفلاح الهندي داراً صغيرة من الطين والتبن ويتقاسمها مع حيواناته . وفي المستنقع الذي يستقي منه الماء يقتل الناس وتزوي الحيوانات . ولا يوجد أو يوجد القليل من الماء من أحل الحقول ، ولا توجد دمن أيضاً لأن نخي البقر الملتصق بشكل كتل على طول الاشجار والجدران يفيد بصورة أساسية كمحروقات . وكما في مصر وفي كل العالم الثالث ، تساعد الادوات القديمة العتيقة في الغالب على إطالة الاعمال التي لو سامت للآلة لانجزت بسرعة ويكون ختامها اضافة أيام عطلة إلى أيام عطلة عديدة من قبل . وفي المدن الكبرى تكون الظروف الانسانية درامية اكثر مما في غيرها . فالزحام ، والجوار ، والفقدان الكلي لابسط أنواع الرفاه تأخذ ، عند فقدان الزينة الريفية لحيويتها ، طابعاً من الحزن لا يمكن تفسيره . ومن لم ير كالكوتا ، ومن لم يسمع سعال كالكوتا ، عندما يقبل الليل ، سعال يمز مليوناً ونصف المليون من البشر ، على اصرة من ورق الجرائد ، ومن لم يش في كالكوتا ولم يسمع شكوى الشحادين التي لا تنتهي ، لا يمكن أن يزعم بأنه يعرف جهنم المدن الكبرى .

إن ما يمكن أن تعتز به الحضارة الحديثة وهو : السكن ، التسلية ، الطعام الصافي ، لا يوجد الا لبعض عشرات الالوف من الممتازين المقيمين في احياء اوربية ، حيث يستطيع السائح أن يعيش جيداً في هواء مكيف . والشحادون انفسهم فئة تابعة للفولكلور أي للتقاليد الشعبية . لناخذ إذن المراكز الاساسية للموازنة الغربية ولنطبقها على الهندي ، على فئات الملايين من الهنود .

- ٣٠٢ -

المسكن ؟ الشارع غالباً ، حيث يحب ، ويولد ، ويعيش ، ويموت . وهو هكذا بالنسبة للبائسين الذين يؤلفون جوقه . والآخرون ، بعدد كبير يسكنون أكواخاً أعلى من القن بقليل ، مصنوعة من صفيح متموج وبقايا صناديق ، وتفرش بورق الجريدة . وبين هذه الاكواخ تركد عرصات قدرة تخرج منها روائح عفنة يدوي فيها الذباب والبعوض . وعلى بعد قليل ، تعيش عائلات بكامها أربعة أو خمسة أشخاص مع فرنها وادوات منزلها في حجرات تكاد تتسع لثلاثة أشخاص . وابتعد من ذلك بقليل ، في هذه الاحياء الصناعية المأهولة بالرجال اكثر من النساء ، يتناوب العمال ويتوالون بورديات من ثلاثين أو من اربعين في مهاجع واسعة عارية نائسة تذكر بمهاجع الشحادين في بدايات اوربه الرأسمالية ، حيث كان الحبل يتحمل نعاس البائسين .

الطعام ؟ في الاكثريه الواسعة للعائلات العمالية تخصص ثلاثة ارباع المكاسب لشراء الطعام وثلثه من الرز ، الذي هو أساس التغذية ، وفي العائلات البورجوازية الصغيرة كادت الحال أن تتمسك .

ومعظم الناس يعانون مشقة في اطعام اطفالهم ، والغياب بسبب سوء التغذية يفتك فتكاً ذريعاً بالمستخدمين وصغار الموظفين . ويبدو لهذه الملايين من الناس ، التي لا يسمح لها عملها بالحياة ، أن المرامي هو المساعد الوحيد الممكن ، ولكنه مساعد مخرب ايضاً .

وإذا اخذنا بالتحقيق الرسمي الذي أجري في ١٩٤٦ ، والنسب فيه لم تتغير منذ ذلك التاريخ ، نجد ان ٥٣ ٪ من عمال معمل بومبي و ٩٥ ٪ من عائلات مدارس مدينين ، وهذا يعني فقراً دائماً لاناس فقراء من قبل ويستغلون دوماً بأمل التحرر من ديونهم والفوائد الباهظة الآخذة بالازدياد كل سنة .

التسلية ؟ بأي تسلية يمكن أن يشارك الفلاح أو العامل الهندي الذي يكسب ثلاث أو اربع روبيات في اليوم ، ماعدا ، احيانا جلسة سينما تصبح تاريخاً في ذاكرته أو ، بالاحرى ، هذه المشاهد التي لا عد لها في الشارع من البهلوانين وسعرة الافاعي ، وأكلة النار الذين يجذبون الجماهير الغرة الى هذه الاعياد الدينية الملونة التي تعتبر بالنسبة للفقراء كالحبز اليومي ؟

وقليل وسائل النقل الشخصية بالبداية تستعمل القطارات والباصات البطيئة وغير المريحة والمثقلة . ولا يوجد « مخازن » على الصورة الغربية الا في بعض احياء المـدـن الكبرى ، بل اسواق تتجاوز فيها الاقمشة والاغذية والبضاعة ، ويوجد قليل او لا يوجد مطالعات . ولكن الجماهير التي لا تعرف القراءة والكتابة ، ظلت طويلاً حساسة بالشعر المسرحي والاعراض الدينية والشعبية . وهنا كما في مكان آخر ، في العالم الثالث ، يقوم الراديو بديلاً . فيكفي مضخم للصوت يقام في ساحة قرية ليفيد الجميع من الموسيقى والخطب ...

وفي الحقيقة ، بهذا المضخم للصوت المقام في ساحة القرية ، وبشاشة التلفزيون هذه ، كعين مفتوحة على العالم ، تتولد الغيرة الكبرى ، والاطمح العظيمة والمنازعات الكبرى ، والتحويلات الكبرى في السنوات الآتية .

الفصل السابع

عصر العلم

كانت الحركة العلمية معتبرة حتى بداية هذا القرن حركة أفكار ؛ وكانت تفسر ثورة كـنتيجة منطقية لتقدم الفكر البشري ، وثارة كتعبير عن حضارة أو عصر . وتظهر جهازاً عقلياً ، ورؤية ، ومحاولة لفهم العالم أكثر من ارادة تغييره . والثورة الصناعية نفسها لم تأخذ تقنياتها الا بصورة غير تامة عن أعمال العلماء : لان اختراع صاحب الحرفة ، والمهندس كان أكثر اعتباراً . ولكن العلاقات تبدلت بشكل ملحوظ في هذا النصف الثاني من القرن العشرين : لان التقدم العلمي لم يظهر كدعماء للنمو الاقتصادي واساس للتسلسلات الحقيقية بين المجتمعات ، وضمان لقوة الدولة واستقلالها فحسب ، بل ظهر يصوغ الحضارة بكاملها حتى في انعامها اليومية . وليس العلم معرفة فقط ، بل انه يجعل من نفسه تنظيمياً ، وصناعة . وهو يفقد بنفسه ، في هذا التحويل ، قسماً من صفاته السابقة : لان حب اطلاع العالم يتنازل امام سياسة العلم ومتطلبات التقنية . والتعقيل هو في آن واحد مبدأ المجتمعات وهدفها ، ولكنه لا يوجه ، بدوره ، عمل الامناء على العلم أي « العلماء » بل « الباحثين » .

وهذا التحول المزدوج في العلاقات بين العلم والمجتمع ، والقسم الذي تأخذه ، في كل مرة ، وساطة التقنية ، يميزان العالم المعاصر مباشرة ، وربما أكثر من الصورة المتبدلة له التسارع . لأن للتغيير مركات ومظاهر متنوعة .

- ٣٠٥ -

والقطيعة في التيارات الفكرية ، القطيعة العلمية في لغة الفلسفة ، تقع ولاشك في آخر القرن التاسع عشر : ودون ان تم فتحت ، في ذلك الحين ، قضية واسعة وهي انها طرحت على بساط البحث من جديد قضية القيم ، وتصور العالم ، والحياة ورجالاً يحملون اسم : اينشتاين ، بلانك ، قرويد ، دركهيم ، هاندل ، دو فويس ، بافلوف . وانطلاقاً من هذه الثورة الفكرية ، أصبحت الحركة مغفلة . وخلف عصر النقباء الكبار عصر الفرق ، والبرامج ، والالتزام على جهات متعددة ، والتخصص ، والابتعاد عن المناقشات الكبرى فيما وراء الطبيعة . والاضاءة اذن متجهة بشكل أقل نحو النظرية نفسها والبحث الأسامي بما هي متجهة نحو هذه النتائج الجزئية التي توضح سلطة البشر . ان التجديد النقني المتأني في الغالب ، بعد نضج طويل كثيراً او قليلاً ، عن تلاقي عدة اكتشافات علمية والمثير بدوره امكانيات جديدة للبحث ، هو مفتاح هذا الزمن : لقد كان جيل ١٩٠٠ يعرف في العالم الضيق لـ « الفكر » بالنسبية ، والكوانتا ، والتحليل النفسي أو قوانين الوراثة ؛ أماجيل السنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٠ فعلى سلم عمل واستعلام واسعين ، بالطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وتطعيمات العضو او مراقبة نمو الخلية . وغزو الفضاء نفسه ، انما هو جمع عجيب من التقنيات التي تفتح نجاحها في مغامرة القرن . وإذا سجل التجديد حساسية العصر ، فذلك ليس الاعلام : لا ما يبقى في مستوى الاقتصادات والمجتمعات هو ان نعرف الدرجات وميادين التطبيق ، واستعداد هذه وثلك للتمثل والقيادة أو تحمل ما يأتي به البحث .

لأن المجتمعات الصناعية لم تصبح فقط علمية بامتثاله كتجديدات . انما قضايا عصرنا (٢٠)

تريد ان تكون علمية ، في الدرجة الثانية ، بالشكل الذي تسير به نفسها وتوجه سلوكها بنفسها . ودون الذهاب حتى اسطورة سلطة العلميين ، تريد أن تبسط ميدان قراراتها العقلانية . ان التفكير بالعالم ١٩٨٥ ، الذي يعده فريق فرنسي من المخططين ، يعبر عن هذه الارادة : « ربما ترجع بعض التطورات العميقة في المستقبل إلى غرو هام جداً في العلوم الانسانية [...] . ومن الممكن ان تنجم عنها معرفة افضل لسلوك الأفراد والجماعات حيال البيئة التي تحيط بهم ، وبالتالي ، وسائل تحسين هذا السلوك . وهكذا يمكن الايقال بأن التقنية ، بالمعنى الاتباعي للمصطلح ، في تقدم دائم عن الباقي أو ، وهذا يعني العودة إلى نفس الشيء ، انه لا توجد قضايا تقنية ، ولا يوجد إلا قضايا انسانية » .

ومع ذلك فان العلوم الانسانية تشغل موقعاً غير مريح : فقد أميء تخليصها من الفصاحة والبلاغة ، ولم تتوصل دون صعوبات الى توسيع التجربة الاكينية ومزجها بدرجة الشكلية ؛ وهي في آن واحد موضع دراسة ووسيلة تنظيم وانعكاس : باعتبارها مأخوذة بين الاهتمامات المتعارضة لاستعمالها لتنظيم بسيط للمجتمعات الموجودة الحاضرة أو لجعلها أدوات نقد اجتماعي معمم ؛ وات الابدلوجيا ، الضمنية أو الصريحة تدمجها بعحق . واليها ترجع ، في القسم الاعظم ، المناقشات الفلسفية التي اقامها القرن التاسع عشر حول علوم الطبيعة او التاريخ .

والعلوم الانسانية لاتعمل الا في زيادة صعوبات الحكم التاريخي على الحركة العلمية وحتى التكنولوجيا : لأن الميدان العقلائي ، وبعض العمومية يتسعين ، ولاشك ؛ ولكن الحركة لاتنجو من طابع المجتمعات ، واكثر ذلك ان تمتص كاملاً فيها . وان مايسمى فرقاً في اللون بين المجتمعات المصنعة التي ينتسب اليها الاتحاد السوفياتي ، يصبح تبايناً على السلم العالمي اذا اخذت بعين الاعتبار تفاوتات التنمية والتراثات الثقافية .

تعصير العلم

لقد خرج العلم من العسالم الخاص للجامعات والمجامع العلمية (الاكاديميات) ؛ ومن المغامرة الفكرية ، الفردية ، وتحول إلى جهد جماعي للتغيير . والحركة مزدوجة في هذا المعنى ، لأنها تربط بصورة وثيقة البحث العلمي والتكنولوجي ، وتدمج كليهما في الأشكال المسيطرة للتنظيم الاجتماعي وهي المشاريع أو الدول . وهذان الشرطان ليسا إلا تعبيراً لنزعة واحدة تشير إلى تطور المجتمعات الصناعية . والمكان الجديد الذي يحتله العلم يؤدي اذن بالضرورة إلى تعريف سياسة علمية ، وخلق نظام لتسيير البحث وتنشيطه . وهذا التنظيم ، المبني على التجارب الخاصة لكل مجتمع ، والمنشأ بصورة عملية أي على التجربة والملاحظة كثيراً أو قليلاً ، إنما هو صفة من الصفات المميزة للنصف الثاني من القرن العشرين . ومع ذلك ، فإن العلاقة بين النمو الاقتصادي والبحث العلمي ، أقل مباشرة ، وأقل وثاقاً من يظن أحياناً . فبين البحث الأساسي ، البحث التطبيقي و « التنمية » - أي إظهار ونشر المنتجات والخيرات الجديدة - ، توجد مسافات . وإن إقامة محاسبة مشتركة ، أو بالأحرى وضع موازنة شاملة ، لا يوضح المراحل ولا الميكانيكيات الواقعية للتقدم ؛ وكثيراً ما يخلط بين أهدافها . ولكن التقدم العلمي والتكنولوجي في ذاته دليل تسلسل بين الأمم المصنعة ، وربما يلزم المستقبل أكثر من حركة نحو الخيرات الجاهزة . إن جغرافيا البحث ، مهما كان أيسر التعبير ، لاغنى عنها لفهم عالم اليوم ، وربما أكثر من فهم الانتاج .

البحث العلمي والتقني في المجتمع

قد يجادل بسهولة في ان مشاركة العلم في التقدم الصناعي حادث حديث العهد . فتاريخ الصناعة الكيميائية ، مثلاً ، اذا اخذنا حالة فرنسا ، المانيا ، وحدث من ذلك ، الولايات المتحدة ، بالعكس مصنوع من هذا التعاون . وقبل الحرب الأخيرة ، كانت شركة دوبون دو نومور ^(١) مثل ال اي . ج . فادرين ^(٢) تصرف بمغايرو واسعة . وفي الولايات المتحدة ، وسعت شركتنا بل وجنرال الكتريك البحث المنظم الى فروع أخرى . ومع ذلك ، فلم يكن القصد بعد الا سياحات خاصة ، على سلم مشاريع استثنائية ، وعلى صعيد محدود للانتاج . ويدوان يجمع الاقتصاد لايقيم الا علاقات ضعيفة مع البحث . وعندما تدخلت الدولة اعطي بعد جديد . ولذا برر التجنيد العلمي عموماً بظروف استثنائية ، وبخاصة متطلبات الحرب ، فلا يمكن ان تكون له الا اغراض محدودة . ولكن قيمته النظامية كمؤسسة بقيت واستحكمت . وهكذا كانت دائوة البحث العلمي والصناعي ، في بريطانيا العظمى ، ارثاً من الحرب العالمية الاولى . ووسعت الحرب العالمية الثانية ميدان الكفاءات والتطبيقات . ودخل البحث العلمي في التنظيم الشامل للاستراتيجية . وفاقت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى المانيا ، ان لم يكن بالاختراع ، فعلى الأقل بكثرة الباحثين والوسائل . وكان ذلك نصراً للعدد ولكنه ايضاً نصر للتعبئة اللوجستية الممتدة الى الصعيد

Du pont de Nemours (١)

L' I . G . Farben (٢)

Bell et General electric (٣)

- ٣٠٩ -

العلمي . هذا فضلاً عن أن التجربة كانت حاسمة عندما كانت منافسة الكنتلين ،
فما بعد ١٩٤٥ ، تغذي سباق التسلحات الجديدة وتجاوز الابحاث
التي يطالب بها الدفاع هذا الافق حتى بدت تختلط مع اكثر التقنيات
تقدماً : الطاقة النووية ، الملاحة الجوية ثم الفضائية ، والمواصلات
السلكية واللاسلكية . وهكذا غطت ظروف القوة العسكرية والقوة
الصناعية بعضها من جديد ، ولكن في خطة مغايرة لخطة ما قبل الحرب .
فقد حلت قدرة الانتاج في الصناعة الثقيلة ، فولاذ ومحروقات ، محل
تسلسل الاكتشافات والتطبيقات من أصل علمي . وبالعكس ، بانتقال
طبيعي تماماً ، أصبح الانجاز العلمي حجة ودليلاً سياسيين . وبصورة غير
مباشرة لهذه المنافسة ، نجد ان انشاء وتمويل هيئات البحث القوية التي تنجو
من قواعد القابلية الاقتصادية لانتاج الربح تدخل في النظام المشترك . والى الاهتمام
البسيط بالدفاع أو التسليح يضاف الاهتمام ، النشط بخاصة في اوروبا الغربية ، بصيانة
أسس بعض الاستقلال الذاتي في مادة الطاقة او المواصلات . وان التوكيد القومي
في الصين وحتى في الهند يأخذ طرق سياسة علمية .

والتنظيم الحالي للبحث بلا حظ بقوة في هذه الارادات السياسية أو الاستراتيجية .
وإذا استثنينا بعض قطاعات لا تأتي بدخل ، ، ولا سيما في الصعيد الطبي ،
أمكن أن يفهم بوضوح كثير تدخل الدولة . فين الديمقراطيات الغربية ، تخصص
الولايات المتحدة وفرنسا أكبر قسط من اعتمادات البحث للدفاع وللفضاء ،
نحو ٦٠ و ٤٥ ٪ . وثأتي بريطانيا العظمى بعدهما ب ٤٠ ٪ . وفي هذه
البلاد الثلاثة تحملت الدولة في سنوات ١٩٦٠ الأسامي من التمويل ، بين
٦٠ و ٧٠ ٪ من النفقات الكلية المخصصة للعلم والتقنية . وبالعكس ،
سقطت النسبتان في ألمانيا وفي اليابان الذين يتصرفان بكامل الحرب في
مادة الدفاع ، أو في بلجيكا وفي البلاد المنخفضة الذين ليس لهما بعد كاف

للانحراط في هذه السياسات . والارتباط المتبادل ليس كاملاً : فهو يفسح مجالاً لشروط أخرى تنظم دور الدولة الحامم كثيراً أو قليلاً . ولكن هذه الرابطة الأولى بين النفقات العامة والاهتمامات الاستراتيجية ، المباشرة أو غير المباشرة ، لا يمكن أن تحمل . فهي تتفاقم في الولايات المتحدة ، حيث يصرف لها أكثر من ٨٠٪ من الموازنة الاتحادية المخصصة للبحث : ان دائرة الدفاع تمتص وحدها ٥٥٪ من المجموع ؛ وانجاز برنامج الفضاء ، الذي سحب من جيش الجو في ١٩٥٨ وعهد به إلى الملاحات القومية وإدارة الفضاء^(١) ، ٢٣٪ ؛ ولجنة الطاقة الذرية ، التي تشتغل بـ ٥٠٪ للدفاع ، ١١٪ . وأصعب من ذلك تقدير توزيع الاعتمادات في الاتحاد السوفياتي بين القطاع العسكري والفضاء والذرة والقطاعات المدنية .

ولا يمكننا إلا أن نتساءل عن العلاقات بين هذه النفقات والنمو الاقتصادي . فالعلاقة الأولى واضحة . وهكذا انشئت سوق واسعة لطلبات الدولة . ولغايات الأخرى ، استقرت الاقتصادات الرأسمالية على هذا النحو في نظام الرقابة والحث الذي بدأ برسمه النضال ضد الأزمة في سنوات ١٩٣٠ . والتحويل واضح في الولايات المتحدة ، التي تصبح يجد الصورة الكلاسيكية لـ « المشروع الحر » . وقد وجدت مصالح الملاحاة الجوية في الدولة أفضل زبون يمتص ٦٥٪ من مبيعات طائرات البوينغ^(٢) ٨١٪ من مبيعات لوكهيد^(٣) ، كل انتاج الطيران الجمهوري^(٤) . وتؤلف هذه الطلبات ، فوق ذلك ، تأميناً حقيقياً ضد العمليات المخاطر بها : وفقد

(١) National Aeronautics and Space Administration (N . A . S . A .)

Boeing (٢)

Lockheed (٣)

Republic Aviation (٤)

استطاعت الجنرال ديناميك^(١) أن تعيش بعد المغامرة المشؤومة المدمرة لطائرات النقل النفثة عندها ، وستاديبكو كوربوريشن^(٢) ، بعد ضياع صناعة السيارات بفضل ضخامة (وفي حالة ستاديبكو ، تضخم) طلباتها العسكرية ، . وهذه البرامج للبحث ، ولفائدة ستراتيجية أو للجاء هي عوامل استقرار أو حتى عوامل تعجيل للنشاط الاقتصادي . ولكن ، في خارج تأثيراتها المباشرة على بعض المحزين ، هل تعمل على مستوى الاقتصاد الشامل ، كأي نفقة عامة ، أو أنها بهتواها العلمي بخاصة ، عوامل تقدم ؟

الأجوبة تختلف . ولاشك في أنه يوجد ما هو أكثر من فروق بسيطة حسب البرامج وحسب البلاد . ولكن المنظور تغير في عقد واحد : ففي ١٩٦٠ ، أخذت بعين الاعتبار « النكسات » التكنولوجية التي يفيد منها بصورة طبيعية القطاع الخاص والنمو الاقتصادي عموماً . وحسبت انعكاسات برنامج الفضاء على الميكانيك والالكترونيك والتعدين : ففي الولايات المتحدة اعتماداً على بعض النجاحات ، في تصغير أبعاد الأجهزة ودقتها وضبطها ، والتقدم في مقاومة المواد ، والافادة من استعمال المحركات الجديدة ، تم التوصل حتى قياس مردود البحث الفضائي : فالدولار الواحد الموظف قد يؤدي ، في نهاية خمسة إلى سبعة أعوام ، إلى زيادة أكثر من ٢٠ دولار في الانتاج القومي . ولا يسلف على هذا النمو تقدير مخاطر فحسب ، بل ان التفاؤل قد تنازل وتخلّى ؛ وإن نقل التجديدات نحو قطاعات الاستعمال الجاري لا يبدو سريعاً أيضاً : إن جزءاً نسبياً قليلاً من الجهد السكاني للبحث والصنع المخصص بصورة كثيفة للدفاع يحمل على خلق منتجات جديدة للاستهلاك ، وعلى تحسين الآلات لتستطيع صنع منتجات أو على تحسين

General Dynamics (١)

Studebaker Corporation (٢)

-٣١٢-

بناء الآلات ، ، هذا ما صرح به في عام ١٩٦٥ أمين مر التجارة في الولايات المتحدة ، بعد أن بدد أوهامه . ومع ذلك فإن تجربة الطاقة النووية تؤلف سابقة . فين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ، بدا العالم يدخل ، وليس فقط في خطة التسليح ، في العصر الذري ؛ ولزم انتظار ما يقارب عشرين عاماً ليصبح انشاء المراكز النووية في الولايات المتحدة واستعمال الكيلواتات الذرية « اقتصاديين » . كما أن القيمة العليا للمواد أو احتمال سير وعمل الاجهزة التي يتطلبها البحث النووي أو الفضائي ليس لها استعمال مباشر في صناعات مبتدلة . ففي ١٩٦٤ ، لوحظ في فرنسا : « في الآونة الحاضرة لا يكشف في الصناعة اتجاه لصالح استخدام التقنيات الجديدة المستخدمة في القطاع النووي . ويبدو ، بالعكس ، أن الميل متجه شطر الحذر منها : ان التقنيات النووية تعتبر بصورة خاصة مكلفة وباهظة جداً والزبائن المألوفين يخشون من أن تستمر المشاريع المعتادة على العمل في القطاع الذري في البرهنة على اهتمامها بالتحسين التكنولوجي الذي لا يكون دوماً غير مستغنى عنه وقد يخاطر بالضغط بصورة ثقيلة على أسعار الكلفة » . وفي بلد متقدم تقنياً ، مثل الولايات المتحدة ، عبر عن نفس الملاحظات . وبأشكال مختلفة في الاتحاد السوفياتي أيضاً ، أبدى المسؤولون عن المشاريع قلقهم في الغالب أمام تجديد « الافراط في التحسين » .

ومكنا يجب الحذر من مفهوم ميكانيكي بصورة محضة للتقدم وعدم نسيان المظاهر النوعية للبحوث المتقدمة المرتبطة بالذرة أو الفضاء . لأن النتائج لا يمكن الحكم عليها لأجل قصير وأقل من ذلك أيضاً التقدير الكمي للظروف . ولكن ، فيما وراء ذلك ، تبقى التجربة التقنية والأعمال الفكرية والمادي . وفي الغالب بمناسبة هذه البرامج العسكرية أو الواجهة أنشئت نماذج المجتمع العلمي الجديد ، نماذج الانتاج أو التنظيم . وحققت أول حاسبة الكترونية ،

ماورك ١ الحسابات الضرورية لانشاء القنبلة الذرية . ونشأت طريقة التحليل العلمي المتجه نحو أفضل النتائج من الاهتمام التقني والاستراتيجي للطيران الاميريكي بعد ١٩٤٥ ، ومن معهد داند كوربوريشن^(١) المكلف بأن يجد لها الجواب . وهكذا وضع تحليل المجموعات وضبط في الولايات المتحدة . وبعد انخفاض سنوات ال ١٩٥٠ ، جاء البرنامج الفضائي ، وبخاصة برنامج أبوللو ، الذي جند أكثر من ٣٠٠٠٠٠ شخص ، وكان أوسع تعليم وتدريب : إن إعداد الرجال والاجهزة ، ونشاط المعاهد والخبرات التي أسهمت في المشروع لا يمكن أن تلحظ بعنق الابيه . وفي الحقيقة كان يراد جهود كثيفة متمص وسائل كان من الممكن أن توظف مباشرة في القطاع الاقتصادي والاجتماعي . ولكن ليس من شأن المؤرخ أن يناقش في صور أو أشياء محتملة ، وفي عمليات قد تربح ولا شك في نفع مباشر وربما فقدت قيمتها في المستقبل إذا كانت مبعثرة وبجزأة . ولا تكون القضية الأساسية عندئذ قضية الهدف النهائي بل قضية قدرة المجتمع كافة على إدخال المأتمى التكنولوجي والفكر الجديد . إنها قضية أمريكية ، ولكنها أيضاً ، في شروط مختلفة تتعلق بنظام المجتمع ومستوى التنمية ، قضية سرفيائية .

وهكذا فإن مشاركة المشاريع في الجهود العلمي والتقني لها معنى أكثر من تحقيق هذا البرامج أو ذاك . وهذه المشاركة تأخذ أيضاً أشكالاً مختلفة . فهي أولاً البحث الصناعي ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، الذي يموله وتوجيه الأعمال (المصالح) نفسها . ففي الولايات المتحدة ، تضاعفت نفقات البحث الخاصة بالدولة بأربعة أمثالها من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤ ، وفي هذه الفترة ، تضاعفت نفقات المشاريع بثلاثة أمثالها . وفي ألمانيا ، يمول الشركات الصناعية البحث المدني في الصناعة بكليته تقريباً ؛ وفي المملكة المتحدة ،

(١) Rand Corporation

بالرغم من إنشاء وزارة التكنولوجيا ، يقارب هذا النصيب ٩٠ ٪ . وفي اليابان نجد الاتجاه من نفس النوع . إذت يوجد في مستوى الأعمال ، المصالح ، اهتمام واضح في خلق منتجات جديدة أو طرق صنع جديدة . ولقد كرر منذ عشر سنوات ، ان المنافسة بالتجديد تقوم ، على الأقل في الصناعات المتقدمة مقام المنافسة التجارية القديمة . والصناعة الكيميائية ، وهي الصناعة الممولة بصورة ضعيفة جداً في الاعتمادات العامة للبحث ، تعطي أفضل مثال على ذلك : فهي لا تمثل في البلاد الكبرى أقل من ١٥ إلى ٢٥ ٪ من مجهود البحث الصناعي ، ٢٧ ٪ في اليابان ، ٣٥ ٪ في ألمانيا . ومع ذلك ، لا يمكن أن نعارض بصورة منظمة عدداً من البرامج الخاصة ، التي تؤدي إلى تنمية الفروع الصناعية ، وإلى البرامج العامة . وفي الغالب يظهر التداخل بين الدولة والصناعة عنصراً حاسماً للتقدم . إن السياسة العلمية لا تعرف فقط بأصل الأموال التي ترصد لها ، ولكن بالهيئات التي عهد إليها هذه الأموال ، وبنظام الطلبات أو العقود والاشغال . وهكذا فإن الملاحظة الجوية ، حتى في مشاريعها المدنية ، تحول بصورة أساسية بالاعتمادات العامة ، وعلى السلم العالمي ، تشترك الصناعات الكهربائية والميكانيكية وبخاصة الالكترونيات ، في بحثها أموالاً تأتي من المبادعة العامة ومن المبادعة الخاصة . ومن هذا الحادث ، نرى ان تنظيم البحث لا يتعلق فقط بالتقاليد الادارية والجامعية في كل بلد ، وإنما بالبنية الصناعية ، وبخاصة بالانفتاح الفكري أو بالسطح المالي للمشاريع .

ومثل الولايات المتحدة يأخذ على هذا النحو قيمة خاصة . فإذا كانت الصناديق أي الاموال المخصصة للبحث تأتي في معظمها - ٧٠ ٪ تقريباً - من الدولة فإن تائي الأشغال يداران في نطاق المشاريع الصناعية . وإت أهمية برامج البحث تماشى تركيز الأعمال : في ١٩٦٤ ، ٦٣ ٪ من النفقات

امتصتها برامج أكثر من ١٠٠ مليون دولار ونفذها ٢٨ مشروعاً فقط . ولا نزاع في أن البحث يمكن من أن يتأسس على مخبر عظيمة يمكن لشركات مثل جنرال إلكتريك ، وستنكهاوس ، بيل أو لشركات الملاحة الجوية أن يمدّها . حتى وإذا تمت مشاريع جديدة مثل هيوليت وباكارد ، انطلاقاً من نجاحاتها العلمية واخذت مكاناً بين « الكبرى » ، فإن أثر البحث - وبخاصة توزيع الاعتمادات الاتحادية - زاد في التركيز وأيضاً الانشطار في العالم الصناعي : تقدر مؤسسة العلم القومي في ١٩٦٤ ، أن ٣٠٠ مشروع من أكثر من ١٠٠٠٠ مستخدم امتصت ٩٧ ٪ من الاعتمادات الاتحادية للبحث والتنمية و ٨٣ ٪ من الأموال الخاصة بالصناعة ، والباقي هو بواقع ١٠٠٠٠ مشروع (على مجموع ٢٦٢٠٠٠) . وهذا التطور يوجه أيضاً هذه المشاريع الممتازة إلى التخصص بالبحث ، وبالعكس ، إلى تجاوز الميدان الدقيق لصناعاتها . « إن شركة جنرال إلكتريك ربما كانت أكثر منظمة بحث تنوعاً في العالم ، لأنها تبذل جهوداً هامة في الفيزياء والرياضيات ، والكيمياء ، والالكترونيك والعلوم الجوية - الفضائية . وهي في سبيل البحث عن معارف جديدة في هذه الميادين ، وعلى استعداد لاستغلالها ، حتى ولو أن هذا يتضمن نشاطات بعيدة عن عملها التقليدي وغزو صناعة جديدة » ، وإن مشاريع الملاحة الجوية ، مثل لوكهيد أو طيران أمريكا الشمالية ، أو الكيمياء ، مثل الاتحاد الكاريبيدي ، تتجه إلى التخلي عن الصنع لتتحول إلى مشاريع بحث : النشاط يعرف بالمستوى العلمي أكثر بما يعرف بالفرع .

وهذا الاتجاه أكثر اندفاعاً أيضاً في المعاهد العلمية ، التي لاتتوخى أهدافها الربيع في الغالب ، والتي تراكم الاعتمادات من كل أصل (دولة ، أعمال ، جامعات) ، وأصبحت « معامل أدمغة » ، وتضم بحوثاً دون

رابطة في تخصصاتها ، تتطلب مساهمات فكرية ، وتجهيزات ، وطرق عمل مشابهة . كذلك يمكن بحكم العقود تخاطر الجامعات أن تشارك في هذه البحوث . وهكذا يتوطد تيار مبادلات مستديم بين هيئات لا تكون أعمالها ولا مصادر تمويلها متخصصة بصورة شديدة . والفصل أقل وضوحاً بين الدولة ، والجامعات ، والمعاهد والمشاريع ، مما بين هذا العالم العلمي ، الذي يعيش غالباً على وثيرة القطاعات والتقنيات الكثيفة ، وكافة النشاطات المبتذلة للاقتصاد والمجتمع .

إلا أن مثل هذا التنظيم يشجع بحوث التنمية ، بالنسبة إلى البحث التطبيقي والأساسي . وبالرغم من أثر أمرع برتين للأموال المخصصة لهذا الأخير بين ١٩٥٨ و ١٩٦٤ ، فإن التنمية كانت تفتقر أيضاً في هذا التاريخ ٦٥ ٪ من الاعتمادات ، والبحث التطبيقي ٢٢ ٪ ، والبحث الأساسي ١٢ ٪ . ووجدت المشاريع على وجه التأكيد في هذه النفقات وفي مساندة الحكومة قوة اقتصادية غير منازعة ، ولا سيما على السوق الدولي ؛ ولكن الرأسمال الفكري يمكن أن ينضب في ذلك . وبالرغم من سياسة بعض المشاريع الكبرى والحربة الكاملة التي تتركها إلى فرق الباحثين ، فإن المعاهد والجامعات تتحمل دوماً الوزن الهام لبحث أساسي يتطلب وسائل وقطاعات قليلة المأوى بالأرباح ظاهراً : كالبحث الطبي والبيولوجي ، ودراسات البيئة والظروف المحيطة أو العمران المدني وهكذا فإن النفاذ الشامل للنظام الأمريكي ، ومرونة ، لا ينفيان الانتقادات ضد النفقات المفرطة لمشاريع الوجاعة - مغامرة الفضاء مثلاً - أو ضد الاهتمامات التجارية للمشاريع . وإن التنسيق بين النظم (المؤسسات) ومستويات البحث ليس بالقضية التي تنجو منها المجتمعات الأخرى . وبالعكس ، إن الفصل بين القطاعين العام والخاص ، أي التخصصات ، أكثر وضوحاً وفي أوربه ، نجد الصلة بين الدولة والمشاريع ضعيفة كثيراً . إن الدولة في فرنسا ،

وباكثر تواضعاً ، في بريطانيا العظمى وفي إيطاليا ، تشيء مراكز بحثها الخاصة ، وتخصص لها أكبر قسط من الأموال العامة . وفي الصناعة ، لا تجد بحوث التنمية دوماً التمويل ولا الحث الضروري . وفي ألمانيا أو اليابان ، تكون حصة الدولة قليلة كثيراً ، والمشاريع ، التي تكون أحياناً حليفة الجامعات أو المعاهد السقي لا تستهدف الربح مثل معهد ماكس - بلانك ، في ألمانيا ، تأخذ على عاتقها البحث وتمول بسهولة ثلاثة أرباعه . وهكذا يسلك الدعم والايحاء الآتيين من السلطات العامة أفضية مميزة أفضية الصلة القديمة بين الحكومة والإدارة والأعمال .

وأبلغ من ذلك أيضاً صعوبات إدخال البحث في الاقتصاد السوفياتي : حقاً ، إن أكاديمية العلوم تراقب معاً البحث الأساسي والبحث التطبيقي - ويدو ان الأول ، بالرغم من تحذيرات العديد من العلماء السوفياتيين ، لا يفيد من معاملة بمنزلة جداً بالنسبة للولايات المتحدة : لأن الجمع العلمي (الأكاديمية) يأخذ على عاتقه المشاريع الفضائية والنووية . وبالمقابل ، لا يبقى للمشاريع إلا المراحل الأخيرة للتجريب والضبط . والفصل بين المضارين مضار العلم ومضار الصناعة ، عظيم . ولذا وضع في سنوات ١٩٦٠ قسم من المعاهد المكلفة ببحوث التنمية تحت سلطة الوزارات الفنية ، إن الإصلاح المقترح يجب أن ينقل إلى المعامل أكبر قسم من المعاهد المسماة ثانوية ؛ ويجب على مخابر المعامل أن تكون قادرة على أن تقوم بنفسها بالبحوث العلمية [...] وعليها أن تصبح جامعات مبدعة ، .

وإن نفاذ البحث ونشره يتعلقان إذن بهذا التوزيع في الأعمال وبهذا الارتباط اللذين يوضعان ، في آخر الأمر ، صفة كل مجتمع أكثر بما يدلان على صيغة ، أفضل طويق . وعلى مستوى الوسائل والطرق ، تبقى

المقارنة الدولية دقيقة . ولكن إذا كان التردد على مفاتيح النجاح ، فإن للتفاوت العلمي والتكنولوجي يبقى صفة كبرى للعالم المعاصر .

جغرافية البحث

يقاس النمو العلمي والتقني بشكل مئىء بمحدود الإنتاج . ويجب الحكم في ذلك بالطرفين : من جهة بكتلة الوسائل ، والاعتمادات والرجال ، الموضوعة تحت تصرف البحث ، دون القدرة بصورة معقولة على تعيين إنتاجيتها . ومن جهة أخرى بالنتائج النهائية ، ونجاح البرامج المؤثرة أو انتشار منتجات جديدة ، دون القدرة على تمييز ما يمكن أن يعود على العمل العلمي بصورة خاصة ، وعلى التنظيم ، وعلى التسيير ، وعلى بنية المؤسسات أو الأسواق . وهكذا فإن الفصل التكنولوجي الذي شهر به في سنوات ١٩٦٠ بين الولايات المتحدة وأوربه ، قد أرجع في الدراسات الأخيرة ، إلى التأخر أو إلى الانحطاط العلمي أقل بما أرجع إلى ضعف الإدارة . وإذا بقي النقاش في الأسباب مفتوحاً ، فإن التسلسلات المرسومة نفسها هامة : وربما كانت جغرافيا البحث أقل غنى بالتفاوتات التي تكشف عنها منها في التفاوتات التي تبنى بها .

لقد قام أول تفاوت بين العالم الصناعي والعالم السائر في طريق التنمية . وإذا كان الأول يركز أكثر من ٨٠ ٪ من اشخاص البحث - وما من شك في ان الثلثين في الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي - فليس في ذلك ما يدعو الى الاستغراب ، حتى ولو يحسن فيما بعد قياس نتائجه . وأكثر من ذلك معنى ودلالة التمييزات التي تظهر بين البلاد المصنعة . وهذا يكون أولاً في الضخامة المتغيرة لنفقات البحث : وبعبارة مطلقة ، قلما يمكن التشبه بها أو بمائلتها : وإذا ما نقلت هذه التمييزات

الى الانتاج القومي ، ساعدت على تقدير للجهد النسبي . ان الولايات المتحدة
تمسك فيها بالرأس بصورة مزدوجة ، بالتقدمات المنجزة منذ ١٩٥٣
(١١٤ ٪ في ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، ٣١٤ ٪ في ١٩٦٣ - ١٩٦٤)
وبالمستوى الذي تم التوصل اليه حالياً . ومع ذلك ، ف منذ ١٩٦٠ ،
نجد ان نسبة النمو أقوى في اوربه الغربية ، مع أن النسبة المثوبة
للانتاج القومي المخصصة للبحث لا تتجاوز ، باستثناء بريطانيا العظمى ،
١١٥ الى ٢ ٪ في آخر سنوات ١٩٦٠ . وفي الاتحاد السوفياتي ، يقدر
هذا النصيب حسب الحالات ، من ٢ الى ٣١٥ ٪ . ولكن الشك في
تقدير الدخل القومي ، والتكليف القليل الارتفاع كثيراً للبحث لا يساعدان
على تقدير الجهة السوفياتي في نفس الحدود التي تقدر للغرب . ولنحفظ
فقط ، في العالم الصناعي ، ان النفقة المتأنية عن السكان متقاربة
جداً ، لأنها تضيف ، الى اختلافات الدخل القومي ، الاختلافات
التي تنأى عن السعة المتغيرة للافتتاحات . ولا يمكن ان نهمل آثار الكتلة
الكلية للاعتمادات الممكنة تجنيدها ؛ لأن البحث الغالي - كما في حالة
الطاقة الذرية ، والنشاط الجوي - الفضائي - لا يصبح ممكناً الا ابتداءً
من عتبة ما ، من بعض التركيز في الوسائل . والكتلة العظيمة
وحدها تساعد على مزج اهداف متباينة : وعلى هذا النحو
فان غنى الولايات المتحدة يجعلها قادرة على تحمل وزن برامج جسيمة
فضائية وعسكرية وعلى تخصيص وسائل اكثر أهمية بكثير من وسائل البلاد
الأوربية للبحث المدني : « ففي سنة ١٩٦٤ ، حسب ان النفقات الامريكية
للبحث في القطاع المدني تمثل تقريباً ضعف ما انفقته بلاد السوق المشتركة
السته ، وتدخل في ذلك النفقات العسكرية والفضائية . وان بلاد اوربه
الغربية ، الموضوعة امام اختيارات صعبة ، تتحمل فوق ذلك نتائج

التجزئة السياسية التي تكثر الاستخدام المزدوج ، والمشاريع المتنافسة غير المتراكمة . والاتحاد السوفياتي ، بالعكس ، يجد في ابعاده تصحيحاً لضعف الدخول القومي نفسه .

ان تقدير الأشخاص ، الذي يهأ ايضاً للمقارنة الدولية يؤيد التسلسل ، ان لم يؤيد الفروق . وان الاتحاد السوفياتي وحده ، على هذا الأساس يتقارب من النتائج الامريكية . ولكن أعداد الباحثين ونظام التثقيف مرتبطة دوماً نقاش . وبشير تقرير منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية الى بعض التناقضات . ان الولايات المتحدة تتصرف ، دون أي شك ، باكبر نسبة من حملة الدبلومات بالنسبة الى شطر من العمر . ومع ذلك فان فرنسا وبريطانيا العظمى تشكلا نسبياً كذلك دكثرة في العلوم ، والتربية الفنية فيها مندفعة كثيراً ، كما في اوروبا الشمالية - الغربية كافة . ثم ان النوعية ، وتكييف النظام المدرسي والجامعي لا يمكن بالبداية اهمالها . ولكن ، حتى ولو خول التفوق الولايات المتحدة في هذا المضمار فلا يمكن بذلك ايضاح الحلل الظاهر بين عدد الباحثين المكونين والوسائل التي تعطى لهم . واذا وجد ، عجز تكوين بالنسبة الى ضخامة البرامج في الولايات المتحدة ، ونقص وسائل بالنسبة للرأسمال الفكري في اوروبا ، فذلك يعني تفاوتاً يدمغ بعمق الجغرافيا الحالية للعلم ويوضح ، جزئياً ، نزيف الادمغة (هجرة الأدمغة) باتجاه الولايات المتحدة .

ويتضح الحلل ايضاً بمستوى البحث الأساسي وتجديد التقنيات وانتشارها . واذا كان لتوزيع جوائز نوبل قيمة دلالة ، فهي تشير الى انتقال نشاطات مراكز البحث شطر الولايات المتحدة ، وقد تسارع هذا الانتقال بهجرة العلماء الألمان في الفترة المباشرة قبل الحرب . واكثر

من ذلك دلالة التوزيع بالعلم : فقد تقدمت الولايات المتحدة تقدماً خاصاً في الفيزياء ، وعرف هذا العلم ، دوماً شك ، اكبر التجديدات منذ ١٩٣١ ، وبخاصة تغييراً مريعاً في وسائل العمل فن مشغل منزل جوليو - كوري^(١) الى أكبر المنوسات ، ومسارعات الجزيئات الذرية ، والاجهزة التي تساعد بصورة اصطناعية على تمثيل الطيران والرادار والاقمار الاصطناعية ، في المعاهد الامريكية والاوربية ، يقاس سير التنسيع في البحث الاسامي نفسه . ولاعجب اذا كانت الولايات المتحدة اول المستفيدين . وكذلك تسجل تقدمات توحى بالكثير في المخبر السوفياتية . وفي الطرف الآخر ، تأتي التجديدات التقنية : فعلى ١٤٠ نتاجاً جديداً أطلقت منذ عشرين عاماً ، تأتي ٦٠ ٪ منها ، حسب تقرير لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وضع في ١٩٦٥ ، من الولايات المتحدة ، ١٥ ٪ من المملكة المتحدة ، ٩ ٪ من المانيا الغربية . وهنا ايضاً نجد معنى للتوزيع بالفرع : فالولايات المتحدة تفوق في القطاعات الأكثر حداثة من غيرها والتي يرجع تاريخها الى ما بعد الحرب العالمية الثانية : كالحاسبات الالكترونية ، الترانزستورات والمركبات ، صناعة التيتان^(٢) المعدنية ، والاقمار الاصطناعية ، . وبالمقابل ، تحافظ اوروبا على مكان افضل في الميادين التي تقدم فيها البحث في وقت مبكر : كالكيمياء ، البلاستيك ، الصناعة المعدنية . وفي هذه الميادين ايضاً ، توصلت بشكل افضل الى تحويل الاختراع الى تجديد والى تأمين الاطلاق التجاري للمنتجات .

Juliot - Curie (١)

(٢) التيتان « Titane » معدن ابيض لامع ، كثافته ٤،٥ ؛ حرارة انصهاره ١٨٠٠ سانتيفراد ، يوجد في معظم الصخور النارية او الرسوبية .

قضايا عصرنا (٢١)

وهذا الحلل ينفذ دون أي شك الى تفاوتات اقتصادية . ولما كانت الولايات المتحدة أيضاً أول مصدر للمنتجات ذات الكثافة العليا للبحث ، فان هذه التفاوتات تظهر في مد تجارة المنتجات المادية أقل بما في مد المنتجات الفكرية . فبين البلاد الغربية نجد ان ميزان المدفوعات التقنية - أي مشتريات ومبيعات شهادات الاختراعات وإجازات لسيانس الصنع (المهارة التقنية) ، يقيم تميزات جازمة : إن الولايات المتحدة تأخذ أكثر من ٦٥٪ من المدفوعات التقنية في داخل منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ؛ ولا تدفع إلا ١٠٪ تقريباً . إلا أن بريطانيا العظمى وحدها ، رغم عجزها حيال الولايات المتحدة ، توصلت إلى توازن نسبي في ميزانها الشامل ؛ وعلى العكس ، إن موازين المانيا وفرنسا وأكثر من ذلك أيضاً إيطاليا واليابان سلبية بصورة قوية . والاثر المالي لهذا المد ثنائي : فقد استطاعت اليابان أن تنشئ صناعة منافسة بشكل قوي على السوق الدولي ، بمساعدة استيرادات كثيفة من شهادات الاختراع التي استخدمت أو حولت بمهارة . وهذه المبادلات هي الآن أفضل واسطة لتداول الخيرات ، التقنية ولكنها ترفق أيضاً بمجواث سيطرة . وهكذا فان الواردات الامريكية تنطابق شيئاً فشيئاً مع تنازلات عن الشهادات أو اليسانسات إلى مشاريع متفرعة أو تابعة للشركات الكبرى في الولايات المتحدة وفي المملكة المتحدة ، ارتفع هذا النوع من التنازل إلى ٤٥٪ في ١٩٥٧ ، ٧٢٪ في ١٩٦٥ من المدفوعات التقنية . وفي ١٩٦٦ ، كان أول مستودع لشهادات الاختراع في فرنسا شركة جنرال الكتريك وأصبح سوق الحاسبات الالكترونية في أوربة على هذا النحو ، في القسم الاعظم منه ، تحت اشراف المشاريع الامريكية والمشاريع الصغرى التابعة لرقابتها ؛ وكذا حال سوق المركبات . وقد ردت الحكومة

البريطانية، ثم الحكومة الفرنسية منذ ١٩٦٦، بدعم المشاريع القومية باعتمادات عامة : وهذا هو أصل « حساب الخطة » في فرنسا . وفتح سوق الطيران المدني أيضاً لهذا التنافس التقني ، الذي لم ينطلق دون صعوبة ، للبلاد الأوروبية . وقاد اختيار طرق صنع الكمبرياء النووية الى المنافسات نفسها وإلى الاستغلالات نفسها على مشاريع متوسطة الاجل .

ويعبر عن نتائج هذه السيطرة باتجاه معاكس بـ « هجرة الادمغة » وقد وضع قياس الحادث الآن . فقد استقبلت الولايات المتحدة بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥ ، ٣٥٠٠٠ مهندس وباحث علمي ، منهم ١٥٠٠٠ أنوا من أوربة ، وبخاصة من بريطانيا العظمى والمانيا . وتسوق المشاريع الامريكية هؤلاء الخبراء مباشرة من سوق العمل الاوربي ، مستفيدة من صعوبات المشاريع المحلية وباختصار ، ان نزيف الادمغة ، فيما يتعلق بالبواعت الفردية ، يستجيب بشكل أقل إلى جذب الأجور العالية منه إلى إمكانيات العمل ؛ وهو على المستوى الشامل ، تعبير ولاشك عن الحل الأولي بين قدرة التكوين ، التنقيف ، واعتمادات البحث . وهنا يجب أن نجد المعنى العميق لتسلسلات الوظائف التي يعلن عنها .

وبالفعل ، ان قسط الدخل القومي المخصص للبحث ونزيف الادمغة لا يبدو ان أعما يوضحان مباشرة الاختلافات بين نسب النمو الاقتصادي . وان توغل القطاعات المتقدمة بشركات أجنبية ، والتوظيفات والتقنيات التي تأتي بها يمكن أن تكون ، بالعكس ، محركات نمو . ان استيراد شهادات الصنع أو مواضع التسيير تمثل ، من وجهة النظر هذه ، إلى توحيد شرط الانتاج وبالتالي إلى المنافسة الدولية . وما هو على بساط البحث ، لأجل متوسط ، هو ان زيادة الخيرات أقل من المسكان الذي يحتله كل بلد في مسار الانتاج . وان كثيراً من الحوادث قللت وتجمع للبدء بتقسيم جديد

للعمل بين البلاد المصنعة . وان شيئاً من تركيز التجديد في الولايات المتحدة ، التي تراقب كثيراً أو قليلاً صناعة البحث ، يمكن أن يرمم على المستوى الدولي التمييز الذي يرسم من قبل على المستوى القومي بين مشاريع مؤهلة للعمل الابداعي وأخرى تنجز بشكل أمامي أعمال صنع . وفي هذه الفرضية المنشأ ، نستطيع اوروبا التابعة شيئاً فشيئاً لمراكز القرار والتقدم الواقعة في الخارج ، أن تنخر في الأعمال المحيطية ، كالانتاج المادي ، وعند مقتضى الحال ، تكوين واصطفاء أوليين للباحثين . وإذا كانت التصلبات الناجمة عن هذا التقسيم للعمل بعيدة عن أن تكون مقبولة تماماً ، فيحسن أن نحدد الشروط لتنظيم أكثر مساواة للعالم الصناعي : إن التجديد ، والقدرة العلمية يقومان في الولايات المتحدة على القوة الصناعية المتراكمة ؛ ولا يمكن أن يكونا منفصلين عن قضايا الأبعاد . لأن السياسة العلمية ليست لعبة حرة ، مستقلة عن البنيات الاقتصادية والسياسية ، ولا عن الامكانيات الواقعية للمبادلة ، والمواصلات ، والتخصص .

وكذلك تكون العلاقات بين بلاد متقدمة وبلاد في طريق التنمية في هذا المضمار أيضاً مخنلة غير متوازنة . وبصورة متناقضة ، لا يوفر « نزيه الأدمغة » ، بلاداً تكون نسبة التعليم فيها ضعيفة جداً والعجز في الملاكات (الكوادر) العلمية والتقنية مقلقاً . إن « العلميين » الذين يرجع أصلهم إلى العالم الثالث وتكونوا في الجامعات الامريكية أو الاوربية لا يتخلون بسهولة عن المنافع الشخصية وأكثر من ذلك أيضاً عن شروط عمل تقدمها الشركات الصناعية لهم . وفي هذه الدورة الثانية للمبادلات ، تكون اوروبا في هذه المرة مستفيدة ، مع الولايات المتحدة التي أعطت نفسها وسائل تثبيت هذا الرأسمال الفكري بتبدل قواعد نسب الهجرة إلى الولايات المتحدة والبقاء فيها . وبصورة عكسية ، إن البلاد الماضية في طريق التنمية تكون تابعة فيما يتعلق بشهادات

الاختراع ، والطرق الصناعية ، و « دراسات المعونة الفنية » . وليست هذه القضية على سبيل الحصر مالية . لأن ما يطرح على بساط البحث ، هو نقل التقنيات متكلفة مع بلاد غنية ، تفيد بعض الشيء من توازن الاستخدام وبعض الشيء من مستوى تكوين اليد العاملة ، إلى أهم فنية ، تكون بنيتها الديموغرافية والاقتصادية مغايرة تماماً . وهذه هي سيطرة الأوساط الجغرافية الجديدة بالنسبة للعلم : « عندما واجهت تقنيات الحضارة الحديثة العالم المداري ، اصطدمت بشروط غير منتظرة فيما يتعلق ببلوحة وطبيعة التربة والفلاحة [...] . والتكيف اليوم جاهز للعمل ؛ والأمراض « المدارية » سهلة الشفاء في الأسامي منها ، وخصائص الأراضي المدارية مفهومة . ولكن تطبيق التكيف يفترض أشخاصاً عديدين وبقتضي من التقنية والعلم أن « يتمدرنا » أي أن يصبح مداريين وإذا أنهى الاستقلال السياسي الاستعمار السياسي ، فالاستقلال أبعد ما يكون مكتسباً فيما يتعلق بالتقنية والعلم ، والحالة هنا استعمارية تماماً . ويجب الايطبق « المداريون » بأنفسهم في عالمهم الخاص التقنيات والعلوم المتقدمة في البلاد المعتدلة بعلماء « معتدلين » فحسب ، بل يجب أيضاً أن يتوصل المداريون إلى أن يدفعوا بأنفسهم البحوث التقنية والعلمية ويقوموا باكتشافاتهم الخاصة . » (ب . غورو)

الاتجاهات العلمية

إن الحركة العلمية لا تختصر في تحليل اقتصادي وسياسي . وإن الوسائل والتنظيم لا يمكنهما محو المحتوى ، اذ بدونه لا يكون لمكانة العلم في المجتمع أي معنى . والعلم يعرف بصورة أساسية بمجموعة أدوات عقلية . ويبقى منظراً فكرياً . ولكن بقدر ما كانت الخطوط الموجبة مقروءة في القرن التاسع عشر ، بقدر ما يكون المنظر المعاصر غامضاً ملتبساً . فمن ميدان لآخر ،

وأحياناً في داخل العلم الواحد ، تتغير الأدوات واللغة ، وإذا كانت الكلمات نفسها ، فإن التشابه يبقى في الغالب على سطح الأشياء . وإن البداة الكارتيزية^(١) ، كالتفاؤل التاريخي في القرن التاسع عشر ، لا تؤلف إطار مرجع لعلم عام . ومن هذا الانقسام في الواقع ، ولكن في العقلانية أيضاً ، رسم غيتان بيكون^(٢) المنظر العام بقوله : « ومهما كانت معارفنا مختلفة بالأمس ، فقد أخذت مسكاناً في كون مشترك : وهو هذا المنظر الواسع المتحد الذي ينيره عقل واحد ، كالشمس . وإن أبحاث الفكر المختلفة المتقدمة على سطح عالم واحد ، والمخلقة بنور واحد ، لا تذهب عن البال أبداً . وكل واحد منها منخرط اليوم في عمل تحمي ، ولا يوجهه فيه إلا نوره الخاص ، كما لو كان حبساً في حفرة عميقة جداً لا يصلها صوت الأبحاث الأخرى . والتخصص النامي المتزايد يبتعد شيئاً فشيئاً عن كل صورة منظمة للواقع . والعالم الواحد تخلفه العوالم . وكشف الميكروفيزياء^(٣) رمز مؤثر لهذا التفجر في الواقع المتحد في وقائع لا يمكن تحويلها . ولكن الفكر ، هو أيضاً ، لم يعد واحداً . فهل يجب أن نقول أنه يسبق أو يتبع الواقع ، يوجهه أو يقلده بالحركات . وعلى كل حال ، هو مثله ، يكتشف مضاعفاً ، منقسماً ، مجاهياً مع نفسه ، ونجد هندسات كثيرة ، ومنطقاً ممكناً كثيراً ، وعقليات ، وبنيات نفسية غير قابلة للتحويل [. . .] . لقد انهارت الامبراطورية القديمة ، وبدأت بقطة قوميات

(١) الكارتيزية صفة مأخوذة من ديكرت الفيلسوف الرياضي الفيزيائي في القرن السابع عشر .

Gaétan Picon (٢)

(٣) الميكروفيزياء : قسم من علم الفيزياء يدرس بخاصة الذرة والحوادث على السلم الذري .

الفكر . ، وهذا الشاهد الطويل هو أكثر من موازنة بيان ؛ انه يأتي بدليل ، وهو الصورة التي يعطيها العلم في السنوات ١٩٥٠ ، في ختام حركة طويلة في تفتت اليقين والتماكك القديمين - حركة مصحوبة بصورة مناقضة بنجاح عجيب في التطبيقات ، وعلى الأقل في الميادين الفيزيائي والحيوي (البيولوجي) ولكن ، إذا وجدت ظروف لأفكار علمية وأكثر من ذلك لطينتها الفكري ، فهي تحتل عودات في اتجاه معاكس ، وتقلبات . فالى الاضطراب الظاهر ، وإلى كثرة المستويات ، وإلى عدم الاتصال ، وإلى الحدود التي اعتقد سارتر بالاعتراف بها أيضاً للطريقة العلمية في نقد العقل الجدلي ، تجيب اتجاهات التركيب من جديد ، وحتى التوحيد : في اندفاع البحوث في نظرية الكرون ، ونفاذ علوم التماس ، والكيمياء النووية ، والكيمياء الحيوية (البيوكيمياء) ، وعلم النفس التجريبي ، وتوغل أعمق في الطرق المنطقية - الرياضية ، والاستعداد الشامل لنظريات الاعلام أو السيونطيقا . والعلم المعاصر يحاول أن يوفق بين كثرة الحواجز ، والمساهمي ، والمستويات - بعض الاقليمية العقلانية - وتجاوز التناقضات ، والمادة والاشعاع ، المستمر والمتقطع ، الحتمية واللاحتمية ، والطبيعة والثقافة . ويحاول أن يحو جزئياً الحدود بين علوم الطبيعة وعلوم الانسان . وهذه النزعة الموحدة من جديد التي هي أبعد ما تكون عن تخفيف الشدة الضرورية للتخصص ، تضع صيرورة العلم في نشاط البحث نفسه ، بناء الموضوع . وفي هذا المعنى الثاني - وليس فقط بآثاره على الانتاج الجاري أو التنظيم الاجتماعي - يصبح العلم تقنياً ، عملية ، تاريخياً ، وليس فقط تأملاً في نظام منته المعارف . والملاحظة ، المثيرة للحدوث أو غير المثيرة ، لانفجار

لا تكفي لاعطاء فكرة عن المنظر الفكري للسنوات الأخيرة ، وان البحث عن تعريف جديد للعقلانية يبقى حتى ولو ظهرت هذه العقلانية أقل بساطة وأقل استقامة بما في الماضي .

العلوم الفيزيائية تبعد عن وحدتها النظرية

العلوم الفيزيائية هي في قلب الثورة الفكرية في القرن العشرين . وهي مدينة بهذا المكان لنفاذها العملي ، ولكن أيضاً لقيمتها الخاصة في مضمار المعرفة . واذا لم يجد العقل « الاتباعي » (الكلاسيكي) أساسه فعلى الأقل وجد تبريره في تجربة الفيزياء ، وبخاصة الميكانيك . وان فكرة السببية ، والقانون ، والهندسة الاقليدية ، وحدوس الزمان والمكان كاشكال مطلقة ، متجانسة ، تتوضع في داخلها الحوادث وثرثريات التعاقب ، توجه سير العمليات الفكرية . ولذا فان طرح الحطة الكارثية او النيوتونية من جديد على بساط البحث لا يمكن ان يقوم في قطاع ضيق للعلم : « فاذا وجد أن اكتشافاً جديداً أجري على بنية المكان والزمان يؤدي دوماً الى رد فعل على بنية فكرنا . فان اكتشافات أخرى تفني صرح المعرفة دون ان تغير في اسسه . وبالعكس ، ان كل ماله اعتبار في مفاهيم المكان يوحى بطرق أخرى لبناء المعرفة » (١) . وهذه « الأزمة » وضعناها في ظرفها التاريخي ، على منعطف عصرنا ؛ ولكنها تستمر في دمع المواقف الفكرية ، في عدم أمنها كما في غناها ؛ وان التحطيم النظري ، من مبادئ النسبية الضيقة والمعقدة على الميكانيك الكوانتي ، الذي وضعه نيلز بور و هايزنبرغ (٢) في آخر سنوات ١٩٢٠ ، يسيطر

(١) غاستون باشلار Gaston Bachelard

(٢) Niels Bohr et Heisenberg

على الفيزياء ، ويدخل في ذلك نجاح مجربها . انها ثورة مزدوجة ، في الواقع : لأنها لم تقطع الصلة فقط مع نظام مفهوم قديم وجزئي جداً . بل تدخل في داخل العالم الفيزيائي - بين الماكرو فيزياء^(١) والميكرو فيزياء - انقطاعاً أساسياً ، وتضع ظاهراً عقلانيتين مختلفتين ، عقلانية الختمية وعقلانية الصدفة . اما النسبية المعممة فلا تطرح على بساط البعث مبدأ السببية ولا استمرار الحوادث الفيزيائية . وتتغلب على التناقضات الميكانيك الكلاسيكي بربط المبدأ السري للجذب بالميزات الهندسية للكون . « ان الفيزياء النسبية تنصف على هذا النحو باخلاص الفكر للجهاز الفكري لتحليل الرياضي ولطرق تطبيقه المباشر على وصف الكون . ومذهبها امتداد وتصعيد معاً للمذهب الفيزيائي - الرياضي الكلاسيكي ، مذهب ماكسويل ، ومذهب نيوتن ، ومذهب غاليليه . » (دوبارل)

ومع الفيزياء الكوانتية التي طرح بلانك وأينشتاين أسسها الاولى دون ان يقبل لذلك جميع المقتضيات اللاحقة ، لا يكون الالهام تجاوزاً بل « نقياً » للميكانيك الكلاسيكي .

وان بناء الفيزياء النووية يتبع هذا المسعى الفكري والتقني معاً . والتقدم فيها بطيء ، مبعثر حتى نحو ١٩٣٠ : وبعد اكتشاف النشاط الاشعاعي ، تحقق التعظيم الأول لنواة الآزوت في ١٩١٩ على يد الانكليزي روثرفورد^(٢) . والصورة التي اعطاها نيلزبور للذرة - نواة وتيجان من الالكترونات - في ١٩١٢ وطبق عليها نظرية الكوانتا هي ايضاً اجمالية . وابتداءً من ١٩٣٠ ، نجد ان كثرة التجارب ، وعمل الجماعات المتوازية ، وفي الغالب المتنافسة - شادويك في بريطانيا العظمى ، بور وتلاميذه في كوبنهاغن ، فومي في ايطاليا ، وفريد يريك جوليو - كوري وزوجته

(١) الماكرو فيزياء هي فيزياء العناصر .

(٢) Rutherford

- ٣٣٠ -

ايرينه في فرنسا ، بوث وبيكو ، ثم هان وشترايمان في المانيا - ، وحتى تقدم وسائل التجريب - مثلاً ، استخدام المضخات ذات المصابيح او تحسين مواقع تحديد الجزيئات في غرف ولسون - تجعل هذه البحوث تجميعية بسرعة ، وتحتاج ظرفاً من هذه الظروف الاستثنائية في تاريخ العلوم . وقد كان ذلك آخر نيران العلم الاوربي قبل ان يترك الحادث للقدره الامريكية مهمة تحقيق النتائج .

ولكن التغير من حال الى حال ، في نفسه ، ليس نتيجة عجيبة للفيزياء النووية . ان جزيئات النواة مرتبطة فيما بينها بساحة قوى ؛ وان كتلة النواة اخفض من كتلة مركباتها . ويؤلف الفرق طاقة ارتباط : وهكذا تجسد الميكروفيزياء نظرية اينشتاين الرياضية في تعادل المادة والطاقة . وكل تفاعل نووي مصحوب بتحرير او بامتصاص طاقة . والتفاعلات ، كمنان : كانهضام النوى الثقيل الى نوى اخف وفضل ارتباطاً ، وبالعكس ، اتحاد العناصر الخفيفة كالهيدروجين . وفي ١٩٣٨ ، توصل هان وشترايمان الى تحطيم نواة اورانيوم تحت صدمة نوترون . وصاحب هذا التفاعل انتشار نوترونات جديدة ، وحدث صدامها على نويات أخرى من الاورانيوم نفس الاثر . وهكذا اكتشف مبدأ تفاعل متسلسل ، بفضل البحوث المتوازية التي قام بها هان ، جوليو ، وفرمي . ثم اعيد تأليف فريق فرمي في شيكاغو ، فحقق ، في ٣ كانون الأول ١٩٤٢ ، اول تفاعل من هذا النوع انطلاقاً من الاورانيوم . وعلمت النتيجة . ودرست تفاعلات الاتحاد في مخبر منذ سنوات ١٩٣٠ : وادت أخيراً ، في ١٩٥٢ ، الى تفجير اول قنبلة هيدروجينية .

ومع ذلك فان بنية الكون نفسها قد كشفت على هذا النحو تدريجياً . لأن الذرة ، والعلاقة بين النويات والالكترونات ، ونشاط الجزيئات ،

تعطي فكرة عن الحوادث الكونية . ان التفاعلات النووية ، وبخاصة اتحاد العناصر الخفيفة ، توضع التطور في زمن حرارة النجوم والشمس . ودراسة الاشعة الكونية ، تحليل التسجيل الطيفي للكواكب ، واكتشاف وتحري الطبقات العليا من الجو ثم « الفضاء » وتجريبات المخبر ساعدت على التأكد من حالات أخرى للمادة ، كحالة البلازما ، وتصور تاريخ المادة والعوالم التي تؤلف الكون . ولحققت الميكروفيزياء بهذا الكوسمولوجيا (علم الكون) ؛ وتجمع العلم النروي مع تفسيرات الميكانيك السماوي الجديد ، في فرضيات كوسموغونيا (نظرية تفسر تشكل الكون) مغامرة بعد - تشكل الكواكب ، أساس نظريات الكون ، كون في توسع .

وايضاً ، فيما وراء تعادل المادة والطاقة ، الأساس المشترك ، نجد الفيزياء في سبيل البحث عن وحدتها النظرية . وقد انكر اينشتاين ، في آخر حياته ، قسماً بما كسبته الفيزياء الكوانتية ، واخفق في محاولته انشاء نظرية موحدة للساحات - الجذب ، الكهربائية ، الساحة النووية . اما من جهة نظري الفيزياء الكوانتية فانهم يقبلون ، بعد هايزنبرغ ، بضرورة تفسير عام للساحات ، دون الصعود ايضاً من التعريف الكوانتي الى حوادث الجذب . وهل اكتشاف الساحات الجديدة للقوى النووية يعقد العمل؟ يأمل بعضهم من ان تعمق المعرفة نفسه في الميكروفيزياء ، واكتشاف الجزيئات العنصرية يؤديان الى بعض من توحيد جديد للعقلانية في الفيزياء : « ان التمثيل المشخص للواقع الفيزيائي في نطاق المكان والزمان مع علاقة سببية كان في أصل كل تقدم للعلم الحديث : فهو يطابق الاتجاهات العميقة لفكرنا واذا توقفنا عن الفهم جيداً ابتعدنا عنه [.] ، ان القضية هي معرفة ما اذا كان هذا التخلي الخطير جداً ضرورياً حقاً وما اذا لم يمكن ، بمساعدة مفاهيم جديدة وتحاليل اكثر تعمقاً ، العودة الى تمثيل مشخص

للوقائع الميكروفيزيائية التي تقترب من الوقائع من النموذج الكلاسيكي . (لوي دو بروي) (١) . والنقاش مفتوح ، ولكنه يري باعجاب ، خلال النجاحات وتصنيع البحث في الفيزياء ، كيف ان الارجاع الى دراسات العلوم ، بغية تقدير قيمتها بالنسبة للفكر الانساني ، ثابت ، وكيف ان الاكتشاف يبقى مقامرة فكرية .

علم الحياة وعلوم الانسان

ان علوم الحياة وعلوم الانسان لم تنته الى نفس الانقسام النظري كما في الفيزياء . ولا شك في ان هذا دليل على شباهها أكثر مما هو على نضجها . ولم تكسب هذه العلوم الا تدريجياً وبصورة متفاوتة الصرامة العلمية الحقيقية . ولم تتخلص الا حديثاً من الوصف والتصنيف او من تبعية وثيقة ايضاً حيال الخيار الميتافيزيكي .

ويشار الى الغموض في العلوم البيولوجية ، التي هي ظاهراً اقرب العلوم ، مع ذلك ، الى النظام العلمي : « اما العلوم البيولوجية ، فيبدو انها تشكو نوعاً من انخفاض علمي يحكم عليها بالتدود بين وضاعة تجريبية تعتبر فضيلة بنفسها وزعم « فلسفي » لا يعلن عنه ، في أي علم آخر » مثل هذا الضرب من الجدل « (فرانسوا ماير) (٢) . ولذا فان الافضل من تحليل كثرة الاتجاهات ، ان تعرف الساحة التي تقع فيها هذه التيارات والتي تلامس اصول هذه العلوم . لقد أتى القرن التاسع عشر بفكرة الزمان ، والديمومة ، وعدم رجعة الحوادث : ان اغراض التطورية ، والتحولية ونهوض التاريخ واكثر من ذلك ايضاً فلسفات التاريخ تطبع هذا العصر . ومن الممكن أن نلاحظ الاشعاع الذي يمارسه

-٣٣٣-

على الاتجاه الحالي لهذه العلوم الفرضيات الكبرى الاصولية لذلك الدور ،
الدارونية والماركسية بخاصة ، الغنية والحسنة لتثير منذئذ تفسيرات و «قراءات»
أو «قراءات جديدة» أمينة وفيه انتقادية أو مخربة ، تقع على العموم
بالنسبة لها . وكانت الفلسفة الوضعية الوجه الآخر لدراسة هذه العلوم
الموروثة عن القرن التاسع عشر . وقد أدت علوم الحياة والعلوم الانسانية
إلى الاكثار من الملاحظات والتجريبات ، ولكن أيضاً إلى الحكم بصورة
مسبقة ببطان الدراسات المعتمدة مغامرة وبالأضرورة ميتافيزيقية ؛ وهكذا
امتد طويلاً ، بعد أوغست كونت^(١) ، النقاش العظيم على صلاحية علم النفس .
وتقتضي الفلسفة الوضعية في الغالب أيضاً موقفاً « إرجاعياً » يفضي اما
الى إرجاع الحوادث إلى نظام يعتبر بسيطاً وموضوعياً - مثلاً ، الحياة
الى حوادث فيزيائية - كيميائية أو السلوكات الى حوادث فيزيولوجية - واما
إلى إزالة دراسة المجموعات والعضويات ، في دراسة عناصرها . وهكذا عرف
موريس كوليري^(٢) نحو ١٩٤ تطور علم الحياة المطبوع « بإرجاع تدريجي كامل
للمسارات الحياتية الأولية لميكانيكيات فيزيائية - كيميائية بصورة محضة ، وهذا
فتح علمي عظيم الأهمية وذو طابع عام قطعي » . وفي علم النفس ، إذا لم يكن
رد المدرستين اللامعتين في بداية هذا القرن ، السلوكية الأمريكية ،
و الفلكنسولوجيا^(٣) الروسية إلى إرجاعية محضة ، فلم تكونا
معفاة من المحاولة لأن عبارة وائسون^(٤) مبادئ المدرسة

Auguste Comte (١)

Maurice Caullery (٢)

(٣) الفلكنسولوجيا هي الدراسة العلمية للأنفعال المنعكسة .

Watson (٤)

الاولى : العقل سلوك ولاشيء غيره ، ، وتعريف السلوك كالزوج التحدي والاستجابة يذهبان بكل وضوح وبداية في هذا الاتجاه .

وحسب العلوم ، وحسب تبدلات الفكر ، نجد ان افراط الوضعية ، والفقر الذي تؤدي إليه أحياناً ، قد عينا ردود فعل ، ولكن من محتوى ، وخصب ، ومستقبل مختلفة جداً . وفي بداية هذا القرن ، حاولت البرغسونية أن تبرز فلسفياً تجدد مبدأ الحياة في علم البيولوجيا وقيمة التحري والاستقصاء في علم النفس . وعوضاً عن تداعي المعاني ، وجمع العناصر أو الأفراد ، نجد ان العلوم النفسية الاجتماعية - أو على الأصح بعض مدارسها أقامت دراسة الكليات التي تحلل مبادئها الداخلية للفهم . وهكذا ، فمن « الكل الاجتماعي » عند دوركهايم ، والتفتح في ألمانيا ١٩٢٠ لنظرية الشكل^(١) في علم النفس - نظرية تؤكد الطابع الشامل لساحة الإدراك وعمليات الفهم - فرضت رويداً رويداً الفكرة المسيطرة للبنية : وهي موقف أصولي عام جداً ولكنه قليل الشبه من علم لآخر . ولذا فمن المستحيل أن نعتبر أن البنيوية تؤلف اتجاهاً متجانساً ، وبالأحرى مدرسة ؛ وفي هذه الفرضية ، توحى بالفلسفة أكثر مما توحى بالعلم .

والكلمة على الموضة منذ آخر سنوات ١٩٥٠ : ان دراسة البنيات لها أسس قديمة ومثينة . فقد حاول جان بياجيه^(٢) ان يحيط ببعض المظاهر الأساسية والمشتوكة لهذا الموقف : « البنية هي نظام تحولات يتضمن قوانين باعتباره نظاماً (بشكل يعارض خصائص العناصر) ويعفظ أو يغني بتأثير التحويلات ، دون ان تذهب هذه خارجاً عن حدوده

• Gestaltheorie(١)

• Jean Piaget (٢)

او تستنجد بعناصر خارجية . وبكلمة واحدة تحتوي البنية على هذا النحر الصفات
الثلاث : الكلية ، التحويل ، الضبط الذاتي . ، والمقتضيات الأساسية
لهذه الطريقة يمكن ان تظهر كما يلي : فهي تميل الى الاعتراف بوجود
مستويات لا يمكن ارجاع احدها للآخر ، بصفة مربة اقل بما بقوانين
تنظيم المذهب نفسها ؛ وهي تلح على تحليل العلاقات بين العناصر اكثر
بما تلح على طبيعة العناصر نفسها ؛ وفيما وراء المعطيات الكثيرة ، التي
لا يمكن تصنيفها ، للواقع والحي ، تحاول ان تكشف عن انظمة . وبالنسبة
الى منظورات التاريخ القديمة تختص بامتياز الدراسات المتواقة .

وهذا يعني اعطاء طنين جديد لمبادئ علم اللغة (المتواقت ، الذي
انشأه فرانسو دوسوسور^(١) في بداية هذا القرن ، ولكنه ظل حبيساً
في صعيد الاختصاص الضيق : « ان القانون النهائي للغة ، فيما نجرأ القول به ،
هو انه لا يوجه شيء ابدأً يمكن ان يكمن في تعبير ، على اعتبار أن الرموز
اللغوية دون علاقة مع ما يجب ان تدل عليه . فاذا كانت آ عاجزة
عن الدلالة دون مساعدة ب ، فكذلك ، الحال في ب دون مساعدة آ ، او ان
الاثنين لا يساويان شيئاً الا بفرقها المتبادل ، او ان أياً منهما لا يساوي شيئاً ،
ولو يجرء ما من ذاته (افترض « الجذر » ، الخ .) ، شيئاً آخر الا بهذه
الشبكة نفسها من الاختلافات السلية بشكل دائم ، والاثنولوجيا
(علم الأجناس) تستعمل بدورها الطريقة اللغوية ، وتتجاوز المجموعة
البسيطة ، والتعريف الوظيفي او مقارنة النظم المنعزلة لتعتبر كل ثقافة
كأغنة . والتحليل النفسي ، من التطبيق العلاجي الى البحث عن
البنيات السرية للانسان ، يبدو ايضاً كعلم لنظام رمزي .

وفي هذه المنظورات ، تحاول العلوم الانسانية اذن ان تكشف ،

ويميز الأبنية التي تفيد كأساس وتحتوي غيرها وتحدد معاً الفردية والوعي :
 « ان التحليل النفسي والاثولوجيا ، بالنسبة للعلوم الانسانية ، هما على الأصح ،
 علمان « مضادان للعلم » : وهذا لا يعني انها اقل عقلانية أو موضوعية من
 العلوم الأخرى ، ولكنها تعتبرهما ضد التيار ، وتذهب بها الى أساسها
 العلمي الفلسفي ، ولانفتاً « تعري » هذا الانسان الذي يصنع ويصنع من
 جديد ايمانيته في العلوم الانسانية . ويفهم بشكل افضل أخيراً ان التحليل
 النفسي والاثولوجيا قد وضع احدهما تجاه الآخر ، في ارتباط أسامي
 متبادل : فنذ الطوطم والناو ، واقامة ساحة مشتركة بينهما ، وامكانية
 كلام يمكن ان يذهب من احدهما للآخر دون انقطاع ، نجد أن
 الترابط المزدوج لتاريخ الافراد على لا وعي الثقافات وتاريخية هذه على
 لا وعي الافراد تفتح ولا شك القضايا العامة التي يمكن ان نوضع
 بشأن الانسان . » (ميشيل فوكو)

ويجب أن نذكر ، قبل نجاح البنيوية ، ان علماً قديماً وهو التأريخ ، بحث
 تحت سير الحوادث ، عن التماسك الإيضاحي ، والارتباطات المتوافقة ،
 والضبط ، والانغام . وهذا التجديد يرجع الى جيل ما بين الحربين وبخاصة
 الى الحركة الفرنسية التي أثارها لوسين فيفر ومارك بلوك ، حول مجلة
 « الحوليات » . إن المصالح الجديدة ، والميكانيكيات الاقتصادية وتاريخ
 التقنيات الى تواريخ العقلية والحساسية ، فتحته بشكل عريض على العلوم
 الإنسانية الأخرى . وقد غنيت الاداء العلمية ، من التأريخ المتسلسل
 والكمي الى التفسيرات التحليلية النفسية ولكن هذا ، بالنسبة للتاريخ ،
 معناه التخلي عن يقين ميدانه الخاص والاصطدام بمناقشات علمية فلسفية
 تربط كافة العلوم الانسانية .

ومع ذلك ما فتىء تعريف البنيات يحتفظ بسؤال عن أصلها وعن

طبيعتها ، وعن العلاقات التي يمكن أن توجد بين مستويات مختلفة من الواقع ومن المعرفة ، وعلى إمكانات تطبيق نماذج منطقية - رياضية في ميدان الدراسة . وبصورة ثلثت النظر ، نرى ان تقدم العلوم الإنسانية مصحوب بعودة ، فيما وراء تاريخية القرن التاسع عشر ، إلى قضايا قديمة للفلسفة ونقد المعرفة . ولا عجب في أن ينض الإنسان والطبيعة في النقاش في فطرية الأفكار أو تشكيلها ، والعلاقات بين الموضوع والمهدف .

فبحر ١٩٢٠ ، في ألمانيا ، بين علم الظواهر وبحوث ماكس فيبر^(١) في الموضوعية وتشكل المفاهيم في علم الاجتماع أو التاريخ ، لا يوجد تغطية ولكن مع ذلك اتصالات . فقد بحث كلود ليفي- شتراوس عن أسس العلم في التوافق الأول للعقل والطبيعة : « المعرفة لا تعتمد على تحمل أو على مقايضة بل إنها تقوم بانتخاب للظواهر الحقيقية ، أي المظاهر التي تتفق مع خصائص عقلي . وليس كما زعم الكانتيون المحدثون ، لأن هذا العقل يمارس على الأشياء قسراً لا يمكن اجتنابه ولكن على الأصح لأن عقلي نفسه هدف . وباعتباره « من هذا العالم » يشارك بنفس الطبيعة مثله . ولكن مع دوام الفكر اعتمد جان بياجيه بخاصة على تجربة علم النفس الوريثي ، وعارض منظورات « الانشائية » وجمع بين التكوين والبنية : « في الصعد التي يفرض فيها التكوين نفسه على الملاحظة اليومية ، كما في علم نفس الذكاء ، يلاحظ في الواقع أنه يوجد بين التكوين والبنية تبعية ضرورية متداخلة : فليس التكوين إلا المرور من بنية إلى أخرى ، ولكنه مرور مشكّل يقود من الأضعف إلى الأقوى ، وليست البنية

(١) Max weber .

(٢) Claude levi - Strauss .

إلا مجموعة تحويلات ، ولكن جذورها تخضع لعمليات وترجع إلى تشكيل سابق للأدوات المناسبة . هذا هو الميدان الفكري الذي تقع فيه بشكل واسع جداً علوم الحياة والانسان .

ولكن هذا الميدان المحدد على هذا النحو لا يمكن أن يوضح غزارة وكثرة مراكز الأهمية والطرق ، والنمو المتفاوت للعلوم الانسانية . وان التحليل التاريخي لهذه الحالة ، يأخذ بعين الاعتبار ، أولاً ، التطور الخاص لكل علم ، واستعداده لتعريف موضوعه بدقة كثيراً أو قليلاً ووضع لغته . فالالاقتصاد ، يجمعه إلى دراسة السلوك الفردي دراسة المشروع و « الوحدات الكبرى » ، يحدد تبعاً له كميته ، ومن بعده نظري النمو ، معنى « الهيبة الاقتصادية الشاملة » ، ويتم ، بناء على طلب سير الاقتصادات الكبرى المعاصرة ، بأن يعرف بصورة عملية المفاهيم والمقادير .

واتجاهات علم الاجتماع تتنوع أيضاً بأكثر وضوحاً حسب التراث الثقافي ، وتجربة المجتمعات ، ودورها شك أيضاً الأزمنة التاريخية . وعلم الاجتماع الاوربي يبقى مطبوعاً بتأليف القرن التاسع عشر الكبرى . وفلسفات التاريخ ، ويتعلق طوعاً بالحوادث الشاملة السكية ، أي ما يمكن أن يسمى « ماكروسوسيولوجي » .

وعلم الاجتماع الامريكي ، في الحد الذي يؤكد وينت أصالته ، في سنوات ١٩٣٠ ، يريد نفسه أيضاً ان يكون عملياً ، مؤسساً على دراسة « العلاقات البشرية » والتأثير المتبادل بين الفرد والجماعات المتجه نحو قياس الحوادث والتجريب . وباعتباره نفسانياً اكثر منه تاريخياً ، يتناول شطراً كبيراً من تراث السلوكية ، شريطة أن ينتقده ، ويدخل بسهولة اللغة الفرديّة ، الموسعة ، وأحياناً بشكل مفرط ، في العلاقات الاجتماعية ، اكثر من المفاهيم الماركسية .

- ٣٣٩ -

وهو ، في الحد الذي يجب تعيينه ، يتأثر بحالة وقضايا المجتمع الأمريكي : من تمثل الجماعات العرقية ، والسير الوظيفي للمنظمات الكبرى ، وضعف الوعي الطبقي . وهذه الحالة تمتاز معاً باغراض ومواقف أصولية : ان دراسة « الشخصية الأساسية » والعلاقات بين الفرد ، والثقافة والمجتمع ، وتفتح الطريقة الوظيفية تتعلق بهذا المنطق ، كالروح المحافظة العتيدة التي تؤخذ غالباً على علم الاجتماع الأمريكي الذي ينمي تحليل النظام القائم ، وشروط « السير » الحسن على حساب منظور جدي للتاريخ . والحق يقال ، ان العالم العلمي غير محجوز بمواجه ، وإن العشرين السنة الأخيرة متميزة معاً بجهد التحضير النظري في الولايات المتحدة وبطغيان علم الاجتماع العملي التجريبي في اوروبا الغربية - حتى دخوله الحذر الى الاتحاد السوفياتي ، من اجل حاجات تسيير النظام . والتفكير والطريقة يكسبان ، دوماً شك أخيراً ، بالعمومية . والمراد ، بكل بساطة ، هو بدايات ، صعبة بعد ، لعلم يصبح تجميعياً اكثر من مذهب غامض او انتقائية تؤديان الى الفقر .

علم المجراتيم وايضاح الحياة

تفيد العلوم البيولوجية دون اي شك من نظام خاص . لالأنها تمتاز حقاً بعدم تجانس بالنسبة للعلوم الأخرى التي تدرس الانسان مثلاً ، بل لأن تقدمها غير منازع ، من حيث التجريب أو بالنسبة الى القرن التاسع عشر . لقد تغير المقياس والمنظور : من دراسة العضويات العالية ، انتقلت الجبهة النشيطة الى تحليل الميكرو-عضويات أي العضويات الصغيرة المنتهية في الصغر والحلايا : ومن الرسوم الايضاحية التاريخية الى الطرق الفيزيائية-الكيميائية . وهكذا اتجهت قضايا التطور والحياة في قسم عظيم منها

نحو علم الجراثيم ، نحو الارتباط بين المادة والحياة . وهذا الموقف بصورة أساسية ارجاعي ، يؤدي الى نهوض الكيمياء الحيوية (البيوكيمياء) . ولكن مسمى موازياً ، مشتركاً مع الأول بصورة وثيقة ، يقتضي إيجاد البنيات ونظام الحياة على المستوى الابتدائي للخلية والجزيئات التي تركبها : « عندما أظهر التحري العميق عن اللامتناهي في الصغر ، ذاهباً حتى البعد الجزيئي ، تحت اي بنيات فاعمة بنيت جميع الخلايا الحية ، بدأ علماء الحياة يجمعون قطعة قطعة أسس بناء رجا يتوصل بعد قليل الى تنويمه الا هو تفسير ميكانيكيات الحياة » (١) .

وفهمت كشوف البيولوجيا الجزيئية والخلية الى ابعاد من ذلك ولا مست القضية الاساسيتين : أصل الحياة وتطور اشكالها . وبعد الفرضيات النظرية التي قال بها اوبارين (٢) ، العالم السوفياتي ، او هالدن (٣) ، المتقدمة في سنوات ١٩٢٠ ، حاول بعض البيولوجيين ان يكتشفوا ، بالتجريب والتظاهر ، هذا الارتباط الكبير بين المادة الجامدة والخلية الحية : ففي سنوات ١٩٥٠ ، توصل ميلر في جامعة شيكاغو الى إيجاد جزيئات عضوية بصورة تركيبية في شروط تشبه « الأرض البدائية » . واقترح تدريجياً تشكل الجزيئات الكبرى وميكانيكيات حياة الخلية في تكوينها . وعندئذ فهم معنى حدود « الارجاعية » الفيزيائية - الكيميائية كما عرفها جان بياجه : « ان قوة الارجاعية الفيزيائية - الكيميائية هي ان تأتي بطريقة ايجابية للبحث ، الذي قد ينجح اولاً ينجح ، حسب حالة القضايا ، ولكن قدرته تعود الى الواقع الذي يؤدي فيه استخدامه الى تحسين

Pierre Auger (١)

Oparin (٢)

Haldane (٣)

- ٣٤١ -

واحياناً الى تجديد وسائل عمله . والحالة الأساسية ، التي تذكر للحكم على العلاقات بين الحياة والفيزيو- كيمياء ، هي ، في الواقع ، ان هذه الأخيرة لم تنته وان البيوفيزياء والكيمياء البيولوجية تؤديان دون انقطاع الى اغنائها لا الى تثبيتها .

وقوت اكتشافات البيولوجيا الجزيئية ، من جهة أخرى ، نظريات التطور المستوحاة من الدارونية . والوراثة المعتمدة على بنية عناصر الكروموزوم ، التي هي شرط لانتقال الصفة الوراثية وظهورها ، لا يمكن أن تبدل الا بالتغيرات الداخلية العارضة التي تحدث لهذه البنية . ومن ثمّ تحفظ التغيرات أو تطرح بتأثير الاصطفاء حتى انه من الممكن القول بأن الحوادث المفاجئة نفسها التي تؤدي بتراكمها في مجموعة غير حية الى زوال كل بنية ، تنهي ، في مجموعة الكائنات الحية التي تغطي سطح الكرة الأرضية ، الى خلق بنيات جديدة وتعقيد متزايد . وفي مستوى العضويات ، في مستوى التطور الطويل الأجل للأنواع ، يبدو ان الاحتمال البسيط والسببية الوحيدة الفيزيائية - الكيميائية لا تفيان بأجوبة مرضية تماماً . ولذا عرفت النظرية البيولوجية ، مع بعض التأخير ، هذه الأزمة الاصولية المتودولوجية التي فتحت للفيزياء في بداية القرن . وهكذا تحاول اعمال واد ينغتون^(١) التوفيق بين معطيات علم الوراثة والتأثير المتبادل بين العضوية والبيئة . ويؤول الأمر الى فكرة نظام تطوري شامل تدعمه علاقات من نوع سيرنطقي « من الممكن وضع فرضية يمثل بموجبها السلوك الداروني الحديث المادة الحية ميكروسلكاً مربع العطب دقيقاً مضبوطاً واتفاقياً ، أي مبنياً على الاتفاق والصدفة ، على حين ان الانسيابات الكبرى في العالم الحي تكشف عن سلوك سائل ومستمر [٠٠٠] . ولكن

- ٣٤٢ -

علم التطور يوجد أيضاً ، مقارناً بالجيولوجيا ، في حالة متقدمة : ان فكر المبادأة العلمية مشلول ، من جهة بمفهوم ميكرو - تحليلي لقابلية الفهم ، ومن جهة أخرى بالحرف القديم الموروث عن الأسلاف من ذنب الغائية [٠٠٠] . والعلوم البيولوجية الخاضعة لنفس التمزقات التي تخضع لها الفيزياء ، والمهددة بنفس المحاولة الميتافيزيقية التي تهدد بها علوم الانسان (كان يكون القصد رفض مذهب تفسير الحوادث بالغائية والأسباب القصوى أو قبوله) والموضوعة في داخل السؤال عن الانسان وعن صيرورته ، ان هذه العلوم البيولوجية ربما كانت اكثر العلوم دلالة على النقاش العلمي في النصف الثاني من القرن العشرين .

تهوي الفكر العلمي

ان ارجاع مجموعة العلوم والمواقف العلمية إلى معطيات ابتدائية أمر خطر دوماً : ان كل عبارة ، كل علم يستجيب لحطوط قوة تكون موازنها في آخر الحساب اقل دلالة من القوى المركبة . وقد يكون من المبالغ ان يرد التطور الحالي للعلوم الى الترييض ، أي إلى جعل كل شيء رياضياً ، وان يجعل من السيبرنطيقا النظرية الوحيدة ذات الموهبة والقدرة التوحيدية . ولكن التفكير الرياضي كتنطيقاته على العلوم الأخرى ، نشأة ، وعلاقات وغزارة الأفكار عن السيبرنطيقا ، ولو كانت مفرطة ومضطربة ، تدمغ بصورة عامة جداً الحركة العلمية بكاملها . والبحث ، في قطاعات عديدة ، يستلهم من إحياءاتها ، وهو مضطر على الأقل إلى أن يجيب عنها . ولها قيمة الاسطورة ، ولكن ، في الوقت نفسه - وأكثر من ذلك بصورة أساسية - أنها ترسم مركبة من أقوى مركبات الفكر العلمي الحديث ، .

وهذا يظهر أولاً في المعنى الجديد الذي تأخذه الرياضيات : « لقد

وجدت الرياضيات القديمة ، من جهة ، الكائنات الرياضية ، ومن جهة أخرى ، الواقع الطبيعي ، ومن الممكن تكيفها معه بكثير أو قليل من الضبط . وفي المنظور المعاصر ، كل شيء رياضي أو قابل لأن يكون رياضياً ، ومع ذلك ، فإن الرياضيات تتجاوز من كل جانب المعطيات التجريبية التي تساعد على إعطائها بنية بصورة أوثق . ، وإذا أصبحت الرياضيات منطق عصرنا فذلك لأنها نفسها كانت مضطرة لأن تعرف نفسها من جديد بالنسبة إلى المنطق التقليدي وفي أصل هذا التفكير ، توجد أزمة ، وهي الأزمة التي أثارها الأفكار التي ادخلت في القرن التاسع عشر هندسة ريمان ^(١) ، وتعريف كانتور ^(٢) لـ « المجموعات » ، ودمج « ما لا يمكن تعداده » و « العدد المنصور » في النظرية . وكالفيزياء ، اصطدمت رياضيات بداية القرن بمبادئ العقل « الكلاسيكي » . ولقد قسمت في نقاش واسع في طبيعتها وفي أصلها ، وجهزت البرهنة والتدليل على تلاحمها الداخلي الخاص . وهذا هو المكان التاريخي لعلم البديهيات ، وهو فرع من فروع الرياضيات ، الذي نما بخاصة قبل ١٩٤٠ ، حول مدرسة غوتنغن على يد هيلبرت ^(٣) ، ثم فريق الرياضيين الفرنسيين المسمى فريق بوروباكى ^(٤) .

لقد وجدت الرياضيات إذن وحدة ومرونة جديدة معاً بفضل علم البديهيات . المرونة ، لأن الاستنتاجات يمكن أن تقام انطلاقاً من مبادئ موضوعة أولية قابلة للتغير : وليس ضرورياً الانفراد في عالم الحدوس

. Riemann (١)

. Cantor (٢)

. Göttingen (٣)

. Bourbaki (٤)

الجزئي . وفي هذا المعنى تصبح الرياضيات « مبدعة » كالفيزياء ، وتسهم في هذا الجدل ، جدل « لا » الذي أوضحه غاستون باشلار^(٣) . ولكن الرياضيات ، في الوقت نفسه ، تجد وحدتها : لأن منطقها ليس خاصاً بالهندسة ، أو الجبر ، أو أي ميدان خاص ؛ لقد ولدت الرياضيات : « وحطمت الأطر التاريخية القديمة التي تنزع ، وهي تتلى ، إلى تجزئتها إلى علوم متميزة متطورة بصورة متباعدة . والهندسة ، من بينها ، ماتت كفرع مستقل ، وليست إلا دراسة البنيات الجبرية - التوبولوجية الهامة بخاصة . ودراسة البنيات الابتدائية الأساسية وعت الرياضيات من جديد وحدة الطريقة والفكر ، وحضرت من جديد لغة مشتركة تلعب فيها هذه البنيات ، بنية الغثة مثلاً ، دوراً أساسياً » ولذا فتاريخ العلوم الرياضية لا يقف . وعلم البدييات الرياضية ، الذي مازال المتمسكون بالنظريات الكلاسيكية ينازعونه ، له حدوده الخاصة ، ومناطق ظله ، كحساب الاحتمالات ؛ ولكنه يوسع أيضاً قدرة الحكم العقلي المنطقي ، ساحة تطبيقه .

ولتأخذ أولاً حساب الاحتمالات . فإذا كانت ، نظرياً ، أسس الاحتمالات موضع تساؤل أيضاً ، فإن التطبيق يدهش . والفيزياء المعاصرة ، كما رأينا ، تنهل منها طريقة جديدة لتعريف الواقع . والكشوف التجريبية للميكروفيزياء كانت في الغالب مسبقة بحكم عقلي استنتاجي . وقوانين الوراثة ، وعلم وراثة الشعوب ، وعلم الاقتصاد ، ودراسة الآراء تجد في حساب الاحتمالات أفضل تعبير علمي لها . ولكن علم البدييات الرياضية ، بفصله المحاكمة الرياضية عن الغايات الخاصة لكل ميدان ، واعطائه قيمة نظام صوري أكثر من طريقة قياس للواقع الفيزيائي ، فتح افق العلوم

• Gaston Bachelard (٣)

الانسانية من علم اللغة إلى علم الانسان (انثروبولوجيا) . وأخيراً ان نظريات الالعب والبحث « العملائي » ، أي طريقة التحليل العلمي الموجه نحو البحث عن افضل شكل لاتخاذ قرارات بنية الوصول إلى افضل النتائج ، باستخدام حساب الاحتمالات وفكرة المنظومة معاً ، أطالت ، على مستوى الدراسة والقطع بالقرارات - مهما كانت من نوع اقتصادي أو سياسي - ، تدخل الرياضيات .

عندئذ تفهم محاولة الوحدة . فهل من الممكن ان تشكل ، من الرياضيات وعلم اللغة ، نظرية واسعة للغة والرموز ؟ يبدو ان العلوم الانسانية تخرج فجأة من عزلتها ومن انفجارها الأصولي لتكتشف معاً قدرتها كعلوم رموز . وقريب من ذلك أيضاً ، السيبرنيطيقا « علم الرصد والاتصال عند الحيوان والآلة » ، ولكنها تريد ، انطلاقاً من التفكير في « الحيوانات - الآلات » ، ان تلقي بمعالم نظرية لأنظمة عامة . « ان السيبرنيطيقا الفينيرية ^(١) ، سيبرنيطيقا الميكانيكيات المنعكسة تحولت بسرعة إلى سيبرنيطيقا اوسع ، سيبرنيطيقا اقترح أن تسمى السيبرنيطيقا العامة ، التي تطمح إلى إنشاء آلات ذكية وتفسير حوادث الحياة كلية » (ر . بولانجيه) . وبصورة فعلية ، تجاوزت السيبرنيطيقا التطبيقات العملية الاولى في نظام الضبط والحساب الآلي ، ودشنت عصر الحاسبات الالكترونية ، وفي منظورها للمستقبل ، عصر الروبوبات . ومن جهة أخرى ، استحوذ علم الحياة (البيولوجيا) على لغة الاتصال والتأثير المتبادل . وان دراسة الخلية بمجده بشكل كاف . وليست التطبيقات أيضاً إلا « بداية » بالنسبة إلى الطموح النظري . « تريد السيبرنيطيقا ان تكون علم التأثير ، والسلوك الموجه والمنظم ، والجهد الطوعي

(١) من العالم نوربر فينيرت Norbert wiener وهو ابو السيبرنيطيقا .

الواعي والمعير ، والصيرورة الممثلة والمرادة بصورة مسبقة ، منذ البدء .
(جوس لومير) . وهل العلم أو الموقف العام للفكر يطبع معظم العلوم ؟ وعلى كل حال ، يشير إلى تجاوز الميكانيكيات الحطية المستقيمة ، والتقسيم بين علوم اللاعضوي وعلوم الحياة .

ولذا فإن اتجاه التيارات العلمية ووجود هذه التلاقيات وهذه الأشياء الأماسية المميزة لا تظهر في عالم مغلق خاص بالعلوم . فالسيرنطيقا ، مثلاً ، هي نظرية وعملية معاً وتنظيم المجتمع يستلهم جزئياً من هذه المبادئ ، ولكنه نفسه يتعلق دوماً بنمو القوى المنتجة ، ولحدا ، بالتكنولوجيا . وحركة الأفكار ، بالعكس ، لا تنجو من بعض الحتمية الاجتماعية ، وتتجنبها كلما انتقلت من العلم النشط إلى طينته الأديولوجي ، ومن البحث النقدي إلى الموضات ، والأذواق والتفسيرات . وعندئذ تعتبر الاسبقيات أقل من التلاحمات . وان العلوم وحركات الأفكار ، والتنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا تخص عصراً واحداً ولا يخلو الأمر من خلل وتناقضات . وعلى جميع المستويات التي نوجد فيها ، في هذا النصف الثاني من القرن العشرين ، نجد النقاش بين المذهب والتاريخ في آن واحد موضوع تفكير ، وموقفاً أصولياً وحالة حية .

تطبيقات العلم على الحضارة الفنية

إن صورة العلم المعاصر مزدوجة : من جهة ، الجذور البعيدة كثيراً أو قليلاً ، التمزقات ، وأسئلة البحث الأسامي . ومن جهة أخرى ، المظاهر المباشرة : تقدم تقني يمكن قياس خطوته وتسارعاته ويعطي كثافة جديدة لـ الوسط الاصطناعي ، المنشأ بالصناعة . وإذا فكر بالحركة أو تغيير الطبيعة ، فإن قطع سنوات ١٩٤٠ - ١٩٥٠ ظاهر : فترى فيه طوعاً انطلاقة ثورة صناعية

ثالثة . والقول الحق ، ان المهم هو أن نعرف بشكل أقل نظام تتابع من أن نعرف خصائص جديدة أو معززة بالتقدم التقني : عصر الذرة ، عصر السيبرنطيقا أو الاعلام . وقد استعمل الوصفان كل بدوره ، وليس لهما نفس القيمة ، وان ترجيح الثاني على الأول لا يقتضي فقط إلا الاعتراف بالسرعات أو النجاحات المختلفة لاستخدام الطاقة الذرية أو استخدام العقول الالكترونية . وإن ما يفهم من عصر الذرة ، ليس اطلاق نوع جديد للطاقة فحسب بل أيضاً سُلماً ما ، مستوى من الواقع الطبيعي : المادة آلة حقيقية صغيرة طبيعية : وسيا في الوقت الذي يبدأ فيه الإنسان باستغلال هذه الآلة بانتظام (البير دو كروك) . والالكترونيك تجد فيها أسسها ، إذا أريد النظر نحو الميكانيكيّات التي تستخدمها أكثر من النظر نحو الاستخدامات . ولكن المعرفة العميقة بالمادة - أو الحياة ، على السلم الجزيئي - ، إذا دلت على زيادة في وسائل العمل أو التأثير وأحياناً ثمنه الأجهزة ، ليست إلا مظهراً للأشياء ؛ لأن النظام التقني الذي تدخل فيه هذه الاكتشافات وهذه التجهيزات الخاصة الفردية ، شيء آخر . وإن تنظيم العمل بل وأيضاً المشاريع يميز التغييرات الصناعية في النصف الأول من القرن العشرين . وان الآلية وميكنة جزء من العمل الفكري ، والبحث العملي والاستعمال المنظم للاعلام تنقل من المشغل (الورشة) والمكتب إلى مجموع الانتاج والتسيير مبادئ التنظيم وقضاياه . وإن المجتمع بأمره هو الذي يمكن ، في الحد الأقصى ، أن يتصور ويفهم ويعالج كوحدة « مندمجة » . ويرى آلان تودين (١) فيه نشوء مجتمعات من نوع جديد : « ستسمى المجتمعات المبرمجة إذا بحث عن تعريفها أولاً بطبيعة شكل انتاجها وتنظيمها الاقتصادي . وهذا التعبير الأخير ، باعتباره يدل أكثر من غيره مباشرة على طبيعة العمل والتأثير

الاقتصادي يبدو لي أكثر نفعاً . ولا نبعث هنا لأي حد تغير تقنيات الاعلام والبرمجة مجتمعات محسوسة ، معرفة بنظائرها الاقتصادي والاجتماعي وتراثها التاريخي ؛ ولكن لنحفظ ببساطة الصفات المشتركة التي تضيفها ، وأكثر من ذلك أيضا ، التي تعد بها مجتمعات بلغت هذه الدرجة الجديدة من التصنيع .

وإذا درس التقدم العلمي في هذا المنظور فلا يمكن أن يفهم كجمع بسيط من الاختراعات . وان التسارع المعاصر يرجع إلى التأثيرات المتبادلة ، والتلاقي بين القطاعات و « الاكتشافات » . ونتائج هذا التأثير المتبادل هامة لا لأن التقدمات في مضمار ما تكون على صلة بالتقدمات في مضمار آخر أو أنها توجهها فحسب ، بل أيضاً لأن كثيراً من الاكتشافات المنعزلة تأتي بحلول غير منتظرة لبعض القضايا ، لأنه من الممكن أن تضاف لعمل كل أعظم من مجموع أجزائه ، أو تؤدي أيضاً إلى اكتشافات أخرى غير منتظرة أيضاً (هـ . كان وآ. فينير) . إن التأثير المتبادل ، والبرنامج ، هذين المظهرين للنمو التقني يظهران بشكل واضح في العملية - تركيب التي يؤلفها « فتح الفضاء » . ولكن في هذا المضمار ، كما في المضمار الذري ، لا يكون تسيير المجتمع وموجه على بساط البحث بل العلاقات بين المجتمعات ، ووجود مشروع مشترك أو تأثير مزدوج من التنافسات والتسلسلات . وعندئذ تنطبق سياسة العلم على السياسة دون زيادة - وهي ، التي تثقل ، على الأقل ، قدر الإنسان .

تجاوز المحرود التقنية : الطاقة والمواد الأولية

الطاقة ، المواد الأولية ، النقلات : إن التغيرات التقنية في النصف الثاني من القرن العشرين تحمل على كل منها عناوين تعرف « الثورة الصناعية الاولى » . ولقد تم التجاوز في اتجاهين متكاملين . أولاً تسخير

دقيق وكامل معاً للمادة وخصائصها . إن صناعة القرن التاسع عشر لم تكن لتخدم إلا سلسلة أو مجموعة صغيرة جداً من مصادر الطاقة ، من العناصر - في الصناعة المعدنية مثلاً - وكشفت منذ قليل إمكانيات الكيمياء ؛ واصطفت أسهل الأجسام استخراجاً ، وأكثرها قابلية للتحويل مباشرة . أما صناعة عصرنا فتحاول استعمال السلسلة الكاملة للعناصر الطبيعية ، وباختراع الخلائط ، تركيب مواد كيميائية جديدة ، وصنع منتجات لأغراض مختلفة متزايدة ومختلطة . وهذا التسخير يسوق الى نتائج من نوع جديد للعظمة ، إلى تغيير حقيقي للسُّم : وسواء أكان القصد العلاقة بين الطاقة الناجمة والمحروق المستهلك ، خفة المعادن وصفاتها الميكانيكية والحرارة ، لاستقبال أو بث الموجات ، نقل التيار الكهربائي أو الحرارة ، فالقفزة عظيمة . ولكن النتيجة ليست فحسب زيادة في القدرة في القطاعات التقليدية : الطاقة الميكانيكية ، تحول المواد الأولية ، تداول المتاجر والرجال ، بل هي أيضاً نقل ، وانتقال مراكز الأهمية : إن نقل الأخبار والمعلومات والفكر يحتل منذ الآن مكاناً قاطعاً .

تغير السُّم : يعطي استخدام الطاقة الذرية أفضل مثال لهذا التغير . إن طنّاً واحداً من الاورانيوم يكشف عن طاقة ٣ ملايين طن من الفحم . وهذه القيمة القصوى تفترض أن المادة الأولية كلها قد تحولت واستعملت . والمفاعلات الحالية على الاورانيوم الطبيعي لا تسمح الا بنسبة ١ إلى ١٠٠٠ طن . وهذا عظيم . ولكن هذه المسافة تطبع الفرق بين اكتشاف المبادئ النظرية والمراحل التدريجية التي تكون مخفية في التطبيق أحياناً . والمفاعلات الذرية ، التي انشئت في ١٩٤٢ ، لم تنافس الأشكال الاخرى للطاقة الا منذ ١٩٦٥ - ١٩٦٦ . ومضى عليها عشرون سنة إلى أن تأمن مكانها في التغيرات الاقتصادية . وبصورة موازية ، درست

- ٣٥٠ -

نماذج أخرى من المفاعلات ، وجربت ، وتسطيع في مهلة خمسة عشر أو عشرين عاماً ان تغير النتائج بكاملها .

وخرجت الطاقة الذرية حديثاً من مرحلة قبل - صناعية ، مرحلة النماذج والبحث عن سياسة ، ونجد ثلاث صفات تطبع هذا الدور :

١ - فصل أميء اجراءه بين المظاهر العسكرية والسلامية للطاقة النووية

٢ - ظروف الطاقة المقلوبة : وهي ان الفاقة ، التي كانت تخشى بعد الحرب مباشرة ، فسحت مجالاً الوفرة .

٣ - انخفاض أسعار كلفة الأشكال التقليدية للنتاج في سنة ١٩٥٠ بتأثير السوق (انخفاض سعر المواد الأولية) والتقدم التقني (زيادة المردودات الحرارية)

ولذا فإذا سياسة مختلف الأمم حيال الذرة قد تجاوزت مع أهداف ومع حالات خاصة أكثر منها مع ضغط اقتصادي عام .

وانطلاقاً من ١٩٦٤ - ١٩٦٦ ، تمت تقدمات في كل مكان - زيادة أبعاد وقدرة المعامل المولدة (سنترالات) ، وتحسين المردود الحراري - ، التي قربت سعر الكهرباء النووية من السعر الجاري للطاقة . والعنصر الحامم ، في هذا الانخفاض في سعر الكلفة ، هو نقص نفقات توظيف الأموال . ولا عجب إذا أتت النتائج الباهرة من الولايات المتحدة . فقد عرضت شركة جنرال الكتريك ثم وستنغهاوس مراكز ، معامل مولدة ، قادرة على تحمل منافسة المراكز الاخرى ، فكسبتا لمشروعها شركات الكهرباء الخاصة التي ما زالت حتى ذلك الحين محجبة . وإن تدخل المشروعات الكبرى بفرض نفسها على السوق الاميركية واقتناعها

بالطريقة ، قسماً من السوق الاوربية غير المنظمة ، أعطى إلى السحابة
الامريكية ، خارجاً عن كل فائدة فنية ، حظ التصنيع ، وكانت النتائج
من نوعين : فمن الآن فصاعداً ، توجه الولايات المتحدة معظم توظيفات
القطاع الكهربائي نحو انشاء مراكز نووية . وبين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ،
على الولايات المتحدة أن تنتج الكهرباء من أصل ذري بما يعادل أربعة
أضعاف بريطانيا العظمى . وأخيراً قامت ثورة الطاقة . وفي أوربة أيضاً ،
غلبت الترددات الأخيرة ، ولكن السحابة الأوربية لا تملك سقفاً ولا تصنيعاً
كافيين ، ولذلك تجاوزتها سحابات الولايات المتحدة . وهذا يقتضي من الدول
الأوربية تبعية مزدوجة حيال براءات الاختراعات أو حتى المشاريع
الامريكية وحيال المجهز الوحيد للاورانيوم الغني . وفي ذلك اخفاق اللجنة
الطاقة الذرية الأوربية التي استطاعت أن تنسق السياسات العلمية دون
الوصول ، مع ذلك ، إلى سياسة صناعية والقضية بالنسبة لأوربة ،
على مستوى هذا الجيل الأول من المراكز ، هي معرفة ما إذا كانت
ستتوصل لصنع اورانيومها الغني .

ولكن الجيل الأول ليس له إلا مستقبل محدود . ولذا فإن مراحل
متوسطة ، سحابات مصححة كثيراً أو قليلاً ، يجب أن تحسن المردود .
وهكذا فإن المفاعلات التي تقوم على الغرافيت وتبرد على الهليوم أو على
الماء الثقيل تقتصد الاورانيوم الطبيعي . ونرى أن المركز التجريبي في
برنيليس ، في مقاطعة فينيستير^(١) في شبه جزيرة بروتانيا في فرنسا ، من
أجل طن واحد من الاورانيوم يعطي معادلاً طاقياً من ٣٠٠٠٠ طن من
الفحم . ولكن الأفق شيء آخر : لأن الابيال الفوق مولدة تستهلك في
الوقت نفسه الاورانيوم ٢٣٥ وتحول إلى بلوتونيوم منتجاً آخر قابلاً للتفجير ،
وهو الارانيوم ٢٣٨ . وهكذا يصنع كثير من المادة القابلة للتفجير بما

(١) Finistère ، Brennilis

-٣٥٢-

لا يوجد في الانطلاق . وفي النماذج الحالية نجد أن طن الاورانيوم يعادل القوة الطاقية من ٦٠٠٠٠٠ طن من الفحم . ولكن نحسين بل وانشاء مراكز تبلغ قدرتها ١٠٠٠ ميغاواط على الأقل ليس على مستوى البرامج أو الصناعات الجزئية .

إن الطاقة النووية ، تحت شكل مراكز كهربائية ، لا تلعب إذن في اتجاه تفريق أو بعثرة نقاط انتاج الطاقة ، لا من وجهة نظر اقتصادية ولا من وجهة نظر جغرافية . وإذا كانت شروط التوزيع أقل شدة ، فنجد انطلاقاً من مصادر أخرى للطاقة ، أن الوحدات تذهب نحو قمامات عظيمة لتأتي بدخل حقيقي . وإن أشكال الاستعمال الأكثر تجزأة - المحرك ذي الدفع النووي بخاصة ، إذا كانت تجمع فائدة عبوة ضعيفة من المحروق ، مع مدة استخدام طويلة جداً ، وجدت تطبيقها في الغالب على هامش الاقتصاد ، وبخاصة لغابات استوائية (غواصات ذرية) . وان مجموعة القوة المساعدة النووية^(١) ، التي أنشئت في الولايات المتحدة ثم في الاتحاد السوفياتي لتجهيز الأقمار الاصطناعية ، تجمع بين التنمية والديمومة ، بالرغم من قدرتها الضعيفة . وهكذا تستطيع الطاقة النووية ان تساعد في عمليات رائدة ، ولكن خارجاً عن كل قاعدة نفع مباشر . وتبقى فيما وراء تخطيط الاورانيوم ميادين المستقبل غير المؤكدة : الطاقة الشمسية ، البيل ذي المحروق واستخدام طاقة التركيب الذري كما في القنبلة الهيدروجينية والصناعة المعدنية ، من جهتها ، تنوعت كثيراً . وليس المراد فقط طرقات جديدة للصنع القديم فقط لأن استخدام الهواء الاوكسجيني أو الاكسجين الصرف

(١) S. N. A. P. (System for Nuclear Auxiliary Power)

-٣٥٣-

في المحولات أو المقالب ساعد على الحصول على أنواع من الفولاذ استطاع
الفرن الكهربائي وحده اعطاها حتى الحين .

وأصبحت صناعة الحديد أخيراً فرصة لبحوث منظمة تذهب من كفاءة
المهندس إلى كفاءة الباحث في التحير . ولكن ، أكثر من ذلك أيضاً ، ان
مجموعة العناصر المستخدمة قد توسعت : فبين المعادن الخفيفة أضف الماغنيزيوم
إلى الألومنيوم - وبخاصة التيتان ذي الكثافة المرتفعة كثيراً ، ولكنها
معروفة بمقاومة ميكانيكية ممتازة وبحرارة انصهار أعلى . ولذا قامت
المنافسة في الطيران ، وبخاصة في مشاريع الطائرة التي تفوق مرعتها مرعة
الصوت . فمن أجل طائرة الكوليكورد استعمل الألومنيوم ؛ ومن أجل
البوينغ ٢٧٠٧ ، ذات المنظورات الأكثر طموحاً ، التيتان . وبين المعادن
التي تتحمل حرارات قوية جداً (انصهار فوق ٣٠٠٠ درجة) انفرس التنتال ،
والتانستن ، والهافنيوم . وجددت الفضة والذهب شباهها في الصناعة ، وكلاهما
يتناز بصفات المقاومة والناقلية الجيدة ونفاذ العمل في أجهزة الدقة والضبط .
وهكذا تشكلت صناعة معدنية لها أهميتها وتطالب بها الصناعات المتقدمة
تقنياً : الطاقة النووية ، الفضاء والطيران ، الالكترونيات . والاضطراب التي
يمكن التعرض لها ، كالنشاط الإشعاعي ، والتلوث من جهة ، واحتمال نفاذ سير
العمل دون ضعف من جهة أخرى ، لا تسمح بالتكليف والضبط والتجريب العملي .
وليست أنواع المنتجات التركيبية المحسنة بالصناعة الكيميائية أقل
ندرة . وكل إنسان يعرف هذه المواد البلاستيكية ، ومنها الكيمياء
الجزئية ، كتكثيف الجزيئات أو اتحادها لتشكيل جزيئة أكبر ، التي
عرفت الصيغ ، وبخاصة في السنوات ١٩٣٠ - ١٩٤٠ ، والفائدة التي نجمت
عنها مزدوجة : ففي المقام الاول يأتي رفع قيمة المواد الأولية والمنتجات
قضايا عصرنا (٢٣)

الثانوية التي تنتج عن تقطير الفحم والبتول . ولكن الثانوي أصبح ،
بخاصة في العشرين سنة الأخيرة ، أساسياً . ولا تصنع منتجات الاستعاضة ،
التي تقوم مقام المنتجات الأصلية ، بل مواد جديدة تمازج بقابليتها - من
حيث سهولة العمل ، ومقاومة الصدمات ، والحرارة ، والانشكال ،
وقيمتها كعازل ، وأخيراً سعر السكفة - ويبحث عنها لذاتها ، حتى
ان الحياة اليومية والاستهلاك قد تأثرا بها ونفذت اليها . ولكن المواد
البلاستيكية توجد أيضاً على مستوى نجاحات ونتائج الصناعات المتقدمة ؛
كالنفيل في صناعة الفضاء أو دورات وفاكرات الأدمغة الالكترونية .

الموجات ونزول الفكر

استخدام أو إعادة تركيب المادة - إن العالم المعاصر لا يعرف
الأجسام فحسب ، بل الموجات . وهنا أيضاً نجد أن اكتشاف هذا المضمار
المستمر ، ولكن القسم الأعظم منه مازال بنجوة عن حواس الانسان ، يتدرج
في الزمان . وقد تراكت المعارف في السنوات ١٩٠٠-١٩٤٠ : من شروط
انتشار الموجات القصيرة أو الفوق - قصيرة ، والانعكاس على مناطق الجو
العالي ، واكتشاف الفوق اهتزازات الصوتية التي تنتشر في الماء . وهكذا
تتراكم امكانيات نقل المعلومات توسعاً وكثافة . ولكن كل شيء
يتعلق بالأجهزة القادرة على التقاط وتضخيم التيارات ، ونسخ الأصوات
والصور . وفي الأساس وجدت بعض اختراعات حاسمة : الميكروفون ،
الذي يرجع تاريخه إلى ١٨٧٧ ، وبحول الصوت إلى تيار كهربائي ؛
والحلية الفوتو - كهربائية ، التي كثرت تطبيقاتها في السنوات ١٩٣٠ ، على
أثر البحوث الأساسية القديمة ، تقوم بتحويل النور إلى تيار . والنقل إلى
مسافة يفترض مع ذلك التضخيم والكشف عن الموجات بغية جعل

المعلومات قابلة للاستهلاك . ووجدت أولاً الأنابيب المفرغة - المصباح « ديود » للمهندس الانكليزي فليمنغ في ١٩٠٤ ، والمصباح « تريود » للمخترع الفرنسي فوريسست في ١٩٠٦ - التي أمنت انتشار الراديو . وان تقدم فيزياء الأجسام الصلبة ساعد ، في ١٩٤٨ ، على اكتشاف خصائص الأجسام النصف - ناقلة - كالسيليسيوم أو الجرمانيوم الممتزجين بالشوائب - في مخبر بيل . وهكذا قام الترانزستور مقام الأنابيب المفرغة . ونحو ١٩٦٠ ، سارت صعوبة هذه التقنية مع ثمنه العناصر ، وتحسين المقاسات الصغيرة والدورات المندمجة ؛ وفي ١٩٦٧ ، تم التوصل إلى نقل الدورة تماماً ومباشرة على صفيحة صغيرة تماماً من السيليسيوم . ولا تتعلق النتائج فقط بالراديو ، والتوسع السريع للأجهزة ذات الأيال ، التي تعلم أهميتها في نشر المعلومات . إن الالكترونىك في مجموعه ، أي استخدام الكهرباء كحامل رسائل ، هو الذي يغير بعده وقدرته : والتطبيقات تذهب من الدماغ الالكترونى إلى الأجهزة العلمية أو الطبية ، من مستطورات جيمس بوند إلى اكتشاف الفضاء .

ونقل الصور يجمع الاختراعات أيضاً . ففي السنوات ١٩٢٠ - ١٩٣٠ تم الانتقال من انعكاس الصور الميكانيكي إلى انعكاسها الالكترونى : ان الكاميرا الالكترونية (١٩٣٤) ، نقلت البث من مرحلة حب الاطلاع إلى مرحلة الاستغلال . ومنذ ذلك الحين حث التلفزيون الملون البحث . وفي البدء كانت طريقة اذاعة كولومبيا (١٩٥٠) ، التي لا تسمع بالبث بجهاز واحد لاذاعات بالأسود والأبيض وباللون . وأدى الاخفاق التجاري لهذا المشروع الأول إلى تبني الولايات المتحدة ، في ١٩٥٤ ، طريقة ملائمة درستها مؤسسة راديو R.C.A. . ودخلت أوربة ، بدورها ، في المنافسة ،

ولكن التعارض بين الطريقة الفرنسية والطريقة الألمانية منع كل توحيد ، وحدد الأسواق ، وكبح التصنيع . وفي التلفزيون تتغلب صعوبات نقل المعلومات : ان نقل الصور هو ، في الأصل ، تابع لاكتشاف الموجات فوق - قصيرة ، القادرة وحدها بتواترها العالي على أن تنقل كتلة المعلومات التي تتضمنها الصورة . وبث الراديو يتطلب شريطاً من ٩٠٠٠ سيكل - ثانية ، وفي تغيير التواترات ٥٠٠٠٠ سيكل ؛ والتلفزيون يتطلب ربطة من ٤ أو ٥ مليون سيكل . ولكن الموجات فوق - قصيرة تنتشر على خط مستقيم ولا يمكن أن تعيدها طبقات الجو العليا . ولذا يلزم انشاء شبكة أجهزة مذبذبة مرتبطة فيما بينها بجبال « هرتزية » واقعة أمام بعضها وتنقل على هذا النحو اشارات التلفزيون إلى مسافات متوسطة . ولاحتياز المحيطات أو توزيع الأخبار على مجالات واسعة ، تستخدم محطات تقوم على أقمار اصطناعية مرتفعة بصورة كافية لترى من قبل محطتين أرضيتين بعيدتين جداً : ان صورة تلفزيون مرسله من نقطة من الكرة ، يمكن على هذا النحو أن تؤخذ في العالم كله ، ولكن في الوضع الحالي ، لا تستطيع الأجهزة المستقبلية الفردية أن تلتقط مباشرة اذاعات الأقمار الاصطناعية وتبقى تابعة للشبكة الهرتزية . والتلفزيون يتطلب إذن بنية تحتية كثيفة : ومن المعلوم أنه لما ، حتى في بلد ضيق الأبعاد كفرنسا ، موجات متميزة . وتحت ضغط الكثافة المتزايدة من الأخبار التي يجب نقلها - والتي يزيد انتشار الاعلام أيضاً - أصبحت الموجات « مورداً نادراً » ، (ف . دوران - داستيز) ؛ والتنافس شديد جداً في التقسيم الدولي لموجات الراديو ذات التواتر المنخفض والمتوسط . وان الاكثار من عبوة الموجات فوق قصيرة لا يبعد إلى أجل متوسط أخطار الاشباع . ومن هنا تفهم الأهمية التي تعلق على الموجات الضوئية واختراع الليزر .

الآلة والاستعصام

أن نحول العالم المعاصر لم يأت فقط من تراكم النجاحات الجديدة . وان نمو الالكترونىك ونمو المجموعات المندمجة للانتاج ، واستخدام العقول الالكترونية لم تؤد نفاذ العمل البشري فحسب ، بل انها بدلت بعقو طبيعته وتنظيمه . وبلغ الأمر قوى وموضات الانتاج بعقو . كما أن النتائج لا تقاس فحسب بالمقادير الفيزيائية - المسافة ، السرعة ، القدرة الطاقة ، اختلافات السلم . بل تقرأ مباشرة في تسيير الاقتصاد ، والبنيات المسلكية ، والعلاقات الاجتماعية . والتقنيات الجديدة ، وان مازالت محدودة وغير معممة ، تبشر بتغييرات في نظام الحياة اليومية ، والتربية ، وأوقات الفراغ وتعطي كامل معناها لفكرة الحضارة الفنية التي عرضها جورج فريدمان .

الآلة ولاشك هي التعبير الذي يوجز افضل من غيره هذه التقنيات كافة . ويقصد بذلك اكثر من امتداد لليكنة التي زادت حتى هذا الحين بعشرة أضعاف أو حلت محل القوة العضلية . ومع الآلة نجد جزئياً ان الصفات الحسية عند الانسان ، وقدراته على التكيف والدقة والضبط والتركيز ودوره كـ « مستقبل » أو « باث » للاخبار هي التي تنقل إلى الآلة . حتى ولو وضعت تحت فكرة الآلة مجموعات مستقلة من التحويلات التقنية ، فان هذه تنتهي إلى مجموعة متجانسة نسبياً . وقد حللها فـ « بوللوك » كما يلي : « ان المبدأ الأساسي للآلة هو دمج مسار جزئي للانتاج مازال حتى الآن متقطعاً في مسار منتظم يجمع اكثر الآلات الصانعة تحسباً تحت توجيه اجهزة الكترونية ، [٠٠٠] . وهذا يميز في الآلة : ١ - جمع قطاعات انتاج ، تكون عادة متفرقة ، في دورة

-٣٥٨-

مستمرة يقطعها الانتاج دون المرور بين يدي الانسان . وهذا هو (الدمج) .

٢ - استخدام أجهزة التغذية المرتدة التي تعمل تحت إشراف الانسان (تكنولوجيا الضبط الآلي) .

٣ - الحاسبات .

والاشكال المحسوسة تستجيب لهذا المظهر أو ذاك من هذا التعريف ؛ وتدل على مراحل الحركة ، وتعين تفسيرات ، واضاءات متعاقبة . وبين ردود الفعل الماثرة نحو ١٩٥٠ باقامة نظام ديترويت وردود الفعل التي يثيرها حالياً انتشار الاستعلام في المكاتب والمخابر ، يوجد اختلافات . ولكن الالكترونىك والدور المتزايد للمراسلات ، وبالتالي طبيعة وتنظيم العمل يميز آلية المراحل السابقة للميكنة وتجعلها تتوسع في النصرف بالمعلومات .

ان اول شكل للآلية أحل محل العمل القديم المتسلسل استخدام الآلات الصانعة الناقلة . وهنا انطلاقاً من صناعة السيارات : ان القطعة التي يجب صنعها تدخل في الناقلة الآلية التي قدفعها آلياً من موقع لموقع ، وكل واحد من هذه المواقع يتمثل في رأس أو عدة رؤوس كهربائية - مغناطيسية يقوم عملها عندما تتوقف الناقلة . وفي ختام العملية يرد المنتج الذي وضعت عليه القطعة الى مدخل الآلة . (آلن تورين) . هذا هو تعريف الآلة - الصانعة - الناقلة . وهذا النظام يلغي بعض اشكال العمل البشري ، ويوفر اليد العاملة ؛ ولكن الآلية ليست هنا الا مرحلة ابتدائية ، تعمل فيها ميكنة العمليات الشيء الأساسي . وهي مرحلة جزئية ايضاً ، لأن المشغل المتألي لا يمكن ان يكون الاجزيرة في مسار الانتاج .

والإنتاج في دورة مستمرة يفترض أجهزة أخرى ، وبخاصة التحقيق أي التأكيد ، والتصحيح الآلي للعمل . وفي هذه المعامل ، يتم برنامج الصنع بنظام الضبط والتغذية المرتدة : « إن العمل الميكانيكي يمكن أن يعتبر كمجموعة من المعلومات تبشها الآلة ، وهذه المعلومات تقارن بالمعلومات النظرية المنتظرة من الآلة تبعاً للتعليمات التي تلقاها . وعلى اعتبار أن هذه المقارنة تم آلياً ، فكل اختلاف يؤدي إلى تغذية مرتدة بواسطة مجموعة ميكانيكية تساعد على التوازن بين الجواب والأمر ، يرد المعلومات الصادرة عن الآلة إلى المميزات المذكورة (آلن تورين) . إن تصفية البترول ، والبتروكيمياء ، ومعالجة السوائل أو الغازات حديثاً في صناعة الحديد (الافران والتصفية) تؤلف ، مع التوجيه الآلي ، أفضل الأمثلة لهذا الشكل التام من الآلية .

ويبقى الاستعلام بالمعنى الخاص ، وهو أحدث مرحلة لهذه الحركة الحاضرة مباشرة لتقدم الالكترونيات ، لأن كل شيء يتعاقد بالقدرة على التسجيل ، وسمعة العمليات - ولكنه يتطلب أيضاً تحليلاً منطقياً لهذه العمليات . وقد حسب منذ ١٩٥٠ أن الاجيال المتعاقبة من العقول الالكترونية قد حققت قفزات نوعية عظيمة : إن سرعة الحساب قد ضربت بعشرة كل خمسة أعوام ، والقائمة قسمت على عشرة ، ولعمل معين ، نقص السعر عشرين أو ثلاثين مرة . وتم الانتقال من المرحلة التجريبية إلى الاستغلال الاقتصادي في زمن قياسي .

ورافق الجيل الثالث انتشار ، ابتذال ناشئ متفاوت بالبداية من بلد لآخر : إن عدد المحيطيات والنهائيات زاد في إشعاع جهاز قوي ، على حين أن بعض المشاريع في الولايات المتحدة انطلقت في صنع الحاسبات الالكترونية الصغيرة القائمة . ولم تنعكس التطبيقات على التسيير والإدارة

فمصّب بل ايضاً على الصناعة : ففي السنوات العشر الأخيرة تحولت الآلات الصانعة بإدخال الضبط العددي . فالحاسبات تحقق حسابات ، وتراقب التنفيذ ، وتأتي الى الآلة بدرجة من الضبط ظلت بمجولة حتى الآن . ودخل تحضير التصميمات والنماذج المصغرة والرسم الصناعي في عصر الآلية ايضاً . ولكن القصد ليس احلال شيء محل آخر فعصب : لأن استخدام الحاسبات يعين نمو صناعة جديدة تضاء الاحاطة بمحدودها : وهي صناعة الاستعمال المنظم للمعلومات ونوزيعها ، الأمر الذي يربط بصورة وثيقة الحاسبات وشبكة الاتصالات . وهذه الثورة التقنية يعبر عنها بدورها بتعايير استخدام وتغيير فكري . فهي تستعيز عن النشاط الانساني بالآلة ولكنها تفتح في الوقت نفسه ميداناً جديداً لهذا النشاط . وفي العلاقات بين الآلة «السلعة المعدنية» والتركيب نجد ان غنى البرامج، وتوسع نطاق تطبيقها ييزان الاستعلام ، وعلى الأقل في الوقت الحاضر : لأن قابلية الاثيان بالربيع ، والنفاذ ، واستخدام التقنيات الحديثة تمر بهذا التوازن .

وعندئذ نرى أن نتائج مايسمى ، ولايخلو الأمر من التباس ، الثورة الصناعية الثالثة لا تظهر بسيطة . وان الآلية في المعمل ، منذ عشرة اعوام ، تثير اول سلسلة من الفرضيات ، وان الآلية المكاتب وقسم من العمل الفكري ربما لاذهب في نفس الاتجاه ، ولكنها تعطي على كل حال قيمة أخرى لوقائع يحكم عليها بصورة جزئية جداً .

الآلية والمجتمع

لقد لامست الآلية ، في المرحلة الاولى ، العمل المنتج مباشرة ، عمل العامل . وبالنسبة للتأيلورية ، ثم للعمل المتسلسل ، ظهرت تعرف

مرحلة جديدة ليكنة الورشة وتنظيمها . ولكن نتائجها تبقى غامضة . وفي
تعايير الاستخدام ، تجنح الآلية دون منازع الى تخفيض اليد العاملة من
اجل عملية معينة . وقد وضعت التحقيقات التي اجريت حول ١٩٥٥ ،
موازناً مقلقة للنتائج . وأشار بيير نافيل (١) الى أهمها ، مصرأ
على الصعوبة في عزل دورة انتاج وفي قياس النتائج الواقعية ، بنظرة
جزئية ، للآلية على مقدار العمل المطلوب : « ان رؤوس
الاسطوانات [جنرال موتورز] التي يصنعها ١٧ رجلاً تنتج اليوم برجل
واحد . وموتاج كتل الاسطوانات يعمل بـ ٢٥ رجلاً عوضاً عن ١١٧ .
وكتل الاسطوانات نفسها تصنع بـ ٥٧ مسيراً للعمليات عوضاً عن ١٥٠٠ .
[ولكن...] ومن الصعب المقارنة بين أرقام التخفيض لأنها توجد في المجموعات
الانتاجية التي لا تعطى عنها احصائيات كاملة والآلات الصانعة الناقلة تستخدم من
اليد العاملة المباشرة اقل من الآلات الصانعة التي تقوم بالعملية نفسها من
قبل . ولكن هذه الآلات والاشخاص الذين يخدمونها بتعلقون هم
نفسهم بالمجموعات الانتاجية التي تكون احياناً اكثر عدداً بعد الآلية
بما قبلها ، . والعلاقات بين الآلية وحجم الاستخدام نسبية : ففي
مستوى المشروع ، يتعلق كل شيء بالسير الاقتصادي لهذا المشروع ،
وتوسعه ، واستقراره وتراجع نشاطه ؛ وفي مستوى الاقتصاد الشامل ،
يكون الانعكاس اقل مباشرة : ويتوصل إلى نظرات في الهجرات
المسلكية ، وانتقال العمال بين الفروع والقطاعات التي يتعين توازنها في
آخر الأمر بالتطور الاقتصادي والتقني ، في مجموعه ، لاجل هذا التحويل
التقني الخاص .

اما الذي تغير يجد فهو طبيعة العمل . ففي البدء ، في داخل
مشروع من المشاريع يتناقص العمل الانتاجي مباشرة بالنسبة الى عمل

-٣٦٢-

التحضير والتسيير والبحث . ولحدا ، في الفروع الصناعية ، يتنازل
المعمل أمام المكتب والمخبر . ولذا فإن عدد الملاكات (الأطر)
والفنيين والمستخدمين يكسب بالنسبة الى عدد العمال وان بعض
المنظورات ، التي وضعت لفرنسا والدور من ١٩٦١ - ١٩٧٠ ، تلخص
هذا الاتجاه . وهكذا تؤدي الآلية مباشرة أو بصورة غير مباشرة ،
الى تغيير في التسلسل المسلكي ، والعلاقات البشرية ، ومستويات المهارة .
ولكن العمل الانتاجي نفسه يأخذ اتجاهاً آخر . لأن الآلية تنهي الانحطاط
التدريجي للعرف القديمة ذات المهارة . واذا حذفت جزءاً كبيراً من العمل
المجزأ الذي ينجزه العمال المختصون ، بتوسيعها ميكنة أقل طلباً للأشخاص
الذين لا يفيدون الا في سد الفراغ ، واذا ركبت من جديد العمل في
اتحاد معين ، فذلك في مستوى مجموعة تقنية لافي مستوى حرفة .

والموازنة الكمية لهذه التطورات ليست سهلة الوضع : ففي داخل
الفرع والمشروع ، حتى واحياناً المؤسسة ، تغطي الأعمار الفنية على
بعضها ؛ ان قسماً من الاستخدامات تبقى متسلسلة حسب النماذج القديمة .
ولذا فإن المعطيات تكون متناقضة احياناً . ولكن الاتجاه يتضح
بتعابير وصفية : فمن مراقب الآلات إلى الفني ، هل يكون شغل العامل
موحداً أو مفرقاً ؟ « ان الحس » ، والفهم ، والنقل تصبح أهم من تحويل
المادة أو ادارة الأدوات والآلات . ولكن هذه الطبقة العمالية الجديدة
ليست موحدة اكثر من القديمة ولا يمكن أن ينظر إلى جمع اعضائها
بأهم مهرة . ومن الضروري أن يميز العمال الذين يسهمون في المعرفة
التقنية من العمال الذين تقتضي ثقافتهم أو اعدادهم فقط إلى مراقبة سير
الأجهزة ، بعمليات بسيطة ومعينة جداً . (آلن تورين .) وفي
هذا الاتجاه أيضاً يجتزم جورج فريدمان في ١٩٦١ دراسة في الصناعة

النوعية بقوله : « عليها أن تعي أخطار التنظيم الثنائي الذي يقيم وحدة لا يمكن اجتيازها شيئاً شيئاً بين ، من جهة ، كتلة المنفذين التي تطبق أوامر لا يمكن الابتعاد عنها نظراً لفقدان التأهيل والإسهام ، ومن جهة أخرى ، المفكرون الذين يعتمد نشاطهم على معارف علمية وتقنية عميقة . » والعصر الصناعي الجديد لا يحذف اذن الصفة الثنائية للعمل ولا الاخطار النفسية - الفيزيولوجية لتقسيم الاعمال ، حتى ولو تغيرت هذه الأعمال طبيعة وكيفية . ويستعاض أحياناً عن ابقاعات السلسلة بكثافة متفاوتة من الاشارات أو التعب الذي تسببه بقطة مستديرة دون عمل : « لقد جذبت أعمال كامبرودج الانتباه إلى علم مرض (باتولوجيا) الوظائف ذات الانقطاعات النادرة أو غير المحددة ، الخاص بالمجموعات الآلية التي تكون فيها الرقابة والرصد غير منقطعين أو سلبين ، والمنشطات المنقطعة والنادرة ، والتي من الممكن أن تعقبها فجأة سرعة واكتظاظ في الاشارات تظهر انقطاعاً جديداً في الاحساسات . » (ج . كير) (١) . وبالنسبة لمعظم العمال ، لا تكون المكافآت في العمل نفسه ، بل تكون من نوع اقتصادي : الاجرة ، والتقسيم بين وقت العمل والوقت الحر ، وضمان الاستخدام . ولكن ، على خلاف القرن التاسع عشر ، تظهر هذه المكافآت مرتبطة بصورة وثيقة بتطور النظام التقني ، وبسلم المشروع أو باقتصاد البلد .

ان إدخال الميكانيكاوغرافيا (٢) ، ثم الاستعلام أضفى على عمل المكتب جزءاً من مميزات العمل في المعمل . ففي المقام الأول ، نجد أن « الياقات البيضاء » بدورها مهددة بتخفيضات الاستخدام ، المرتبطة بالميكنة .

(١) G. Caire

(٢) الميكانيكاوغرافيا هي استخدام الآلات لتنفيذ عمل المكاتب .

ويقدر تحقيق بريطاني بـ ٢٠ - ٢٥ ٪ نقص الأفراد الذي عينته التقنية الآلية في نقل الأخبار والمعلومات . ومن المعلوم أن استخدام هذه التقنيات يتوسع ، ويجب أن تبحث نوازات سوق العمل على مستوى آخر . ولكن ، كفيماً ، يوجد تقارب بين استخدام « ثانوي » واستخدام « ثلاثي » . ومع الآلات ، والحاسبات ، والثاقبات ، دخلت الايقاعات ؛ وأدى الاشراف ورقابة الطرق الآلية إلى نفس النتائج في الورشة الصناعية أو ورشة الاستعلام ؛ لأن من يقومون بالعمليات لا يسهمون أيضاً في مفهوم العمل ؛ وبالنسبة إلى التنظيم التسلسلي المكاتب القديمة نجد أن عناصر الاستمرار - توزيع السلطة ، وجاهة العمل غير اليدوي - قد انحلت ؛ وأن قواعد الساعات ونظام الفرق الآلية من الصناعة تخفض اصالة الحياة المسلكية . والتطور هنا فج لاسيما وأن المراحل احتوت وان الزمن الذي يفصل تايلور^(١) عن الآلية أصبح مقتضياً . وكما في الصناعة ، ليس للمبينة نتائج ذات معنى واحد ؛ لأن استخدام الطرق المنطقية والرياضية يظهر أنه يزيد مستوى المهارات ، ويقرب استعمال معطيات عمل علمي .

ويجب الا ينتظر أن الآلية تحل ، بشيء من التأثير الحارق ، قضايا العمل ، حتى ولو بدلت في الغالب محتواه . ان الزيادة العامة في مستوى التكيف أو حتى المسؤولية لا تعطي على وجه التأكيد ، ولا تستثني من انفصالات جديدة ؛ وان الانقسام بين « المنفذين » و « المشاركين » يمكن أن يتفاقم وبالعكس ، ان تسارع التقدم التقني يطرح على بساط البحث من جديد وبشكل منظم التخصصات والامواضع المكتسبة ؛ وبعده التقلبات في اتجاه لا يكون ترقية دوماً - وكذلك عدم التكيف ، الذي يزعزع حتى الاستقرار المسلكي للمهندسين والأطوار - ؛ ويدخل عدم يقين جديد

في سوق العمل ، في الوقت الذي تظهر فيه اخطار الظرف الكادح مصححة بسياسات « دولة الرفاه » . وعلى المؤرخ إذن أن يجتوس من خطرين : من جهة ، أن يلاحظ أن بعض المجتمعات الصناعية المتقدمة يمكن أن تنجو من هذا الضغط الجديد للتقنية ؛ ومن جهة أخرى ، أن يفكر بأن التقدم الحطوي المستقيم للتقنيات يأتي بالاجوبة الوحيدة . ان إدخال الآلية هم التاريخ الاجتماعي في كل غناه ويتأسس عليه ؛ فلا الفضائل المفترضة لنظام اقتصادي ، مهما كان ، ولا ارجاع التطور الاجتماعي إلى بعض المعطيات المأخوذة عن التكنولوجيا ؛ يمكن أن نوضح العلاقات بين المجتمعات والتقنيات .

وهذه العلاقات تكون أكثر تعقيداً لاسيما أن الآلية لا تغير شروط العمل فقط . والمرحلة الثانية للحركة . مرحلة العقل الالكتروني - هاجت الاشكال القديمة لتسيير الاقتصاد أو الدولة . ومع الاستعمال المنظم للاخبار والمعلومات يدخل التنبؤ ، وحساب « التفضيل » والبحث العلمي في سبيل الحصول على أفضل النتائج في نوع الممكن . وان تخطيط الدولة ، والتخطيط على سلم المشاريع - وتدخل في ذلك الانظمة « الرأسمالية » - تتصرف منذ الآن بأدوات لاغنى عنها . ولكن الآلية لاتجهز بوسائل تسيير مطعمة على نظم محترمة . وقد أشار مسؤول عن مشروع عام كبير فرنسي إلى أن استخدام المجموعات الالكترونية يقتضي « اتحاداً جديداً ، عاماً لدورات الاعلام ، حتى وفي الغالب إعادة تنظيم للمشروع ، ودون شك ، مع نتيجة ضرورية وهي إعادة تجميع المصالح الادارية » . ولكن هل هذه التحويلات تتلاءم مع جميع نماذج المشروع وصاحب المشروع ؟ ان طرقاً جديدة في التسيير لاتعني فقط تشكيلات مختلفة ، بل مواقف أخرى وتقريباً ثقافة أخرى . والقضية تتجاوز قضية تنظيم مشروع .

- ٣٦٦ -

ونتايج الاستعلام مزدوجة . فالعقول الالكترونية تساعد ولاشك على « تعقيل » القرارات . ولكن معايير العقلانية التي يؤخذ بها في الحسابات والتحليلات هل يمكن أن تنجو من كل نقاش ؟ وعند عدم وضع الوسائل والارتباطات الداخلية على بساط البحث ، تصبح الغاية موضع نقاش اجتماعي . لأن البرمجة لا تبقى في نطاق العمل أو الانتاج : اد أن الانتاج المبرمج يتفق واستهلاكاً مبرمجاً . وات الدراسة العلمية للأسواق تتميز بصعوبة من تنظيم الأسواق .

وان الاستعمالات الجديدة للعقول الالكترونية ، وبصورة واسعة لتقنيات استعمال الاخبار ونقلها ، تبشر بتغييرات أخرى تمس مباشرة الفرد والحياة الفكرية . فالتعليم المبرمج ، الذي يعتمد على « آلات التعليم » ، يفتح ، ولاشك ، دوراً تربوياً جديداً . وآلة القراءة ، التي مازالت قاصرة على اعمال بسيطة جداً ، تكثر امكانيات التسجيل وتصنيف الوثائق ... بانتظار آلة الترجمة . وقد بدىء باستعمال مجموعة جذاذات العقول الالكترونية لحفظ الاضبارات الطبية ، وليس التطبيب من بعيد مستجيلاً . وهكذا فان ميدان الحياة المسلكية كميدان « الحياة اليومية » يظهران مفتوحين بشكل عريض . ويفهم أن تاريخ الغد صعب الرسم . فبين تخفيض تقني ، ابتداءً من نسبة نمو هذا النوع التقني أو ذاك ، يعكس المستقبل ، دون الاهتمام بصورة كافية بتغيير الايقاعات ، ولا بدعامة اجتماعية واقتصادية للتقدم والاحكام العاطفية - كرفض أو قبول « حضارة الروبوبات » بحماسة ، من المتعذر تعريف فرضيات ، وتصور حركات .

غزو الفضاء

ان غزو الفضاء المرصوف بعبارات المغامرة والمنافسة هو ولاشك أقل المشاريع البشرية الكبرى مغامرة وأقلها اعتماداً على الحظ . انه نجاح كامل

للتكنولوجيا والتنظيم ، ورائعة صناعية ، وبناء أكثر منه اكتشاف بالمعنى التقليدي للكلمة . وليس في ذلك تصغير لقيمة وجراة الملاحين عبر الكواكب والفضاء ، بل وضع دورهما الحقيقي في داخل النظام التقني الأكثر تأثيراً من الانظمة التقنية التي سادت مجتمعاتنا .

وان سرعة هذا التاريخ إنما هي بحق مظهر محير . ففي اثني عشرة سنة ، تم الانتقال من اطلاق أول قمر اصطناعي تابع ، سبوتنيك ١ ، وزن ٨٥ كغ ، في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ إلى النجاح المزدوج لاولو ١١ و ١٢ ، الذي ساعد مرتين (٢٠ قمر و ١١ تشرين الثاني ١٩٦٩ على وصول رجلين إلى القمر . والنتيجة كذلك عظيمة لاسيا وان الحملة القمرية قامت بمحاولتها الولايات المتحدة بعد أن اعتبرت في البدء أنها في تأخر غير منازع . فقد اسيء تمحور بحث الفضاء في الأصل من الاهتمامات الاستراتيجية الناجمة عن تحسين الصواريخ العسكرية عابرة القارات ، ولم يجد غايته الخاصة الا تدريجياً . فنذ ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، وبناظر من كوروليف وسيدوف (١) ، بدا أن الاتحاد السوفياتي دخل في برنامج اكتشاف الفضاء الذي هو هدف يجتمع يناصر العلم طوعاً ويهتم بالتدليل على تفوقه التقني . ولم تقنع الولايات المتحدة بذلك الا مكرهه . وكان النظام الدفاعي لسنوات ١٩٥٠ يعتمد على الطيران أكثر مما يعتمد على الصواريخ . وبدأت مغامرة الفضاء دون فائدة كبرى حتى اليوم الذي برهن فيه الاتحاد السوفياتي ، مع أول سبوتنيك على تقدم حقيقي . ولم يكن اطلاق القمونة الهدية بوزن ٣٥٥ كغ الاصدى ضعيفاً جداً وكذلك القوى الحقيقية الامريكية - تقدم الاستعلام ، ثمرة الاجهزة - لم تأت لأول وهلة بنتائج عظيمة التأثير .

واستحوذ الاتحاد السوفياتي اذن بشكل لامع على «اوليات» ملاحه الفضاء : فقد قام يوري غاغارين بأول دوران حول الأرض في ١٢ نيسان ١٩٦١ : وتبعه نيقولايف وبوبو فيتش^(١) بأول محاولة طيران مزدوج ، في آب ١٩٦٢ ؛ وأخيراً ، جرت محاولة «السير» في الفضاء ، في آذار ١٩٦٥ . ولم تتأخر الانجازات الامريكية فقط عدة أشهر أو عدة اسابيع ، بل كانت تقنياً اخفض شأنًا . وبين كبسولة موكوري^(٢) وفوستوك^(٣) ، اول نموذج لسفينة الفضاء ، اللذين تنافسا في السنوات ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، يوجد تقريباً اختلاف طبيعة . ولذا فإن البرنامج الامريكي لم ينطلق بحق الا في ١٩٦١ ، تحت تأثير مغامرة غاغارين . وعندئذ قررت الخطوط الكبرى لمشروع أبولو وهدفه النهائي ، الوصول الى القمر في العام ١٩٧٠ : وهذا القرار السياسي يشارك في اسطورة «الحدود الجديدة» وفي الأسباب الدولية .

ان انجاز البرامج الفضائية الكبرى يفترض اولاً تحسين مطلقات قادرة على رفع صواريخ ثقيلة في مدار وإلى مسافات متزايدة . ولنزع جسم من جاذبية الأرض يجب بلوغ سرعات «كونية» واقعة بين ٧.٨ و ١١.٢ كم في الثانية . فدونها يسقط الجسم على الأرض ؛ وفيما وراءها ينبجى نهائياً من الجاذبية الأرضية ليصبح تابعاً للشمس ، ومنى جهة أخرى ، ان الملاحه الفضائية ليس لها معنى الا بسفن واسعة تنقل عدة أشخاص ، وتجهيزات واحتياطات طاقة تساعد على مختلف المناورات .

ولست ملاحه الفضاء غاية في ذاتها : لأن أهمية الحملات ، مثل نجاحها ،

(١) Popovitch و Nicoalaiev

(٢) Mercury

(٣) Vostok

مرتبطة بقيمة الأجهزة العلمية ، ونقل المعلومات ؛ وهنا أيضاً نجد ان النوعية الفضائية والبرنامج الدقيق ضروريان . وفي معرض الكلام عن تنظيم رحلة أبولو ٨ حول القمر أشار فوانسوا دوكلوزيه ^(١) إلى ضخامة هذه

« التعبئة » يقول : « ليمكن الصاروخ من الاشتعال في $\frac{1}{100}$

من الثانية على وجه الدقة في هذا الصباح من ٢١ كانون الأول ١٩٦٨ ، لزم ، خلال سبعة أعوام ، ٢٠٠٠٠ مشروع ، مشاريع الأشغال العامة ، ومشاريع الاستعلام ، مشاريع الالكترونىك الطبي ومشاريع الكيمياء ، مشاريع ميتشيفان ومشاريع نيومامبشاير ، المشروع العملاق الذي يستخدم ٢٥٠٠٠٠ شخص والمشروع المتواضع الذي يستخدم ١٥٠ مستخدم ، والإدارات كالشركات الخاصة يجب أن تكون كلها جاهزة . . . ولكن يجب أن نضيف إلى تحقيق برنامج أبولو تحقيق البرامج المتوسطة : إرسالات متوالية للسفر على القمر وحول القمر : رانجو ، سوف فيمو و لونا اوربيتر ^(٢) : وقمارين معقدة - تغيير المدار ، ومواعيد فضائية - عمليات جيمينى ^(٣) (١٩٦٥ - ١٩٦٦) ؛ محاولات ، أخفاقات - منها نكبة قيرة أبولو ، على الأرض ، في كانون الثاني ١٩٦٧ - ، ضربات إلهام للقفز ، حسب مخاطرة محسوبة ، إلى مراحل جديدة . إن تاريخ المغامرة الفضائية لها وقعها الدرامي ، محاولاتها ، أخفاقاتها ، ضحاياها . ولكنها ، بالاجمال ، تعتمد على أعجب نظام تجميعي في هذا القرن .

والخطر هو أن تقتصر الغفزة التكنولوجية على غاية معينة - وصول

(١) François de Closets

(٢) Ranger , Surveyor , Lunar-Orbiter

(٣) Gemini

فضايا عصرنا (٢٤)

الناس الى القمر - وأن تتجمد سياسة الفضاء الامريكية فجأة بواقع
انهاء برنامج أبولو . وتستعيد الاسباب المالية حقوقها أمام عدم اليقين بأهداف
جديدة . وعلى الاساس الوحيد للنزول على القمر لم يؤد الجهد السوفياتي
الا الى رفع ضغط بالاخفاق . ومع ذلك ، فإن التحري البعيد نحو
مارس و فينوس ، بأسبار آليه ، اذا كان يبدي أهمية علمية بصورة
وثيقة ، يضيف الى التقنية الفضائية نجاحات عظيمة ويهيء ، دون شك ،
طيرانات جديدة مأهولة بالناس . وان رحلات مارينير ورحلات فينوس^(١)
تعتبر عن شكل آخر للمنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .
وان التخلي أو التأخيرات عن حملة بشرية نحو القمر ، اذا كانت تدع
مجالاً للتفكير من جانب الاتحاد السوفياتي ، بتغييرات في الاهداف ،
والمراحل ، أو الى صعوبات دون منازع ، فهي لا تؤدي الى سلبية
بسيطة . لان الحذر ، والندرة النسبية لاطلاقات سوايوز^(٢) يجعلها
مهمة . فهناك سفن تحسن مأواها ، وامكان حطها على الارض ، وأبعاد قيادتها
تدريجياً عن الاخطار أو تقريباً عن المناورات اليدوية ؛ وتجارب مخصصة على وجه
الظن لايضاح انشاء محطات فضائية وجمع سفن قوية في مدار : وربما أصبحت
التقدمات اللاحقة للملاحة الفضاء بهذه البحوث أقل تأثيراً .

وفيا وراء هذه الاهداف التقنية ، يخضع اكتشاف الفضاء على الدوام
الى دعوى تبرير . فمن جهة ، تطبيقات يومية تدخل منذ الآن في صنف
المبتذل : مثل مهمة التوابع التقنية ، التي تعطي لدراسة علم الارصاد
الجوية أو حتى الحوادث الارضية بعداً واضاءة جديدين وبين هذه الحوادث ،
توابع الاتصالات ، التي حلت محل حبال الاتصال تحت المائية ، وهي محطات

Venus و Mariner (١)

Soyouz (٢)

لنشر المعلومات بموجات قصيرة - وبخاصة بامج تلفزيون - وهي معروفة اكثر من غيرها . وكانت المراحل مربعة بخاصة . فن الصدى ١ ، وهو عاكس بسيط لموجات قصيرة الحياة ، الى التيلستار و ريلاي ، وهما لاقطان - مذيعان يغطيان ساحة جغرافية تتغير تبعاً لحركتها بالنسبة للأرض ، الى السنكمز والى العصفور الباكور ، الموضوع في مدار أرضي ثابت ، قطعت المسافة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ .

واذاعات الاتمار الاصطناعية يجب أن تلتقط على الارض بأسلاك هوائية، آنتينات، - مثل آنتين بلومور بودو - مضخمة ومذاعة انطلافاً من هذه المحطات ولكن هذا ليس إلا مرحلة لأن الغاية هي إنشاء توابع قادرة على إرسال إشاراتها مباشرة إلى أجهزة لاقطة فردية وهذا ما يمكن بلوغه في العقد الآتي ومثل هذه التقنيات تزبل حواجز الاعلام . وتكسر دون منازع السيطرة التي يمكن أن تمارسها الدول . ولكنها تشير أيضاً إلى تسلسل الأمم : فالدول القادرة على إنشاء توابع ووضعها في مدار ستصرف بحصر حقيقي ونظـام- المواصلات الفضائية مزدوج : أحدهما متجمع حول الولايات المتحدة . مع انتلسوت ، والآخر يسيطر عليه الاتحاد السافياتي . ومن هنا يفهم أن الدول الاوربية ، ومنذ عهد قريب اليابان ، أخذت تتم ناطلاق توابع تقنية ، وكان عليها ، في المقام الأول ، أن تستخدم للاطلاق القواعد والصواريخ الأمريكية . وقد صنعت فرنسا الصاروخ الحفيف ديامان والمقابل ، ان انشاء صاروخ قوي قادر على اعطاء أوربة الغربية استقلالاً في مجال الفضاء - مثل مشروع ايلدو ELDO - ، لاقى تأخيرات عديدة وأخيراً ، تظهر ، خلال هذه القضايا الفنية ، المجاهات الكبرى ، والاختيارات السياسية للعالم الحالي : علاقات القوى - التي تفرض تجمعات أو الحاقات - أو بحثاً عن تنظيم دولي . وات الالتباس بين الاهتمامات الاستراتيجية والاستعمالات السلمية مازال قائماً على سلم التوابع التقنية .

ولا تنجو الملاحظة الكبرى في الفضاء من هذه الورطة ، بالرغم من أن
 الفاصل هنا قد حفر بين « الدولتين » الفضائيتين وباقي العالم . والشجب
 المعنوي الأول يمكن أن يلفظ حيال ثمن البرنامج الذي تساء رؤيته نتائجه
 المباشرة على « الرفاه » . وإن « المجتمع العظيم » في الولايات المتحدة
 كتفتح المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يمكن أن يكونا مهددين به .
 وليس التعديل وبطء الابقاع بمستحيلين . وعلى ما يبدو أن الاتحاد
 السوفياتي بدل مراراً التقاويم والأهداف . وكذلك تتسائل الولايات المتحدة اليوم .
 ولكن من الصعب أن نفكر بأن تقف هذه الحركة العلمية المثارة بهذه
 المعرفة الأولى للفضاء والانسان في الفضاء . وهل تلام مالياً وسياسياً
 مع الحفاظ على « القطب المزدوج » الحالي ، الذي يؤدي جملةً إلى تنافس
 البرامج ، الى صفتها غير التجميعية ، إلى تسلسل جديد للأمم ؟ وهل
 يتسامح بظهور اطماع جديدة أو حب اطلاع جديد ، مهما كانت أوربية
 أو آسيوية ، يعرف بتعايير المنافسة أو سباق العرقة ؟ فبعد العلم النووي
 ولدت علم الفضاء بين العلماء ، الاختصاصيين أو الأبطال ، قضاينات
 « رياضية » أو فكرية ، اضطرابات مشتركة . ولكن هل يمكن للخبراء أن
 يحكموا بين الفنية والبحث عن الغاية ؟ هنا أيضاً ، قنتهي سياسة العلم
 بالتفكير بالسياسة .

التقدم التقني ، الفرد والجنس

ولا يبدو أن التقدم التقني منطبق طبيعياً وآلياً أقل بما في السابق مع
 مصلحة الناس والجنس . ولنمر على التباينات التي يمكن أن تحدث الاستياء :
 ان المغامرات الفضائية تتواجد مع البؤس اليومي الذي يعانيه القسم
 الأعظم من البشرية . انها تعني فقط أن موارد الناس غير منظمة على السلم

العالمي . وليس الاستياء إلا ظاهرة التفاوتات في النمو؛ ولا يكشف في شيء عن تناقض في العلم نفسه . ومنذ الحرب ، على مسافة عشرين عاماً ، نشأت أزمتا وجعدات تختلف كل واحدة منها عن الأخرى : الأولى ، انطلاقاً من التفجيرات الذرية ، وسباق التجارب النووية ، وزيادة نفقات وبقايا النشاطات الإشعاعية . وقد أحدثت الاضطراب ، خلال زمن ، في صفوف الطبقة المفكرة ولم تلامس النفاذ إلا آجلاً ، عندما بقيت في قلب العلماء وأفادت أيضاً مصالح واهتمام مفاوضات الدول الكبرى . والثانية ، اندست في أزمة الحضارة التي ظهرت في ختام سنوات ١٩٦٠ وضمت في حزمة علائم عديدة لـ «عدوانات» خفية أو مفتوحة يتحملها الانسان في عصر التنظيم . وليست هذه العدوانات قضايا الاستخدام الصناعي للآلات الحبيسة نوعاً ما في ايقاعات الحياة في المعمل ، بل هي الانحطاط العام في بيئة الحياة ، الدراما الايكولوجية . وقد أصبح المحيط بقلقه المربك والخيبر موضوع الموضة . والكفاح ضد «الأضرار» و«التلوث» أو الشلل المدني يثير بدوره البحث التقني وتقدير الأمان : وقد أصبح بدوره موضوع صناعة و - لم لا؟ - وربح . ولكن الحل يبدو متيناً .

والف الطب مع ذلك حول الانسان شبكة حامية عجيبة . وفي ثلث القرن تغير العلم والتطبيق الطبي تغيراً كلياً . وكان تغير مفهوم العمل الطبي أولاً . ولم يبد المرض بصورة أساسية تظاهرة للأجسام الأجنبية : وأصبح الطبيب فيزيولوجياً ؛ والمحمى التقسيم الكارثيزي القديم بين الروح والجسد لصالح التفسير «العلمي» للداء والمعالجة .

وغير دور الطب ابعاده : ولم يعد مقتصر على عمل دقيق ضد المرض . بل أصبح المراد منه متابعة الانسان ، خلال جميع أعمال الحياة ، من نحو الجنين

إلى الشيخوخة . واهتم الطب أخيراً بالتقنيات الحديثة : تقنيات الكشف عن الخبثات ، ولكن أكثر من ذلك أيضاً ، تقنيات التحليل ، وجمع بين المخبر والبحث الاكلينيكي ، وانفتح على الكيمياء الحيوية وعلم حياة جزيئات الخلية ، اللذين أتياه معاً بتفسيرات ووسائل عمل جديدة . وغفط توسع وتعمق الميدان الطبي وتنوع الطرق بالضرورة على تنظيم المهنة . فقد زاد ظهور تقسيم العمل ؛ وفقد الطبيب المختص بالطب العام أهميته بصورة مزدوجة أمام الأعمال الجماعية في الكشف وعمل الطب الاجتماعي ، وأمام تكاثر الأعمال الاختصاصية . وبضم هذا التطور تناقضاته . فالطبيب ينمحي في الوقت الذي يصبح فيه التدخل الجسدي الروحي حاسماً . وقد يخاطر المرض فيسبق المريض . ويرى المريض نفسه مأخوذاً في نظام تقني وإداري يحوله عن قصده كما تحيره أيضاً منظورات الطب عن مسافة الذي يعتمد على الاستعمال المنظم للأخبار . ويمكن التنبؤ بالأزمة ، لأن هذا التغير في الطرق الطبية يمس العلاقات القديمة بين الطبيب والمريض ، نموذجاً من العلاقات الشخصية التي يدل تحليلها النفسي ، في مضمار خاص ، على العمق . وهذا ، فإن تطور الطب ، كنهجائه العلاجية ، بلغ منزلة قديمة ، من التوازنات القديمة ، بمجموعة أساطير ورموز .

ولانس كذلك الثورة العلاجية نفسها . فقد حطمت قسماً من الانقسام والحميات ، والخاوف : وان نفاذهما يقرأ ، كما رأينا ، على منحنيات الوفيات ، وبخاصة ، وفيات الاطفال والمراهقين . وبأني أولاً تفتح التقنيات الباستورية (من باكتور) .

ومع دراسة نقص الفتيامينات ، وأكثر من ذلك أيضاً ، الاضطرابات الغددية أو حوادث تحولات العضوية الحية بالمواد التي تؤلفها ، نفذ

الطب إلى القوى والأصول السرية في التوازن البشري . وقد توصل أولاً إلى عزل ، وإلى تعيين المواد الجهورية - الفيتامينات ، الانسولين في ١٩٢٢ ، والكورتيزون في ١٩٤٦ - ، وتحديد طرق تطبيقها وانجز الكيميائيون الحيويون تركيب الانسولين منذ ١٩٤٢ ، وتبع تركيب مشتقات الكورتيزون عن قرب الكشف عن الخصائص العلاجية للمادة . وأصبح بالامكان انتاج كميات كافية وبأشكال أكثر نفاذاً من الناحية الطبية وأقل خطراً . ومنذ ١٩٥١ ، بدأ أن يعود علم الغدد عظيمة : « فعلى ضوء معطيات الطريقة التجريبية المطبقة على الحيوان وبمساعدة الاكتشافات الكيميائية ، أخذ مرض السكر ، ومرض اديسون ، واضطرابات النمو ، واضطرابات الحياة الجنسية ايضاحات دقيقة والمعالجة الغددية هنا ستمنع الموت ، وفي مكان آخر ، تعدل الاضطرابات . » (ليون بينه) . ولكن في السنوات العشرين التالية ، وعلى صعيد الخلية يتم الكشف عن التأثير الكيميائي للهرمونات وعمل الـ A.D.N. (١) والبروتينات . وسبب بعض الاضطرابات النفسية أو اضطرابات تحول العضوية ينسب الى النقص أو الى الافراط في بعض الحماض ، وان الأمراض الكروموزومية ، مثل المونوغولية (مرض التشوية الجسدي) قد فسرت أخيراً . وان الصنع التركيبي للخمائر ، وصنع الـ A.D.N. ذي النشاط الحيوي التام (١٩٦٧) فتحا ميداناً مازال غير يقيني للعمل الطبي . وفي بيولوجيا جزئيات الخلية والكيمياء الحيوية نجد ان ضبط حياة الخلية ، والطاهرات الوراثية والفردية الفكرية دخلت في علاقة وثيقة . ويتقدم الكيمياء الطبية أصبح بالامكان معالجة الحوادث المرضية ، بل وأيضاً اذا حوفظ على بعض الحذر حيال آثار النصور العلمي تبدو تبشير ووسائل

(١) A. D. N تعني الحامض المعروف تحت الاسم Acide désoxyribonucléique

التأثير الجديد على الفرد وعلى الجنس البشري . « وبطريق بيولوجيا جزيئات الذرة ، نحاول أن نكتشف كيف ان المركبات الكيميائية الموجودة في الدماغ تتداخل في عمل الدماغ نفسه . وعندما نجد الجواب عن هذا السؤال نستطيع أيضاً ، بطريقة التحليل العلمي ، ان نحاول الكشف عن العوامل الكيميائية والأدوية التي تستطيع أن ترصد وتخفف قلق المتفصمي الشخصية ، وفقدان الذاكرة عند الاشخاص المسنين ، ونقص مبادهة الاطفال المعوقين . وان تقدم المعرفة يولد لا محالة نتيجة ضرورية وهي : امكان زيادة تحكمنا . (كان وفينير) ويشير هذان المؤلفان الى منظورات تأثير على قانون الوراثة نفسه : فقد نجح باحث في جامعة روكفلر في مخبر في « تغيير وراثة الباكترينات بزيادة القدرة على توجيهها تبعاً لحطوط نوعية . ولهذا حقن حامض الـ A.D.N المغير ليفسد القوانين الوراثة التي تتكاثر الباكترينات بفضلها . ويعتقد بأن العلم سيكون قادراً ذات يوم على القيام بنفس التغييرات المراقبة على الانسان ، وذلك بمحقن امرأة حبل في فيروسات تحمل دليلاً وراثياً ترجو نقله الى الطفل الذي لم يولد بعد . ولا يظهر ان الجراحة غيرت لهذه الدرجة مستقبل النوع . إنها تتقدم بالوضوح والدقة - كاستخدام الأشعة ، والليزر ، والجراحة بالتبريد ، والتجميد الالكتروني الذي يساعد على تغيير السلم (المقياس) . وعمل العمليات الجراحية يدخل في سلسلة مستمرة من المعالجات التي تزيد حياة المريض حظاً بالعيش والمقاومة .

وفتح الحفاظ على التنفس والدوران « الاصطناعيين » إمكان تدخلات جديدة ، وبخاصة جراحة القلب . وأول عملية للقلب ، عملية التقلص التاجي ، تمت محاولتها في ١٩٤٤ : وفي ١٩٥٠ ، طبقت لأول مرة « والقلب مفتوح ، ولكن الجراحة امتدت رويداً رويداً باستعاضة الأعضاء -

الاعضاء الاصطناعية - وهذا الصعید لاستبدال الاعضاء المبتورة ما زالت حدوده ضيقة ، وكذلك أيضاً تطعيم الأعضاء الحية . وإذن فالعمل التشريحي يفقد جزءاً من أهميته - وفيما وراء ذلك ، تظهر من جديد قضية الفردية .

وهكذا فإن تقدم الطب والبحث البيولوجي ، في الوقت الذي يساعدان فيه على النفوذ إلى أمرار الفردية ، يبدلان صورة الإنسان والسلطة التي يمكن أن تمارسها الجماعة عليه . وليساً فصلاً منفرداً في التفكير الذي تثيره الحضارة الفنية . إنما في قلب هذه الحضارة . وحدود الطب لاثاني فقط من عدم كمال المعارف : إن الانتظار الطويل ، « انشكال » الأرض أمام الضرر - أو ربما الأشكال المختلفة للضرر الذين يؤلفه السرطان - لا تعبر إلا عن مرحلة صعبة ، ستقطع في يوم أو آخر . ولكن تبدلات البيئة والتبدلات ، التي تثقل بها البيئة الصناعية والمنظمة شيئاً فشيئاً على الإنسان ، لا تساعد على تحديد الهدف مرة واحدة تغني عن الكل . والمرض يتغير . وهو ينشأ من تحول شروط الحياة كما ينشأ من العدوان القديم الذي استبست السيطرة عليه . وفي الاضطرابات الفكرية ، والعصبية أو العقلية يسبب العلم كشف الارتباط بين الانحراف الكيميائي - الجبوي وعمل المجتمع . والتحليل النفسي ، من جهة ، والمعالجة النفسية للجماعة أو بحوث الطب النفسي الاجتماعي ، من جهة أخرى ، تسيء تحديد ميدانها .

إن فكرة البيئة أو المحيط تأخذ إذن بعداً آخر : فهي لا تطبق فقط على حذف بعض الأخطار - تكاثر التجارب النووية وأخطار « تساقط النشاط الإشعاعي » البعيد ؛ وأشكال أقل قابلية للرؤية تؤدي إلى زيادة الإشعاعات ؛ ونفايات مرتبطة بالصناعة أو بالمواصلات المدنية . ولا تستجيب فقط لتعريف بعض الأخطار التقنية ، التي تتطلب ببساطة حلولاً تقنية . وقد الح جورج فريدمان منذ عهد طويل على صفات هذه البيئة « الاصطناعية »

التي هي بيته العالم الحديث : « فهل يسمع بالكلام عن تكيف جديد للانسان مع وسط جديد ؟ وقبل كل شيء ، إن هذا الوسط في تطور كامل ، مربع ، متسلط ، مضطرب ، ويفرض على الإنسان وفرة زائدة لامتنعاسة من النشاطات [. . .] . إن التغيرات كثيفة جداً ، ومفاجئة جداً ، ومربكة جداً حتى إن عدم الاستقرار ، الذي هو من حيث المبدأ عامل ملائم للتطور النفسي للإنسان ، يؤلف بالعكس ، في الدور الحالي ، عائقاً وتهديداً . إن التقنيات التي تؤثر في الوسط هي في تطور مستمر وتتكاثر دون رقابة أو رصد ، ودون توجيه ولا نسيق [. . .] . إنها تبدلات تظهر منذ الطفولة مطبوعة على الإدراك الفكري والمفسر تدريجياً ، عالم صور ، يغرق فيه الطفل ، وصدمات مطبوعة بالتقنيات الحديثة على الأطر القديمة لرؤية العالم ، وعلى أفكار التوازن والمكان ، والزمان ، والطاقة . ويرى جيداً في أي اتجاه توجد هذه متنافرة ، ومنعقدة ، ومشوهة . ولكن ما نلنا بعيدن عن القدرة على الكلام عن التكيف من جديد ، أي تحديد وتوضيح أفكار جديدة تقوم مقام القديمة . » إن التقدم العلمي والتقني هو إذن غير قابل للفصل ، إذا أريد رصد آثاره أو نتائجه ، عن انتروبولوجيا . وهو بين الحنين والاستعمال بمهارة ، يتطلب تفسيراً شاملاً للنمو ، الذي لا يحمل بصورة منظمة قيماً صناعية قليلاً ، مثل علم الجمال . ولا يقاوم التطلب ، الذي يعبر عنه غالباً بـ « رافد روحي » ، بارادة سياسية - واجتماعية في التعديت . إنه يصر بالعكس على الارتباط الوثيق بين الاخلاقي والسياسي ، على اختيارات تكون في الواقع مقترحة على الجنس البشري وتتوجه بالضرورة إلى مسؤوليات المجتمعات المنظمة . إن اتجاه التقدم التقني والعلمي ، وسلطته ليسا شرطاً لتقدم المجتمعات : إنها موضوع قراراتها .

الفصل الثامن

الانجازات العلمية المعاصرة^(١)

تمهيد

من جذور عريقة القدم ، ومن حوادث حسية يومية ، ومن ضرورات الحياة المادية ، ومن استجابة لتحديات الطبيعة الاولى ، ومن احضان الدين ، بل ومن السحر والطلاسم والعشوائية الاولى ؛ من هذه الأصول المتواضعة ، ومن تأمل في خلق السموات والأرض ، نبتت دوحة العلم فارعة ، وامت مع الزمن ، وانبتت نباتاً حسناً ، وغدت متواشجة الأفنان وارقة الظلال . وما زال الانسان ، عبر الزمان والمكان ، باستخدام الملاحظة والتجريب والاستقراء والاستنتاج ، وما إلى ذلك من طرق علمية آخذة بالتحسين ، وتقنية آخذة بالتكامل ، يغنيها بالمآتي الجديدة ويرتفع بها عن الغيبات ويسمو بها فوق الأساطير والخرافات ، إلى أن وصل بها إلى عالم اليوم . ولن تكون هنا نهاية المطاف ، بل ستظل الجهود تتلو الجهود ، والكشوف توجد الكشوف ، والاختراعات تولد الاختراعات وتحقق التقدم والرفاه عبر الأجيال ، لتجعل ما كان خيالاً وحلاماً ، حقيقة وواقعاً .^(٢)

وهكذا نشأت علوم الرياضيات والطبيعة والانسان وتطبيقاتها ، وتطورت وزادت في قدرة الانسان على تنظيم معارفه ، والافادة منها ،

(١) نشر هذا البحث في « محاضرات الموسم الثقافي لرابطة الاجتماعيين » الكويتية ،

الكويت ١٩٧٢ .

(٢) راجع : ويل دبورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الاول ، نشأة العلم .

كما زادت بهذه القدرة والتنظيم سيطرته على الطبيعة وعلى نفسه أيضاً ، وبدأت موقفه من الظواهر ، فغداً إيجابياً لا يعجب بسر ، ولا تأخذه دهشة ، بل يضع أمامه قضايا يريد حلها ، ويجاول بما أوتي من عقل ومعرفة أن يحل التحليل الفيزيائي - الكيميائي والمعالجة الرياضية للنتائج التي حصل عليها ، محل الاسطورة ، والعمل العاقل المفكر والمخطط مكان رد الفعل الغريزي^(١) .

وما من شك في ان العلم لم يصل إلى ما وصل اليه اليوم الا بفضل تطور مديد ، ولكنه لم يعرف خطوات واسعة كالتي عرفها في القرن التاسع عشر الفائت ، وقفزت جسارة كالتي قفزها في مجاهيل القرن العشرين بالذات . لقد تغيرت المجتمعات البشرية وقيم الدول تغيراً كبيراً في هذا القرن بفضل تقدم العلم والوسائل التي وضعها بيد الانسان ومكنت قدرته وسيطرته ، وساعدت على تخفيف ، ان لم تكن ازالة ، عبء المرض والبؤس والجهل الذي أثقل كاهله منذ آلاف السنين . وأصبح العلم وما يصحبه من تقنية رمزاً للمجتمع المتطور المتكامل ، بل رمز حضارة العصر ، عصر العلم والتقنية وغداً إنسان هذا العصر يشعر بأن دولاب الزمان يدور على عجل ، وأت نتائج الكشوف العلمية والاختراعات الحديثة لا تضاف إلى بعضها فحسب ، بل تتضخم باستمرار ويتضاعف مفعولها . ولا يعلم مدى هذه الثورة العلمية - التقنية التي نعيشها أو نراها خلال من يعيشها وتراها الاجيال القريبة القادمة في السنوات الآتية مع استخدام الطاقة الذرية . فنحن في عصر يتسارع فيه التاريخ .

(١) راجع : A. Mayer, Rev. Philosophique - oct, - déc. 1953

والتقدم العلمي ملحوظ في ميادين مختلفة ، ولكن الحادث الاسامي هو نهضة العلوم الرياضية ، لأن تأثيرها اصبح قاطعاً في مختلف نواحي العقل البشري ، وجعلها لغة مجردة لجميع العلوم الأخرى . واتسع نطاق معرفتنا بالمادة ، وفهمنا للكون . وقلتقي في هذا الحقل فروع المعرفة كلها متواكبة لفهم هذا الكون اللامتناهي بعد أن أدت البحوث إلى وضع قضايا حادة وهامة : كالربط بين بنية الذرة وبنية الكون ، وما إليها من نظريات توضع جميع قوانين الفيزياء .

وخطت الكيمياء خطوات جبارة في مركباتها ، وانعكس تأثير هذه المركبات على الصناعة الصيدلانية والعلاج والغذاء والفيتامينات وما إليها وقد لا يبعد أن نبدل طرق معاشنا عن طريق الكيمياء فنكون أكثر قرباً من تقاليد الانسان المتحضر الذي يستعمل المادة في صيغتها النهائية عوضاً عن استعمالها في حالتها الطبيعية كما فعل آباؤنا من قبل وكما نفعل في أيامنا هذه أيضاً .

ونضيف إلى ذلك علم الحياة وفروع العلم المشتقة منه أو المساعدة له ، أو المشاركة وما لذلك من صلة وثيقة علمية بالطب الذي أخذ يقوم بالمعجزات في التشخيص والعلاج والعمليات الجراحية الصعبة التي تكفل للمريض اجراءها في أحسن الشروط وأوفرها راحة وطمأنينة . وما زال الطب يجاهد في التغلب على الأمراض والأوبئة وبخاصة الأمراض المستعصية دوغما كلل أو يأس . وهو في كل يوم يحقق انتصارات عجيبة في مجال الصحة العامة .

وكل علم من العلوم يريد أن ينمي معارفه ، واجهزته وأدواته ، وكأن العلوم في سباق متناغم نحو التقدم ، وإن كانت سرعة بعضها تتجاوز البعض الآخر ، لأننا مازلنا نرى تقدم العلوم المادية يفوق تقدم

العلوم المعنوية أو الانسانية ، وربما يكون مصدر ذلك إلى أن العلوم البحتة تعالج المادة ، وأن العلوم الانسانية تجاهد الانسان وفي الانسان غياهب ومناهات مظلمة مازالت مجهولة ، ولكن العلم كفيل باكتشافها ذات يوم مع الأناة والصبر .

شروط العمل العلمي

واختلفت في هذا التقدم الصاعق شروط العمل العلمي . فبينما كان العالم حتى القرن التاسع عشر في برجه العاجي وعزلته العلمية اللامعة يعمل وحده في مخبره ، ويخرج بنتائج كشفه بعد المعالجة الطويلة والصبر الدائب ، والامكانيات المتواضعة جداً ؛ بل وبينما كانت قبضة من العلماء تتداول المعلومات والكشوف ، نجد العلم في عصرنا الحاضر يحتل مكانة هامة في حياة المجتمع ، وفي ظروف جديدة تختلف عن الظروف السابقة للبحث العلمي النظري والتطبيقي : فعلى الصعيد الفيزيائي - الكيميائي - مثلاً ، نرى اجهزة بكاملها من الأشخاص العلميين والأدوات والوسائل والآلات ، وحلول العمل العلمي الجماعي محل العمل الفردي ، وتساوى في ذلك البلاد الرأسمالية والاشتراكية ، وما ذلك الا لأن المنافسة القومية ، وبخاصة الدولية ، تدفع دوماً إلى تحسين دائم في الانتاج وفي طرق الصنع ، في عالمنا الصناعي الجديد المتحرك الذي يتعلق فيه النجاح بالتقدم الدائم المطرد الذي يوجهه التقدم العلمي .

ان التجييز التقني الحديث يحتاج إلى رؤوس اموال عظيمة لاستطيع تقديمها الا المشاريع الكبرى او الدول الكبرى . والمشاريع الكبرى تشكل تروستات لتحكرك حصر السوق بيدها . والدول الكبرى ترغب في أمنها والحفاظ على عظمته . والبلاد المتخلفة تطلب إلى العلم حل

قضاياها الخطيرة التي تطرح أمام شعوبها . والتوتر الدولي يدعو إلى دفع النمو العلمي للبحث عن تقنيات الحرب والتدمير . وتحت تأثير هذا البحث تتدخل الحكومات في تنظيم العمل العلمي ومراقبته ومده بالأموال الضرورية بغية تحقيق أهدافها وحاجاتها المختلفة من اقتصادية وغذائية وعسكرية وغيرها . هذا مع العلم أن التحولات الداخلية للعمل العلمي ، والتنوع الزائد لفروع البحث ، والعدد المتزايد للباحثين والعاملين في جهة واحدة للقيام بدراسات مختلفة في ميادين متشابهة ومتأللة ، تعطي لهذه الأعمال طابعاً جماعياً وخاضعاً لرقابة الممول مع اختلاف الاغراض .

والعمل العلمي اليوم يخضع لقانون السر . لأن المؤسسات والدول تحرص على سرية اختراعاتها وكشوفها وتحيطها بسياج من الكتمان لئلا تنتقل إلى منافسيها . فضلاً عن أن بعض الاختراعات لها قيمة وقتية فإذا عرفت بطل نفاذها ولم تعد صالحة للاستعمال أو وسيلة للتهديد والوعيد . وهكذا أصبح العالم يعمل في النطاق الذي فرض عليه ويجب على الأسئلة والقضايا التي يطرحها عليه مانحو الاعتمادات التي توجه للبحوث العلمية حسب رغباتهم وتقييد حرية العالم .

وأدى تدخل الأموال الخاصة أو أموال الدولة ، في تنظيم البحث العلمي ، إلى انتقال مراكز البحث وهجرة العلماء الباحثين ، والبحث عنهم في كل مكان ، واغرائهم بشتى المعريات المادية والمعنوية ، حتى لكأن العالم أصبح قطعاً نادراً تحاول الدول والمؤسسات الكبرى ادخاره وتعبده لاوقات العوز والشدة . وزادت قوة الجذب هذه مع ضرورات الدفاع ، والسباق الدولي ، والتجهيز العلمي ، وظهور الطاقة الذرية ، والبحاث الفضاء ولكن العالم ، رغم تبعيته لمن يساعده على متابعة بحوثه أو لمن يعمل له ، تابع في الوقت ذاته لهذا العالم الذي يعيش فيه ، وعنصر

نشط عامل في صنع التاريخ المعاصر . ولا يستطيع ان يتجاهل القضايا الاخلاقية والمعنوية التي تطرحها على وجدانه كشوفه النظرية وانعكاساتها التطبيقية ، لأن وضعه حيالها يكون حزيناً وبائساً كموقف العلماء اليوم من اختراع القنبلة الذرية وأثرها الفظيع في التدمير^(١) .

الثورة العلمية والتقنية

في العشرين السنة الماضية خطا العلم خطوات كبرى ظهرت منجزاتها كثيرة ومتنوعة ، وهي على سبيل المثال لاعلى سبيل الحصر كما يلي :

١ - السرعة العظمى السريعة المتسارعة التي وصلت بني البشر بعضهم ببعض على سطح الكرة ، وفي عالم الفضاء ، مع اختلاف التقنيات الآخذة بالتحسين يوماً عن يوم، وفي تقارب البشر وجعلهم يعيشون وكأنهم في بلد واحد .

٢ - قوة المتفجرات التي ازدادت بشكل هائل باستعمال الطاقة النووية .

٣ - الكشوف الجديدة في الفيزياء وأثرها في العلوم الأخرى وتأمين سير الاجهزة الالكترونية .

٤ - زيادة حجم واتساع كمية المعلومات التي نقلها الإنسان في الفضاء وزادت باكتشاف الليزر التي افادت في هذا الحقل ويعلق عليها أمل كبير في البحوث العلمية الأصلية .

٥ - التغييرات التقنية التي قلبت الحياة اليومية بشكل عجيب وتبدلت بها الحياة الاجتماعية .

(١) راجع :

Robin Clarke , La Course à la Mort , P. 11 , Seuil, Paris , 1971

٦ - تعدد المنتجات الجديدة الآخذة بالازدياد عاماً بعد عام في حقل النسيج والدائن (البلاستيك) والتغذية .

٧ - ظهور الآلية الصناعية التي غيرت شروط العمل وتنظيمه وربحه أيضاً .

٨ - دخول التقنية الحقل الزراعي وتجهيزها بالادوات الميكانيكية والاسمدة الكيميائية والافادة من تطبيقات العلوم الحديثة في الاعمال الزراعية مع اختلاف أنواعها لتأتي بمحاصيل جيدة ونتاجية وفيرة ، وربط الزراعة بالصناعة .

٩ - كثرة الدراسات العلمية في مختلف ميادين العلم ، حتى ان الانسان ليجد نفسه أمام فيض من المعارف ، وماعليه إلا أن يحسن الاختيار . والعيادة الاجتماعية نفسها أصبحت موضوع البحث العلمي . وما من ميدان من ميادين الواقع إلا واصبح موضوع دراسة علمية .

١٠ - الثورة العلمية الحديثة باكتشاف مصدر الطاقة الجديد الذي هو الذرة واثرو ذلك على الصناعة ، حتى اننا دخلنا معها في ثورة صناعية ثالثة ، ثورة الالكترون ، بعد الثورين الصناعيتين الأوليين ، ثورتي البخار والكهرباء .

وفي الحقيقة : نحن الآن في ثورة علمية وتقنية معاً : ثورة أساسها العلم وتجسيدها التقنية ، والحركية فيها تمتد إلى تطبيق المعرفة وطريقة توجيه المجتمع .^(١)

والعلم والتقنية يتعاونان بشكل وثيق : فقد فتح التقدم التقني الأول

(١) راجع F. Bon /M. - A. Burnier, les nouveaux intellectuels, P. 3 et suiv., Seuil, Paris, 1971 .
قضايا عصرنا (٢٥)

للعلم ميادين واسعة ، ولكن العلم بخاصة جر التقنية وتقدمها ، وفرض عليها قضايا ، وطلب حلها . وبتعاون العلم والتقنية امتدت العقلانية ، أو التعقيل ، الخاصة بالعلم إلى استعماله منظماً للنتائج التي حصل عليها .

ولم يعد النشاط العلمي نفسه نشاطاً مجانياً ، بل أخذ وزناً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً عظيماً . وبالمقابل أخذت السياسة والاقتصاد والمجتمع تعين للعلم بجراه ، حتى ان مجانية العمل العلمي أخذت تتمحي أمام مظهره النفعي . ولاريب في أن التطور يختلف حسب القطاعات ، ولكن البحث الأساسي نفسه لا يتجر من هذا الضغط . لأن العلم ، في بلاد العلم ، أصبح بضاعة على مستوى الاقتصاد ، وقوة على مستوى الدولة . وأخذ يقوم بوظيفة اجتماعية ويتطلب تشكيل طبقة فكرية تنمي وتشر وتستخدم التقدم العلمي نفسه من بحوث نظرية وتطبيقات عملية .

النتائج الاجتماعية

وتغيرت ظروف حياة الانسان الحديث في عمله وفي حياته اليومية بتغيير تقنية الانتاج التي ابتكرها تطور العلم . فقد خفضت الآلة جهده العضلي ، بل وقامت بالأعمال اليدوية الضخمة التي لا يستطيعها ، وحررت ، من جهة أخرى ، قسماً عظيماً من اليد العاملة ، واعطت انتاجاً يعادل ضعف الانتاج ، ان لم يزد ، الذي كان يعطى بالاجهزة القديمة .

ومع تقدم استخدام الآلة وازدياد أهميتها وتعقيدها ، تغيرت الصفات والأوصاف في الانتاج وفي العامل : فالعمل بالقطع والأجر عليها لم يبق له ما يبرره بعد أن قامت الآلة مقام العامل .

وضعف شأن المهارة المسلكية ؛ فلاحاجة بعد اليوم إلى عامل ماهر مجرب أهل لصنع شيء بكامله واصلاحه ، أو إلى هذه اليد الصانع التي

أفادت أحياناً من « الأصرار التقنية » التي هي بقية من بقايا العصور الوسطى ، والتي تناقلها أبناء المهنة كبراً عن كبر . فبفضل الآلية اليوم وضع العامل أمام ميكانيكية تفتح إلى الاستعاضة عن عمله الشخصي ، وأصبحت مبادئته الفردية الآن محدودة بمبادئة المهندس .

ويقابل هذا النقص النسبي في الاستخدام اليدوي المشغول حالياً بحركات اختصاصية ، ظهور طبقة عاملة جديدة تتألف من عمال مهمهم العناية بالآلات والأجهزة وإصلاحها عند الضرورة ، ويتطلب منهم بمخافة ثقافة فنية متقدمة ومنتفعة أكثر مما في السابق .

ومن هنا كثرت المكاتب التي يدعى إليها « الفنيون » من مكاتب حقوقية ومالية ، وتجارية ، ومكاتب دراسة . وفيها يضع الرسامون والمهندسون التصاميم الجديدة ، وخطط الأجهزة ، ويعرفون ويحددون الطرق العقلانية التي تساعد على الانتاج في افضل الشروط .

وحصلت تحسينات جديدة في تقسيم العمل ، والعمل بين المنفذين والموجهين . وضع العامل في بيئة جديدة محسنة من بعض الاعتبارات . فعوضاً عن المعمل المدوي الذي تلتقي فيه الاشرطة والسلاسل والبكرات والأحزمة ويتجمع فيه العمال حول الآلات الصاخبة ، يقوم الآن المعمل النظيف حيث لا نور ولا دخان ، المعمل الذي لا يظهر فيه الا بعض الفنيين الذين يراقبون سير الآلات الصانعة القابعة في الخزائن المعدنية .

وهكذا فان قوة الساعد البشري ، الذي ظل حتى الآلية عاملاً هاماً وغالباً حاسماً في الانتاج الصناعي ، فقدت نقادها مع تطبيق السيبرنطيقا ، أي عملية الآلية في درجاتها العليا باستخدام الكمبيوتر الالكتروني الذي هو رمز « الآلية العقلانية » في القرن العشرين . وتقوم هذه الحواسيب الالكترونية بأعمال لا يقوم بها العمال . كما تقوم بأعمال مساعدة

تختلف بطبيعتها عما كانت تقوم به الآلة التقليدية : كالرقابة والتوجيه ، وتعديل سلوكها وفقاً للنتائج التي حققتها في الماضي وأحياناً التحكم الذاتي أو الآلي (١) .

وإذا أوجدت هذه الآلات المعقدة بطلاة في صفوف العمال ، فإما قصدت بخاصة العمال ممن ينقصهم التعليم السكاني وليسوا قادرين على التكيف مع انتاج يضيق فيه المكان رويداً رويداً للعاملين غير المهرة وغير المثقفين ثقافة مسلكية خاصة . ولذا أخذت الثقافة المسلكية والتدريب المهني ، لتجديد المعلومات والتكيف مع التقدم الصناعي والعلمي الجديد ، أهمية كبرى تفوق جميع الاجراءات الاتباعية ضد البطالة . لأن اليد العاملة لا يمكن أن تكون قادرة على التكيف مع عصر التغيرات المفاجئة إلا بالتعليم والتربية والتدريب والتحسين المتجدد باستمرار .

ومن هنا يمكن القول ان التقنية الجديدة صَعَّدَت العامل ورفعت مستواه الفكري .

وإذا اكتسحت الآلية المعامل ، فقد غزت المكاتب أيضاً ، وأصبحنا نجد في بعض المؤسسات أجهزة تقوم بأعمال غابة في الدقة والضبط والفرز ، والقراءة ، والحتم وما إليها ، كآلات التي تستخدمها مصلحة البريد في « تحرير ، الرسائل .

ومثل ذلك مصلحة أمانة السر . فالأمين الخاص ، والضارب على الآلة السكتية والمحتزل أصبحوا دون جدوى بعد آلات الاملاء والتسجيل وناقلات المراسلة التي ليس لها أي تماس مباشر مع من حرر النص الذي يجب نقله ،

(١) راجع مجلة « عالم الفكر » العدد الرابع ، ص ٩٣٣ ، بحث « السيبرنطيقا »

للدكتور صلاح الدين طلبة ، وزارة الاعلام - الكويت ، ١٩٧٢

لأن الأجهزة الالكترونية تقوم بكل هذه الأعمال ، بآلاتها الحاسبة ، وآلاتها الاحصائية ، ومرة حساباتها الدقيقة التي لا يقدر عليها الدماغ البشري ؛ الأمر الذي بدل شروط عمل المكاتب والادارات .

ان مصلحة تلفون ميتشيغان في الولايات المتحدة تستخدم آلات تسجيل المخبرات، وتسجل أضرطتها المثقوبة المركز الداعي ، والمركز المدعو، واللحظة التي بدأت بها المخبرة ، واللحظة التي انتهت عندها ، وتجمع هذه المعلومات وتقدمها للمشترك عند حضوره جاهزة ودون عناء منه^(١) . وهكذا استعاضت أكثر البنوك الكبرى وشركات التأمين والكثير من المصالح الخاصة والعامه عن امنائها واحصائها ومحاسبتها المجازين بجهاز عديم الأوصاف من المسجلات الميكانيكية الآلية التي تقوم بنفس العمليات بكل بساطة تحت ادارة عدد قليل من المسكين السكاملي الأوصاف .

تغيير الحياة اليومية

وما من شك في أن نمو الانتاج ، بوفرة زائدة وبشكل عقلائي وقليل الكلفة ، قد ساعد في بعض البلاد على رفع مستوى الحياة المادية بنسب عظيمة ، بينما خففت ميكنة الأعمال المنزلية أعمال ربة المنزل ، وساعدت على انتشار الرفاه الذي تجهله السنون القليلة الفائتة ؛ هذا فضلاً عن زوال الخدمات الشخصية ، اللهم إلا للأشخاص المسورين والمنعمين جداً .

وقد يبدو من الصعب لأول وهلة أن نتقبل امتداد تطبيقات الآلية والسيرنطيقا إلى الحياة المنزلية ، وأن الروبوبات في العام الفين تقوم ، بأسعار معتدلة ، بالقسم الأعظم من الأعمال المنزلية . يقول أستاذ متحمس

(١) راجع : Maurice Crouzet, L' Epoque Contemporaine, P.711, P.U. F., PARIS, 1957.

في الميكانيك الصناعي في كلية الملكة ماري في لندن : « سيكون في حوزتنا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة روبات يزبل عن الناس عبء الروتين اليومي والسخرات المنزلية » .

وإن أكثر ربات البيوت ، وهنّ أكثر استعداداً لقبول فكرة التطور من الرجال ، يتمنين ، بعد أزمة الخدم الخائفة ، التخلص التام من العمل الرتيب في الدار ، كتنظيف الأرض والجمام ومسح الغبار والتكنيس وتجهيز الأمرة ، وينتظرن بفارغ الصبر استخدام الروبوت . والواسطة المنطقية للبقاء على بعض الأهواء الشخصية في شكل الحياة مع تخفيف أعباء سيدات المنازل من السخرات اليومية ، هي أن يوضع تحت تصرفهن روبات رفيق للقيام بعمل خاص في كل منزل ، ولا يبعد أن يأتينا العام ١٩٨٤ بثل هذا الروبوت الغادم .

وبالمقابل ، إذا كان العمل اليومي يتطلب جهداً عضلياً أقل مما في السابق ، فإن التوتر العصبي أصبح أعظم مما كان في أي وقت مضى . ان الآلة تفرض على من يخدمها جهداً دائماً مرهقاً يحل محل التعب العضلي المضني السابق مع ما يصحبه من نفاذ عام شاق واستنزاف مبد . وفي الواقع لقد خف « الرق الجسدي » ولكنه عوض بـ « رق فكري » ، جهد ، كالنعب الذهني « بيسكاستينيا » ، والانهيار العصبي ، وفرط الحساسية ، وانشغال الفكر بحساب الوقت ، وإلى ما هنالك من أمراض صناعية يشخصها أطباء العمل . وان تكثيف العمل يؤدي أيضاً إلى تزايد عظيم في عدد الحوادث الخطيرة والاضطرابات العقلية .

وهذا العمل المجرد من كل أهمية فكرية وتقنية ، الذي يولد التعب العصبي ، يقتصر ، في بعض الأحيان ، على القيام بعمليات بسيطة تتكرر باستمرار فتصبح رتيبة وتحدث تشوهات في حركات الجسم ، وتولد السأم

والمثل والضجر : فنظام جذازات التعليمات ، ووجود العدادات ، والمفتشين والمراقبين يجرح أنانية العامل ، فيقوم بعمله مكرهاً . والتقنية العالية المطلوبة لشغل وظائف التوجيه والادارة ووضع التصاميم ، والحطط تحريمه ، أكثر مما في السابق ، من كل امكان الرقي الاجتماعي ، فيشعر بنجية أمل مسلكية تجره إلى نشاطات أخرى معوضة : كأن يبعث عن الفرار ، لأن حياته ليست في عمله ، ويقوم في أوقات فراغه بنشاطات متنوعة تذهب من أعمال البستنة الحضرية ، والقيام بمختلف أنواع المهن ، إلى النشاطات الفنية أو بممارسة أنواع الرياضات ، ان لم نقل الايمان على المكيفات ، التي يراها بعضهم ضرورة لارجاع التوازن الجسماني أو الفكري الذي أفسده العمل ؛ أو بالسياحة والتسلية المختلفة التي تقدمها له السينما والراديو والتلفزيون وغيرها .

وهو في الوقت ذاته يقاوم هذا النظام الذي يرد الانسان إلى آلة بسيطة ، ويقوم على « تنظيم الاجهاد » ، وتهديد الميكانيكية والآلية له بالبطالة والانخفاض النسبي للاجور . ولذا يحاول أن ينفس عن نفسه بالاضراب والفتور ، والاقتصاد الارادي في مردود العمل .

والانسان بعد كل هذا وذاك روح تنبض بالحياة ، والآلة لا روح لها . وقد شغل هذا الموضوع الكثير من الكتاب والأخلاقين ، فجعلوا التقنيات الصناعية مسؤولة عن قنميط الحياة الحديثة وقبحها وحذف كل هوى شخصي وأسفقوا على فقدان « الحرية » التي هي قضية الفرد . وقامت هذه الانتقادات في الواقع بشكل معقول ضد استخدام الآلات أكثر مما قامت على الآلات نفسها ؛ وضد نظام الانتاج الفوضوي لا ضد التقنية . ومازال الكتاب بين منشائم ومتفائل . فالمنشائم ، يرى أن السير المنتظم الذي حققته المعارف البشرية والتقدمات التقنية تواجدت مع التقلبات

العالمية الكبرى كالحروب والأزمات الاقتصادية في هذه العقود الأخيرة من تاريخنا ؛ وإن العلوم وتطبيقاتها امتزجت بالنوايب والنكبات والكوارث من كل نوع . وفي ذلك ما يجعله يحمل العلم مسؤولية شرور العصر جميعاً . وعلى العكس ، أن الرؤية المتفائلة للمستقبل تعتمد على تمجيد العلم والنمو التقني ، لأن العلم سينتصر أخيراً على آلام البشرية كلها . ولكن هذا لا ينسج من الألم في الوقت الحاضر ، بفضل سير العلم الكاسح الذي لا يقف في سبيله عائق أو عثرة ، العلم الذي يزيد في نفاذ العقل البشري وقدرة الانسان ، ويجعله يملك الوسائل التي تحسن بشكل حاسم ظروف حياته ، وتمد في عمره ، وتحرره من تهديد البؤس وتسمح له بتنمية شخصيته إلى حد كبير .

ومع ذلك فإن أكثرية الناس تشعر باحساس القلق وعدم الطمأنينة عن يومها وغدها ، لأن تجربة حربين عالميتين ، وما تبعها من أزمات ، وما إليها من منغصات تجعل حياة الانسان في صراع دائم ، وتوتر نفسي ، وتهديد قاتل . ومن هنا أقام الكتاب الدعوى على العلم بل والدعوى على الحضارة كلها وعلى نوايب العقود الأخيرة وامتزج المظهران بشكل لا يحل : لأن موضوع القيمة النظرية والعملية للعلوم أصبح غير منفصل عن موضوع مصير الانسان ووجهة هذا المصير .

غير أن وجهة النظر المتفائلة ما زالت سائدة وتبشر بفجر يوم مشرق في تاريخ الإنسانية وتقدم الحضارة ، لأن تقدم العلم والتقنية يبعث الأمل بالعودة أخيراً إلى الانسان ، دون اهماله في الوقت الحاضر ، وتعهداً بالعناية ليمسح بشخصه وروحه وفكره ويعيش عزيزاً كريماً . وإذا كنا نرى اليوم من التناقضات الحضارية وآثار العلم والتقنية ما يؤذي الأبصار والأصماع ، فما ذلك إلا لأن العالم ما يزال يعيش في نظام يسوده سوء

التوزيع . وان رسالة العلم والتقنية ، وبالتالي رسالة الحضارة الحديثة أن تزيل هذه التناقضات لينعم الانسان بالحياة والرخاء والكرامة ، ولينتج ويعطي أحسن ما عنده من عطاء . وعالم اليوم يجمع مراحل الصيرورة البشرية من عصور ما قبل التاريخ إلى اليوم . غير ان وسائل الاتصال وتحسينها وتسارعها تجعل هذا العالم يتجه نحو الوحدة بالزوال التدريجي لبقايا العصور السالفة ومخلفاتها وتطور المجتمع .

وهنا نتساءل بقولنا ان العلم بطور المجتمع ، وهو المحرك الأساسي للتقدم ، ولكن هل الباحث العلمي عامل أساسي في سعادة البشرية يستلهم من هذه الفكرة دواعيه الاولى ورضاه عن نفسه ؟

لننظر أولاً الى العلاقة بين البحث الأساسي وتقدم المجتمع . ففي هذا البحث نجد فرعين هامين يكلفان غالباً ولهما شأنها العظيم في العلم الحالي وهما : فيزياء الجزيئات ذات الطاقات العالية ، وفيزياء الفضاء ، ولكن ابن اسهامها في التقدم العام ؟ هنالك شبه اجماع على ان فيزيائي الطاقات العليا لا يقيمون أي صعوبة للاعتراف بأنهم لا ينتظرون في هذا الميدان أي تطبيق ، وعلى الأقل في الوقت الحاضر ولمدة طويلة . وان ابحاثاً علمية من هذا النوع توجد ولائهم إلا نقرأ قليلاً من العلماء الاختصاصيين في العالم ، وان معظم أعمال البحث تأخذ طابعاً لا يفهمه الا بعض الراسخين في العلم المتمرسين النادرين .

ولكن هذا لا يمنع من وجود ميادين أخرى يمكن ان يستشف منها امكانيات تطبيق ضخمة تعود بالخير على المجتمع : كالطب والفلاحة ، اذ يمكنها أن يأتي اليوم ببعض الأجوبة التقنية لقضايا الجوع والامراض التي يشكو منها القسم الأكبر من البشرية . ولكن هل هذا ممكن للتطبيق دوماً ؟ إن بعض البنيات الاجتماعية المعاصرة في حالة من الصعوبة

تجعل هذه الحلول التقنية غير قابلة للتطبيق أو بطيئة ، لما تكلف من أموال . وهذه القضية تزداد صعوبة في البلاد النامية التي يعوزها المال الى جانب أنواع العوز الاخرى . ولنفكر ، مثلاً ، بمشكلة تأسيس المستشفيات وتجهيزها ، وبالطب المجاني للطبقات الشعبية ، والاسعار الفاحشة للمستحضرات الصيدلانية ووسائل البحث الطبي في اكثر البلاد المتحررة من الاستعمار . واذا كان التقدم التقني ، كما رأينا ، يؤدي يوماً الى زيادة الانتاجية الصناعية ، فهذه الحالة غير موجودة أو قليلة جداً عندما تكون نتيجتها المباشرة تحسين شروط الجماهير الشعبية ، وفي مثل هذه الاحوال يلزم نضال اجتماعي مستمر لاجبار الطبقات الموجهة على الانفاق لمثل هذه المشاريع . هذا اذا خلصت النية ، والمصيبة اعظم عندما تهتم الطبقات الموجهة بالامكانيات الجديدة التي يكشف عنها العلم الحديث ، وتحاول استعمالها لحسابها الخاص . ومن الممكن استخلاص نماذج علاقات مختلفة في هذا الصدد :

فعلى الصعيد السيامي ، نرى الدول الامبريالية تستخدم الى الحد الاعلى موارد العلم لتؤمن لنفسها تسليحاً من شأنه ضمان سلطتها ونفوذها . وعلى الصعيد العسكري ، وجد البحث العلمي تطبيقاته العديدة ، في السنوات الاخيرة ، قاصرة على الاجهزة المدمرة التي تنذر بشر مستطير . بيد اننا نرى ، من جهة ثانية ، ان دفع هذه التطبيقات ونفاذها يظلان محدودين ، رغم المساومة بالارهاب الذري : ولندكر ان المقاومة الظافرة ، التي ابداها شعب فيت-نام للعدوان الامريكى ، تكفي للافتناع بأن العلم والتقنية لا يكفيان في أي مكان لضمان القوة العسكرية والسياسية .

ولذا نرى ان الكشف العلمي وتطبيقاته التقنية يمكن أن تصطدم في الواقع فلا تقوم بما يطلب منها على الوجه الاكمل ، لان ظروف

- ٣٩٥ -

هذا الواقع لاتسمح بذلك ولو مؤقتاً . والبلاد المتخلفة ، رغم رغبتها الملحة للعاق بركب العلم والتقنية ، مازالت تشكو الكثير من العوائق الجدية : من جهة المحكومين ، ومن جهة الحكام ، ومن الدول الامبريالية التي تنصافر جهودها على ابقاء الحال فيها كما هي ، أو في حالة عدم استقرار ، واستنزاف الأموال التي تصرف في غير وجهها الصحيح ؛ الامر الذي يجعل تقدم هذه البلاد جامداً أو بطيئاً أمام التقدم المتسارع الذي تحققه البلاد المتطورة .

وقد يقع أن يرتبط العلم بشكل من اشكال العقائدية التي تفرضها الطبقة الحاكمة ، فيدعى ، في مثل هذه الحالات ، ليضع قناع الموضوعية والتقنية على سيطرة هذه الطبقة . وعلى ضوء هذه الملاحظة يظهر العالم أو الباحث العلمي عميلاً لهذه القوى . وعن وعي أو غير وعي بهذه القوى التي يعمل في خدمتها ، يكون بالضرورة شريكاً لها . وفي مثل هذه الحال لا يمكننا أن نتصور أن العلم للعلم . واذا قيل فذلك محض رياء . ولكن هذا لايجعل كل طبقة حاكمة مسيطرة ، وكل ثجبة فاسدة ، وكل بحث لا ياتي بالنتائج المرجوة منه ولو بعد حين .

ابن نحن من التقدم العلمي ومنجزاته ؟

ما من شك في أن العلم ، في مساره الطويل ، حقق فتوحات عظيمة ، وما زال يحقق ويراكم النصر على النصر . ونظرة الى الورا ترينا المسافة المقطوعة والشفافة . ولكن العلم تغلب على العوائق . وهو على استعداد لتغلب على العقبات الأخرى التي يمكن أن تقف في سبيله .

لقد انتصر الانسان بهذا العلم انتصاراً مطرداً مبنياً على قوى الطبيعة

واخضعها لاغراضه ، وسخرها لخدمته ، واستطاع بمنجزات العلم أن يزيد في قوته ويهدد بها ، عند مقتضى الحال . ولكن العلم ، من جهة ثانية ، كشف عن عظمة الانسان وقدرته التي يريد أن يحيط بها الكون ، دونما نظر إلى فوارق جنسية أو حدود أو قيود أخرى . لأن العلم ، بمعارفه المتنوعة وتراثه الخالد المتجدد والمتطور والمتحرك ، ينشر حقائقه ونتائج تجاربه في تفسير الطبيعة والانسان نفسه على بني البشر جميعاً ، ثم لا يلبث أن يصحح معلوماته على ضوء تجاربه ومشاهداته وتقدم معارفه ، وفي ذلك مايقوي فينا فكرة النسبية عند الحكم على عصر ومقوماته ، أو على عالم ومعارفه ، وتجعلنا أدهى إلى الاعتدال في الاحكام التي نطلقها بعد معرفة المسلمات التي تجهزنا به ثقافة العصر ، فنرى أن كل عالم وكل معرفة ، وكل عصر ، انما يحكم عليه أو عليها بالظروف المحيطة ؛ وكذلك الايمان بفكرة التطور التدريجي ولو ظهر بمظهر ثورة . وان من خطئ الرأي أن نحكم على عصر سابق بمسلمات عصرنا الحاضر ، وننسب إليه صفات النمو المتكامل التي نراها في عصرنا . والا لما كان تقدم حضاري ، أو أن البشرية نشأت متحضرة من العدم ، وما زالت على حالها كما وجدت متحضرة ، وتلك فكرة خاطئة يرفضها العلم .

وفي الحقيقة ، ان تطور العلم ، وبخاصة في هذا العصر ، عصر الذرة والفضاء ، قوى في نفوسنا نسبية المعرفة . فعندما اطلق الاتحاد السوفياتي أول قمر اصطناعي له ، في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ ، فاخترق طبقات الجو ونحور من جاذبية الأرض ، امتزت الأبواب والقلوب لهذه الوثبة في المجهول وبعده أن استطاع يوري غاغارين أن يدور ، في ١٢ نيسان ١٩٦١ ، حول الأرض داخل قمرته ، وعاد سالماً ، كانت الدهشة أعظم ولا تقل عن دهشة سكان اوربة عندما اكتشف كريستوف كولومب امريكا في

العام ١٤٩٣ . وأما الآن ، وبعد السرعة المتسارعة ، فقد أصبحت رحلة الفضاء شيئاً مألوفاً في حياتنا اليومية ، كأنما هي انتقال من حي إلى حي في مدينة واحدة . ونحن مازلنا في بداية الطريق . وقد لا يبعد أن تنظر إلينا البشرية القادمة في الأجيال الآتية بأننا أناس متخلفون جداً ، وأنا أفأس من العصر الحجري أمام سرعة الضوء والقياس بالسنين الضوئية .

والثورة العلمية والتقنية ، التي نلاحظ آثارها في عصرنا ، غير مقتصرة على الطاقة المنبعثة عن ثقبت الذرة ، وإنما هي متعددة النواحي ، وما زال الانسان فيها يجري تجارب مختلفة ، في شتى ميادين العلم ، وربما أدت التجارب التي تجري على الاحماض في علم الحياة إلى استكشاف كنه الحياة ذاتها وأسرارها التي تعادل ان لم تفق أسرار الذرة أو للفضاء .

ونجد أن ٩٠٪ من العلماء ، الذين يشتغلون بالبحوث العلمية الحديثة ، مازالوا على قيد الحياة ، ويجالسون تلاميذهم الشباب . وهذا يعني أن انجازات العلم التي تمت على أيديهم لا يتجاوز عمرها خمسين عاماً ، وعلى الأرجح عشرين عاماً ، بل وعشرة أعوام ، وبالإمكان أن نتصور مدى الانتصارات العلمية التي باعدت حدود المعرفة الانسانية .

وكما يغذى المال المال ، كذلك يغذي العلم العلم . وهكذا تتواكب العلوم وتأتينا بمعارف واكتشافات جديدة ، وبأبعاد مديدة .

واليوم وقد خطا العلم خطوات العالقة وحقق الثورة العلمية - التكنولوجية ووضع بيد الانسان امكانيات ضخمة ليصرفها كيف يشاء ، وجعل منه قوة بشرية هائلة تغالب قوة الطبيعة الحرساء فتغلبها ، فمن الممكن أن ننتظر من الانسان ، وهو مسلح بسلاح العلم ، أن يكيف العالم بالصورة التي يراها تسمى ملامحه وتحرره من القيود التي يرسف بها ، لينتج ويدع

في انتاجه ، ويحقق رفاهه ، وينعم بديناه . لأن غرض الحضارة أولاً وأخيراً هو الانسان .

ولكن هذه الحضارة العلمية - التكنولوجية ، على ما فيها من آيات التقدم والتغير السكاني والعام لجميع بني البشر ، مازالت تسود فيها التناقضات من كل نوع ، وإذا نعم بهذه الحضارة ورفاها قوم بعد أن أنتجوها وموها ، فما زالت هنالك أقوام على تخلفها تشكو عوز الحاجات الضرورية المادية ، وتزداد تخلفاً كلما ارتقى اولئك في معارج التقدم بسرعة الصواريخ والنور . يضاف إلى ذلك أن هذه الحضارة ، على ما فيها من قوة وسحر وجمال ، مربية العطب ومهددة بالانهيار والدمار في كل حين ، لأن التوتوات الدولية التي تحدق بها من كل جانب تنذر بهذا الخطر الذي يمسك به القنبلة الذرية ، ولنا في هيروشيما وناغازكي أسوة حسنة . ونحن دوماً تحت خطر حرب ذرية لا تقي ولا تذر . وإذا نبه العلماء السياسيين الى ضرورة انتاج القنبلة الذرية للتهديد بها فحسب ، فقد أُنذرتهم هذه القنبلة وأرت الأنظار جزءاً من الاخطار التي قد تثيرها حرب كونية ذرية شاملة ولقد شعر العلماء بمسؤوليتهم تجاه المجتمع البشري ، ولكن بعد فوات الاوان . ومهما يكن فإن القتل أنفى القتل .

وشهد عصرنا الحالي حربين عالميتين كبيرين اشترك فيها جيلان متواليان من آباء وبنين . وما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها إلا وشعر الناس بـسكابوس الخطر الذري المطبق ، الذي يلوح به السياسيون والقادة العسكريون ، حتى ان الاجيال الصاعدة أحست بخيبة أمل كبرى وأخذت تشك بقيمة العلم والعلماء . وماثورة الشباب المعاصرة في بعض من نواحيها إلا تعبيراً عن هذه الغضبة ؛ وماخلاعة بعض الهيين وحياتهم السلبية في المجتمع إلا افصاح عن اليأس من الحياة بعد الاحساس بالخطر المنتظر ؛ وما الاقبال

على الذائذ والجنس إلا تصرف لهذه الطاقات المكبوتة التي لا تجد من يسيرها في أقيانها الطبيعية لتنتج انتاجاً طيباً .
وهذه المناسبة نذكر ان العالم اينشتاين ، في العام ١٩٤٦ ، تملكته رهبة الخطر الذري فأصدر البيان الآتي :

« لقد قدم العلماء هذا الخطر ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في عقول الناس وقلوبهم ، وليس في قدرتنا أن نغير ما في قلوبنا ، وأن نتكلم بشجاعة .
يجب علينا الا نبخل على العالم بما نعرفه عن قوى الطبيعة ، ولكن يجب علينا قبل ذلك أن نضع لها الضوابط لتأمينها ضد اساءة الاستعمال .
وإن من واجبتنا الا نكون مبالين فحسب ، بل جد حريصين على ان نخضع انفسنا لسلطة واحدة تعمل من أجل السلام العالمي . يجب أن ندرك ان من المستحيل علينا أن نخطط للحرب وللسلام في وقت واحد . وعندما تصفر قلوبنا وعقولنا ، عندئذ فقط نجذب في انفسنا الشجاعة للتغلب على الخوف الذي يسيطر على العالم ، (١) .

وجاء في تقرير اللاونيسكو : « لسنا في حاجة الى المعرفة فحسب ، بل في حاجة الى تطبيقها والاستفادة منها . ولكن هل في قدرتنا أن نستخدم العلم لتطوير أحوال الجنس البشري الى ما هو أفضل ؟ اذا استطاع العلم بابتكاراته ووسائل انتاجها أن يوفر للجنس البشري حاجياته ، بنفس النجاح الذي حقق به انجازاته الفيزيائية ، فلن يكون المستقبل القريب بغيباً . وما الذي يستفيد الانسان من معرفة كل شيء في العالم اذا كانت ضرورات الحياة الاولى من غذاء وماء تنكسر عليه آدميته .

لقد خطا العلم خطوات واسعة ، وفي المستقبل يستطيع الانسان

(١) راجع : زكريا هاشم زكريا ، فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم ، ص ١٢ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

العالم ان يخضع الطاقة الحرارية النووية والطاقة الشمسية ، وطاقة المدّ والجزر ، وقوة التيارات المائية في المحيطات ، والانتفاع بالطاقة الحرارية للأرض . ولكن يجب تنسيق الجهود لافادة البشر جميعاً من الثروات المتاحة ، وبالهام من شعارات الاونيسكو : حفظ السلام ، دعم الحريات والاستقلال ، وتقديم الناس أجمعين .

وعالم اليوم يتعرض لنوائب وحروب متوالية ، ولاخلاص للانسان ، بل ولاطمأنينة للبشرية في ظل حضارة تتنكر لمبادئ الاخوة والمساواة والعدل والسلام وسائر المثل العليا والقيم الاخلاقية . وسبق أن قال رجال عصر النهضة : « العلم بلا وجدان ليس سوى دمار للنفس » .

ونحن بحاجة الى أخلاق ، أو بحاجة إلى أن يحكم العلم قواه العقلية ، لأن العلم سلاح وحسب استعماله يكون للخير وللشر . واليوم وقد بدت الخطوط الأساسية لصورة العصر ، فإن من واجب العلم العاقل ان يسدد خطانا وأن يهديننا سواء السبيل ، لنكون اكثر تأثيراً على سياق قدرنا . ولقد قال مؤلف حديث : « الحوادث البشرية رد فعل متبادل بين القدر والارادة البشرية . ولما كانت الارادة متغيرة ، فشدتها تتعلق بنا ، ووعينا لهذه الارادة يضع حداً لمسؤوليتنا . ومسؤوليتنا الأدبية والعلمية التعمير لا التدمير واستعمال الطاقة في الأغراض السلمية لافي افناء البشرية . » .

الفصل التاسع

حضارة العصر

تمهيد

حضارة عصرنا الحاضر سلبية عصور عريقة القدم ، ووفرة جهود بشرية متضافرة ومتصلة عبر الأجيال ، وحصيلة انتاج آخذ بالتقدم يوماً عن يوم . وإذا كان هنالك من نعت تنعت به ، فهي انها حضارة عالمية لاتعرف لها موطناً خاصاً أو بيئة معينة ، انها وليدة كل زمان ومكان .

لقد جرت بعض أقلام الغرب على وصف الحضارة الحديثة بالحضارة الاوربية ، وبخاصة حضارة اوروبا الغربية . ولكن هذه الحضارة ما لبثت أن امتدت عبر المحيط الأطلسي وامت في امريكا . وهذا مادعا آخريين الى تسميتها بالحضارة الغربية ، لأن اوروبا وامريكا من حضارة واحدة ، وذلك تمييزاً لها عن الحضارات الشرقية ، لأنها تختلف عنها كلياً . ولكننا اذا حاللنا هذه الحضارة نفسها ، وجدناها تنحل الى عناصر مختلفة كثيرة ، ولا ترجع الى الحضارة الاغريقية - الرومانية وحدها ، لأن هذه الحضارة الأخيرة ذاتها ليست وليدة بيتها فحسب ، بل انها تتألف من عناصر حضارات شرقية سبقتها بازمان بعيدة .

(*) نشرنا هذا البحث في مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الأول ، العدد الثاني ،

الكويت ١٩٧٠ .

فضايا عصرنا (٢٦)

وإذا كان الاعتزاز بهذه الحضارة يدفع بعض الكتاب الغربيين الى القول بأن هذه الحضارة من صنع الانسان الأبيض الذي أنشأها ونماها ونشرها في ارجاء كوكبنا الأرضي ، أداء لرسالته التي حملها وحده دون غيره ، فان هذا القول يجب أن نعتبره مقبولاً في القرن التاسع عشر ، عندما كانت اوربه تتيه بتقدمها وازدهارها الحضاري ، وصبقها التقني الحديث ، والى ما هنالك من عوامل تجمعت وساعدت الدول الغربية الكبرى على استعمار القارتين القديمتين : آسيا وافريقية .

وفي الربع الثاني من القرن العشرين أخذت نغمة الانسان الآري مبدع الحضارة تفرع الأسماع وتعلو ، وبخاصة في المانيا ، في عهد هتلر ، الذي تبنى آراء ونظريات الفلاسفة العرقيين ، وأهل الانسان الآري مكاناً علياً ، ووصف عرقه بالتفوق وابداع الحضارة ، وغيره بالتخلف والركود .

ولو بحثنا عن الأسباب التي دعت الى هذه المزاعم ونشرها لوجدناها ترجع الى الغرور الذي يملك بعض المفكرين بعد أن رأوا حكوماتهم تفتح البلاد وتستعمر اهلها وتسخرهم لخدمتها بما يصدرون اليها من مواد اولية وسلع غذائية ، وما يستوردون منها من منتجات مصنوعة وامكار وعادات وتقاليد وفلسفات .

ان نظرة فاحصة الى هذه الادعاءات تدلنا بوضوح على تجاهلها للحقيقة التي يجب أن يقال بحق وصدق : وهي انه ما من انسان أو عرق معين اختص بابداع الحضارة دون غيره ، بعد أن اثبتت التحاليل المخبرية فساد النظرية العرقية ، ونقاوة الجنس ، ودلت الابحاث العلمية على أن بني البشر كانوا على اتصال وثيق ، مهما كانت طرق المواصلات بطيئة ، منذ اقدم العصور ، واختلطوا بعضهم ببعض ، واعطى كل واحد منهم الآخر واخذ عنه ؛ وان الحضارة ليست حكرة خاصة ، بل هي ابداع

البشر جميعاً قديماً وحديثاً وإلى الأبد . فهي اذن حضارة عالمية ، ومن حق الجنس البشري كله أن يفخر بها ، لأنها حضارته ، ومن خلقه ، لافرق في ذلك بين انسان أبيض وانسان ملون أو بين عرق وآخر . اما أن تكون هذه الحضارة قديمة وتطورت وتقدمت في بعض البيئات اكثر من غيرها ، فذلك أمر آخر ، ومرهون بشروط وظروف عديدة ساعدت على هذا النمو والتطور والانتشار .

ولانتشر ، بعد ، أن هنالك حضارات سادت في اقاليم معينة ثم بادت ويميز هذه الأقاليم عن غيرها ، كحضارة بلاد ما بين النهرين ، والحضارة المصرية القديمة . غير أن هذا لا يمنع من وجود اتصال حضاري قديم ومستديم بين البشر واغناء بعضهم بتجارب بعض . ولكن الحضارة الحديثة يمتاز عن غيرها بأنها عصارة تلك الحضارات التي سبقتها وآلت اليها ، وإنما لا تريد في عصرنا أن تكون مقصورة على بلد بذاته أو قارة بعينها ، بل أن تعم العالم اجمع بابداعها ومنجزاتها ، وكلما تقدمت طرق المواصلات وتسارعت ، أن تجد سبيلاً إلى الانتشار . ولم تبق جزءاً من كوكبنا الأرضي الا ونفذت إليه وسيلة أو بأخرى ، حتى انها صعدت إلى القمر بغية اتخاذ رأس جسر لانطلاق جديد نحو العوالم الأخرى وقد لا يكون هذا اليوم عنا ببعيد ، حتى وكأن طموح هذه الحضارة لا يقف عند حد ، فلا تلبث أن تحقق كسباً حتى تتبعه بآخر ، لتحقيق ذاتها في عالم الافلاك وإطار الكون .

خصائص حضارة العصر

وهذه الحضارة مطبوعة بطابع التقدم العلمي الحديث والسريع ، مع ما يلزمه من تقدم التكنولوجيا . وهذا النمو العظيم والمتوازي

لكليهما معاً يعطي انسان النصف الثاني من القرن العشرين الابضاح الشامل الذي ينتظره من التأمل في الكون والمادة والحياة مع ما يشارك ذلك من فلسفة لفهم هذا الوجود .

والملاحظ أن التقدم في ميدان العلوم الرياضية يعتبر حادثاً أساسياً ، لأن تأثيرها أصبح واضحاً وقطعياً في مختلف مجالات الفكر البشري . لقد كثرت النظريات وتعددت بتقدم المعرفة ، واخذت كل قضية مطروحة أو محاولة تولد بذاتها قضايا كثيرة وأسئلة عديدة . ولم يعد الواحد منا يأمل ، حيث يعمل ، الا في معرفة عميقة في جزء من اجزاء المعرفة . ولكن الرياضيات تجاوزت ميدانها الخاص واستمرت في تطورها الصاعد منذ آخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت لغة مجردة ولغة التعبير عند العلوم الأخرى .

وهذا التقدم العلمي يطمح اليوم ، كما كان يطمح من قبل ، ولكن بشكل افضل ، الى فهم الكون وفهم اصرار وجوده . وفي هذا الميدان تلتقي فروع المعرفة ، وان بدت ظاهراً متباعدة : فالرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياة والطب والجغرافيا وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والراديو الفلكي (علم ملاحظة الكون) والملاحة عبر الكواكب تنتهي كلها الى مفهوم مقبول غالباً لكون لا ينتهي في الزمان والمكان . ولأول مرة تحققت مكاسب عظيمة ودقيقة في معرفة مركبات الكون من نجوم ونظام كوكبي .

وفي قضية تركيب المادة بذلت جهود لمعرفة المركبات النهائية لها ، وأثارت البحوث في هذا الحقل قضايا هامة وصعبة ، كقضية الصلة بين بنية الذرة وبنية الكون ، وقضية مبدأ التقيد بقانون العلة والمعلول التي يقول بها الأمير الفرنسي لوي دو بروي الحائز لجائزة نوبل ١٩٢٩ ، وعدم

التقدير للفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرغ الحائز لجائزة نوبل أيضاً عام ١٩٣٢ . وكلا هذين العالمين يأمل في الوصول الى الهدف الأساسي لجميع الأبحاث القائمة حالياً وهو نظرية الساحة الموحدة ، أي معادلة المادة التي بحث بها آينشتاين وتوضح جميع القوانين الفيزيائية . وبتعبير آخر ، ان ظواهر النجوم تتضح بالفيزياء النووية ، وان النظرية العامة لتكون ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية النواة الذرية (١) .

وفي معرفة الحياة تم الوصول في علم الحياة (البيولوجيا) الى اكتشافين هامين : الأول ، هو اكتشاف المضادات للحيويات (انتيبايوتيك) . فقد سبق هذا الاكتشاف الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام عندما رأى الطبيب البريطاني السير الكسندر فلمينغ ، الحائز لجائزة نوبل عام ١٩٤٥ ، أن وجود العفن على سطح الزرع الجرثومي يقاوم نمو هذا الأخير . وفي ١٩٣٩ ، قامت فئة من باحثي اكسفورد بدراسة منظمة لهذا التأثير وعزلت البنيسيلين ، وفتحت بذلك الطريق لاكتشاف مضادات أخرى للحيويات ، في وقت بدأت فيه المعالجة بمركبات السولفاميد تفقد نفاذها بظهور سلالة جرثومية مقاومة لها .

والاكتشاف الثاني ، كان على الصعيد النظري ، وفي مضمار علم حياة الخلية : ففي عام ١٩٤٥ ظهرت النتائج الجزئية الأولى التي حصل عليها بواسطة الفحص بالجهره الالكترونية وتثريب الخلايا والكائنات الحية الصغيرة تحت الجهره ، وكيمياء الخلية ، وأظهرت مقارنة التجارب قيمة الحوامض النووية والدور الذي تلعبه في حياة الخلية ، لأن هذه العناصر تعتبر مسؤولة عن النشاطين المميزين للمادة الحية وهما : التمثيل ، أي

(١) راجع : Marcel Pacaut et Paul Boujau, Le Monde Contemporain, P. 19, Armand Colin, PARIS, 1964.

القدرة على صنع مادة مماثلة تماماً لمادتها الخاصة ؛ والتسكاث ، أي الاستعداد لبناء خلايا حية . وهذه الأبحاث مازالت نظرية ، ولكن من الممكن القول بأنها ستنقل في المستقبل القريب من نطاق النظر إلى نطاق التطبيق وتدخل في علم الوراثة ودراسة الأورام الحبيثة ، السرطان .

ولعبت الكيمياء دورها الحديث . فقد استطاعت بامكاناتها التركيبية الجديدة أن تشكل أجساماً عديدة لا تقف عند حصر ، وحققت ما كان يحلم به السيميائيون في العصور الوسطى ، وجهازت بمنتجاتها وسائل الانتاج لجميع الفاعليات البشرية ، ودخلت في مختلف درجات حياتنا اليومية ، وفي صناعة المنسوجات كمنقو ، وفي اعداد الأصبغة والألوان والصناعات التحضيرية والتجهيز بالمواد الأولية والضرورية للزراعة ، وفي ميدان المستحضرات الصيدلانية والغذائية والمنشطات الجسدية . وليس بعيداً ، في المستقبل ، أن يستغنى انسان العصر الحاضر عن المآكل والأطعمة بشكلها الطبيعي المعروف والمكلف والمضيعة للوقت ، ويكتفي ببضع حبيبات تغذية وتدفع عنه ألم الجوع ، وتغنيه عن المطابخ والطهي وما الى ذلك من أدوات الطعام ، وتجعل منه انساناً فخيلاً وأكثر روحانية وافل تعرضاً للأمراض وأكثر مناعة ومقاومة .

واذن يبدو أن التقدم العلمي للصاعق حصة مميزة لحضارتنا الحديثة . اما أن يقال أن العلماء يستطيعون أن يجيبوا عن كل شيء اليوم أو في المستقبل القريب أو البعيد ، فذلك قضية خاطئة ولا يمكن طرحها على العلماء ، لأنها تنفرهم ، وهم اعلم من غيرهم في الحقل العلمي وملابساته . ولكن المهم هو أن الدراسات العلمية المختلفة ، التي حققت مكاسبها ، أصبحت تؤلف عدة كهوى واجهزة عظيمة في فتح المجهول ؛ وأن العلماء

يؤلّفون اليوم جمّة سلبية في معركة العلم التي تلتقي فيها أنواع الدراسات وتعاون معاً في تقدمه (١)

ومن جهة أخرى ، تنصف حضارتنا بأنها حضارة مطبوعة بطابع التقنية ايضاً . وهذه نتيجة من نتائج الثورة الصناعية الدائمة والمتطورة . وقد عرف تاريخ البشرية الثورة الصناعية عندما اخترع الانسان القديم الأداة وسخرها لأغراضه وحاجاته اليومية الطارئة ولكن هذه الأداة كانت بطيئة الانتاج ، ولا تؤمن كل ما يطلب منها ، لأن التقنية تعوزها . وهذا الفقر في التقنية كان عاملاً من جملة العوامل التي دفعت الى الرق لاستغلال الحقول والمناجم في امريكا عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى ؛ هذا فضلاً عن أن الرقّي لا يحسن استخدام الآلة ، واكثر من ذلك ، أنه غير قادر على العناية بها وصيانتها (٢) . ومهما يكن فان هذه الأداة المستعملة على بساطتها كانت في حينها تعتبر تقدماً محسوساً وكسباً صناعياً وتقنياً .

وتقدمت الثورة الصناعية منذ استخدم الانسان الآلة البخارية والفرن العالي في اواخر القرن الثامن عشر ، ونشأت عن هذا الاختراع علاقات اقتصادية واجتماعية ، وتعينت هذه العلاقات تبعاً للتقنيات التي نشأت عن هذا التقدم . ولامرية في أن ادخال الفحم الحجري والآلة البخارية والحديد والنقل بالبواخر والخطوط الحديدية قد قلب العلاقات الاجتماعية ، وولد المجتمعات الصناعية وساعد على تحرير الرق ، لأن تقدم التقنية دعا الى الاستغناء عنه نوعاً وتحريره ، ولقد كانت انكلترا

(١) راجع : مجلة « Réalités » عدد حزيران ١٩٦٣ .

(٢) راجع : Henri Van Lier, Le Nouvel Age, P. 17,

Casterman, 1962

رائدة في هذا الميدان وأولى الدول التي ارتقت عندهما التقنية قبل غيرها (١) .

غير أن تسارع التقدم التقني زاد في التناقضات وتعارض المصالح والمقاومة بين طبقة المنتجين وطبقة العمال في مجتمع منتجين ، أي في اقتصاد مجتمع يعمل قبل كل شيء للتجهيز وصنع وسائل الانتاج . وقد ظهر هذا التناقض جلياً ايضاً بين التقدم التقني والعمل ، لأن العلاقات الاجتماعية أخذت شكلاً جديداً وهو التضاد بين اقلية منتجة واكثرية مستهلكة .

ولم تكن هذه الثورة الصناعية ممكنة لولا تقدم الحركة العلمية وتطبيق العلم في ميدان التقنيات التي نشأ عنها ثمرات صناعات جديدة كاستخراج المواد الحام من المناجم والصناعة المعدنية والحديدية التي تنتج العنادر الصناعي والأشغال العامة والأجهزة الرافعة ، والصناعة الكيميائية ، وتجديد الصناعات التقليدية ، وتجهيز الأيدي العاملة في الصناعة ، ووسائل النقل الحديثة .

ونشأ عن هذا التطور حادثان عظيمان وهما : أولاً ، التزايد السريع في انتاج العنادر ووسائل الانتقال والمواصلات بشكل جديد يختلف تماماً عن الوسائل المعروفة التقليدية . ثانياً ، تشكيل الطبقة العاملة ، وقد بدأ شأنها يعظم يوماً بعد يوم . وأوجد الحادث الأول تمييزاً واضحاً لاسابق له بين البلاد والناس ، بين من يصنعون ويملكون وسائل الانتاج الجديدة والمواصلات ، وأدوات التدمير ، وبين من لايملكون هذه الوسائل ويتعرضون الى الخضوع لقانون الاولين .

(١) راجع : OTTO DE HABSBURG, Bientôt L'An : 2000, HACHETTE, PARIS 1969.

ووضع الحادث الثاني تصنيفاً جغرافياً واجتماعياً للسكان : فقد كانت الصناعة الناشئة في القرن التاسع عشر تتركز جغرافياً في مناطق المناجم التي تجهزها بالطاقة أو بالفلزات المعدنية ، وفي مراكز عقد المواصلات ، وفي مناطق النفوس الكثيفة ، وفي النصف الثاني من ذلك القرن أصبحت المدينة نتاج النمر الصناعي أو التصنيع .

وساعدت الابحاث التي قامت في هذا السبيل على تخفيض سعر الكلفة وحث الاستهلاك المتزايد ، وتخفيض زمن العمل وعدد العمال المستخدمين لانجاز عمل معين ، وادخال السكم والكيف في مراحل تحضير الاننتاج ، والاقلال من تعقيد الجهود والحركات المبذولة بتقسيم متزايد للعمل وتحديدته وتسلسله ونوقيته .

وتقدمت انجازات الثورة الصناعية في مطلع هذا القرن منذ تعاقبت التحويلات الصناعية وظهرت مصادر جديدة للطاقة ومواد اولية جديدة وفهارس كبرى للمنتجات الصناعية ، لأن الآلة لم تعد مساعداً بسيطاً للانسان ، بل أخذت تنوب عنه ، وفي الحالات النهائية تتجاوزه بتحقيق عمليات لا يستطيع القيام بها في مضمار الميكانيكية والعقل الالكتروني وفتح الفضاء وخرق حجاب الصوت وغير ذلك مما يأتينا به المستقبل القريب والبعيد من مفاجآت تتعدى نطاقنا الخاص في التحقيق والانجاز والعمل ، بما زاد في عدد المنتجات الصناعية دون انقطاع ، وفي عدد القطع الداخلة في بناء الآلة أو الجهاز المستعملين وفي تعقيدهما ايضاً .

ويظهر الدور الحالي بخاصة متميزاً بتحول أسامي في العلاقات بين الانسان والآلة . واذا كان حقاً ان العامل يخشى دوماً أن ترده الآلة الى البطالة ، فان العلاقة بين هذا الانسان والآلة آخذة اليوم في التغيير . لقد قلت الآلة ، في القرن التاسع عشر ، العمل المقبول لتحقيق انتاج

معين بتبسيط عمل الانسان وزيادة قوته ، ولكنها بقيت مساعدة له ، ولولا وجوده لظلت دون حراك ودون نفاذ . أما اليوم فان مراحل بكاملها من الانتاج او الحركات أصبحت الآلة تقوم بها وحدها ، وغدت رقابة العمليات الصناعية أو غيرها من عمل الأجهزة ، ولايتدخل الانسان الا من بعيد لتوجيه العمليات في تسيير المراحل الميكانيكية الضرورية . وهو يعلم ، عن بعد ، بواسطة وسائل الاتصال ، التي تقع تحت يده ، الحوادث الطارئة ليصحح الحلل ، كما يظهر ذلك في تسيير الأتمار الاصطناعية والسفن الكونية والأجهزة المستعملة في صنع الخطوط الحديدية والصناعة الميكانيكية ، وفي اعمال المكاتب تحت امم أصبح معروفاً وهو الآلية (الاونوماتيكية) .

وعلى هذا النحو أصبحت الآلة نفسها معملاً لصنع القطع وتركيبها لصنع اجهزة جديدة . وأخذت الأجهزة الالكترونية تساعد على القيام بسرعة فائقة جداً بعمليات وتصنيفات وحسابات لوجرت في أحسن الشروط لاحتاجت الى عدد عظيم من العمال خلال ساعات أو أسابيع . كما فتحت العقول الالكترونية ، أمام الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك وشركات التأمين والطلابين للنصح والارشاد والضاربين الاستشارة في قضايا الزواج والمتنبئين بنجاح الحروب والراجلين بالغيب ، آفاقاً جديدة واسعة لاتقف عنه حد أو قيد .

واذن نرى ان بعضاً من حاضرنا أخذ يتحرك بفاعليات وتسلسل حركات آلية لم تحذف الانسان ، ولكنها ، على اقل تقدير ، قللت تدخله وردته الى حده الأدنى ، وبعثت في فكرنا عالماً جديداً ومستقبلاً قريباً أو بعيداً بكل مايسر أو يضر .

وربما يكون من السابق لأوانه أن نفكر بأن جميع الأعمال البشرية

يمكن أن تكون في وقت قصير آلية ، لأن بعض قطاعات النشاط قلما تكون على استعداد لآلية مريحة ومفيدة اذا كانت الحصة الانتاجية فيها تنمو بسرعة قليلة جداً ، لاسيما وأن الآلية الحديثة تتطلب ، كالبحث الذري ، مستوى تقنياً عالياً واحتياطياً مالياً عظيماً ، وهذا ما يجعلها امتيازاً من امتيازات الشركات الصناعية الكبرى والقوية جداً ، لأن هذه الشركات تستطيع بما لديها من امكانيات متعذره على غيرها أن تتجه نحو قطاعات نشاط جديد في حقل الانتاج والاستهلاك والخدمات . وقد يقال ان هذا الأمر يمكن أن ينافى برأسمالية جديدة ، أو يقال انه يتعلق بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، عند شعب تحرر من اشكال العمل القديمة ولديه من الوقت الجاهز ما يستطيع التصرف به .

ومما يكن فان الجغرافيا تميز بين البلاد التي يمكن أن تؤدي فيها الآلية ، بعد فترة من الزمن ، الى تغييرات عديدة في مواطن الانتاج والاستهلاك ، وبين البلاد التي لا يمكن أن تشبهها ، ولو من بعيد ، ونجد نفسها مضطرة الى البحث عن شكل من اشكال التعاون والمبادلات مع البلاد التي تسلمت بالاجهزة الميكانيكية والآلية ؛ هذا فضلاً عن أنه يمكن النظر الى هذه القضية من وجه آخر : وهو أن تتساءل ما هو وضع البلاد الغاصة بالايدي العاملة العاطلة عن العمل التي يتضاعف سكانها في فترة جيل واحد اذا دخلتها الآلة أو اضطرت الى ادخالها ؟ لاشك أن البون يصبح شاسعاً بينها وبين البلاد المميكنة القليلة السكان نسبياً وعالم اليوم يزداد اختلافاً وتبايناً أكثر من أي وقت مضى مع ما فيه من ظواهر تدل على تقارب البشر ووحدهم .

واذا كانت حضارة اليوم تنصف بتقدم العلم وتقدم التقنية فيجب أن نتصور أن لا فاصل يحجز بين العلم والتقنية . بل هما يعيشان عيشاً

مشتوكاً ، وكل تقدم يصيب احدهما ينال الآخر منه وينعكس عليه ، ولا يمكن تعيين الحدود بين العلوم والتقنيات . ويفرض نمو هذه الأخيرة على العلم القيام بأبحاث واكتشافات ؛ ويدعو تقدم العلم الى تقدم التقنية . وهكذا يتم احدهما الآخر ولا ينفصل عنه . ولنذكر على سبيل المثال أن الصواريخ التي وضعت وحسنت قد أصبحت الآن من افضل وسائل اكتشاف الفضاء ومعرفة الكون ، وان المؤسسة القومية للملاحة عبر الفضاء الامريكية جعلت مهمتها العمل على تقدم علم وتكنولوجيا الفضاء ، وارسل امريكيين الى القمر ، وان ما يقارب نصف المليون من الرجال مسافرون للنموذ الى امرار الكون وتعريف ظروف نظامنا الشمسي ، وان كل هذه الأجهزة جميعها تقضي تعاوناً وثيقاً وواعياً بين العقل والآلة ، وان العلم والتقنية المتلازمان يسيطران على العالم ويلعبان في تطوره دوراً أساسياً ، وان الامكانيات التي تتيحها لانسان النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين تبدو بغير حدود وتنمي عنده العاطفة بضرورة القيام بمجد مستمر وشاق ومكلف واحياناً مخيب ، ولكن هذا لن يفت في عضد العلماء ، لأن الحياة عندهم علم ومعرفة وتفكير .

وقد ادى تقدم العلم والتقنية وتعاونها الوثيق للانسان المعاصر خدمات جلي في حياته اليومية : فنقدم الطب ومنه المعالجة وصناعة الأدوية والعمليات التي تجري في أحسن الشروط ، والوعي الصحي ، وتنظيم توزيع الأغذية ، ان كل ذلك قد ساعد ولاشك على تخفيض نسبة الوفيات وزيادة السكان : فالجاعات والأوبئة والأمراض ، التي اعتبرت زمناً طويلاً من غضب الآلهة أو ظاهرات من ظواهر القضاء والقدر ، زالت

اليوم من سطح كوكبنا الأرضي ، أو على الأقل لم تعد كما كانت عليه بشكلها الخفيف والمبهد والمزمن .

ولكن البشرية ما زالت تشعر بتناقض بين رغبتها الدائمة في تحسين ظروفها المعاشية وبين التزايد المتسارع في عدد السكان الذين يجب اشباعهم ، لأن الانسان ، حين يأتي الى هذا الوجود يأتي خالي الوفاض مستهلكاً ، وليس بالامكان دوماً اعطاؤه الطرق والوسائل التي يصعب بواسطتها منتجاً ليؤمن التوازن بين الانتاج والاستهلاك ؛ يضاف الى ذلك أن الحاجات والرغبات الجديده والمتجددة باستمرار قد ازدادت بنسب عظيمة في العقود الأخيرة من هذا العصر ، حتى ان اشباعها لم يتحقق الا لعدد القليل من الناس ممن توافرت في بلادهم شروط التقدم الصناعي ، أو ممن تهيأت لهم الأسباب التي مكنتهم من ارضاء رغباتهم .

أما الاكثريه العظمى من الناس فإن ثكاثوها العددي أصبح عائقاً ومانعاً يحول دون الوصول الى الحياة المتقدمة ، ولايجود الا بالزور اليسير ؛ وما ذلك الا لأن الفائض المتزايد للسكان يقف أمام كل أمل يرفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي ويجعل بلوغ الرفاه العام أمراً صعب المنال .

وقد ترتب على هذا الفائض ازدياد التناقض بين البلاد المتقدمة حضارياً التي تريد أن يكون ازدياد عدد سكانها عاملاً غني لها لأنه يساعدها على تسارع حركة الانتاج والاستهلاك وتنويع دورة الانتاج ، وبين البلاد المتخلفة التي تظهر عجزاً اقتصادياً واجتماعياً بسبب طغيان السكان .

ولقد زاد سكان الأرض بشكل سلسلة هندسية : ففي أول هذا القرن كان رقم السكان ١٥٠٠ مليون نسمة . وفي حوالي العام ١٩٥٠ تجاوز الرقم المليارين ونصف المليار ، مع تزايد يقارب المائة مليون في العام ، أي بما يربو على مائتي ألف نسمة في اليوم . وتشير التنبؤات إلى

أن رقم السكان سيكون سبعة مليارات في العام ٢٠٠٠ . وإذا مددنا منحني الأعوام حتى ٢٣٠٠ ، فهذا التمدد معناه الغد في عمر العصور الجيولوجية ، ولكنه يعتبر كافياً للوصول إلى رقم للسكان لا يجد فيه الإنسان موطئاً لقدمه على سطح الأرض .

وقد رأى المؤرخون أن رقم السكان في العالم في بداية التقويم الميلادي ارتفع إلى ٢٥٠ مليون نسمة ، وأن عدة آلاف من السنين مضت حتى انتقل من ١٠٠ مليون أو ١٢٠ مليون إلى هذا الرقم ٢٥٠ مليوناً . ولكننا اليوم نرى أن تزايد السكان يتم في سنوات قليلة ، وليس هذا التزايد واحداً في جميع القارات : فقد تضاعف سكان أوربة ويدخل فيهم سكان القسم الآسيوي من الاتحاد السوفياتي في قرن واحد من ١٨٦٠ إلى ١٩٦٠ . وتضاعف سكان آسيا في الـ ٦٠ سنة الأخيرة ، ومثل ذلك سكان افريقية في الوقت نفسه . وتضاعف سكان أمريكا الشمالية في ٤٠ عاماً : وسكان أمريكا اللاتينية في ٣٠ عاماً هذا مع العلم أن انطلاق التسارع لا يوضع في تاريخ واحد بالنسبة لجميع البلاد .

وهذه الزيادة الرهيبة في عدد السكان تدعو إلى التشاؤم خوفاً من حدوث المجاعات بسبب قلة الأغذية . غير أن آراء رجال العلم في موضوع المجاعات وزيادة السكان ليست مجمعة ، وأن هذه الناحية لم تدرس دراسة جدية بعد ، ولم تعتمد بعد على احصاءات موثقة ، لاسيما وأن التقارير الادارية التي تتناول السكان كثيراً ما تشوبها المبالغة والابهام . وتدخل في هذا الحقل كثير من الاعتبارات الدينية والاقتصادية والسياسية ويرى بعضهم استعمال الموانع وآخرون عدم معاكسة الطبيعة ويتساءل الاقتصاديون اليابانيون المتمازون ما إذا كان تنظيم الولادات والتخطيط العائلي ، بغية ارضاء رغبات المستهلكين المباشرة ، يمكن أن يحول أو أن

يبطئ التقدم العلمي والاقتصادي ؛ ويرون أن زيادة النفوس قد تشجع المهتم في البحث لايجاد الأغذية الكفيلة بسد الحاجات ، وتساعد بالتالي على التقدم العلمي . ومازالت هذه القضية بين أخذ ورد .

وحضارتنا الحديثة مطبوعة بطابع السرعة المتسارعة : لقد كاث الانسان القديم يصل إلى غايته دون أن يسأل عن الزمن . أما انسان اليوم فيسأل الوصول إلى لبائنه في أقرب وقت وبأمرع مرعة ، وبحاسب نفسه على الدقة المهدورة سدى . وأصبحت المواصلات آنية ، وتنتقل الأشخاص بالكيلومترات الساعية والطائرات التجارية تجوب الفضاء بسرعة تفوق مرعة الصوت ، والتوصيات عليها قائمة على قدم وساق ، والذهاب من اوربة إلى أمريكا نزهة يومية ، ورجال السياسة والأعمال والحبراء والمهندسون والأطباء ينتقلون بسهولة وسرعة لا تتصور بين قارة وقارة ، ويسير أكثر من انتقالهم بين اقليم وآخر في بلادهم لقد انعدمت المسافات أو أصبحت في حكم العدم ، وغدا العالم بلداً واحداً . وبالرغم من ذلك فان تحديد العلاقات بين البشر وانتقالهم ليس متعلقاً بتدخل المسافة الزمنية بل بتدخل السلطات والادارة والتأثيرات والمسافات السعرية .

حقاً لقد أصبح الاتصال سهلاً بين جميع أمم العالم ، رغم التمييز بينها ، وتغيرت أساليب الحياة بفضل هذا الاتصال السهل القريب البعيد ، ولكن هذا لم يمنع من وجود التناقض : ففي عصرنا ، نجد بعض الناس يفكرون ويعملون على صعيد الناقة والبعير ، أو على صعيد الكيلومتر ، وأكثر الناس في العالم المتمدن يفكرون ويعملون ويتعاملون على المقياس القاري والعالمي وعلى صعيد الشمول والحظاظ : فمن الممكن لاسطول جوي أن ينتقل من نقطة على سطح الأرض ويغني حياة الملايين من البشر ، ويجعل البلاد خراباً يباباً والدبار بلاقع في اقل من بضع ساعات ،

ويعود الى قواعده سالماً آمناً . ومن الممكن ايضاً لبعض القواعد أن تطلق صواريخها حيث هي ودون انتقال فتغني جزءاً من العالم بأمره . وتستطيع الطائرة ان تنقل الأمراض والأوبئة من مسافات بعيدة لولا الرعاية والحجر الصحي .

واذا كانت هذه السرعة تتجاوز المسافات الطوال : كالحيطات والبهادى والجبال غير مبالية بعقبة ، فان سرعة العلاقات المحلية والاقليمية مازالت تشكو البطء : فمشاكل المواصلات بين المدن لم تحل بعد ، ولا يبعد أن توجد بين الأحياء في المدينة الواحدة . وقد تعزلنا العوامل المناخية كالثلج والمطر والفيضان من اقرب قوانا الى مدينتنا ، ونبقى على اتصال مع العالم بالراديو والتلفزيون . وهكذا يصل الترانزيستور ابن البادية ، وهو على ظهر راحلته يقطع اليباء ، بانغام الموسيقى العالمية وخطب الزعماء السياسيين واحاديث المدينة ، فيضطرب ويعجب بما يدرك وما لا يدرك ، ولكنه ، على كل حال ، يتقف نفسه بهذا الجهاز الذي لا يتجاوز ابعاده ابعاد الكف ، وليس يبعد على البدوي ان يتقف نفسه بعد أيام معدودات بتلفزيون من نفس الابعاد والحجم يجمع بين الصوت والصورة وبين لذة السماع ومتعة المشاهدة . وسيستغني ابن المدينة عن جريدته اليومية فلا يتم بها بعد أن تأتبه متأخرة عن سماع الأخبار بالراديو ورؤيتها على الشاشة . وسنخاطب عن قريب من نريد ونرى صورته أمامنا على الجهاز الذي نخافه به ، وهو بيننا حاضر غائب . وهكذا وصل الملاعون الثلاثة على متن أبولو ١١ و ١٢ الى القمر في خمسة أيام أو أقل ؛ ونقطع البحر المتوسط على متن الباهرة في خمسة أيام وبضع ساعات . ولن تدهشنا بعد اليوم رحلات الفضاء بعد أن دخلت في حركة حياتنا اليومية .

ولكن هذه السرعة المادية ، مهما بلغت ، أبعد من أن تصل أو تواكب السرعة النفسية في لغة العاطفة والحب ، لأن هذه لا تعرف حداً لقوتها عندما نبغي الوصول الى من نريد وما نريد . وماشذو أم كلثوم حين تغني « وغدي في هواك يسبق أمسي » الا دليل على هذه الحالة النفسية . ومثل هذه السرعة لم يتوصل اليها فرسان الفضاء الخارجي . بيد اننا في متعة الحب الصافي نستعمل الزمان ونزجو دوام الليل ونقول للشمس : « تعالي تعالي بعد سنة مش قبل سنة » .

ومن هذا التناقض في العلاقات البشرية على مقياس كوكبنا الأرضي نستخلص فكرتين :

الاولى ، هي الشعور بالمشاركة مع بني البشر مع مافي هذه المشاركة من مخاطرات والتزامات . فما من أحد يستطيع اليوم أن يكون غير مبال بالحوادث الجارية ، مهما كانت بعيدة ، التي يمكن أن تسلسل بسرعة فائقة وتكون مفعمة بالنتائج التي تعم الكرة الأرضية جمعاء : ان القضية الفلسطينية والحرب في الشرق الأقصى تشغلان بأبعادهما المتصاعدة وجدان العالم بأكمله .

الثانية ، هي اتساع نطاق القضايا الاقتصادية والسياسية على المقياس العالمي ، بينما تضيق فكرة الجوار وتفرض انشاء نظم للتنسيق والتوحيد بين البشر : مثل عصبة الأمم في فترة ما بين الحربين ، ومنظمة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، والى ما هنالك من منظمات دولية في حقل الغذاء والعمل والصحة والتعليم والعلم والثقافة والتربية والمساعدة الفنية والتعمير والتنمية والاعلام والمعرفة العميقة لكل ما يتعلق بحياة حاضر العالم ومستقبله . وقد نجحت هذه المنظمات قليلاً واخفقت كثيراً ومازالت تتعثر في سيرها ، رغم الجهود المبذولة لتقويتها .

قضايا عصرنا (٢٧)

البيور المتخلفة

ولكن الهوة مازالت سحيقة أمام هذه المحاولات الكثيرة في تعميم المواقف ومثول النظم . ولعل انقسام العالم الى كتلتين : الكتلة الرأسمالية بزعامة الولايات المتحدة ، والكتلة الاشتراكية برئاسة الاتحاد السوفياتي ، ليس الا الشكل الأسامي والوحيد في الاختلاف والتنوع . وتبدو قضية التخلف شائكة في حضارة العصر ، لأن البلاد ، التي تنصف بهذا الوصف بحكم ظروفها التاريخية ، توجد خارجة عن حركات التصنيع الكبرى التي اقامت الاقتصاد الصناعي ووطورت المجتمعات ، ومازالت رغم نموها الحديث محافظة على بنائها الاجتماعي العتيق وراحة تحت وطأة طفرات ديموغرافية مذهلة ، وتحاول حلها فلا تجد لها حولا جذرية .

ومها يكن من أمر هذه البلاد المتخلفة فان التطور السيامي ، في ظروفه الخاصة والعامة ، أدى الى استقلالها وخلصها من نير الاستعمار الذي اثقل عليها وكان من جملة عوامل تأخرها فترة غير قصيرة من الزمن . وهي الآن تعاني ازمة النمو التي تنتاب عادة البلاد الحديثة الاستقلال . واذا كانت مصادر ضعف الحكم فيها ناشئة عن عدم التجربة وقلة الخبرة والجهل بالقضايا الاقتصادية والسياسية مع ما يصحب ذلك من فساد وأتانية الزعماء ووحداية الحزب الحاكم والشدة المذهبية والصرامة العقائدية التي تذهب الى درجة التطرف وتخوين الغير ، فيجب أن نعترف ان هذه الحالات ، رغم اخطارها الجدية ، ليست نوعية وخاصة خطيرة واسارات حمراء تحول دون التقدم الى الأمام ، لأن وعي الشعوب النامي والمتكامل مع الزمن كفيل بإزالة الابهام ودفع الاخطار واحلال الرشاد محل الضلال .

وإذا استقلت هذه البلاد سياسياً فاستقلالها مازال مربيع العطب ،
 ومحفوفاً بالمسكاره من كل نوع ، لأن الخلاص من الاستعمار سياسياً
 لا يعني الخلاص منه اقتصادياً . وهي مضطرة بحكم ظروفها الموضوعية
 الى مد يدها الى عدوها بالأمس في سبيل المعونة الفنية والتنمية الاقتصادية
 والتطور الاجتماعي ، أو الى التعامل مع بلاد لم تذقها مرارة الاستعمار ،
 أو للحوار مع البلاد الاشتراكية في جو الصداقة والسلام والتفاهم والاحترام
 المتبادل والمساعدات غير المشروطة ، ولكن هل هي حقاً خالية من كل شرط ؟
 وما من شك في ان الحوار الاقتصادي ضروري للبلاد الراقية كما هو
 ضروري للبلاد المتخلفة . وإذا كانت هذه الأخيرة تنتظر من الحوار
 الحصول على الوسائل الخفيفة لوطأة التخلف ، ان لم تستطع ازالته ، فان
 الاولى ، أي البلاد الراقية ، ترى في البلاد المتخلفة متحماً لاقتصادها
 يتص منها ، طوعاً أو كرهاً ، زيادة ، الخبراء والفنيين ووسائل التجهيزات
 الحديثة ، كما يتص هي بدورها من البلاد المتخلفة بالضرورة احتياطاتها من المحاصيل
 الحام أو تقاسمها رزقها الطبيعي الفوقي والتعني بين تبادل الخبرات والمناافع والحفاظ ،
 في هذا التعاون المبني على المصالح المتبادلة ، على الصيغ القانونية والحقوقية
 التي تبصر من طغيان الاستعمار الحديث او من مخلفات الاستعمار القديم .
 وفي مضمار هذا التعاون يقوم التنافس بين العمال بين ، بين الاقتصاد
 الرأسمالي والاقتصاد الاشتراكي ، في الاهتمام والبحث ، قبل كل شيء ،
 عن البلاد ذات القيمة الاستراتيجية والاقتصادية ، ويأخذ التدخل السياسي
 تحت لباس الاقتصاد والثقافة الواناً عميقة اوزاهية تختلف حسب درجة
 الاغراء وقوة المقاومة .

ولا يخلو هذا التعاون الوثيق احياناً من اخطار ، وله مناقبه بالقدر
 الذي يساعد على النمو والتقدم وتحقيق المكاسب والأخذ بأسباب الرقي .

وله مثالبه بالقدر الذي تكون فيه المساعدات مشروطة ظاهراً أو مستترة لأنها تضع المتخلف ، شاء أم لم يشأ ، عن وهي أو عن غير وهي ، تحت رحمة المتقدم الراقي ، وتجعله يأتمر بأمره ويعمل بأجائه ولو كان مستقلاً سليماً معافى . وإن الدول الكبرى العملاقة ، على ما هي عليه من حول وقوة ، لا تظهر قيمتها الا بقدر ما يدور في فلكها من دول صغرى .

ولكن هذا التقدم ، الذي تحققه البلاد المتخلفة اللاحقة بركب الحضارة الحديثة ، لا يعدو عن ان يكون صغيراً وقليلاً اذا ما قيس بالنسبة الى التقدم بخطا الجبايرة الذي تحققه البلاد المجهزة صناعياً وتقنياً والعريقة بمحضاتها . وهذا ما يدعو الى اليأس فعلاً ، رغم قوة الايمان ، حتى وكأن نوعاً من جبرية تفرض على البلاد المتخلفة لتبقى حيث هي ولو حاولت التقدم والرقى . وبالرغم من هذا الوضع الذي يدور في بعض الاحوال الى القنوط ، فلا مبرر للبقاء على التخلف المقيم ولا بد من السعي حثيثاً في طريق النهوض .

أزمة الحضارة

وأخيراً نصف به حضارتنا الحديثة هو أنها تعاني اليوم أزمة : فعصرنا الذي نعيش فيه تركيبي يضم عناصر مختلفة وغير متجانسة من ركام الحضارة وأفانينها في الخلق والابداع . انه عصر الكثرة والوفرة والتناقض والاختلاف والتنوع في كل شيء : في انماط الحياة ومستواها ، وفي الافكار والعقائد والمذاهب ، وفي شتى انواع التطور من قديم وحديث ، وكلها تجتمع على صعيد واحد ، في البلد الواحد ، وحتى في البلاد المتقدمة اكثر من غيرها .

واليوم ، وقد بلغت الحضارة ما بلغت ، يثور الانسان الواعي على هذه الحضارة وعلى ما خلقت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ، ويحاول أن يقيّمها ويجعل ما كان بالامس عقيدة راسخة وحقيقة مقبولة ومعطيات مسلماً بها ، موضع شك وتساؤل . ولا عجب اذا وجدنا حضارة العصر تعاني ازمة بل ازمات ، وبرز هذه الأزمات ثلاث :
الازمة العقلية ، والازمة القومية ، والازمة الاشتراكية .

الازمة العقلية ، منبعثة عن ان الحضارة بما فيها من علم وتقنية ، وما هي عليه من تلمسات عديدة في مختلف الميادين ، تحاول أن تجعل من العقل رائداً لتسير على هداه فلا تضل السبيل . وقد توصلت الى الطريقة التي تجعل الانسان سيد الطبيعة ، ونهى له جميع الأسباب التي «عقّلت» وجوده وسهلت له ظاهراً السيطرة على العالم وسلوك حياته ، ولكنها في الوقت ذاته افقدته وتحاول ان تفقده أسباب حياته وحريته . لقد اوجدت هذه الطريقة تكنوقراطيين يؤخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دوماً اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولاً مجردة ومنهجية يتحمل نفوذها ويصبر عليها . وبلغت هذه القوى كامل سلطاتها في الدول الدكتاتورية ، وتحاول ان تتسلل الى الأنظمة الديمقراطية عن طريق الحُطط ووضع المناهج وجميع تدخلات الدولة التي لا مبرر لها ، وإلحاق القيم الانسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبوروقراطيين المتعكبين . ومن هنا نخرج صرخة الضمير الواعي على العقلانية المستبدة التي تريد ان تسيطر الانسان حسب هواها وتحرمه لذة العيش كما يتصور ويريد . وهكذا ينادي الناثرون على العقل : « العالم ليس عقلاً » .

والازمة القومية ، تتجلى في الحركات القومية التي قامت في العالم

وادت في النهاية الى تشكيل دول قومية . ولكن التعصب للقومية دفع الى التوقع في الاطار الاقليمي . ومثل هذا العمل الساي لا يوضع حداً لتسلط الدول الأخرى كما لا يؤمن السلام في العالم . هذا فضلاً عن الحكومات المركزية التي تقول بتفوق الدولة تسخر لها الفرد والجماعة وتحرمها من حريتها وحقوقهما المشروعة وتحكم فيها حزباً وحيداً تصل به الحال الى افقاد الشعب معنى الحرية والكرامة البشرية .

ولقد دعا التساؤل في هذه القضايا الى الخروج على القومية والانتقال الى مرحلة جديدة وهي مرحلة الفوقية (الفوق قومية) وذلك بموجب تصعيد الحدود القومية وجمع الأمم الموجودة ضمنها في منظومة قادرة على توكيد وجودها وقوتها أمام الكتلتين الكبيرتين . وهذا مظهر في محاولات التنظيم الاوربي في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، كما في « المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي » التي تأسست في ١٦ نيسان ١٩٤٨ وتضم ١٦ دولة ؛ وفي منظمة « مجلس اودبه » الذي جعل مركزه مدينة ستواسبورغ وضم ١٥ عضواً وهدفه تحقيق اتحاد اوثق وتشجيع تشكيل رأي عام اوربي ؛ وفي « المنظمة الاوربية للفحم والفولاذ » التي اختارت مدينة اللوكسمبورغ لتكون مقراً للسلطة العليا لهذه المنظمة ؛ وفي « الأمرة الاقتصادية الاوربية » او « السوق المشتركة » ؛ وفي « الأمرة الاوربية للطاقة الذرية » أو الاوراثوم ، ؛ وفي « الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة » ، وكلها كوات تطل على عالم يتجاوز حدود القومية ويتطلع الى اتحاد اعم واوسع .

والأزمة الاشتراكية ، نشأت من الافراط في تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، بعد ان اظهرت التجربة الانسانية عيوبها وانقسامها على نفسها في الحلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفياتي

والصين ، بين نظام يريد التعلل من قيوده ، ونظام مازال في حداثة سنه وعز شدته . وتوضح هذه الازمة الاشتراكية الشجرة التي حدثت في قلب العالم الشيوعي وتعيد العلاقات التي يريد توثيقها مع العالم الغربي ، كما توضح ايضاً تطورها نحو تحقيق مغنم من الحربه مازال محدوداً وضعيفاً .

ومهما يكن من أمر هذه الحضارة فيجب الا ننكر أنها حققت ، منذ مطلع هذا القرن ، رقماً عظيماً وأعمالاً باهرة ، وآخر ما حققت نصران مبيتان وهما تطعيم القلب والوصول إلى القمر ، ولن يكون هذا النصران الوحيدين والأخيرين . وقد كانت هذه المغامرات الفائقة ، قبل سنوات قليلة ، في حيز الخيال والأحلام . أما اليوم فقد فتحت آفاقاً لا تحسد في تقوية الأعضاء المتضررة أو البالية المتوهنة ، وفي المواصلات الحرة عبر الكواكب بفضل العلم الحديث والتقنية الحديثة المتجددين دون انقطاع . وان العقل الالكتروني يؤكد لنا عن يقين بأن تسارع التقدم ، وهو صفة مميزة لحضارة العصر ، أبعد ما يكون عن بلوغ حدوده القصوى ، لأن البحث العلمي الدائب المستمر ، بما لديه من عقول بشرية وأدمغة الكترونية ساعد على القفز فوق الحسابات العادية المملة ، وسار بالانسان خلال جيل إلى الأمام في معرفة الكون والعالم بما لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين . ولعلنا نتساءل بعد هذا عن المفاجآت العديدة التي ننتظرها في العام ٢٠٠٠^(١) . لقد بلغ المجتمع البشري في الشعوب الطليعية النمو مستوى الرفاه

(١) راجع في هذا الموضوع :

Hermann Khan et Anthony J- Wiener, L'An 2000, Robert Laffont, PARIS , 1968

Alvin Toffler, Future Shock, Pan Books, London, 1970

والأمن والوفرة ، ونعمت الأكتوية الساحقة في هذه الشعوب بما لم نعلم به في عصر سابق . ولاشك في أن مجتمعات بشرية أخرى مازالت تعتبر محرومة ، ولكن ما نجد تحت تصرفها وفي متناول يدها من نعم الحضارة الحديثة وخيراتها يفوق أضعافاً مضاعفة ما كان ينعم به الأمراء الاقطاعيون في العصور الوسطى ، والبورجوازيون في القرن الفائت . وإذا قارنا تحسين شروط الحياة في عصرنا الحالي بزيادة متوسط عمر الانسان ، وقبلنا أن التقدم يتفاوت حسب البلاد وحسب الشعوب ، فالتقدم أيضاً أن التقدم حاصل في كل مكان بل وفي المناطق المحرومة ، وأن هذا التقدم قد تسارع كثيراً في مختلف الميادين نحو مزيد من النعيم والسعادة وطول العمر والفراغ وتحدي الطبيعة والموت ، وفي سبيل مساواة أعظم وتوزيع للخيرات أشمل . وأصبح معروفاً بالبداهة أن هدف هذه المجتمعات الحديثة ليس الوصول الى الحد الأدنى من الحياة ، بل بلوغ المزيد والمزيد المتسارع دوماً وأبداً ، ويتساوى في هذا السباق العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي ومادام الامر كذلك فهل ينتهي السباق إلى لقاء بني البشر على صعيد واحد تذوب فيه العقائدات ويصبح البشر أقل تعصباً لمذاهبهم ، وهي في حقيقةها وسائل لبلوغ المني ، ولا تناحر بعد اليوم !

اختصار آراء في النظر الى حضارة العصر

ولكن الحضارة ، على ما قدمت وأحرزت ، مازالت موضع شك . ويعتقد بعضهم بأفلاسها ، وعدم قدرتها على منح الانسان الكرامة والشرف . ولاشك في أن هذه الضجة القائمة حول حضارة العصر لم تلق صداها لولا أنها عبرت بنفسها عن القلق الذي يخامر النفوس ، لان هذا القلق ناشئ عن التقدم ، رغم مرعة هذا الاخير المتزايدة ، وبسبب هذه السرعة نفسها . والانسان المعاصر يشعر بعد هذا بتبعيته لانتاج الخيرات المادية واستهلاكها

ولذا بتملكه القلق والتبرم عندما يرى نفسه مكبلاً بهذه القيود والعوائق. وبرغم أن التقدم العلمي والتقني والاقتصادي حل العظم من مشاكله ويجاول أن يحلها بشكل أسرع ، فإن هذا التقدم نفسه يخلق للإنسان مشاكل جديدة ويضعه أمام صعوبات وتحديات لا يمكن التنبؤ بها . وهو في كل يوم أمام تغيرات أوسع وأكثر تعقيداً . ولا يسكاد يستقر حتى تتدخل تغيرات أخرى تعترض سبيله فيحاول التكيف معها أيضاً . وهكذا يظهر تأخره عن تقدمه ، وهذا التأخر آخذ بالتزايد . ومن الاخطار الجديدة الناشئة عن تسارع التقدم قضية استئناس الذرة والنتائج الخطيرة التي تترتب عليها في الحال والاستقبال على مصير البشرية والارض .

وهناك قضايا أخرى أساسية لا تتعلق بظاهرة خاصة بنتائج التقدم ، بل بقانون التقدم نفسه ، كزيادة عدد السكان وضرورة اطعامهم وإقامتهم بعد أن أشارت التنبؤات إلى أن عدد سكان العالم سيصبح ٧ مليارات في العام ٢٠٠٠ . وهذه المدة كافية للوصول الى رقم لا يبقى فيه على سطح الكوكب موطن لقدم انسان . وقد يقال ان الارض إذا استغلت استغلالاً عقلانياً أمكنها أن تغذي سكانها الحاليين بل وسكاناً أكثر منهم ، وأكثر من ذلك إذا استخدمت الموارد الاوقيانوسية والموارد الشمسية ، ولكننا نجدنا أمام حد لسكنى الكوكب لا يمكن تجاوزه . وهذه القضية مازالت موضع تساؤل ونقاش ، ولم يبت بها نهائياً .

كذلك يضع ثبات السكان قضية طول العمر والشيخوخة المديدة والتنافس بين الآباء والأبناء ، والأجيال القديمة والجديدة ، ويتعقد تزايد حاجات الاستهلاك العام والاستهلاك العددي بحسب الرأس ، لأن تزايد الاستهلاك يعتبر صفة مميزة للمجتمع الحديث وتبريراً لجهده نحو التقدم . ولعلنا نتساءل ماذا يمكن ان تكون في العام ٢٠٠٠ ، على

سبيل الفرض ، حاجات الاستهلاك لسكان الأرض وقد بلغ عددهم سبعة مليارات نسمة ووصلوا الى مستوى حياة الولايات المتحدة حالياً ؟ لقد فكر بعضهم باستعمار الكواكب الأخرى ، وليس الوصول الى القمر الاظاهرة من هذا التفكير . واذا فرضنا ان هذا الاستعمار مشعر ، فان اقرب الكواكب البنا ، وهو الزهرة ، على ٤٠٠ درجة حرارة منا ؛ وان المريخ دون مولد حموضة (او كسجين) وغير صالح لحياة الجسم الانساني بشكل طبيعي ، فما بالننا بالكواكب الكبرى البعيدة والكواكب الأبعد منها حيث تقترب الحرارة من الصفر المطلق ، وبكون الآزوت سائلاً والتناقل اعظم من ثافل الارض بمئات المرات . اما منظومة الكواكب الأخرى فان المسافة بينها وبيننا تقاس بالسنين ، ان لم تكن بمئات السنين النورية . وهذا يعني ان اسرع السفن الفضائية التي يمكن تصورها للوصول اليها يتطلب حياة اجيال واجيال ، بما يعادل ٤٠ عاماً على سفينة سوبر أبولو اسرع بعشرة آلاف مرة من أبولو التي نزلت على سطح القمر .

ومها تكن هذه الأقوال والتصورات والمنظورات فلا نعتقد أن التقدم والتوسع قد استنفدا غاياتها ولفظا انقاسها ، فلديها من السرعة والتسارع ما يجعلنا ننتظر او تنتظر الاجيال المقبلة منها فتوحات جديدة ، وانتصارات مينة ، ومكاسب حقيقية تنكشف امامها مكاسبنا الحقيقية منها والوهمية . لأن لغز الحياة لما يحل ، ولأن العمل البشري لما ينته ، ولأن القافلة الحضارية مازالت تغذ السير نحو آمال واحلام بغير حدود .

وبعد فما هو موقف الانسان أمام معطيات حضارة العصر ! ان الفلسفة والأدب والفن التي ظهرت بعد ١٩٤٥ تشيد كلها بقيمة الانسان وجهده وموقفه الحر وارادته وحرية التي يكتشفها في الخبرات التي

تنتزعه من كل ماضيه ومن كل ما يعتقد بأنه كان كائنة ، والتي تؤلف وجوده الخاص . وان الانسان يشعر بضرورة اعادة نظر في كل شيء وطرحه على بساط البحث من جديد . وان التقاليد بقديما وحديثها قد اهتزت عروشها بقوة ، وان ظاهرة العصر الحاضر تريد قبل كل شيء ان تعطي الانسان ، واشقى انسان في الناس مكانه الحقيقي وكرامته الحقيقية وعظمته الثمينة التي لا تقدر . وان افضل النظم واحداثها ليس لها الا قيمة نسبية ، وليست اقوى من الناس الذين يضعونها . فمن الممكن مثلا اقامة السدود ضد الفيضانات المهددة ، واصلاح الحق العام ، وتعزيز الاستقلال ، وتجديد الطرق التشريعية ، ولكن كل هذا يظل غير كاف ، ولن تكون له قيمة الا اذا اعتمد على أساس روعي واخلاقي متين . لأن هذا الأساس وحده يمكن ان يعطي الانسان الحر القوة التي تساعد على انهاء مشاكل العصر الذري والثورة التقنية . وفوق كل شيء يجب الاهتمام باقامة النظم التي تحمي حرية اختيار الانسان لمن هم احياء يعيشون معنا او للذين يأتون في المستقبل ويرون القضايا بشكل مغاير لنا ، لئلا يكتشفوا اننا استنفدنا ، من غير نفع ومجنون ، امكانيات اختيارهم وافسدنا عليهم محيطهم الطبيعي والاجتماعي . ولن تكون للحضارة قيمة الا اذا صانت كرامة الانسان وساعدته على التحرر . وان من حق كل انسان ان يثور لحريته وكرامته . واذا ثارت الشبهة الجامعة في هذا العصر فلأن لها مطالب عادلة تريد تحقيقها : لقد وجدت نفسها محرومة من كل أمن على مستقبلها بعد ان تبددت اوهام الماضي ، وثارت على الآباء والاساقفة . ولن تبدأ هذه الثورة ، التي ستكون ثورة عارمة وعامة ، الا بالمزيد من الحرية والتحرر من قيود الماضي البغيض والحاضر الأليم .

واخيراً ، هل تخلق حضارة العصر لنا السعادة ؟ أو بتعبير آخر هل نجعلنا سعداء ؟ لاشك في ان الحضارة المعاصرة ، بمآثيها العلمية والتقنية ، استطاعت ان تقدم خدمات جلي لبني الانسان لاسيلا لنكرانها ، ولكنها في الوقت ذاته حملتهم اعباء كثيرة . وفي الحقيقة ان السعادة شيء معنوي ، وهي بالاجمال حالة فكرية وعاطفية عامة نجعلنا نشعر بأننا سعداء ، أو نوهم انفسنا بأننا سعداء ، ونحن راضون بهذا الوهم . انها منا وفينا ، لأننا نحن الذين نخلق سعادتنا بأيدينا وبأعمالنا واحلامنا وتطلعاتنا . وسعادتنا الحالية تصبح رتيبة بعد حين فلا نشعر بها ، وقد نمجها بعد أن نألفها ، ولذا « فالتحول المفاجيء الذي هو أساس حضارة الغد ، لا يمكن الا اذا ظهرت في الافق طريقة جديدة لنوال السعادة ، أو اذا فتح باب المستقبل نصف فتحة على زاوية جنة »^(١) . على ان الأمل بالسعادة هو السعادة اكثر من السعادة نفسها ، أو إن السعادة في تغييرها الدائم .

« ان الحضارة « التقنية » ترقي حلة انسانية من حيث انها تريد ، على الأقل ، ان تكون حضارة السعادة . ولعل في وسعها ، أخيراً ، حين تتخذ هذا المهرب رسالة على مر الأيام ، ان تخلص وتقربنا من الفردوس . وفي وسعنا دوماً ان نناقش السعادة التي تصنعها الآلية ، او بالحري ، ان نناقش حتى الحافها على ان تتقدم اليها في حلة تبرير أعلى يجعل المسألة أشد استعجالاً . انهم يرفعوننا على الابحار في سباق السعادة . ولكن لا يزال من شأننا نحن ان نرى نقائص ذلك أو محاسنه ، وفي مكنتنا ان ننظر الى « ما وراء » ونحتفظ بقلوبنا مفتوحة على فتنة الفردوس السرمدية »^(٢) .

(١) راجع : جان كزوف ، السعادة والحضارة ، ص ٢٨٦ ، ترجمه وعلق عليه الدكتور عادل العوا ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢ م .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٨٧ .

الفصل العاشر

تفسير عصرنا

عصرنا تركيبي مؤلف من عناصر مختلفة جداً ومتفرقة غالباً : هذا أقل ما يمكن ان يقال فيه . فمنذ عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر ، بل وحتى بداية القرن التاسع عشر ، نجد ان طبقة اقلية ، ولكنها متفوقة بالثقافة والتربية وممارسة الأعمال ، طبقة ارسقراطية متجمعة حول ملك تقوم باعباء جميع السلطات في جميع بلاد اوربه ، وتؤلف على هذا النحو مجتمعاً ، عاماً ، له اخلاقه وعاداته وعقائده . فعندما استقبل لويس الرابع عشر ، التركي العظيم ، كان يستقبل أحد أمثاله ، وجلاً من عالمه . وفي أيامنا هذه نجد ، بالعكس ، على جميع القارات ، طبقات مختلفة السكان ، من الاكثر مدنية حتى الاكثر خشونة ، جماهير شعبية مختلفة منتسبة الى أعراق أو مشكلة وثقافة بايديولوجيات مختلفة ، تحسك زمام الأمور او تتطلع الى الاستيلاء عليه : ان كفاف الكادحين يتداخل مع كفاف البلاد البورجوازية ؛ ومزاعم الدول التي تخلصت حديثاً من الاستعمار تتداخل مع مزاعم الدول التقليدية الكبرى ؛ وقد أصبح في الغالب قتل شعوب بكاملها او إلحاق دول مستقلة حديثاً بها ختاماً للمنازعات القديمة ، المنازعات التي لم تحل مطلقاً وكانت في القديم تحرك دوائر الدول بحثاً عن اتفاقات دبلوماسية او حلول دقيقة .

وليس الناس الذين يعيشون في زماننا معاصرين الا في الظاهر .

-٤٣٠-

فهناك اقوام خرجت منذ عهد قريب من اكل اللحوم واخذت تلتقي في المجالس الدولية بممثلي الدول الكبرى بمن يمكن ان يكونوا من أكلة النباتات . وامكن لمثلي الشعوب المتخلفة الوصول مباشرة الى رئيس الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي : وهنالك افكار ومصالح وسياسات وآراء متضاربة تتلاقى وتتصادم ، وتتفاهم احياناً وتتنازع احياناً أخرى ، في مزيج مضطرب وغير متجانس .

أزمات عصرنا الثورات

ويحدث ايضاً في داخل كتلة واحدة من الدول ، الرأسمالية أو الشيوعية ، ان بعض البلاد المشاركة ليست في مرحلة واحدة من التطور ؛ ففي مسار التحرير المطابق للتطور الطبيعي للماركسية ، التي عرفتھا الديمقراطية الشعبية ، يرى أن الصين ، التي يرجع تاريخ ثورتها الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، متأخرة عن الاتحاد السوفياتي الذي قام بثورته اثناء الحرب العالمية الاولى ، واكثر تأخراً ايضاً عن رومانيا أو بولونيا مع العلم ان بنيتها الشيوعيتين أقل رسوخاً وتخضعان الى اعادات نظر سريعة .

وكذلك ، في البلاد الحرة ، في الديمقراطيات الغربية ، نجد أن المسار الذي يؤدي من القومية الى الفوقية اكثر تقدماً عند بعضها ، مثل دول البيلياوكس واكثر تأخراً عند أخرى ، مثل فرنسا الجنرال دوغول ، وهذه الدولة تلعب دور الحرس الحلفي الأوربي وتنصوّر بانها اكتشفت ايدولوجيا اوريه التي تسمى « اوريه الأوطان » التي يرجع تاريخها في الحقيقة اما الى اليعقوبية ، من زمن الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ ، مع هذا الشعار : الدولة واحدة ولا تنقسم ، واما الى مبدأ

القوميات الذي تدين به تبعاً الى كافور وموسوليني، وكذلك بسمارك وهتلر ، دون نسيان جوزيف ستالين .

وكذلك ايضاً يظهر تدخل الولايات المتحدة في فيت نام في غير أوانه بالنسبة لتطلعات بلد تزعم حمايته ضد الخطر الشيوعي ، وثانيه ، عن حسنية ، أو عن خلفية ، بذهب سيامي ، الحرية الليبرالية، ومذهبها ويتفق مع حاجات تحرير الشعوب الأكثر تطوراً في آخر القرن الثامن عشر أو في منتصف القرن التاسع عشر . ولكن الكلام في عصرنا ، عن الليبرالية السياسية او الاقتصادية الى شعوب ، مثل شعوب جنوب آسيا ، تنقصها التقاليد ، يعني كما لو اقترح محروق عال الى هربة ملوك عاطلين عن العمل ، لتنشيط سيرها ، او كما لو اريد تركيب محرك نفث على منطاد مونغولفيه (١) او على طائرة بليريو (٢) .

ان الامريكين ، الذين يعتقدون بأنهم يريدون ان يفيدوا بطرقهم الرأسمالية والسياسية الحديثة شعوباً مازالت تستعمل تقنيات بدائية ، يجدون انفسهم ، بالرغم من تقدمهم ، في تأخر عن الحالة الواقعية التي هي حالة زماننا . والشعوب المختلفة ، التي تتوصل اليوم الى الاستقلال ، يجب التعامل كالبلاد المتطورة في منتصف القرن التاسع عشر ، وانما كبلاد جديدة ، كبلاد كادحة ، كالتى انتج منها جملة "الثلث الثاني من القرن العشرين . واذا كانت الولايات المتحدة تعتقد بأنها في طليعة التقدم ، انما هي في الواقع ، متأخرة بثورة أو ثورتين .

وهكذا ، في جميع علاقات عصرنا الدولية ، تتواجد موضات فكرية

Montgolfer (١)

BLERIOT (٢)

لايعاصر بعضها بعضاً ، أو ايدولوجيات ليست في درجة واحدة من التطور .

ان جميع الأزمات التي عانها الانسانية منذ آخر العصر الوسيط ، وجميع الثورات ، منظمة كانت أو سياسية ، التي عرفنها تعود فنشأ هكذا في أيامنا . والشئ الخاص بزماننا هو انه يعيد طرح كل شئ على بساط البحث ، وليست القضايا الخاصة به فحسب ، بل وايضاً المناقشات الازلية التي غذت في كل زمن ثورات الفكر وثورات المجتمع ونذكر منها ثلاثة أمثلة :

الثورة الكارثيزية (ثورة ديكارت) ، التي يعتقد بأنها ادت قطعاً الى صياغة العقل العام ، في آخر القرن السابع عشر ، هي في صنع جديد دون انقطاع ، لأنه يوجد دوماً مناطق في النفس تنبج منها ومناطق استيطان بدائي لم تنفذ اليها في الماضي . وعندما تفتح واحدة منهم اليوم استقلالها أو تصبح واعية ذاتها وشخصيتها ، يلزمها اعادة كل شئ ؛ يلزمها اعادة اختراع كل شئ في استعمال العقل ، كما في الزمن الذي عارض فيه غاساندي مؤلف كتاب « مقال في الطريقة » أي ديكارت

والثورة اليقوبية لمبدأ القوميات ، التي يمكن أن ينصور انها باستقلال ايطاليا في (١٨٦٠) وتوحيد المانيا في ١٨٧١ قد بلغت آخر أهدافها ، هاهي ذي الآن موضوعة موضع اهتمام بنمو الاتحادية الأوروبية ومبدئها في القومية .

الثورة الاشتراكية التي يمكن ان يعتقد ان ظفر افكار كارل ماركس على أفكار الاشتراكية الفرنسية ، بعد ثورة قومون باريس ، في ١٨٤٨

- ٤٣٣ -

١٨٧١ ، وقيام الشيوعية في روسيا وفي قسم من الكرة ، قد ألقاها نهائياً ، هاهي تبدأ من جديد ، بسبب المنازعات المفتوحة في داخل الكتلة السوفياتية التي يجب عليها مبدئياً ، ان تؤمن بمجانستها .

وهكذا ، لم يبت بشيء . والحياة تهرأ دوماً بالتراكيب الاصطناعية التي يفرضها العقل المسيطر على الناس . ونحن على وجه الدقة في فترة تاريخية تتفجر فيها جميع المذاهب والنظم ، وتنشأ فيها جميع الخلافات ، وكل شيء فيها من التقنية الى الايمان موضوع اعادة نظر على بساط البحث .

ولمحاولة الاتجاه في مثل هذا التناثر ، واعطاء المفتاح ، أو بالأحرى المفاتيح التي تسمح بالدخول في كثير من الحالات المختلفة وفي كثير من الطرق المسدودة الظاهرية ، يجب أولاً ان نذكر الازمات الأساسية الثلاث التي تمتد اليوم ، عتبات العالم الحديث الثلاث التي أصبح ، انطلافاً منها ، على مناواه الآن .

أرضة العقل

لقد وجد اذنت ثلاث ازمات مهيمة للأزمة الحديثة تمتد الواحدة الأخرى ، وتتداخل الواحدة في الأخرى ، مهيمة الحالة التي يوجد عليها العالم اليوم .

تصعد الاولى الى القرن السابع عشر ، ولم تبدأ منذ زمن طويل : ولقد كان ديكارت اصلاً لها . فمنذ اللحظة التي وجد فيها هذه العبقرية الاستثنائية للعقل الطريقة التي تسمح له باستعمار العالم وصيافته ، لحد ما ، حسب هواه ، زاد رهان مناقشاتنا الفكرية بشكل غير محدود . وحتى ديكارت ، كان الصواب والخطأ ، طبيعيين أو ميتافيزيقيين يجدان بخاصة مؤيدتهما في قضايا عصرنا (٢٨)

الاضطراب الذي يأتيان به الى داخل نفوسنا ومصائرنا الفردية، ولكن ما كان ليفهم ايضاً ان من الممكن صنع ثورات مع ارض « مبادئ » ولا تقدير العقيدة السياحية للانسان حسبها يصرح اولاً يصرح بأنه متفق مع فلسفة ، حسبها يقبل اولاً يقبل مسعى جديلاً . فعندما يقرأ الانسان ، مثلاً ، حياة القياصرة لمؤلفها سويتون (١) ، او حكم ملوك فرنسا ، يعجب اذ يلاحظ كيف ان الابدولوجيا مفقودة في فن حكمهم . لقد كان العرف والحس السليم المبدئين الملهمين عندهم ، ولم يؤثر أي اعتبار نظري بالنسبة اليهم على مجرى الحوادث .

لقد بدأ ديكارت ، مثل باسكال تماماً ، باعجاب شديد ، ولكن من موضوع مختلف جداً كان عمره ثلاثة وعشرين عاماً ، وربما كان ، ليلة ١٠ تشرين الثاني ١٦١٩ ، التي قضاهم به ثلاثة احلام متتابعة ، اقل كارتيزية مما كان في ادوار حياته . ولاشك ، وهو قائم ذلك اليوم بين مغيب انسانية شاخت وفجر علم جديد بعد ، ان فكره كان مأخوذاً بحاكات عقلية وحسابات . ونام ومفعماً بحماسة ومشغولاً بفكرة وهي انه وجد أسس العلم العجيب . وحمل ، في نفسه ، صراً لا يفسر ، ولكنه حاضر ، سر التقنية التي يتعلق بها وحدها خلال ثلاثة قرون تقدم علمنا النظري وتقدم الصناعة الحديثة . ومن المؤكد منذ الآن ان بالامكان تسيير الامواج الصاخبة والطاغية في الفكر البشري ، لفتح العالم بشكل أفضل . وتصور طريقته . وهذه اللحظة الحاسمة ، في حرارة الادراك ، في قلق الولادة المحرر ، حيث خرج العقل الحار اللاهت من العتبات السكولاستيكية (الفلسفة المدرسية) ، تؤلف بالنسبة لعلماء وتقنيي المستقبل ، وبالنسبة لجميع النظريين وأصحاب المذاهب في

عصرنا ، حتى الملحدين ، وحتى الواقعيين ، أصل عبادة جديدة ، غير محسوسة ، باردة ودقيقة ، ولكنها تنقل إلينا جاذبيتها وسهولاتها ، ويدركها أكبر عدد من الناس .

ولدت الطريقة كضربة الصاعقة . وولدت في مناخ مازال سابقاً لديسكارت ، في مناخ ، حتى القرن السادس عشر والسنوات الأولى من القرن السابع عشر ، كان فيه الناس ، في نطاق عقلي بعيد جداً عن نطاقنا ، وبحساسية بعيدة جداً عن حساسيتنا ، يجابهون العالم والحياة في فكر مختلف جداً .

ولادراك أن العتبة تؤلف السكارتيزية ، على حافة العالم الحديث ، ولادراك التغير الجذري الذي تفرضه على أنماط التفكير والاحساس والعمل ، ولادراك التحويل العميق الذي تثيره ومازلنا الى اليوم نتحمل آثاره بعد ، لنقرأ مع لوسيان فيفرو هذه الصورة العقلية العظيمة للانسان السابق لديسكارت ، انسان القرن السادس عشر ، التي تسمح لنا بأن نفهم بشكل أفضل بالتباين ما نحن مدينون به إلى الطريقة ، في الخير كما في الشر ، وما تأتي به وما تأخذه اليوم أيضاً من أكثر الناس تطوراً بيننا ^(١) .

كان انسان القرن السادس عشر أقل منا اهتماماً بالمكان ، وأقل صرامة بالتعبير ، ولم يلق مثلنا ، في دوامة العالم ، المرساة السميكة وأحياناً الغليظة للعقل الهندسي ، ويمتاز بزاجه غير المستقر ، وسلوكه العنيف ، ولكنه كان يشعر أكثر منا ، نحن المفعمين باليقين السكارتيزي ، في كل لحظة بأنه يقامر بالكل في سبيل الكل وأنه يخاطر بسلامه : د ان عنفهم وطيشهم ، وقلة دفاعهم ضد انطباعات الخارج ، وحركة مزاجهم الفائقة ،

LUCIEN FEBVRE, Le Problème De l'incroyance au (١)
XVIS iècle .

هذه العجلة العجيبة في الحلق والشم . ثم في العناق والملاطفة . . . انهم ليسوا مشمزين من كل شيء . لا . . . بل أناس بسطاء يستسلمون دون قيد أو ضبط ولكننا ، نحن ، نكتب .

وهذا التباين شبه مطلق : « وبين أشكال حس وتفكير وكلام الناس في القرن السادس عشر وأشكالنا ، لا يوجد في الحقيقة مقياس مشترك . نسلسل ويترددون . وأن أجيالاً ، منذ القرن السابع عشر وديسكارت ، قدمت وسجلت لأجلنا ، وحلت ، ونظمت المكان . ومهرتنا بعالم مقرر ، فيه لكل شيء ولكل كائن حدوده المحدودة تماماً . وان أجيالاً ، منذ العصر نفسه ، عملت على أن تجعل من الزمان ، المحدد شيئاً فشيئاً بوضوح ، اطاراً قاسياً لنشاطنا . وكل هذا العمل العظيم ، في القرن السادس عشر ، قد كاد يبدأ منذ عهد قريب . »

وكل هذا « العمل العظيم » سيؤدي إلى تغييرات في جميع أوجه النشاط التي يتحرك فيها الانسان الحديث .

ففي الطريقة وفي كبرياء الاكتشاف والفتح صاغ ديسكارت « املاء » حقيقة للعقل العلمي على العالم وعلى الطبيعة ، عدواناً حقيقياً على حياة الحلق والابداع وهو مقتنع بأن الطريقة تجهز الناس بالواسطة التي تجعلهم سادة الطبيعة ومالكها ، وهذا مبالغ فيه . وهو يؤكد ، ما هو أكثر أيضاً ويس حدود الافراط البشري ، وتجاوز الحد العلمي ، أي أن « قواعد الميكانيكيات . . . هي نفس قواعد الطبيعة . »

ها هو ذا ، بهذه العبارة ، بجرأة فائقة ، وبادعاء لا يمكن دمه ، الطريق المفتوح نحو اغترابات الحياة ، في جميع ميادينها ، التي نعرفها الآن ، في هذا العصر ، عصرنا الذي نعيشه .

ان جميع الميكانيكيات ، وجميع التقنيات ، وجميع المذاهب التي

نقول عنها اليوم انها تنزع إلى تعقيل وجودنا ، وكل هذه الطرق التي تسهل في الظاهر سيطرة الانسان على العالم أو على سلوك حياته ، مع العلم أنها تفقده في الغالب أسباب حياته ، خرجت من هذه العبارة . لقد قنباً بها ديكارت ، وشعر بها ، وشارك بها سلفاً بعبارات لا ينكرها الكنوقراطيون اليوم . والأمثلة ؟ يوجد منها الكثير الذي يظهر ، جرعة جرعة ، في هذه التنبؤات عن زماننا الذي يرجع تاريخه إلى أكثر من ثلاثة قرون . فهو يتنبأ ويحذ ، العمران الحديث ، مع ترجيع المدن المنشأة على مخططات وعلى رسوم حسب مقياس معطى ، على المدن التي قنباً عفويّاً على سياق العصور . وهذه المدن لم تكن في البدء إلا قرى صغيرة ثم أصبحت مع توالي الزمن مدناً كبرى . ومن هذه الأصول ، تحتفظ دوماً بعيد ، وحتى إذا كان لدورها في الغالب من الفن ما لغيرها أو ما يزيد عليها ، يقال بأن ذلك يرجع إلى الثروة (الصدفة) على الأرجح أكثر من ارادة بعض الرجال الذين يستعملون العقل الذي نظمها على هذا الشكل ،

وبعد سكن الناس ، تأتي حكومتهم . وباعتبارها سلفاً للعاقبة ، توصي بدستور صالح يسجله المشرعون لينوب مناب الأعراف التي نشأت تدريجياً من متطلبات الحياة في المجتمع . ونقول هذه الحكومة ان الشعوب التي خرجت قوانينها تدريجياً من الأعراف تكون أقل حضارة من الشعوب التي راعت ، منذ أن تجمعت في البدء ، دستور مشرع عاقل فطين . وفي هذا ما يفرح جميع أعضاء الجمعيات التأسيسية الذين ملأوا منذ قرن المجالس الاوربية الديموقراطية أو الجمعية (الدكتاتورية) ، ولكنه يزعم بلداً ، كبريطانيا العظمى ، يأتي توازنه الدائم من الحفاظ على العرف .

وهكذا كان ديكارت مدافعاً سابقاً عن الـ H.L.M. الجاهزة الصنع ضد المساكن الفردية أو العمائر ضد القرى ، والقانون المكتوب ضد روح

الابداع . وقد هباً ديسكارت لنفسه ، دون أن يريد ولا شك ، خلفاً فريداً من التكنوقراطيين والأفكار المجردة الشاملة الذين نعرف سيطرتهم اليوم ونحملها . ولقد بلغوا كامل سلطاتهم في الدول الجمعية ، ولكنهم يتسللون أيضاً إلى الأنظمة الديموقراطية بواسطة جميع الخطط وجميع تدخلات الدول التي لا مبرر لها ، وبالحاق القيم الانسانية والروحية بتكنوقراطيات أو بيوروقراطيات

ومن هنا تخرج العتبة الاولى للأزمة الحديثة ، وهي الثورة السكارتية كعلامة مهدد ضروري لفهم الأزمات التي يتخبط بها عصرنا .

أزمة الوطنية

وبعد أزمة العقل ، تأتي أزمة الوطنية . والوطنية في فرنسا ، كما في كثير من بلاد أوربة ، عاطفة قديمة جداً ، ويمكن الصعود بظهورها الأول العام إلى زمن جان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) ، وتضمن وحدة عواطف وثقافة وفي الوقت نفسه احترام الحقوق المحلية أو الملكية التي يراود حمايتها ضد التهديدات الخارجية وضد طغيان سلطة مركزية قوية جداً ، أو ضد ضغوط القوى الاقتصادية أو المالية التي تسعى استئصال سلطتها . وربما كانت الملكية ، حامية القومونات والأصناف المهنية ، في زمن لويس السابع والقديس لويس ، من الأنظمة التي تحمي بشكل أفضل حريات الفرنسيين ، في نطاق وطنية عامة مشتركة ولا تطغي على الاستعدادات الخاصة للمناطق والمهن والناس . ولا شك في أن الملكية المنتهية ، بعد أن حضرت مع ريشليو وبلغت في عهد لويس الرابع عشر أوجها بواسطة دولة كانت قريبة من سقوطها في وقت بدت فيه أكثر وجاعة وأكثر صرامة وأكثر صلابة ، قد سقطت في القرن الثامن عشر في الفوضى وعدم الدقة في مركزية سيئة الصنع . وهذه

المغامرة الأخيرة التي تصور مسبقاً الكثير من الاخريات في بلاد عديدة يجب الاتقسي أن الملكية بحثت عن الحريات بتوازن الأقاليم وأن الوطنية كان يعبر عنها باحترام الحريات في نطاق الحريات المحلية والحريات المسلكية .

وفي بداية الثورة الفرنسية ، حصل الشيء نفسه ؛ فقد كان الاتجاه الاول للوطنيين ، الذين كانوا يقومون برد فعل ضد مساوىء المركزية السبئية الصنع في النظام القديم المنتهي ، بالعكس ، أن يوازن السلطة المركزية بالسلطات المحلية : كعيد الاتحاد ، الذي سجل ، في ١٤ تموز ١٧٩٠ ، الذكرى الاولى لليوم الأول للثورة ؛ - وكان ابداعاً عفوياً ، منذ ١٧٨٩ ، لهيئات اقليمية مكلفة ، بتفاهم مباشر بين مناطق متجاورة ، دون الرجوع إلى المركز ، بتسوية كل المسائل التي تهم معاً هذه الدوائر المحلية .

ولزم انتظار الحرب الخارجية ورد فعل الدفاع الصحي ، بل الخطر ، الذي قام به اليقاقة ، ليتضح مفهوم « الأمة واحدة ولا تنقسم » بوسائل الدولة ، بوسائل جمعية دكتاتورية . وهكذا نوضعت على الوطنية ، العاطفة القديمة والمحترمة للحريات ، القومية التي تنكرها والتي كان ظهورها أكثر حداثة .

وفي الحقيقة لم يظهر تعبير القومية الا في ١٨٢٣ ، في الطبعة السادسة لـ « القاموس العام للغة الفرنسية » الذي وضعه بواس (١) ، مسبقاً بعلامة النجمة التي تدل على الكلمة الجديدة . وفتحت ازمة الوطنية : ولاقت عدواً يستحيل تعديله ويتسكاث في داخلها . وفي الخارج ، أكان القصد ضغوطاً اجنبية تمارسها الدول الأخرى او قوى مركزية متأية عن السلطة المركزية ، انكسفت الوطنية لصالح القومية التي لم تكن بالنسبة لتلك الا تصلباً ، وصورة هزلية ، وفي الغالب انحرافاً .

ويساء تصور كيف كان العقد ١٨٦٠ - ١٨٧٠ حاسماً لتاريخ البشرية

وتحضير مصائرنا الحالية ، ولا كيف كان يعني بان يكون كذلك .
لقد كان العصر الذي كانت فيه آخر البلاد التي لم تتشكل بعد ،
وبخاصة ايطاليا والمانيا ، تتورد في الوسائط التي يجب أن تستخدمها ، في الاشكال
التي يجب أن تتبناها لتحقيق وحدتها . فهل تتوصل اليها بمفاوضات سلمية أو بالحرب ؟
وهل تنجز هذه الوحدة بشكل دولة مركزية أو بشكل اتحاد ؟ ان مبدأ
القوميات ، الذي اثار ظهوره في السياسة الاوربية مثل هذا النقاش ، ايقظ
لدى المعاصرين انعكاسات مختلفة : لقد قيل بأنهم كانوا يتنبؤون باسءاء الاستعمال
التي ستقوم بها آجلاً ، والتي مازالت تقوم بها في أيامنا هذه
الامبريالات المختلفة . وقد كتب الكاتب البلجيكي ، ايميل لافيليه (١) ، في
١٨٦٨ ، هذه الأسطر المتنبهة : « انني اعترف بأن الأمر لا يخلو من هيجان
شديد عندما أتناول قضية القوميات . واني لمقتنع بأنها ستساعد قطعاً على
تقدم الحضارة ؛ ولكنها تدفعني هماً وأحياناً قلقاً . انها تهزأ بالمعاهدات ،
وتقضي على الحقوق التاريخية ، وتطرح اللبس والفوضى في الدبلوماسية ،
وتهز جميع الاوضاع ، وتندثر جميع المصالح وربما تثير الحرب
العالمية غداً . »

وبعد عامين جعل ارنست رنان (٢) لهذا القلق صدئ في « مجلة العالمين » ،
في وقت تفاقمت فيه تهديدات الايديولوجيا القومية بالنسبة لقونسا . ففي
مقال عن الحرب بين فرنسا والمانيا ، في تاريخ ١٥ ايلول ١٨٧٠ ، كتب :
« ان مبدأ القوميات المستقلة ليس من طبيعته ، كما يفكر الكثيرون ،
أن يخلص الجنس البشري من الحرب : بل بالعكس ، لقد خفت دوماً ،
مبدأ القوميات ، اذا ما حل محل رمز الشرعية اللطيف والابوي ، أن يقلب نزاع

EMILE LAVELEYE (١)

ERNEST RENAN (٢)

الشعوب إلى إبادة الأعراق ويطرد من قانون حق البشر هذه المجاملات ، هذه الأمزجة التي قبلتها الحروب الصغيرة السياسية. والسلاية قديماً .

لقد تنبأ لافيليه ورونان بأن توسع الحروب وتفاقمها سيكونان نتائج مبدأ القوميات ، هذا المبدأ الذي هو من وحي يعقوبي وبورجيه تتألف كل أمة بشكل دولة وحيدة ، وسلطة سياسية وحيدة ، ودولة مركزية . وإذا دفع هذا المبدأ إلى اقصاد ، أي إلى اللامعقول ، أو إلى المأساوي والمفجع ، أدى تبعاً إلى القومية وإلى هذا الشكل الشديد المفرط المبالغ فيه والشنيع الذي يسمى « الجمعية » (١)

فعندما فرض هتلر كشعار لألمانيا هذا التوكيد الثلاثي للوحدة : « شعب واحد ، ربيع واحد ، زعيم واحد » ، وضع نفسه بالضبط في خط مبدأ القوميات الذي شجبه لافيليه ورونان . واكثر من هذين الكاتبين ايضاً ، واكثر منها وضوحاً وعنفاً ، كاتب تنبأ بالكوارث التي تنبؤه فحوها اوريه ، وما زالت تحياها . هذا الكاتب هو النظري الاشتراكي الفرنسي برودون (٢) . ففي ١٨٦٠ ، أعلن بوضوح ايضاً ، اكثر من لافيليه ورونان ، اخطار الدكتاتورية التي تهدد مستقبل البلاد الأوروبية الخاضعة لمبدأ القوميات . وقد تنبأ بها ، بخاصة ، من اجل ايطاليا ، وقبل سنين عاماً تنبأ بالقاشية تقريباً ، وقال : « هذا المذهب ، مذهب القوميات ، لا يمكن ان يؤدي الى شيء آخر غير استبداد جديد بما لم تعرفه ايطاليا منذ عهد القياصرة . » وتنبأ بها من اجل المانيا ، في هذه الأسطر التي تشعر بتسلط بسمارك وهتلر : « ان المانيا تبحث

(١) « الجمعية » من الجمع أي الشمولية والكلية أي هذا النظام السياسي الدكتاتوري الذي يجمع السلطة بيد الزعيم الأوحده والحزب الواحد .

(٢) برودون PRUDOHON .

عن اتحادها ؛ والويل للعالم اذا نجحت الوحدة ، وبشكل أعم ، تنبأ بها من أجل البشرية كافة . وبعد ان بشر بعصرنا ، القرن العشرين ، تنبأ بـ : « ان القرن العشرين سيفتح عصر الاتحادات او ان الانسانية تبدأ من جديد بظهور الألف عام (ذكرى هنار الألفية الشهيرة) .

وهكذا ، على وجه العموم ، نهت اوروبا منتصف القرن التاسع عشر إلى الاختيار الذي يجب أن تقوم به بين القومية ورابطة أوطان حرة أي بين دول مركزية وموحدة ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، رابطة أقاليم ، وبلدان ، وكانتونات تحتفظ باستقلالها في داخل مجموعة مؤلفة بحرية . ونهت أيضاً إلى الأهمية التي يقدمها هذا الاختيار لأوروبا منتصف القرن العشرين الذي نتحمل الآن أزماته . وبالأحمال ، يمكن القول أن اوروبا أساءت الاختيار ، لأنها فضلت الطريق الذي يؤدي إلى الجمعية على الطريق الذي يقود إلى الحرية ، الطريق الذي يؤدي إلى الحروب القومية على الطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى السلام بتطبيق المبدأ الاتحادي الفيدرالي . لقد فضلت طريق بسمارك وهنار ، طريق كافور وموسوليني ، وطريق ستالين أيضاً .

لماذا هذا الخطأ من اوروبا ؟ هل هذا صدفة بائسة ، شيء من نوع أنف كابوباترا آخذ بتغيير أو تدمير وجه العالم ؟ أو هل هنالك سبب عميق يمكن تشخيصه ومن الممكن تصور علاج له ؟

لنلاحظ أولاً هذا : وهو أن عصر منتصف القرن التاسع عشر ، الذي يقع تقريباً بين ١٨٤٨ و ١٨٧٠ ، والذي كان فيه على اوروبا ، فسيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، أن تختار بين القومية والاتحادية ، هو أيضاً العصر الذي كان عليها فيه ، من أجل سياستها الداخلية ، من أجل سياستها الاقتصادية والاجتماعية بخاصة ، القيام باختيار حاسم أيضاً . كان عليها أن تقرر بين مفهومين للديموقراطية ، كان أحدهما اتحادياً أيضاً ، وكان الآخر

دولياً (من الدولة) وشبه دكتاتوري . وهو دور التركزات الصناعية والمالية التي تؤدي الى الاحتكارات (التروستات) ، دور التركزات السياسية بشكل أحزاب مركزه قد تكون صالحة للدولة الجمعية . وهكذا نصل إلى ملاحظة مزدوجة : الأولى ، هي أن دور ١٨٤٨ - ١٨٧٠ كان بحق دوراً رئيسياً بالنسبة لأوروبا . ففيه وضعت جميع القضايا التي يجب علينا حلها اليوم والتي جر عدم حلها إلى الاضطراب الحالي .

القضية الأولى : هل مع بلاد حبيسة في حدودها ولا يطبق بعضها حيال بعض أي تحديد للسيادة يمكن التوصل الى تأمين سلام العالم ؟

القضية الثانية : هل مع حكومات مركزية ، خاضعة لسيطرة الدولة حتى الشعبية ، يمكن النجاح في تأمين الحريات وانقاذ الديمقراطية ؟

قضيتان : الواحدة خارجية والأخرى داخلية ، ولكنها مرتبطتان ، وهما في مركز صعوباتنا الحالية ، لأن الواحدة تطابق تهديدات حرب خارجية ، والأخرى تنفق وتهديدات دكتاتورية داخلية . قضيتان ، قد لا يكون من عدم المبالاة أن نسجل أنها توضعان منذ مائة عام ، لأن هذا يمكن أن يوفر علينا محاولة البحث لهما عن حلول سهلة جداً ، حلولاً عملية بصورة محضة . وقد لا يعوزنا أناس للاعتقاد بأن السلام يمكن أن يؤمن باحلاف موقنة بين الدول أو بمشاركة جميع الدول بمنظمة الأمم المتحدة : وفي الواقع ، ان بنية الدول نفسها ، بنيتها الداخلية ، بنيتها القومية ، هي التي تجر أخطار الحرب أكثر بكثير من علاقاتها أو منافساتها الظاهرية . وكذلك ، لا يعوزنا أناس للاعتقاد بأن الديمقراطية يمكن انقاذها بفضل احلاف بين الأحزاب السياسية ، وبفضل أحسن تسوية برلمانية ، أو بفضل أحسن دستور . وفي الواقع ، هنا أيضاً ، نجد ان بنية الدول السياسية ، بنيتها المركزية ، التي يزيد التصويت العام ونظام الأحزاب في تركيزها ،

تؤدي إلى الدكتاتورية : وهذه الدكتاتورية ، في جميع البلاد التي نشأت فيها ، لم تلغ النظام البرلماني ونظام الأحزاب الا بعد أن استعملت جميع الطرق القانونية ، كل السير الطبيعي السوي . ان موسوليني لم يقم بالزحف على روما إلا بعد أن حصل بوسائل طبيعية عادية على الأكثرية في البرلمان . ولم يحرق هتلر الرايخشتاغ إلا بعد أن كسب الاكثرية وعين مستشاراً الرايخ ، وفقاً لدستور فايمار . ولم يحذف لافال الجمهورية في فرنسا ، في ١٩٤٠ ، الا باستخدام الأحكام التي يتضمنها دستور ١٨٧٥ . لقد خرج الانقلاب (ضربة الدولة) من سير أعمال الدولة نفسه : ان اللامرعية (اللاقانونية) تظهر حسب وسائل قانونية . وبالتالي ، ان ما يجب الاشارة إليه منذ الآن ، هو ان الخطرين الكبارين الحاليين ، خطر الحرب وخطر الدكتاتورية ليسا خطرين عارضين ، ولكنهما يتفقان مع النتائج الطبيعية لتطور سيامي وخطأ في البنية . ومن وجهة النظر هذه ، من المفيد أن نشير إلى أن الأسباب البعيدة لأزماتنا تصعد إلى نحو مائة عام ، إلى العصر الذي ، كما نرى ، بدأ فيه هذا النمو وهذا المسار وتنهيات فيه هذه البنيات .

على ان ما تجب الاشارة اليه ايضاً ، وهذه ملاحظة ثانية ، هو ان هذين الخطرين الحاليين ، خطر الحرب وخطر الدكتاتورية ، المرتبطين تاريخياً ، ليكونا مهيأين لعصر واحد ، هما ايضاً مرتبطان منطقياً لينشأ من خطأ واحد ، الخطأ المركز ، الخطأ الموحد . ان البلد المركزي الى الحد الأقصى ، البلد المدولن يتعرض لخطرين نوأمين : خطر الاصطدام بدول أخرى مدولنة ايضاً ، صلبة مثله ، وهذه هي الحرب الخارجية ؛ وخطر حذف الحريات الداخلية ، وهذه هي الحرب الأهلية أو هي الدكتاتورية بعينها .

أزمة الاشتراكية

وعنا ، نلامس عتبة العالم الحديث الثالثة ، ثالثة الازمات التي هيأت اللبس ومناقشات اليوم : أزمة الاشتراكية . وكان كارل ماركس محرراً لها .

وبالتشديد أيضاً على الثورة الكارتيزية ، تطبيقها في حالة خاصة وهي حالة الحياة السياسية والاجتماعية ، وليس هذا ببساطة طريقة عامة يريد فرضها على تأثير الانسان في العالم : انه حالة خاصة أو تطبيق لهذه الطريقة ، تقنية فكرية ، الجدلية الهيجيلية ، بالنسبة الى الفيلسوف الألماني هيجل ، تريد ان تولد تقنية ثورية وبعد قليل حكومية . وسيخلف «املاء» ديكارت العام املاء ماركس ، وليس هذا الانطيقاً خاصاً للأول ونتيجة ضرورية وواضحة له متجهة نحو السياسة .

وهذا الجدول الهيجيلي - الماركسي هو اذن الاطار المنطقي الذي ستقع فيه الثورة الاشتراكية : فقد ساعد على تقدم الماركسية والف قاعدتها . وهو يشير اليوم صعوباتها ويبشر بأفولها لا لأنه يجب أن يرفض على صعيد المنطق ، ولكن يوجد خطة أخرى أكثر عينية ، وهي خطة التجربة البشرية التي تظهر فيها أخطاؤها .

ولنستشهد بكارل ماركس وأنغلز . فقد أوضح هذا الأخير طبيعة الثورة الماركسية في الخطاب الذي القاه ، في ١٧ آذار ١٨٨٣ ، على قبر كارل ماركس ، على هذا النحو : « كما ان داروين اكتشف قانون هو الطبيعة العضوية ، فكذلك اكتشف ماركس قانون نمو التاريخ البشري ، أي هذا الحادث البسيط المقتنع في السابق بضجيج الايديولوجيات ، وهو أن الناس ، قبل ان يستطيعوا الاهتمام بالسياسة ، والعلم ، والفن ،

والدين ، يجب عليهم ، قبل كل شيء ، أن يأكلوا ، ويشربوا ، ويسكنوا ويلبسوا . . . ولنشر في هذا الشاهد الى بضع كلمات : الكلمات التي ينجم عنها وجود قانون ، قانون واحد ، وهو فوق ذلك بسيط ، لا يوضح هو التاريخ البشري . وهكذا يخضع هذا التاريخ الى مبدأ وحدة السببية ، مبدأ ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالنتيجة . ويصبح موحداً ، ويفهم الاتجاه الذي يبدو انه ينزع به اليوم نحو هذه الحلول الأخرى البسيطة وهي الحلول الجمعية .

وفهم أيضاً في إيماننا ، التي تبدو فيها الداروينية مطروحة من جديد على بساط البحث والنظر بنظريات أكثر حداثة في تطور الانسانية ، ان التشكيك الذي أصابها يمكن ان يس أيضاً ، حسب تعابير أنغلز نفسها ، المادة التاريخية التي يقارنها بها ويجمعها معها .

ومن جهة أخرى ، نرى أيضاً ما هو أكثر كشفاً عن المثالب العميقة في المادة التاريخية . ان نزعتها في توحيد كل شيء ، قادتها ، كما هو معلوم ، الى اعتبار الجدول الميغيلي مقبولا في جميع الميادين ، في عالم الحيوان والنبات كما في الفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . . . وفي كل مكان ، يتم التقدم حسب وتيرة ثلاثية : النظرية ، الطباق ، التركيب ، وهذه الأخيرة تؤلف التوفيق بين الاضداد ونقي النقي . فمافا يعني هذا الزمن النهائي للمسار الجدلي ؟ ومن أي قوة ينتج وما الضمان الذي يأتي به لاعداد المستقبل ؟

هل هو قوة بناء او تخريب ؟ ضمان حياة أو موت ؟ للاجابة عن هذا السؤال ، الذي يتجاوز خطة الايضاحات الشكلية ، وللوصول الى خطة الوقائع الحية ، لنعد أيضاً الى أنغلز . فهو يذكر ، كمثل للجدول ، الاستعالة التي تخضع لها حبة شعير تنبت في ارض وفي مناخ ملائمين .

ويقول : ان هذه الحبة تنبت وتملك ، وهذا يعني انها منفية . وفي مكانها ، الطباقي ، يخرج نبات هو على هذا النحو نقي للحبة . ثم يأتي التركيب : وهو أن هذا النبات نفسه ، بعد ان يكبر وينتج حبات جديدة ، يهلك ايضاً ، أي انه منفي بدوره .

ان كل هذا مجرد ، ودون شك لاحقيقة له في بساطته وفي موضوعيته الظاهرتين . وهذا الايضاح لتسلسل التوالد ، بتعاقب ميكانيكي للأزمنة الحية والازمنة الميتة ، لا يقيم أي اعتبار للقوة الفاعلة والدائمة للحياة ، التي تؤلف المصدر نفسه والمظهر الواضح لسير التاريخ . وان ارادة ارجاع الحياة الى خيال معناها الانتهاء بالموت . وخطأ آغاز مزدوج ؛ من جهة ، يحلل الى ازمة متتابعة ومضادة للراحل التي تكون ، في الحقيقة ، مرتبطة الواحدة بالأخرى وتنتج الواحدة عن الأخرى : فهو يحول على هذا النحو حركة واقعية الى تعاقب ازمة منعزلة ، ويجزئ المدة ؛ ومن جهة أخرى ، وبخاصة ، لا يقيم أي اختلاف ، في هذا التساقط من المنفيات التي تؤلف حسب رأيه ، الحياة ، بين المنفيات التي تنتهي بولادة والمنفيات التي تنتهي بموت . ولا يميز بين تحول حبة الى نبات وموت النبات الذي ينتج جميع حياته . ومع ذلك لا تكون الحالة نفسها : لأن الحبة التي تنمو نباتها للموت ، بل تتحول وتتطاول عضوياً ؛ والنبات الذي يموت بعد نثر حياته ، يموت حقاً . وفي حالة لا يوجد انقطاع بين حياة والحياة التي تنتج عنها ، وفي حالة أخرى يوجد انقطاع ؛ في حالة يوجد تحول في الحياة ، وفي الأخرى يوجد موت ، واذا كان الحادثن من وجهة نظر جدلية متعادلين ، فذلك يعني ان الجدل يتم بنفسه اكثر بما يتم بالاحداث التي يستخدمها : ومن وجهة نظر محسوسة وواقعية ، لا يمكن ان يكون التطور والموت متعادلين ؛ ولا يمكن ، دون سفسطة ، مقارنة الواحد

بالآخر . واذا زعم أن نمو الحياة يحدث لامن حياة حياة ، بل من حياة لموت ومن موت حياة ، بادخال الموت حتى حيث لا يمكنه الا ان يعمل ، كوسيط ملتزم وميكانيكي بين لحظتي حياة ، ينتهي آنفاز الى نظرة مجردة ، أي غير عينية للواقع التاريخي . وبزعمه اقامة جدول حياة انتمى بجدول موت .

ان مثل البزرة والنبات يدل بصورة واضحة على اخطار هذه الطريقة . وإذا نظرنا الآن كيف أن المسار الجدلي نفسه هند ماركس يتحول على صعيد السياسة ، نجد ، بشكل ولاشك اقل بدائية ، فرصة لعرض الانتقادات نفسها .

ففي الجزء الرابع من كتاب « الرأسمال » يعطينا ماركس الصورة الشورية للمسار الاقتصادي ، الذي ينمو هو ايضاً ، على ازمة ثلاث . اولاً ، النظرية ، حيث يقوم دور الحبة بالصناعة الصغيرة ، التي تتصف بالنسبة للعامل بالملكية الفردية لوسائل الانتاج . وفي درجة ما من النمو ، يخلق هذا الشكل البدائي للصناعة الشروط المادية لغناؤه الخاص : ان وسائل الانتاج الفردية والمجزأة تتحول إلى وسائل انتاج مركزة بين بعض الأيدي القوية او بعض المنظمات من نوع « الاحتكار » . والنفي الاول ، الذي يقتل الحبة ويؤدي إلى الطباق ، ينتهي بنزع الملكية لصالح التراكيزات الصناعية ، الملاكين الفرديين . ومنى تم هذا التحول في الانتاج يتحسن ويقوى : وفي الحد الذي تسود فيه المنافسة ايضاً بين الرأسماليين ، تحذف الضعفاء ، وتقلل العدد وتزيد ابعاد التراكيزات الباقية على قيد الحياة . وعندئذ يتدخل نفي جديد ، نفي النفي ، الذي يسجل المرحلة الثالثة ويؤدي الى التركيب : لأن تشريك وسائل الانتاج ينزع بدوره ملكية منتزعي الملكية السابقين . وعندئذ تؤول الحالة إلى الملكية

الاجتماعية (الجماعية او ملكية الدولة) لوسائل الانتاج : وموت شجرة
الرأسمالية الخاصة ، محررة نباتات جديدة لايسعها ، في هذه المرة ،
الا أن تتكاثر وتنمو لتنتهي إلى إقامة قطعية للمجتمع الاشتراكي . ويقول
ماركس ان كل هذا يحدث بمسار حتمي وميكانيكي : « مع حتمية
المدى الطبيعي يولد الانتاج الرأسمالي نفيه الخاص » .

الموازنة الحالية للماركس

ليس القصد هنا الجدل بل أن نقدر حسب حاجات عصرنا الروحية
نفاذ طريقة تصعد إلى مائة سنة ، ولذا فمن الضروري تبعاً لهذا المثل الأسامي
ان نومن الموازنة الحالية للجدل الماركسي .

أولاً ، ان المازية الكبرى التي تبقى في هذه الطريقة ، هي انها ادخلت
من جديد ، في الفلسفة كما في السياسة ، عنصر تأثير وحركة ، عنصراً
حركياً . وإذا قووننت مادية ماركس بمادية فويرباخ (١) ، لوحظ
التجديد : لأن فلسفة فويرباخ كانت ثابتة وسلبية ؛ فهو يرى ان
الانسان كان وحده نتاج الطبيعة والظروف المجاورة . ويرى ماركس
أن الانسان والمجتمع مرتبطان ايضاً بالطبيعة ، ولكنها غير مرتبطتين
سلبياً . وان قواهما الانتاجية لا تنتج فقط ، كما يؤكد الماديون السابقون ،
من التأثير الذي يمارسه الطبيعة على الانسان ، ولكن في حد واسع ايضاً
من التأثير الذي يمارسه الانسان على الطبيعة . ويقول ماركس عن الانسان
« بانه يؤثر على الطبيعة الخارجية ، ويبدل في الوقت نفسه طبيعته
الخاصة » .

FEUERBACH (١)

قضايا عصرنا (٢٩)

وما من شك في انه يوجد هنا مآبى أسامي ، قامت به الماركسية وسيفيد منه كل ورثتها ، وبؤايف بالنسبة لماركس لقباً دائماً لاعجاب الأجيال الآتية . ففي العالم المغلق للفلاسفة والاقتصاديين الأحرار ، او ، في عالم الماديين ، الذي ليس الا متمماً معكوساً ، شق منفذاً ؛ لقد وضع بعداً ثالثاً في كون المفكرين المثاليين والبورجوازيين الحالي من التضاريس ؛ وفتح طريقاً يمكن أن يدخل منه كل مسعى تاريخي لايضاح الكون أو الحياة الاجتماعية . وبهذا ، كان أحد الرواد الذين يجب علينا جميعاً أن نحيي جهودهم ونعجب بشجاعتهم ، واحد الأفكار الاولى التي انطلقت في الطريق المشقوق على هذا النحر . ولاعجب اذا كان ماركس فعل ذلك ايضاً بشيء من الصعوبة وعدم اللين ، وبتحرر ، اقل مما كان يظن ، من التعاملات التي يشجبها . ان السيارات الاولى استغرقت زمناً لتتحرر من تقليد العجلات . ويرد الفعل ضد المثالية بدأ ماركس بنسخ اشكال خطأ مشابهة . فالمثالية ، في فكر الماديين ، نوع من العدم التمهيدي للوجود ، ملكوت ظلمات سابق لادراك الواقع . وقد خرج ماركس ، حقاً ، من العدم ، وأزال الأشباح ؛ ولكنه لم يعرف ايضاً أن يعطي حياة للواقع الذي أدركه : فقد كتب : « ان الجدل ، في شكله الخائال ، كان على الموضة في ألمانيا لأنه على ما يبدو يحور صورة ما كان موجوداً . وفي شكله العقلاني ، منزلق ، وموضع تخوف في انظار البورجوازيين والسنة حالم من أصحاب المذاهب ، ويرجع ذلك لأسباب مختلفة : ففي القهم الايجابي للأشياء الموجودة ينضمن في الوقت نفسه فهم نفياً ، وتدميرها الضروري . » . وهكذا يلعب ماركس ، في المجتمع البورجوازي ، دور الأخ الترابي ، بالنسبة إلى رهبان الطريقة الديوانية الترابية ، الذي كان ، في كل كلامه ، يحض الآخرين على الموت ؛

ولا يدرك الحياة الا بمحذورها أو بامتدادها في الموت . وقد سيطرت عليه حتمية الموت ، فحذف كثيراً في الغالب أيضاً كيف يمكن ، في الواقع ، أن يعيش .

وباتباعه أفكار وأخطاء آنغلز الذي يرى أن البزرة والنبات ليسا الا ميتين بالقوة ، قبل ، هو أيضاً ، بأن نمو التاريخ يتم من موت إلى موت ، وبضربات مضاعفة بالموت ، والتاريخ ينمو من نائبة لنائبة . أفلا يمكن ، بالعكس ، كما يقبل بعض الماركسيين المحدثين ، المتحررين من السكولاستيكية الهيجيلية والأكثر حساسية بظواهر أخرى لفكر ماركس ، تصور تحقيق تدريجي للارادة الثورية التي تم من حياة حياة ، وأن كل انقطاع جديد يتجاوز كسب الانقطاعات التي سبقتـه ويحافظ عليه .

ومن الممكن منذ الآن أن نرى أين يجرحنا العبء وأين يضابق ، اليوم ، كل تابعي ماركس ، بالرغم من نعمهم ونجاحاتهم العابرة . ففي أصل فهمه للتاريخ ، توجد موضوعتان :

أولاً : مسألة التنمية المادية ، وبوجهها تقيد العوامل الاقتصادية وعلاقات الانتاج العلاقات الأخرى الموجودة بين الناس : « أن مجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف بنية المجتمع الاقتصادية ، والأساس الواقعي الذي تقوم عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية ، وتطابق هذه البنية أشكال وهي اجتماعي معينة . »

ثانياً : مسألة الجدل ، وبوجهها تنحول هذه الحالة الاجتماعية ، التي يرجع أصلها الى عوامل اقتصادية ، بتخريب نفسها وبتوليد نقضها . وفي الواقع ، ان هاتين الموضوعتين تؤلفان وجهات نظر الفكر المتجه

إلى تبسيط واقع القضايا البشرية ، ولاشك في انها صعبتان جزئياً ؛ ولكن نصيب الخطأ الذي تحتويانه يفوق في خطورته نصيب الحقيقة .

ان كارل ماركس ، الذي اكتشف التاريخ ووضع التقنيات للتقدم فيه ، بدأ بتبسيط مجراه ، وتسييره في أفنية . وهذا خطأ فادح ، لأن الأمواج لا تخضع بالضرورة للرسم الذي يفرض عليها . ومن هنا نفهم قوة انجذابه لموت يتقدم من قبر لقبر . وجود العدم يظهر سهلاً للغاية من أجل تحديد مسافة ؛ والأوباد الجنائزية أكثر ثباتاً وأكثر قطعاً من مساكن الأحياء .

ولكن ، لما كان ما يعتمد على الموت ينتهي باثارة الموت ، فقد نرانا الآن في وقت مستنهي فيه الماركسية ، إذا لم تعرف كيف تجد نفسها ، بتوليد هذه الأشكال من الموت الاجتماعي الذي يسمى دكتاتوريات ، هذه الأشكال من الموت الفكري الذي يسمى ، حسب الأحوال ، تجريدات أو مذاهب (نظم) .-

تجريد جهر ماركس

وليفهم جيداً هنا أن القصد ليس مهاجمة جهد ماركس ، بل بالأحرى تجديد ، وتجديد جهد اشتراكي زمانه ، ومن بينهم خصمه برودون . وليس القصد أن نكون ضد ماركس ، وأكثر من ذلك التحزب ضد ما كان ، منذ مائة عام ، وشاخ اليوم ، لصالح ما قد سيكون إذا نشأ في أيامنا . ولو كان ماركس معاصراً لنا ، لما ذهب يبحث في فلسفة عمرت ، قرناً عن المحرك الثوري الذي يحتاج إليه زماننا . ولاستقى من مصادر جديدة ، ولأفاد من جهد الفكر المعاصر كله لتحديد افراط مبدأ الحتمية وإيجاد معنى الوقائع بكل نواضع ، وربما عزف عن البساطة الحاططة للرسوم الفكرية ليقم جدلاً حياً مقام جدل الموت ، جدله .

أو انه ، بالأحرى ، يبقى أميناً لبعض تطلعات شبابه ومراقبته التي ذهبت به ضرورات النضال السيامي إلى استنكارها وحتى معارضتها . وكما كتب ارنست رونان : « ان كل فكرة تريد النجاة بحاجة إلى القيام بتوضيحات : لأن الانسان لا يخرج طاهراً من النضال في سبيل الحياة » أو كما قال شاعرنا العربي المثني :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم
او كما كتب آرنو داندieu^(١) : « ماركس ثوري مات شاباً ، وانز كيف أوضح أفكاره عندما كان بعد حياً .

هنالك نقطة من النقاط الحرجة عند ماركس وهي مفهومه للدولة . ففي الاصل ، كان ماركس ، ككل اشتراكيي القرن التاسع عشر ، مناوئاً للدولة ، أو كما يقال اليوم ، مناوئاً للجمعية . وفي كتابات شبابه السابقة لـ « البيان الشيوعي » ، التي تؤلف أساس أثره الفلسفي والعاطفي ، وضع قضية الدولة مع رغبة كبرى في صيانة الحريات الضرورية ضدها . وفي « نقد فلسفة الدولة عند هيغل » ، الذي كتبه في ١٨٤١ - ١٨٤٢ ، شجب كارل ماركس معاً دولانية (ايتاتيسم) زمانه ودولانية عصرنا الذي يجد فيه بعض الماركسيين ما يرضيهم : « البوروقراطية هي الدولة الخيالية إلى جانب الدولة الواقعية . . . ان كل شيء له اذن معنيان ، أحدهما واقعي ، والآخر بوروقراطي ، كما أن المعرفة مزدوجة ، أحدهما واقعية ، والاخرى بوروقراطية ، وكذا الشيء نفسه من اجل الارادة . ولكن الكائن الواقعي يعامل حسب كونه بوروقراطياً ، وحسب كونه غير واقعي ، روحياً . والبوروقراطية تقبض في حوزتها على كائن الدولة ، الكائن الروحي للمجتمع ؛ وهو ملكيتها الخاصة . والروح العام

للبروروقراطية هو السر ، السر المحفوظ في داخلها بالنظام التسلسلي ونحو الخارج بوصفها صنفاً مغلقاً .

وبعد هذا النقد للبروروقراطية ، نورد تمييزاً اعم واعمق بين المجتمع والدولة : « ان الاختلاف بين الدولة والمجتمع المدني هو اذن محدد ، وهو أن الدولة لاتكمن في المجتمع المدني ، بل في خارجه . ولاتمسه الا بندوقيا الذين عهد اليهم « تسيير الدولة » في داخل صعداها . ولا يجذف الاختلاف هؤلاء « المندوبين » ، بل يتحول الى معارضة « قانونية » ثابتة . وليست الضابطة « الشرطة » ، و « المحاكم » و « الادارة » مندوبة عن المجتمع المدني نفسه ، الذي يسير فيها وبها مصلحته الخاصة المشتركة ، بل مندوبي الدولة المكلفين بادارة الدولة ضد المجتمع المدني .

ومن يستطيع الذهاب الى ابعد من ذلك ، ومن منا يذهب ايضاً بعيداً في الاتجاه المناوئ للمدولانية والفوضوية ؟ ومع ذلك ، فانت كارل ماركس ، بعد ست سنوات ، في شباط ١٨٤٨ ، في « البيان الشيوعي » أوصى بتدابير الدولة :

« تركيز الاعتماد بين ايدي الدولة ، بواسطة مصرف قومي برأسمال دولة وحصر خاص ،

« تركيز جميع وسائل النقل بين ايدي الدولة ؛

« الاكثار من المصانع القومية ، ووسائل الانتاج ، واحياء الاراضي وتعديلها وفق خطة عامة ؛

« الزام الجميع بالعمل ، وتنظيم جيوش صناعية وبخاصة في الزراعة » .

وأى حظ غير متوقع لهذه البروروقراطية المخترقة منذ قليل ! بين ١٨٤٢ و ١٨٤٨ بدأ ماركس بنوس بين موقفه الفلسفي والعاطفي في الأصل ، والضرورات التعبوية التي ظن انه خاضع لها .

وبعد هذا «الاندفاع» نحو الدولانية التي يؤلفها «البيان الشيوعي» نرى عودة الى المواقع الفوضوية . ففي ١٨٧١ بلغ «قوموت» باريس ، المكتوب تحت تأثير الهيجان الذي شعر به أمام حماسة الثوريين الباريسيين ، عظمة وصفاء فريدين . فهل هذا هو السبب في العودة الشخفة الى تطلعات الشباب ؟ لقد كتب ماركس : «ان السلطة المركزة للدولة بهيئتها الحاضرة في كل مكان ، من وجيش دائم ، وشرطة ، وبوروقراطية واكايروس وقضاء ، وكلها هيئات مشكلة وفق خطة منظمة ومتسلسلة في تقسيم العمل ، تصعد الى عصر الملكية المطلقة .» وعرف نظاماً اتحادياً نحذف فيه الدولة بقوله «ان الدستور القومي قد يرجع الى الهيئة الاجتماعية لجميع القوى التي امتصتها الدولة حتى ذلك الحين ، الطفيلي الذي يتغذى من جوهر غذاء المجتمع ويشل حركته الحرة . وبهذا الحادث وحده كان نقطة انطلاق لتجديد فرنسا .

وهنا نجد تقريباً فترة برودونية في فكر كارل ماركس . وفي الحقيقة ، ان القومونيين كانوا تلاميذ بلانكي^(١) وبرودون ، ولكن واحداً من بينهم كان ماركسياً .

وبعد اربعة أعوام ، عادت الشعلة التسلطية . ففي ١٨٧٥ ، ذكر ماركس في «نقد برنامج غوتا» مبدأ الدكتاتورية ، دكتاتورية الطبقة البكادحة . ولاشك في أنه لم يتخل عن تطلعاته الحرة ، ولكنه ليؤذي بها ، اعتقد بأنه يجب تصور فترة انتقال تكون تسلطية استبدادية وتؤدي الى تعزيز موقت لميكانيكية الدولة : «بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي يقع دور التحويل الثوري من الأول الى الثاني .

(١) BLANQUI (١٨٠٥ - ١٨٨١)

ويطابق هذا دور انتقال سياسي لا تكون فيه الدولة شيئاً آخر غير الدكتاتورية
الثورية للطبقة الكادحة .

ونظراً الى ان التعبير « دكتاتورية الطبقة الكادحة » لفظه كارل
ماركس في آخر حياته ، فقد عرف حظاً فريداً : وهو في المفردات
الماركسية من اكثر التعابير استعمالاً . ويؤمن الماركسيون إقامة الدكتاتورية
للمحاربة الحربية .

أو بالأحرى ، كانوا يطمحون ذلك مادام ستالين حياً . لانه ، وجدت
في عهد خلفائه ، كلمة في آخر نص ذكر وأخذت كل اهميتها ولاقت
كل نفاذها ، وهذه الكلمة هي « انتقال » . والدكتاتورية يجب الا تكون
الاموقنة . لأنها تتفق مع مرحلة متوسطة في تشييد الاشتراكية . ولكن
متى رسخت هذه الأخيرة نهائياً ، يحسن ارجاء شدتها ودون الرجوع ،
بالدهاء ، الى الحريات الرأسمالية والبورجوازية ، يجب الوصول الى اداة
الدولة التي تود الى النظام الاشتراكي الحريات التي تتواءم مع طبيعته .

وهكذا يفسر النزاع الحالي بين الاتحاد السوفياتي والصين ، أي ،
كما رأينا أعلاه ، بين بلد اشتراكي عمر ثورته نصف قرن ويمكنه ان
يبدأ بارخاء وثاقه ، وآخر يرجع ثوره الثوري الى عشرين عاماً فقط ،
ومازال في بدايته ويجب ان يظهر قاسي القلب لا يرحم .

وهكذا تسمح ازمة الاشتراكية في مبادئها بشرح قطاع كامل للنشاط
العالمي الذي عرضناه في هذا الكتاب .

التشخيص

ومها بدت أزماننا الثلاث ، ثوراتنا الثلاث ، قديمة احياناً ، فهي
على الأقل ضرورية للاستشهاد للخلاص من اللبس السياسي في زماننا .

فهل يستطيع قراؤنا ان يحفظوا من هذا الكتاب ، الذي عرض فيه مؤرخون مشاهير بصورة موضوعية مختلف مظاهر الدور الذي تلا عام ١٩٤٥ ، عاطفة بأن صعوبات عصرنا ليست ابدأ غير لازمة الحدوث ولا طارئة غير متوقعة ، وان عصرنا يزخر بحضارة جديدة ، ولفهمه ، يجب ، بشكل ما ، ان نركز على فكرنا نظارات مزدوجة البؤرة تساعد على الرؤية من قريب ومن بعيد . الرؤية من قريب ضرورة حقاً لتجنب الاصطدام بعقبات الطريق ، ولكن الرؤية من بعيد ، ان في الماضي ، وان في المستقبل ، لاغنى عنها للكشف ، في الافق ، عن طريق تقدم جديد وانسانية جديدة .

ان أزمة العقل تشرح جميع الصعوبات من التعايش بين أمم متطورة ، مثلت ، وأحياناً بافراط ، ديكتات ، وأمم غير بعد ، لم تتأثر به . وأزمة الوطنية تشرح الحوادث غير العادية ، في الخلاص من الاستعمار ، التي تتنازع فيها البلاد القديمة التي تجاوزت مرحلة القومية ، والبلاد الجديدة التي توصلت إليها فقط في نشوة استقلال حضر بشكل غير كاف . وأزمة الاشتراكية ، أخيراً ، تشرح الهزة التي حدثت في داخل العالم الشيوعي وتعميق العلاقات التي يجب أن يغذيها الآن مع العالم الغربي . وتشرح أيضاً تطوره نحو كسب جديد للحريات مازال محدوداً جداً وضعيفاً جداً .

وربما يلعب بمصير الانسانية في الحال ، ولكنه يياً إلى أجل . والامساك به ، وتوجيهه ، يجب الأخذ بعين الاعتبار هذا القرار المزدوج : فاذا عرفنا عصرنا بشكل أفضل ، وتعمقنا في أصوله ، فلربما واتانا بعض الحظ في امكان الخروج منه ، باستخلاص ظروف ووسائط دور جديد للانسانية .

مبارت

في فرنسا ، قامت « ثورة أيار ١٩٦٨ » . وفي مناخ الازدهار الظاهر والجاه الدولي المستعاد ، والاستقرار الحكومي ، حدثت حركة من أشد الحركات التي عرفتها فرنسا منذ ثورة القومون في عام ١٨٧١ . أما أن تكون قد هدأت مؤقتاً بأعياء بعضهم وبهارة الآخرين فهذا لا يزيل شيئاً من أهميتها . لأول مرة منذ قرن وضعت أسس المجتمع من جديد على بساط البحث ، وربما لأول مرة ، منذ بداية تاريخ فرنسا ، أثبتت الحركة على أبدي الشباب والطلاب كتمرد في آن واحد على النظام القائم وكررد فعل على الأجيال المتقدمة في السن .

ان اضطرابات أيار ، التي أثارها شبان مفكرون توهمهم ثورة على الرأسمالية وقطيعة مع شيوعية موسكو ، تسجل البحث عن وضع جديد يتكيف وزماننا .

ان الحرية الرأسمالية يرجع تاريخها إلى عصر العجلات (ديليجانس) والماركسية الى عصر الخطوط الحديدية الأولى . وان مجتمع الجماهير ، الذي خلف مجتمعات الطبقة ، يجر اغتربات جديدة أكثر عمقاً وأكثر شمولاً ، وقد بدأ الشباب يشعرون حيالها بحاجة الدفاع عن أنفسهم . ولم تكن هذه الحركة قاصرة على فرنسا بل ظهرت تقريباً في كل بلاد العالم .

ما هو اذن معنى هذه الثورة برغم أنها أخفقت ، وبرغم أنها عرفت فترات مخالفة للمنطق والحقيقة ، ولكنها سجلت على الأقل وبصورة دائمة مجرى تاريخنا ؟ ما معناها الانساني ؟ .

ان جيلاً ، جيل أناس من عمر الحسين إلى الستين عاماً ، منعتهم الظروف ، التي كان يتخبط فيها ، من أن ينقل إلى اطفاله اليقين والأمن اللذين يحق للابن دوماً أن ينتظرهما من ابويه . هذا هو السبب العميق

للعلم الأسود الذي خفق في فرنسا أولاً ، ومن بعد في البلاد الأخرى ، في الجامعات التي احتلها الطلاب المستشيطين غضباً والمتحمسين .

ماذا اقترح عليهم ؟ ماذا اقترح على كبارهم المباشرين الذين انضموا غالباً اليهم ؟ ان رجلاً عمره ثلاثون عاماً بدأ يفظته على العالم في الاضطراب المعمم بسبب الحرب العالمية الثانية ، هذه الحرب الأهلية التي تجسّبت فيها كل أطراف الفكر ، كل السفسطات القاتلة وكل الأوهام . فاذا كانت المانيا ، ربما عرف بلبس ، ولكن بشكل كثيف ، الحلم المروع الذي تلا الأمسال الجنونية في هتار ليؤمن لبلده السيطرة على العالم . وإذا كان ايطاليا ، فقد جعلوه ير في العرض ، كالشاب الفاشي ، بيندية من خشب ، على شرف موسوليني الذي تمرفت جثته بعد حين بالحزي والعار . واذا كان فرنسياً ، فقد اختلجت اذناه الطفوليتان لصوت « ايها الماريشال ، ها نحن » قبل ان ترتعشا لصالح دوغول الذي شنمه الثائرون في شعاراتهم .

وبعد هذه البدايات المبشرة التي عرفها المراهقون والشبان ، كيف أصبح أبناء هذا العصر الذي أساء التورط ؟ لقد زجوا ، في مختلف البلاد ، في حروب عابثة وقائلة ، فتعلموا فيها أخيراً أن يروا النظام سفيرة ، والوطنية مشبوهة . ان حرب الهند الصينية والجزائر بالنسبة لبعضهم ادت إلى ضياع ارادي للبلاد التي جندوا من اجلها . وان الاضطرابات في الكونغو ، وفي اندونيسيا ، بالنسبة لآخرين ، وفي الجهة الأخرى من الستار الحديدي ، ثورات سحقته بالقوة في بودابست وفي برلين .

وفي كل مكان ، في المعسكرات الحاضرة ، وعلى جميع القارات ، يتزجر اليقين . وفي الولايات المتحدة ، تعلم القمم المتحمس والواهي في الشبية أن يتظاهر ضد الحكومة . وفي بلاد الشرق ، يرى تصدع

-٤٦٠-

العبارة القوية التي فرضت على جميع انظمة الديمقراطية الشعبية .

وفي كل مكان حرم الجيل الصاعد من اليقين والايان ، وفي كل مكان وضع محضراً باخفاق من سبقوه ، ومن المحتم والطبيعي وشبه الضروري أن يقوم هذا الجيل الصاعد الساخط على الماضي وغير المؤمن بالمستقبل ، ضد كل من لم يستطيعوا أو لم يعرفوا أن ينجوه الأمن .

ان العلم الأسود في السودان يعلن على هذا النحر موت السلطة الابوية ، موت الأب . وهو علم الحزن كما هو علم الثورة . علم لا يرفع ابداً بهجة القلب ، ولا يتبع الاستهزاء وسخرية ، علم اليأس والاخفاق ، ليس الافضل لهؤلاء الشباب أن يبعثوا هذا الرمز الجنائزي عوضاً عن ان يقبلوا سلباً الأبهة الفخمة للاحتفالات الرسمية التي لا يؤمنون بها ؟

الأزمة الحالية عميقة : لقد نشأت في داخل كل امرة ، وفي وجدان كل انسان شاب ، انها أزمة حضارة عرفت الكثير من الانظمة الخاطئة والكثير من الأكاذيب ، فبعثت عن توازن جديد وربما ايمان جديد .

الفصل الحادي عشر

الدول الأوروبية الأخرى

دول أوردبة الغربية

النمسا

في نيسان ١٩٤٥ ، قبل استسلام جرمانيا ، ولكن بعد أن هبر الروس حدود النمسا ، تقاعد الزعيم الاشتراكي كارل رينير^(١) في مدينة غلوفنيتز^(٢) ، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين ، بعد أن شغل في السابق منصب مستشار النمسا في فترة المجلس التأسيسي عام ١٩١٩ ، ورئيساً للبرلمان في جمهورية النمسا حتى ١٩٣٩ . وقد وافق الروس الفاتحون على أن يذهب إلى فينا ويحاول إعادة تجميع الكتلة غير الفاشية لآخر برلمان مساوي ديمقراطي في ١٩٣٣

وعندما وصل رينير فينا وجد أن مختلف الزعماء الحريين النمساويين قد شكلوا من قبل خلايا ثلاثة أحزاب سياسية نشطة :

- ١ - حزب الشعب النمساوي الكاثوليكي .
- ٢ - الحزب الديمقراطي الاجتماعي .
- ٣ - الحزب الشيوعي النمساوي .

(١) كارل رينير KARL RENNER (١٨٧٠ - ١٩٥٠)

(٢) غلوفنيتز GLO GGNITZ

-٤٦٢-

وقام رينير بمفاوضات مع الأحزاب جميعاً تحت إشراف الروس ولكن دون تدخلهم . وفي ٢٩ نيسان ١٩٤٥ ، وقبل استسلام ألمانيا ببضعة أيام ، أعلن تشكيل حكومة مساوية مؤقتة تضم وزراء يمثلون الأحزاب الثلاثة برئاسة رينير مستشاراً .

اعترفت موسكو فوراً بهذه الحكومة . ومع ذلك فقد كان الحلفاء الغربيون الثلاثة الكبار يشكون في تعاون رينير مع السوفييتيين . وقبل أن يحتل الحلفاء الغربيون المناطق العائدة لكل منهم ؛ اصطدموا مع الحكومة المؤقتة التي يرعاها السوفييتيون والتي طلبت اعترافهم بها كناطق باسم النمسا الحرة . ورفض هذا الاعتراف حتى تشرين الأول ١٩٤٥ . وفي غضون ذلك ، طالب الأعضاء الغربيون في المجلس الحليف من أجل النمسا من حكومة رينير أن تدخل مزيداً من زعماء الأقاليم الريفية في النمسا ، واكتفوا بأن الحكومة كانت تتمتع حقاً بدعم شعبي واسع ، وانما منعت وزير الداخلية الشيوعي من ممارسة رقابته على الانتخابات والضابطة . وخولت حكومة رينير العمل تحت إرشاد المجلس الحليف وإشرافه . وكانت أعمالها الرئيسية المباشرة تشجيع الصحافة الحرة والإعداد لانتخابات قومية عاجلة .

وفي غضون ذلك ، قامت حكومة رينير بالكثير : ففي أيار ١٩٤٥ ، أرجعت الدستور الديمقراطي لعام ١٩٢٠ كما عدل في ١٩٢٩ ، وألغت القانون النازي بكامله ، والتدابير الدكتاتورية في نظامي دولفوس وشوشنيغ . ثم قامت باستئصال جذور النازية ومعاقبة مجرمي الحرب ، واتخذت تشريعات اضطرارية ضرورية ، ووطدت نظاماً مركزياً يعمل على وجه حسن .

وجرت الانتخابات لـ « المجلس الوطني »^(١) ، في تشرين الثاني ١٩٤٥ ومنع كل عضو سابق في الحزب النازي من التصويت . وكشف الافتراع السري عن ٨٥ نائباً من حزب الشعب ، و٧٦ ديمقراطياً اجتماعياً ، و ٤ شيوعيين ؛ أي بمجموع ١٦٥ نائباً . وبعد ان سبق وقبل أن الحكومة التي ستشكل بعد الانتخابات ستكون ائتلافية ، تشكلت الوزارة الجديدة ، في كانون الأول ١٩٤٥ ، وضمت ٨ أعضاء من حزب الشعب ، و ٦ اشتراكيين ، وشيوعياً واحداً . وأصبح ليوبولد فيغل^(١) ، من حزب الشعب ، مستشاراً ، وانتخب مجلس أعلى بامم بوندسرات^(٢) أو المجلس الاتحادي لتمثيل الأقاليم النمساوية . وانتخب البرلمان بالإجماع رينير رئيساً للجمهورية النمساوية الثانية لمدة ست سنوات .

أما مناطق الاحتلال في النمسا فقد حددتها اللجنة الاستشارية الأوروبية في تموز ١٩٤٥ . وأخذت كل من الدول المحتلة الأربع قطاعاً من البلاد ، وحاولت أن تحل النظام محل الفوضى الإدارية والاقتصادية الناجمة عن الحرب وقدايمي النازية . وضمت المنطقة السوفياتية : النمسا الدنيا وبورغنلاند ؛ وشملت المنطقة البريطانية : شتيريا ، كارانتيا وقسماً من التيرول الشرقي . واستلمت فرنسا باقي التيرول وفورالبرغ . وخصصت الولايات المتحدة : سالزبورغ والنمسا العليا . وقسمت فينا ، كبرلين ، إلى قطاعات وأخذت كل دولة محتلة قطاعاً ، بينما دول القطاع الخامس ، وأخذ المحتلون يحكمونه دورياً كل شهر . وضمت المنطقة

(١) المجلس الوطني NATIONALRAT

(١) ليوبولد فيغل LEOPOLD FIGL

(٢) بوندسرات BUNDESRAT

(٣) اللجنة الاستشارية الأوروبية (EAC)

الروسية حقول الزيت والمناطق الصناعية الرئيسية وبعضاً من أطيب الأراضي الزراعية .

وكانت السلطة الخليفة في البلاد بيد المجلس الخليف ، ويتألف من الجنرالات الآمرين للأربعة الكبار في النمسا . إلا أن الدول الغربية الثلاث أقامت ، في ١٩٥٠ ، مفوضين سامين مدينين مقام الحكام العسكريين . وكانت القرارات تتخذ بالاجماع ، كما هي الحال في جرمانيا . وفي أوائل ١٩٤٦ ، وافق المجلس الخليف على التبادل الحر لغائض السلع بين المناطق الأربع ، ولكن الروس حددوا ممارسة هذا الحق في منطقتهم . ومنذ آذار ١٩٤٦ ، سمح للنمسا بتبادل الممثلين الدبلوماسيين مع البلاد الأجنبية ، عدا جرمانيا واليابان . وسمحت اتفاقية حزيوات ١٩٤٦ للحكومة المركزية بالتشريع ومن بعض القوانين الوطنية . وأمكن لكل مشروع قانون لا يقتضي تغييراً دستورياً أو قضايا دولية أن يصبح بشكل آلي قانوناً بعد واحد وثلاثين يوماً ، إلا إذا تعرض لممانعة اجماعية من قبل المجلس الخليف . وأصبح بإمكان النمسا منذ الآن أن تفاوض بال اتفاقات ثنائية مع أي من الدول المجتلة دون موافقة المجلس الخليف . ويتمتع الحكومة النمساوية بهذا الكثير من الاستقلال الذاتي استطاعت أن تستعمل صلاحيتها في العمل الاداري ، إلا إذا عرقل التدخل السوفياتي هذا العمل

وبعد أن أخذت النمسا مساعدة من « إدارة الأمم المتحدة للغوث والتنمية » ^(١) وعوناً من الولايات المتحدة ، حققت تقدماً اقتصادياً قاطعاً . ففي منتصف ١٩٥٣ ، ذكر سفير الولايات المتحدة في النمسا أن الانتاج الصناعي للجمهورية النمساوية وصل إلى الذروة التي وصل إليها

(١) إدارة الأمم المتحدة للغوث والتنمية UNRR A

-٤٦٥-

قبل الحرب ، وإن معدل الانتاج الزراعي عاد إلى سوية ما قبل الحرب أيضاً . وأوقف التضخم النقدي ، وأصبح الشلن النمساوي من أكثر الوحدات النقدية الاوربية ثباتاً .

اختصار الدول الغربية والاتحاد السوفياتي بشأن النمسا

لقد سبق ، منذ ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٣ ، أن أعلن الثلاثة الكبار المجتمعون في موسكو أنهم يريدون ، بعد الحرب ، أن يوطدوا النمسا حرة مستقلة غير أن النمسا ، نظراً لتدخلها في الحرب ، كان عليها أن تتحمل ، كالألمانيا ، مسؤولية خسائر الحرب والاسهام في التعويض عنها .

وفي ١٦ تشرين الثاني شاركت فرنسا الحرة في هذا الاعلان . وفي ٤ تموز ١٩٤٥ وقع « الأربعة » اتفاقاً ، في لندن ، يتعلق بالاشراف الحليف في النمسا ، وعدل هذا الاتفاق ، في ٢٨ حزيران ١٩٤٦ ، وأخذ بعين الاعتبار الحكومة النمساوية التي تألفت في غضون ذلك واعترف الحلفاء بها .

وضعت معاهدة السلام مع النمسا على جدول أعمال مؤتمر موسكو في ١٩٤٧ . وكلف مساعدو وزراء الشؤون الخارجية بإعداد مشروع لها . ولكن العلاقات ، في ذلك الحين ، كانت على أشدها توتراً بين الاتحاد السوفياتي والغربيين فقد أثار الاعلان عن خطة مارشال رد فعل عنيفاً من جانب الاتحاد السوفياتي ، وكان الوضع الذي يملك به في النمسا ذا قيمة أساسية بالنسبة له . وكما هي حال برلين ، كانت فيينا مقسمة إلى قطاعات يدير كلأ منها أحد « الأربعة » ، ومقرراً للحكومة النمساوية ، ولكنها وجدت في المنطقة السوفياتية . وإذا أخذ بعين قضايا عصرنا (٣٠)

الاعتبار شرقي النمسا ، وجد أن الاتحاد السوفياتي يفصل هونغاريا ورومانيا عن الحلفاء . وقد أثار بذلك عدة مزاعم ، لا يمكن للحلفاء أن يقبلوا بها ، بغية تأخير إبرام المعاهدة .

إن الحدود بين النمسا ويوغوسلافيا ورغم التعويضات التي كانت تطالب بها بلغراد والشكل الذي يجب فيه تحقيق تجريد البلاد من السلاح وانتزاع النازية منها ، وقضية الأشخاص النازيين واللاجئين ، فسحت كلها مجالاً لخلافات لم يكن في وسع اللجنة إلا الإشارة لها والتوكيد عليها . وفصلت قضية « الأموال الألمانية » بخاصة الاتحاد السوفياتي عن الحلفاء . فموجب الاتفاقات التي عقدت بين الحلفاء ، كانت « الأموال الألمانية » في البلاد التي احتلتها ألمانيا سابقاً ، تؤلف ، بالنسبة للحلفاء ، غنيمة حرب . وقد سبق أن الألمان ، بعد ضم النمسا ، في ١٣ آذار ١٩٣٨ ، أقاموا فيها شركات ألمانية ، وسلمت إلى هذه الشركات أموال مساوية . وبهذا العمل وضع اقتصاد النمسا كله بين يدي الرايخ وزعم الاتحاد السوفياتي بأنه يعتبر الأموال النمساوية القديمة التي صادورها الرايخ لصالحه كـ « أموال ألمانية » . أما الحلفاء فيعتبرون أن تلك الأموال النمساوية المصادرة يجب أن ترد إلى النمسا . وكانت هذه القضية أساسية بالنسبة للنمسا . وأدت النظرية السوفياتية إلى وضع الاقتصاد النمساوي بين يدي الاتحاد السوفياتي ، كما كان من قبل بين يدي الرايخ . وبفضل المشاريع التي صادورها النازيون وأرجعتها الدول الغربية إلى النمسا ، استطاعت الدولة النمساوية أن تسترد المشروع المعدني الكبير « دونا فيتزل ليز ليوبن » غير أن الروس ، طبقاً للاتفاقات ، أبطلوا المشروع ونقلوا أجهزته إلى الاتحاد السوفياتي . وعلى الأثر تدخلت خطة مارشل وأعادت تجهيز معامل دونا فيتزل بأجهزة

حديثه . وهذا النزاع ، الذي افتتح بين الاتحاد السوفياتي والغريبيين ، خول النمسا الحصول من خطة مارشل على مساعدة من أعلى المساعدات . فقد قبضت النمسا ٣٠٠ دولار من مساعدات مارشل على كل رأس من السكان . وأفادت هذه المساعدة بخاصة في مهر النمسا براكز مائة - كهر بائية قوية ، لا سيما وان النمسا ينقصها الفحم تماماً وعدا عن الأموال النمساوية العديدة ، سبق الألمان أن صادروا في النمسا الأموال التي كانت تابعة لمغتربي الحلفاء . وادعى الاتحاد السوفياتي باستملاك هذه الأموال أيضاً ، باعتبارها غنيمة حرب ، عدا عن التعويضات التي طالب بها النمسا ، وعارض الحلفاء الاتحاد السوفياتي وطالبوه بإرجاعها . وفي هذه الشروط لم يكن بالإمكان تدخل أي اتفاق أو توقيع معاهدة سلام مع النمسا .

ومع ذلك ، تبني الاتحاد السوفياتي موقفاً معتدلاً تجاه النمسا . فقد نظم الاحتلال فيها بشكل لا يعيق عمل الحكومة النمساوية القائم على مبادئ النظام البرلماني . حتى ان الاتحاد السوفياتي ، في الفائع من آب ١٩٥٣ ، تخلى عن نفقات الاحتلال . وعلى عكس السياسة التي طبقها الاتحاد السوفياتي في ألمانيا ، لم يحاول ديمقراطية ، منطقة احتلاله في النمسا . وحافظت الحكومة النمساوية ، حتى في المنطقة السوفياتية ، على حرية عمل كاملة لتطبيق سياسة اجتماعية معارضة بوضوح للشيوعية . وكما فعلت بلدية فيينا ، حاولت أن تبني عدداً كبيراً من بيوت العمال ، لا بشكل مجمعات عملاقة من نموذج كارل ماركس هوف^(١) الذي بنته الادارة الاشتراكية قبل الحرب في فيينا ، بل بشكل بيوت فردية مجموعة في مدن وحدائق . ولم يلق المرور أي معوق بين المناطق الروسية

(١) كارل ماركس هوف Karl Marx Hof

-٤٦٨-

والغربية أو بين مختلف القطاعات المحتملة في فيينا . ولكن الاتحاد السوفياتي ما فتئ يحافظ ، حتى ١٩٥٤ ، على موقف المعرقل حيال توقيع معاهدة سلام مع النمسا لا يرى في ابرامها أي فائدة له . واذن فقد حوفظ على الوضع الراهن . وعدا ذلك ، كان في هذا الحل فائدة للاتحاد السوفياتي : وهي أنه جعل النمسا رهنا بين يديه .

معاهدة السلام واستقلال النمسا

لقد كان ابرام ميثاق وارسو ، في ١٤ أيار ١٩٥٥ ، من جانب الاتحاد السوفياتي ، ظاهرة قوة . ولم يكن ، مع ذلك ، دليلاً على إرادة العودة إلى الحرب الباردة . وبالعكس ، كان الاتحاد السوفياتي يأخذ في الشرق مواقع بمثابة لمواقع حلف الأطلسي في الغرب ، وبذلك يرجع إلى الحطة الكبرى السياسية التي أراد مالنكوف رسمها وهي : إقامة منطقة محايدة ، عبر أوربة ، مشكلة باتحاد النمسا والمانيا ، والحصول ، على هذا النحو ، على الجلاء عن جميع الأراضي المحتلة ، أي انسحاب الجيوش الأميركية من القارة .

وفي شهر آذار ١٩٥٥ ، أي بعد مؤتمر موسكو مباشرة ، دعي مستشار النمسا راب^(١) إلى الكرملن وأحيط علماً بنية الاتحاد السوفياتي إعطاء النمسا استقلالها ، لاسيما وأن معارضة ستالين العنيدة ، التي كانت ضد معاهدة سلام مع النمسا ما لم يفصل في القضية الألمانية ، قد تخلي عنها فجأة ، وان قضية « الأموال الألمانية » في النمسا ، التي كانت عثرة في وجه كل اتفاق ، لأن الاتحاد السوفياتي يعتبر كـ « أموال المانية »

(١) راب Raab

-٤٦٩-

المشاريع التي صادرتها المانيا حين ضم النمسا إليها ، ظهرت بمكنة الحل بسهولة .

أحدث خبر هذه العودة ، في السياسة السوفياتية حيال النمسا ، انطباعاً عميقاً في أوروبا . وبعد بضعة أسابيع ، وبينما كانت موسكو تفسخ معاهدتي الصداقة اللتين تربطانها ببريطانيا العظمى (٢٦ أيار ١٩٤٢) وفرنسا (١٠ كانون الأول ١٩٤٤) ومؤتمر وارسو يجمع في جيش واحد قوى الدول التابعة جميعاً ، اجتمع (الأربعة) الكبار في فينا . وفي ١٥ أيار ١٩٥٥ ، وقع ليونولد فيغل ، وزير الشؤون الخارجية في النمسا ، المعاهدة التي تخول بلاده استقلالها . وبالمقابل ، تبنت النمسا موقفاً محايداً مماثلًا لموقف سويسرا يمنعها من الانضمام إلى أي حلف أو يخول دولة أخرى إقامة قواعد عسكرية على أرضها .

وأرفعت المعاهدة بنود اقتصادية : فمقابل المشاريع السوفياتية التي تخلي عنها والحقول البترولية التي استعيدت ، تعهدت النمسا حيال موسكو بأن تسلمها في ستة أعوام بضائع بقيمة ١٥٠ مليون دولار ، ومليون طن بترول في العام خلال عشرة أعوام ؛ وأن تعاد أموال شركة ملاحه الدانوب إلى النمسا مقابل تعويض بليون في دولار .

أما ما يتعلق بـ « الأموال الألمانية » السابقة فقد نصت المعاهدة على أن المالكين السابقين الألمان غير مخولين باستعادتها ، عدا الأشخاص الخاصين الذين يستطيعون حيازتها بمبلغ يصل حتى ١٠٠٠٠ دولار . وقد أحدث هذا البند رد فعل شديداً في بون .

واستردت الأموال الغربية المستثمرة في النمسا ، عدا أموال الشركات البترولية التي ظلت مكسباً للحكومة النمساوية تحت تحفظ أريد منه التعويض على المالكين السابقين .

-٤٧٠-

وبمناسبة توقيع معاهدة الدولة مع النمسا ، هذا الحادث العظيم الأهمية ، ألقى مولوتوف خطاباً هاماً أشاد فيه بموقف الحياد الذي اتخذته النمسا ، وأفهم أن القضية الألمانية يمكن أن تحل على نفس الأسس ؛ وفي الوقت ذاته أوحى بلقاء « الأربعة » الكبار ، وأعلن أن الاتحاد السوفياتي يضع أمام محدثيه خطة « مشيخة » لنزع السلاح . وهكذا جعل الاتحاد السوفياتي نفسه ، بلاء قوته ، مزايده على سلام العالم .

وفي الحقيقة ، أن حياد النمسا يؤلف بالنسبة للاتحاد السوفياتي نجاحاً دون منازع . وإن جلاء القوات الروسية عن منطقة الاحتلال في النمسا لم يغير في شيء ، تشكيل وتنظيم القوى السوفياتية التي ظل خطها مستمراً من البحر البaltيك حتى البحر الأسود . وإن التشكيل العسكري لحلف الأطلسي ، بالعكس ، قد تضعف جداً ، لأنه لا يوجد أي ارتباط بين القوى المربطة في ألمانيا الغربية وفي إيطاليا . ووجدت إيطاليا معزولة نوعاً ما .

وما من شك في أن هذه الظاهرة العسكرية ، في حضور الخطة السوفياتية ، لم يكن لها إلا أهمية ثانوية .

إن الهدف الأساسي ، الذي أراد الاتحاد السوفياتي التوصل إليه دون جدل ، هو التأثير على الغرب ، وبخاصة ألمانيا الغربية ، وذلك ليستشف من خلاله إمكان إعادة توحيد ألمانيا شريطة أن تكون محايدة كالنمسا .

يضاف إلى ذلك أن لمعاهدة استقلال النمسا معنى خاص ، لأن هذه هي المرة الأولى التي يجلو فيها الاتحاد السوفياتي عن موقع غربي أمامي منذ الحرب العالمية الثانية . وقد قبلت موسكو هذا الجلاء بعد الاعتراف

-٤٧١-

بجياذ النمسا ، وبعد أن بدا أن من المرغوب فيه ، إثر إدخال جمهورية ألمانيا الاتحادية في منظمة الدفاع الغربية ، أن تقوم بين الكتلتين الغربية والروسية بلاد حياذ معترف بها رسمياً .

وقلا ابتهاج النمساويين ، في أيار ١٩٥٥ ، دور من الازدهار لاجبارى في هذه الدولة الجرمانية الصغيرة . وبرهنت الالتزامات التي كانت على النمسا تجاه الاتحاد السوفياتي ، بموجب المعاهدة ، على أنها لم تكن ثقيلة شاقة أو يفزع منها . فقد يسر السوفياتيون الدفع بتخفيض طلباتهم والسماح بأن تحمل بنود أخرى محل الزيت الذي طالبوا به في معاهدة الدولة . وتم دفع آخر تعويض في عام ١٩٦٣ .

وبدأت الصادرات النمساوية تتدفق على السوق الأوروبية المشتركة ، وزادت أرباح الجمهورية وازدهر اقتصادها . وازدهار الصناعة النمساوية بشكل كاف جعل الاقتصاد النمساوي يستوعب اللاجئين الذين تدفقوا على النمسا بعد ثورة هونغاريا في ١٩٥٦ ، والعمال الذين توافدوا من البلاد القريبة ولم يجدوا عملاً في بلادهم .

وفي السياسة ، ان سيطرة حزب الشعب على الاشتراكيين في وظيفة المستشار ظلت حتى ١٩٧٠ . فقد خلف راب ، في ١٩٦١ ، الفولس غورباخ^(١) ، وخلف هذا ، في ١٩٦٤ ، مستشار آخر من حزب الشعب وهو جوزيف كلاوس^(٢) . ومن جهة أخرى ، حاول الاشتراكيون أن تكون الرئاسة في أيديهم . وكانوا يسيطرون على انتخابات المدينة في فيينا . وفي بداية ١٩٧٠ ، كسب الاشتراكيون لأول مرة ما يكفي

(١) ألفونس غورباخ Alfons Gorbach

(٢) جوزيف كلاوس Joseph Klaus

من المقاعد في الانتخابات الوطنية ، وأصبح زعيمهم الدكتور برونو كرايسكي^(١) ، مستشاراً .

وبالرغم من أن الجمهورية عززت مواقعها بشدة في النمسا ، فقد أخذت قضية عودة آل هابسبورغ الى الحكم تخامر أفكار الحكومة . ففي ١٩٦٢ ، اعترفت المحكمة العليا في النمسا بشرعية تخلي الارشيدوق اوتو هابسبورغ عن أي مطالبة بالحكم وعلان ولائه للجمهورية . وهذا الاعتراف يمكن أن يهد السبيل لعودة اوتو الى بلاده . ولكن امكان هذه العودة أثار أزمة سياسية . فقد اتجه حزب الشعب الى الانسجام مع حكم المحكمة ، وقلقى الاشتراكيون . وهدد هذا الجدل المحموم في « قضية آل هابسبورغ » بفرط عقد الائتلاف الحاكم . ولكن الأزمة جنبت عندما أعلن الأمير اوتو بأنه لا يريد العودة الى النمسا .

وفي السياسة الخارجية تابع النمساويون ، بعد ١٩٥٥ ، سياسة تدعيم الأمم المتحدة وأخذوا بها عندما نشب النزاع بين النمساويين وايطالياء على جنوبي التيرول .

اتسعت القضية التيرولية بخاصة بعد الحرب العالمية الاولى عندما بقي نحو ٣٥٠.٠٠٠ نمساوي جرمان في المنطقة الايطالية من التيرول الجنوبي . وقد دخلت هذه المنطقة في أبدي الايطاليين بنتيجة تسوية في نهاية الحرب العالمية الاولى ووعدت ايطاليا أن تضمن لسكانها استقلالاً ذاتياً عملياً . ولكن مسار الطليعة بدأ ، ونبه النشاط الارهابي المنفرق العالم الى وجود أقليات في هذه المنطقة

(١) برونو كرايسكي Bruno Kreisky

(٢) اوتو Otto

-٤٧٣-

وفي الأمم المتحدة رافعت النمسا بأن يكون الاستقلال الذاتي الحقيقي مضموناً في جنوبي التيرول . ومع ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة بأن تسوي الأمتان المعنيتان قضائهما بأنفسهما . وتلا ذلك تبادل عديد من المذكرات والدبلوماسيين بين روما وفينا ، ولم يعد ، على ما يبدو ، بنتائج كبرى . وأخيراً أمكن التوصل ، في ١٩٦٩ ، الى حل لصيانة الاستقلال المحلي ، وكان مرضياً لفينا وروما ، وان لم يكن مرضياً لجميع التيروليين الجنوبيين .

وفي الشؤون الخارجية الأخرى ، شاركت النمسا في مجلس أوروبا ، والمنظمة الأوروبية للتعاون الاقتصادي والتنمية ، ورابطة التجارة الحرة الأوروبية ، والاتفاقية العامة في التعريفات الجمركية . ونتيجة لهذه المشاركة في هذه المنظمات ، باشرت النمسا بتخفيض تدريجي لتعريفاتها . وبعد أن أصبح القسم الأعظم من تجارتها مع بلاد السوق المشتركة ، طالبت بالانضمام الى الوحدة الاقتصادية الأوروبية . ورغم أن النمسا لم تنجح ، في ١٩٧٠ ، في محاولتها للانضمام للسوق المشتركة ، فقد أصبحت قوية لدرجة كافية تمكنها من تنمية برنامج عون خارجي صغير لمساعدة الدول المتخلفة .

سويسرا

ظلت سويسرا محايدة خلال الحرب العالمية الثانية . وتبعاً لذلك كانت الحالة في سويسرا ، أثناء الحرب ، أقل تغيراً بكثير من معظم الدول الأوروبية الأخرى . ومع ذلك ، فقد شوهد في الحرب توسع نشاط الحكومة الفدرالية ، حتى ان الاقتصاد ، في نهاية الحرب ، كان على مستوى الاشراف الفدرالي أكثر مما كان على مستوى الكانتون .

وبعد الحرب تضايق كثير من السويسريين المدنيين من هذا الاشراف حتى أصبح من الضروري ، في ١٩٤٧ ، الرجوع الى الاستفتاء القومي على التوجيه الفدرالي للاقتصاد . وبنتيجة هذا الاستفتاء ، عدل الدستور ، وأعطيت الحكومة الفدرالية سلطات واسعة في مراقبة حالة البلاد الاقتصادية ولدور قصير اختصت بسلطات فرض رسوم طارئة ، ولكن هذه السلطات أعيدت الى الكانتونات في عام ١٩٥٣ .

ولم تصب الحرب سويسرا كما أصابت غيرها من الدول الأوروبية ، ولذا كان من السهل ، نسبياً ، على السويسري أن يحافظ على مستوى حياة عال بعد الحرب ، على خلاف المشهد المحزن الذي وجد فيه باقي أوربة وهو في حالة دمار . وأصبحت سويسرا مركزاً مالياً رئيسياً وبمولا لباقي أوربة . وكلما عاد الازدهار الى البلاد الأوربية الأخرى ، أخذت سويسرا المسألة ، التي لم تصبها القنابل أو قصف المدفعية ، تجتذب تيار السياح الآخذ بالتمو سنة بعد سنة . هذا فضلاً عن أن رسومها المنخفضة جعلت الأجانب يقبلون عليها ويتخذون منها مقاماً دائماً لهم .

ودلت انتخابات ما بعد الحرب أن نموذج الحكم السويسري ظل مستمراً في العمل بهدوء ، وحرراً من الاندفاعات التي ترى في الحالات القارية الأخرى . بيد أنه لوحظ نمو طفيف حقيقي في اليسار السياسي . وفي انتخابات ١٩٤٧ ، كسب الحزب الشيوعي ٧ مقاعد على مجموع ١٩٦ مقعداً . ومع ذلك ، ففي الانتخاب التالي ، انحدر التمثيل الأحمر الى خمسة ، ومن المحتمل الى متوسط من ٣ الى ٥ . وفي الانتخابات البرلمانية ، التي تجري كل أربع سنوات ، دلت الأحزاب الثلاثة : الديموقراطيون الجذريون ، الديموقراطيون الاجتماعيون ، والمحافظون الكاثوليكيون ، على قوة متساوية تقريباً .

وفت سويسرا نظام المجلسين المعتاد : أي الهيئة العليا التي تمثل الكانتونات التسع عشرة الكاملة وانصاف الكانتونات الست ، والمجلس الوطني المنتخب انتخاباً مباشراً ، كما أمنت الصورة السياسية القومية التي تظهر ميزة واحدة غير مألوفة . لأن الاستفتاء الشعبي (الريفيراندوم) ، الذي يمكن أن يلغى قانوناً أو يسن قانوناً ، هو مايجري في سويسرا عموماً . ولندكر على سبيل المثال ، في ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، أن المجلسين السويسريين تبني اقتراحات تحوّل المرأة حق التصويت في الانتخابات الوطنية ، والتوظف في الوظائف الاتحادية ، وقبول التوظف أيضاً في المحاكم الاتحادية النظامية . وقد اقتضت هذه الاقتراحات تعديلاً للدستور وعرضت على الاستفتاء الوطني في ١٩٥٩ ، ونخب الاستفتاء ، آمال الموافقة على تصويت المرأة .

هذا وبحافظ ، في سويسرا ، على الأشكال الديمقراطية بغيره وشدة . وبهـ المستوى الثقافي الوطني المواطنين جيداً لدورهم في الحياة الوطنية . وإن المسارات التربوية السويسرية ، وبخاصة في الجمنازيوم أو في المستوى التحضيري للجامعة ، تدعو الى الاعجاب حقاً . حتى ان المربين في جميع أنحاء العالم أخذوا عنها . ويعتبر السويسري رائداً في حقل الرفاه الاجتماعي . وبين برامج الرفاه ، التي تمت بصورة مبكرة على يد الحكومة السويسرية ، برنامج العناية بالأطفال المعوقين وثقيفهم وضمان المسنين ، وخطط التأمين الاجتماعي .

وفي الشؤون الخارجية ، ظل السويسريون متشبثين في حيادهم التقليدي ولا يبحثون عن عضوية منظمة الأمم المتحدة ، رغم أنهم يعملون في وكالاتها المتخصصة العديدة . ولم ينضموا الى منظمة معاهدة حلف شمال الأطلسي ، كما لم يبحثوا عن عضوية في منظمات تجارية أوروبية . وبعبير

آخر ، ظلت جونيف مدينة من أهم المدن العالمية . وقد اتخذت منظمة الصليب الأحمر ووكالات الأمم المتحدة مقرها بها . ومن جهة أخرى ، كانت جونيف وما زالت ، من بين مدن سويسرا ، تنمي المدارس والكتليات الدولية التي تستهوي الطلاب من الخارج .

بـلـجـيـكا

نهاية الأزمة الملكية . - في ٧ أيار ١٩٤٥ ، حرر الجيش الامريكى ملك بلجيكا . وسبق للحزب الاشتراكي أن أعلن معارضته لعودته في ١٠ نيسان . وفي ١٤ أيار صدر بيان شيوعى يدعو جميع أنصار الحرية الى التجمع ضده . وقامت حملة ثورية صراحة ، في البلاد ، في ١٦ حزيران ، للحيولة دون عودة الملك ، وعندئذ استقالت الحكومة .

وقد أعلم الجنرال اوسكين^(١) ، رئيس أركان القوات المرابطة في بلجيكا ، الملك بأنه يرفض الحفاظ على النظام إذا ما أثارت عودته الاضطرابات في البلاد ، وأنه لن يتدخل إلا إذا انفجرت الحرب الأهلية في بلجيكا كما تفجرت في اليونان ، . ونصحت الحكومة الملك بالتنازل عن العرش . وصرح الملك ليؤيولد الثالث بأنه يعاق قراره على مشاورة الأمة . وبعد اتهامات عنيفة وجهها رئيس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ضد الملك ، صوت المجلس ، في ١٩ تموز ١٩٤٥ ، على قانون يعلق نهاية الوصاية بقرار من البرلمان ، وسيطرت القضية السلافية على الحياة السياسية حتى عام ١٩٥٠ .

وما من شك في أن الموقف الذي اتخذته حكومة فان آكر^(٢) ،

(١) ارسكين Erskine

(٢) فان آكر Van Acker

كان بسبب الحزب من الشيوعية . إلا أن انتخابات نيسان ١٩٤٦ ، وهي الأولى المنظمة بعد التحرير ، أظهرت أن هذه الحزب كانت عبثاً : لأن الحزب الشيوعي لم يحصل على أكثر من ١٠ ٪ من الأصوات إلا قليلاً .

وفي المجلس حصل الكاثوليكيون ، وقد أصبحوا الحزب الاجتماعي المسيحي ، على ٩٢ مقعداً ، والاشتراكيون ٦٩ ، والأحرار ١٧ ، والشيوعيون ٢٣ ، والاتحاد الديوقراطي ، وهو نوع من حزب صافي جديد طرحت أسسه في لندن ، لاقى إخفاقاً ذريعاً ولم يستطع أن ينجح إلا مرشحاً واحداً . وعلى هذا فإن الرأي البلجيكي ظل وفيّاً للأحزاب التقليدية .

أصبح فإن آكر الحكومة ، وقد ضمت ٥ اشتراكيين ، ٦ كاثوليكين ٥ أحرار ، و ٢ شيوعيين . وقامت حملة عنيفة جداً ضد الملك . وفي البلاد ، حاولت سفارة الولايات المتحدة ، بسبب سياسة حكومتها المناوئة للشيوعية تدريجياً ، أن تتقرب من الملك ليؤبولد الثالث ؛ ولكن سفارة بريطانيا منعتها من ذلك . وكانت الحكومة العمالية الانكليزية ، في ذلك الحين ، تدعم في المانيا الحزب الاجتماعي - الديوقراطي وقررت تأميم الصناعة الألمانية في منطقة احتلالها . وفي حماسة الثورات الناشئة ، تصورت الحكومة العمالية أن تعمل من أوربة الغربية كتلة اشتراكية واسعة . وكان من الطبيعي أن تدعم الحزب الاشتراكي البلجيكي ، لأن الموقف ، الذي اتخذته ضد عودة الملك ، التقى مع التطلعات الانكليزية الى تشكيل أسرة قريبة تحت حماية بريطانيا العظمى .

ورفض الملك أن يزوج نفسه في النزاع ، وعهد بوثاقه الى لجنة مؤلفة من جامعيين وحكام عالين من الأحزاب الوطنية الثلاثة الكبرى . وفي

تموز ١٩٤٦ ، نشرت هذه اللجنة تقريراً يبطل جميع الاتهامات التي وجهت ضده .

وفي غضون ذلك استحوذت السياسة على القضية . وتحت ضغط الرأي أعرب الحزب الاشتراكي المسيحي عن رأيه في أنه مع عودة الملك وحصل على نجاح انتخابي كبير في انتخابات حزيران ١٩٤٩ : وأرسل الى المجلس ١٠٥ نواب على ٢١٢ وانتزع الاكثية في مجلس الشيوخ . وخسر الشيوعيون نصف نوابهم . وشكل ايسكسنس^(١) حكومة حزبية اشتراكية مسيحية ليبرالية وأعلن عن عزمه على حل القضية الملكية .

وصوت المجلس على قانون يخضع نهاية الوصاية لمشورة وطنية . وقد تمت هذه المشورة في ١٢ آذار ١٩٥٠ . وكان فيها ٥٨ ٪ من المصوتين مع عودة الملك .

واستجابة لهذا الحكم ، انعقد المؤتمر الاشتراكي في شهر نيسان ، واتخذ موقفاً ثورياً وصرح بأنه يرفض الانحناء أمام رأي الاكثية وأنه يعارض عودة الملك بجميع الوسائل . وأمام هذا التهديد ، غادر الاحرار الحكومة ، وأدت صعوبة تشكيل وزارة جديدة الى حل المجلسين . واستحوذت القضية الملكية على انتخابات ٤ حزيران ١٩٥٠ ، وأعطت هذه الانتخابات الاكثية المطلقة في المجلسين الى الحزب الاشتراكي المسيحي ، وهو الحزب الوحيد الذي أعلن رسمياً بأنه مع عودة الملك ، وتألقت حكومة متجانسة من الحزب الاشتراكي المسيحي برئاسة دوفيوزار^(٢) .

(١) ايسكسنس Eyskens

(٢) دوفيوزار Duvieusart .

وطبقاً لقانون تموز ١٩٤٥ دعت الحكومة المجلسين لعقد الجمعية الوطنية . وفي ٢٠ تموز ١٩٥٠ أنهت هذه الجمعية الوطنية الوصاية ودعت الملك لاستئناف سلطاته .

عندئذ ألف الاشتراكيون والشيوعيون لجنة عمل ، كما فعلوا في تشيكوسلوفاكيا عام ١٨٤٨ لفرض الشيوعية بالقوة ، لمنع الملك من تولي العرش . وقام اضراب عام في المراكز المتعاطفة مع الشيوعيين في البلاد في لياج وشارلوروا وأخذ طابع ثورة وجاءت سيارات من فرنسا وأتت الى بلجيكا بعملاء شيوعيين أميين خبراء في تقنية الثورة . وساندت الصحافة في انكلترا وفرنسا هذه الحركة المناوئة للملك ، ودعم العمالون الانكليزيين المضربين الذين قرروا الزحف على بروكسل وجرى حادث بسيط كلف حياة أربعة ثوار ، ثلاثة منهم أجانب ، وعندئذ افتتحت المفاوضات بين الاحزاب .

وعندما بدا الزحف على بروكسل اخفأ ، استقالت الحكومة . ولم يشأ الملك أن يطيل الاضطراب حول شخصه ، فدخل سلطاته الى ابنه بودون ، في ٣١ تموز ١٩٥٠ . وبعد عام ، تنازل الملك ليوبولد الثالث عن العرش لصالح ابنه بودون وقد بلغ سن الرشد .

وحافظ الحزب الاشتراكي المسيحي على الحكم حتى انتخابات ١٩٥٤ التي انضمت به اخفأ ذريعاً . وشكل فان آكر وزارة اشتراكية - ليبرالية مع سباك وزيراً للشؤون الخارجية .

وفي غضون ذلك ، تم التغلب على الازمة التي ولدتها الحرب . واستعاد الملك ليوبولد الثالث عطف الرأي بكامله تقريباً نظراً للموقف الذي اتخذته .

ووضع دوره أثناء حرب ١٩٤٠ على ضوئه الحقيقي ، واستعادت السياسة البلجيكية كامل استقلالها . وتقررت حكومة فان آكر من ليوبولد الثالث ، وبعد بضعة أسابيع على استلامها السلطة ، وضعت علناً حجر الأساس لأبدة تذكارية لمعركة نهر الليس عام ١٩١٤ و ١٩١٨ ، ولم تكن هذه الأبدة غير تمثل ليوبولد الثالث وهو ، منط صهوة الجواد .

ومعكذا تم تجاوز أزمة النظام . وعادت بلجيكا بالاجماع تقريباً الى نظمها الملكية التقليدية . وفي ٢٢ آذار ١٩٥٥ ، اعترف سباك في المجلس بخطأ الحملة التي وجهت ضد ليوبولد الثالث ، مصرحاً : « أيها السادة ، لا أدعي بأنني أفكر دوماً عن رضى بكل ما فعلت في ١٩٥٠ » ، ويقصد بذلك الزحف على بروكسل الذي وجهه على رأس لجنة العمل الاشتراكية الشيوعية لمعارضة قرار البرلمان الذي دعا الملك لاستئناف امتيازاته ، ولكنني أرجوكم ، دهنوني وقضايا الشخصية ووجداني » (١) .

وفاء بلجيكا للحوية الاقتصادية . - لقد أضعفت الحرب العالمية الثانية بلجيكا بشكل عميق كما أضعفت فرنسا . وانتقل الدين العام من ٥٨ مليار في ١٩٣٩ ، الى ٢٥٤ مليار في ١٩٤٦ . لقد دمر ٦٠٠٠٠ بيت مع عدد من أعمال الفن وتوقف الاقتصاد تقريباً .

واستؤنف العمل منذ تحرير البلاد لتجهيز الجيوش الخليفة . ودفع لبلجيكا ١٦ مليار دولار لاعاشة هذه الجيوش وظلت في البلاد . وقد ساعد دفعها اللاحق بالعملات الاميركية بلجيكا على دفع ثمن وارداتها . ومنذ آخر ١٩٤٦ ، استؤنفت الصادرات وتوصلت الى نقطة أمكن فيها توازن ميزان المدفوعات .

(١) اللبس La Lys .

(٢) الضبط التحليلي لمجلس النواب ، جلسة ٢٢ أيار ١٩٥٥ ، بعد الظهر .

وهذا النموذج الاقتصادي السريع والدائم لبلجيكا كان واقع سياستها التجارية التي ظلت ، خلافاً لسياسة البلاد الغربية الأخرى ، وفيه نسبياً لليبرالية . ولا شك في أن بلجيكا ، بعد الحرب مباشرة ، أصيبت بعدوى الأفكار المحيطة وانخرطت في طريق التوجيهية الاقتصادية محاولة تثبيت الأسعار المنخفضة جداً ، وذلك بتعويضها بمساعدات الدولة زاعمة تنظيم الاستيراد والتصدير . وبدأت هذه السياسة ضارة بكميتها الإنتاج . ولأدت معارضة شديدة ، لافي الأوساط الصناعية فحسب ، بل في الجمهور الذي ردّ وعطف الأنظمة التقييرية عفوياً بتأسيس السوق الأسود الذي امتد على جميع السلع كما امتد أيضاً على مدة العمل ، لأن العمال كانوا يعملون بالتهريب ساعات أكثر مما يسمح القانون لهم به . وأمام موقف الشعب ، عدلت الحكومة بسرعة عن التقنين والتحديد . وفي آخر عام ١٩٤٩ ، لم يعد الاقتصاد الموجه موضع بحث . وأصبحت السياسة الاقتصادية مؤسسة منذ ذلك الحين ، على الثقة بالمبادأة الخاصة . وكان في ذلك ما يعاكس سياسة «التقشف» التي طبقتها انكلترا وهولاندا لمحاولة توازن ميزان مدفوعاتها ، وهذا يعني أنها كانت سياسة «الوفرة» . فقد ترك التصدير حراً وأكثر حرية من أي بلد آخر في أوروبا . وظهر آنذاك أن «التقشف» إذا كان يبور بأسباب نظرية ، فإن الانتاج لا يمكن أن ينشط ، في الواقع ، إلا بسياسة وفرة ، وإن التصدير يرافق آلياً بالاستيراد . وهكذا نهض الاقتصاد البلجيكي باللعبه الحرة لليبرالية ، دون تجنيد الأموال التي في الخارج ، ودون زيادة الدين العام - من ٢٥٤ مليسار في ١٩٤٦ نزل الى ٢٥٢ في ١٩٤٩ - ، ودون تعويض خسائر الحرب ، ومع تحمل العبء الثقيل جداً للأمن الاجتماعي الذي أدخل بصورة مريضة قصوى بعد الهدنة مباشرة .

- ٤٨٢ -

ولا شك في أن الحرية أدت الى ارتفاع الاسعار ، ولكن هذا الارتفاع أبعد التضخم النقدي وساعد على ارتفاع الأجور الذي تجاوز بسرعة نسبة زيادة الحياة . وبالرغم من الارتفاع ، فإن التصدير ، وبخاصة تصدير منتجات الصناعة الحديدية ، عرف ازدهاراً عريضاً ، حتى ان بلجيكا ، في ١٩٤٩ ، قامت بفتح اعتمادات بـ ١٤ مليار للبلاد المشتري ثم ازدادت هذه الاعتمادات بـ ٥ مليارات ، وذلك بخاصة ، بسبب ميكانيكية الاتحاد الاوربي للمدفوعات .

ومع ذلك ، وجدت الصناعة أمام قضية خطيرة وضعها نقص الفحم وفقدان العمال الذين يريدون الاستغلال في المناجم . ففي ١٩٤٦ ، لم يصل انتاج الفحم إلا إلى ١٦ مليون طن ، أي نصف انتاج ما قبل الحرب وكانت النتيجة تحديد الانتاج بنفس النسبة . وتحسنت الحالة تدريجياً باستخدام الأمري الألمان أولاً ، والاشخاص النازحين والابطالين من بعد .

وتشكلت عقبة أخرى أمام التوسع بسبب استنزاف التجهيزات . فقد ظلت بلجيكا تبني خطط استثمارات طموحة جداً ؛ وأصلح ما كان صالحاً للاستعمال . وحدثت المشاريع أجهزتها بواسطة التمويل الذاتي - أي بتوظيف الارباح المتحققة - ، وبخاصة في صناعة الحديد . وساعد ازدياد عائد المراكز الكهربائية على بحاجة العوز الى الفحم وعلى اتساع جميع حاجات الصناعة والسكان . ومنذ ١٩٤٩ أمكن حذف جميع التقديرات في التيار الكهربائي .

وأخيراً ، لاجتباب التضخم النقدي ، كانت بلجيكا أقل من البلاد الأخرى في الاشغال العامة . فقد اقتصر على اصلاح الخطوط الحديدية وكهربتها وعلى تجديد شبكة الطرق .

وبعد خمسة أعوام على هذا النظام الحر « الليبرالي » تحقق الإصلاح ،
 لا على الصعيد الصناعي فحسب ، بل أيضاً على صعيد التعمير . ان القانون
 المتعلق بجسائر الحرب ، المقتر جداً بحال المالكين ، لم يصوت عليه الا
 في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، ويسير إلا في ١٩٤٩ ، ووضع عشرين هاماً
 للمدفوعات التي يجب ان يعوض بها على المنكوبين . غير انه وجد في
 ١٩٤٩ ان جميع البيوت تقريباً قد عمرها المنكوبون بأنفسهم ، ولم
 يكن من الدولة ، أمام فقدان التعويضات ، إلا أن خولت تسليفات
 معوضة .

وكما تعمرت البلاد ، أمكن الرجوع الى حرية الاجور (للعمال)
 والاجارات (للعقارات) . وظلت الاجارات الصغيرة جديداً بحمية حتى
 ١٩٥٣ . ونجم عن ذلك انطلاقة بناء كبرى . ومنذ ١٩٥٠ ، كان وضع الأموال
 اللامنتقلة في البلاد يتجاوز وضع ما قبل الحرب . وكان الانشاء يقوم
 بدور المنشط الانتاج ، بينما كان العدد العظيم من الاجنحة (الشقق)
 والمنازل الجاهزة للإيجار يحول دون رفع الاجارات بشكل غير عادي .

وهكذا عاد يتوطد ، منذ ١٩٤٩ ، مستوى حياة ما قبل الحرب
 ومنذ ذلك الحين وهو آخذ بالارتفاع . فقد ازدادت بوضوح القوة الشرائية
 للأجور وأدت الى استهلاك قوي لمنتجات كانت تعتبر كالية قبل الحرب .
 ووجدت قرينة أسعار المرفق في مستوى أخفض من قرينة الاجور .

وحصلت باجيكا على هذه النتيجة بقواها الوحيدة . وكانت الامة
 الوحيدة الغربية التي لم تلجأ الى خطة مارشل إلا قليلاً : ففي سياق
 الممارسة الاولى للخطة ، أي في ١٩٤٨ ، أعطيت منحة قدرها ٤٣ مليون
 دولار ، ثم لاشيء . ومع ذلك فقد كانت خطة مارشل ذات نفع كبير
 للصناعة الباجيكية ، لانها سهلت صادرات باجيكا يجعل زبائننا مليونين .

-٤٨٤-

ان الحرية الاقتصادية ، التي اعتمدت عليها بلجيكا في اعمارها ، تفترض كشرط أساسي ، استقرار النقد ، ولا يمكن الحصول على هذا الاستقرار إلا بفقدان التضخم . وللتضخم ضد هذا التضخم ، اعتمدت السياسة البلجيكية أيضاً على الحرية ، فقد تركت الاسعار ترتفع . وهكذا توطد بفعل الاقتصاد الحر ، التوازن النقدي ، الذي دعمه ، من جهة أخرى ، فائض ميزان المدفوعات .

ان موازنة الحرية (الليبرالية) التي طبقتها بلجيكا ، توطدت في ١٩٥٠ ، بالنسبة الى ١٩٣٨ ، بزيادة الانتاج ب ٢٥ ٪ ، وقد طابق ذلك زيادة معادلة في الصادرات . والدخل القومي ، المقدر ب ٦٥٢٠٠ مليون فرنك في ١٩٣٨ ، زاد بنسبة ٢٠ ٪ تقريباً . وكان ١٩٠٢٠٠ مليون في ١٩٤٠ ، ولكن القوة الشرائية للنقد كانت قد تناقصت من ثلاث الى اربع مرات بالنسبة الى ١٩٣٨ . وفي ١٩٥١ ، قدر الدخل القومي ب ٣١٠ مليار بعد أن كان نحو ٨٠ مليار في ١٩٣٨ . ولم يس الاحتياطي الذهبي للبنك الوطني البلجيكي .

وبالمقابل ، ان السوية المرتفعة جداً للاستهلاك ، الذي كان يعمل منشطاً للانتاج ، حددت تشكيل رأسمال جاهز للاستثمارات ب ١٥ ٪ من الدخل القومي - نسبة مئوية مماثلة الى نسبة بريطانيا العظمى ، ولكنها أخفض بما في البلاد الاخرى المنتجة - فقد بلغت النسبة ٢٠ ٪ في الولايات المتحدة ، ٢٢ ٪ في فرنسا ، ٢٤ ٪ في هولانده ، ٢٦ ٪ في ألمانيا - والاستثمارات التي قامت بها الدولة ب ١٢ ٪ من مواردها . وذلك مقابل ١٣ ٪ في فرنسا ، ١٥ ٪ في ألمانيا والبلاد المنخفضة ، ١٧ ٪ في الولايات المتحدة وفي بريطانيا العظمى .

وتوضع بلجيكا اليوم بين اغنى البلاد الاربعة في أوربة بعد سويسرا

والسويد ، وبريطانيا العظمى . وفي المقارنه العالميه تحتل الدرجة التاسعة .

وخلافاً لبريطانيا العظمى وفرنسا ، لم تزج بلجيكا نفسها في طريق التأميم . ومع ذلك ، فان الرأسمالية الكبرى ، في بلجيكا ، كما في أوربة الغربية كلها ، مرت على الاقل تحت اشراف الدولة . ومنذ وزارة فان زييلاند (١٩٣٦) ، التي طبقت سياسة اقتصادية مستوحاة من البرنامج الجديد الذي وضعه الرئيس روزفلت للولايات المتحدة ، أقيمت بعض الرقابة على البنوك . وعند التحرير ، عند تطبيق خطة غوت ، وجدت البنوك مضطرة الى وضع ثلث الجاهز لديها في اسناد الدولة . ونشأ عن ذلك تضيق هام في الاعتماد . وشكلت عدة شركات ، في نطاق النقل والقوة المحركة بخاصة ، وكانت الدولة مهتمة بها ، ومارس عليها رقابة مباشرة . واتجهت السياسة الضريبية ، كما في فرنسا ، نحو أهداف اجتماعية واقتصادية : اجتماعية بمعنى أن الضريبة التصاعدية على الدخل بخاصة ، تضرب بخاصة ، في الواقع ، الدخول المتوسطة والشغلة المستقلين الذين يضحى بهم لصالح الشغلة النقابيين ؛ واقتصادية لان الضريبة ترمي الى توفير أكثر مايمكن من الجاهز بغية وضعه تحت تصرف الدولة . وهكذا وجد الاعتماد الخاص مردوداً بصورة فريدة لصالح الدولة ، ولكن ، مع ذلك ، بنسب أقل أهمية بكثير مما في فرنسا أو السكاتوا .

وفوق ذلك ، وبالرغم من بعض المحاولات التي قامت بها الحكومات الاشتراكية والاجتماعية - المسيحية ، فان بلجيكا لم تتعرض في طريق الاقتصاد الموجه (التوجيهية) ، بل بقيت ، كما كانت دوماً ، وفيه المبادلة الحرة . ونظامها الاقتصادي ، في أوربة ، نظام يذكر أكثر ما يذكر بنظام الولايات المتحدة . وبما لا شك فيه أن الفرنك البلجيكي

-٤٨٦-

إذا أصبح « نقداً قريباً » ، فذلك بفضل الليبرالية والاستقلال الذي حافظ عليه البنك الوطني وكان مديناً له .

محافظة بلجيكا على نظام الربانية والحزب الاشتراكية في الكونغو

كانت بلجيكا الدولة الوحيدة من بين الدول الاستعمارية ، التي لم تعرف أزمة في مستعمراتها فيما وراء البحار . وتبدو حالة الكونغو وحيدة في النظام الاستعماري .

كانت الكونغو البلجيكية تضم ١٢ مليون زنجياً وما يقارب ١٠٠٠٠٠ أبيض وأكثر من نصف هؤلاء بقليل بلجيكيون . وكانت تدار من قبل وزارة المستعمرات ، وتحت إشرافها يرأس الحاكم العام مقدرات البلاد المستعمرة . ولم يكن الزواج أو البيض يملكون فيها حقوقاً سياسية . ولم يشارك الاصليون ، باستثناء السلطة التي يحافظ عليها قدامى « الزعماء » في إدارة المستعمرة أو تشريعها ، ان لم يكن على الصعيد المحلي ، حتى ان العقائدية الديمقراطية لم تدخل الى الكونغو .

وبالمقابل ، قامت جهود عظيمة ، من قبل الدولة ومن قبل الشركات الكبرى ، لتحسين مستوى أبناء البلاد . فقد ارتفعت الاجور بسرعة . وهيا المستخدمين ، في المشاريع الكبرى ، الى العامل ، عدا أجرته ، السكن والغذاء واللباس والتعويض العائلي . وتصرف المشاريع المنجمية الكبرى على عمالها حتى ١٢٠ فرنكاً في اليوم . وللمأجورين الزواج الحق بيوم عطلة مدفوعة في الاسبوع ؛ وجميع العنايةات الطبية مجانية . وأعطيت تسهيلات الى الزواج لنساعدهم على بناء بيت لهم ؛ ومنعهم الدولة ، لهذه الغاية ، حتى ١٥٠٠٠٠ فرنك قرضاً يمكن وفاؤها في ٣٠ عاماً بفائدة ١٪ . ويبدو أن الكونغوليين ، على وجه العموم ، راضين

عن مصيرهم . فالاستقبال الحار الذي استقبلوا به الملك بودون الاول في الرحلة التي قام بها الى الكونغو ، في أيار - حزيران ١٩٥٥ ، كان ظاهرة مدوية . ولكن أليس في ذلك ما يدل على أن كل شيء قد رتب سلفاً من قبل السلطات البلجيكية المقيمة في الكونغو ؟!

ونظم التعليم ، في القسم الاعظم منه ، على يد البعثات التبشيرية التي تدعمها الصناعة الكبرى وتؤازر في الكونغو سلطة حقيقية . فقد وجد في الكونغو ٤٧٠ بعثة كاثوليكية تضم ٤٤٣٠ مبشراً ، و ٢٥٨ مبشراً بروتستانتيّاً تضم ١١٧٠ مبشراً . ولا يشمل التعليم الذي تعطيه إلا المدارس الابتدائية والملكوية . ولا يوجد في الكونغو كونغوليوت يحملون الشهادات الجامعية . وبعد الحرب العالمية الثانية أعدت الدولة والبعثات التعليم الثانوي . وحدثت جامعة لوفن مركزاً جامعياً ، لوفالنيوم ، حيث أقيمت فيه بعض الكليات ، وأعطيت الامية لكلية الطب . كما افتتحت الدولة جامعة في اليوايتفيل

ويمكن التعليم الابتدائي والمهني من تأليف طبقة وسطى كوثولوية . واحتل الزوج المراكز الصغيرة ، وماوسوا فيها وظائف ملققة ، وتعاطوا الحرف اليدوية والنجارة . وفي ليؤبولدفييل ، كان القسم الاعظم من تجارة المفرق في أيدي الزوج ، وكان بعضهم يحتل مراكز هامة في التجارة المحلية . فمن ذلك أن ١٠٠٠٠ زعيم أسرة زنجياً يكسب الواحد منهم ٦٠٠٠ فرنك بلجيكي في الشهر (الدولار الواحد يساوي ٥٠ فرنكاً بلجيكيّاً) . وكان مستوى حياة الزنجي في الكونغو أعلى مما هو في المستعمرات المجاورة . وبذل جهد كبير على صعيد الصحة والتربية . ولكن بالطرق الربانية ^(١) فقط .

(١) بالنسبة الى رتب العمل الذي يتيده وحده سلطة انشاء وإدارة الأعمال الاجتماعية في المشروع .

وعلى الصعيد الاقتصادي ، لم يكن الرخاء في الكونغو مديناً للتوجيهية الاقتصادية (الاقتصاد الموجه) بشيء . ومهما تكن أهمية الزراعة - وجد ١٤٠٠٠٠ معمر يستخدمون ٣٥٠٠٠٠ زنجي وتوظيف مليار فرنك - فان الصناعة تؤلف الثروة الاساسية في الكونغو . ان مناجم الكونغو تعطي ، في العام ، ١٩٢ مليون طن من النحاس ، ١٤ مليون طن من القصدير - وهذا يجعل الكونغو ثاني منتج للقصدير في العالم - ٥ ملايين طن من الكوبالت - أي ٧٥٪ من الانتاج العالمي - ٨٩ مليون طن من التوتيا ، ٢٠٠ مليون طن من التانغستين ، و ٥٦٪ من الانتاج العالمي من الماس الصناعي . وأخيراً ، الكونغو أكبر منتج للورانيوم ، ويبيع هذا المعدن بسعر منخفض جداً في الولايات المتحدة بموجب اتفاق أبرم لاثني عشر عاماً ، في آخر الحرب ، في ١٩٤٤ .

وتستثمر هذه الثروات الواسعة من قبل شركات مختلطة تحتفظ فيها الدولة ، بموجب الشروط التي وضعها ليوبولد الثاني للامتيازات المنجمية ، بـ ٥٠٪ من رأس المال . ولم تكن هذه الشركات المختلطة مشاريع تدار من قبل الدولة ، بل بالعكس ، تشارك الدولة فيها كـ رأسمالي خاص . ولا يعرف الاقتصاد الكونغولي تدخل الدولة المباشر في الاقتصاد ولا التوجيهية ، بل يقوم على أساس الرأسمالية الليبرالية . وتعتبر الدولة أكبر رأسمالي في الكونغو ، نظراً للحقبة الجسيمة التي تحتفظ بها وتخص نفسها بها .

وبعد الدولة ، تأتي الشركة العمومية وهي الرأسمالي الأساسي ، وتدخل في الدولة كسلطة حقيقية . وعدا مناجم كاتانغا العليا ، كانت شركة الملاحة في الكونغو في يديها .

كانت الكونغو تعيش مستقلة عن الوطن الأم (بلجيكا الدولة

- ٤٨٩ -

المستعمرة) . وكانت لها موازنتها الخاصة ، وتحافظ على توازنها بسهولة بفضل المشاركات التي تمتلكها الدولة في مشاريع المناجم . فعلى الـ ٦ مليارات التي تتضمنها الإيرادات ، يوجد ٢ مليار تقدمها الضرائب التي تدفعها شركة اتحاد المناجم في كاتانغا العليا .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، تمت الكونغو نمواً مفاجئاً . فقد اقيمت الصناعة الى جانب المناجم : معامل تكرير النحاس ، فبارك النسيج . معامل الاسمنت ، معامل الجعة (البيرا) ، الخ . . ونهضت المدن فيها نمواً مفاجئاً ايضاً . فقد بلغ سكان العاصمة ليژبولدنيل ٣٥٠٠٠٠ وتجاوز سكان اليزابتنفيل ١٠٠٠٠٠ نسمة ، واوزومبارا ٦٥٠٠٠ . ومع ذلك ، فان عمر البلاد الاقتصادي مازال في بداياته . ان ٩٠ ٪ من الثروة مازالت فيها غير مستغلة ، مناجم الحديد الغنية بخاصة وامكانيات قواها المائية . وقد وضعت خطة لعشر سنوات ، بعد الحرب ، تتوقع في الأصل ٢٥ مليار مقدار الاستثمارات المخصصة لتحسين النقل ، والطرق الجوية بين بلجيكا والكونغو ، والقوى المائية - الكهربائية ، ثم ارتفع هذا الرقم الى ٤٥ مليار فرنكاً .

ان مائيز الكونغو أساساً ، وان ما يجعل منها تجربة عظيمة الأهمية ، هو أنها مازالت تعيش في النظام الرأسمالي ، الليبرالي والرباني .

هولاندا

تحررت هولاندا من الحكم النازي في أيار ١٩٤٥ ، بعد ثمانية أشهر على تحرير بلجيكا . ووجدت ، غداة الحرب ، في حالة جديدة تماماً وصعبة بخاصة .

لقد مرت هولاندا بدور طويل كانت فيه مزدهرة ومحيدة ، ولكنها

خضعت فجأة ودون دفاع تقريباً للغزو الألماني . وكانت الخسائر المادية التي سببتها الحرب لها باهظة : فقد ارتفعت ، في المنشآت وفي أكادس التجارة والصناعة ، الى ٤ مليارات فلورن ؛ وتدمر فيها ٧٥ ٪ من شبكة الخطوط الحديدية و ١٣٠.٠٠٠ منزل ؛ وتغطت مئات الألوف من منازل « البولدر » ، في جزيرة فالشيرين بخاصة ، بياه البحر اثر تهديم السدود . ورد الجاهز من الذهب أو العملات الأجنبية الى لاشيء تقريباً . واضطرت هولاندا مباشرة الى استيراد الأغذية والمواد الأولية . وتخرب ميناء روتردام بصورة فظيعة بالقصف الجوي الذي اهل عليه الألمان به في ١٩٤٠ ، وحرم من التجارة الألمانية التي كانت تؤلف قبل الحرب مصدراً أساسياً لنشاطه .

وعلى نقبض بلجيكا التي أخذت الكونغو بالنسبة لاقتصادها أهمية متزايدة ، أعلنت مستعمرة أندونيسيا العظيمة ، التي تنتج ١٦ ٪ من الدخل القومي ، استقلالها ، وكانت القضية الموضوعة معرفة ما اذا كانت هولاندا تستطيع ، تحت شكل سياسي جديد ، أن تحافظ على الثروات التي أوجدتها فيها . وكان يرافق هذا الانهيار القومي ثورة عميقة في التقاليد السياسية للبلاد . ف منذ ١٨٣٨ ، كانت البلاد المنخفضة تعيش منطوية على نفسها ، بعيدة عن كل سياسة دولية ، وفي ازدهار بورجوازي قديم يقوم على مواردها القومية والاستعمارية التي تكفلها ، كما كانوا يفكرون ، حياد أبقاها في معزل عن حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . ولكن غزو ١٩٤٠ جعلها تتخلى قطعياً عن ثقافتها بسياسة الحياد . وقد برهن اعلان استقلال اندونيسيا ان ليس بإمكان هولاندا أن تحافظ ، بوسائلها العسكرية وحدها ، الضعيفة جداً ، على مكانتها بين الدول الاقتصادية والاستعمارية . وهكذا وجدت

(١) البولدر Polder المناطق التي كسبها الانسان من البحر وعمرها .

فجأة أمام هذا الواقع - الذي يفرض نفسه دون أن تشعر به ، منذ الحرب الاولى - وهو أنها ليست قادرة بوسائلها وحدها ، على تأمين ازدهارها وأمنها . وسواء شئت أم لم تشأ فقد وجدت نفسها داخلة في تعقيد الدول الدولي .

ان الاحتلال والدمار والمقاومة التي نظمت ضد المحتاح ، أخرجت هولاندا من راحة بالها البورجوازية ، لتوجه نحو الشمال الجبى العام لسياستها .

والشعب الهولاندي شعب متزن راجح . فمنذ ١٩٠٣ لم تعرف هولاندا اضطرابات هامة . وحياتها السياسية نمت دون هزة ودون هوى . وكثرة الاحزاب أخضعها ، منذ الحرب العالمية الاولى ، لحكومات ائتلافية ، تشكلت قاعدتها بالحزبين السياسيين المسيحيين ، الكاثوليك والبروتستانت .

وقد طبع آخر الاحتلال ، في ١٩٤٥ ، باضطرابات كبرى قامت لدعم المقاومة . وأخذ العنصر العمالي ، على هذا النحو ، جانبا من المستوى الاول من مشاغل الزمن السياسية . ثم ان تعاون الحزب المناصر للنازية مع المحتل أثناء الحرب ، وظهور الحركة الشيوعية ، جعل من الضروري ، على ما يبدو ، إعادة تسوية الحالة السياسية للأحزاب . ولتحقيق ذلك ، تشكلت « الحركة الشعبية الهولندية » ، وتهدف الى تركيز القوى القومية في اتجاه اجتماعي بناء . ولكن ، كما في بلجيكا وفرنسا ، قضت الاحزاب القديمة على محاولات التجديد هذه ، واستحوذت بسرعة على الرأي الذي لم يكن يشغله ، أثناء الاحتلال الماضي ، الا شاغل واحد : وهو العودة الى الازدهار الذي كان قبل الحرب والقبض بيدها على اندونيسيا التي يعتمد على ثرواتها لانقاذ الحالة الاقتصادية في البلاد .

-٤٩٢-

وقد حدث مع ذلك بعض الميل نحو اليسار في آن واحد في الحزب الكاثوليكي وفي الحزب الليبرالي ، الذي أخذ امم د الحزب الشعبي في سبيل الحرية والديموقراطية . ولكن التجديد ظهر بخاصة في أوساط اليسار . فمن ذلك أن د حزب العمال الاجتماعي - الديموقراطي ، الذي كان يمثل قبل الحرب الاشتراكية الهولندية ، قد تخلى ، وربما أكثر مما في بلجيكا ، عن الأفكار الماركسية ليؤلف قبل كل شيء حزباً عمالياً منفتحاً على المسيحيين الاشتراكيين . وبعد الحرب تحول الى د حزب العمل ، الذي تشكل على نمط حزب العمال الانكليزي . وضم هذا قدامى الاجتماعيين - الديموقراطيين ، عناصر يسار د المسيحيين التاريخيين ، في الحزب الكاثوليكي ود الاتحاد الديموقراطي - المسيحي البروتستانتي . وفي داخل حزب العمل هذا ، تشكلت فوراً ثلاث فئات ، احداها بروتستانتية ، والاخرى كاثوليكية ، والثالثة ، مؤلفة من عناصر لاتنتمي لأي دين .

وهكذا وجدت القضية الدينية محذوفة على الصعيد السيامي . وساعدت انتخابات ١٩٤٦ ، تحت حكومة الاتحاد الوطني الذي ألفه شيرميرورن أثناء التحرير ، هولندا على أن تتفهم التطور الذي حدث في الشكل الخارجي للأحزاب . فالحزب الكاثوليكي ، الذي احتفظ بمواقفه قبل الحرب ، ظل أقوى الأحزاب ، ب ٣٣ ٪ من الأصوات . والاشتراكيون - الديموقراطيون الذين أصبحوا حزب العمل ، تقدموا اثر تركيز اليسار الذي تم حوله ، ب ٢٩ ٪ من الأصوات . أما المناوون للثورة فقد تراجعوا الى ١٠ ٪ ؛ واحتفظ المسيحيون التاريخيون بمواقعهم ب ٨ ٪ ؛ ونقدم الاحرار قليلا (٦ ٪) ؛ وسقطت الاحزاب الصغيرة الى لاشيء تقريباً (٢ ٪) . والحادث الذي سيطر على الانتخابات كان في القفزة الى الامام التي قفزها

-٤٩٣-

الشيوعيون عندما حصلوا على ١٠ ٪ من الاصوات . ثم ظهر ، على الصعيد العمالي ، مركز نقابي ، من اتجاه شيوعي ، أمام الفرق النقابية الثلاث التي كانت توجد قبل الحرب ، الاشتراكية ، الكاثوليكية ، والبروتستانتية .

ولكن الشيوعيين ، بزج أنفسهم في سياسة الاجباط المستندة على الاضراب المتمثل ببطء العمل وانصرافهم الى تطهيرات مستمرة في حزبهم أبعدت الطبقة العاملة عنهم ، لم يحصلوا ، في انتخابات ١٩٥١ ، على أكثر من ٧ ٪ من الاصوات .

تطور هولندا نحو الاقتصاد الموجه . - وبالرغم من البلاء الفظيع الذي أتى به الاحتلال ، فلم تصب هولندا بعد الحرب بأي أزمة اجتماعية . وبالمقابل ، وجدت مضطرة أن تواجه حالة اقتصادية صعبة ، وان تتخطى مؤقتاً عن ليبراليتها التقليدية .

وبعد انتخابات ١٩٤٦ ، انسأقت وزارة بيل^(١) ، المستندة على ائتلاف الحزبين الكبيرين الكاثوليك والعمال ، بوضوح ، تحت تأثير انكسار ، في طريق الاقتصاد الموجه . وأخذت الدولة بيدىها التعمير الاقتصادي ، وفهمته حسب « خطة » موضوعة تقنضي بخاصة « تشريك » بنك هولندا .

كانت الحياة الاقتصادية في الواقع معقدة . ففي ١٩٤٧ ، كان الميزان التجاري يظهر عجزاً ، ٢ مليار فلورن ، حال النقص الكامل تقريباً من العملات سده . وإذا أخذت منطقة الدولار ، بلغت الواردات ٥٠٠ مليون دولار مقابل ٥٥ مليون دولار من الصادرات . ولم تر الحكومة حلاً آخر غير تحديد الاستيراد بكثافة ودفع البلاد ،

(١) بيل PEEL .

كما فعلت حكومة العمال الانكليزية ، في طريق التكشف . ولكن هذه السياسة الاقتصادية ، المنضمة الى تأميم بنك هولاندا المتصور لا يصدر عنها الا زج هولاندا في بؤسها . لأن تحديد الاستيراد يحول دون أي نموض في الصناعة ، وهذا النموض يفرض نفسه باعتباره التدبير العاجل للتعجير الاقتصادي . وان تأميم بنك هولاندا باثرا كه اعتماد البنك باعتماد الدولة ، التي نهكت قوامها - لا يمكنه الا ان ينزع الدولة من استدعاء اعتماد البنك الخاص

تشكيل الاتحاد الجمهوري . - ومن قبل ، اثناء الحرب ، فكرت الحكومة الهولاندية اللاجئة في لندن اصلاح الاقتصاد الهولاندي ، الذي حرمته الهزيمة الالمانية مؤقتاً من موارده الاساسية ، بتوسيع السوق . وهذا ما قادها الى أن توقع ، في ايلول ١٩٤٤ ، مع الحكومة البلجيكية ، اللاجئة في لندن أيضاً ، الاتحاد الجمهوري الذي أخذ ، بعد التحرير ، اهم البينيلاوكس . ولكن الحوادث عرقلت الخطط المتصورة . لان بلجيكا ، المتحررة منذ ايلول ١٩٤٤ ، كانت تتصرف ببناء آلفرس و الكونغو ، وباعتمادات واسعة من الدولارات اثر التسليفات بالفرنكات البلجيكية التي قدمتها للجيش الحليفة ، ووجدت في وضع اقتصادي ملامم أكثر من هولاندا . وانساققت مبكرة في طريق الحرية الاقتصادية ، وسياسة الاجور العالية والتنمية الواسعة للأمن الاجتماعي ، الذي يكسر كل توازن ممكن مع هولاندا ، المضطرة ، تحت تأثير الظروف ، الى تحديد الاستيراد وتجميد الاسعار والاجور ، مرجئة الاصلاحات الاجتماعية الى الآجل البعيد . ولذا ينبغي الاقلال من نشاط البينيلاوكس في السنوات الاولى . ولم تفد منه هولاندا فائدة مباشرة الا عندما انطلقت في طريق حرية مهائلة لحرية بلجيكا

- ٤٩٥ -

مساعدة مارشل . - ظلت الحالة شبه ميؤوس منها دون عون مارشل الذي ساعد ، منذ ١٩٤٧ ، هولاندا على استيراد المواد الاولية الضرورية لانقاذ صناعتها وتعويمها . وهكذا ظهر ازدهار هولاندا مشروطاً بازدهار الولايات المتحدة الامريكية . ومنذ ذلك الحين ظهر التدخل الامريكى بشكل عون كريم ومجاني على الصعيد الاقتصادي ، وسيفرض نفسه على الصعيد الاستعماري كوصاية حقيقية .

ضغط الدول للاعتراف باستقلال اندونيسيا . - ان وزارة بيل ، المتجهة نحو توجيهية اليسار ، لم تتصور على الأقل ، أن الوساطة الاسامية لاصلاح اقتصاد هولاندا ، تكون في البحث عن الفوائد التي تقدمها اليها اندونيسيا بفضل صادراتها الكثيفة بخاصة نحو منطقة الدولار .

لقد اعلن استقلال اندونيسيا ، منذ ١٧ آب ١٩٤٥ ، عندما نزلت الجيوش الانكليزية الاولى في باتافيا . وفجأة ظهرت الدراما بكل سعتها امام هولاندا . فقد اعلمت الحكومة الاندونيسية قائد القوات الانكليزية بأنهم ستعارض بالقوة عودة الهولانديين . ومع ذلك ، بدأ انزال الجيوش الهولاندية منذ شهر تشرين الأول ، تحت الحماية البريطانية . وهذه الحماية نفسها ، التي اظهرت هولاندا كدولة ثانوية ، هدمت قطعاً اعتمادها في اندونيسيا . وقامت الحرب مباشرة مع الجمهورية الاندونيسية . ولكن حكومة العمال الانكليزية تدخلت ودعت الحكومة الهولاندية الى المفاوضة . وعقدت المفاوضات ودامت عاماً ونصفاً . وأخيراً ، في آب ١٩٤٦ ، وقعت حكومة بيل اتفاقاً في لينغاجا ، وبموجبه اعترفت هولانده « في الواقع » بالجمهورية الاندونيسية ، وبالمقابل اعترفت هذه لغير الاندونيسيين بحقوقهم وأموالهم وبالتعاون في اتحاد دول اندونيسيا ، المؤلف في نطاق اتحاد هولاندي تحت سيادة تاج البلاد المنخفضة .

- ٤٩٦ -

ولكن ما كاد الاتفاق يوقع ، الا واستؤنفت الحرب على تفسيره . وفي هذه المرة ، نهبت أستراليا والهند مجلس الأمن في منظمة الأمم المتحدة ، فأمر ، في الفاتح من شهر آب ١٩٤٧ به « وقف النار » . ومع ذلك لم يذلل النزاع ، واستمرت هولاندا في الدفاع عن نظريتها في اندونيسيا مشكلة من دول متحدة ، بينما كانت الجمهورية الاندونيسية تريد فرض سلطتها على جميع الأرخبيل . ولإجبار الجمهورية على التنازل ، لجأت هولاندا الى اخضاع البلاد لحصار حقيقي .

وفي هذا النزاع ، الذي قامت به هولاندا لاستعادة اليد العليا على مستعمراتها السابقة ، وقفت الولايات المتحدة ضدها - ومن قبل ، أثناء الحرب ، انتزع الرئيس روزفلت من الملكة ولهاين وعداً باستقلال اندونيسيا . وتدخلت واشنطن مرة ثانية . ففي ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨ وعلى متن الدارعة الاميركية ونفيل ، الراسية أمام باتافيا ، أعلن اتفاق جديد عن تأسيس ولايات متحدة اندونيسية ، وفيها تحافظ هولاندا على السيادة حتى يتحقق الاتفاق .

العودة الى الحرية الاقتصادية . - سجلت انتخابات ١٩٤٨ ، في هولاندا ، انزلاقاً خفيفاً نحو اليمين ، وتراجعاً واضحاً للشيوعيين ، وسقطت نيابتهم من ١٠ الى ٨ أعضاء . وتشكلت حكومة جديدة ائتلافية في آب ١٩٤٨ برئاسة دويس . وتحسنت الحالة الاقتصادية بقوة بمساعدة مارشل . وتحلت الوزارة عن مشاريع الاقتصاد الموجه ، وعادت الى طرق الحرية الاقتصادية . ومنذ ذلك الحين ، استطاع الاتحاد الجرماني مع بلجيكا والوكسمبورغ الدخول في طريق التحقيق . واتخذت الحكومة بوضوح

- ٤٩٧ -

موقفاً ملائماً لأفكار التعاون والدمج الاوربي الذين بدأ بالظهور وتساندهما أمريكا .

ولكن القضية الكبرى ظلت قضية اندونيسيا . ان الاتفاقات الموقعة مع حكومة جوكجاكارنا صانت أموال الشركات الهولندية وحقوقها . وكان لهولاندا مصلحة كبرى في أن يتدخل حل نهائي لتعبد الى هذه الشركات جميع نشاطها . وينبغي لذلك تكييف النظم القومية مع مشروع الاتحاد الهولندي الذي قبلته الجمهورية الاندونيسية . وفي ايلول ١٩٤٨ ، عدل الدستور الهولندي في هذا الاتجاه .

تنازل الملكة وهلمين عن العرش . - أثارت القضية الاندونيسية في الرأي الهولندي اختلافات عميقة . وبالرغم من الاحترام الذي كانت تحاط به الملكة ، فقد كان العديد من الهولنديين يأخذون عليها تضحياتها لمصالح البلاد ، بانحازها ، أثناء الحرب ، تعهدات عاجلة حيال الرئيس روزفلت . واذا كانت بعض الأوساط ، في بلجيكا ، تأخذ على الملك ليوبولد الثالث بقاءه في البلاد عوضاً عن انسحابه الى لندن كما طلبت منه الحكومة الانكليزية ، ففي هولاندا كان قسم من الرأي بأسف لأن الملكة لم تبق بين شعبها عوضاً عن أن تضع نفسها ، بهجرتها ، تحت رحمة مناوئة الاستعمار الامريكية . ولكن حكمه الرجال السياسيين الهولنديين سهرت على ألا يسمح بوضع الملكة موضع اتهام . ودون أن تحصل أي مناقشة عامة ، عند إعادة النظر في الدستور ، تنازلت الملكة وهلمين عن العرش بكرامة تامة لصالح ابنتها الأميرة جوليانا .

الفصل في القضية الاندونيسية . - وبعد قليل ، وقد تفرقت الحكومة من التعهدات التي أخذتها الملكة على عاقبها ، قررت أن تفرض قضايا عصرها (٣٢)

-٤٩٨-

على الجمهورية الاندونيسية الاتفاقات المرفقة . وفي شهر كانون الاول ، قامت العمليات العسكرية من جديد ، وأخذت عاصمة الجمهورية ، جوكجا - كارتا بواسطة الجنود المظليين . ووقف الرئيس سوكارنو ونفي . ولكن حكومة موقنة اندونيسية تشكلت في جزيرة سومطرة ونظم أنصارها حرب عصابات لاهواة فيها ضد الـ ١٤٥٠٠٠ جندي الذين يؤلفون الجيش الذي أرسلته هولاندا الى الجزيرة .

وأقر هذا النزاع حركة كبرى مناوئة للاستعمار في الولايات المتحدة . وأوقفت منحة الـ ١٤ مليون دولار المخصصة للبلاد المنخفضة ، ولغت الاندونيسيون الانظار الى أن هولاندا لم تكن قادرة على متابعة الحرب ضدهم لولا فضل مساعدات خطة مارشل ، وضغط عدة شيوخ على البيت الابيض أن تسحب عن هولاندا مساعدة مارشل التي كانت في ١٩٤٨ تقدر بـ ٤٠٢ مليون دولار . وكان صحيحاً أن حرب اندونيسيا قد ابتلعت ، في ١٩٤٨ ، ٤٠٠ مليون دولار . وشخص وزير الشؤون الخارجية في هولاندا ، ستيكور^(١) ، الى واشنطن . وأدركت هولاندا ، أن من غير الممكن أن تعمل ، على الصعيد الدولي ، دون موافقة الولايات المتحدة . وأجلت الجيوش عن جوكجا كارتا ، وحرر الرئيس سوكارنو ، واستعاد فيها توجيه حكومة الجمهورية . وفي آب ١٩٤٩ عقد مؤتمر في لاهاي ، وأدى ، في كانون الأول ، الى نقل السيادة الى جمهورية الولايات المتحدة الاندونيسية في نطاق الاتحاد الهولاندي .

ولم تحتفظ هولاندا ، من مستعمرتها السابقة الآسيوية ، الا بمستعمرة غينة - الجديدة وانسحبت جميع القوات الهولاندية من اندونيسيا . وبالحال

(١) ستikker . Stikker

-٤٩٩-

وبانتهاك الاتفاق الموقع ، تميت الجمهورية الاندونيسية لفرض سلطتها بالقوة على الأرخبيل كله .

وحافظت هولاندا على ملكية استثماراتها التجارية التي كانت تهددها القومية الاندونيسية بصورة فريدة . وعلى الصعيد السياسي ، أنقذت المظاهر ، ولكن اندونيسيا ضاعت عملياً .

اتجاه البلاد المنخفضة نحو أوربة . - ان الواقعة السياسية ، التي برهن عليها الهولنديون ، جعلتهم يدركون حقاً أن من غير الممكن استعادة ازدهارهم الا بمشاركتهم بصورة وثيقة ما أمكن مع أوربة والولايات المتحدة .

وأدى الجهد الذي قاموا به ، في ١٩٤٨ ، الى نتائج مشجعة . فمن ١٩٤٦ الى ١٩٤٨ ، ازدادت الواردات من ٢٣٦٣ الى ٤٩٦٥ مليون فلورن ، ولكن الصادرات ازدادت بأمرع منها أيضاً ، وانتقلت من ٨١٥ الى ٢٧١٨ مليون فلورن . وقام جهد عظيم في التصنيع في طريق التحقيق . وبعد أن حرمت هولاندا من امبراطوريتها أرادت أن تحافظ على مكانتها كدولة عالمية ، فانصرفت الى انشاء أسطول حربي وعمائر عابرة الأطلسي وكذلك الى انشاء أسطول جوي هام . ولم يلزم الشعب الهولندي أكثر من بضع سنوات حتى استعاد موقعه الاقتصادي المعادل تقريباً الى الموقع الذي كان له قبل الحرب .

تحقيق البينيلوكس

لقد أيدت الحرب العالمية الثانية الحكومة البلجيكية اللاجئة في لندن في اقتناعها - الذي عبرت عنه مراراً بروكسل بين الحربين - بأن النهوض الاقتصادي لأوربه الغربية ، وبخاصة بلجيكا ، يتعاقى باعادة توطيد حرية

المبادلات . وبعد العودة الى فكرة اتفاق اوشي (١) والدفع كلية حتى نتائجها الأخيرة ، تصورت الحكومة البلجيكية والحكومة الهولندية ، اللاجئين في لندن ، تعمير اقتصاد بلجيكا والوكسمبورغ والبلاد المنخفضة بعد الحرب - لانه من الممكن الانطلاق في ذلك الحين على أسس جديدة وذلك بأن يقام بينها اتحاد اقتصادي . وقد نظم الاتحاد الاقتصادي والنقدي ، مع الوكسمبورغ ، في فترة ما بين الحربين . ولتمديد الاتحاد الاقتصادي الى هولندا ، وقعت الحكومتان البلجيكية والهولندية اتفاقاً تمهيدياً في لندن ، في ٢١ تشرين الاول ١٩٤٣ . وعندما انتصر الهجوم الحليف ونحورت بلجيكا جزئياً ، تحول اتفاق ١٩٤٣ الى اتفاق قطعي ، ورقعته الحكومتان البلجيكية والهولندية في المنفى ، في ٥ ايلول ١٩٤٤ . وهذا الاتحاد المقرر مبدئياً يجب ان يتحقق فعلاً . وفي الفاتح من نيسان ١٩٤٧ ، وحدت تدابير تحضيرية للتعرفات البريدية على أساس أكثر النسب انخفاضاً . وفي الفاتح من كانون الثاني ١٩٤٨ ، حذفت الرسوم الجمركية بين البلدين وجعلت التعرفة الجمركية مشتركة حيال البلاد الأجنبية . ولكن الاتحاد بدا صعب التطبيق اكثر بما تصور له مؤلفوه . فقد نجحت بلجيكا من التضخم النقدي ، ولكن هولانده كانت تعيش في تضخم عتيد . وقد ساعدتها بلجيكا بتحويلها اعتمادات جسيمة ، وبفضلها استطاعت ان تؤمن لنفسها واردات لاغنى عنها . وفي ١٩٥١ ، صعدت هذه الاعتمادات الى مبلغ ٧ مليارات فرنك بلجيكي .

ومع هذا ، فان هولاندا ، باستخدام الطرق الاتباعية في الاقتصاد النقدي - تقليص الاعتمادات ورفع سعر الحسم - قومت حالتها . وتوازي ميزان مدفوعاتها تدريجياً بفضل مساعدة مارشل . وبصورة موازية ،

(١) اوشي Ouchy ميناء مدينة لوزان على بحيرة ايان في سويسرا .

جعلت اقتصادها الموجه اقل قساوة في قضية الاسعار والأجور . وبالتخلي عن حلول التسهيلات - رفع الحواجز الجمركية والرقابة على القطع التي منع وجود البينيوكس استخدامها - ، توصلت هولاندا ، بفضل مواردها الداخلية ونشاط سكانها ، وكذلك بفضل عودة الاقتصاد الألماني ، بسرعة الى استعادة ميزان كسبها ، وأصبحت عملتها ثابتة كالعملة البلجيكية . ولم يعرف البينيوكس منذ ذلك الحين صعوبات في الدفع .

ومع ذلك ، فإن الاختلاف الاولي في الطرق الاقتصادية لهولاندا وبلجيكا أوجد خللاً بين البلدين . فقد جمدت هولاندا الأجور ، بينما ، بالعكس ، طبقت بلجيكا سياسة اجور عالية . فمن بين دول اوروبا كلها ، كانت بلجيكا ، في ١٩٥٠ ، الدولة التي كانت الاسعار فيها اعلى من غيرها . وكانت اجورها اعلى بـ ٦٠ ٪ من الأجور المطبقة في هولاندا . وكانت حالة البينيوكس ، في هذه الشروط ، صعبة جداً . فعلى صعيد الزراعة . اتخذت بلجيكا تدابير دفاعية ضد هولاندا . ولكنهما كانت تمور بحريتهما الاقتصادية التقليدية ، ورفضت ان تدخل الطرق نفسها على الصعيد الصناعي . ولقد كانت أسعار الكلفة في بلجيكا أخفض بكثير مما في هولاندا ، ولذلك جعلت بعض الصناعات الثانوية البلجيكية غير قابلة للحياة . وقامت حملة في بلجيكا لاعادة نظر في اتفاقات البينيوكس ورفضت الحكومة أن تتابعها .

ومن الختم أن كل اتحاد اقتصادي يؤدي إلى تخصص اقتصادي من طبيعته تضحية بعض الصناعات . وكان هدف البينيوكس توسيع السوق لانتاج بلجيكا وهولاندا . وعلى الصعيد الصناعي ، بلغ هذا الهدف ، بالرغم من التضحيات التي فرضها على الصناعة البلجيكية . وتبرهن الارقام على أن البينيوكس يستجيب لضرورة . ففي ١٩٣٨ ، كانت صادرات

هولاندا نحو بلجيكا تمثل ٩ ٪ من واردات بلجيكا ؛ وفي ١٩٥٣ ، انتقل هذا الرقم الى ١٤ ٪ . وصادرات بلجيكا نحو هولاندا ، بين التاريخين ، صعدت من ١٢ الى ١٨ ٪ من كامل الواردات الهولندية . وعلى العموم ، يبدو ان البلدين قد حققا من الاتحاد الجمركي كسباً متعادلاً وجديراً بالتقدير . ومع ذلك ، فان هذا الاتحاد لن يحمل بصورة سوية الا في اليوم الذي تسير فيه الاجور الهولندية الاجور البلجيكية وتوضع تشاريع البلدين متطابقة على الصعيد الاجتماعي والضريبي . ولا يمكن الاتحاد الاقتصادي ان يكون مقبولاً ، في الواقع ، اذالم يتم بتعادل القوانين الاجتماعية ومكافأة العمل .

هذه هي تجربة البينيلوكس كما بدت ايجابية . لقد كان من ميزتها ان تصور مسبقاً الصعوبات التي سيواجهها اتحاد اقتصادي لأوربه الغربية ، ولكن ايضاً الفوائد العظيمة التي يمكن ان تجنيها جميع البلاد الغربية .

الدول الاسكندنافية

منذ أن وقعت السويد معاهدة في الحرب العالمية الثانية واحتلت الدانمارك والنرويج ، تغيرت آثار النزاع في الدول الاسكندنافية . واذا استثنينا خسارة بعد السفن ، فقد خرجت الدانمارك والسويد سليمتين نسبياً . أما النرويج فقد منيت بخسائر مادية كبيرة ووجدت من الضروري المبادرة لوضع برنامج تعمير واسع . وقد اصبحت هذا التعمير ممكناً منذ أن أصبحت التسهيلات الانتاجية غير خامرة كثيراً . ومع ذلك فقد وجدت قضايا أكثر ازعاجاً . فمن ذلك أن دخل الدانمارك مايربر على ٢٥٠٠٠٠ جرمانى هرباً من ملاحقة الجيوش الروسية . ولم تسر قضية هذا النفي إلا في العام ١٩٤٨ في جرمانيا الغربية . وفي

الحرب العالمية الثانية ، انفصلت ايسلنده عن الدانمارك ووطدت جمهورية مستقلة في ١٩٤٤ . واتجهت الدانمارك بوضوح نحو انكلترا . وبعد هزة المقاومة التي عرفت في نهاية الحرب استعادت باستفتاء اقليم شمال شلزيغ الذي كان في أيدي الالمان منذ حروب تشكيل الاتحاد الالماني على يد اوتو فون بسمارك مستشار المانيا . وقبلت أن توقع مع انكلترا اتفاقاً اقتصادياً تعتمد بوجبه ان تسلمها ٩٠٪ من فائضات الزراعة ، وقد أدخل هذا الاتفاق الاقتصاد الدانماركي في اقتصاد انكلترا .

وظلت الملكية نظاماً مقبولاً وشعبياً في الدانمارك . وفي ١٩٤٧ ، خلف فريدريك التاسع أباه ، كريستيان العاشر ، ملكاً على الدانمارك و تمت الموافقة على دستور جديد في ١٩٥٣ . وبوجبه عهد بالاعمال التشريعية الى مجلس تشريعي واحد ، فولكيتنغ^(١) ، وأمن هذا المجلس تمثيلاً مباشراً لسكان غرينلاند وجزر فارو^(٢) .

ولم يتعطل اقتصاد الدانمارك كثيراً بالحرب ، ولكنه بدأ يشغل الاسطول التجاري الذي رد الى ثلثه . وجارت الدانمارك الدول الاسكندنافية الاخرى ونشطت في حقل التشريع الاجتماعي . وفي ١٩٦٠ ، شملت برامج الاعانات والتأمين ضد المرض ٨٠٪ من السكان .

ولاقت النور فيج في اصلاح ما أفسدته الحرب صعوبات جمة أكثر بكثير مما وجدته جاراتها الاسكندنافية . فقد تضرر أسطولها التجاري الكبير وأعمالها المائية - الكهربائية كثيراً أثناء الحرب . ولكن الحياة عادت لهذين القطاعين بسرعة عظيمة . أما المجالات الاخرى فقد تركز العمل فيها بصورة محسوسة ، واقتضت تقنياً وطنياً حتى ١٩٥٢ .

(١) فولكيتنغ Folketing

(٢) فارو Faroe

وفي ١٩٥٢ ، دشنت حكومة اوسلو خطة تنمية اقتصادية مدتها عشر سنوات لمناطق شمال النورفيج ، وأدخل في هذه المناطق استعمال قوة الماء مع الاستغلال التعاوني للمناجم الغنية عند جارتها السويد . ونجحت هذه التنمية ، حتى ان البطالة أصبحت مجهولة ، على ما يبدو ، في عام ١٩٦٠ ، وتوافرت السلع الاستهلاكية ، وعاد الازدهار .

وعلى المسرح السيامي ، كانت النورفيج في المنفى أثناء الحرب . وقد أخذت على نفسها عهداً في آخر الحرب أن تقبل وتسمح بتشكيل حكومة جديدة . وتشكلت بسهولة ودون أزمة حكومة من كبار الموظفين وزعماء المقاومة . وأنهى الاصلاح الانتخابي ، في ١٩٥٢ ، التمثيل المفرط المبكر في المناطق الريفية . وتوفي الملك هاكون السابع ، في ١٩٥٧ ، بعد حكم دام ٥٢ سنة . وخلفه ابنه اولاف الخامس . وكان الحزب السياسي الاكبر في البلاد ، في ذلك الحين ، حزب العمل ، مع بعض الانقسامات الصغرى . وظل هذا الحزب ، مع انقطاع قليل ، يوجه الأعمال العامة حتى ١٩٦٥ . وفي ايلول ذلك العام خولت نتائج الانتخابات أربعة أحزاب غير اشتراكية ، يوجهها المحافظون ، تشكيل ائتلاف أكثرية ، وتتولى زمام الرقابة على الحكومة ، وفاز هذا الائتلاف في انتخابات عام ١٩٦٩ أيضاً .

وكانت النورفيج في طليعة البلاد في حقول برامج التشريع الاجتماعي الواسعة . وقد شاركت في برامج الامن الاجتماعي المشترك للدول الاسكندنافية التي وضعت في عام ١٩٥٤ ، وفي الاتفاقات التي تتيح للعمال الانتقال من بلد اسكندنافي لآخر دون ضياع المكاسب . وفي ١٩٥٦ ، ومع برنامج التأمين الصحي الازامي في النورفيج حتى غطى جميع المواطنين . وجعلت معاشات الشيخوخة كريمة نسبياً .

وفي السويد ، مما يبرز من البنية الحكومية والاقتصادية اطلق عليه اسم « الطريق الاوسط » بين المشروع الخاص غير المنظم والجمعية السافرة . وفي هذا النظام ، تحرر سكان السويد (حوالي ٧٩٠٠٠٠٠) من أعباء القلق وعدم الطمأنينة ، وأصبحوا يتمتعون بمعدل مستوى حياة عال عظيم . وتم ذلك دون تأميم واسع للصناعة ، لأن ٩٠ ٪ منها بقيت في أيدي المشاريع الخاصة . وكان مفتاح النجاح السويدي في معدل ثمن صادرات المنتجات المتقدمة تكنولوجياً . فقد صدرت السويد سياراتها الى جميع بلاد العالم . واستحوذت الدولة ، كما هي الحالة في اوروبا غالباً ، على ملكية الخطوط الحديدية كلها ومعظم مصادر الطاقة ، وبأثمرت حصر بيع بعض المحاصيل مثل الحنجر والتبغ ، وبالإضافة الى ذلك ، برزت الى حيز الوجود المؤسسات المالية الخاصة والعامة معاً ، وقد أخذت الواحدة منها تنافس الاخرى في تسليف الاموال .

ووجد بين نظام الحكم السويدي والمالية خيط مشترك بتعاون الهيئة الادارية والعمل مع الحكومة على توطيد نظام اقتصادي مزدهر ومستقر . وعلى عكس القوى العاملة في كثير من البلاد الأخرى ، توصل العمل السويدي الى تمكين السويد من توجيه تجارة دولية بصورة ناجحة وعلى نطاق واسع ، والتفاوض مع العمال على مقاييس اجرة قومية دون جدل عنيف او اختلاف في الرأي .

واستمرت الملكية الدستورية في السويد . وفي ١٩٥٠ ، توفي غوستاف الخامس في سن الثانية والتسعين ، وخلفه ابنه غوستاف السادس أدولف . كما ظلت الشؤون السياسية توجه فيها بشكل منظم ومنتج ، وتسود الشورى جميع الفرقاء المعنية ، ويتوصل الى الاجماع قبل عرض أي مشروع قانون على البرلمان . وبفضل هذا العمل التحضيري الانشائي

-٥٠٦-

أمكن تجنب الحوصات المستعرة . وكما هي الحال في سويسرا ، يستعمل
السويديون عن سعة الاستفتاء لاختبار العاطفة العامة في قضية عامة . وفي
مسار الاستفتاء القومي ، غير السويديون ، في ١٩٦٠ ، تدفق التجارة
من يسار الطريق الى يمينه .

وكانت السويد رائدة من رائدات التشريع الاجتماعي بعد الحرب
العالمية الثانية . ففي الفاتح من كانون الثاني ١٩٥٥ ، أطلقت خطة للتأمين
الصحي العام في السويد . وقد بنيت على أساس البرامج القديمة ، ومولت
بمزج أقساط تدفع من المؤمن عليه ، وتكاليف من أرباب العمل ، ونقد
من الدولة . وفي ١٩٥٧ ، جرى استفتاء شعبي ترتبت عليه خطة الزامية
وأصبحت قانوناً في ١٩٥٩ . وبوجب هذا القانون ، أصبح المستفيد من
المعاش ، وهو في سن السابعة والستين ، يقبض معاشاً مساوياً لـ ٦٥ ٪
من معدل أجرته في الخمس عشرة سنة من حياته التي يتمتع فيها بأفضل
معدلات دخله .

وفي الشؤون الخارجية ، حاولت الدول الاسكندنافية في ١٩٤٩ ،
أن تعقد فيا بينها ميثاقاً دفاعياً . ومع ذلك فقد تعارض الحلف الاسكندنافي
المفتوح مع خطط الدفاع في باقي الأمرة الغربية . وبالتالي سقط هذا
الميثاق عندما جذبت النورفيج والدانمارك بالحلف الأطلسي النامي .
واضطربت النورفيج عندما ألحت عليها روسيا توقيع حلف دفاعي مع
الاتحاد السوفياتي . ومن المحتمل ان تكون قد اضطرت للبحث عن ملجأ
لها في الحلف الأطلسي والحلاص من عرض الاتحاد السوفياتي . وتبعت
الدانمارك وايسلاندا النورفيج في منظمة معاهدة شمال الاطلسي . وعندما
انضمت هذه البلاد لحلف الأطلسي أتت ومعها عناصر سترايجية هامة
لخطط دفاع منظمة هذا الحلف . واسهمت الدانمارك في أفضل مطارات

- ٥٠٧ -

أوربه في كادوب ، جوتلند . وخولت النورفيج الولايات المتحدة عقداً لمدة عشرين عاماً لانشاء قواعد جوية وبحرية في غرينلاند .

وتابعت السويد سياسة الحياد التي سلكتها أثناء الحرب العالمية الثانية لأن الحرب الباردة أخذت تنضج من حولها ، ورفضت ستوكهولم الدخول في منظمة حلف الأطلسي خوفاً من أن يؤدي انحياز السويد الى الغرب الى احتلال روسي لفنلندا . هذا وان الحياد بالنسبة للسويد لا يعني أن السويديين سيقعون بشكل مفتوح على صداقة الاتحاد السوفياتي . فقد أصبح شائعاً في فترة ما بعد الحرب ، أن السويديين يلاحقون عمال الاستخبارات السوفياتيين ويوقفونهم وينفونهم .

وفي ١٩٥٢ ، أسست النورفيج والسويد والدانمارك وإيسلاندا المجلس الشمالي لتسهيل التعاون فيما بينها . ويعنى هذا المجلس بصورة أساسية بتعزيز التعاون الاقتصادي والاجتماعي بين أعضائه . وكانت إحدى قضايا الحصول لمواطن أي بلد عضو فيه يقيم في دولة أخرى عضو ، على الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية التي يتمتع بها رسمياً في وطنه . وأكثر من ذلك أيضاً ، ان الدول الاسكندنافية نشيطة في عمليات الأمم المتحدة . وقد جهزت السويد قوى حفظ الأمن أثناء الأزمات في الكونغو وقبرص وغيرها .

اسبانيا

الدكتاتورية . - في نهاية الحرب الأهلية الاسبانية ، وطد الجنرال فرنشيسكو فرانكو بحزم سلطته الفردية على الأمة الاسبانية ، وجمع في شخصه الوظائف العليا في القوى المسلحة والدولة والحزب (فالانج أو

فالانكس (١) ، وصرح بوحدة هدفه مع موسوليني وهتلر ، زعيمى الفاشية والنازية ؛ وكان مديناً لمساعدتها كثيراً في الحرب الأهلية . وكان ارتباطه بها قوياً ، حتى ان اقتصاد اسبانيا كان مرتبطاً بصورة وثيقة بالنظامين الاقتصاديين لدولتي المحور ، روما - برلين ، في الحرب العالمية الثانية .

ولجيل بعد الحرب الأهلية المدمرة في اسبانيا ، كان فرنكو وأتباعه منهمكين بالقضاء على المنشقين . وكان هؤلاء يكافحون الفاشيين ، والكثير منهم متملكون من الحكم . أما الشيوعيون فكانت تلاحقهم قوى فرنكو بصورة دائمة . وعندما يلقي القبض عليهم يعدمون في الغالب ، أو يمشرون في معسكرات الاعتقال ويجبرون على القيام بالأعمال الشاقة في المشروعات العامة . هذا وان ذكريات السنوات القاسية الثلاث للحرب الأهلية البائسة والقضاء العنيف على الأعداء ، بعد ذلك ، ساعدت فرنكو كثيراً وأبقته على رأس الحكم ؛ حتى ان المعارضة لم تزده نسبياً خلال عشرات السنين . وعلى ما يبدو أن الكثيرين لم يكونوا ليكرهوا دكتاتورية فرنكو ، لأنهم يفكرون بأن الفوضى والنزاع سيحلان اسبانيا بعده . ولذا رضوا عن بقاءه . وفي منتصف ١٩٦٠ ، عندما نشأ جيل جديد لم يعرف الاضطرابات المدنية التي حلت بالبلاد قبل ثلاثين عاماً ، اعتدل نظام فرنكو ، ودلت الحياة في اسبانيا على تحسن أكيد . ولم تكن درجة هذا التحسين قوية اذا ما قورنت بالنسبة للدول الغربية الأخرى . ولكنها كانت تختلف عن ما مر في اسبانيا من تجربة قاسية .

لقد لاقى فرنكو معارضة في فترة ما بعد الحرب ، وبخاصة في

(١) فالانج أو فالانكس Falange or Phalanx .

مناطق الباسك و الكاتالان ، وكل واحدة منها ذات نبرة انفصالية تقليدية . ويعاقب القانون الاسباني نشر كتابات باللغة الكاتالانية ، وكذلك غناء النشيد الوطني الكاتالاني أيضاً . ودل فرنكو على اعتداله بعد الحرب بتحويل بعض الامتيازات للكاتالانيين باقالة بعض الموظفين من الخدمة في برشلونة بعد أن تبين كره أبناء البلاد لهم .

وهين قانون ١٩٤٧ ولاية العهد الاسبانية بعد الحرب . فقد أعلن فرنكو في تلك السنة ، بأن اسبانيا ملكية ، ثم أصدر قانوناً وعرضه على الكورتس^(١) الاسباني وصدق عليه باستفتاء . وبموجب هذا الاستفتاء يبقى فرنكو زعيم الدولة مدى الحياة . وبعد وفاته يتختم على مجلس الرعية أن ينتخب ملكاً ليكون خلفاً له . وبعد أن يحلف الملك بين المنصب يطالب بأن يقسم بين الولاء لمبادئ الحركة الانفصالية . ثم صدر قانون الوراثة لعام ١٩٦٩ ووعد بأن يكون الأمير خوان كارلوس من آل بوربون ، الابن البكر للملك الفونسو الثالث عشر رئيساً للدولة الاسبانية مع لقب ملك ، في الثانية أيام التي تلي وفاة كرو أو تخليه عن منصبه .

وبتنظيم الارث ظلت حكومة فرنكو دكتاتورية فاشية ، كما ظلت الحريات المدنية محدوفة . وقد يكون من المحتمل أن تقوم معارضة شعبية لهذا الحكم ، ولكنها تبقى مستقلة عن الانفصالية التقليدية عند الباسكيين (البشكنس) والكاتالانيين . وقد قامت حركات طلابية دورية تحتج على طبيعة الحكم وأساليب قمعه ، وبدأ العمال بالاضراب احتجاجاً على الظلم والطغيان والظروف الاقتصادية غير المواتية ، ولكن النظام ظل متمسكاً .

(١) الكورتس Cortes مجلس يناقش القوانين ويصوت على الضرائب .

وابرمت كورنكور داتو مع الفائيكان في ١٩٥٣ ، واعتبرت الكاثوليكية الرومانية دين الاسبانيين الوحيد ، واتخذت احكام لتسمية الاساقفة من قبل الدولة . ومقابل امتياز تسمية الاكليروس الأعلى ، خصصت الحكومة صندوقاً للكنيسة الكاثوليكية ، وسمحت لها بأن تلعب دورها في التربية الاسبانية التي بدت لا تتفق ومقتضيات العصر في اوربه الغربية .

أما اتباع الأقليات الدينية ، وبخاصة البروتستانت واليهود ، فيشكلون أقل من ١٪ من الشعب الاسباني . وأما كن عبادة البروتستانت واليهود غير مراقبة قانوناً . كما أن الزواج الذي يعقده اكليروس الأقليات الدينية غير معترف به بالقانون الاسباني . ومحاولات الصب والتبشير عند الاقليات الدينية خلال المنشورات أو المدارس ممنوعة . وقد عززت بشدة القوانين التي هي من هذا النوع حتى منتصف ١٩٦٠ ، ثم بدأ الاعتدال يظهر أيضاً على صعيد الشؤون الدينية ، وحصل نوح من الانفراج التدريجي في التقنينات ، حتى ان فرنكو شجع ، في ١٩٦٥ ، ووافق على حرية الوجدان لجميع الاسبانيين . ومع ذلك لم تصبح هذه العاطفة ، مباشرة ، جزءاً من القانون الاسباني .

اسبانيا والعالم الغربي بعد الحرب . - في حال مجاهدة دولية ، عندما تصرح دولة من الدول بأنها تلزم جانب الحياد ، فان هذا الحياد يصبح موقفاً يلزم الدولة المحايدة براءاته في جميع التصريحات التي تفوه بها الحكومة ، ويجعلها في موقف لا تفضل فيه أباً من المتحاربين على الآخر . ويوجد نوع آخر من الموقف المحايد : وذلك عندما تصرح دولة رسمياً بالحياد وتفضل بوضوح طرفاً أو آخر . وهذا النوع الأخير من الحياد هو الموقف الذي اختاره اسبانيا في الحرب العالمية الثانية ، لأن فرنكو

كان مرتبطاً دبلوماسياً بالدول الفاشية ، وصرح بخاصة بالحياة التقني لبيتي بصورة رئيسية على علاقات اقتصادية يحتاج اليها مع الحلفاء .

وبسبب هذا الاتجاه ، الذي يعتمد فيه فرنكو على زملائه الفاشيين والصفة الدكتاتورية العالية لنظامه ، صوت الاجتماع الأول للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو ، في ١٩٤٥ ، على استثناء اسبانيا من عضويتها وحفظ على هذا الموقف المناوئ لفرنكو في مؤتمر بوتسدام عندما صدر بلاغ مشترك عنه يدين فرنكو علناً . وفي ١٢ كانون الأول ١٩٤٦ ، دعت جمعية الأمم المتحدة جميع الدول الأعضاء لسحب ممثلها الرسميين من اسبانيا . وأجاب فرنكو على هذه المقاطعة بلوم النفوذ الشيوعي . وفي الحقيقة ان السبب في ابعاد اسبانيا لا يرجع الى الطابع الجمعي لحكومتها بل الى الميول « الفاشية » للنظام العسكري الجيني الذي أقامه الجنرال فرنكو . وعندما اتسعت الحرب الباردة ، وأخذت حرارة المناوئة للفاشية تفتق في المجابهة الدولية الجديدة ، بدأت الدول الغربية تنظر لدكتاتورية فرنكو نظرة مغايرة . يضاف الى ذلك أن هذا التدبير الاستثنائي في مقاطعة اسبانيا أثار معارضة عنيفة في أوساط أمريكا اللاتينية . ونحت تأثيرها تبنت الأمم المتحدة ، في آب ١٩٤٨ ، موقفاً جديداً ، وتركت للدول الأعضاء « كامل الحرية فيما يتعلق بعلاقاتها مع اسبانيا » . وبعد قليل مثلت معظم دول اوروبا وامريكا نفسها في مدريد . ولكن اسبانيا ، بالرغم من كل ذلك ، ظلت معزولة بين الأمم الغربية . وظل الاتحاد السوفياتي والدول التابعة له تحافظ على سياسة نشيطة مناوئة لفرنكو . وعندما قامت الحرب الكورية ، في ١٩٥٠ ، وبدأ حلف الأطلسي يبحث عن جبهة أوربية قوية ضد هجوم شيوعي ممكن ، تحققت امكانية اسبانيا الاستراتيجية . ثم ان ليونة المواقف في الغرب والاعتراف بهذه الامكانية

الاستراتيجية لاسبانيا بما جعل دول حلف الأطلسي تقبل باسبانيا عضواً في الأمم المتحدة ، في ١٩٥٥ ، وتقبل بامكانياتها كجزء من « صفقة المساعدات » التي أتت بها اوستاليا والدول الأخرى الى المنظمة الدولية .

وهذا التقارب ، الذي نما بين اسبانيا والحلف الغربي ، لم ينتج عنه ، مع ذلك ، قبول اسبانيا الفوائد التي تقدمها خطة مارشال ، أو دعوة للاشتراك في حلف الأطلسي ، بل ان الولايات المتحدة عقدت ، في ايلول ١٩٥٣ ، اتفاقاً مع فرنكو على عون متبادل ورافق هذا الاتفاق شرط السماح للولايات المتحدة باستعمال القواعد العسكرية في اسبانيا . وبعد ثلاث سنوات ، في ١٩٥٦ ، وقعت الولايات المتحدة واسبانيا ميثاق مدريد ، وهو ينص على اتفاق دفاعي بينهما لعشر سنوات يسمح بإنشاء قواعد جوية وبحرية في اسبانيا . كما أعطى الحق للأمريكيين باقامة محطات رادار ومستودعات مؤن في اسبانيا رغم أنها لم تكن عضواً رسمياً في حلف الأطلسي .

وفي ١٩٦٣ ، وبعدها منذ عهد قريب في ١٩٧٠ مدد الاتفاق الأصلي في تأجير القواعد الاسبانية للولايات المتحدة مع كثير من الفوائد الاقتصادية لاسبانيا . وفي الواقع ، ان الوفاق الدفاعي المشترك بين اسبانيا والولايات المتحدة والعون الاقتصادي الواسع الذي رافقه كانت منها أن عززا الاقتصاد الاسباني ونظام فرنكو أيضاً بعد أن تعثر بصورة محسوسة . وفي آخر ١٩٦٠ ، قدمت الولايات المتحدة لاسبانيا مساعدة بلغت ١٠٨٠٠٠٠٠٠٠ دولار .

وكسر تعاون الولايات المتحدة مع اسبانيا عزلة اسبانيا عن الشؤون الدولية . ففي ١٩٥٨ ، انضمت اسبانيا الى صندوق النقد الدولي ، ومنظمة التعاون الاقتصادي الاوربي ، والبنك الدولي للاعمار . وهذه المحاولات

من اسبانيا ، رغم أنها غير ناجحة في إيجاد مكان لها في حلف الاطلسي وفي السوق المشتركة ، تعكس أيضاً ميول مدريد في التقرب من الدول الغربية .

ضياع الامبراطورية . - احتلت اسبانيا مدينة طنجة الحرة في ١٩٤٠ ، وحافظت على اشرافها عليها خلال الحرب العالمية الثانية . وفي ١٩٤٥ ، اضطرت الجيوش الاسبانية الى الجلاء ، ووضعت طنجة تحت اشراف لجنة دولية . وفي ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦ ، عادت المدينة وشمال مراكش الاسباني الى حوزة المملكة المغربية ، بعد أن انتظمت هذه الدولة وأصبحت دولة مستقلة ، في ٢ آذار ١٩٥٦ .

وفي الممتلكات الاسبانية التي بقيت في افريقية ، جوبهت اسبانيا بحركة الاستقلال الوطني كسائر الدول الأوربية المستعمرة في فترة ما بعد الحرب . فمن ذلك أن جيش التحرير غير المنظم في الصحراء المراكشية لما في مراكش الاسبانية وبدأ يصطدم مع جيش فرنكو على طول الشاطئ الافريقي الغربي . وكانت النتيجة ، في ١٩٥٨ ، ان انتقل جنوبي مراكش الاسبانية الى المملكة المغربية . وفي ١٩٦٨ ، ضمنت حكومة مدريد استقلال غينيا الاستوائية . وفي ٤ كانون الثاني ١٩٦٩ ، تخلت اسبانيا عن منطقة إلفي للمملكة المغربية . وبقيت ، في حوزة اسبانيا اليوم ، الصحراء المراكشية ومنطقة سبتة ومليلة وبعض الممتلكات الصغيرة جداً . وهكذا أصبحت امبراطورية اسبانيا فيما وراء البحار ، الواسعة في فاتحة تاريخ اوروبا الحديث ، بعض ممتلكات صغيرة في غربي افريقية وبعض الجزر المتاخمة للشاطئ . وفي ١٩٦٣ ، دعت اللجنة الخاصة بالاستعمار من قبل الأمم المتحدة حكومة مدريد الى التعجيل باعطاء الحكم الذاتي لممتلكاتها الافريقية .

قضايا عصرنا (٣٣)

الاقتصاد الاسباني . - نجح الاقتصاد الاسباني ، بفضل العون الامريكى من الدمار الذي تراكم فيه أثناء الحرب الأهلية منذ ١٩٣٠ . وبلغ الانتاج الصناعي ، في ١٩٥٩ ، ما ينوف على ٧٥ ٪ من مستوى ١٩٤٨ . وفي ١٩٦٠ ، استمر انتاج المصانع الاسبانية في تصاعده بمعدل مرض . ونفذت الدولة مشاريع الري والكهرباء بنجاح ، حتى ان الطاقة الكهربائية الوفيرة ، في ١٩٦٠ ، في اسبانيا زادت بثلاثة أمثالها بالمقارنة الى مستوى ما بعد الحرب مباشرة .

وباستعمال التخطيط الاقتصادي المركز ، وضعت اسبانيا خطة تنمية ، لأربع سنوات ، ترمي الى معدل نمو ٦ ٪ سنوياً . وقام على ادارتها خبراء أجانب أخذوا يشتغلون مع عدد من مديري الأعمال الاسبانيين والفنيين وبثلي المصالح الخاصة في المجتمع الاسباني ، وبخاصة في الزراعة والعمل .

وبالرغم من نظام فرنكو المناوئ للشيوعية ، فقد أثبت اسبانيا تجارتها مع الاتحاد السوفياتي والبلاد التي تدور في فلكه . ففي عقد الـ ١٩٦٠ ، كان التبادل التجاري والثقافي عاماً بين الاتحاد السوفياتي واسبانيا وفي الواقع ، ان اسبانيا انطلقت منذ ١٩٥٠ وأصبحت من أعظم بلاد أوربة جذباً للسباح من جانبي الستار الحديدي . وهذا يرجع الى تراث اسبانيا الملون والمميز ؛ وأكثر من ذلك أهمية في جذب الزوار ، إلى أن مستوى الحياة في اسبانيا أقل كلفة بما في البلاد الأخرى . واقبال الزوار على اسبانيا مكنها من جمع احتياطي ذهبي عظيم ، هذا بالإضافة الى أن اسبانيا أفادت من عدة منشطات خارجية قوت اقتصادها كثيراً ، وفي الوقت نفسه زادت في قبضة الجنرال فرنكو على البلاد .

البرتغال

أنطونيو دو اليغيرا سالازار^(١) . كما كان تاريخ إسبانيا ، في دور ما بعد الحرب العالمية الثانية ، مرتبطاً بأمم فرنسيسكو فرنكو ، كذلك كانت تجربة البرتغال مرتبطة بصورة وثيقة بأمم أنطونيو سالازار . لقد ظل سالازار ، خلال ست وثلاثين عاماً ، حتى أقعده المرض ، في أيلول ١٩٦٨ ، يارس سلطة مطلقة لاتتحدى ، بينما كان رجال الدولة والقادة في بلاد العالم الأخرى يقومون وينتصرون ويقبضون على السلطة ويستطون . ولد سالازار في ١٨٨٩ ، ونشأ في أسرة برتغالية ريفية ، وثقف ثقافة عالية ، وأصبح خبيراً مالياً ، ثم أستاذاً في الاقتصاد ، وقبل بلوغه الأربعين من العمر كان أستاذاً كبيراً في القانون والاقتصاد ، حتى أنه في ١٩٢٦ وأيضاً في ١٩٢٨ ، دعي لمغادرة التعليم في الجامعة وأصبح وزيراً للمالية . ثم اختير ليكون رئيساً للوزراء في ١٩٣٢ ، وحكم البلاد ، منذ ذلك الحين ، بروح التقشف الرهباني . ويبدو أنه كان بعيداً عن التطورات السريعة الكبرى التي تجري في القرن العشرين ، حتى أن البرتغال كانت فريدة في نوعها في دور ما بعد الحرب . فقد أقام سالازار فيما حوله عبادة الشخصية التي مكنته من خلق حالة سياسية أكثر شهاً بحالة الحكم الاستبدادي ، التي كانت سائدة في ماضي أوروبا ، منها بأي شكل حديث .

وبما يدل على طبيعة دكتاتورية سالازار ، أنه عندما سقط إثر اضطراب جماهيري ، عن عمر يناهز التاسعة والسبعين ، لم يكن هنالك أي إشارة أو تلميح إلى ثورة شعبية أو ضربة انقلاب عسكري للاتيان بدكتاتور

(١) أنطونيو دو اليغيرا سالازار Antonio de Oliveira Salazar

جديد . والجدير بالذكر أن البرتغال كانت تباهي بـعدم وجود أي اضطراب مدني عندها . وكان على رئيس الوزراء الجديد أن يختار من قبل أعظم هيئة استشارية في البرتغال ، وهي مجلس الدولة ، ويتألف من خمسة عشر عضواً . وفي آخر ايلول ١٩٦٨ ، وقع اختيار المجلس على مارسيلو خوسه كيتانو^(١) ، وهو أستاذ للقانون في جامعة لشبونة ويعتبره الكثيرون « نسخة طبق الأصل عن صورة سالازار » .

السياسة والاقتصاد . - تتشابه اسبانيا والبرتغال بصورة وثيقة في قطاعات السياسة والاقتصاد . فقد سمح سالازار بوجود مجلس تشريعي واحد . وكان حزبه ، حزب الاتحاد الوطني ، يكسب في جميع الانتخابات التي كانت تجري بعد الحرب . وليس معنى ذلك أن النظام كان خالواً من كل معارضة ، فقد برهنت الحوادث عن توقيفات عرضية لبعض السياسيين الذين انخرقوا عن مبادئ الحزب . وفي انتخابات الرئاسة ، في ١٩٥٨ ، قام مرشح المعارضة بحملته الانتخابية ، بالرغم من القيود المفروضة عليه من قبل الحكومة ، وحصل على ٢٠ ٪ من الأصوات . وأقلق هذا الانتخاب سالازار ، حتى أنه أعلن على شاشة التلفزيون الوطني بأنه لن يسمح بانتخابات من هذا النوع في المستقبل ، ولن يتساهل مع المعارضة . وتبع ذلك تعديل في دستور ١٩٥٩ بقضي بأن ينتخب الرئيس ، منذ الآن فصاعداً ، من قبل هيئة انتخابية مؤلفة من المجلس الوطني ومختلف موظفي الدولة . وحذفت الأحزاب الاشتراكية والشيوعية ، وظلت البرتغال دولة دكتاتورية رابانية .

وبرهنت الحالة الاقتصادية على تحسن محسوس في دور ما بعد الحرب . ولكن المجتمع بقي طبقياً ، والثروة متجمعة في أيدي فئة قليلة من الأمر

(١) مارسيلو خوسه كيتانو Marcello José Caetano

المتنفذة ، وما زال السواد الأعظم من الشعب البرتغالي يعيش في الفقر . وفي منتصف ١٩٤٠ ، أصدرت الحكومة عدة قرارات لتنشيط المصانع وأبسع سالا زار هذه القرارات ، في ١٩٥٣ ، باطلاق خطة تنمية لست سنوات بغية تعميم الكهرباء والنقل ، وبالتالي وضع أساس للتنمية . واقبعت هذه الخطة الأولى بخطة ثانية ، في ١٩٥٩ ، لتنمية الزراعة والصناعة . وبالنظر الى ان معظم الثروة الخاصة قد تجمع في ايدي القلة ، فقد تأسست الصناعات الجديدة بصورة عامة على يد الدولة . ولما لم يستطع الشعب المصاب بالفقر تقديم الأموال عن طريق الرسوم الضرورية لاقامة دولة جديدة ، فقد استعمل الكثير من ارباح الصناعة المزممة لهذا الغرض . واشتهر سالا زار في العالم الغربي بطريقة النفاذة الباردة التي يسير فيها عجلة الدولة . وترك وراءه ، بالرغم من مهارته الاقتصادية ، إرثاً كبيراً من القضايا المالية . ومع ان هو السياحة كان يبشر بموارد خيرة في ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، فقد كان الاقتصاد البرتغالي يشكو من نقص الاستثمارات الخارجية ، وظلت الهوة سحيقة بين النخبة الغنية في البلاد والجمهير المحرومة . وبالإضافة الى الضائقة الاقتصادية ، رفضت البرتغال ان تطلق سراح الامبراطورية الاستعمارية او تمنحها الحرية . وبالتالي وقعت في ورطة الكفاح الدائم لاختضاع حرب العصابات في غينا وموزامبيك وانغولا البرتغالية .

ودعا كثير من الشبان البرتغاليين ، من اقتصاديين ورجال أعمال ، لأن تكون بلادهم جزءاً من الأمة الأوروبية اقتصادياً وسياسياً . فحذر التقليديون بأن مثل هذه الحركة ربما تضخم النقد البرتغالي فيزيد في عبء الكفاح الاستعماري ، وهو من قبل مكلف وباهظ . وبالتالي فأت الشدة بين ارتباط الامبراطورية والاندماج في أوربه كانت تبدو ذات

أولوية عالية . ولكن البرتغال ، كما هي عليه الآن غير قادرة على قطع الصلات القوية ببلاحتها وماضيها الاستعماري .

الشؤون الخارجية . - كانت البرتغال محايدة في الحرب العالمية الثانية . ولكنهما ، على عكس اسبانيا ، مالت نحو الجانب الحليف ، مع الحفاظ على الحلف الانكليزي - البرتغالي الذي يرجع عهده الى عدة قرون خلت . وظلت البرتغال مرتبطة بصورة وثيقة بالسياسة البريطانية ، وتعتبر بالنسبة الى بريطانيا العظمى ذات أهمية أكثر من أي وقت مضى لا من الناحية الاقتصادية فحسب ، كالتى كانت في أساس معاهدة ميشوين^(١) في ١٧٠٣ بين البرتغال وانكلترا ، وإنما من الناحية الاستراتيجية أيضاً . ان المستعمرتين البرتغاليتين الكبيرتين ، انغولا ، وموزامبيك ضامنتان لمنافع الكومنولث البريطاني . لأن بيوا^(٢) في الشرق ، في موزامبيك ، و لوبيتو^(٣) في الغرب ، في انغولا ، هما النهايتان البحريتان للخط الحديدي الكبير الذي يجتاز افريقية الجنوبية ، من جهة لأخرى ، سالكاً أرض كاتانغا وروديسيا الجنوبية . وقد نظم الميناءان من قبل شركات بريطانية ذات امتياز ، وتحملت التكاليف نفقات تنظيم دفاعها . والحقول البترولية المكتشفة في منطقة بيوا في أيدي شركة انكليزية . والمدافع عن الخط الحديدي والميناء والحقول البترولية ، أدخلت البرتغال الخدمة العسكرية الاجبارية في موزامبيك منذ عام ١٩٣٥ .

وفوق ذلك ، تملك البرتغال النصف الشرقي من جزيرة تيمور ، الواقعة في الأرخبيل الانسولندي ، على ٥٠٠ كم من أستراليا ، وهي تؤلف

(١) ميشوين Methuen بالنسبة الى ميشوين الدبلوماسي البريطاني المفاوض .

(٢) بيوا Beira .

(٣) لوبيتو Lobito

-٥١٩-

موقعاً استراتيجياً من النوع الاول للدفاع عن الدومنيون الكبير ، اوستواليا .
ولذا فمن غير الممكن ، في هذه الشروط ، أن توجد قضية لابعاد البرتغال
عن الامم المتحدة .

وكسويسرا ، حافظت اسبانيا والبرتغال على النظم التي كانتا عليها قبل
الحرب ، وظلتا الدولتين الغربيتين الوحيدتين اللتين أبقيتا على الحكم
التسلطي . وفي الحرب ، كما رأينا . راعى البلدان الحياد . وكان حياد
البرتغال متجهاً بصورة تقليدية شطر انكلترا . ولكن اسبانيا والبرتغال ،
أمام النزاع الواسع الذي يحيطها ، تقربتا من بعضها ، وفي ١٩٤٢ ،
وقعتا الميثاق الايبري ، وأهميته ثقافية بصورة أساسية .

وبعد الحرب أقام الحلفاء ، وعلى العموم الدول الممثلة في الامم
المتحدة ، اختلافاً بين دكتاتورية سالازار ، المعتدلة في أشكالها والحالية من
الشمولية ، ونظام اسبانيا الفاشي الاتجاهات . والحقيقة هي أنه لا يوجد اختلاف
جوهرى بين المبادئ الأساسية في النظامين الدكتاتوريين ، فكلامهما
يقومان على المذهب الكاثوليكي . ولكن اسبانيا تعتبر مكملة للنظام الفاشي
في أوربه . وهذا يتأى بشكل واضح من أن دكتاتورية فرنكو صادرة
عن حرب أهلية انتصر فيها على أقصى اليسار . وقبلت البرتغال في الامم
المتحدة ، بينما جنبت اسبانيا عنها طويلاً ولم تقبل ، كما رأينا ، إلا في
عام ١٩٥٥ .

وشكلت دولة سالازار ملاذاً للأجنبي الحرب وأصبحت لشبونة مرتعاً
للجاسوسية ، واستخدمت الولايات المتحدة وبريطانيا ، في الحرب ، الجزر
الحالات (جزر آزوره) مرفقاً متوسطاً للطائرات العابرة الأطلسي . وبعد
الحرب ظل الحلفاء يستخدمون هذه الجزر وتقبض البرتغال العون الامريكى .
وأخيراً استخدمت الولايات المتحدة الجزر نفسها محطة لطائراتها التي كانت

تأتي مزودة بالأسلحة والذخائر لدعم إسرائيل ضد العرب في حرب تشرين
الاول ١٩٧٣ .

وبغض النظر عن حكومة انطونيو سالازار المتسلطة ، فقد اعترفت
الدول الغربية بالبرتغال في دور ما بعد الحرب . وقبلت البرتغال على
علامتها عضواً في الأمم المتحدة ، في ١٩٥٥ . وشاركت في خطة
مارشل ، وأصبحت عضواً في رابطة التجارة الأوروبية الحرة وفي حلف
الاطلسي .

وتشكو البرتغال من قضية الاشراف على مستعمراتها . وكان سالازار
أحد المفكرين في « عبء الانسان الابيض » و « الرسالة الحضارية »
التي يجب على « الوطن الام » نشرها في مستعمراتها فيما وراء البحار .
ولذا أمسكت البرتغال بقبضتها على الاجزاء التي بقيت لها من امبراطوريتها
الكبرى ، واحكم وثاقها اقتناع سالازار بأن التجارة بين البرتغال ومستعمراتها
أساسية للبقاء على تجارة منظمة والحفاظ على مستويات معيشة ، ضئيلة
بالفعل في الوطن الام ، مستقرة .

وبدا حين ان البرتغال تعمل على فك الارتباط الصاعد بين القومية
البرتغالية وكفاح الاستعمار الذي يحتاج العالم . ولكن ليست هذه حالها .
ففي ١٩٥٥ ، توترت العلاقات الدبلوماسية بين البرتغال والهند بنتيجة
النزاع على المراكز الاستعمارية الصغيرة جداً الباقية للبرتغاليين على الشاطئ
الغربي لهند . ورفضت البرتغال أن تسلم غوا وجزيرة ديو الى الحكومة
الهندية . ورفعت القضية الى محكمة العدل الدولية على الهند لمنعها
البرتغال من حقها في المرور من احدى مستعمراتها الأخرى عبر الأراضي
الهندية . وكان حكم المحكمة ، ١٩٦٠ ، لصالح الهند . وبعد ذلك ،

في آخر ١٩٦١ ، استخدمت الحكومة الهندية جيوشها لعودة البلاد المستعمرة الى أمها الهند .

وبما زاد في عسر الاقتصاد البرتغالي المتعب أن تتردأ وطنياً قام ، في ١٩٦١ ، على طول الحدود الشمالية من أنغولا متأثراً بحدوث الكونغو . وفي ١٩٦٢ أصبح النزاع الأنغولي كثيفاً وفظاً ، حتى ان الجمعية العمومية للأمم المتحدة تبنت قراراً بـ ٩٢ صوتاً ضد ٢ ، دعت فيه البرتغال الى وقف تدابير القمع ضد شعب أنغولا . فرفضت البرتغال وتغادت مدعية بأن الأمم المتحدة لا يحق لها أن تتدخل في الشؤون الداخلية للمستعمرات البرتغالية ، وأكدت أن شعب هذه البلاد يتمتع بوضع د مستقل ، ضمن الامبراطورية البرتغالية ، وبمكانة تعادل المكانة التي يتمتع بها أي مواطن أوروبي .

وظلت المستعمرات البرتغالية د المستقلة ، ثائرة . وفي ١٩٦٣ ، انفجرت حرب العضابات الوطنية في غينيا البرتغالية ، وقام بمررد صغير بمائل أيضاً في موزامبيك ، طوال ١٩٦٠ ، وفي ١٩٧٠ .

وحتى وفاة سالازار ، ١٩٧٠ ، كانت آمال بعض الاقتصاديين ورجال الأعمال البرتغاليين بأن تمتثل البرتغال وتأخذ بتوصية وإرشاد أكتورية دول العالم ، وتخلو عن مستعمراتها . ولم يتحقق شيء من هذا . وظلت الدعائم الأربع للمؤسسة الحكومية البرتغالية : الكنيسة الكاثوليكية ، الجيش ، أمرة البنوك ، الدوائر المدنية الكبرى ، مصررة على بقاء البرتغال متمسكة بامبراطوريتها الاستعمارية .

وأخيراً ، يجدر القول ان حركة انقلابية قامت ، في ٢٥ نيسان ١٩٧٤ ، بزعامة الجنرال انطونيو دو سينولا (١) ، وأطاحت بالرئيس

(١) انطونيو دو سينولا Antonio de Spínola

مارسيلو نخوسه كيتاتور ، وأنت مايقارب خمسين عاماً من الحكم الدكتاتوري في البرتغال . وقد وعد سبينولا ، اثر نجاح حركته ، بتعميم الاصلاحات الديمقراطية في البلاد : كاطلاق سراح المعتقلين السياسيين ، وانتخابات حرة خلال سنة ، ومجلس تمثيلي وطني . ترى هل ستشمل اصلاحات سبينولا المستعمرات البرتغالية وتنتهي حالة الحرب الاستعمارية في افريقية البرتغالية ؟ نترك الجواب عن هذا التساؤل للمستقبل .

الفاتيكان

الفاتيكان لايفرض أي نظام سياسي . — لقد كان الفاتيكان في جميع الأزمنة قوة من القوى الدولية الكبرى ، دون منازع . وعمله ، كعمل الكاثوليكية التي يتزعمها ، وكعمل المسيحية عموماً ، لم يأخذ امتداداً عالمياً إلا بقدر ما بسطت روما أولاً ، والبلاد الاوربية بعدها ، امتدادها على العالم . والمنطقة المسيحية في الكون تتشكل بصورة أساسية من أوربه والأمريكيتين . ولم تمتد على آسيا وافريقية إلا بصورة موازية للنفوذ الذي مارسه البيض في هذه الأجزاء من العالم .

ان دور الفاتيكان ، حتى في بلاد العرق الابيض ، قل تدريجياً منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد مارس نفوذه على الصعيد السياسي ، من جهة بابوا كونيوردات مع الحكومات الوطنية ، ومن جهة أخرى بطريق الاحزاب الكاثوليكية .

لقد كان وضع الفاتيكان ، بين الحربين ، صعباً بصورة خاصة بسبب الانظمة الجمعية التي اتخذت موقفاً معادياً للمسيحية . وقد عرفه البابا بيوس الحادي عشر عند عقد اتفاقات لاتران في ١٩٢٩ . وصرح الكرسي - الاقدس في ذلك الحين : (بأنه يريد أن يبقى خارجاً عن

-٥٢٣-

كل المنافسات الزمنية بين الدول الاخرى ، وعن المؤتمرات الدولية المنعقدة لهذا الغرض ، ، إلا ، اذا تقدمت الأطراف المتنازعة بطلب يتفق ورسالته في السلام ، . ولقد كان الدفاع عن السلام شغلاً شاغلاً لسياسة الفاتيكان ، وانضمت هذه السياسة في رسالة البابا المؤثرة في ايلول ١٩٣٨ .

وقبل الحرب العالمية الثانية ، برهن انتخاب أمين سر دولة بيوس الحادي عشر ، الكاردينال بانشيلي^(١) ، الذي أخذ امم بيوس الثاني عشر ، على ارادة مجمع الكرادلة في استمرار سياسة البابا بيوس الحادي عشر . وقد عبر عن هذه الارادة بالسلام بعمل الفاتيكان الدبلوماسي . ففي آب ١٩٣٩ ، اقترح بيوس الثاني عشر عقد مؤتمر للبلاد المعنية بالنزاع الجرمانى البولوني والبلاد المحايدة المتاخمة التي انضمت اليها الولايات المتحدة والفاتيكان . وكانت مهمة هذا المؤتمر اعادة النظر في معاهدة فرساي واعداد ميثاق عدم عدوان جماعي .

ولكن هذا النداء لم يسمع ، ولم يجدد البابا محاولته في ادخال الفاتيكان في « مجلس الأمم » .

ومنذ ذلك الحين لازم الفاتيكان الموقف المذهبي بصورة محضة ، ووضح مذهب الكنيسة في العلاقات الدولية في المنشور البابوي المؤرخ في ٢٠ تشرين الأول ١٩٣٩ ، وكذلك في رسائل عيد الميلاد في ١٩٣٩ و ١٩٤١ و ١٩٤٤ .

وفي هذه الوثائق ، يحذر بيوس الثاني عشر الشعوب من التجاوزات القومية ، ويدعوها لاقامة السلام في المستقبل على النظام ، والنظام نفسه على العدل ، ويحض الغالبين على ألا يفرضوا على المغلوبين معاهدات الاكراه والعنف . ويعبر عن ذلك بقوله : « فاذا كان من الواضح انسانياً أن

(١) بانشيلي Pacelli

تتخذ تدابير الأمن ضد الشعوب ، التي يحكم بأنها مسؤولة عن الحرب ، فيجب مع ذلك أن يترك لها الأمل بأن تشارك من جديد ذات يوم في الأمرة الكبرى للأمم . وإذا كان من المسموح معاقبة مجرمي الحرب فردياً ، فإن الشعب بكامله لا يمكن أن يعتبر مسؤولاً عن جرائم مجرميه . ويقول بيوس الثاني عشر : ان جميع الشعوب لها الحق في الحياة ؛ ويحسن أن تحترم ثقافة الاقليات العرقية ولغتها ، و ان ارادة الحياة لأمة يجب ألا تعادل حكماً بالموت على أخرى ، ، وفوق ذلك ، يمكن أن يقبل بأن تشكل الدول الكبرى تحت ادارتها كتلاً اقتصادية واسعة .

وبصر بيوس الثاني عشر على ضرورة احترام الكلام المعطى وتنفيذ المعاهدات باخلاص وصدق وأمانة . كما تجب اعادة النظر في المعاهدات واصلاحها ، ولهذا الغاية ، من الضروري انشاء محكمة حقوق دولية يمكن أن تدعم قراراتها بقرارات اقتصادية بل وعسكرية . وأخيراً ، يجب أن يضمن السلام بنزع عام للسلاح وتوزيع عادل للواد الأولية (١) .

ومنه هي المرة الأولى التي يضع فيها الكرسي الأقدس مذنباً كاملاً لتنظيم السلام . وفيه يتبنى البابا موقفاً أعلى من موقف الأمم كلها . ويضع نفسه مشاوراً لها ، وحكماً خارجياً وفوق خلافاتها ، وبهذا الواقع يكون الوحيد القادر على العمل بتمثيله المصالح العليا للانسانية .

أما المبادئ نفسها ، التي وضعها المذهب الحبري ، فتتقرب ، عن كتب من النقاط الاربع عشرة التي كان قد وضعها الرئيس ولسون والأفكار التي كانت أساساً لعصبة الأمم ومنظمة الأمم المتحدة ، ولكن دون أن يدخل ، في العلاقات التي امتدحها بين الأمم ، أية عقائدية سياسية .

(١) راجع . Marc Bonnet, La Papauté Contemporaine, PP

وامتنع البابا ، أثناء الحرب ، عن أن يقوم بأي مبادرة لصالح السلام ، على نقيض الموقف الذي اتخذته بونفوا (بندكت) الخامس عشر في ١٩١٧ ، واقتصر على الاحتجاج ضد القصف الجوي . وقد ألجأ الفاتيكان العديد من اللاجئين قبل الحرب وأثناء الحرب ، وبخاصة بعد الهدنة الإيطالية ، في ٨ ايلول ١٩٤٣ . وأنجد « غير الآريين » ودعا الطوائف الدينية أت تهيء ملبأ لليهود . وساعد البابا نفسه الامرائيليين في روما في دفع الضريبة التي فرضت عليهم ، وحاول ، عبثاً ، أن يمنع الحكومة المونغارية من تشديد القوانين المناوئة للسامية في حزيران ١٩٤٤ .

هذا وان موقف القوة المعنوية العامة ، الذي اتخذته البابا ، أعطى الفاتيكان موقعاً دبلوماسياً شخصياً . ومنذ آخر ١٩٣٩ ، أرسل اليه روزفلت بمثلاً شخصياً ، حتى ان الصين وفنلندا والبلاد المنخفضة واليابان ، التي لاقيم علاقات دبلوماسية مع الكرسي - الأقدس ، فعلت نفس الشيء .

كيف كان عمل الفاتيكان الدبلوماسي أثناء الحرب ؟ يستحيل القول . على أن الكاردينال تيسورات^(١) ، في كانون الأول ١٩٤٤ ، لم يتردد في التصريح بأن الكرسي - الأقدس معاد للثورية والشيوعية . ولكنه لم يشجب علناً إلا الشيوعية ، راثياً لرؤية الظل المشؤوم لأهداء الله « يتناول على وجه أوربه المسيحية » ويستنكراً عدوان الاتحاد السوفياتي على فنلندا . وحاول الفاتيكان أن يمنع ايطاليا من الدخول في الحرب . وامتنع ، رغم عدائه المبين للشيوعية ، عن دعم المناورات الألمانية لاثارة الكفاح الاوربي ضد البولشفية . على ان ارجاع الحرية الدينية ، في الاتحاد السوفياتي ، أدى الى انفراج بين الكرسي - الأقدس وموسكو . وفي الغرب ، قبل البابا ،

(١) تيسورات Tisserant

في شباط ١٩٤٣ ، بأن يمثل الجنرال دوغول في الفاتيكان ، ولكنه لم يعترف بـ « الحكومة المؤقتة » ، التي شكلها دوغول ، الا في كانون الاول ١٩٤٤ . ومن جهة أخرى ، رفض ، بالرغم من الاطلاحات الشديدة ، أن يبعد الأحرار الذين أظهروا ولاءهم لنظام فيشي .

وبالاجمال ، ان الدور السياسي للكرسي - الأقدس ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، كان قليل التأثير . ووقف الفاتيكان ، أو أوقف ، بعيداً عن مفاوضات السلام في باريس .

بجمع البابا والكرادلة في ١٩٤٦ يؤكد عمومية الكنيسة . - ومع ذلك ، لم يعدل الكرسي - الاقدس عن أن يكون دولة كبرى . ولكن ، عوضاً عن أن يمارس عمله بسياسة نشيطة ، بحث عن قيادة العالم بالتوجه الى الضمائر الفردية وبخاصة الى صوفية الجماهير . وفي نهاية الحرب ، أراد بيوس الثاني عشر مد هذا الدور المعنوي العمومي للكنيسة بتجريدته الكرسي - الأقدس من الميزة الابطالية التي يمتلكها منذ مجمع ترانت (١٥٤٥) لاعطائه بحق صفة عمومية .

عند وفاة بيوس الحادي عشر ، في ١٩٣٩ ، كان مجمع الكرادلة يتألف من ٣٤ كاردينالاً ابطالياً و ٢٧ كاردينالاً من القوميات الاخرى : ٣ ألمان انكليزي واحد ، أرجنتيني واحد ، نمساوي واحد ، باجيكبي واحد ، برازيلي واحد ، كندي واحد ، ٣ اسبان ، ٣ أمريكيان من الولايات المتحدة ، ٦ فرنسيون ، هونغاري واحد ، ايرلندي واحد ، برتغالي واحد ، سوري واحد ، وتشيكوسلوفاكي واحد . وعندما انتخب بيوس الثاني عشر بابا ، في ٢ آذار ١٩٣٩ ، لم ينشئ أي كاردينال حتى نهاية الحرب . وفي عيد الميلاد ١٩٤٥ ، أعلن بأنه قرر أن يسمى ، في مجمع البابا والكرادلة يعقد في ١٨ شباط ١٩٤٦ ، اثنين وثلاثين كاردينالاً .

وكان من بين هؤلاء أربعة إيطاليين فقط . وبعد مجمع البابا والكرادلة ، وجد في المجمع الأقدس سبعة وعشرون إيطالياً واثنان وأربعون كاردينالاً من القوميات الأخرى : ٤ ألمان ، إنكليزي واحد ، أرجنتينيان ، أسترالي واحد ، مساري واحد ، بلجيكي واحد ، برازيليان ، كنديان ، شيلي واحد ، صيني واحد ، كوبي واحد ، ٤ إسبان ، ٥ أمريكيان من الولايات المتحدة ، ٧ فرنسيون ، هولندي واحد ، هونغاري واحد ، يروفي واحد ، بولنديان ، برتغاليان ، أحدهما رئيس أساقفة موزامبيك ، وسوريان . وفي الخطاب الذي ألقاه بيوس الثاني عشر في هذه المناسبة ، صرح بأنه يريد « أن تمثل هذه التسمية للكرادلة أعظم عدد ممكن من الاقوام والشعوب ، وهكذا تكون صورة عن عمومية الكنيسة » .

وحتى ١٢ كانون الثاني ١٩٥٣ ، لم يسم بيوس الثاني عشر كرادلة محدثين . وقد أعلن ، في هذا اليوم ، عن تسمية أربع وعشرين ، وجد بينهم عشرة إيطاليين ، وانتخب الآخرون من مختلف البلاد . ولأول مرة دخل الهندي ، المونسنيور غواسيا ، من بومباي ، في مجمع الكرادلة .

يقول البابا في الخطاب الذي ألقاه في مجمع الكرادلة : « إن ما أرشدنا في انتخاب الكرادلة الجدد ، هو الاهتمام بأن يكون مجمع الكرادلة ، ما أمكن ، صورة حية للكنيسة بكاملها والتي يسمي بها مجلس الشيوخ النبيل جداً . وفي الواقع ، إن الكنيسة الكاثوليكية ، التي تؤلف سندها الرسولية ، التي أسستها العناية الإلهية ، الرأس - ليست غريبة عن أي أمة ، أي شعب ؛ إنها ملك الجميع ، وتضمهم جميعاً بحجة الله نفسها وبالعناية نفسها . وأكثر من ذلك ، إن هذا يبدو لنا أهلاً للاعتبار والتأمل بعمق ، على حين أن أمرة الأمم ووحدة المواطنين منقسمتان بالمنازعات والاختلافات ، بل وأحياناً معرضتان للخطر بشكل خطير ، ولكن ليست هذه حال المجتمع

الذي أسسه القادي الإلهي لإنجاة الجميع ؛ إنما واحدة بطبيعتها ، وهي ، كما هي ، أم رؤوم جداً ، تعتبر جميع الناس وكل واحد منهم أبناءً منها كان عرقهم وبلدهم .

وهكذا يؤكد ، فوق الانقسامات القومية والعرقية ، عمومية الكنيسة وتفوقها . والبابا هو آخر سلطة على العالم الذي ينسب له « الحق الإلهي » . وهكذا يضع نفسه خارجاً وفوق جميع السلطات الزمنية . ويؤلف بجمع الكرادلة والبابا نوعاً من تمثيل لجميع الشعوب وجميع العروق ، متعددة تحت سلطة البابا القديرة والمعصومة .

وهذا الاهتمام بـ « التدويل » ظهر أيضاً في تأليف الهيئة الدبلوماسية الحبرية . ولا شك في أنه وجد ، قبل الحرب العالمية الثانية ، قاصدون رسوليون غير إيطاليين . فمنذ قرن ، كان القاصد الرسولي في مونيخ الكونت دو موسي - أرجانتو (١) ، الباجيكي . وحديثاً كان القاصد الرسولي في بروكسل بولونيا ، المونسنيور ليدوشو وسكي (٢) . وأرسل البابا بيوس العاشر قاصداً رسولياً مساوياً إلى مونيخ وهو المونسنيور فروفيرت (٣) . ومع ذلك ، ففي الحبريات التالية أصبحت هذه الحالات نادرة جداً . واليوم ، بالعكس ، يوجد عشرة قاصدين ، ووكلاء قاصدين ومندوبين رسوليين غير إيطاليين ، والقاصد الرسولي في بون ، بخاصة ، أمريكي .

وبحلول الكرسي - الأقدس ، بأعظم مرونة ، أن يمثل في كل مكان . ويزعم القاصد بأنه يتمتع بامتياز وهو كونه عميد السلك الدبلوماسي

(١) دومرسي أرجانتو De Mercy - Argenteau

(٢) ليدوشو وسكي Ledochowski

(٣) فروفيرت Fruhwirt

في البلاد المعتمد لديها . وفي العواصم ، التي لاتعترف فيها الحكومة بهذا الامتياز لرسول الفاتيكان ، يرسل البابا وكيلاً للقاصد . وأحياناً ، كما في برون ، يكون الكرسي - الأقدس ممثلاً ، على حين أن البلد ، الذي يكون رسول البابا معتمداً لديه ، ليس له ممثل دبلوماسي في الفاتيكان . وفي مكان آخر ، كما في لندن أو في واشنطن ، اذا لم يوجد مندوبية رسمية للكرسي - الأقدس ، يوجد مندوب شبه رسمي ، أمين مر الفاتيكان أو مندوب رسولي . وتتابع سياسة الفاتيكان عن كتب سياسة الدول الكبرى ؛ والشبه المميز ، بخاصة ، هو أن القاصد الرسولي في بون أمريكي . ولاتقطع الكنيسة علاقاتها مع أي نظام ، ولا تذكره إلا إذا سلك طريق الاضطهاد الديني ، كما فعلت الشيوعية .

غير أن هذه السلطة البابوية ، التي تتأكد كسلطة عامة ، أوجدت للبابا صعوبات في البلاد الدكتاتورية الجمعية ، وبخاصة في الصين حيث طرد المبشرون الكاثوليك أو اضطهدوا لأنهم يمثلون سلطة تنجر من مراقبة يسيكين ، بينما كان المبشرون البروتستانت أحراراً في متابعة نشر رسالتهم .

سياسة الفاتيكان تجتنب الانخراط في أي سياسة قومية . - يحاول الفاتيكان ، في كل مكان ، أن يجعل من الكنيسة قوة تدمج بمختلف البيئات القومية . ولذا يفتح الاكليريوس مثباً فشيئاً على الآسيويين والافريقيين وفي المستعمرات وفي البلاد تحت الوصاية ، يسهر الفاتيكان على الايخاط عمل الكنيسة بعمل المتروبول أو البلد الموجه . وهكذا نجد ، في البلاد الافريقية التابعة لفرنسا وبلجيكا ، ان البعثات لاتتخذ من نفسها ممثلاً للمصالح الفرنسية أو البلجيكية ، بل ممثلاً فقط للمصالح الدينية تحت رعاية الفاتيكان . وفي الحقيقة ، ان الكنيسة لاتريد أن ترى نفسها مهددة قضايا عسراً (٣٤)

بالحركة القومية التي انتشرت في العالم . ومن المحتمل أن تبقى البعثات التبشيرية تعمل في البلاد التي تبعد فيها سلطة البيض . وبهذا العمل يسهم الفاتيكانيكان مباشرة في نشر الحضارة الغربية التي يبدو أنه لا يمكن أن تنجح في افريقية إلا في الحد الذي تصبح فيه هذه القارة مسيحية . وكما أن سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب لم يسجل نهاية الحضارة الاغريقية - الرومانية ، لأن الكنيسة عاشت بعد الامبراطورية وأكملت فيها عملها التحضيري ، كذلك تميات الكنيسة لأن تكون بطل المسيحية في افريقية ، أي باختصار ، بطول الحضارة الغربية في اليوم الذي تنقطع فيها سلطة البلاد الاستعمارية عن الوجود . ولكن هذا القول ليس إلا من قبيل التكهنات ، لأن نقطة افريقية يمكن أن تقلب كل شيء عاجلاً أو آجلاً .

وهكذا ، بالرغم من ان الفاتيكانيكان ، على ما يبدو ، لا يلعب ، في أيامنا ، دوراً نشيطاً على الصعيد الدولي ، فمن غير الممكن الجدال في انه يسهم بشكل رصين جداً في الدفاع عن الحضارة الغربية ، رغم أنه يرفض اعطاء هذه الصفة لرسالته .

الفاتيكانيكان يعمل بواسطة الأحزاب السياسية . - وعلى صعيد السياسة الداخلية ، في البلاد الكاثوليكية ، تلعب سياسة الفاتيكانيكان ، بالعكس ، دوراً نشيطاً بطريق الأحزاب التي تنادي بالمبادئ الكاثوليكية بله المبادئ المسيحية . وهذا العمل الداخلي يمارس ، بصورة غير مباشرة ، تأثيراً واضحاً على السياسة الخارجية للبلاد الكاثوليكية .

وفي اوروبا الغربية كلها ، جذب التطور نفسه الأحزاب الكاثوليكية . ففي كل مكان ، اتحدت في حزب واحد ، أحزاب الكاثوليكين - المحافظين ، الديمقراطيين - المسيحيين ذوي النزعات الاجتماعية التقدمية ،

لتشكيل أحزاب اجتماعية - مسيحية تلعب ، في فرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية وبلجيكا والنمسا ، دوراً من المستوى الأول . ويبدو من الصعب القول بأن نفوذ الفاتيكاني لم يكن له توجيّه في هذا التطور ، لأن جميع الأحزاب المناصرة والمتحمسة الأميرة الأوربية كان البابا يظهر لها عطفه في مختلف المناسبات .

وقد يكون من الصعب أحياناً تمييز سياسة الفاتيكاني ، بسبب مرونتها . فقد أيد الفاتيكاني على لسانه الشبه رسمي « الرقيب الروماني » عودة الوحدة الألمانية . ولكنه امتنع عن تمثيل الكنيسة في المؤتمرات الدينية الكبرى التي كانت ظاهرات مسرحية لهذه الوحدة . وقد ظلت هذه المؤتمرات ، بواقع الحال ، « الخيلية » فقط ، لأن « الوحدة الألمانية » التي مثلتها هذه المؤتمرات ، كانت بروقستانتية بخاصة ، وفقدت صفتها القومية . وفي إيطاليا ، كانت سياسة الكرسي - الأقدس متوححة في القضية الملكية . ولم يمنع الفاتيكاني الديمقراطية المسيحية ، التي ساقها دون ستورزو^(١) من أن تبدي رأياً ضد الملكية ، وهذا ما سبب سقوطها . وكذا الحال في بلجيكا ، أثناء الأزمة السلالية . وبالرغم من أن الكاتوليكيين ، في أكثريتهم الواسعة ، قد أبدوا رأيهم لصالح الملك ، فقد تجنب الفاتيكاني أي حركة يمكن أن تؤول بأنها صالحة للملك ليؤبولد الثالث . وظاهراً ، يربد الفاتيكاني أن يبقى خارج جميع الازمات السياسية ليتكيف مع كل حالة جديدة يمكن أن تحدث .

وعلى صعيد المصالح المذهبية وحده ، لا تتردد الكنيسة في الدخول في المنازعات السياسية . ففي فرنسا ، قام « الكهنة العمال » بتبشير نشيط في الوسط الشيوعي . ولكن عملهم استنكر بسبب الموقف المتطرف الذي

(١) دون ستورزو Don Sturzo .

وقفه بعضهم عندما ذهبوا حتى المشاركة في الحركات الثورية . وفي بلجيكا تزعم الاساقفة حركة الرأي الكاثوليكي الكبرى ضد القانون المدرسي الذي صوت عليه في ١٩٥٥ تحت رعاية حكومة اليسار التي يرأسها فان آكر، هذه الحركة التي أخذت في بعض الاحيان أشكالا ثورية .

سياسة الفاتيكان تتبع الاتجاه « الديمقراطي » . - ولا شك في أن سياسة الفاتيكان ، كسائر السياسات القومية ، مسوقة بالاتجاه « الديمقراطي » ، العظيم الذي يفرض نفسه على العالم أجمع ، بأشكال مختلفة . فقد احتلت النقابات المسيحية وحركات الشباب ، في العمل الكاثوليكي ، مكاناً مسيطراً على الصعيد الاجتماعي . والكنيسة ، التي كانت قديماً مرتبطة المنافع بالروح المحافظة ، تنبّه اليوم نحو « الديمقراطية » . والحركة الاجتماعية المسيحية ، كالحركة الاشتراكية ، لها صفة توجيهية تلاحظ جداً في الحركة الجمهورية الشعبية الفرنسية وفي النقابات الكاثوليكية أيضاً . ويبدو أن سياسة الفاتيكان تحاول ، مع اعتمادها على الجماهير ، استعادة الوضع الذي أفقدتها إياه الاشتراكية . وكانت سنة اليوميل مميزة في هذا المعنى . فقد رأت روما تدفق مئات الالوف من الحجاج الذين توجه اليهم البابا مباشرة وعلى العموم بلغتهم الخاصة . وكان العالم ، الذي مزقته العقائديات ، ينتظر بحزم رسالة البابا . فهل أعطى المسيحيين توجيهات سياسية ؟ لاشيء من ذلك . وكما كان يفعل المسيح ، نأى البابا عن المنازعات السياسية والاجتماعية ، واستصرخ الحياة الباطنية . وكان المسيح يقوم برد فعل ضد القوى المادية في عصره بالتبشير بعودة كل انسان الى الاهتمام بالوجدان الشخصي . وكانت رسالة البابا بيوس الثاني عشر رسالة موجهة الى الجماهير . ولربطها عاطفياً بالايمن الكاثوليكي ، نادى بعقيدة « انتقال العذراء الى السماء » وقرر أن تكون سنة ١٩٥٤ « سنة مريم »

أي مكرسة للسيدة مريم العذراء . ولما كان من غير الممكن الابتعاد عن اهتمامات العصر ، لذا جاءت عبادة العذراء ، بصفتها ، وعدوتها ، وصوفيتها ، تعارض كل العنف في عصرنا .

توطيد البابا للمبادئ المسيحية . - ومع ذلك ، فإن البابا لا يريد أن يقصر عمله على الصعيد الصوفي . ففي رسالة عيد الميلاد ١٩٥٥ ، لم يتردد في مواجهة جميع قضايا العصر الحارة ليتصورها تحت الزاوية « المسيحية » باهتمام عظيم وموضوعية . وهذه الرسالة لا تتوجه الى « الكاثوليك » فحسب ، وهذا هو المهم ، بل الى « المسيحيين » الذين يحرص البابا على تشجيع عملهم المشترك .

ومن الناحية المذهبية ، يشجب البابا مرة جديدة ، في رسالته ، الشيوعية باعتبارها مذهباً اجتماعياً ، وذلك باعتقاده من جهة على المذهب المسيحي ، ومن جهة أخرى ، على الحق الطبيعي . ويقول : « اننا ندفع الرأي الذي يتوجب فيه على المسيحيين أن ينظروا اليوم الى الشيوعية كحادث أو مرحلة في سياق التاريخ ، كـ « فترة » ضرورية لتطور هذا التاريخ ، وبالتالي قبولها تقريباً كقرار من الحكمة الإلهية » .

ولمواجهة توسع الشيوعية ، تفضل الرسالة « عملاً مسيحياً » يرمي الى توطيد الحرية على نظام معنوي أخلاقي . وفي هذا الموضوع ، يقوم من جانب الكنيسة على التشكيكات في الأهداف المزعومة لدول الأرض . « اذا اتحد المسيحيون في مختلف التنظيمات ، فإن يكون لهم أهداف أخرى غير خدمة الله في مشيئته خير العالم » . ولكن ، كما يضع البابا نفسه فوق الصعيد الكاثوليكي ، على الصعيد المسيحي ، كذلك لا يريد أن ينزوي المسيحيون « في دائرة مغلقة كما لو كانوا يريدون الانفصال عن العالم » ،

-٥٣٤-

وينصحهم ، بالعكس ، ان يبقوا منفتحين على كل مشروع سليم وعلى كل تقدم حقيقي .

واذا وضع البابا نفسه هكذا على صعيد سام ومتسامح بخاصة ، وجعل نفسه باختصار مرشداً معنوياً للشعوب الغربية ، فقد جابه القضايا الكبرى : نزاع السلاح ، الاستعمار ، القومية .

وتصور البابا الاقتراحات الحديثة التي تهدف الى التجارب التي اجريت بالأسلحة النووية واستخدام هذه الأسلحة والرقابة على هذه الأسلحة ، واتخذ موقفاً صريحاً جداً . وفي ذلك يقول : « اننا لانتزود في التأكيد على ان اتفاق هذه التدابير الثلاثة ، التي هي هدف وفاق دولي ، انما هو واجب ضمير الشعوب وحكوماتها . وقد قلنا : اتفاق هذه التدابير لأن الهدف من التزامه المعنوي هو ايضاً توطيد أمن واحد لجميع الشعوب . فاذا مانفذت النقطة الاولى فحسب ، انتهى الأمر الى حالة لاتحقق هذا الشرط ، لاسيما وان لدينا جميع الأسباب التي تجعلنا نشك في انه يراد الوصول فعلاً الى ابرام الاتفاقيين الآخرين . اننا ننكلم علانية ، لأن خطر اقتراحات غير كافية في قضية السلام يتعلق في جزء كبير منه بالشك المتبادل الذي يعكس علاقات الدول المعنية التي ينهم بعضها بعضاً ، ولو بدرجات متفاوتة بأسلوب محض ، بل وعدم اخلاص في قضية أساسية بالنسبة الى مصير الجنس البشري بكامله . »

ان الجهود الرامية الى تأمين السلام يجب ان تنزع ايضاً الى ازالة الخلافات بين الشعوب . وان اعظم اخطار الحرب يكمن في الشقاق الموجود بين الشعوب الاوربية وشعوب القارات الأخرى المتطلعة الى تحقيق استقلالها . وهذا يذهب بالبابا الى تصور قضايا الاستعمار والقومية ، بشكل موضوعي والوان متفرقة جداً . وترى الرسالة ان تضخيم هذه

المنازعات لن يكون من شأنه الا افادة الأخرى أي « الشيوعية » التي لا يريدونها أي من الفريقين او لا يمكن ان يريدوها . »

وبغية اجتناب استمرار هذه المنازعات ، يكون الشرط الأول « في الا تنكر على هذه الشعوب حرباً سياسية عادلة وتقدمية . » « وستعترف هذه الشعوب لأوربه بالفضل في تقدمها ، فلولا تأثيرها لانجرفت هذه الشعوب بقومية عمياء الى هوة العبودية . »

« ومن جهة أخرى ، ان شعوب الغرب ، وبخاصة أوربه ، يجب الا تبقى سلبية في اسف على الماضي دون جدوى ، أو في لوم متبادل للاستعمار ، بل يجب ان تبأثر العمل بشكل بناء لتدخل ، حيث لم يعمل ، القيم الحقيقية لأوربه والغرب اللذين حملوا الكثير من الثمار الى القارات الأخرى . وكلما اتجها نحو تحقيق هذه الاهداف ، ساعدا على تحقيق الحريات العادلة للشعوب الناشئة التي تصبح مصانة من جاذب القومية الزائفة . وهذه الأخيرة هي في الواقع عدوها الحقيقي الذي يقيمها ضد بعضها لصالح طرف آخر . وهذا التنبؤ ، الذي لا يخلو من أساس ، يجب الا يهمله او ينساه الذين يعالجون قضاياهم في مؤتمرات ، حيث تلمع للأسف وحدة خارجية في معظمها سلبية . » ويفهم من ذلك ان البابا يلمح تلميهاً واضحاً الى مؤتمر باندونج .

وأخيراً تنعرض الرسالة الى قضية من نوع اخلاقي اجتماعي سام ، وهي قضية الايمان بالقيمة الحضارية الشبه الخاصة بالتقنية : « ان من يتهمون بحق ، في هذا العصر الصناعي ، الشيوعية في انها حرمت الشعوب التي تسيطر عليها من حريتها ، يجب الا يغفلوا عن تسجيل ان الحرية ، في الجهة الأخرى من العالم ، انما هي حيازة مشكوك بها حقاً ، اذا لم ينبع أمن الانسان من بنيات تنفق وطبيعته الحقيقية . » وتشجب الرسالة

- ٥٣٦ -

« الاعتقاد الباطل الذي يبني سلام الانسان على المسار النامي للانتاج » .
وهذه هي الفكرة التي عبر عنها رابليه باختصار حين قال : « العلم بلا
وجدان ليس الا دماراً للنفس » وتضيف : « ان هذا الاعتقاد الباطل غير قادر
على اقامة حصن حصين ضد الشيوعية ، لأنه مقسم بين الشيوعيين والعديد من
من غير الشيوعيين على حد سواء » .

ولامشاحة في ان رسالة البابا تؤلف وثيقة من أحكام وثائق السياسة
بعد الحرب العالمية الثانية . ولذا نشرت مراراً ، في جزء منها على
الأقل ، في صحف العالم بكاملها ، ويدخل في ذلك صحافة البلاد الشيوعية .
غير ان رسالة البابا دون جواب نقطة من اخطر نقاط الحالة
الحاضرة . فلا شك في انها تمتدح الوسائل التي يسود فيها السلام ،
ولكن الا يمكن ان يبقى هذا السلام ضعيفاً اذا لم يتوصل الى اقامة
تعايش سلمي بين الشعوب الشيوعية وبقية الشعوب ؟ ! يبدو ان البابا
لا يقبل هذا التعايش . فقد تابع شعبه لـ « اخلاق الانتاج » وعبر
هكذا : « في هذا الايمان الخاطئ يلتقي الطرفان بتوطيد وفاق
ضمني يمكن ان يغري الواقعيين الظاهرين في الغرب لقبول « حلم تعايش
حقيقي يمكن » .

ويفهم من هذا ان البابا لا يمكن ان يقبل بالتعايش « الحقيقي » للشعوب المسيحية
مع نظام يجسد نظامه الايمان بالله . وخارجاً عن هذا التعايش « الحقيقي »
يتصور البابا مع ذلك وبشكل ضمني تعايشاً سلمياً ، لأنه يحض الحكومات
على تأمين سلام وأمن جميع شعوب العالم .

حبرية يوحنا الثالث والعشرين . - عندما توفي البابا بيوس الثاني
عشر ، في تشرين الأول ١٩٥٨ ، اعتلى العرش البابوي مجدد عظيم في

شخص انجيلو جيوسيبي^(١) ، الكردينال رونسكالي وأخذ اسم يوحنا الثالث والعشرين . وبسرعة كسر البابا يوحنا التقليد السائد وزاد في عدد الكرادلة حتى بلغ عددهم نحو ١٣٠ كردينالاً في ١٩٧٠ . وبهذا العمل يكون قد اكمل اتجاهها ظهر في حبرية بيوس الثاني عشر ، الذي انشأ ، لأول مرة منذ القرن الرابع عشر ، مناصب جديدة في مجمع الكرادلة بحيث يشكل الكرادلة غير الابطاليين اكثرية . وقد رجح البابا يوحنا الثالث والعشرون الكلمة لصالح غير الابطاليين بتسمية كرادلة محدثين في افريقية وفي الشرق وكانت حبرية يوحنا الثالث والعشرين قصيرة ، ٤ سنوات ونصف ونيف ، ولكنها مليئة بجلال الأعمال . فقد نادى بالسلام ونزع السلاح من العالم . واكثر من ذلك أهمية انه اعلن ، في كانون الثاني ١٩٥٩ ، بأنه يأمل ان يدعو المجمع المسكوني الاول للكنيسة . ومن تشرين الأول حتى كانون الأول ١٩٦٢ ترأس يوحنا الثالث والعشرون مجمع الكنيسة ، وقد حضره اكثر من ٢٥٠٠ شخصية كنسية هامة . ولكن اكبر تغيير في الجمهور ، منذ القرن السابع ، جاء خارجاً عن المجمع لا منه .

حبرية بولس السادس . - وفي ١٩٦٣ توفي البابا يوحنا الثالث والعشرون ، وكان موضع احترام واعجاب غير الكاثوليكين والكاثوليكين . وخلفه جيوفاني باتيستا واعتلى العرش البابوي بامم بولس السادس . وامم مايييز حبريته تلك الرحلة التي قام بها الى القدس في كانون الثاني ١٩٦٤ . وهو أول بابا يغادر ايطاليا منذ سنة ١٨١٤ . وقد غادرها مراراً لزيارة الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية وبلاد العالم الأخرى .

ومن بين الاعمال التي قام بها بولس السادس ، تلك التدابير التقدمية

(١) انجيلو جيوسيبي Angelo Giuseppe

وهي : محاولة ضم الكنيسة الرومانية والكنيسة الارثوذكسية الاغريقية معاً ، وتوكيد مبدأ الحرية الدينية للجميع ، وعدة خطوات تنزع الى ديمقراطية الكنيسة . غير أن هنالك موقفاً حافظ عليه البابا ، في ١٩٦٠ ، وأحدث انقلاباً مفاجئاً في داخل الكنيسة ونقداً في خارجها ، وهو توكيد موقف الكنيسة ضد تحديد النسل الاصطناعي ، وفي اصراره على العزب الكنسي والحفاظ على الفلسفة اللاهوتية . وقد أوضح بعضهم أن على البابوية المجردة أن تجدد ، بل وبسرعة أكثر ، موقفها من تحديد النسل اذا كانت تريد أن تجعل الكنيسة وثيقة الصلة بقضايا عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠ .

أما موقف البابا من قضية فلسطين فيبدو أنه ودي اجمالاً . وبعد أن كانت الشكوك تحوم حول موقف الفاتيكان من القدس على اعتبار انه يقبل بان تبقى القدس في ايدي الامرائيليين مع منع المسلمين والمسيحيين بعض الامتيازات . ولكن الاخبار الاخيرة اظهرت ميلاً خاصاً لتأييد وجهة نظر العرب في وجوب اعادة القدس الى اهلها العرب في أية محاولة سلمية في المنطقة ، وان على امرائيل بالتالي التخلي عن مزاعمها الدينية والتاريخية حيال المدينة المقدسة . هذا ما قدل عليه أنباء الزبارة التي قام بها ممثل البابا الشخصي وكبير فقهاء الكنيسة الكاثوليكية ومديري أمورها ، الكاردينال بيغنادولي للاجتماع بالملك فيصل عاهل المملكة العربية السعودية ، في ٢٣ نيسان ١٩٧٤ .

والذي يبدو من كل هذا أن روح التفاهم سائدة بين البابا والعرب في قضية فلسطين بعامة وقضية القدس بخاصة ، ومثل هذا الاتفاق لا بد وأن يترك آثاره على مستقبل القدس والعالم . وهذه المناسبة وجه الفاتيكان دعوة بمثابة الملك فيصل يتبعها اقامة علاقات دبلوماسية دائمة بين الجانبين .

الدول المجاورة للكتلة الاشتراكية

فنلندا

على طرفي الشريط الطويل الذي يؤلف الدول الشيوعية الممتدة عبر أوربه الوسطى من الشمال الى الجنوب ، توجد أمم خضعت لأقصى الضغوط السوفياتية ولكنها لم تستسلم . ففي أقصى الشمال تجرت فنلندا في الحرب الى جانب المحور بسبب عدايتها للاتحاد السوفياتي ، ثم تنازلت عن أراضي لروسيا في آخر الحرب . ونجم عن ذلك ان ما يقارب ٥٠٠.٠٠٠ فنلندي بمن كانوا يعيشون في الاراضي المفقودة ، فضلوا النزوح الى فنلندا المصغرة على أن يعيشوا تحت الحكم السوفياتي . ومنذ تاريخ تسوية السلام في اوائل ١٩٤٧ ، كانت الحاجة في الحفاظ على علاقات حيادية ، غير محترمة الآن ، مع الاتحاد السوفياتي ، تسيطر على السياسة الخارجية الفنلندية .

وفي الداخل ، بذت هلسنكي قصارى جهدها لبلوغ مستوى حياة عال ، من جهة لتحد من عدد غير المستخدمين الناقمين الذين يمكن أن تغريم حجاج الشيوعيين الوطنيين . وظلت الحكومة الفنلندية يقطعة باستمرار لتجنب عن بلادها ضربة تشبه الضربة التي اجتاحت غير الشيوعيين خارج الحكومة في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٨ .

لقد كان مركز القوة ، في فنلندا ، في الاتحادات . غير أن هذه العناصر كان تعدل كفتها القوى المسلحة المناوئة للشيوعية والمالية للجمهورية . ومع ذلك ، فقد اسهم الشيوعيون قليلاً في الحكومة الفنلندية على مستوى الوزارة حتى ١٩٤٨ . وفي انتخابات هذه السنة ، حقق المعتدلون كسباً كبيراً على حساب اليمر . وكاث عدد المشايين الشيوعيين ، في المجلس

التشريعي ، ادوسكونتا^(١) ، ٣٨ على ٢٠٠ . وبعد ذلك ، وحتى ١٩٦٦ ، كانت الحكومات الائتلافية تضم بانتظام الديمقراطيين الاجتماعيين وأصحاب الأقطان (كبار المالكين) .

ووجدت فنلندا ، في علاقاتها الدبلوماسية ، ان من الضروري ان تبرهن للاتحاد السوفياتي بانها تستطيع ان تكون جزءاً من المنطقة الفاصلة (الحاجزة) بين الاتحاد السوفياتي والدول الغربية دون أن تصبح له بلداً تابعاً . وبالتالي أبرمت معه معاهدة يتشاور بموجبها الفنلنديون مباشرة مع الاتحاد السوفياتي في حال تهديد المانيا الغربية أو أي دولة غربية أخرى ، بغزو الاتحاد السوفياتي . ووجدت مناسبات ، بعد الحرب العالمية الثانية ، كان ضغط الكرملن فيها يجبر الحكومات الفنلندية على الاستقالة أو الخضوع . ومع ذلك فإن السيطرة الكاملة السوفياتية على فنلندا لم تقع كما جرى في الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي . وظلت فنلندا تقاوم بعناد ضغط السوفياتيين عليها . هذا فضلاً عن أن السوفياتيين لم يتورعوا من اصدار السويد عندما ارادت أن تبحث عن حلف مع الدول الغربية . ومع الزمن حلت الصعوبات الدورية في العلاقات السوفياتية - الفنلندية بضمان امتيازات الاقلية الفنلندية الصغيرة . وعندئذ سمحت السلطات الفنلندية لـ (الاتحاد العالمي للشبيبة الديمقراطية ، السوفياتي بالاجتماع في بلدها في ١٩٦٢ .

وبعد انتخابات ١٩٦٦ ، أصبح الحزب الديمقراطي الاجتماعي المعتدل اكبر حزب في البلاد ، يليه ، في الدرجة الثانية ، حزب الوسط ، واكثر أعضائه من أصحاب الأقطان . وتشكلت تباعاً حكومة جديدة برئاسة زعيم الحزب الديمقراطي : رافائيل باسيو^(٢) وماونو كوافيستو^(٣)

(١) ادوسكونتا Eduskunta

(٢) رافائيل باسيو Rafael Paasio

(٣) ماونو كوافيستو Mauno Koivisto

-٥٤١-

وضمت وزارتهما وزيرين أو ثلاثة وزراء شيوعيين انعكاساً لما يراه الفنلنديون انفراجاً نامياً بين روسيا والغرب . ويعتقد الفنلنديون ظاهراً أن الخطوط العقائدية قد تشوهت بصورة كافية في أوروبا ، حتى انها سمحت للشيوعيين بالدخول في الحكومة دون الخوف من ضربة شيوعية تالية . ثم حل محل كوافيستو على رأس الحكم الدكتور آهتي كارجالينن بعد الانتخابات البرلمانية في ١٩٧٠ .

وفي الشؤون الاقتصادية ، نجد الروابط الفنلندية قوية مع الاتحاد السوفياتي . ان ٧٠٪ من الاراضي الفنلندية مخرجة . وبالتالي فان الصادرات الاولى لفنلندا هي : الواح الحشب ، معجون الحشب ، الورق ، مقابل الاسمدة والحبوب والزيوت . ويتجه حجم التجارة الفنلندية شطر الاتحاد السوفياتي . وظل هذا الوضع على حاله حتى بعد أن أنهى الفنلنديون دفع تعويضات الحرب العالمية الثانية الى الاتحاد السوفياتي . ومن المفهوم موماً بين الأمم أن الحكومة الفنلندية ، كشعبها ، كانت تود ان تقيم صلات تجارية أكبر وأوثق مع البلاد الغربية وربما البحث عن عضوية في السوق المشتركة . غير أن شرط الاتحاد السوفياتي على استقلال فنلندا هو عدم انهاء تجاري واسع ووثيق بين فنلندا والغرب .

المجلس الشمالي

لقد عادت البلاد الاسكندنافية ، بعد الحرب كسائر البلاد الغربية ، الى نظمها وتقاليدھا التي كانت لها قبل الحرب . وبالرغم من الاتجاه المختلف لسياساتها ، فان السويد ، التي تطبق سياسة الحياد ، وفنلندا المرتبطة بالاتحاد السوفياتي بميثاق العون المتبادل ، والنرويج والدانمارك وايسلندا

الاعضاء في ميثاق الاطلسي ما فتئت تنمي حركة التضامن الاسكندينا في التي انتهت ، في ١٩٤٨ ، الى توطيد تعاون ثقافي واقتصادي فيما بينها وفي كانون الثاني ١٩٥١ ، تألفت « لجنة برلمانية شمالية » لتقيم بين السويد والنرويج والدانمارك وفنلندا اكبر حرية مواصلات بحذف الجوازات وادخال التسهيلات الجمركية . وفي شباط ١٩٥٢ ، تحولت هذه اللجنة الى مجلس شمالي . ولكن فنلندا امتنعت عن المشاركة في هذا المجلس ، خوفاً من الاساءة الى الاتحاد السوفياتي . وبالمقابل ، اشتركت ايسلندا به . وتقتصر مهمة المجلس الشمالي على دراسة جميع اشكال التعاون التي يمكن اقامتها بين البلاد الأربعة في النطاق الاداري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي . وفي الواقع ، ان اشتراك السويد في الميثاق الشمالي الذي يربطها بالبلاد الاسكندنافية الثلاثة الاعضاء في حلف الاطلسي ، قربها بصورة غير مباشرة من البلاد الغربية . ولذلك اثارت في الاتحاد السوفياتي وفي جميع البلاد الشيوعية انتقادات شديدة .

ولمنع فنلندا من التوجه شطر حلف الاطلسي ، اعاد الاتحاد السوفياتي لها في ١٩٥٥ ، ميناء بوركالا ، الذي ضمه بعد الحرب الروسية - الفنلندية . وبالرغم من ذلك ، اشتركت فنلندا ، في تشرين الأول ١٩٥٥ ، في المجلس الشمالي .

اليونان

الى الطرف الجنوبي من شريط الأمم الشيوعية الممتدة عبر أوربه ، تقع اليونان وتوكيا .

في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية ، كان النفوذ البريطاني

(١) بوركالا Porkkala ميناء بالقرب من العاصمة هلسنكي .

واسعاً في اليونان . وقد أصر ونستون تشرشل على أن اليونان ليست خاضعة للسيطرة السوفياتية . وعندما عادت القوات البريطانية الى آثينة في بداية ١٩٤٤ ، عاد رئيس الحكومة اليونانية السابق ، جورج باباندريو معها ووعد بتشكيل حكومة تمثيلية . وعندما انسحب النازيون من اليونان ، قام الشيوعيون ضد العودة الى نظام الحكم الملكي . وتدخلت الجيوش البريطانية وقضت على القوى المتمردة . ثم وعدت الحكومة اليونانية بالاعفو عن الجرائم السياسية وتعهدت بالحفاظ على الحريات المدنية واحترام الشيوعيين . و اراد كثير من الشيوعيين الا يشاركون في حكومة تريد التعاون مع الملكيين . وفر كثير من الجمر الى يوغوسلافيا ، أو لجأ في الجبال . وبدأت حكومات يوغوسلافيا وبلغاريا والباينا تساعد اخوتها الشيوعيين وفي خريف ١٩٤٦ مزقت الحرب الأهلية القرى اليونانية . وكان اشتراك الدول الشيوعية المجاورة لليونان واضحاً في هذا النزاع المدني ، حتى ان لجنة من الأمم المتحدة ادانت هذه الدول بتعرض حرب العصابات في شبه جزيرة اليونان .

وفي ١٩٤٧ ، طلبت الحكومة اليونانية العون من الولايات المتحدة ، بعد أن صرح البريطانيون أنهم غير قادرين على الحد من هجوم الشيوعيين في البلقان . وأدى مذهب الرئيس ترومان ، الذي أوجت به طلبات العون من اليونان ، الى ارسال مساعدة عسكرية واقتصادية من الولايات المتحدة . كما أن هذا العون من الولايات المتحدة ، مع ارتداد تيتو عن موسكو ، أدى الى انتهاء العون اليوغوسلافي الى اليونانيين الجمر ، ويمكن الحكومة اليونانية من كسر الثورة الشيوعية . وفي ١٩٤٩ ، انتهت الثورة

واكتظت السجون بامرئ الثوار . وفي تشرين الثاني ١٩٤٩ ، عادت الجيوش البريطانية الى بلادها .

وهكذا ، نرى أن ثلاث سنوات من النزاع الأهلي المرير المقيت مع ما يضاف اليه من دمار احدثه انسحاب النازيين في نهاية الحرب ، قد خربت البلاد وهانت فيها الفساد . وبدأ الاعمار مباشرة وبصورة واسعة بمساعدة الاميركيين . ولم تكن المهمة سهلة . فقد كان عدم الاستقرار السياسي سائداً والحكومات تسقط وتنشكّل باستمرار . وحالت المنافسات الحزبية الشديدة دون التماسك القومي والاستقرار .

وفي ١٩٤٦ ، اعيدت السلالة الملكية ، التي كانت تحكم قبل الحرب ، الى الحكم باستفتاء شعبي . وفي ١٩٤٧ ، توفي الملك جورج الثاني وخلفه اخوه بول . وفي ١٩٥١ مضى على الدستور اليوناني اربعون سنة ، ووجد من الضروري تعديله بشكل يسمح لاشتراك واسع في الحكم من بين طبقة الفلاحين . ويجرم الدستور الجديد على الموظفين المدنيين ان يكونوا شيوعيين . وفي ١٩٥٢ ، منحت المرأة حق التصويت .

وتشكلت أول حكومة بعد الحرب في ١٩٥٢ برئاسة الفيلد مارشل الكسندر باباغوس ، وكان قائداً للقوات اليونانية التي قاومت الغزو الايطالي عام ١٩٤٠ ، والشيوعيين في ١٩٤٩ - ١٩٥١ ، وخلفه القوي قسطنطين ج . كارامانليس ، وحققت اليونان تقدماً اقتصادياً خلال احد عشر عاماً . ومنذ منتصف ١٩٥٠ تحسنت الشروط الاقتصادية بصورة ملحوظة ، وتحسنت الحالة في الزراعة والصناعة . وأصبحت اليونان بصورة استثنائية نشيطة في صناعة السفن وتجهيزها ، وأمت شبكة مواصلات من سفن

(١) باباغوس Papagos

(٢) كارامانليس G. Karamanlis

-٥٤٥-

الشحن بمخز عباب البعار الى جميع جهات العالم . واستغل اليونانيون تراثهم الكلاسيكي وجمال بحر ايجة لتنمية السياحة .

وقد توافر عنصران هاما بخاصة في الحفاظ على قوة الاقتصاد اليوناني ، وهما : المساعدة الخارجية الامريكية ، وهجرة الفائض من العمال الى البلاد الشالية الصناعية في اوربه . وتتابع المساعدة من الولايات المتحدة الامريكية الى اليونان . من ١٩٤٥ الى ١٩٦٢ بلغ العون الامريكي ما يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار وجهت لبناء محطات للطاقة الكهربائية ، ومشاريع استصلاح الاراضي ، والمعامل لانتاج السلع الاستهلاكية .

وبالرغم من التنمية الاقتصادية ، فقد كانت البطالة مستحكمة . ووضع برنامج واسع ، في ١٩٥٩ ، لتشغيل الفائض من العمال . ولحقن حظ اليونان ، في ذلك الحين ، أن فرنسا والمانيا الغربية كانتا تشكوان نقص اليد العاملة ، ولذا كان العمال من اسبانيا وإيطاليا واليونان يذهبون الى غربي اوربه وشمالها ويستغلون في معامل فرنسا وجرمانيا ، وعند عودتهم الى بلادهم يأقوت بما وفروه من اجورهم ، وفي الغالب كانوا يستثمرون هذه الأموال المدخرة في الأعمال الصغيرة .

وبالرغم من التقدم المادي ، كانت الحكومات على العموم تشغل نفسها برسوم غير عادلة وبالبقاء على مكتبيين (بوروقراطيين) يقبضون رواتبهم دون عمل مفيد . وفي ١٩٦١ ، اتمت حكومة كارامانليس بتزوير الانتخابات واتباعها طرق دكتاتورية ، رغم ان كارامانليس لم يضع حداً للتجمعات السياسية المعارضة أو الملاحظات أو التعليقات العامة على السياسة . ومن المحتمل ، في ١٩٦٣ ، ان يكون الرئيس كارامانليس استقال محتجاً عندما رفض الملك ان يصغي لنصحه بأن من غير المناسب زيارة لندن

فضايا عصرنا (٣٥)

لئلا يكون محرّجاً من قبل الشيوعيين . على ان هذه الظاهرة لم تحصل في الواقع . وقلا ذلك انتخابات وطنية لم تسفر عن اكثرية واضحة لحزب واحد . ولذا كان من المستحيل تشكيل وزارة قوية . ثم جرت انتخابات أخرى ، في ١٩٦٤ ، فأعطت اكثرية الى حزب الاتحاد الوسط الذي يتزعمه الشيخ باباندريو . وتجدد الاستقرار الوزاري بسرعة برئاسة باباندريو ، واستمر الحظ الوراثي في الملكية . وعندما توفي الملك بول ، في ١٩٦٤ ، خلفه ابنه قسطنطين الثاني وله من العمر ٢٣ سنة .

وفي بداية ١٩٦٥ ، عادت الانقسامات السياسية مرة أخرى . وسادت الأجواء اليونانية ضجة مفادها أن الشيوعيين يدبرون انقلاباً . ومن المحتمل ان تكون فئة من ضباط الجيش قد روجت لهذه الاخبار بتهديد الشيوعيين للدولة . وفي ٢١ نيسان ١٩٦٧ ، قامت فئة (خونتأ) من ضباط الجيش بزعامة جورج بابادوبولس ، وادعت ان البلاد مقدمة على خطر محتم الوقوع من ثورة حمراء ، واستولت على زمام الأمور في البلاد ، وكمت افواه المعارضة باقامة دكتاتورية عسكرية قوية . وفي غضون ذلك أخذ الملك قسطنطين يدبر القيام بحركة ضد الحكم العسكري ، بينما قبلت الخونتأ المصالحة مع تركيا بشأن اليونانيين والأتراك في قبرص .

وفي ١٤ كانون الأول ١٩٦٧ ، هرب الملك قسطنطين الى ايطاليا بعد ان اخفقت محاولة الاطاحة بالحكم العسكري .

وفي ١٩٦٨ ، ظهر جورج بابادوبولس اقوى رجل في الخونتأ ، وأخذ لقب رئيس الوزراء . وتبني دستور جديد باستفتاء جرى في ٢٩ ايلول ١٩٦٨ ، وجرّد الملك من جميع سلطاته .

-٥٤٧-

وفي تشرين الثاني ١٩٦٩ ، انتهت اللجنة الاوربية لحقوق الانسان في مجلس اوروبا ، بعد دراسة عامين ، الى ان النظام العسكري « بما لا يقبل الشك » يعذب السجناء السياسيين ، وينكر على المواطنين حقوقهم المدنية ، وانما لم نجد أي دليل على خطة وضعت في ١٩٦٧ لسيطرة شيوعية ، كما ادعى الزعماء العسكريون عندما استولوا على السلطة . وفي نيسان ١٩٧٠ ، ندد المجلس الاوربي باليونان على معاملتها لمواطنيها .

ومنعت الانتخابات في ١٩٧٠ ايضاً ، الا ان بعض مظاهر القمع قد خففت . واهلنت الولايات المتحدة العودة الى المساعدة العسكرية التي قطعت بعد انقلاب ١٩٦٧ . وقدمت الولايات المتحدة اسلحة بما يعادل ١٤٣ مليون دولار في ١٩٦٨ - ١٩٧٠ . ووعدت بـ ٥٦ مليون في سنتين نظراً لقيمة اليونان الاستراتيجية بالنسبة الى الجناح الجنوبي لحلف الاطلسي . ولاحظت الولايات المتحدة ميلاً نحو النظام الدستوري وأملت بعودة صريحة للديموقراطية ، ولكن النظام استمر في قمعه . ومع ذلك ظلت الولايات المتحدة مستمرة في مساعدتها . وفي ١٩٧٣ ، بعد حركة فاشلة في الاسطول ، عزّاهها بابا دوبرولوس الى الملك قسطنطين ، الغيت الديمقراطية المتوجة ، لعام ١٩٦٨ ، واعلنت البلاد « جمهورية برلمانية رئاسية » . وهذه هي الجمهورية الثالثة في تاريخ اليونان وأخذ بابا دوبرولوس لقب « الرئيس » بعد ان كان رئيساً للوزراء ، ووعده بانتخابات برلمانية قبل نهاية عام ١٩٧٤ . وجرى استفتاء في شروط دولة بوليسية ووافق على حركته . وصدر اول مرسوم له في رئاسته ، في آب ١٩٧٣ ، وفيه قرر انتهاء الحكم العرفي والعفو عن جميع السجناء السياسيين .

وعلى اثر حركة قام بها الطلاب ، في ٢ كانون الأول ١٩٧٣ ، اعلنت الأحكام العرفية ، وارقف بابا دوبرولوس في داره . ولكن الاطاحة بهذا

الرئيس لا تعني ان البلاد سارت في طريق العودة الى الحكم الديمقراطي .
 ففي الخطاب الذي القاه رئيس الوزراء الجديد آدامانديوس اندرو
 تسوبولوس ، اعلن بان الحوتنا ستحكم البلاد ، دوت قيد ، براسيم
 اشتواعية ، ولا تريد ان تجزي الانتخابات الوطنية التي اعلن عنها الرئيس
 بابا دوبولوس وارادها ان تكون قبل نهاية العام ١٩٧٤ ، وصرح بقوله :
 « سنذهب برسالتنا حتى ختامها ، دون انقطاع أو نوقيت أو مفاجآت . »
 وما تزال هذه الحركة الانقلابية الاخيرة ، التي قامت بها الحوتنا العسكرية ،
 مرآ . لأن الرئيس الجديد الذي رفعته الحوتنا ضابط غير معروف في
 الجيش ، وهو العقيد فيدون جيزيكيس ، وقد رقي الى رتبة جنرال
 كاملاً بعد الضربة الانقلابية بثلاثة أيام . ويبدو انه لم يكن بالشخصية
 القوية . وفي الواقع لم يذهب خارجاً عن الطريق المرسوم . فقد اعلن
 عند حلفه اليمين على منصب رئيس الدولة ، بقوله « ليس لي مطمع
 شخصي » . وعلى ما يبدو ان عضو الحوتنا القوي ، والرأس المحرك
 للضربة هو العميد ديميتريوس ايوانيديس ، رئيس الشرطة العسكرية .
 وفي السياسة الخارجية ، اعلنت اليونان عن مشاركتها في الامرة
 الغربية باشتراكها في عضوية حلف الاطلسي في عام ١٩٥١ ، ثم اشتركت
 في الحرب الكورية وقدمت قواعد للحلف الاطلسي . وفي ١٩٦٢ ،
 ضمنّت المشاركة في عضوية السوق المشتركة . وشهد عقد ١٩٦٠ استمرار النزاع
 بين تركيا وبريطانيا العظمى في قضية جزيرة قبرص المستعمرة البريطانية السابقة .

(١) آدامانديوس اندرو تسوبولوس Adamandios Androutsopoulos

(٢) فيدون جيزيكيس Phaeton Gizikis

(٣) ديميتريوس ايوانيديس Dimitrios Ioannidis

ظلت تركيا تلتزم جانب الحياد الدقيق حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً . وكان هذا الموقف منها نتيجة تجربة تاريخية قتل على ان الدولة ، التي تشرف على منافذ في البحر المتوسط ، تجدد نفسها باستمرار في خصام مع سياسات الدول الاوربية . وبالتالي ، فكر الاتراك ان من صالح بلادهم ان يكونوا متحررين وبعيدين عن الاشتباكات الاوربية باتباع سياسة الحياد .

وفي الحرب ، كانت تركيا موضع ضغوط جرمانيا وروسيا . وكانت جرمانيا ترغب في ان تكون تركيا مسلكتاً الى الدول العربية . وكانت روسيا تبحث عن هذه المنطقة نفسها اثناء الحرب ، لأنها رأت ان المضائق التركية ، اذا لم تكن تحت سيطرة روسيا ، بعد الحرب ، فيجب ان تكون ، على الاقل ، تحت سيطرة نظام يشرف عليه السوفييتيون . ومع ذلك ، حاول الاتراك ان يقاوموا هذه المؤثرات حتى ١٩٤٥ .

وفي اوائل ١٩٤٥ ، اعلنت تركيا اخيراً الحرب على جرمانيا ، مقابل قبول عضويتها في الامم المتحدة . وعندما تهدمت جيوش هتلر واستسلم الرايخ ، بقي الاتحاد السوفياتي يهدد تركيا بوضوح . ولما اصبح انزام جرمانيا حقيقة ، شهر الاتحاد السوفياتي ببشاق عدم العدوان الروسي - التركي الذي يرجع تاريخه الى ١٩٢٥ ، مدعياً بأن الوقت قد حان لاعادة النظر به . وفي نهاية الحرب ، وضحت نوايا روسيا حيال تركيا . فقد اراد السوفييتيون الا يكون لهم يد في الاشراف على المضائق فحسب ، بل ايضاً تجريد ارض من السلاح في شمال تركيا ، في القوقاز . وقاوم الاتراك هذا الضغط ، واتجهوا نحو الغرب طلباً للمساعدة . وبالتالي ادخلتهم

- ٥٥٠ -

المساعدة من الغرب ، أولاً ، في نطاق مذهب ترومان ، وثانياً في الحلف الأطلسي .

بعد وفاة مصطفى كمال أتاتورك ، في ١٩٣٨ ، ولي الرئاسة الجنرال عصمت اينونو ، ولكن الفترة الطويلة ، التي تولى فيها حزب الشعب الحكم ، فسحت مجالاً لنقد فساد الحكومة وعدم كفاءتها . وساءت الحالة الاقتصادية بسبب الحرب . وثلاً ذلك تضخم نقدي كبير عجزت الحكومة عن ابقائه او عرقته . وكانت هذه الحالة المضطربة سبباً في نمو معارضة سياسية قوية . وفي ١٩٤٦ ، اخفق الحزب الديمقراطي التركي وبدأ يدفع الى تليين اشراف الدولة على الاقتصاد .

وفي ١٩٥٠ ، سيطر الديمقراطيون في المجلس الوطني الكبير ، وأصبح عدنان مندريس الحامي رئيساً لمجلس الوزراء . وهذه هي المرة الاولى ، في تاريخ تركيا ، التي تبدل فيها الحكومة يديها بسبب انتخابات حرة حقيقية . وقد رعب بهذه الخطوة في الغرب كحركة نحو تغريب نهائي للنظم التركية .

وتوكيداً لهذا لاتجاه الذي سلكه الاتراك ، اطلقت الولايات المتحدة برنامج مساعدة لتركيا . وخلال عقد ، بعد ١٩٤٧ ، تدفق ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار على تركيا من واشنطن . وخصصت ثلاثة أرباع هذا المبلغ للاستعمال الحربي . وبهذا الدعم والقروض الخارجية أصبح باستطاعة حكومة مندريس ان تنشط نمو الاقتصاد الداخلي في قطاعي الصناعة والزراعة . وشرعت الحكومة الجديدة التسامح الديني . وبعد ان كان الدور الكهالي يناوئ الدين ، سمح بتأسيس المدارس الاسلامية في ١٩٥٠ . وخلافاً لأمر أتاتورك بلزوم ارتداء اللباس الغربي ، سمح نظام مندريس للشعب بارتداء ما يشتهي من لباس . وهذا يعني ، في المناطق الريفية التركية ، ان اللباس التقليدي

وطرق الحياة المألوفة بدأت تظهر من جديد . وعارض هذا الاتجاه بعض التقدميين
من يرغبون باستمرار الأنماط الغربية حسب الخط الذي رسمه مصطفى كمال
في فترة ما بين الحربين .

وكان من مكاسب النظام الديوقراطي ، ان المبالغ التي دفعتها تركيا
لدول اوروبا الغربية ، وفاء لديونها ، كانت من نقد المساعدة التي قدمتها
الولايات المتحدة لتركيا . وهذا ما جعل الاتراك يطلبون مزيداً من مساعدة
الولايات المتحدة . ورفض الامريكيون تقديم مساعدتهم ، ووجدت تركيا ،
في آخر ١٩٥٠ ، ان من الصعب كثيراً الحصول على اعتمادات خارجية .
وهذا يعني انه يتوجب على الحكومة ان تحدد استيرادها ونتاج السلع
الاستهلاكية ، وتركز على الأشياء الاساسية . وبمبادأة سياسة التقنين
والتقييد في السلع الاستهلاكية بدأ استياء الشعب . فرد الديوقراطيون
بطرق قاسية ضد المعارضة السياسية . وفيدت حرية الصحافة ، واعتقل
اعضاء حزب المعارضة على اتهامات تافهة . وفي عشر سنوات على حكم
مندريس ، الذي بدأ في ١٩٥٠ ، زاد استياء الشعب ، وبلغ أقصاه ،
في ٢٧ أيار ١٩٦٠ ، في الانقلاب الدموي الذي قام به فريق من ضباط
الجيش بزعامة الجنرال جمال غورسيل . وبعد قليل ادانت محكمة خاصة
مندريس ووزيرين آخرين بانتهاك حرمة الدستور التركي ، ومثل الجميع
أمام المحكمة وصدر بحقهم حكم الاعدام ونفذ في ١٩٦١ .

وكما تكون الحالة غالباً ، عندما يطاح بفريق فجأة من وظيفته ،
ويحل محله فريق آخر ، يأتي الزعماء الجدد دون سياسات مرسومة جيداً .
ومع ذلك ، فقد وعد الجنرال غورسيل باحياء الحكم الديوقراطي ، وفي
تشرين الأول ١٩٦١ ، تبني دستور جديد ينص على سلطة تشريعية من
مجلسين تشريعيين وسلطة تنفيذية ، وأصبح بموجب غورسيل رئيساً للجمهورية

-٥٥٢-

التركية وعصمت اينونو ، في السابعة والسبعين من العمر ، رئيساً للوزراء . وبالرغم من ان اينونو كان شخصية يمكن ان يلتف حوله الاتراك ، فقد جنح الى ادخال نظام بوروقراطي قاسٍ يراقب الاقتصاد بشدة . ومع ذلك ، فقد كانت السلطة ، على ما يبدو ، في ايدي زعماء الجيش . ونظراً الى ضعف الاقتصاد واتساع الاستياء نتيجة لانعدام الثقة بالحكومة ، اضطر اينونو وحزبه ، حزب الشعب الجمهوري ، الى مغادرة السلطة في ١٩٦٥ .

وتبع ذلك انتخابات عاجلة ، واستلم السلطة حزب العدالة ، وكان يضم كثيراً من انصار مندريس السابقين ، ولكنهم كانوا حريصين على الا يعودوا الى سياسة ١٩٥٠ . وفي وزارة سليمان ديميرل ، ازيلت بعض الرقابة على الاقتصاد . فأصبح اكثر انتاجاً . واعظم انتاج كان انعكاساً لما عانته تركيا من تحويل عظيم منذ ثورة ١٩٢٢ التي دفعت اقلنورك الى السلطة . وبذلك تركيا الآن موارد صناعية وايدي عاملة موفورة تضعها في الصف الأول بين الأمم النامية بسرعة .

وفي ١٩٦٦ ، انتخب البرلمان الزعيم العسكري حودت صوفاي رئيساً للجمهورية لسبع سنوات . وفي ١٩٦٧ حافظت تركيا على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ، وبحث عن تحسين علاقاتها مع الإتحاد السوفياتي . وفي الوقت نفسه ، حلت الأمم المتحدة قضية قبرص بسحب اليونان وتركيا جيوشها من الجزيرة ، وعقدت صلات ودبة مع اليونان . ثم قامت معارضة عامة ضد الوجود العسكري الامريكي وضد حرب فيت - نام ، وأثارت مظاهرات في العام ١٩٦٨ .

وبعد اضطرابات عمال احتجاجاً على محاولة تشريع عمل حكومي ، اعلن الحكم العرقي في حزيران ١٩٧٠ ثلاثة أشهر . واستمر العمال والطلاب

- ٥٥٣ -

في اضطراباتهم حتى طلبت العسكرية التركية حكومة جديدة في آذار ١٩٧١ وشكل نهات ايريم حكومة ائتلافية من الحزب الجمهوري وحزب العدالة . ثم قامت عصابات مدنية أطلقت على نفسها اسم « جيش التحرير الشعبي » وخطفت اربعة طيارين من طياري الولايات المتحدة كما خطفت دبلوماسياً صهيونياً وقتلته ، وفرض الحكم العرفي على ١١ اقليماً تركيا

واندفع ايريم ايضاً في سن قانون يمنع زراعة الحشيش بعد ١٩٧٢ واتخذت هذه الحركة بناءً على طلب من الولايات المتحدة ووعدت من هذه الدولة بمساعدة اقتصادية لزيادة الغلة الزراعية . لأن حوالي ثلثي الهيروين الذي يحرقه القانون ويبلغ اسواق الولايات المتحدة كان يأتي من تركيا ، مع انه لا يرى تقريباً ادمان على الهيروين في تركيا .

وبقي ايريم اقل من سنة على رأس الحكم قبل ان تكون المنازعة والشغب العسكري على سير الاصلاحات سبباً في تقديم استقالته .

وافتح عبر البوسفور عام ١٩٧٣ رابع جسر عظيم معلق في العالم وهو أول جسر يصل اوروبا بآسيا .

وفي السياسة الخارجية سلكت تركيا سياسته مؤيدة للغرب ، ووسعت صلاتها الدولية بالغرب بانضمامها لحلف الاطلسي ، وأصبحت عضواً في الحلف البلقاني ، وانضمت الى منظمة الحلف المركزي (سنتو) ، وكافح الاتراك مع قوات الأمم المتحدة في حرب كوريا . ورغم الضغط السوفياتي المستمر ، ظلت تركيا مرتبطة بصورة وثيقة بالغرب . ومع ذلك ، في آخر ١٩٦٠ ، وفي ١٩٧٠ ، أخذت تبحث عن صلات احسن واكثر مرونة مع الاتحاد السوفياتي ، وما ذلك الا لأن السوفياتيين ، على ما يبدو ، جددوا محاولاتهم في ممارسة ضغطهم على جيرانهم غير الشيوعيين .

الحلف البلقاني

نجت اليونان وتركيا من سيطرة الاتحاد السوفياتي بفضل الحماية التي منحتها لهما بريطانيا العظمى أولاً ، والولايات المتحدة تالياً ، وباشتراكهما بحلف الأطلسي أخيراً . أما يوغوسلافيا ، التي شجبها الكومنفورم ، في ١٩٤٨ ، وخضعت لحصار شديد من بلاد الكتلة السوفياتية ، فقد وجدت ، بدورها ، مهددة من قبل الاتحاد السوفياتي . وتغلبت على الأزمة الاقتصادية التي اراد الاتحاد السوفياتي وتوابعه ان يوقعوها بها لالتفافها نحو الغرب . ولكنها ، على الصعيد السيامي ، كانت معزولة بصورة خطيرة . ووضعها الحلاف ، الذي يفصلها عن ايطاليا بشأن ترينستا ، في حالة صعوبة حيال الدول الغربية . وللمخروج من عزلتها ، عادت الى السياسة التي رسمتها بعد الحرب والتي حاولت بها ان تجعل من بلغراد مركزاً لحلف بلقاني . وكانت هذه السياسة سبباً أساسياً في قطع علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي . ثم استأنفها الرئيس تيتو لا بتوجيهها نحو بلغاريا ، وانما نحو اليونان وتركيا . وهذه السياسة ، التي تقرب بلغراد من الحلف الأطلسي ، رحب بها في واشنطن . وقد انتهت ، في ٢٩ شباط ١٩٥٣ ، الى « ميثاق صداقة وتعاون » بين بلغراد وآثينة وانقره . وكانت النتائج مباشرة على الصعيد الاقتصادي : فقد زادت الصادرات بثلاثة امثالها نحو اليونان ، وباضعاف مضاعفة نحو تركيا . وبالمقابل زادت صادرات اليونان بثلاثة امثالها نحو يوغوسلافيا . وأسست أمانة دائمة لهذا « الوفاق البلقاني » الجديد ، والتقت اركان البلاد الثلاثة .

توقيع الحلف البلقاني وعودة تربستا الى ايطاليا

وفي هذه الظروف ، اعتقدت روما بان الوقت قد حان للفصل في قضية تربستا . ان معاهدة السلام في ١٩٤٧ جعلت من تربستا أرضاً حرة . ولكن الدول الكبرى لم تتمكن من الاتفاق على انتخاب حاكم لها ، وبقي الانغلو - اميركيون يحتلون المدينة تاركين منطقة البندقية الجوليانية لاحتلال يوغوسلافيا . وفي آذار ١٩٤٧ ، اقترحت واشنطن ولندن وباريس اعادة تربستا الى ايطاليا . ولكن ، ابقى على نظام الاحتلال ودفعت القاطعة ، بين بلغراد وموسكو ، يوغوسلافيا الى الاعتدال . واقترحت روما عرض قضية تربستا على استفتاء ، فعارض اليوغوسلافيون . وصرح الاميركيون والانكليز بانهم قرروا ، امام عدم امكان اتفاق ، اعادة تربستا الى ايطاليا ، في تشرين الأول ١٩٥٣ . فهدد تيتو بانه يعارض بالقوة ، وتدخل الاتحاد السوفياتي مطالباً بتطبيق كامل لمعاهدة السلام .

ومع ذلك ، لم تستطع بلغراد قطع علاقاتها بعنف مع الغرب الذي تحاول من جهة ثانية ان تقترب منه . وافتتحت المفاوضات . وفي كانون الأول ١٩٥٣ ، تدخل اتفاق ، ويوجبه سمجت ايطاليا ويوغوسلافيا الجيوش التي حشدتها كل منها على حدود الاراضي المتنازع عليها . وبعد بضعة شهور ، في نيسان ١٩٥٤ ، استقبل تيتو بحفاوة بالغة في انقرة ، وصرح بأن الوقت قد حان لتحويل ميثاق الصداقة الى حلف رسمي . واثار هذا التصريح ردود فعل غير ملائمة جداً في ايطاليا حيث كان يخشى أن تقتصب يوغوسلافيا في قضية تربستا بعد تقوية وضعها . ولكن المارشال باباغروس ، الذي كان يتمتع في اليونان بسلطة شبه دكتاتورية ، ما كان ليرغب في اتخاذ موقف قد يبدو ودياً قليلاً حيال ايطاليا . وفي حزيران ،

بوشرت مفاوضات جديدة ، وانتهت ، من جهة الى اتفاق بليد ، الذي يؤلف حلقاً رسمياً بين البلاد الثلاثة الموقعة ، في آب ١٩٥٤ ؛ ومن جهة أخرى الى اتفاق ايطالي - يوغوسلافي وقع في لندن ، في ٥ تشرين الأول التالي . وبوجهه تعود مدينة تريستا والأرض المحيطة بها الى ايطاليا ، بينما تبقى البندقية الجوليانية ، مع ميناء كلبوديستريا ، كسباً الى يوغوسلافيا ، وعلى أن تكون الاقليات ، التي تضمها كل من المنطقتين ، موضوع نظام خاص . وادخل اتفاق بليد يوغوسلافيا في المنظمة الدفاعية لحلف الاطلسي . وتعزز بذلك تضامن البلاد الموقعة على اتفاق بليد . وفي شباط ١٩٥٥ ، قررت حكومات بلغراد وآثينة وانقرة انشاء « برلمان بلقاني » . وكان على كل من الدول الثلاث أن ترسل اليه ١٥ نائباً . وهكذا وجدت يوغوسلافيا ، منذ ذلك الحين ، منظمة عسكرياً وعملياً الى اليونان وتركيا العضوين في حلف الاطلسي ؛ وبالتالي ، بصورة غير مباشرة ، الى حلف الاطلسي . ان اشتراك اليونان وتركيا في حلف الاطلسي ، في ١٩٥١ ، ادخل البحر المتوسط في المنطقة الأطلسية .

المجاهرة اليونانية - التركية على قبرص

كانت كل من اليونان وتركيا جزءاً متمماً في سياسة الحلف الغربي . وقد اقامت اركان منظمة حلف الاطلسي لشرق البحر المتوسط في ازمير ، في تركيا . وكان الجهاز العسكري للدولتين يعمل معها بتعاون وثيق . وساعدت صلة العمل هذه الدولتين ، مباشرة بعد الحرب ، عندما وقفنا وحدهما أمام تهديد توسع الشيوعية . ومع ذلك فقد تهددت وحدة الهدف هذه بالانفصال والانكسار . وفي الحقيقة ، وصلت الدولتان الى قطيعة مطلقة بسبب خلافها على قبرص .

ففي آخر ١٩٥٠ ، كان اليونانيون والأتراك ييجون دورياً بالنزاع المستعر على قبرص . وكانت هذه الجزيرة الستراتيجية تحت السيطرة البريطانية منذ ١٨٧٨ . وفي الحرب العالمية الثانية ، لعبت دوراً هاماً كقاعدة بريطانية . وكان ٨٠٪ من الـ ٦٠٠٠٠٠٠ نسمة ، الذين يعيشون في قبرص ، يونانيين والباقي أتراك . وبعد الحرب ظهرت فكرة تقسيم قبرص بين القوميتين اليونانية والتركية . بيد ان السكان مختلطون لدرجة يستحيل معها التقسيم حسب خطوط قومية واضحة المعالم .

وعندما ضغط الأتراك بطلبهم بقبرص ، قالوا ان الجزيرة تقع على ٤٠ ميلاً فقط من تركيا ، على حين انها على ٦٦٠ ميلاً من اليونان . وبالمقابل اشار اليونانيون ، دوماً نظر الى الموقع ، الى ان شعب الجزيرة كان في معظمه يونانياً . وكان هذا الوضع مثيراً للغاية ، لأن البريطانيين مازالوا يسيطرون على الجزيرة . وبالتالي ، قامت في المدن مظاهرات صاخبة مناوئة لبريطانيا . وتبعاً لسياسة بريطانيا ، التي ارادت ان تتخلص من مستعمراتها ، قام البريطانيون بمفاوضات مع اليونان وتركيا . وانتهز اليونانيون القبارصة هذه السانحة ليعلنوا انضمامهم الى اليونان ، وطنهم الأم . ونادوا بحق تقرير المصير والاتحاد مع اليونان ، هذا الاتحاد الذي عبروا عنه بكلمة اينوسينس ، ورافقت هذا الطلب اعمال العنف والارهاب . وفي ١٩٥٥ ، تفجرت الحرب الأهلية ، وذهب آلاف الضحايا . وطالبت تركيا بالتقسيم . وهدد النزاع حلف الأطلسي . وبذلك جهود لتسوية القضية بمفاوضات بين البريطانيين واليونان وتركيا . وتم التوصل أخيراً الى اتفاق ، في شباط ١٩٥٩ ، يقضي بتأسيس جمهورية قبرصية مستقلة مع تمثيل له مغزاه لكل من اليونان وتركيا ، على أن يكون رئيس الدولة القبرصية يونانياً ، ونائب الرئيس تركيا ، وان تشكل الحكومة من

خليط من القوميتين اليونانية والتركية . وأصبحت قبرص دولة مستقلة ، في ١٦ آب ١٩٦٠ ، بضمان بريطانيا واليونان وتركيا ، وبرئاسة الاسقف مكاريوس الثالث . . وفي ١٩٦١ ، انضمت قبرص الى رابطة الشعوب البريطانية (كومنولث) .

على أن سبب الخلاف مازال قائماً ، اذ لم تمض فترة وجيزة الا وادى سوء التفاهم والكراهة ، في ١٩٦٣ ، الى تجديد النزاع الدموي بين القبارصة اليونان والأتراك . والسبب الهام في ذلك يرجع الى خوف الأتراك من ان اليونانيين يريدون إلغاء حقوق الاقلية التركية في الجزيرة . وفي اوائل ١٩٦٤ ، أقامت الأمم المتحدة قوة سلام في قبرص للحفاظ على النظام . وتبع ذلك اقتراحات مختلفة للحفاظ على السلام في الجزيرة .

وبعد سنتين من الاضطرابات ، جنبت عن البلاد أزمة خطيرة ، في ١٩٦٨ ، عندما اقنع وسيط امريكي ، ميروس فانس ، تركيا واليونان وقبرص بقبول حل اقترحه أمين الامم المتحدة ، ثانت ، لجلاء الجيوش اليونانية ، وتجريد الحصون التركية من وسائل دفاعها . وبدأت مفاوضات طويلة بين الطرفين المتخاصمين على دستور جديد . وامتد الحوار مع قوى الحفاظ على السلام التابعة للأمم المتحدة التي وضعت حداً للنزاع . ثم حدثت محاولة اغتيال الاسقف مكاريوس ، في ١٩٧٠ ، عندما اطلق مسلحون عليه النار وهو في هيليكوبتر ، ولكنهم اخفقوا في محاولتهم .

وفي ١٩٧٣ ، اقترب موعد الانتخابات . وطلب الجمع المقدس للكنيسة الارثوذكسية القبرصية من مكاريوس ان يستقيل على اعتبار ان قانون الكنيسة يحرم الجمع بين الكنيسة والوظائف السياسية ، فرفض ، واعتبره المجلس مطروداً . وعندئذ دعا مكاريوس بجمع الكنائس الارثوذكسية الشرقية الى الانعقاد وأمر بطرد الثلاثة اساقفة القبارصة على قرارهم .

- ٥٥٩ -

وفي انتخابات، شباط فاز مكاريوس بالرئاسة . وقاطع انصار الاينوسيس^(١) المسار الانتخابي ، وهاجروا ٢٠ مخفراً للشرطة حول الجزيرة . ثم استؤنف الحوار المشترك ، وأمكن التوصل الى اتفاق من حيث المبدأ . ولكن عدم الاتفاق ظل على مسؤولية الحكومة المحلية في مناطق الاقلية التركية ، وعندها ما يبرر مخاوفها . وظل النزاع في الجزيرة مصدراً لقوة تدمير في الحلف العربي بعد ان أضعفته قضايا أخرى من قبل .

الفصل الثاني عشر

التمييز العنصري

التمييز في العصور القديمة والوسطى

منذ فجر ما قبل التاريخ والمجتمعات البشرية على اتصال دائم واختلاط مستمر وعلاقات متشابكة . وما من مكان في أرجاء الأرض الا وامتزج فيه بنو الانسان بعضهم ببعض ، وأخذوا عن بعض ، حتى لكان هذه المجتمعات ، على اختلاف بيئاتها الطبيعية ، تؤلف مجتمعا واحداً ، نتيجة لهذا الاتصال الوثيق بين البشر الذي لم تزده وسائل المواصلات السريعة المتسارعة الا رسوخاً وتوكيداً .

ان هذا الاتصال المبكر والدائم والمتطور ينفي فكرة وجود مجتمعات قائمة بذاتها ، منعزلة عن المجتمعات الأخرى ، ومحافضة على خصائصها الأولى ونقاوتها البدائية وسلامة عرقها . ولكن هذه العلاقات النامية بين بني الانسان ، التي ازال الحواجز من أي نوع ، وما انفكت تربلها ، لاتنفى ، في الوقت نفسه ، ان الانسان استغل ضعف أخيه الانسان ، وطغى عليه ، وسخره في كثير من الاحيان لمآربه ، وبني عليه اعباده ، مهما كانت هذه الابداع أصلية أو زائفة ، وحاول مع الزمن ان يبقيه في حالة تأخر وانحطاط وضعة ، ليستغله الى ابعد حدود الاستغلال ، متباهياً بما ابدع من حضارات ، وأخذاً على أخيه الآخر تخلفه ، مدعياً بشتى المبررات واوهى الأسباب بأنه لا يصلح للحياة ، وانه هو وحده ،

دون أخيه ، صنع الحضارة ، وعليه ان يفيد منها ومن منجزاتها ، وان يحافظ عليها ، وان هذا الحفاظ على الحضارة واجب مقدس لا يقوم به الا من ابدع هذه الحضارة .

ومهما تكن قيمة الحجج ، التي يدعي بها الانسان المتحضر المتقدم بمضارقه ، قوية أو ضعيفة ، فان تلازم العيش مع الانسان المتخلف ولد عند هذا الأخير هزات فكرية ، وهيجانات عاطفية ، وانتفاضات ثورية ، بدلت من شروط حياته ، وفي بعض الأحيان قلبتها رأساً على عقب . فلم يعد يرضى بالذل والهوان وحياة الحدود والقيود التي فرضت عليه وكبت نشاطه عصوراً مديدة . لقد شب عن الطوق ونهض عملاقاً يكسر الاغلال ، ثائراً على مخلفات الماضي ، قائماً على الحاضر المتخلف . ولم يبق ذلك الانسان القميء الذي يرضى طوعاً أو كرهاً أن يكون مستغلاً وغيره يملك كل شيء . وكان طبيعياً أن يثور لكرامته بعد أن أخذ بأسباب الحضارة التي مكنت اخاه القوي من السيطرة والنفوذ ، وأن يعود الى ذاته الانسانية النقية التي فطر عليها ، ليجردها من كل ما علق بها من زيف وتشويه وعقد نفسية أظهره على غير حقيقته الانسانية ، وبالغت في كيل الاتهامات له . حتى ظن السطحيون أن لا أمل يرجى منه كما أوحى لهم . وهكذا تبدو في عصرنا الحاضر قباسير ازدهار جديد ، واشراق حضارات نامية ، وطلائع انسانية عادلة متآخية ، بالرغم مما يغشى الآفاق السياسية والدولية من سحب دكناء ، وبما تتناقله وسائل الاعلام من اخبار لاتسر .

وفي الحقيقة ، كان الاختلاف قائماً بين البشر في العصور القديمة : فبالشعوب الغالبة تعتبر نفسها ارقى من الشعوب المغلوبة ؛ والشعوب المتقدمة اعظم من الشعوب المتخلفة . وقد اعتبرت بعض الشعوب نفسها « متقدمة » قضايا عصرها (٣٦)

وغيرها « برابرة » ، ولكن مثل هذا التفريق يقوم على التباين الثقافي بين الشعوب ولم يكن مرتبطاً بلون البشرة أو باختلافات الجسمانية . ووجدت كذلك ، في داخل كل شعب ، طبقات اجتماعية مختلفة ، متميز بعضها عن بعض ، ولكن هذا الاختلاف لم يكن قائماً على اختلاف العرق أو اللون .

وفي العصور الوسطى ، لم يكن الاختلاف بين الناس متعلقاً بفرق اللون أو العرق ، بالرغم من وجود الرق ، والتمييز الطبقي والبناء الاجتماعي .

وفي تاريخ حضارتنا العربية - الإسلامية لا نجد تمييزاً بين البشر على اختلاف اللون ، بين اسود وابيض ، يجعل الانسان الأبيض سيد كل شيء ، وله الحق بكل شيء ، والانسان الاسود ذليلاً مهاناً معزولاً محروماً من حقوق الانسان ، وقيمته قيمة الحيوان الاعجم . ولم يكن حاجز اللون في يوم من الأيام عامل تمييز بين العرب وغيرهم . لقد جاء الاسلام الى الناس جميعاً لافرق بين اسود وابيض . ففي القرآآن الكريم نجد قوله تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » : أي خلقناكم من أب وأم وكلكم سواء ، ولا مجال للتفاخر بكرم الأصل والنسب . وفي أحاديث الرسول الكريم نجد هذا المعنى نفسه ، فمن ذلك قوله عليه السلام : « ايها الناس ، إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى » . ومنها قوله أيضاً : « سلمان منا آل البيت » .

وإذا انتقلنا الى الاممال الدينية نجد الاسلام يسوي بين الناس في الصلاة والحج والصوم : فالناس يتقفون صفوفاً متراصة في الصلاة دون تمييز ، ويتقفون بعرفه بزي واحد في نزع الحيط ولبس الحيط ، خاشعين مهتلين الى الله لا فرق بين سيد ومسود ، كبير أو صغير ، ابيض وأسود . وفي

شهر رمضان يصومون من طلوع الفجر الى غيباب الشمس صوم
الرجل الواحد .

وما من شك في ان النزعة القبلية أو التفرقة العنصرية قد لعبت دورها
على الصعيد السيامي والاجتماعي والاقتصادي في تاريخ العرب والاسلام ،
ولكنها لم تبلغ الحدة الاجتماعية المؤذية ؛ هذا فضلاً عن انها كانت عامل
تفويض للدولة الأموية عندما تناست دعوة الاسلام^(١) .

التغيير في العصور الحديثة

لقد شهد تاريخ العالم في عصوره الحديثة قيام حركات توسعية دورية .
وأول هذه الحركات كان في فاتحة القرن السادس عشر ، عندما غزت شخصية
أوربه وخرجت من عزلتها الوسيطة فبحث في آفاق العالم القديم والجديد
عن الذهب والتوابل والسلع التي لا ينتجها مناخها وأرضها . وأدت
الكشوف الجغرافية الكبرى الى استعمار البلاد المكتشفة البعيدة فيما وراء
البهار ، وغادر التراب الاوربي اناس من المغامرين بمن ضاقت بهم سبل
العيش ، أو من قطاع الطرق الفارين من العدالة ، أو من شذاذ الآفاق ،
أو اللاجئين الباحثين عن مأوى يأمنون فيه على ارواحهم وأموالهم ودينهم
ومع الزمن عمرت البلاد المكتشفة بهؤلاء الوافدين الجدد الجشعين الذين
يحدوهم حب الكسب والعيش الرغيد .

ومنذ اكتشفت قوة البخار واستعمال الفحم ، وثمت التعامل في أوربه
بخاصة ، وأخذت تنتج فرق حاجات الاستهلاك المحلي والقومي ، وتعوزها
المواد الأولية التي لا توجد في أرضها ، دفع كبار رجال الصناعة والمال

(١) راجع : عبد الحميد العبادي ، الاسلام والمشكلة العنصرية ، ص ٧٢ وما

بعدها ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ .

والأعمال الحكومية والمجالس التشريعية للبحث عن المنافذ التي تباع فيها منتجاتهم وتستثمر أموالهم وتنتج أرباحهم ، وساعدهم على ذلك ان كانت بلاد واسعة مازالت شاغرة على سطح الكوكب . ودفع التنافس بين الدول الكبرى الى التسابق على استعمار القارات الأخرى ، وانطلقت موجات التوسع الجديد ، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الى مابعد الحرب العالمية الأولى ، تغزو البلاد مبررة عملها بنشر الحضارة وتعميم الثقافة والنهوض بالشعوب المتخلفة ورفع مستواها ، وأداء الرسالة التي يحملها الانسان « الابيض » الى أبناء البشر « الملونين » . ولا ريب في أن الاستعمار البغيض كان يكمن وراء هذه العبارات البراقة الجوفاء التي فقدت قيمتها مع الزمن بعد أن أظهر خداعها ، وكشف تضليلها وزيفها .

وفسحت بقطة القوميات أمام رجال الفكر مجالاً للبحث في القومية ومقوماتها الأساسية من حيث وحدة الجنس واللغة والتاريخ والآلام والأحلام والآمال والمصالح المشتركة . ولا شك في أن القومية في أساسها تنزع من جهة ، الى الانتماء الى قوم من الأقوام ، ومن جهة أخرى الى التمييز بين الأقوام . وقد كان هذا الانسحاب والتمييز ، في الأصل ، حجة في اضطهاد الشعوب الغالبة للشعوب المغلوبة ومعاملتها بدرجة أدنى من معاملتها لأبناء جلدتها ، ودافعاً جعل المقهور التابع يشعر بأنه انسان يختلف عن المتسلط الغاصب والمستعمر المحتل . وهذا الشعور القومي ، اذا ظل في حدوده العادية السهلة البسيطة ، كان شعوراً نبيلاً لأنه يساعد على وحدة القوم وجمع شملهم وتحريرهم ، وعلى احترام شعور الآخرين وقومياتهم . بيد أن هذا الشعور ، مع الأسف ، مازجته عناصر كثيرة فكرية ودينية وسياسية ومصالح اقتصادية واستعمارية مختلفة عقده ، وبخاصة عندما تقدمت أوربة علمياً وصناعياً وتقنياً ، وأصبحت بيدها أدوات التدمير وأسلحة الفتح

والفتك ، وملك امبراطوريات استعمارية في القارتين آسيا وافريقية ، وأخذت تستنزف خيراتها وتحرم هذه الخيرات على أصحابها الشرعيين .

لقد هلك الغرور أبناء الدول الاستعمارية الكبرى ، وحتى كبار المثقفين منهم ، وشعروا بنشوة الظفر ، وأي ظفر ، وبما شاهده أبناء قومهم من أعجاد ، فأخذوا يتغنون بالانسان الأبيض ، وتفرق العرق الآري ، مبدع الحضارة ، غير ملنقين الى مايجري من ضروب الاضطهاد في البلاد المستعمرة . ولا شك في أن رقي الآلة ، وانتشار الأفكار القومية ، والنظريات العرقية ، من عصر غوبينو^(١) الى عصر هتلر ، التي قامت بتجديد الأقسام الأوربية ، كانت عاملاً فكرياً وروحياً قوياً يغذي التسلط الاستعماري والدفاع عن المصالح الحيوية التي ترتبت للمستعمرين في البلاد المفتوحة بقوة الحديد والنار والغلاب .

ولسنا بحاجة الى التدليل على أن الحضارة ليست وليدة عرق من الأعراق ، وان لاوطن معيناً لها بالذات ، وان القول بنقاوة الدم وتفوق بعض الأجناس على غيرها ، إنما هو ضلال لانصيب له من الصحة ، لأن العلم يرفضه ولا يقره . بيد أنه مامن شك في أن كل مجتمع من المجتمعات البشرية يخلق قيماً معنوية ويحاول أن يلقنها الى أبنائه بالتربية والتوجيه والارشاد ليفخروا بمجتمعهم ويعتزوا بما ابدعوا وحققوا من قيم ، وليشعروا بقوة الترابط المعنوي في سبيل خير المجتمع وبقائه واستمراره . ولكن لاشيء يدعو لأث يتخذ مثل هذا التفاخر مبدءاً علمياً مقررأ يطبق على

(١) راجع Gobineau , Joseph Arthur , Comt de , Essai Sur L'inégalité Des Races Humaines .

الذي أثرت نظرياته على نظريي العرقية الجرمانية والروايات والقصص ، في القرنين التاسع عشر والعشرين .

البشرية كلها في سبيل التفوق العنصري وسيادة العنصر الأبيض ، الى ما هنالك من بقايا فلسفة القرن التاسع عشر ومخلفاتها في القرن العشرين .

ان قضية التمييز العنصري ، في أيامنا هذه ، وليسدة الاستعمار ، وليست عنصرية بالمعنى الثام لهذه الكلمة ، بعد أن تبين لنا أن ليس هنالك عرق نقي في العالم حافظ على نقاوته البدائية ، وانما المهم فيها هو الاستعمال : لقد أوجد الاستعمار في البلاد المستعمرة طبقتين من البشر : أبناء البلاد الأصليين والمستعمرين . واتخذ المستعمرون التمييز وسيلة لابقاء الأوضاع التي اكتسبوها وتقويتها واستمرارها . واذن فالتمييز ظاهرة دفاع خوفاً من انقلاب في الأوضاع وضياح للفوائد التي أوجدها الاستعمار . ولكن هذه الأوضاع بدأت تثير حفيظة الآخرين ، بعد ثنه الوعي ، وتدعوهم بدورهم الى اتخاذ وسائلهم الخاصة للدفاع عن ذاتهم وكيانهم ومصالحهم ومعاملتهم بشراً يستحقون الحياة ، ولو اقضى الأمر استخدام السلاح . ورد الفعل هذا يؤدي بدوره الى رد فعل الأطراف المتسلطة . وهكذا تدور الأطراف المعنية في حلقة مفرغة ، ويظل المجتمع غير متماسك وفي حالة قلق وعدم استقرار . وكما يغذي العنف العنف ، يولد الاضطهاد الاضطهاد .

ان جوهر النزاع في قضية التمييز العنصري يكمن في هذا الحرف الذي يملك الانسان الابيض من زوال الحضارة و البيضاء ، في مفهومه أمام وعي الانسان الملون ومطالبته بحقوقه التي سلبها الانسان الأبيض الجشع الخائف . فقد بظهر الانسان الأبيض أكثرية تتحكم بأقلية مستضعفة تختلف عنها بلونها وصفاتها الجسمية ، كما هي حال الزوج في الولايات المتحدة ؛ أو بظهر الانسان الأبيض أقلية تحكم أكثرية تختلف عنها أيضاً بلونها وصفاتها الجسدية كما في جنوبي افريقية وروديسيا . وهذا يعني أن

فارق اللون والصفات الجسمية^(١) ، على عدم اعتباره عرقياً ، قد اتخذ أساساً للتمييز العنصري ، وعلى ما هو عليه من حجة واهية ومرفوضة .

ان الفريق الأبيض ، أكثرية كان أو أقلية ، يحاول دوماً تنمية استراتيجيات واعدادها للحفاظ على فصل نفسه عن فريق الاقلية أو الاكثرية السوداء . وهذه الاستراتيجيات تكون بشكل يجعل الساطة السياسية والاقتصادية والتربوية والثقافية تحت اشرافه ، ويؤدي فيه التشريع بصورة منتظمة الى اخضاع الفريق الأسود والملون وحرمانه من حقوقه وفصله وعزله عن مجتمع البيض وعدم الاختلاط بين البيض والزواج خروفاً من تهجين العرق . وعلى نظم الرقابة الاجتماعية : المدارس ، النظام القانوني ، المحاكم ، القضاء ، الشرطة ، أن تخدم كتمثل عن الفريق الأبيض الأعلى الممتاز^(٢) .

والفريق الأسود ، الفريق غير الممتاز ، يتصور القضية واحدة ، وذلك بتحقيق الوضع الذي يرغب فيه ويؤمن حقوقه ، ويزيل وصمة النقص عنه ، وصفة العجز التي نسبت اليه ظلماً وجوراً ، والعراقيل التي وضعت في سبيله وفرضت عليه . ومثل هذه الأقلية يمكن أن تصبح تهديداً عندما تنمو وتحاول أن تبدل وضعها وتتطلع الى القيام بأدوار جديدة متناسبة وأمانها القومية^(٣) .

والحقيقة التي يجب أن نقال هي أن الدول الاستعمارية ، صغیرها وكبیرها ، قديمها وحديثها ، منذ أن وطأت أقدامها بلاد ماوراء البحار

(١) راجع بحث الدكتور فؤاد محمد الصغار ، التفرقة العنصرية ، في مجلة العربي

العدد ١٨٥ ، نيسان ١٩٧٤ .

(٢) راجع ، Daniels And Kitano , *American Racism* , P. 97

Prentice - Hall , Inc , Englewood Cliffs , N. J. , 1970

(٣) راجع ، Brewton Berry, *Race and Ethnic Relation*, P. 411,

Boston , Houghton Mifflin Company, 1958

واحتلت جيوشها العدوانية تراب هذه البلاد التي غزتها ، سلكت سياسة التمييز والعزل بين أبناء قومها وأبناء البلاد الأصليين ، متخذة شتى الوسائل والطرق التي توصلها لأهدافها الاستعمارية : فمن ذلك أنها اقامت في أحياء خاصة بها ، وحاولت جهد المستطاع عدم الاختلاط بالسكان الأصليين ، إلا إذا كان هذا الاختلاط لمنفعتها وعلى حسابهم ، واستولت على الاراضي الطبية ، وطردت منها أهلها وأعطتها للمهاجرين من أبنائها ، وتركزت للشعوب المستعمرة المناطق الفقيرة والمجربة ، وعملت على تحسين شروط الحياة في الاحياء والاراضي التي استوطنت بها ، ولم تعمل شيئاً لآبناء البلاد ، بالرغم من انها ادعت بأنها جاءت لتمدينهم وتحسين حياتهم . واذا أفاد هؤلاء شيئاً من التحسينات التي أدخلها المستعمرون فلم يكونوا هدفها الاول والاخير . لقد أوجد الاستعمار في الاراضي المحتلة مجتمعين مختلفين متناقضين متناحرين . وسلك تجاه أبناء البلاد الأصليين سياسة مرحلية للإبقاء على هذا النظام الاستعماري الثنائي .

١ - في المرحلة الاولى ، احتل البلاد وسلك سياسة الاضرار بالمستعمرين ، من حرمانهم من أرضهم ومساكنهم والاستيلاء عليها ظلماً وعدواناً ، وتشغيلهم بالاشغال الشاقة ، اذا أراد تشغيلهم .

٢ - وفي المرحلة الثانية ، وضع السدود والقيود بين المحتل والمحليين واحداث التمييز بين مستوطنيه وأبناء البلاد الأصليين ، متخذاً شتى الوسائل القانونية وغير القانونية التي تحرمهم من التمتع بأرضهم وخيرات بلادهم ، أي أنه أحدث في البلاد طبقة ممتازة تتمتع بكل شيء ، وطبقة محرومة من كل شيء .

٣ - وفي المرحلة الثالثة ، فصل بين أبناء البلاد المحتلة وما يحيط بهم من مناطق مجاورة أو مع الخارج بحيث لا يدري أحد بما يفعل في أبناء البلاد داخل البلاد .

٤ - وفي المرحلة الأخيرة ، لجأ الى الحلول الاستثنائية ووسائل القمع والارهاب : العزل الكلي ، التنحية جانباً ، الحشد في معسكرات الاعتقال ، الطرد ، النفي ، الابادة ^(١) .

على ان هنالك ظاهرة أخرى لقضية التمييز العنصري تشبه في بعض الوجوه هذه الحالات التي ائينا على ذكرها ، ولكنها تميز بوجوده أخرى عقائدية قديمة متوارثة فريدة في ذاتها ، وهي قضية التمييز المبني على الدين والحقد الدفين والاضطهاد المديد عبر السنين والمؤم البشري المركب عبر الأجيال والعصور ، وهذه هي سياسة التمييز التي يسلكها الصهاينة في فلسطين المحتلة .

لقد سلك الاستعمار سياسة التمييز في كل بلد حل فيه ، ولكن مظاهر التمييز وان اتفقت في اشكالها الكبرى وخطوطها العريضة ، فهناك فوارق متعددة تختلف من بلد لآخر حسب ظروف البلاد وطاقة المستعمر وعقليته ، وقابلية التحول ، ومدى النشاط الذي يبذل للخلاص من التمييز والاستعمار . وسنقتصر في بحثنا على بعض البلاد النموذجية للتمييز العنصري ونريد بذلك : الولايات المتحدة وجنوبي افريقية ، وفلسطين المحتلة .

التمييز العنصري في الولايات المتحدة

يرجع التمييز العنصري في الولايات المتحدة الى موجات الاستعمار الاولى بعد اكتشاف العالم الجديد . فقد وجد المستعمرون انفسهم ، بعد ان آبادوا السكان الأصليين ، أمام بلاد شاسعة واسعة ، وامكانيات ضخمة لاتنفد ، ولكن استنهارها بحاجة الى ايدي عاملة في المزارع والمصانع ، فحلوا الصعوبة باسترقاق زنوج افريقية بعد انتزاعهم من بلادهم ومن

(١) راجع ، Daniels and Kitano المصدر السابق ص ١٢ .

احضان امهاتهم وسوقهم على ايدي النخاسين ومعاملتهم كالسائمة دونما شفقة أو رحمة . ومن هنا نشأت قضية الزواج في الولايات المتحدة بكل ما ترتب عليها من نتائج قربية أو بعيدة .

كان ارقاء الزواج يشغلون شتى الاشغال القاسية ، ويسامرون سوء العذاب ، الى ان قامت حركة تناوى وتعاطي تجارة الرق ، ونادى الفلاسفة بتحريره ، وتشكلت جمعيات تعطف على الزواج وتعمل على اعتاقهم ، الى ان تم ذلك والغبي الرق وأصبح اارقاء احراراً . ولكن حالتهم الاولى ظلت قدمهم ، وجعلت الكثيرين من البيض لا يقبلون بمساواتهم في الحقوق . واستحكمت عند الزواج انفسهم ، بالرغم من تحررهم العادة في ان ينظروا الى انفسهم انهم ادنى من البيض ، ولكن هذا الشعور اخذ يتحول مع الزمن ويعكس صفو الولايات المتحدة .

واذا اخذنا باحصاءات ١٩٧٤ وجدنا أن سكان الولايات المتحدة ٢١٩٠٩٤٠٠٠ مليون . وتدل احصاءات عام ١٩٧٣ ان عدد البيض في الولايات المتحدة ١٨٤٠٤٤٥٠٠٠ مليون ، وعدد الزواج في العام نفسه ٣٣٠٣٦٦٠٠٠ وان مجموع السكان ٢٠٧٠٨١١٠٠٠^(١) وإذا اهلنا الكسور وجدنا ان نسبة الزواج الى البيض ١٠٪ تقريباً . وان هؤلاء الزواج ، بالرغم من التطورات التي حدثت أخيراً في البلاد ، مازالوا يعانون التمييز العنصري وعدم المساواة الاجتماعية ان لم يكن في الحقوق المدنية . وتظهر هذه القضية اكثر حدة في ولايات الجنوب بخاصة .

كان معظم الزواج قبل عام ١٩١٤ في ولايات الجنوب ، ثم جذبت الهجرة عدة ملايين منهم الى ولايات الشمال بحثاً عن أجر أوفر واملاً في معاملة افضل . ولكن الاكثريه للعظمى بقيت في الولايات الثلاث عشرة

وتؤلف جماعات كثيفة . وتختلف نسبتهم بين الشمال والجنوب . ففي الشمال $\frac{٩}{١٠}$ الزوج مدينون ؛ وفي الجنوب $\frac{٢}{٣}$ هم ريفيون ويكثرون في الغالب اكثريات محلية . ومن هنا نشأت بين البيض عاطفة الحرف من الزوج لأنهم يخشون من أن يطغى عدد هؤلاء الزوج على البيض فيردوا في المستقبل الى اقلية ضئيلة . ولكن هذه المخاوف التي تملك البيض لا تبررها الأحصائيات .

وضع تحرير الرق في الولايات المتحدة قضية جديدة وهي : قضية المساواة في الحقوق المدنية بين البيض والزوج حسب التعديلين ١٣ و ١٤ في دستور الولايات المتحدة ، في الفاتح من شباط ١٨٦٥ وفي ١٦ حزيران ١٨٦٦ . وان قبول المساواة معناه دمج الزوج بالبيض . وإذا بقي الزوج حيث هم ، على هامه عليه من صغار اجتماعي ، فذلك يعني عزلهم وعدم تمتعهم عملياً بالحقوق التي يتمتع بها الدستور . ولقد أصبحت هذه القضية شغلاً شاملاً بالنسبة للولايات المتحدة ، لأن الجنوب لم يبدل وجهة نظره في هذه القضية زاعماً بأنها تتعلق به وحده وليس للشمال أن يزع نفسه بها ، وبأن العرق الزنجي ، كما هو ، أدنى بالولادة من الأبيض ، ويجب أن يبقى في أدنى درجات السلم الاجتماعي حسب طبيعة الاشياء الى الابد . وفي هذه الحالة يمكن للزنجي أن يكون مفيداً اذا كان تابعاً وملحقاً في مجتمع لا يعامل فيه كأجنبي مطلقاً ، بل ان التعايش بين البيض والزوج في الجنوب سيحمل أهل الجنوب البيض على محبة الزنجي كلما أبدى استكانة وخضوعاً . وفي هذا يقولون : « نحن نعرف وحدنا قيادته بموجب السلطة الطبيعية الخولة للعرق الاسمر . نحن وحدنا نعرف كيف نخاطبه ونعامله بألفة ، ونزج معه بقدر ، وضمن حدود لا يجوز تجاوزها ومسافات لا يصح البعد عنها . بيد أنه اذا أطلق له العنان ، خاع كل شيء ، لانه يعتبر كل تنازل منا دليلاً على الضعف ، ويصبح غير محتمل ، وحيواناً خطراً ربما وجب قتله

ككلب كلب. وان الشمال يلعب بالنار، لان القضية بالنسبة له ثانوية ؛ أما بالنسبة للجنوب الذي نريده أن يبقى بلد الانسان الابيض ، فالقضية قضية حياة أو موت (١).

وهكذا يجد زنوج جنوبي الولايات المتحدة أنفسهم مواطنين من الوجهة النظرية ، ولكنهم من الوجهة العملية بعيدين عن التمتع بحقوق المواطن ، لان الجنوب ينكر على الملونين حق التصويت : فعلى الزنجي ألا يكتب اسمه ، وألا يمثل أمام صناديق الانتخابات ، وإذا أصرتْ خاطر بحياته . ففي عام ١٩٤٨ قتل الزنجي عيسى نيكسون من ولاية فيرجينيا لانه دخل مكتب الاقتراع ورفض الخروج منه . وهذا الابعاد عن الاقتراع يطبق اعتباطاً وعن سوء نية ولا يطلب من الفاعل شرح الاسباب الداعية له .

يضاف الى ذلك ، أن الضريبة الانتخابية المسماة « بول تاكس » التي تجبى من المصوتين في مختلف ولايات الاباما ، اركانساس ، ميسوري ، تكساس ، فرجينيا وغيرها ، يراد منها تثبيط مهمة الناخب الزنجي وعدم اقدامه على الاقتراع . وهذا السلاح ذو حدين ، لان الزنجي ، إذا كان مليئاً ، استطاع دفع هذه الضريبة ، ولكنه يحرم فقراء البيض من التصويت .

وفي الشمال يمارس الزنوج جزئياً حقوقهم السياسية . ولكن ولايات الجنوب حولت التعديلات ١٤ و ١٥ ، في ٢٧ شباط ١٨٦٩ ، بشرط معرفة القراءة والكتابة ، أو شرط الجد . وبموجب هذا الشرط لا يحق للأحفاد أن يكونوا ناخبين إلا اذا كان جدهم ناخباً . وهذا الشرط تحايل على الدستور ، كما هو واضح ، ومن الطبيعي أن يرفض الزنوج ويبقى عددهم تافهاً عند ممارسة حقوقهم السياسية ، اذا ما قيس بالنسبة الى عدد البيض .

(١) راجع André Siegfried , Les Etats - Unis

(٢) بول تاكس Poll = Tax

وبوجب قوانين « جيم كرو »^(١) عزل الملونون في احياء خاصة كريمة ، وفي دور غير مجهزة تجهيزاً صحيحاً كافياً ، ومهملة ، وغير بمثلة في المجالس البلدية . كما عزلوا عن ارتياد المسارح والفنادق والمطاعم التي يرتادها البيض ، انسال العرق المختار ، ولا يستطيعون الركوب في القطارات أو الباصات أو حافلات الترام الا في أجنحة خاصة بهم ، ولا يقبلون في القطارات ذات الامرة ، حتى ان الكنائس أخذت تعطي على حقوق الله والناس ويميز بين البيض والزنج . وفي الحرب العالمية الاولى والثانية كان جيش للبيض وجيش للزنج . وجعل الجنوب من المدارس قضية مبدأ ، وبدا أنه غير مستعد لاي تنازل في هذا السبيل . وبالأجمال فان الزنجي يعامل كأدنى ، حتى ولو كان مثقلاً ، ويشعر البيض بفضاضة اذا نادوه « ياسيد » بل يقولون : جون ، جوزيف . وعليه أن يجيب بكل احترام : سيدي ، زعمي ، رئيسي . وبما يروى عن الرئيس ثيودور روزفلت ، عندما استقبل الزعيم الزنجي بوكو واشنطن ، أنه تجنب الصعوبة وخاطبه : « بأستاذ » (يا اسطه) . وكلمة أستاذ ، عند الانغلو-ساكسون تتضمن شيئاً من التهمك والاستخفاف . وفي ظل هذا النظام يضيع حق الزنجي ويظل منكود الحظ مضطهداً . وفي الغالب لا يلاحق القاتل الابيض إذا كان القتل زنجياً ، وإذا لوحق برأت ساحة لجنة محلفة معفاة من كل شدة . ومن الممكن أن يحاكم الزنجي اعتباراً وتعسفاً دون قانون ، ولا يمكنه الاحتجاج على المجرم الابيض دون أن يعرض حياته للخطر .

والجدير بالذكر هو أن هذه الكراهية العرقية أشد ظهوراً عند صغار

(١) جيم كرو Jim Crow اسم محقر للزنجي ومنه سيارة جيم كرو المخصصة لنقل الزنوج كلها أو جزء منها .

البيض وفقرائهم ، لأنهم يخشون منافسة الزوج في الاعمال ، لاسيما وأنهم أقل تطلباً وطموحاً وأكثر طاعة وانصياعاً . وفي ذلك ما يعرض فقراء البيض الى البطالة المزمنة أو الى خفض مستوى الحياة . وهذا العامل الاقتصادي وحده غير كاف لايضاح اتفاق البيض على كره الزوج واحتقارهم ، لان هذه العاطفة تتضح بالموقف الذي يقفه البيض نتيجة للقلق الذي يساورهم ، بالرغم من أكتويتهم ، من وجود الزنجي الذي يكون أكثرية محلية في بعض ولايات الجنوب ، ومن الخوف غير المعقول الذي ينتابهم لدى تصور الانحطاط الذي يمكن أن ينشأ ، كما يتصورون ، عن اختلاط الدم وامتزاج الالهراق والالوان ، ومن الاحتكاك اليومي المباشر ، والشعور المبهم المتولد عن الحياة العاطفية . وبالرغم من أن الزواج محرم بين الزوج والبيض فلا يمكن نكران علاقات جنسية بين العرقين ، وان كانت هذه العلاقات مع النساء البيضات أقل منها مع النساء الملونات . ومهما يكن ، فالبيض الذين يقتنون خليلات زنجيات كثيرون . وبالرغم من القوف الطبيعي والمتكلف رسمياً وظاهراً ، تتمتع الزنجيات في الولايات المتحدة بسحر الجنس وجاذبيته . وكانت العلاقات الجسدية شائعة في زمن الرق وما زالت باقية بشكل أو بآخر . ويقدر بين ٧ و ٨ ملايين أو يزيد عدد البيض ممن فيهم دم زنجي ، ومثل هذا العدد عند الزوج ممن فيهم دم أبيض . وهذا العرق الخلاصي الجديد يختلف كثيراً عن النقاوة الافريقية الاصلية .

وتزداد القضية الزنجية تعقيداً بالهجرة . فقد توالى الهجرات الزنجية من الارياف الى المدن في القرن العشرين منذ الحرب العالمية الاولى وما بعدها بقليل ، ثم تمت بحركة واسعة كبرى في الحرب العالمية الثانية واستمرت في ١٩٦٠ . وتغيرت على اثرها صفة القضايا العرقية في أمريكا

فما كان من قبل قضية الجنوب أصبح الآن قضية من أهم القضايا لجميع البلاد . وقبل الهجرات كان ٩٠٪ من الزواج في الولايات المتحدة يعيشون في الجنوب ، وعلى الاكثر في المناطق الزراعية . أما اليوم فقد انتشروا في كل البلاد ، واحتشدوا في الأجزاء الوسطى من المدن شمالاً وجنوباً . وان اكثر من $\frac{2}{3}$ المقيمين في واشنطن D. C. زواج جدد . ويؤلف الزواج في نيويورك مايقارب نصف سكانها ، واكثر من ٤٠٪ في اتلانتا ، نيواورلثان ، ممفيس ، ونحو الثلث في بوليتيمور ، كليفلاند ، ديترويت ، فيلادلفيا . وتوجد حشود ضخمة من الزواج في شيكاغو ، نيويورك ، لوس انجليس . وفي كل هذه المدن الكبرى ، كما في كثير من المدن الصغرى ، توى نسبة الزواج آخذة بالازدياد وبشكل ثابت . وما من مدينة في الولايات المتحدة الا ولها قضيتها العرقية . وان الغيتو ، الأحياء التي يقيم فيها الزواج قد وضعت من جديد الحزام الاسود رمزاً للورطة الامريكية . وتوى في المدن صورة مناقضة للمخاوف التي قنباها الزعيم النجبي بركر واشنطن . ففي المدن يجد الزواج عملاً مريحاً أكثر مما في الريف ، وآفاقاً اجتماعية وفكرية رحبة تجعلهم أكثر وعياً لهويتهم وقوتهم كجماعة ، واعتزازهم بعرقهم وزعمائهم الجدد ، والمعاملة الطيبة التي يلقونها ، وحظاً للتصويت . وباختصار ، أصبحت المدينة تعني الأمل بالنسبة للنجبي^(١) .

ان رد الفعل الذي يقوم به بيض الجنوب حيال الزواج يعتبر في عرف البيض قضية دفاع عن العرق الابيض المهده ان عاجلاً أو آجلاً

(١) راجع المقدمة ، Richard B. Sherman, *The Negro And The City* ،

Prentice - Hall , Inc , Englewood Cliffs N. J. , P.1

بالعرق الأسود . ولذا يرى البيض أن كل شيء حل لهم في سبيل الذود عن عرقهم ، وإن هذا الرد الفعل أمر غريزي ، ومن حقهم أن يتخذوا جميع الوسائل الممكنة لرد الخطر الذي يهددهم ولو بلغت هذه الوسائل درجة العنف والفظاعة .

غير أن موقف البيض في الشمال يختلف عن موقف الجنوب ، لأن الشمال يعترف الزوج بحق المواطن : فبإمكانهم أن ينتخبوا وينتخبوا ، وأن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس العامة ، ويركبوا القطارات والتراموايات ويشغلوا في المعامل إلى جانب البيض ، ويشغلوا وظائف وأعمالاً تتطلب مهارة ، ويتزوجوا من البيضات ، ويقيموا مبدئياً دون شرط العزل . وفي الحقيقة ، إن كل ما باستطاعة القانون أن يفعله في ميدان المساواة العرقية قد فعله . ولكن القضية الزنجية ، بالرغم من كل ذلك ، لم تحل على الصعيد الاجتماعي ، لأن الاخلاق والعادات والاعراف لها حكمها أيضاً . فالزنجي بطرد اجتماعياً من فنادق البيض ومطاعمهم وأنديةهم . وإذا طمع ، وهذا حق ، أن يقيم في حي البيض ، طرد بالعنف . وإذا حاول الاستحمام على شاطئ شيكاغو ، اعتبر دخيلاً . ومن المحتمل أن تقوم مشادة بشأنه . وما يزال البيض يحسدون الزوج إذا تولى هؤلاء مراكز مرموقة أو تتطلب خبرة خاصة ، أو عندما يعطلون عن العمل ويتعرضون لأخطار البطالة . ومع أن الزنجي في الشمال أحسن حالاً منه في الجنوب فما زالت القضية الزنجية قائمة لم تلغها الصيغ الدستورية أو التشريعات القانونية .

ونتساءل بعد هذا ما هو موقف الزوج حيال هذا الظلم الاجتماعي ؟

لقد مر الزوج في الولايات المتحدة بمرحلتين :

١ - مرحلة الرق ، وكانوا فيها مضطهدين معذبين ، يعاملون بسوء أو يتساهل معهم ، وهذا شيء نادر .

٢ - مرحلة الحربة التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وهي المرحلة الحالية .

ان موقف الزنجي في الجنوب ، بالرغم من التحرر الذي هزه وملأ نفسه ، مازال مشدوداً بسائق التقليد الى سيده الأبيض في المزرعة ، وهو يعترف بتفوق الابيض عليه ويحاول أن يتلاءم ويتكيف أكثر من أن يقاوم . ويبدو أن المعاملة السيئة المديدة والقساسة التي عومل بها قد أفقدته شجاعته . وبالرغم من الاحتقار الذي يحيط به في كل مكان ، ويولد فيه عاطفة الحقد والنقمة ، فهذه العاطفة لا تجد لها متنفساً في كثير من الأحيان .

أما في الشمال فالموقف مغاير ، لأن الزنجي مدني على الأكثر ، وهو يتمثل الاخلاق والعادات بسهولة ويسر . واذا وضعنا اللون جانباً ، وجدنا أن الزنجي « يتأمر » بسرعة ، وبشكل أوفى وأتم من المهاجرين الاوربيين . وفي الحقيقة ، ان القرون الثلاثة التي خلت وهذا القرن لكافية لأن تنسب أصله الافريقي البعيد . فهو أمريكي ، ويكاد لا يعرف ، أو يضيع بين الجمهور في مدن الشرق والوسط ، لاسيما وأنه يعامل بأفضل من اخوته في الجنوب . ولكنه ، من جهة ثانية ، يعاني أزمة التمييز العنصري . فهو يعرف واقعه وحقوقه المدنية . وهذا الوعي يشعره بالكثير من المرارة لأنه يرى نفسه منبوذاً في مجتمعه . وهذا الشعور بالنفي والعزل يدفعه الى المطالبة ، ويذكره في كل لحظة بلون جلده سبب بلائه وشقائه .

قضايا عصرنا (٣٧)

وفي الشمال والجنوب يختلف الزوج في نظرهم لبعضهم . فهم يعتبرون وراثة الرق الذليل مذلة ، حتى ان أنسال الأجداد الأحرار يتحاشون الاختلاط بورثة الأرقاء . وهم حساسون جداً بلون بشرتهم ، ويميزون فيما درجات وفروقاً عديدة : من الأسود الفاحم اللامع الى الموزي الشاحب . ويسعد الزوجية حقاً أن تتزوج برجل أكشف منها لوناً ولو بدرجة بسيطة . وبالمقابل ، ان الراعي الصالح أو الزعيم الممرض يزاد نفوذه كلما ازداد مداد لونه سواداً ، وما ذلك إلا لأنه لا يستطيع التخلص من لونه أو « المرور » عند قول الزوج .

والمرور في لغة الزوج هو التمكن من الانتقال الى صف البيض اذا كان لون الزوجية كاشفاً وبسمع بذلك . ويمكن لمن كانت هذه حاله أن « يمر » الى صف البيض بصورة استثنائية نهائياً أو مؤقتاً دون أن يعرف في مطعم أو مسرح . ومن يغير وضعه الجنسي لا يفكر بالعودة الى الراء ويدوب في محيط البيض . ويبدو أن الزوج يسمحون بهذا الهرب من اللون . وبالمقابل ، حدث أن ملونين فروا من جنسهم فتملكهم عذاب الضمير وعادوا طواهيّة الى صف اخوانهم .

ولكن طموح الزوج يتجاوز هذه التطلعات الفردية . فالجمهور الزوجي . مازال بالنسبة للبيض في حالة انحطاط ، ولا يرتبط بالبيض إلا برباط المهنة أو المنزل . وكلما ازداد شعوره بهذا الوضع زاد ألمه . وقد خرج هذا الشعور بأسمى آيات الفن في المعاني التي عبرت عنها القصائد المسماة «الروحانيات الزوجية » التي تعتبر جزءاً من تراث الانسانية الشعري . وما من أحد عبر عن روح التحدي في وجه العنف المناوئ للزوج أكثر من كلود ماك كي

في قصيدته « اذا لزم أن نموت » (١) .

ان هذا القصر الاجتماعي لم يمنع تشكل نخبة زنجية آخذة بالنمو والتطور يوماً بعد يوم . وقد أصبح بإمكانها وضع برنامج للعمل والدفاع عنه . فهي تضم جماعة من الزوج من نخبها في أعمالهم وأصبحوا أثرياء ، وفئة حملت الشهادات الجامعية ونجحت في المهن الحرة من أطباء وأطباء أسنان ومحامين وممرضين وكتاب وفنانين موهوبين يجيدون العزف والرقص والغناء والتمثيل ، ومنهم من يتمتع بشهرة عالمية . وهم يشعرون بعاطفة التضامن التي تربطهم بزوج افريقية ، ولكنهم لا يفكرون بالعودة الى قارتهم الأصلية ، لأن وجدانهم أصبح امريكياً ، ولأنهم يعتبرون انفسهم امريكيين وموالين لدولتهم ووطنهم الولايات المتحدة ، ولا ينقصهم الا ممارسة حقوقهم المدنية المشروعة .

في آخر القرن التاسع عشر ، قام الزعيم الزنجي بوكر واشنطن ، مؤسس جامعة توسكيجي (٢) الزنجية برفع مستوى بني جنسه بالتعليم والنمو الذاتي في اطارهم الخاص . وانشأ الزعيم الزنجي بورغاردت دوبروا (٣) مجلة « الأزمة » وبرنامجها رفع مستوى الزنجي على يد الزنجي . ووجدت صحافة ومجلات تتوجه الى الشعب الزنجي وتحدثه بمصالح جنسه ، وتدفعه الى الاعتزاز والفخر بما قام به من جلائل الأعمال . ووجد زعماء زنج

(١) Claude McKay, Selected Poems, New York Bookman
Associate, inc., 1953, P. 36 .

وقد نشرت قصيدة « اذا لزم أن نموت » في :

Richard B. Sherman ,

المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٩٧٠ .

(٢) توسكيجي Tuskegee

(٣) بورغاردت دوبروا Burghardt du Bois

في شيكاغو ونيويورك يمدفون الى ما هو أبعد من ذلك ، وهو الاندماج الكامل بالشعب الأمريكي ، وبطالبون بذلك باهتمامهم الأمريكيين . وهم يعتزون بواطنتهم الأمريكية ، ولكنهم لا يتمتعون بحقوق المواطن الأمريكي ويقولون : « اننا نطلب بأن نعامل كبشر وأمريكيين » . ونراهم لا يتكلمون عن أنفسهم بأنهم ذنوب بل يصرون على أمريكييتهم ، وانهم أمريكيون . وشعورهم بالولاء الكامل لوطنهم ، الولايات المتحدة ، الذي لا يرضون عنه بديلاً .

كتب رالف جونسون بانس ، حامل جائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، في هذا الصدد : « منها أغرقت في الهاق بأصلي ، فقد ولدت أمريكياً كما ولد أسلافي . ان هذا البلد بلدي . حقاً لقد تجشمت السباب والذل بسبب جنسي ، ووضعت العقبات في سبيلي ، ولكنني تغلبت عليها . وهذا ما لم يستطعه الآخرون دوماً . ولكنني أفدت فوائد جلي . إنني أفهم بلدي ، وأتفاني في سبيله ، وأشعر بواجباتي مواطناً فخو ، وأؤمن بالنظام الديمقراطي ، وأحب الحرية وكرامة المواطن والفرد ، وأتعلق ببداً مساواة الشعوب ، ولا أعرف إلا قليلاً من الزوج الذين لا يشاركونني وجهة نظري » . وفي هذه الشروط يرى أن المساواة المدنية ، كما هو معترف بها قانوناً ، لا تكفي ، بل يجب أن تتحقق فعلاً في الحياة الاجتماعية ، وهذا يعني أن تفتح الفنادق والمطاعم والمسارح والمركبات الى العرق الآخر ، الزنجي ، وأن يسهل الزواج بين العرقين ، الأبيض والزنجي ، دون أي قيد مذل .

ولاقى هذه المطالبات جواباً في أوساط النخبة الفكرية الأمريكية وبذلت جهود لتحسين العلاقات بين العرقين . حتى ان الرئيس روزفلت وترومان أعلن رسمياً رأيها لصالح الحقوق المدنية . وبالرغم من هذا

الموقف فان غريزة الدفاع العرقي مازالت مستعكمة في الجنوب ، وبشكل أخف منها في الشمال ، وما زال الزوج يتعرضون لشتى الاهانات اليومية . ولم تتم الأحزاب السياسية في هذه القضية بشكل مجدد ونافع : فالحزب الديمقراطي بحكم قاعدته الجنوبية يدافع عن وجهة نظر البيض . والحزب الجمهوري يعطف مبدئياً على الزوج ، ولكنه لم يضع أي برنامج قوي ليطبقه عملياً بشأنهم . وما زال التباين جلياً بين القوانين المسنونة وواقع الحياة العملي ، لأن التمييز موجود في كل مكان ، بالرغم من الأحكام التي تحرمه ، ولأن الاعتراف بالحق لم يبدل الواقع الا قليلاً قليلاً .

وفي الواقع ، ان تاريخ الولايات المتحدة يشهد ، منذ ١٩٤٨ ، على تقدم واسع في حقل التشريع لالغاء التمييز العنصري . فقد أصدرت المحكمة العليا الامريكية سلسلة من الأحكام نقضت بها عدة قرارات سابقة كانت تسمح ضمناً أو صراحة بالتمييز العنصري . ثم أصدرت في العام ١٩٥٤ قرارها التاريخي في الغاء التمييز كمبدأ دستوري ساري المفعول في التعليم العام ، وكان هذا القرار ثورة في العلاقات العنصرية .

وفي صيف ١٩٦٣ ، قامت مظاهرات ضخمة ضمت الزوج والبيض في المدن الجنوبية ، وانطلقت « مسيرة واشنطن » التي اشتبك فيها أكثر من مائتي ألف أمريكي يطالبون بالمساواة التامة للزوج .

وفي عام ١٩٦٤ ، أقر مجلس الكونغرس بمسعى من الرئيس جونسون تشريعاً أكثر تفهماً وتحديداً وتشديداً للحقوق المدنية يحرم التمييز العنصري في التوظيف وفي الخدمات العامة وفي المدارس والتوظيف والمحاكمات وقطاعات الحياة الأخرى . وقال الرئيس جونسون بهذا الصدد : « ان الغاية من هذا التشريع هي النهوض بالتزام أبقي وأكثر ديمومة تجاه

الحرية وبسعي أشد رسوخاً وراء العدالة ، واحترام أعمق للكرامة الإنسانية .

وبالرغم من كل ذلك ، فما زال هنالك تفاوت عميق في أوضاع الزوج ، ولكن التقدم محقق في هذا المجال لأن التمييز العنصري في الولايات المتحدة آخذ بالتراجع ولو ببطء .

واليوم يسلك الزوج طريقين للوصول الى التمتع بحقوقهم المدنية :

١ - طريق العنف ، الذي أخذ به الزعيم المسلم مالكولم اكس وذهب ضحيته . فقد كان يمتلكه احتقار عميق للبيض ، حتى انه أشار مرة لحذائه الأسود وقال : « كان لون أبي كهذا . وكان لون أمي ، التي اغتصب أحد البيض أمها ، مثل لون البيض ، حتى لتغالها واحدة منهم . إني أكره كل قطرة من دم البيض الذي يجري في عروقي لأنه دم مجرم ومغتصب » .

٢ - طريق اللاعنف ، وهو طريق الزعيم المسلم على جاه محمد ، الزعيم الديني والسياسي في الشمال . وقد انصرف نشاطه مع جماعته الى احقاق القيم الشخصية للزوج ، وابدال الذل بالعزة ، والصغار بالسمو والرفعة . وفي نظر المؤرخ المسلم جيمس بلدوين : « ان كل شيء يعمل في هذه الفرقة المسلمة لتعاد الى الزنجي كرامته التي نالت منها القوانين والأخلاق الاميركية » .

ويرى الزعيم الجنوبي الدكتور هارتن لوثير كينغ ، الذي نال جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ ، « ان العنف ليس وسيلة لتسوية الخلافات ، انه يدل على أن مجتمعتنا مازال مريضاً » . ويدافع عن نظريته هذه في شتى مواقفه . وعندما نهض ليستمج جائزة نوبل للسلام في اوصلو قال : « اعتقد ان الحقيقة العزلاء والمحبة المطلقة ستكون لها الكلمة الأخيرة » . ولهذا السبب كان الحق المهزوم موقتماً أقوى من الباطل المنتصر .

-٥٨٣-

وان المدنية والعنف فكرتان متناقضتان ، وان مشكلة هذا العصر السياسية والحلقية هي الحاجة الى بشر يتغلبون على الجور والتعسف والظلم دون اللجوء الى العنف . وفي رأي مارتن لوثير كينغ ان اللاعننف ليس مجرد سلبية عقيمة ، وانما هو قوة خلقية شديدة تفعل فعلها في التحول الاجتماعي ، وان شعوب العالم ستكتشف ، عاجلاً او آجلاً ، طريقة للحياة معاً بسلام . ولكن هل الأمور تجري حسب هذه الآراء المثالية . اليس الحق المظوم بحاجة الى قوة لتدعمه وتسمع صوته ؟ ! ان العطاء كان ومازال أصعب بكثير من الأخذ ، وان طريق الحرية والعدالة والمساواة مازال مفروشاً بالاشواك والدماء . وبالرغم من التقدم المتحقق في قضية الزواج في الولايات المتحدة فما زالت التفرقة على أساس اللون تعكر حياة الولايات المتحدة وتتخذ ضروباً شتى لتحقيق مآربها العدوانية .

التفرقة العنصرية في جنوبي افريقية

يبلغ التوتر العرقي اقصاه في جنوبي افريقية ، لأن العنصر الأبيض لم يكتف باحتلال البلاد واغتصابها من أهلها ، بل يريد ان يتحكم بمقدوراتهم واضعاً في سبيلهم الحواجز والقيود والقوانين الاعبائية التي تعزلهم وتشل نشاطهم وتجعلهم في مستوى ادنى من الحياة .

تصعد هذه القضية الى منتصف القرن السابع عشر ، عندما استعمر اجلاف الفلاحين الهولانديين منطقة « الكاب » ، ثم تبعهم لاجئون المانيون وفرنسيون بروستانتيون هاجروا اليها بعد الغاء « مرسوم نانت » الشهير عام ١٦٨٥ ، الذي أقر التسامح الديني والاعتراف بالكالفينية في فرنسا الى جانب الكاثوليكية ، ليكونوا آمنين على ارواحهم وعقائدهم الدينية بالاضافة الى منافعهم الاقتصادية .

وقد تمثل عنصر «البوير» ، من الفلاحين الهولانديين المستعمرين أو انسالهم ، العناصر الأخرى ، منذ آخر القرن الثامن عشر ، بعد أن أخذ عنها اصلاح الدين وحماسة كالفن وعقيدة الايمان بالقضاء والقدر وتفسير الكتاب المقدس تفسيراً يبرر خضوع الزوج من أبناء حام الى الآكرين البيض .

ومنذ العام ١٨١٥ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ جنوبي افريقية وهي مرحلة الاحتلال البريطاني ، عندما امتد التوسع الاستعماري الانكليزي واصطدم بالبوير بسبب استعمار هذه البلاد واستغلال خيراتها ، بعد ان تبين انها تحتوي ثروات منجمية ضخمة من ذهب وماس وفحم ، وبسبب الغاء الرق الذي يحرص عليه البوير للقيام بالأعمال الزراعية . وقد بلغ النزاع بين الانكليز والبوير ذروته في حرب البوير عام ١٨٩٩ وانتهى بصلح عام ١٩٠٢ واعلان اتحاد جنوبي افريقية ، عام ١٩١٠ ، الذي شمل الحكومة الاتحادية سلطات واسعة ومنح عنصر البوير والوزير الأول تفوقاً محسوساً في ادارة البلاد .

على أن اتحاد جنوبي افريقية ، بالرغم من عنوانه الرسمي ، مازال بلد التوترات الداخلية . والقضية السوداء مازالت في مرحلة حادة . ويجب ألا تنسينا هذه القضية قضية أخرى وهي قضية الانكليز والبوير . وهاتان القضيتان تولدان بدورهما توترات خارجية .

والقضية البويرية في اتجاهها المناوئ معاً للبريطانيين والبانانتو ترجع في أصولها الى الحزب الذي أسسه ، في عام ١٩١٢ ، الجنرال هوتووغ^(١) ، الى جمعية الاخاء^(٢) ، وبرناجها قديم وهو تأسيس جمهورية مسيحية كالفنية ،

(١) هرتزوغ Hertzog

(٢) الاخاء Broeder Bond

دون رابطة سياسية مع بريطانيا العظمى ، ودون نفوذ كاثوليكي ، أو يهودي أو ماسوني .

وفي عام ١٩٢٩ ، أطلق رجال الحزب الوطني في الاتحاد هذا الشعار : « افريقية الجنوبية بلد الانسان الأبيض » . غير أن حزب الوحدة بمثلًا بزعيمه الجنرال سميثس^(١) كان يكسج جراح هذه النزعة ويحاول الحفاظ على الوحدة الوطنية في البلاد من جهة ، وعلى بقاء الارتباط برابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث البريطاني) . ولكن انتخابات عام ١٩٤٨ أسفرت عن اخفاق هذا الحزب ، فخسر سميثس آخر معركة في كفاحه ضد البوير ، ورد الوندويون الى أقلية. تظم البريطانيون مع المتأفرقين^(٢) من أصل هولندي الموالين لفكرة سميثس . ومنذ ذلك الحين تألق نجم الحزب الوطني ، وكان برنامجهم يرمي الى هدفين .

- ١ - القطيعة مع مجموعة الشعوب البريطانية (الكومنولث البريطاني) .
- ٢ - حل قضية أبناء البلاد الأصليين في الداخل لصالح البيض باتباع سياسة التمييز العنصري .

وتتضمن هذه القضية الأخيرة عدة معطيات :

أولاً - على الصعيد الديموغرافي : يمثل الزوج كثرة من السكان تتألف من ١١ مليون نسمة ، وهم في تكاثر سريع . فقد ازداد عددهم بنسبة ٢٦٪ في عشر سنوات وما زال في صعود . وبعض الاعتبارات يمكن أن يلحق بهم الملونون من صينيين وهنود وعددهم ١٥ مليون وهم بنسبة تزيد ٣٥٪ . أما البيض فيزبون عددهم قليلاً على ٣ ملايين نسمة ونسبة

(١) سميثس Smuts

(٢) المتأفرون Afrikaners وم الاربويون من أصل هولندي .

تزايدهم ١٦٪ فقط . وهذا التضخم العام محسوس في المدن بخاصة ، فمدينة يوهانسبورغ ، مثلاً ، تضم أكثر من ٦٠٠٠٠٠٠ زنجي من أصل ١٠٠٠٠٠٠ نسمة . وبريتوريا العاصمة كانت المدينة الوحيدة التي تضم أكثرية بيضاء في العام ١٩٥١ ، أما الآن فهي زنجية وبيضاء على حد سواء . وفي الحقيقة يعتبر اتحاد جنوبي افريقية من اعقد مناطق العالم سكاناً لاختلاف العناصر البشرية التي تسكنه وهي :

- ١ - البرشمان والهوتنتوت وهم سكان البلاد الأصليون .
- ٢ - قبائل البانتو العديدة وتسكن في معظم المناطق .
- ٣ - انسال الارقاء السابقين الذين أتى بهم للعمل في الحقول الزراعية .
- ٤ - الهنود الذين أتى بهم الانكليز المستعمرون للعمل في مزارع السكر في الناتال .
- ٥ - الملونون في الكاب الذين تتجروا عن اختلاط الهنود الاوائل . بنساء الهوتنتوت .

ويكون هؤلاء جميعاً ٨٣٪ من سكان اتحاد جنوبي افريقية ونسبتهم كما يلي : الافريقيون ٧١٪ ، الملونون ٩٣٪ ، الهنود ٢٧٪ . أما باقي السكان فيؤلفون ١٧٪ تقريباً وهم انسال الاوربيين الذين استوطنوا في البلاد من هولنديين وفرنسيين ، وانكليز ، واليهود الذين أتوا من روسيا وبولندا ، والمانيا بعد اكتشاف الذهب والماس^(١)

ثانياً - على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، يرى ان نصف الزنوج مختلط مع البيض في المزارع وفي المراكز الصناعية ، ويؤلف القسم الأكثر تطوراً بين السكان ، ومع ذلك فقد حرمت سياسة التمييز العنصري من حقوقه .

(١) راجع الدكتور الصغار ، المصدر السابق .

والتمييز العنصري يعني هنا « الفصل او العزل الاجتماعي والاقتصادي والجنسي على مبدأ العرق » . ولقد سيطر على البيض في افريقية الجنوبية الحرف من أمرين .

١ - فقدان النقاء العنصري للجنس الابيض بسبب الاختلاط بالجنس الأسود .

٢ - فقدان البيض السيطرة السياسية اذا تقدم غير البيض من زنج وملونين اقتصادياً واجتماعياً .

وقد شهدت البلاد ، في عهد كل من الوزير الأول مالان و ستريجودوم و فيرورد (١) ، موجة تشريعية عارمة تهدف الى فصل السكان الاصليين جغرافيا في معازل خاصة ، وابقائهم في اوضاع لا تسمح لهم بالتطلع الى المشاركة السياسية في ادارة شؤون البلاد ، لاسيما وانهم في رأي السادة البيض لا يصلحون للقيام بالأعمال الحضارية الكبرى ، حتى ان المفوض السامي لاتحاد جنوبي افريقية صرح في خطاب القاء في لندن عام ١٩٥٣ بقوله : « ان كل ملتر من التقدم الناجز في هذه المنطقة الواسعة يعود بكامله الى الانسان الابيض » ، وأوضح وجهات نظر تدافع عن هذه السياسة ، مدعياً ان سياسة التمييز أسلم عاقبة ، وان المشاركة السياسية تؤدي منطقياً الى « سيطرة الزنوج » ، الى « زوال » الأمة البيضاء من افريقية الجنوبية الى الأبد ، على حين أن « التمييز » يوضح « سياسة الوقاية الذاتية » . وقد بلغ خوف البيض من خطر الزنوج المقبل كل مبلغ ، حتى انهم تنبأوا بأن عدد الزنوج ، في العام ١٩٨٠ ، سيكون ١١ مليون زنجي في المدن مقابل ٤ ملايين ابيض . وهذا الحوف يضاعفه تقدم الزنوج الفكري

(١) مالان Malan

(٢) ستريجودوم Strijdom

(٣) فيرورد Verwoerd

والليقطة السياسية العامة والقيام بالعصيان . ولذا حدد التعليم العالي للزواج ، وحرم على الزواج البانتوين الدخول في الجماعة الاوربية . ولم يبق أمام الزواج الا ارقياة مكتبة وكالة الأنباء الامريكية في يوهانسبورغ .

وعرف ستويجودوم أهدافه فقال : « على الاوربيين أن يحافظوا على مواقعهم ويبقوا » (١) أي سادة في افريقية الجنوبية . كما يتوجب على الاوربي أن يحتفظ بحقه في حكم البلاد وببقائها للانسان الابيض . وأوضح سياسي من الترانسفال بقوله : « اذا لم نحفظ بالزواج تحت سيطرتنا الدقيقة فسيخرجون البيض من افريقية ، عندما تدق ساعدهم ، وبأخذون بكل مناسبة مهنتهم ويحفضون مستوى حياتهم ... وفي هذه الايام ، التي يتبدل فيها كل شيء بسرعة ، من سيخاطر ويؤكد بأن مثل هذا الحادث لا يحدث في السنوات العشر القادمة ، بل وحتى في السنوات الخمس القادمة ؟ » (٢) . حتى ان الصك التشريعي الصادر في العام ١٩٥٠ بالغاء الشيوعية في البلاد بسمح باتخاذ جميع التدابير الزجرية التي تؤمن سلامة الانسان الابيض ؛ هذا بالاضافة الى التشريعات الأخرى التي تعزل الزواج وتخنق حرياتهم . وأكد فيرورد وجهة نظره السياسية بفظاظة حين قال : « نحن اليوم أمام هذا الاختيار : هل يحكم البيض صعيدهم الخاص والبانتي صعيدهم ، أم هل توجد افريقية جنوبية مختلطة ، مع البانتي في الحكم ، . والى غير ذلك من تشريعات وقرارات وتصريحات كلها ترمي الى تقوية التمييز ودعم حاجز اللون الفاصل بين البيض والسود .

ونتساءل بعد ما هو رد فعل البانتي أمام هذه الحصون البويرية من

(١) بعث Baas

(٢) F. L' Huillier Avec ses Collaborateurs, Histoire de راجع

Notre Temps, P. 371 - 72, Paris, S Irely , 1964 .

الحكومة الاتحادية في بريتوريا والسكاب وجامعة ستيلينبوش ، ^(١) التي
ثقت كل الشبهة البويرية ، ومكتب جنوبي افريقية للقضايا العرقية
الموجود في هذه المدينة ؟

لقد استيقظ الشعب الزنجي والملون بالرغم من كل هذه القلاع والحصون
للعرقية ، وتألفت نخبة بانتوية من معلمي المدارس والرعاة أي القس
والصحفيين والأطباء . وتم تشكيل هذه النخبة الفكرية بنتيجة الاحتكاك
المباشر مع المستعمرين ، بالرغم من القيود والحدود ، وبنتيجة البقطة
العامة التي انتابت افريقية كلها منذ اعقاب الحرب العالمية الثانية . لقد
حز في نفسها وجرح كبواها الانسانية الحملات المنظمة والنظام البوليسي
والمطالبة بتذكورة الهوية والاقامة ، والتوقيفات العديدة ، في مخالفات
المرور ، لمئات الالوف في العام ، والتشريعات الكيفية على المشروبات ،
وغلاء النقل ، والنظام القبلي والبطالة والجرائم التي نشأت عنها ، فقامت
تطالب بالاصلاح والمساواة الاجتماعية والسياسية . وتألفت حركات وأحزاب
مناضلة :

من ذلك حركة المؤتمر الوطني التي يرأسها الدكتور كزوما ، وهي
حركة جماهير في سبيل التحرر اكثر منها حزباً ، وتهم بتوحيد الافريقيين
للحصول على المساواة في الحقوق . وقد نشأ هذا المؤتمر الوطني الافريقي
في الوقت الذي تأسس خصمه وهو الحزب الوطني وابتدأ بالعمل منذ
١٩٥٢ . وفي هذه السنة تم التفاهم بين رجال المؤتمر الوطني الأفريقي
و مؤتمر جنوبي افريقية الهندي الذي قام على سياسة التمييز ايضاً .
واندفعت حملة العصيان المدني ، ودامت ستة أشهر ، وجرت خلالها عشرات

(١) ستيلينبوش Stellenbosch

(٢) كزوما Xuma

الالوف من التوقيفات . وتمعت الحكومة هذه الحركة التي لم يكن لها أي أساس مالي . وفي حزيران ١٩٥٥ ، انعقد « مؤتمر الشعب » المنبثق عن انتخاب جميع الفئات المقهورة : المؤتمر الافريقي ، المؤتمر الهندي ، منظمة الملونين ، مع مشاركة مؤتمر الديوقراطيين ، وهو حزب صغير للبيض . وصدر عن أعمال هذا المؤتمر « ميثاق الحرية » ، ولكن المشتركين في هذا المؤتمر عوقبوا بشدة ، لأن هذا الميثاق كان ميثاق مساواة ايضاً . وجرت اتصالات مع الخارج بتسلل عناصر شيوعية في المؤتمر الوطني الافريقي ، والاشتراك في مؤتمر اكوا (١٥ - ٢٢ نيسان ١٩٥٩) . وكان لقضية الكونغو اثرها في امتداد الثورة الافريقية نحو الجنوب .

وفي ربيع عام ١٩٥٩ ، انفصل عن المؤتمر الوطني الافريقي مؤتمر آخر يسمى مؤتمر الجامعة الافريقية ، الذي لم يضر العداء للبيض ، ولم يشأ ان يرتبط بيسارهم الامم المتحدة . وفي آذار ١٩٦٠ ، قام المؤتمر الوطني الافريقي ومؤتمر الجامعة الافريقية بحملة لاعنف ضد القوانين على تذكرة المرور ، رمز السيطرة البيضاء . من ذلك ان البيوت لوثيلي^(١) رئيس المؤتمر الوطني الافريقي ، أحرق علناً اوراق هويته في برينوريا . واحياناً ادت المظاهرات الى اضطرابات كاطلاق الرصاص في شاربفيل ، وهو حي من احياء مدينة فيربنتغ ، في الترانسفال ، في ٢١ آذار ، بعد ان فقدت الضابطة السيطرة على اعضائها . وصرح البرلمان بعدم شرعية المؤتمر الوطني الافريقي ، واعلنت حالة الطوارئ ، ووقف مايقارب من ٢٠٠٠ شخص ، واجبر لوثيلي على الإقامة الجبرية في مقاطعة النقال مع حرمانه حضور أي اجتماع الى عام ١٩٦٤ . ولوحق رئيس مؤتمر الجامعة الافريقية ، سوبوكيوي^(٢) ،

(١) البيوت لوثيلي Albert Luthili

(٢) سوبوكيوي Sobukewe

استاذ اللغة البانتوية في جامعة ويتوتسمراند وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، وقد نشر برنامج السيامي أمام القضاة في : « اقامة ديموقراطية غير عرقية في افريقية الجنوبية وفي افريقية كلها ، وانشاء ولايات متحدة افريقية من السكاب الى القاهرة ، ومن مراکش الى مدغشكر » وختم كلامه بقوله : « نريد حكم الافريقي بالافريقي والافريقي » .

عزل افريقية الجنوبية

كان بإمكان الثورة الافريقية ، وحتى دون مساعدة الملونين ، ان تحاصر دولة ونظاماً معزولين . فقد عاش الهنود في افريقية الجنوبية تاريخاً أليماً حمل عمل غاندي بعض آثاره . ولا بد هنا من الاشارة الى مشروع الحكومة في نقل ٤٠٠.٠٠٠ هندي من دوبران الى كاثو مانوود في ١٩٥٩ . وقد تجددت شكواهم الى الأمم المتحدة منذ ١٩٤٦ ، وكان أثرها الأكيد في شبه القطيعة بين بريتوريا ودلهي الجديدة ، وحرباً باردة أفسدت كل تعاطف مع اتحاد جنوبي افريقية في الحوض الهندي ، وأكثر من ذلك على صعيد « الجاليات » الهندية الواسع من افريقية الوسطى حتى مالايزيا . وهذا عامل يجب ألا يهمل . وعلى أثر الواقع الأعم في « النزاع العرقي في افريقية الجنوبية بسبب سياسة التمييز العنصري » أخطرت الدول الافرواسية الثلاث عشرة الأمم المتحدة في ايلول ١٩٥٢ بأن اللجنة المسماة سانتا-كروز الخاصة بالنظر في القضايا العرقية ، التي ظهرت أهميتها عظيمة في التفسير الوطني أو الدولي لقضية داخلية ، قد نجيت عن أرض الدومنيون ، بامم السيادة ، ولكنها ظلت تعمل حتى آخر عام ١٩٥٥ . وبجنب كل تفل عن التمييز العنصري ومغادرته الاونيسكو ، حصل اتحاد جنوبي افريقية على أقلية قليلة جداً ، في ٦ كانون الأول ١٩٥٥ ، على عدم تجديد انتداب لجنة سانتا - كروز .

- ٥٩٢ -

وكان هذا النصر ضعيفاً ، لأن الأمم المتحدة عدت قرارات اللوم ، بدءاً من ١٩٥٨ ، وعانت افريقية الجنوبية من العزلة العالمية وفقدان الثقة بها الشيء الكثير .

وبالرغم من المصالح المتقابلة من سترايجية واقتصادية ، فقد انقلب الوضع الراهن للعلاقات الانكليزية - البويرية بتطور الكومنولث حيث أخذ فيه الزنوج مكاناً عظيماً . وان مشروع القانون على الرفيراندوم : « هل أنت مع جمهورية اتحاد جنوبي افريقية ، ؟ - الذي ادخل الى البرلمان الاتحادي في آذار ١٩٦٠ ، قد صوت عليه في شهر أيار ، واجاب الرفيراندوم نفسه عليه بالاجاب في تشرين الأول . وخرجت جمهورية اتحاد جنوب افريقية المعزولة من الكومنولث ، في ٣١ أيار ١٩٦١ ، وقوطعت في عدة نقاط من العالم ، ولم يتحمل اتحاد جنوبي افريقيه الا البريطانيون الذين ترددوا أمام بعض مظاهرات القومية السوداء . ولغم الافريقيون الاتحاد . فقد سبق واحتج باتون على التمييز فكلفه ذلك مصادرة جوازه . واليوم ، اكثر من مائة منظمة ثقافية او سياسية تلتزم دستوراً جديداً غير عرقي . ويبدوان تطوراً نفسياً اخذت ترتسم معالمه في اوساط الكنيسة المصلحة وفي اوساط الشبيبة . وكل الدلائل تشير الى ان عجلة الزمان اخذت تدور بسرعة لغير صالح سياسة التمييز العنصري في اتحاد جنوبي افريقية ، بالرغم من التدابير الاعباطية والاعمال الكيفية .

التمييز العنصري في المستعمرات البرتغالية

كانت البرتغال اول البلاد الأوروبية الى استعمار بلاد ماوراء البحار منذ الكشف الجغرافية الكبرى . وقد استطاعت قبل غيرها ان تقيم المراكز التجارية على امتداد شواطئ افريقية وآسيا الجنوبية وان تستولي على مناطق

شاسعة في افريقية وامريكا الجنوبية . ولكن امبراطوريتنا تقلصت مع الزمن ، وأصبحت تقتصر في عصرنا الحاضر على المستعمرات الافريقية في انغولا وموزامبيك وغينيا (بيساو) والرأس الاخضر وبعض الجزر الواقعة حول هذا الرأس .

وتعتبر المستعمرات البرتغالية الافريقية نموذجاً للإممال والتخلف . فقد اوجد الاستعمار البرتغالي في هذه المناطق ، شأنه شأن كل استعمار ، طبقتين مختلفتين من السكان :

١ - طبقة المستعمرين ، وهم من البرتغاليين الاوربيين والمولدين من أصل برتغالي ، وقليل من الافريقيين المتحضرين الذين يمثلهم المجتمع البرتغالي في المستعمرات ضمن بعض الشروط .

٢ - طبقة ابناء البلاد الأصليين .

والبون شاسع بين الطبقتين ، لأن الاستعمار البرتغالي لم يعمل شيئاً لأبناء البلاد ، بل تركهم وحبلهم على غاربهم ، وجعل منهم مادة استهلاكية ومصدر استغلال دون التعويض عليهم بشيء من اسباب الحضارة ، بالرغم من تصريحاته المتكررة . واقام التفرقة والحواجز الفاصلة القائمة على اختلاف اللون بين الابيض والأسود . وهو وان وضع القوانين التي تسمح بقبول المستعمرين الافريقيين في عداد المتحضرين ، فقد كان الوصول الى هذه الطبقة صعب المنال ، وكان يتوجب على من يريد منهم ان يكون متحضراً ان يحقق الشروط التالية :

١ - ان يدين بالمذهب المسيحي الكاثوليكي .

٢ - ان يكون ناطقاً باللغة البرتغالية ومثقفاً ثقافة برتغالية كافية .

قضايا عصرنا (٣٨)

٣ - ان يتغلق بالاخلاق والطباع والعادات والتقاليد البرتغالية متناسياً تقاليده الوطنية .

٤ - ان يكون مؤدياً الخدمة العسكرية في الجيش البرتغالي .

٥ - ان يكون له دخل مناسب يعيش منه .

وعندما يحقق المرشح هذه الشروط ، أمام هيئة حكومية ، يحصل على لقب « مواطن » وينتقل الى صف « المتحضرين » ، ويحق له عندئذ ان يمارس الحقوق المدنية التي يمارسوها ، وان يشاركهم حياتهم الاجتماعية . وقل من كانت هذه حاله .

ولم تكن هذه القوانين وشروطها الا ستاراً يخفي وراءه حقيقة النوايا الاستعمارية البرتغالية في ابقاء ابناء البلاد في حالة تخلف مقيم ، عدا ما تطبقه البرتغال في مستعمراتها من نظام السخرة الذي أحلته محل نظام الرق ، ولكنها تنكر ممارستها للسخرة وتدعي بممارسة « العمل الموجه » لفائدة الافريقيين . وهذا العمل في ذاته لا يختلف عن الاعمال الشاقة ، التي كان يقوم بها الزوج في عهود الاستعمار الاولى ، في فائحة العصور الحديثة ، والتي كان من شأنها انتزاعهم بالقوة من بلادهم واحضان آهلهم ونقلهم الى مناطق اخرى يعملون بها حسب مقتضيات مصالح العمل البرتغالي الموجه . هذا بالاضافة الى الفظائع التي ترتكب في حق السكان من ابناء البلاد « دفاعاً عن حضارة الرجل الاوربي في افريقية » .

وقد نشرت « جبهة تحرير موزامبيك » بياناً في صحيفة الغارديان ، في ١٤ تموز ١٩٧٣ قالت فيه : « ان المذابح ، في الحقيقة ، من الاعمال الشائعة للقوات البرتغالية في موزامبيك . ولقد استنكرنا في تقاريرنا الاعمال الشائنة التي أصبحت معتادة بين الجنود البرتغاليين ، وهي قتل الحوامل بقر

بطونين وانتزاع الأجنة منها ، وهم يقومون بذلك حسب قولهم « لمنع ميلاد اراهيين جدد » (١) . الى ما هناك من قصف وتدمير قرى بكاملها وسلب السكان وترحيلهم بالقوة وتعتيـب الأمرى حتى الموت واستخدام الاسلحة الكيميائية .

وقد قابل الوطنيون من ابناء البلاد هذه الفظاعات بكل ما استطاعوا من قوة ايمان وجهاد وعناد ، بعد ان نفخت روح التحرير الوطني في افريقية ، واخذ الدفاع عن المستعمرات يكلف البرتغال نصف ميزانيتها والوف الضحايا من ابناءها .

وأخيراً ادرك الجنرال انطونيو دوسينولا ، بطل انقلاب ٢٥ نيسان ١٩٧٤ ، هذه الحقائق كلها والنتيجة الحتمية ، الجلاء عاجلاً او آجلاً ، التي ستصل اليها البرتغال بعد ان سبقتها اليها الدول الاستعمارية الأخرى ، وشرحا في كتابه « البرتغال والمستقبل » الذي قدمه لمواطنيه البرتغاليين ، بعد عودته من غينيا بثلاثة أشهر (٢) .

وليكون عمل سينولا منسجماً مع اقواله يحب تحرير المستعمرات البرتغالية في افريقية وترك البلاد لأهلها وتمتعهم في حقهم في تقرير مصيرهم .

التمييز العنصري في فلسطين المحتلة

الاستعمار الصهيوني - . ان التمييز العنصري في ارض فلسطين المحتلة حالياً لا يقوم على فارق اللون بين الأبيض والأسود أو الملون عموماً ، كما في

(١) راجع مقال مصطفى سامي : « من برتغال سلازار الى برتغال سينولا » في مجلة « الطليعة » ، ص ٧٣ - ٧٩ ، عدد حزيران ١٩٧٤ .

(٢) راجع عددي ٦ أيار ١٩٧٤ من مجلتي « Time » و « Newsweek » حيث تجد مقالين تحت عنوان « انقلاب في البرتغال » .

امريكا أو افريقية ، وإنما يقوم على الفارق بين صهيوني و عربي .
وهذا التمييز يرجع ، ولاشك ، الى طبيعة « دولة امرائيل » القائمة
على العدوان .

ان تشكيل دولة امرائيل في فلسطين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركة
الصهيونية العالمية التي قامت منذ أواخر القرن التاسع عشر واخذت تطالب
بتأسيس « دولة صهيون » . وقد تأثرت هذه الحركة بعاملين :

الاول ، حركة القوميات التي كانت تدفع الشعوب التابعة أو المقهورة
والمضطهدة الى تحرير نفسها من سلطة الدول التي تتحكم بصيرها ، والى
بناء كيانات القومية في مجتمع سياسي حر معترف به ، أو الى جمع شمل
ابناء القوم الواحد الذين تجمعهم عوامل مشتركة وتأسيس دولتهم القومية .

الثاني ، نظرية الحقوق التاريخية والعودة الى فلسطين التي تعلق بها اليهود
وزعموا بأن لهم حقاً في فلسطين اعتماداً على كيان سياسي وجد لهم خلال
فترة قصيرة بين القرنين الحادي عشر والسادس ق.م . وخلال قرن من
الزمن قبل الاحتلال الروماني في سنة ٦٣ ق.م (١) .

واذا تأثرت الشعوب الاوربية المقهورة على الدول المتعككة بصيرها ،
وأُسست دولها القومية على ارضها التي تسكنها وتقيم عليها منذ عشرات
القرون ، فان الصهاينة ارادوا بناء دولتهم على ارض غير اوربية ، حيث
لا ارض لهم فيها او في غيرها ، لأنهم كانوا شعباً مشتتاً في الارض وغير
مؤتلف ومنسجم ومندمج مع الشعوب الأخرى ، ومدعيّاً بأنه شعب الله
« المختار » . وقد جرت عليه انعزاليته وأعماله التهديمية وأنانيته المتعصبة

(١) راجع : « تبويد فلسطين » ص ٢٤ اعداد ونحرير الدكتور مصطفى أبولغد ،
ترجمة الدكتور أسعد رزوق . منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث . بيروت ١٩٧٢ .

وسلوكة الشاذ كره البشر له حيث كان ، وزادت في عزلته . وقد نسج الصهاينة ، من فكرة « العودة » ونظرية « الحقوق التاريخية » واضطهاد الشعوب الأخرى لهم ، اسطورة لاستعادة مجد « امرائيل » في فلسطين .

وما كان للصهاينة ان يحققوا هدفهم السيامي لولا ان الظروف الدولية ساعدتهم الى ابعاد بما كانوا يتصورون . وقد استغلوا هذه الظروف خير استغلال . بل ومكنتهم المصالح الدولية والتنافس الدولي وضعف الدولة العثمانية وتقسيم اوصالها ، وظروف الحرب العالمية الاولى ، وبخاصة اعتراف بريطانيا العظمى لهم في فلسطين بوعده بلفور وفي صك الانتداب على فلسطين ، مع مراوغتها للعرب في الحرب وبعد الحرب ، وحرمانهم أخيراً من الاستقلال الذي ارادوه وحاربوا في سبيله الى جانب الحلفاء .

وما احتلت بريطانيا العظمى ، بعد الحرب العالمية الاولى ، ارض فلسطين رسمياً بانتداب من عصبة الأمم ، الا وأخذت تفسح المجال رغباً لهجرة الصهاينة ، واستيطانهم في فلسطين . وهكذا تضافرت قوى الاستعمار الاوربي ، بموجب صك الانتداب ، مع الصهيونية العالمية على احتلال فلسطين وجعلها مستوطناً ليهود العالم . ومن هنا بدأت المأساة الفلسطينية ولما قلته بعد .

بدأت المأساة بتشجيع الهجرة الصهيونية الى فلسطين . وقاوم عرب فلسطين ، على قدر استطاعتهم ، هذه الهجرة ، ولكن السلطات البريطانية ، في كل مشادة نفع بين الصهاينة والعرب كانت تنحاز الى جانب الصهاينة . ووجد هؤلاء ، بالاضافة الى بريطانيا العظمى ، في الولايات المتحدة

الامريكية نصيراً جديداً قوياً . فمنذ ١٩١٧ ، كانت حكومة الولايات المتحدة تمول الهجرة الصهيونية او معظمها الى فلسطين ، حتى انها ضغطت على بريطانيا العظمى في سبيل اصدار « وعد بلفور » المشؤوم .

كتب ابن غوريون في عام ١٩٤٠ : « اما انا فلم اكن اشك في ان مركز الثقل بالنسبة لعملنا السياسي كان قد انتقل من بريطانيا الى الولايات المتحدة التي كانت قد احتلت المرتبة الاولى في العالم كدولة كبرى » (١)

ويقول وايزمن في كتابه « مولد اسرائيل » ، بعد زيارة الولايات المتحدة بدعوة من الرئيس روزفلت في ١٩٤٢ ، « كان موقف الرئيس الامريكي ايجابياً للغاية » (٢) . ود ان امريكا على اعتقاد سمرويلز ، الذي حضر المقابلة ، على استعداد للاسهام في اقامة الوطن القومي اليهودي ، اسهاماً مالياً . وفي الوقت ذاته ، وافقت المنظمة الصهيونية الامريكية على « برنامج بولتيمور » الذي طالب باقامة دولة يهودية في فلسطين كلها ، وانشاء جيش صهيوني ورفض « الكتاب الابيض » البريطاني لعام ١٩٣٩ ، الذي يسلم بقيام دولة فلسطينية عربية في المستقبل ويتخلى عن فكرة اقامة « موطن قومي يهودي » ، وتسهيل أسباب الهجرة الصهيونية دون حدود تحت الاشراف الوحيد للوكالة اليهودية . وبعد قليل أصبح هذا البرنامج برنامج الصهيونية العالمية . وهكذا تزايد عدد الصهاينة في فلسطين ، وأصبح لهم جيش قوي يقوم بالتعرشات اليومية ضد العرب ، بل وضد الادارة البريطانية ، وحقت الولايات المتحدة هدفين في آن واحد :

-
- (١) راجع « عاجلاً أو آجلاً ستزول دولة اسرائيل » ص ٢٠ ، بقلم ١٥ كاتباً فرنسياً ، دار الآداب ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٨ .
(٢) « مولد اسرائيل » ص ٤٠ . نص المفتطف من المصدر السابق ص ٢٠ أيضاً .

١ - مساندة الصهاينة مساندة تامة في مشروعاتهم الرامي الى ارباب الشعب العربي في فلسطين .

٢ - طرد البريطانيين من فلسطين واحتلال مكانهم . وكانت الولايات المتحدة تعتبر ، منذ سنوات الثلاثين ، ان منطقة الشرق الاوسط « منطقة حيوية » لأسباب اقتصادية وستراتيجية ، وذلك بالتركيز والاعتماد على نظم ينبغي ان تخضع خضوعاً تاماً ، ولاسيما اقتصادياً للامبريالية الاستعمارية ، وأن يكون باستطاعتها ان تلعب دور « الكلب الحارس » لهذه الامبريالية الاستعمارية على الصعيد المحلي .

وباعتراف ابن غوريون نفسه في كتابه « امراييل سنوات من الكفاح » : « كانت امراييل تحصل من الولايات المتحدة الامريكية على كل مايلزمها لاتاج الأسلحة في فلسطين » .

وضمن برنامج التخلي عن المستعمرات الذي اضطرت اليه بريطانيا العظمى بعد الحرب العالمية الثانية ، وتحت الضغط الامريكي ، استسلمت بريطانيا في عام ١٩٤٧ ، وأحالت القضية الى منظمة الأمم المتحدة . وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه ، اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، واتخذت قراراً بقيام الدولة « العميلة » مخالفة بذلك أبسط الحقوق البشرية وقواعد العدل الانسانية . وقد كتب وايزمن ، في ١٣ أيار ١٩٤٨ ، في رسالة بعث بها الى الرئيس ترومان : « ان دور القيادة ، الذي قامت به الحكومة الامريكية بوحى منكم ، جعل من الممكن اقامة دولة يهودية » . وفي اليوم التالي ، في ١٤ أيار ١٩٤٨ ، اعلن في فلسطين مولد « دولة امراييل » . وكان أول أعمال هذه الدولة ، التي خلقتها الامبريالية الاستعمارية والصهيونية العالمية ، عملية حربية ترمي

الى التوسع فيما وراء الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة ، متخذة شتى الوسائل التي تجعل فلسطين دولة صهيونية بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى تام .

وفي الحقيقة ، ان الاستعمار الصهيوني لفلسطين بدأ منذ اواخر القرن الماضي عندما خصصت أموال ضخمة لما اسمته الصهيونية العالمية « شراء » الاراضي . وكان « الرواد » الصهاينة الاوائل يحصلون على الأموال والوسائل الفنية اللازمة التي تمكنهم من استغلال هذه الاراضي على الوجه الأكمل . اما المزارعون العرب ، ضحايا الاقطاع اولاً والاستعمار ثانياً ، فلم يكونوا يملكون من هذه الوسائل الا قليلاً ، أو ان هذه الوسائل لم تكن الا في يد القلة القليلة الغنية من ابناء العرب ، حتى ان بعض المزارعين منهم ، عن عوز او في سبيل تحسين ارضهم وانتاجهم ورفع مستوى حياتهم ، كانوا يبيعون ارضهم او قسماً منها . وفي ظل الانتداب البريطاني كانت بعض الاراضي تصدر بعمليات عسكرية تحت اسم « عمليات دفاعية » ، ولا لبث ان تحاط بالاسلاك الشائكة وتقام حولها الحصون وتصبح وحدة دفاعية وتحميها السلطات العسكرية البريطانية . وكانت هذه المستعمرات اليهودية اداة للغزو والاستيلاء والنهب والسلب ، لأن كل واحدة منها كانت تشكل موقعاً حربياً تنطلق منه عناصر جيش العصابات الامرائيلية « الهاغانا » وتتحرش بالعرب ، وتهاجم وسائل النقل ، وتطرد المزارعين العرب من قراهم مهدداً لارتكاب اعمال السلب والنهب والدمار والابادة . وهكذا كان عدوان الصهاينة على العرب من الخارج ومن الداخل .

الارهاب والعنف . - اذن لقد لجأ الصهاينة الى الارهاب والعنف منذ وطأت اقدامهم فلسطين لبث الرعب في قلوب سكانها العرب وحملهم على مغادرة البلاد أو طردهم منها بأي من القضاء على البقية الباقية منهم وتصفيهم نهائياً بشتى الطرق الكيفية

والارهابية . وقد استعمل الصهاينة ، منذ قبل قيام امراثل هذه الوسائل في مذابح حي القطمون في القدس ، وقربة دير ياسين ، وعين الزيتون . وصلاح الدين . ووصف الحاكم العسكري لمدينة القدس وقتئذ ، دوف جوزيف ، بأنه « عدوان متعمد مقصود لم يكن قد دعا اليه شيء » (١) . ومنذ قيام الدولة الامرائيلية والصهاينة يمارسون العنف والارهاب في الداخل لاجراج العرب والقضاء على « الاقلية العربية » المتبقية في فلسطين ؛ وفي الخارج ضد الدول العربية المجاورة لفلسطين للحصول على ارض جديدة ومكاسب جديدة أو كما يقول الصهاينة « حدود آمنة » لا تقف عند حدود أو قيد ، والى المزيد من المذابح في الارض المحتلة ونسف العديد من القرى والمدن كما في ابو غوش ، في ايلول ١٩٥٣ ، وفي كفر قاسم « في تشرين الأول ١٩٥٦ ، وفي عكا ، في حزيران ١٩٦٥ ، والى ما هنالك من أعمال رهيبة وحشية ارتكبت في قطاع غزة ومدينة نخان يونس .

وبعد عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧ ، تعرض العرب ، في المناطق المحتلة الجديدة ، لحملات رهيبة من عمليات القمع بدعوى ان السكان العرب في هذه المناطق يساندون كفاح الفدائيين الفلسطينيين من اجل تحرير وطنهم المختصب من قبل الصهاينة . فمنذ الأيام الاولى للاحتلال قامت القوات الامرائيلية بنسف القرى والمدن العربية بالضفة الغربية من نهر الاردن ، ولم تكف عن ارتكاب انواع الأعمال الوحشية بغية تهديد السكان العرب وارهابهم . وطردت عشرات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين بعد هذه النكبة الجديدة ، واضطروا للعبور الى الضفة الشرقية من نهر الاردن . ولم تتوان هذه القوات الامرائيلية عن ارتكاب جرائم القصف ضد

(١) عاجلاً أو آجلاً ستزول اسرائيل ، ص ٥٨ .

السكان المدنيين الآمنين في المدن والقرى ، في حرب تشرين الأول ١٩٧٣ ، وحرق المحاصيل الزراعية وقطع الاشجار وترك البلاد خراباً يباباً بعد فك الارتباط والانسحاب عن جزء من الاراضي المحتلة في الجولان في هذه الحرب

التمييز العنصري . - لقد قامت دولة امرائيل على العدوان ، وسلكت في سياستها الاستعمارية الطرق التي سلكها المستعمرون الاوربيون الاوائل عندما اتصلوا بالعالم الجديدة في افريقية وآسيا وامريكا . واتخذت من العنصرية الأصلية في طبع الشعب اليهودي هدفاً ووسيلة للوصول الى « امرائيل » الصافية من كل اختلاط . والعنصرية صفة عريضة ودائمة في دولة المستوطنين الصهاينة ، ونابعة من صميم العقيدة الصهيونية التي تؤمن بوحدة اليهود القومية وتجعلهم ابناء سلالة واحدة مشتركة ومصير قومي مشترك . وهذا يعني ان الصهاينة يؤلفون أمة واحدة ذات خصائص واحدة ، أي انهم يؤمنون بوحدة العرق ، ويعتبرون ان الاندماج مع الشعوب الأخرى يفقد الصهاينة نقاوتهم العرقية ، وبالتالي يذيقهم في بوتقة هذه الشعوب ويزيل الأمة اليهودية . ولذا تعتبر الصهيونية العنصرية الدائمة سبيلاً الى « الخلاص » من فساد الشعوب والى الحفاظ على « نقاوة » الدم الصهيوني و « طهارة » العرق و على « الهوية اليهودية » ، وترفض كل اختلاط بين الأعراق وتنطوي على ذاتها العنصرية . وفي ذلك ما يؤدي الى رفض اليهود التعايش مع غيرهم في المجتمعات غير اليهودية . ولذا تدعو العنصرية اليهودية الصهيونية جميع اليهود في العالم الى مغادرة « ارض المنفى » أو « ارض الشتات » ، منعاً للاختلاط والفساد والى التجمع في « ارض الميعاد » ، فلسطين ، وطرد غير اليهود منها جميعاً لصفوهم وحدهم دون سائر الناس كافة .

والعنصرية الذاتية اليهودية ، في نظر اليهود ، شرط أسامي لا بد منه في سبيل « التفوق » اليهودي ، لأن شعب الله « المختار » لا يستطيع تحقيق « مصيره الخاص المميز » الا عندما يتم تجميعه بكامله في وطن خاص به لا يقيم به سواه .^(١)

واذا قارنا بين هذه النظرية العنصرية الصهيونية والنظرية المتلوية لوجدناهما تنبعان من مصدر واحد وهو القول بالعرقية . لقد عرض هتلر زعيم النازية ، في كتابه « كفاحي » نظرية العرق ، وقال : ان المصائب ، التي حلت بالمانيا في الحرب العالمية الاولى وفي اعقابها ، كانت من عمل اليهود المفسدين في الأرض . ولتعود لألمانيا هيبتها ومكانتها الاولى يجب تنقية الشعب الالماني بما علق به من ادران اليهودية والعودة به الى نقاوته الفطرية التي خلق عليها . وكانت التدابير التي اتخذها ضد اليهود ، على عجزها ويجبرها ، متأثرة بهذه النظرية العرقية الى حد بعيد . ولاقى اليهود من ظلم النازية مالا قوا ، ولكنهم جسموا أعمال النازيين ليستردوا عطف البشرية عليهم . وعندما تحقق حلمهم بتشكيل دولة امرائيل عام ١٩٤٨ ، لجأوا الى العنف والارهاب وبشكل يفوق وحشية الأساليب التي اتبعها النازيون في اضطهادهم وتعذيبهم . كل ذلك في سبيل تخويف العرب وارهابهم وحملهم على مغادرة البلاد ، ومن ثم اتباع سياسة التمييز العنصري حيال الباقين منهم في فلسطين لاجبارهم بدورهم طوعاً او كرها على الهجرة وترك البلاد للصهاينة المعتدين ، ان لم يكونوا قد ابعدوا من قبل .

(١) راجع « الاستعمار الصهيوني في فلسطين » ص ٣٠ وما بعدها ، بقلم الدكتور فايز صابغ وترجمة الاستاذ عبد الوهاب الكيالي ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت .

-٦٠٤-

واذا قامت دولة الصهاينة على أساس التعصب الديني اليهودي كفكرة جامعة ليهود العالم ، فقد قامت ايضاً على أساس هذه العنصرية العصبية الشاذة الملازمة للفكرة الصهيونية في بناء « دولة امرائيل » : وهي ابادة الشعب العربي في فلسطين وتخليته منها . ولاشك في ان الدول الأوربية الاستعمارية مارست سياسة التمييز العنصري في البلاد التي استعمرتها ، واوجدت طبقتين من السكان في المستعمرات : طبقة بمثابة تنعم بكل شيء ، وطبقة ابناء البلاد الأصليين الذين حرموا من خيرات بلادهم وردوا الى الدرك الأسفل من الحياة ، مع مايلزم هذه الحياة من ضعة واحتقار . ولكن الدول المستعمرة ، بالرغم من كل ذلك ، رضيت بمعاشة ابناء المستعمرات واسناد الوظائف الثانوية والأعمال الملعقة بها لهم . اما المستوطنون الصهاينة فكان ملوكهم مع العرب وفاقاً لعقيدتهم الصهيونية : فقد عبروا عن « تفوقهم » المزعوم عن طريق « عزل » العرب وعدم الاختلاط بهم ، ومن ثم اجبارهم على النزوح عن ارضهم بأي طريق من طرق العنف والارهاب ، او طردهم بالقوة لتبقى فلسطين لهم وحدهم دون العرب ، واذا رضوا بوجود العرب مؤقتاً ، فلأنهم كانوا ينتظرون الفرص المناسبة التي تقتلع العرب من جذورهم وتطرحهم في الآفاق هائين على وجوههم .

ومذ كانت الصهيونية فكرة قداعب خيال دعاة الصهيونية الأوائل ، كان هوتزل ، رائد الصهيونية ، يضع الخطط التي تحرم السكان العرب الأصليين المعدمين من العمل ليضيق بهم رحب الأرض ويضطروا الى النزوح عن بلاد آبائهم واجدادهم طلباً للرزق والحياة .

وبعيد الحرب العالمية الاولى كان وايزمن يتنبأ باقامة دولة يهودية محضة متعانة في فلسطين لا شأن لغير اليهود فيها « بقدر ماتكون

الأمة الفرنسية فرنسية ، و د الأمة الانكليزية بريطانية ، . وقد حافظ الصهاينة على هذا المبدأ كشرط أساسي لصينة فلسطين وطبعها بالطابع الصهيوني وازالة الطابع العربي عنها بكل ما استطاعوا من قوة واغتصاب وشراسة . وفي الأرقام التالية ما يوضح ذلك :

في ١٩١٨ كان سكان فلسطين ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . منهم ٦٤٤,٠٠٠ عربي و ٥٦,٠٠٠ يهودي . وكان العرب يملكون ٩٨ ٪ من مجموع مساحة الاراضي ، واليهود ٢ ٪ منها .

وفي أيار ١٩٤٨ ، بلغ عدد سكان فلسطين ٢,٦٥٠,٠٠٠ نسمة ، منهم ١,٤١٥,٠٠٠ عربي ، و ٦٥٠,٠٠٠ يهودي . وهذه الزيادة الملحوظة في عدد اليهود كانت بسبب تدفق الهجرة الصهيونية أيام الانتداب البريطاني على فلسطين .

وفي آخر أيام الانتداب البريطاني على فلسطين نجد النسب التالية

الأراضي التي يملكها العرب تؤلف ٤٧,٧٧ ٪ من المجموع الكلي
الأراضي التي يملكها اليهود تؤلف ٥,٦٧ ٪
الأراضي التي تملكها الدولة تؤلف ٤٦,٠٢ ٪
الأراضي التي يملكها الآخرون ٥٤,٠٠ ٪

وعليه تكون نسبة اليهود عام ١٩٤٨ حوالي ٣١ ٪ من مجموع السكان ونسبة ما يملكون من اراض في العام نفسه ٥,٦ ٪ من مجموع مساحة الاراضي .

وعندما انتهت الحرب بين العرب واليهود ، في خريف ١٩٤٨ ، بقي في فلسطين المحتلة ١٧٠,٠٠٠ عربي .

وفي عام ١٩٦٧ ، بلغ عدد العرب ٩٢٧,٠٠٠ عربي .

- ٦٠٦ -

وفي عام ١٩٧٠ بلغ عددهم ٣٥٠.٠٠٠ عربي وظلت نسبتهم كما كانت^(١)
وفي عام ١٩٧٢ بلغ سكان امرائيل ٣١٤٢٦٠٠ ملايين
بؤلف اليهود ٨٥٤٪
والمسلمون ٧٪
والمسيحيون ٢٢٪
والآخرون ٥٤٪^(٢)

وهذا النقص الفادح في عدد العرب من مسيحيين ومسلمين يرجع
ولاشك الى الأعمال الاجرامية التي ارتكبتها الصهاينة في طرد العرب من
بلادهم أو قتلهم أو محاولة ابادتهم تمهيداً للخلاص نهائياً منهم .

واذا كانت اللفظايات الامرائيلية طرقتاً للخلاص من العرب في
فلسطين ، فان التمييز العنصري الذي يبطه الصهاينة في فلسطين ، وهو
طريق من طرق الخلاص ، أو هدف الخلاص الأعلى ، موجه ضد العرب
من مسلمين ومسيحيين ولايستثنون منهم احداً .

يقول المطران جورج حكيم ، رئيس كنيسة الروم الكاثوليك في
د امرائيل ، : « اننا نخشى اتجاه النية الى حرمان عرب امرائيل بما
تبقى في ايديهم من اراض بعد ان اضاعوا تقريباً كل شيء . وهناك
بعض المصاعب تقف في وجه المسيحيين والمسلمين الذين يريدون العمل
في بعض المناطق . وقد تدخلت شخصياً لدى السلطات العليا الامرائيلية
لكي تسمح لبعض الأفراد الكاثوليكين بالعمل في المنطقة الجنوبية وفي

(١) راجع : حبيب قهوجي « العرب في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ ١٩٤٨ » .
ص ٩ - ١٠ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢ .

(٢) راجع : Information Please Almanac, 1974 .

ايلات وغيرهما . ولقد صدمت باعطاء الجواب بالرفض ... اننا نشعر
بأن التمييز العنصري يارس ضد المسيحيين ، (١)

ولاحظ الأديب والفيلسوف الفرنسي جان - بول سارتر هذا التمييز
العنصري عند زيارته الأرض المحتلة وقال مخاطباً الصهاينة : « ان هناك
تمييزاً ، ويجب ان تحاربوه . لا تتوقفوا عن هذا النضال . يجب أن تناضلوا من اجل
التقارب والمساواة مع العرب . استنكروا التمييز . ارجوكم باسمي ان
تستنكروه ، (٢) . ونحن نشكر هذه الملاحظة الكريمة من الكتاب
الكبير ، ولا نستغربها منه . وبودنا لو أنه حاول أن يشرح الرأي
العالمي الاوضاع السيئة ، التي رأى فيها عرب فلسطين المحتلة وما يلاقونه
من اضطهاد ، يزيد من التحليل والتفصيل ، كما شرح وحلل أوضاع اليهود
في فرنسا وأوربة ودافع عنهم ودعا الى دمج اليهود وشجب مناوئة السامية (٣) .

والصهاينة ، على مام عليه من صفات ، يفرقون بينهم وبين غيرهم ،
وتحيزهم ضد البشر جميعاً شيء معروف عنهم . وأكثر من ذلك أنهم
يفرقون بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . فمن ذلك أن اليهود الغربيين
« الاشكنازيين » يريدون أن يستأثروا بالزعامة والسلطة والتمييز في معاملة
اليهود الشرقيين « السفارديين » . وقد حاول اليهود الغربيون ، عن طريق
الدعاية ، أن يستجلبوا اليهود الشرقيين من بيئاتهم المختلفة ويوطنوهم في
فلسطين حسب شروط وضعوها لهم . وانتظروا منهم أن يتكيفوا مع

(١) راجع : الدكتور ريجي كال ، « العرب في الارض المحتلة » ص ٢٢ ، مؤسسة
الوحدة للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٦٧ .

(٢) راجع المصدر السابق نفسه ص ١٤ .

(٣) Jean - Paul Sartre, *Reflexions Sur La Question Juive*, : (٣)
Gallimard, Paris 1954 .

هذه الشروط الجديدة ليتغيروا ويصبحوا واليهود الغربيين شيئاً واحداً بحيث لا يبقى لهم أي علاقة بالعرب . ولكن ، على ما يبدو ، ان اليهود الشرقيين ، بعدادهم وتقاليدهم وطبائعهم الشرقية التي تقرهم من عادات وتقاليد العرب ، لم يندمجوا في هذه البيئة الصهيونية الجديدة عليهم ، بالرغم من الجهود التي يبذلها اليهود الغربيون لتخريبهم . وقد صرح بن غوريون في مقابلة له في عام ١٩٦٥ بقوله : « لست متفائلاً من تحسن أحوال الشرقيين منهم . فهم غير متعلمين ، عاداتهم عادات العرب . . . وقد يخرج من اليهودي الشرقي شيء يختلف قليلاً في مدى ثلاثة أجيال . ولكن لا أرى ذلك بعد . » (١) . ولذا يشك اليهود الغربيون في اليهود الشرقيين واخلاصهم لاسرائيل : « من يعلم ؟ قد يأتي اليوم الذي ينهارون فيه مع العرب ، اذ ليس هناك كبير فرق بينهم وبين العرب » .

وهذا الشك أو الخوف له ما يبرره في الواقع فاليهود الغربيون يخشون من طغيان الثقافة الشرقية والتقاليد الشرقية في فلسطين المحتلة ، فضلاً عن أنه يحرم اسرائيل من التبجح أمام الرأي العام الدولي ، بأن لها « رسالة » حضارية تريد أن تؤذيها الى بلدان الشرق الأوسط ؛ أو من قيام علاقة بين اليهود الشرقيين وبين العرب . وهذا الخوف الاصح ، الذي يمتلك اليهود الغربيين يعتبر عاملاً مهماً في خلق الشعور بالكراهية والتمييز عند اليهود الغربيين ضد اليهود الشرقيين الذين ما انفكوا يبدون استياءهم من سوء معاملة الغربيين لهم ويقومون بظاهرات تأخذ أحياناً طابع العنف والاصطدامات الدامية ، مما يضطر السلطات الامرائيلية الى اتخاذ وسائل القمع ضدهم . وفي ذلك ما يشعر اليهود الشرقيين بعدم الراحة والاستقرار

(١) راجع: هذا شعبان صابغ « التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل »

ص ٣٧ وما بعدها ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ .

ويحملهم على الهجرة ثانية . وفشل هذه الأحداث المتكررة يثبط همم المتحمسين من يهود العالم للهجرة الى فلسطين بعد أن نقل اليهم المهاجرون ما يلاقونه من معاملة وتفرقة وعزل في أحياء خاصة وقيام بأعمال لا تستهويهم وترضي نفوسهم .

و تعيش « الاقلية العربية » في الارض المحتلة في حالة تشبه حالة السكان الاصليين في دولة اتحاد جنوبي افريقية . والمناطق التي يسكنونها يطلق عليها الصهاينة اسم « مناطق الأمن » . ويخضع العرب فيها وحدهم للأحكام العرفية ، لأن المشرفين على هذه المناطق من الضباط العسكريين الاسرائيليين . وتجري ملاحقة المتهمين العرب ، في ظل هذه الأحكام العرفية ، بموجب « قوانين الطوارئ » ، والرفع أمام المحاكم العسكرية التي تكون قراراتها قطعية وغير قابلة للنقض بأي طريق من طرق المراجعة . وكثيراً ما يكون تنفيذ عقوبة النفي أو الإقامة الجبرية بأمر من الحاكم العسكري . ويخضع العرب وحدهم ، دون غيرهم ، الى نظام الرقابة ومنع الانتقال الذي يحد من حريتهم في الحركة والتنقل . وهم محرومون من حرياتهم الاساسية ولا يسمع لهم باصدار الجرائد أو انشاء المنظمات السياسية أو المنظمات العمالية . واذا ما انتسبوا الى مثل هذه المنظمات كان شأنهم فيها قائماً وكية مهمة ، وستاراً لتظاهر الصهاينة أمام الرأي العام بأن العرب ينعمون بالمساواة في امرائيل أسوة بجميع السكان .

وفرض الثقافة محدودة ان لم تكن مغلقة في وجه العرب . وكلما ارتفع التعليم تحدد رواده واقتصر على قلة قليلة لا تتجاوز عدد الاصابع . حتى ان الاخبار التي تبثها اذاعة امرائيل تعطي صورة مشوهة عن أوضاع البلاد العربية فلا يعرف العرب الباقيون في فلسطين حقيقة ما يجري في البلاد العربية الاخرى وتنقطع الصلة بينهم وبين ذوي قرباهم .

قضايا عصرنا (٣٩)

كذلك يعاني العرب في الارض المحتلة من ضيق مجالات العمل ، بما يدفعهم الى البطالة أو القيام بأعمال وخدمات غير مجزية ، مع الحرمان من حق المساواة في الاجر مع غيرهم ، يؤدون نفس الاعمال .

وتخضع الاراضي الزراعية والمنازل والعقارات ، التي يملكها العرب في فلسطين المحتلة ، للحجز أو المصادرة استناداً الى سلسلة من القوانين الجائرة بحقهم سننها الدولة بين أعوام ١٩٤٨ و ١٩٥٣ ، وأباحت بها حرمان المالكين المتضررين من حق التقاضي أمام المحاكم لطلب التعويض . وقد تمت على هذا النحو مصادرة قرى عربية بكاملها وأعطيت لليهود لاقامة المستعمرات الصهيونية عليها .

وشأن الموظفين العرب في الادارة كشأن العمال العرب في منظمات العمل ، لأن معظمهم فيها الاعمال وعدم المشاركة حتى في المكاتب التي تعنى بالشؤون العربية .

ولا يتمتع العرب بحق المواطنة في بلادهم . لأن هذا الحق قد حدد بموجب تشريعات عنصرية موجبة ضدهم . فبينما يحق ، بموجب قانون الجنسية ، لأي يهودي مهاجر الى فلسطين الحصول على الجنسية منذ وصوله اليها ، نجد العرب فيها يخضعون لشروط وقيود تجعلهم أغراباً في وطنهم . هذا بالإضافة الى تهجير العرب بأي شكل وجلب مئات الألوف من الصهاينة وتوطينهم في الاراضي المصادرة أو التي اخليت من أصحابها الشرعيين .

في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٧ ، أصدر رئيس وزراء امراةيل ، ليفي اشكول ، نداءً من أجل الهجرة لاسكان ما أسماه « امراةيل الكبرى » ، قال فيه : « نحن في حاجة الى المزيد من اليهود في امراةيل . ووجودهم ضروري في مناطق التنمية الموجودة في امراةيل منذ زمن بعيد » .

-٦١١-

وأضاف : د ان هذا الوجود ضروري أيضاً في مناطق ليست في حوزتنا الآن ، إلا أنها تحمل أسماء وردت في التوراة . ، وهذا يعني أن أطماع امرائيل ، في احتلال الاراضي ونوطين المهاجرين اليهود ، لا تفت عند حدود فلسطين بل تتجاوزها الى احتلال الاراضي العربية الأخرى وتوسيع الرقعة الامرائيلية الصهيونية على حساب العرب .

من هنا يظهر أن هدف المستعمرين الصهاينة الاول والاخير هو اخلاء فلسطين من سكانها العرب . وربما يتوصلون إلى ما يريدون ، لايتوانون عن القيام بأعمال الاضطهاد والتفرقة والاممال واغلاق راحة العرب الباقين في الارض المحتلة باتخاذ التدابير المجحفة بحقهم من ظلم وفساد وتمييز وأعمال مؤسفة بحيث لا يدرون كيف يمسون وكيف يصبحون ، وابقائهم في حالة قلق دائم على حياتهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وإشاعة روح الضغينة ضدهم ، وإثاء هذا الشعور عند الشعب اليهودي والاصرار عليه في أوساط الأجيال الصاعدة في المدارس والمؤسسات التعليمية العالية ، والخط من شأن الثقافة العربية والوصول بها إلى أدنى الدرجات بمراقبة التعليم في المدارس العربية ، وتشويه التاريخ العربي وتزييف القرآن بحيث يظهر العرب أمة لاشأن لها على مسرح التاريخ ، وليس لها ما تفخر به من قيم حضارية عليا ، وإشاعة روح الخلاف بين طوائف « الأقلية العربية » بمنح الامتيازات الرخيصة لبعضها لتلعب دور التابع المفسد ، بغية تزريق الشعب العربي في فلسطين وأنقلابه على نفسه وانشغاله بهمومه الخاصة عوضاً عن توجيه دفاعه وقواه المتبقية ضد الصهاينة .

وفي الحقيقة إن سياسة الصهاينة في فلسطين مستمدة من تعاليم التوراة والتلمود وتفسير التوراة حسب أهواء الربانة والحاخامات وبالشكل الذي يرضي غرائزهم ونزوعهم إلى عمل المنكر واستعلاءهم على بقية أجناس البشر

- ٦١٢ -

مع كل ما يضاعفها من مبادئ استعمارية جديدة . وهذه السياسة هي سياسة افناء عقائدي لا تعرف وادعاً أو وازعاً ، إلا ما حرم امرائيل على نفسه ، وأنى له أن يحرم .

ونتساءل بعد ما هو موقف « الأقلية العربية » الباقية في فلسطين المحتلة؟ بالرغم من حالة الضعف التي وجدت فيها الاقلية العربية ، وبالرغم من التدابير التعسفية والأعمال الوحشية والمجازر البشرية التي ارتكبها الصهاينة وما زالوا يرتكبونها في كل يوم في فلسطين المحتلة ، فلم يستكن العرب ، ولم تبدأ لهم حركة . ولقد بذلوا وما زالوا يبذلون الارواح في الدفاع عن حياتهم وأرضهم ، ولقد تحملوا وما زالوا يتحملون المشاق والظلم وما زالوا صامدين في وجه المعتدين . ولم تردم سياسة الاضطهاد والتمييز والارهاب والتفكيك والتجوير والترحيل إلا مقاومة وإيماناً ، بالرغم من ضعف امكانياتهم . لأن قلوبهم عامرة بالايان وبحب بلادهم والدفاع عنها مها كانت الأعمال اللاانسانية التي يلاقونها من أعدائهم الصهاينة . فلقد أبوا الاندماج في المجتمع الامرائيلي الذي ردم إلى مستوى أدنى من الحياة ، وحافظوا على عروبهم وثقافتهم العربية التي أراد الصهاينة تشويهها وتزييفها . وجاهدوا وما زالوا يجاهدون في سبيل أرضهم ووطنهم .

وفي هذا الجو المليء بالقسوة والفظاعة والتمييز العنصري والعرقية العنصرية الصهيونية اللاانسانية، انطلق صوت عربي يدعو العرب في فلسطين المحتلة إلى المطالبة بحقوقهم ومكانهم في المجتمع واحترام شعورهم وتقاليدهم، ووالى المستجيبون الاجتماعات احتجاجاً على سياسة الدولة في سلب الاراضي العربية ، وقاموا بظاهرات عداوية ضد سياسة الحكومة الصهيونية معلنين سخطهم على التدابير التي تتخذها بحقهم . ونجلى ذلك على لسان فئة من

-٦١٣-

شباب العرب في الارض المحتلة اتحدوا تحت شعار « العدل والأرض » وعرفوا بـ « جماعة الأرض » . وظهر نشاطهم بنشر صحيفة تحت اسم « الأرض » التي ترمز إلى ارضهم الخالد . وماطلت السلطات الامرائيلية في الرد عليهم . وبعد لأي رفضت طلبهم مدعية باعذار واهية .

ثم قورت « جماعة الأرض » اصدار نشرة أسبوعية تعرض وجهة نظرهم في القضايا الداخلية والسياسية . ولم يكن جواب السلطات الامرائيلية في هذه المرة بأحسن من الأول . وقطعت دابر المطالبة بفرض العقوبات المالية والاقتصادية وتوجيه حملة صحفية اتهمتهم باتهامات باطلة . وساندت الصحافة الامرائيلية في الخارج هذا التدبير لسلامة امرائيل .

وظهرت التصريحات والمقالات والأشعار الوطنية الحماسية التي تدعو العرب في فلسطين إلى الصمود والتمرد والثورة على الظلم والمهزء — بدعون للسلام مع امرائيل والتعايش مع الصهاينة .

ولما لم تجد المطالبة العربية ، لجأ الفدائيون العرب إلى مقابلة العنف بالعنف من داخل الارض المحتلة ومن خارجها . وما ذلك إلا لأنهم عرفوا الا سبيل إلى التفاهم مع حكم العسكرية الصهيونية ، وان الموت أفضل من الحياة التي يحيونها في ظل الاحتلال الصهيوني ، وان الكفاح المسلح أخيراً هو الحل الأمثل لقضيتهم والدفاع عن حياهم . ولذلك طلبوا الموت ليعتثوا من جديد وتعود لهم حياة العزة والكرامة . وما تزال الفدائية العربية توقع بالصهاينة الحسائر بالأرواح والأموال ، ولن تلبس لهم قناة ، ولن يلقوا السلاح إلا وفلسطين محررة من رجس الصهاينة . ولقد كشفت الظروف والأحداث عن نوايا امرائيل العدوانية التي لم تعد بخافية على أحد . وسيأتي يوم ترى فيه امرائيل نفسها منعزلة عن العالم ، وما من مساعد أو ظهير . وللباطل جولة ثم يضمحل . وسيكون شأن « امرائيل »

شأن من سبقها من الغزاة والمعتدين ، الرحيل الرحيل إلى حيث لا رجعة ،
وستبقى أمة العرب حية ولن تبعد .

إن سياسة التمييز العنصري تضع أمام وجدان العالم تحدياً صريحاً
للحرية والمساواة بين الناس ، وتعتبر مصدراً للنزاع الدولي يعرض سلام
العالم للخطر ، لأنها تتجاوز الآن حدود النزاع العقائدي البسيط . وإذا
كان ينظر إليها في الماضي قضية داخلية ، أو تشجب على الصعيد الدولي
والدبلوماسي بصيغ وعبارات أفلاطونية ، فقد تبدلت الظروف في العصر
الحاضر ، لأن الشعوب المضطهدة والمقموعة ، وقد عانت من ظلم الاستعمار
والتمييز الذي ترتب عليه ، لن تسكت بعد أن صحت ووعت نفسها
ومصالحها ، وعرفت أن فارق اللون لا يركز على أي أساس علمي ،
وإنما هو بدعة ابتدعها الاستعمار حجة لتبرير وجوده و « تفوقه »
والدفاع عن مصالحه وعدم الاضرار بهذه المصالح ؛ وإن تقدم الحضارة
صفة مميزة للإنسان الأبيض دون الأسود أو الملون عموماً إنما هو حديث
خرافة ؛ وإن الشعوب الملونة ، وهي القسم الأكبر من الجنس البشري ،
لا يمكن اعتبارها كمية مهمة تعيش على هامش الحياة أو في حالة خضوع
وخنوع وعرضة للفناء . ولقد دحض العلم الحديث للإنسان تخرصات
العنصريين عن « سمو » أو « انحطاط » هذه السلالات أو تلك ،
مؤيداً كل التأييد فكرة وحدة الجنس البشري ، وتساوي الامكانيات
الجسدية والعقلية عند جميع البشر ، بمعزل عن لون بشرتهم .^(١)

« وإذا كانت المساواة في حقوق الإنسان قد كرسست بمناسبة اعلان

(١) راجع : « الصهيونية ايدولوجية الامبريالية » ص ٧ ، تعريب أكرم
الراعي ، دار الفارابي ، بيروت ١٩٧٣ .

استقلال الولايات المتحدة وفي التعديل الخامس عشر لدستور هذا البلد الذي نص على أن حقوق الفرد لا يمكن انتقاصها في أية ولاية ، بسبب العرق أو اللون ، وإذا كانت مبادئ ماثلة تدخل كذلك في دستور أغلبية البلدان واعترف بها رسمياً في المادة الثانية من شرعة حقوق الانسان التي وقعتها الأمم المتحدة ، في العاشر من شهر كانون الأول ١٩٤٨ ، فات الوقائع تدل على أن تمييزاً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً موجهاً ضد السود والمولودين عامة ، يدرقرنه في كثير من البلدان ، وهو يرتكز بصورة رئيسية على مفاهيم عنصرية مغلوطة ^(١) .

لقد ثبنا دو بوا ، المتخصص بعلم الاجتماع والسياسي الأمريكي ، في العام ١٩٢٠ ، عندما قال : « ان الحرب العالمية الأولى ليست بشيء أمام النضال الذي لن يلبث ان يتجند له السود والسمر والصفير لاسترجاع حريتهم ووضع حد للاحتقارات والامتهانات التي يتعرضون لها من العالم الأبيض . » و « ان العالم الأسود لن يذعن لمصيره الحالي إلا الوقت الذي لا يكون بقدوره أن يفعل غير ذلك » ^(٢) . وما هي ذي أفريقية قد أظهرت اجتماعاً نادراً في عملها المشترك سواء في منظمة الوحدة الافريقية أو في منظمة الأمم المتحدة حيث اتخذت اجراءات محسوسة ومشخصة مثل مقاطعة اقتصاد اتحاد جنوبي افريقية . وسيجد هذا الاتجاه من المؤيدات المعنوية والمادية ما يورد المتأدي في الباطل ، كما ستجد الشعوب المناضلة التي تشكو آلام التمييز في قواها الفكرية والمادية النامية والصاعدة ما يجعل سلاح الكبرياء والغرور عند « الانسان الأبيض » مغلولاً أمام حق الانسان في

(١) راجع : « العرقية إزاء العلم » ص ٢٤ ، تعريب انطوان بطرس خوري ، اولسكو ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٥ .

-٦١٦-

الحربة والمساواة . وسيطول الجهاد وتبقى الأرواح ، ولكن الوصول إلى تحقيق الكرامة الانسانية يهون عنده كل خطب وتسهل الصعاب أمامه على كل درب .

ولقد أصبح واضحاً أن التعصب العنصري وما يتبعه من تمييز يعود إلى أسباب اقتصادية أو سياسية أو إلى مركب التفوق أو مركب النقص أو إلى فوارق بيولوجية أو إلى الغريزة الوراثة ، أو إلى هذه الأسباب جميعاً ؛ وإن النظريات والفرضيات العرقية ، التي مجتهد الاذواق ورفضها العلم ، أصبحت حديث خرافة . وإذا تمسك بها دعاة الصهيونية والامبريالية العالمية ، دفاعاً عن مزاعمهم ومنافعهم ، فإن نهضات الشعوب الحديثة المتطلعة إلى المستقبل الأمثل كفيّة بإزالة هذه الحرافات الاستعمارية والتصورات الوهمية . وليس هذا المستقبل عنا ببعيد .

الفصل الثالث عشر

الحياة الايجابية وعدم الانحياز

شريعة السلام المتحدة

ان رجعة الحرب ، بعد أقل من ربع قرن ، والحاسائر الكبرى في الأرواح والأموال ، واشتراك الآباء والأبناء في حربين عالميتين ، دعت المحاربين أنفسهم ، في الحرب العالمية الثانية ، لتوطيد نظام للأمن الجماعي أنجع من نظام عصبة الأمم بعد أن أخفقت في تحقيق السلام العالمي والأمن الدولي ، ولم تستطع حل المشاكل المعروضة عالمياً ، فضلاً عن أنها كانت آلة لخدمة مصالح الدول الاستعمارية الكبرى . ولقد آن الأوان لإنشاء منظمة جديدة وتأسيس نظام للأمن يقوم على قواعد أرسخ وأوسع . وبعد مؤتمرات عديدة أثناء الحرب وبعدها اتفق الثلاثة الكبار ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى ، والصين على أن يدعى مؤتمر للأمم المتحدة في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة ، في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ ، لتحضير ميثاق لهذه المنظمة المزمع انشاؤها ، على أن يضم هذا المؤتمر الدول الموقعة على ميثاق الأمم المتحدة ، الذي هيئت خطوطه الكبرى في مؤتمر دومبرتون او كس ، في ايلول - تشرين الاول ١٩٤٤ ، وفي مؤتمر بالطا ، في ٤ - ١١ شباط ١٩٤٥ ، وجميع البلاد التي أعلنت الحرب على المحور قبل آذار ١٩٤٥ .

- ٦١٨ -

انعقد مؤتمر سان فرانسيسكو من ٢٥ نيسان إلى ٢٥ حزيران ١٩٤٥ ،
ووضع شرعة الأمم المتحدة التي تبين مبادئ المنظمة وأهدافها ثم مختلف
الهيئات التي تتألف منها المنظمة وكيفية سير أعمالها .

لقد كان الهدف الرئيسي لمنظمة الأمم المتحدة « الحفاظ على السلام
والأمن الدولي ، بتدابير جماعية ناجعة ، اذ يجب « صيانة الأجيال الصاعدة
من وباء الحرب التي فرضت على البشرية مرتين ، وفي مدى حياة بشرية ،
آلاماً لا توصف » . وللوصول إلى هذا الهدف يتعهد أعضاء المنظمة ،
الموضوعون على قدم المساواة ، ان يقوموا بالواجبات التي تفرضها الشرعة
عليهم « في تسوية الخلافات الدولية بالطرق السلمية دون المبادرة إلى التهديد
أو استعمال القوة » . ويقدمون للمنظمة أخلص عونهم في كل مرة تحتاج
المنظمة اليهم . وتستطيع ، باعتبارها متأكدة من قوتها ، أن تلزم الدول غير
الأعضاء على العمل حسب مبادئها الخاصة .

ولم يكن السلام هدف الأمم المتحدة الأوحده . لأن موقعي الميثاق
يصرحون بأنهم مصممون أيضاً على اعلان ايمانهم « بحقوق الانسان الأساسية
في الكرامة وقيمة الشخص البشري ، وبمساواة حقوق الرجال والنساء
والأمم الكبرى والصغرى » . وانهم أنصار الحريات الأساسية للجميع
دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين . ويؤكدون حقوق الشعوب
في تقرير مصيرها . وان منظمة الأمم المتحدة لتتجنب « التدخل في قضايا
ترجع بصورة أساسية إلى الصلاحية القومية لدولة من الدول » .

وأخيراً ، ولما كان من الواضح أن الحرية تكون وهمية دون ضمانات
اجتماعية واقتصادية ، فقد عازمت الأمم المتحدة « على تنشيط التقدم
الاجتماعي ، وعلى توفير شروط حياة أفضل في حرية أعظم » . وأفضل

-٦١٩-

وسيلة لذلك هو التعاون الدولي الذي يسمح بحل القضايا الدولية التي هي من نوع اقتصادي واجتماعي وفكري وانساني .

بما سبق فتتضح الأمور التالية :

١ - ان ميثاق الأمم المتحدة مبني على مبدأ أسامي هو مبدأ التعايش السلمي . وفي ديباجة الميثاق نجد « نحن شعوب الأمم المتحدة ... وفي سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار ، وأن نضم قوانا كي نحفظ بالسلم والأمن الدولي ، وأن نكفل ، بقبولنا مبادئ معينة ورسم الخطط اللازمة لها ، ألا نستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة » .

٢ - ان الميثاق يؤكد حقوق الشعوب في تقرير مصيرها ووضع حد للاستعمار والتعكم في مصير الشعوب غير المستقلة لتمكين هذه الشعوب من تحقيق استقلالها .

٣ - ان الميثاق أقر مبدأ « الشمول » وهو أن المنظمة تشمل الانسانية جمعاء ، وان الانتساب اليها مفتوح لجميع الدول على اختلاف أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

٤ - ان المنظمة لم تؤسس لتأمين مصالح قسم من أعضائها على حساب القسم الآخر ، أي ان المنظمة ليست حلفاً سياسياً أو عسكرياً .

٥ - ان الميثاق يحرم الحرب كأداة لفض المنازعات الدولية ، لأن « مقاصد الأمم المتحدة هي حفظ السلم والأمن الدولي . وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأساليب التي تهدد السلم ولازالتها ، وقمع العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم ، وتذرع

-٦٢٠-

بالوسائل السلمية وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الاخلال بالسلم أو لتسويتها .

٦ - ان مجلس الأمن هو الوحيد الذي يتولى مهمة الحفاظ على السلام . ولذلك « يعهد أعضاء تلك الهيئة الى مجلس الأمن بالتبعات الرئيسية في حفظ السلم والأمن الدولي ، ويوافقون على أن يعمل هذا المجلس نائباً عنهم في قيامه بواجباته التي تفرضها عليه هذه التبعات » و « أن يعمل مجلس الأمن ، في أداء هذه الواجبات ، وفقاً لمقاصد الأمم المتحدة ومبادئها » .

وفي الحقيقة ، وجدت البلاد الحديثة الاستقلال في ميثاق الأمم المتحدة صكاً يمكنها الرجوع اليه والتذرع به والاعتماد عليه إذا ما كانت هدفاً لعدوان جديد يهدد أمنها وسلامتها من قبل الدول الاستعمارية الكبرى أو من غيرها من الدول . لأن هذا الميثاق يعتبر مستمسكاً ترد به على القوى المعتدية التي قبلته ووقعت عليه وتعهدت أن تعمل بموجبها ولكنها خالفتها وأرادت استغلال المنظمة الدولية لتحقيق أغراضها . وفي هذه الحالة تجد العالم أمامها كتلة واحدة تدافع عن الدولة الضحية . ولكن وقائع الأمور خيبت الآمال المعقودة على هذا الميثاق لأث الدول الاستعمارية الكبرى والسلطات الاستعمارية كانت أول من خالف نصوصه .

لقد شهد العالم أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها تغير ميزان القوى الدولية ، لأن الدول الكبرى التقليدية لم تعد كبرى بعد ظهور العملاقين الكبيرين : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ولقد كان من حسن الحظ أن تعاون هذين العملاقين كان وثيقاً أثناء الحرب وأدى إلى حمل الدول الأخرى إلى انشاء منظمة الأمم المتحدة التي علقت عليها الشعوب

-٦٢١-

الصغرى والمستضعفة والحديثة الاستقلال آمالاً كبيرة . ولكن بعد أن انتهت الحرب وذهب العدو المشترك ، ظهر التنافس على أشده بين الدولتين العملاقين ، ولا سيما بعد أن شعرت الولايات المتحدة بالتهديد الشيوعي الذي امتد الى قلب أوربه وعلى قسم كبير من آسيا ، وظهرت آثاره بتأليف الأحزاب الشيوعية الوطنية في بلاد العالم كلها بما فيها الولايات المتحدة نفسها ، ولو مرأ . وحاولت أن تحصره وتضع أمامه سداً من الأحلاف العسكرية يحول دون تقدمه وامتداده إلى أكثر مما وصل اليه أو إلى دحره .

المرحوف العسكرية والبحث عن توازن عالمي جديد

وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ولكنها تخففت عن نتائج عميقة الأثر . فقد عاد التنافس بين حلفاء الأمم ، وبخاصة بين الحليقين الكبيرين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وأسدل ستالين الستار الحديدي على تشيكوسلوفاكيا في مساء ضربة براغ ، في ٢٥ شباط ١٩٤٨ ، وبذلك أنهى تفتيت الحلف العظيم الذي رأى النور في ١٩٤١ لرد الخطر النازي - الفاشي الذي كشف زواله عن قوة الدولتين العملاقين اللتين حققتا النصر على الأعداء ، وكشف لهما انتصارهما عن نفسيهما وقواهما الهائلة ، وانتزعها من عزلتها التقليدية وألقى بها أو ألقا بنفسها في كل مكان على سطح الكوكب . ولقد رأت الولايات المتحدة أنها لا تستطيع أن ترى بأم عينها توسع الاتحاد السوفياتي وتتسامح به دون أن يؤان خطراً على أمنها واقتصادها الذي لم تعد قدرته الانتاجية على مستوى البلاد أو القارة الأمريكية فحسب ، بل على مستوى العالم أيضاً . ومن هنا نشأت الحرب الباردة .

الحرب الباردة (١٩٤٧ - ١٩٥٠)

كان الجنرال لوسيوس كلاي^(١) ، القائد الأعلى للجيش الأمريكي في برلين ، يخشى عودة الحروب الساخنة . فقد كتب ، في ٥ آذار ١٩٤٨ ، يقول : « أرى في الموقف السوفياتي تطوراً دقيقاً يعطيني انطباعاً بأن الحرب ستنفجر بفتحة درامية » . وهذا التنبؤ ، الذي ينم عن أعراض الجر المتفجر في أوربه ، في ذلك الحين ، يبدو ، لحسن الحظ ، أنه ضل ضالاً بعيداً ، وذلك للأسباب الآتية :

- ١ - القدرة النارية الاستثنائية التي كانت تملكها الولايات المتحدة دون اعتبار الحصر المطاق للسلاح الذري الذي كانت تحت تصرفها ودام حتى الانفجار النووي السوفياتي الأول في ١٤ تموز ١٩٤٩ .
- ٢ - ضخامة قوة الولايات المتحدة الاقتصادية وثرواتها المالية التي تبلغ ٨٠ ٪ من ذهب ونقد العالم بكامله ، وامكانها عملياً تجهيز جيوشها وجيوش حلفائها دون قيد .

٣ - ارادة واشنطنون في وضع حد نهائي لتوسع الشيوعية الدولية في أوربة الشرقية والوسطى والصين القارية ، وهذا التوسع الذي أخذ يتجه نحو تطويق الأمريكيين سياسياً وستراتيجياً وخنقهم اقتصادياً بمنعهم من الوصول الحر إلى مصادر المواد الأولية والمنافذ الضرورية لتصريف انتاجهم .

ولدره هذا الخطر المزدوج ، أعاد رئيس الولايات المتحدة مذهبه ، « مذهب ترومان ، الذي عرفه أمام الكونغرس ، في ١٢ آذار ١٩٤٧ ، بقوله : « أعتقد بأنه يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب الحرة

(١) لوسيوس كلاي Lucius Clay .

- ٦٢٣ -

التي تقاوم محاولة الاستعباد بأقليات مسلحة ، أو الضغوط الآتية من الخارج .
اعتقد أنه يجب أن تساعد الشعوب الحرة في صنع مصيرها بأيديها الخاصة .
أعتقد بأن مساعدتنا يجب أن تكون بصورة أساسية دعماً اقتصادياً ومالياً
لامندوحة عنه لاستقرارها الاقتصادي وحياة سياسية متحدة ومنسجمة .
وكان يرمي من ذلك إلى منع الشيوعية من التجاوز خارج الحدود التي
بلغتها في ذلك التاريخ . وهذه سياحة « الاحتواء » التي أدت مباشرة
إلى منح مساعدة عسكرية لتركيا وبخاصة إلى اليونان المهددة بالاضطراب
والفوضى وانقلاب الأحوال من قوات الجنرال ماركوس . وبعد قليل
أدت هذه السياسة إلى اعداد « خطة مارشل » في مساعدة أوروبا التي
أعلن عنها أمين الدولة ، مارشل ، في ذلك الحين ، في خطابه الذي ألقاه
في جامعة هارفرد ، في ٥ حزيران ١٩٤٧ ، وأبان فيه بوضوح الغاية
المزدوجة الاقتصادية والسياسية : الكفاح « ... ضد الجوع والفقر واليأس
والاضطراب . وان هدفه يجب أن يكون قيام نهضة اقتصاد نشيط في
العالم ، بغية خلق الظروف السياسية والاجتماعية التي يمكن أن توجد فيها
نظم حرة ... »

ومن قراءة هذه الجملة الأخيرة يفهم جيداً ان قبول
تشيكوسلوفاكيا هذه المساعدة كان حقاً في أصل ضربة براغ . لأن
الاتحاد السوفياتي لا يمكن ، في الواقع ، أن يقبل بأن تتلقى الدول
التابعة له في شرقي أوروبا ، ومثلها فنلندا ، مساعدة تضطرها للمشاركة
بنفس الصفة التي كانت عليها البلاد الستة عشر الأخرى الأعضاء في المنظمة
الاوروبية للتعاون الاقتصادي التي فرضت دستورها ، في ١٦ نيسان
١٩٤٨ ، في الواقع ، الولايات المتحدة ؛ إذ كانت توغب في انسجام طلبات
اعتادات البلاد المستفيدة من المساعدة للامراع بتوطيد قوتها الاقتصادية

- ٦٢٤ -

وبالتالي مساعدتها بسرعة على استعادة استقرارها السيامي وإيقاف التوسعية السوفياتية بشكل أفضل ، كما يفهم ضمناً من ديباجة الاتفاق الذي يوضح نسه بأن يسهم في الحفاظ على السلام ويجعل من الممكن استعمال العون الأمريكي نافذاً وناجعا ... ،

ولقد أدركت حكومة موسكو الخطر الذي تسوقه هذه الحطة أمام توسعها وتحسنت بخاصة بالعون الذي خولته واشنطن لألمانيا الغربية ، اعتباراً من ١٩٤٨ ، وأدى بالتالي إلى رجعة دولة ألمانية ، الجمهورية الاتحادية ، في ٨ أيار ١٩٤٩ . وأخيراً قلقت من المساعدة التي أفادت بها الولايات المتحدة اليابان في نطاق حقوقي يختلف عن نطاق خطة مارشل . ولذا ردّت ، أولاً ، بعزمها ، في ٥ تشرين الأول ١٩٤٧ ، على تأسيس مكتب استعلامات ، الكومنفورم ، لتأمين الارتباط بين الأحزاب الشيوعية الاوربية الأساسية ، وبصورة غير مباشرة ، لمساندة الاضراب الثوري الذي أثارته هذه الأحزاب في فرنسا وإيطاليا في آخر هذه السنة نفسها . ثم انتقلت إلى الهجوم وبدأت باختبار قوة مع الولايات المتحدة : وذلك بحصار برلين الذي دام قرابة عام ، من ٢٤ حزيران ١٩٤٨ إلى ١٢ أيار ١٩٤٩ . وأحبط الانغلو - ساكسون هذه العملية السوفياتية بتنظيم جسر جوي ، في هذه الفترة القصيرة من الزمن ، يؤمن لبرلين ٢٧٧.٠٠٠ طيران ونقل مايقارب ٢.٥٠٠.٠٠٠ طن من السلع الغذائية ، والمحروقات والمنتجات الأخرى . وكان لسياسة موسكو هذه نتيجتان :
إيجابيتان :

أولاً : في الشرق ، سارعت باقامة ديموقراطية شعبية جديدة ، الجمهورية الديموقراطية الألمانية (المسماة بانكو)^(١) ، في ٧ تشرين الاول ١٩٤٩ .

(١) فانكو Pankow .

-٦٢٥-

ثانياً : في الغرب ، سهلت توقيع ميثاق بروكسل الدفاعي بين فرنسا والمملكة المتحدة والبنيلوكس ، في ١٧ آذار ١٩٤٨ ، وبخاصة توقيع معاهدة شمالي الأطلسي ، في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، التي أكملت بعد قليل بإنشاء منظمة معاهدة شمالي الأطلسي التي شكلت قوة دفاعية أوروبية مخصصة لتأمين «... حفظ السلام والأمن...» ، وأصبح تجهيز هذا الحلف «مكناً بمنح مساعدة عسكرية أمريكية» ، بموجب أحكام قانون الدفاع المشترك المؤرخ ، في ٦ تشرين الأول ١٩٤٩ ، الذي أحل محل مساعدة مارشل الاقتصادية بعد أن قاربت الانتهاء ، وبمبلغ أولي قدره مليار وثلاثمائة مليون دولار . وقد أنهت هذه المعاهدة نفوذ أوربه الغربية الاقتصادي ، يجعلها ، على القارة ، قادرة على تجميد توسع الشيوعية التي تحولت نحو آسيا حيث سادت قوات ماوتسه - تونغ الصين بكاملها في ١٩٤٩ . وأسهمت بالمساندة التي حولتها للفت - منه في تحويل الحرب الاستعمارية ، التي قامت بها فرنسا ، منذ آخر ١٩٤٦ ، ضد جيوش هوشي منه ، إلى نضال ضد الشيوعية الدولية . كما أعطت حرب كوريا بعداً جديداً لهذا النضال .

الحرب الساخنة والونفراج (١٩٥٠ - ١٩٥٦)

لقد برهنت الولايات المتحدة والأمم المتحدة بتدخلها في حرب كوريا بعد ثلاثة أيام على النزاع ، الذي بدأ على خط العرض ٣٨ ° ، في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، بدافع من الرئيس ترومان ، على أنها عازمان على المخاطرة ، عند الحاجة ، بتفجير عالمي ، على أن تتساحا بإعادة التشكيك في توازن القوى الموجودة في آسيا . وتبيننا ، بهذه المناسبة ، موقفاً قضايا عسراً (٥٠)

-٦٢٦-

مشاهداً للموقف الذي وقفتاه في أوربه حين حصار برلين . وبالرغم من أن الصين الشعبية تدخلت عسكرياً في هذا النزاع ضد جيوش الجنرال ماك آرثر ، ابتداءً من ٢ تشرين الثاني ١٩٥٠ ، فقد تجنب الخطر أخيراً ، واكتفت اتفاقات هدنة بانمونجوم ، في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، باستقرار الحدود التي تفصل كوريا العالم الرأسمالي (الجنوبية) عن كوريا العالم الاشتراكي (الشمالية) اللتين وضعنا تحت حماية واشنطن وموسكو .

وبعد سنة تبنى مؤتمر جوينيف -١٦ من النموذج الكوري لحل قضية فيت - نام التي قسمت في مستوى خط العرض ١٧° إلى دولتين مستقلتين نظرياً ، في ٢١ تموز ١٩٥٤ . وأكدت الولايات المتحدة في هذا المؤتمر بأنها تخلت نهائياً عن تحريك سياسة دهر الشيوعية الدولية لتطبيق سياسة احتواء ، أكثر حكمة وتعقلاً ، بعد أن دعاها لهذه السياسة وصول الاتحاد السوفياتي لرتبة الدولة الذرية ، في ١٤ تموز ١٩٤٩ ، ثم الدولة الحزورية النووية ، في ١٢ آب ١٩٥٣ .

ولكن أمين دولة الرئيس آيزنهاور ، الحقوقي فوستر دالس ، عزم على المضي قدماً في منظور احتواء العالم الشيوعي فيما وراء الحدود القصوى التي بلغها في ٢١ تموز ١٩٥٤ في جوينيف ، وانتهى بوضع نظام معقد للأحلاف العسكرية أكمل به سياسة التطويق . وهكذا تعززت في الغرب قوات منظمة حلف شمالي الأطلسي منذ ١٩٥٢ بقوات اليونان وبقوات تركيا ، بل ومنذ ١٩٥٣ بقوات إسبانيا ، بموجب اتفاقات ثنائية إسبانية-أمريكية ، وأدخلت فوق ذلك ، في ١٩٥٥ ، جيش ألمانيا الاتحادية الجديد .

ووقف فوستر دالس الاسامي من جهوده على الدفاع عن آسيا بخاصة . ولا شك في أن آسيا قامت بميثاق د الأنزوس^(١) ، الذي ضم ، منذ

(١) الأنزوس A.N.Z.U.S .

١٩٥١ ، أوستاليا وزيلاندة الجديدة والولايات المتحدة للدفاع عن جنوبي المحيط الهادئ ، على حين أن ميثاق الأمن الياباني - الأمريكي ، الموقع في ٨ ايلول ١٩٥١ ، والذي تم توقيعه بعد أربع وعشرين ساعة على توقيع معاهدة سان فرانسيسكو ، يغطي شمالي المحيط الهادئ . وأكمل هذا العمل بإبرام ميثاق أمن آخرين : أحدهما مع كوريا الجنوبية ، في ٩ آب ١٩٥٣ ، والآخر مع تايوان (فورموزا) ، في ٢ كانون الاول ١٩٥٤ . وعدا ذلك أراد فوستر دالس تنسيق عمل حلفائه في الشرق الاقصى ، ووقع مع فرنسا وبريطانيا العظمى والفيليبين وتايلاند والباكستان وأستراليا وزيلاندة الجديدة ميثاق ماليزيا الشهير المؤرخ في ٨ ايلول ١٩٥٤ الذي ألف منظمة معاهدة جنوب - شرقي آسيا (أوتاسيه ^(١)) ويعتبر هذا الحلف مثيلاً آسيوياً لحلف الاطلسي . وتأمين انضمام قوى المنظمات بقوة حلف بغداد الذي أبرم ، في ٢٤ شباط ١٩٥٥ ، بين العراق وتركيا ، ثم انضمت اليهما ايران والباكستان والمملكة المتحدة التي تخلت في الواقع عن توجيهه ، منذ حزيران ١٩٥٧ ، إلى حكومة واشنطن .

على أن الولايات المتحدة في عهد كينيدي وجونسون ، كما في عهد آيزنهاور ، بانضمامها إلى حكومة موسكو لتمنع فرنسا وبريطانيا العظمى وامرائيل من انهاء العدوان الثلاثي على مصر بنجاح ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ؛ وبإزالتها فرقاً بحرية في لبنان عندما تهددت سلامته ، كما تدعي ، في أعقاب انقلاب عبد الكريم قاسم ، في ١٤ تموز ١٩٥٨ ، الذي أفاد من حساد الشيوعيين العراقيين ، ان لم يكن من دعمهم ؛ وبعدم ترددها بالمخاطرة ، في تشرين الاول ١٩٦٢ ، بحرب نووية لاجبار الاتحاد السوفياتي

(١) أوتاسيه O.T.A.S.E .

على تهديم قواعد الصواريخ التي أقامها في كوبا ؛ وبتسليحها في الوقت نفسه القوات الهندية المكافئة بالحيولة دون الغزو الصيني الذي امتد في تشرين الثاني عبر منطقة وكالة الحدود الشمالية الشرقية (N. E. F. A) (١) نحو كالكرتا ؛ وبتدخلها أخيراً ، ابتداءً من ١٩٦٣ ، بشكل كثيف في فيت - نام لتحول دون اقامة نظام شيوعي في سايجون ، تكون قد برهنت على ارادتها بشكل لا يدع مجالاً للشك في تقسيم العالم كما تعين في الواقع في الباطا في ١٩٤٥ وفي جوينف ١٩٥٤ .

وكان تحرك الاتحاد السوفياتي ، في عهد خروتشوف وكوسيجين ، كما في عهد ستالين ، نفس الارادة . ولذلك عارض المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي ومنظمة حلف شمالي الاطلسي بـ « الكوميكون أو مجلس المعونة الاقتصادية المتبادلة » و « بمنظمة حلف وادسو العسكرية » الذين ضما الديوقراطيات الشعبية في أوربة الشرقية تحت سلطته منذ ١٩٤٨ ومنذ ١٩٥٥ . كما عارض بخاصة ، بالمفاوضة في بولونيا ، وبالقوة في هونغاريا ، تحرير النظام السيامي لهذه الديوقراطيات الشعبية ، في تشرين الاول - تشرين الثاني ١٩٥٦ ، بعد أن سهل هذا التحرير ، على ما يبدو ، حل الكومنفورم ، في ١٧ نيسان المنصرم . وقد برهن السوفياتيون بذلك على أنهم يرفضون أيضاً التشكيك لغير صالحهم في تقسيم العالم القائم والموطد من قبل .

ان هذا التبلور في المواقع الارضية التي تحتلها البلاد الشيوعية والبلاد الرأسمالية ، يعتمد في الواقع على توازن الارهاب ، ومن غير شك ، ابتداءً من ١٩٥٨ ، على الحرف العام الذي شعرت به واشنطن وموسكو حيال بكين التي رغبت ، لحسابها الخاص ، باستئناف سياسة توسع الشيوعية

(١) N. E. F. A. أي : North East Frontier Agency .

الثورية . وقد انتهى هذا التبلور ، بصورة معاكسة ، بأن احل الانفراج
الامريكي - السوفيياتي محل « الحرب الباردة » التي دشنت في ١٩٤٧ .
وهذا الانفراج هو « التعايش السلمي » الشهير الذي أرجع الى الوراء ، ولو
وقتاً على الاقل ، ظل الحلم النووي المروع الذي خيم على العالم منذ ١٩٤٥ .

مبدأ آيزنهاور

ان تقلص النفوذ الفرنسي والبريطاني بعد العدوان الثلاثي على مصر ،
في ١٩٥٦ ، وانتفاضة الشعب العربي فيها الولايات المتحدة الى وجود « فراغ »
في منطقة الشرق الاوسط ، فرأت أن تبادر وتلأ بنفسها هذا الفراغ قبل
أن يسبقها الاتحاد السوفيياتي اليه . وطلعت ، في ٥ كانون الثاني ١٩٥٧
بـ « مبدأ آيزنهاور » الذي يضمن تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية
مشروطة لدول الشرق الاوسط وبسماع الرئيس الامريكي بالتدخل عسكرياً ،
عند « مقتضى الضرورة » ، في هذه المنطقة دون الرجوع إلى الكونغرس ،
متجاهلاً ارادة الشعوب التي تسكنها وتطلعاتها الحديثة ، بعد أن استقل
معظمها ، وأخذت تبني نفسها دوغماً حاجه إلى وصي أو رقيب . وما من
شك في أن مبدأ آيزنهاور كان تغطية لأطماع الولايات المتحدة في المنطقة
والافادة منها اقتصادياً واستراتيجياً ورغبة منها في حماية امرائيل ، عدا
عن أن هذا المبدأ يضم في تضاعفه أخطاراً كثيرة أهمها اللجوء إلى القوة
حسب تقديرات مقتضيات « الضرورة » ، وبذلك يخالف ميثاق الأمم
المتحدة نصاً وروحاً .

ان هذه الاحلاف التي أثبتنا على ذكرها ، وان نظاهر صانعوها بأنها
أبرمت في سبيل الدفاع عن النفس بطريقة جماعية ، كانت في سبيل
السيطرة والنفوذ والتوسع والهيمنة . وهي بهذا تؤلف خطراً على السلام
العالمي والأمن الدولي ، وبخاصة على الدول التي استقلت حديثاً وتخلصت

من اغلال الاستعمار ، وليس من مصلحتها الانتماء إلى هذه الاحلاف أو تلك ، لأن هذا الانتماء يفقدها حريتها وشخصيتها المستقلة ويجعلها تلعب دور التابع المحير للدول العملاقة المجزأة بأسباب العلم والتكنولوجيا الحديثة والامكانيات الضخمة ؛ ولأن الحرب الباردة إذا ما انقلبت إلى حرب ساخنة ستكون حرباً ذرية لا تقي ولا تذر . وان تشكل الاحلاف يقوم على صراع هظيم . وما شئت الدول المتخلفة أو النامية أو دول العالم الثالث المستقلة التي لا مجال للمقارنة بينها وبين الدول الكبرى المتقدمة في هذا المعترك الكبير على مستوى الجبابرة ؟

لقد أدركت هذه الدول الحديثة الاستقلال حقيقة الخطر الذي يكمن وراء هذه الاحلاف ويمكن أن يدامها ويدام العالم معها ، فحاولت جدها أن تتمسك بميثاق الأمم المتحدة وان تنطلق منه دوماً وتجعله موجهاً لسلوكها وتعمل بموجب أحكامه ، وان يكون لها موقفها الخاص حيال الاحداث والاحلاف ، وان تسلك سياسة فطينة وحكيمة رائدها المصلحة القومية والعمل على احلال السلام والوثام محل الحرب والخصام ، لابعاد شبح الحرب وبذل الجهد لخير أبنائها وخير البشرية جمعاء . هذه السياسة هي سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز .

الحياد الايجابي

الحياد في اللغة . - الحياد في اللغة من حاد بمعنى مال أو انحرف أو ابتعد : كأن يكون هنالك طريق مرسوم وحاد عنه أي انحرف . ونقول : حاد عن جادة الصواب أي انحرف عنها ؛ أو ان هنالك خطأ معيناً وحاد عنه ولم يسلكه كما سلكه غيره . وفي هذه الحالة يكون الحياد ، من حاد ، قد رسم طريقه بنفسه ، ووقف عنده ، ولم ينحرف عنه .

-٦٣١-

وفي هذا الاتجاه يتفق المعنى العربي مع المعنى اللاتيني « نوتر »^(١) ، أي لا هذا ولا ذاك أو لا مع هذا أو ذاك .

الحياة القانوني . - ومن وجهة النظر الحقوقية ؛ وجهة القانون الدولي ، يعرف الحياة بأنه الموقف الذي تتخذه دولة ما وتبقى بموجبها خارجة عن نطاق حرب بين دولتين أو فريقين من الدول . وهذا يعني أن الدولة ، التي التزمت الحياة ، تبقى محافظة على العلاقات السلمية مع جميع المحاربين دون تمييز . واتخاذ موقف الحياة يرجع إلى سببين :

١ - تنافس الفريقين المتحاربين وحرص كل منهما على عدم اعطاء الفرصة لفريق ثالث لاتحالف العسكري مع الخصم .

٢ - رغبة الفريق الثالث غير المحارب باستمرار علاقاته السلمية مع كل من الفريقين المتحاربين ، والافادة من هذا الموقف الذي عليه عليه مصالحه الذاتية ، كأن تكون مثلاً في تعاطي التجارة مع العدوين^(٢) .

الحياة القانوني والعزلة . - وإذا كانت هذه حالة الحياة القانوني القائم على السلبية ، فهناك سلبية أكبر وأوسع وفيها الكثير من عدم المبالاة والانانية والطمع والافادة من بلاء الآخرين . وهذه السلبية الواسعة هي مبدأ العزلة السياسية الذي يجعل صلة الدولة بالمجموعة الدولية شبه منقطعة فلا تتأثر بالأحداث العالمية ، كالعزلة السياسية التي سارت عليها الولايات المتحدة التي أخذت بذهب الرئيس جورج واشنطن منذ عام

(١) نوتر Neuter .

(٢) راجع تقرير الوفد السوري في « الحياة الإيجائي » الذي أعده الدكتور صلاح الدين الطرزي لمؤتمر الحقوقيين الآسيويين الأفريقيين ، دمشق ٧ - ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ . وقد طبعت أعمال المؤتمر بإشراف رقابة المحامين في دمشق .

١٧٩٦ ، في خطاب وداعه إلى الشعب الأمريكي عند انتهاء مدة رئاسته ، وظلت عليها حتى الحرب العالمية الأولى وكسرت نطاق العزلة وأخذ تدخلها بالتزايد منذ ذلك الحين في قضايا العالم الى أن وصل إلى ماوصل اليه اليوم .

ومثل هذه العزلة عزلة بريطانيا العظمى ، العزلة الالامعة ، التي اتبعتها منهمكة في قضايا التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومتناسية أو مهملة قضايا القضايا القارة الاوربية إلا قليلاً .

الحياة الدائم . - ولقد أقر مبدأ الحياة للمرة الأولى في مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حيث تم الاعتراف بحياة سويسرا الدائم ، وفي معاهدة لندن التي اعترفت بحياة بلجيكا الدائم . كما أقر مبدأ الحياة في مؤتمري لاهاي الاول في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧ دوما تغيير أو تبديل أو اضافة شيء جديد .

وحالة الحياة الدائم تكون إذا دخلت دولة ما كبلجيكا أو سويسرا في معاهدة مع دول أخرى تضمن لها بالاعتدي عليها وأن تضمن سلامتها واستقلالها على أن تتعهد تلك الدولة بالاعتدي في حرب إلا في حالة الدفاع عن النفس ضد عدوان مسلح ، والا تأخذ على عاتقها تعهدات دولية تؤدي بها إلى الحرب ، أو أن تشترك في أحلاف عسكرية أو أي التزام دولي يجبرها إلى الحرب . ومثل هذا الحياة الدائم يكون للحفاظ على التوازن السيامي للدولة ، أو لجعل الدولة المحايدة دولة حاضرة تفصل بين دولتين قويتين ، أو لأن المصالح الدولية تقتضي هذا الحياة الدائم للدولة المحايدة .

الحياة الايجابي . - الحياة القانوني ، كما رأينا ، حالة قانونية تفترض نشوب الحرب فعلاً لتبقى الدولة المحايدة بعيدة عنها . وهذا الحياة القانوني

-٦٣٣-

هو الحياد التقليدي المتعارف عليه دولياً ، لاشئ منوط باشتعال الحرب . أما بعد أن أحدثت منظمة الأمم المتحدة وأقر ميثاقها ، فقد أصبح الحياد ضرورياً ولازماً في حالة السلام وفرضاً على الدول وبخاصة على الدول الحديثة الاستقلال التي تريد الحفاظ على استقلالها وتأمين رفاه وتقدم شعوبها والاسهام في خدمة البشرية . لأن الاشتراك في الأحلاف السياسية والعسكرية يعرضها لكثير من المخاطر ، كما يجعلها مخالفة لأحكام ميثاق الأمم المتحدة الذي ارتضته وقبلته وتحتمي به . ان هذا الحياد المطبق في حالة السلام والحرب الباردة التي تخفي وراءها أخطاراً كثيرة يسمى « الحياد الايجابي » .

في ٢٧ شباط ١٩٥٧ صدر بلاغ اقطاب العرب ووردت فيه هذه العبارة : « ان الدول العربية المجتمعة ، وقد ازدادت قوة بوعي شعوبها ، وإيماناً بسلامة أهدافها ، ورسوخ فـكرها ، لتؤكد ما سبق أن أعلنته عن عزمها على تجنب الأمة العربية الحرب الباردة والبعدها عن منازعاتها ، والتزامها سياسة « الحياد الايجابي » ، محافظة بذلك على مصالحها القومية . وكذلك فان الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الأمة العربية على هدي أمنها الحقيقي وخارج نطاق الأحلاف العسكرية » .

وفي اليوم نفسه تحدث الرئيس شكري القوتلي عن سياسة الحياد الايجابي بقوله : « وقد كان من حسن التوفيق أن اجتمع القاهرة قد أكد « الحياد الايجابي » بوصفه أسلم أساس للسياسة العربية التي تهدف إلى تجنب الأمة العربية النزاع الغاشم بين المعسكرين الكبيرين . وانه لمها يدعو إلى التفاؤل أن مبادئ السياسة الحيادية لا تقتصر على نطاق القومية العربية بل تمتد إلى شعوب أخرى لا تمت للعربية بصلة ، اذ أن هناك

-٦٣٤-

مئات من الملايين من شعوب العالم يؤمنون بسياسة الحياد الايجابي^(١) ،
ودرج اصطلاح الحياد الايجابي على نطاق واسع .

نشأت فكرة الحياد الايجابي بعد تشكيل الأحلاف العسكرية ونشوء
الحرب الباردة ، وانقسام العالم إلى كتلتين : المعسكر الرأسمالي بزعامة
الولايات المتحدة ، والمعسكر الاشتراكي برئاسة الاتحاد السوفياتي . وكان
رد البلاد التي خرجت حديثاً من قيود الاستعمار عليها مستلهماً من ميثاق
الأمم المتحدة . فمن ذلك أن رئيس وزراء الهند البانديت نهرو دعم
فكرة الحياد بالمبادئ الخمسة « البانش شيل »^(٢) التي تبناها ونص عليها للمرة
الأولى في الاتفاق الصيني - الهندي الموقع في ٢٩ نيسان ١٩٥٤ ، وهي كما يلي :

١ - الاحترام المتبادل لسلامة الاقليم والسيادة .

٢ - عدم الاعتداء .

٣ - عدم التدخل في الشؤون الداخلية .

٤ - المساواة وتبادل المنفعة .

٥ - التعايش السلمي .

ثم تبني مؤتمر باندونغ ، من ١٨ إلى ٢٤ نيسان ١٩٥٥ ، هذه
المبادئ الخمسة وأدخلها في قراراته العشرة التالية :

١ - احترام حقوق الانسان الأساسية واغراض ومبادئ ميثاق
الأمم المتحدة .

٢ - احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها .

(١) راجع : محمد منير العصرة ، « سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز »

ص ٩٣ - ٩٤ . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) پانش شيل Panch Sheel .

-٦٣٥-

٣ - الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس وبين جميع الأمم
كبيرةا وصغيرةا .

٤ - الامتناع عن أي تدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر .

٥ - احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها فردياً أو جماعياً
وفقاً لميثاق الأمم المتحدة .

٦ - الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية لحدمة المصالح الذاتية
لأي دولة من الدول الكبرى ، وامتناع أي بلد عن الضغط على غيره
من البلاد .

٧ - تجنب الأعمال أو التهديدات العدوانية أو استخدام العنف ضد
السلامة الإقليمية أو الاستقلال السيامي لأي بلد من البلاد .

٨ - تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية مثل التفاوض
أو التوفيق أو التحكيم أو التسوية القضائية ... الخ .

٩ - تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل .

١٠ - احترام العدالة والالتزامات الدولية .

وما زالت هذه المبادئ تخرج على السنة السياميين في جميع بيانات
دول العالم الثالث التي تريد أن تكون لها سياسة خارجية مستقلة .

وفي الحقيقة ان التجارب المريرة ، التي عانتها البشرية من الحربين العالميتين
والآلام المادية والمعنوية التي تحملتها والحاسائر التي تجشمتها ، جعلت شعوب
العالم الثالث ، مع من شاركها في رأيها وسياستها السلمية ، تعتقد بان الحرب
إذا ما انفجرت واشتعل اوارها فان لهيها لا يقتصر على الدول المتعاربة
فحسب ، بل يمتد إلى الدول المحايدة أيضاً مع جميع النتائج التي

تنجم عن وقوع الحرب . فقد خرقت ألمانيا حياد بلجيكا مرتين ، ولم تحترم هذا الحياد ، وجعلت من المعاهدة قصاصة ورق . ولم ينفع الدول المحايدة حيادها وبقاؤها سلبية . وهذا ما حمل الدول المحبة للسلام ، أمام تشكل الأحلاف الكبرى ، على أن تلزم جانب الحياد ، والا تقف من الأحداث موقف المتفرج ، بل ان تقوم بما يليه عليها وجدانها الانساني وواجبها كدولة حرة مستقلة عضو في المجموعة الدولية للحيولة دون وقوع الحرب ، وتجنب العالم لظاها ، وان تسعى السعي الحثيث في تقريب وجهات النظر في القضايا المختلف عليها بين الأطراف المتنازعة لدفع شر أعظم ؛ وأن تعمل جاهدة لوقف الحرب ، اذا ماوقعت الواقعة ، وتحقيق السلام . وهذا هو الجوهر الحقيقي لسياسة الحياد الايجابي . لأن الحياد في هذه الحال لم يمنع الدول المحايدة من أن تكون « متفاعلة » مع الأحداث وأن تقوم بالعمل الايجابي البناء ، مع بقاء بعيدة عن الحرب وساعية إلى السلام .

وهكذا نرى أن سياسة الحياد الايجابي تقوم على ثلاثة عناصر :

١ - عنصر الحياد، أي عدم الانحياز للأطراف أو الكتل المتنازعة في السلم وفي الحرب .

٢ - عنصر الايجابية ، وهو العمل على تخفيف شدة التوتر الدولي لدفع الحرب للحفاظ على السلام أو لوقف الحرب وحقق الدماء وعودة السلام .

٣ - عنصر السلام، وهو الهدف المنشود من سياسة الحياد الايجابي .

وهذه السياسة التي تتوخى أولاً وأخيراً المصاحبة القومية بوضع أسس السياسة الخارجية وتفاصيلها ، وخير الانسانية في اقرار التعاون الاقتصادي والثقافي ، وتأمين السلام العالمي بعدم الاشتراك في الأحلاف العسكرية وحل

المنازعات الدولية بالطرق السلمية وتكافح الاستعمار وتسعى إلى تحرير الشعوب للخلاص منه لأن بقاءه يهدد السلام ؛ وباختصار ، ان هذه السياسة ، التي تقوم على الاستقلال في تطبيق أحكام ميثاق الأمم المتحدة بما يتفق وسير الانسانية نحو التقدم ، لا تكون مجدية إلا إذا تعاونت الدول التي تؤمن بها وتطبقها وساند بعضها بعضاً في حل قضاياها وحماية نفسها من أطماع الطامعين في بلادها وخيرات أرضها وخراب اقتصادها واعاقه تقدمها .

وفيما يلي مقررات مؤتمر الحقوقين الآسيويين - الافريقيين في دمشق ، من ٧ إلى ١٠ تشرين الثاني ١٩٥٧ ، في تأييد الحياض الايجابية :

١ - ان الحياض الايجابية ، الذي يعني عدم الانحياز نهائياً إلى أي كتلة من الكتل المتصارعة في العالم ، هو مبدأ قانوني من مبادئ الحقوق الدولية العامة الجديدة المتطورة ، وهو ينسجم تماماً مع روح ميثاق الأمم المتحدة وحقيقة أهدافه .

٢ - ان الحياض الايجابية يدعم السلام العالمي ويخفف من حدة التوتر الدولي ، لأن الدول التي تأخذ به تبتذ الأتحاف والقواعد العسكرية الأجنبية ، وتسعى ، على العكس ، إلى احلال الوئام بين الدول المتصارعة ، كما أثبتت ذلك فعلاً الاحداث الدولية في أيامنا الحاضرة .

٣ - ان الحياض الايجابية تعبير صادق عن حرية الدولة وكرامتها وحققها المطلق في التحرر من السيطرة والنفوذ والتدخل الاجنبي أيأ كان مصدره ، وفي اتخاذ موقف العدالة الحقة في حال الصراع بين الدول .

٤ - ان الحياض الايجابية لا يتعارض أبداً مع واجب كل دولة في مساعدة الدول والشعوب المستضعفة للتخلص من نير الاستعمار وفي ايصالها الى ممارسة حقها في تقرير المصير .

-٦٣٨-

هـ - ان الحياء الايجابي ينطوي على التعايش السلمي ، فالدولة الآخذة به لا تكن أي عداة مقصود لاي شعب من الشعوب المسالمة ، وانما يحقق هذا المبدأ التعاون الاقتصادي والثقافي غير المشروطين بقيود تحد استقلال الدول وسيادتها ، ما دام هذا التعاون في سبيل تقدم الانسانية وازدهار الشعوب ونوطيد السلام في العالم .

وبناء على هذه المبادئ :

فان المؤتمر يدعم سياسة الحياء الايجابي ويناشد جميع الشعوب والدول في العالم احترام هذا المبدأ .

عدم الانحياز

الانحياز في اللغة . - تقول حاز الشيء بمعنى ضمه وجمعه . والانحياز من انحاز فعل المطاوعة بمعنى مال . وتقول انحاز عنه أي عدل ، وانحاز اليه : مال . وعدم الانحياز يعني العدول وعدم الانضمام .

الانحياز في المصطلح السيامي . - والانحياز في المصطلح السيامي هو الانتماء والانضمام والمشاركة . وعدم الانحياز في المصطلح السيامي الدارج مظهر من مظاهر الحياء الايجابي . ولقد رأينا أن الحياء الايجابي يقوم على « التفاعل » مع الاحداث العالمية والسعي الحثيث لتحقيق السلام دون انحياز إلى أي من الكتلتين الكبيرتين المتصارعتين . ومفهومه في هذا المعنى ايجابي وحركي ، بينما يقوم عدم الانحياز على الامتناع عن الانضمام الى أي الكتلتين ومفهومه في هذا الاتجاه سكوني وسلمي .

والحياء الايجابي بالرغم من أنه في أساسه يقوم على عدم الانتماء الى أي من القوى المتصارعة ، إلا أن منطلقه ايجابي ويتسع لمشاكل العالم

السياسة والقضايا الدولية الكبرى كتحرير الشعوب من الاستعمار والعمل على تحقيق تقدمها وازدهارها ورفاهها . أما عدم الانحياز فنطلقه سلمي ويقتصر على مناطق الصراع والحرب الباردة بين الكتلتين وعدم الاشتراك في الاحلاف العسكرية ومعاهدات الدفاع المشترك وكل مظاهر التنافس العظيم بين العملاقين .

نستنتج من هنا أن الحياد الايجابي أو عدم الانحياز خطة سياسية تريد كل منها تحقيق غاية واحدة مشتركة بينهما . ولكن الحياد الايجابي يتضمن مفهومين :

١ - مفهوم قانوني يرتب على الدولة التي تأخذ به حقوقاً وواجبات في المجتمع الدولي .

٢ - مفهوم سيامي يؤدي إلى هذا الموقف القانوني الذي تحدده قواعد القانون الدولي العام . وهذا يعني أن الحياد الايجابي ينتهي أخيراً الى عدم الانحياز لأن الحياد يقتضي عدم الانحياز .

أما عدم الانحياز فهو مفهوم سيامي تأخذ به الدولة بارادتها الحرة وبحقها في سلوك السياسة التي تراها مناسبة لمصلحتها القومية في علاقاتها مع الدول الاخرى . وهذا يعني أن عدم الانحياز ليس له مفهوم قانوني ولا يخول الدولة حقوقاً معينة أو يفرض عليها واجبات خاصة الا التزام موقف الحياد الذي تقفه الدولة المحايدة حال نشوب الحرب . ولذا فآثره لا يظهر إلا بنشوب الحرب ، بينما يظهر أثر الحياد الايجابي في السلم ، في الحرب الباردة ، وفي الحرب الساخنة .

وإذا صرف النظر عن هذه الفروق الدقيقة فإن الحياد الايجابي وعدم الانحياز يرميان إلى هدف واحد وهو تحقيق السلام ، ويتم أحدهما

الآخر ، لان عدم الانحياز مظهر من مظاهر الحياد الايجابي ، ولا يمكن أن يتصور حياد وانحياز لإحدى الكتلتين ، لأن الانحياز في هذه الحالة يفقد الحياد معناه ويجول دون تحقيق الغرض المراد من سياسة الحياد الايجابي وهو الوقوف في حالة الحرب موقف الحياد القانوني الذي ينتهي اليه الحياد الايجابي وعدم الانحياز .

سياسة عدم الانحياز . - عندما انتهت الحرب العالمية الثانية وأحدثت منظمة الأمم المتحدة ، وظهرت الدولتان الكبريان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، تعاوي احدهما الأخرى مع الدول التابعة التي تدور في فلكها ، وأرادت كل منهما السيطرة على بلاد آسيا وافريقية الواسعة التي كانت تناضل لكسر اغلال الاستعمار ، تراءى لكثيرين في هذه المرحلة ان الشعوب الصغيرة والضعيفة والفقيرة في هذه البلاد ليس أمامها إلا أحد خيارين : فاما أن تنضم إلى هذه الكتلة ، أو تلك . وبدا أن كلا من الدولتين الكبريين كانت متأكدة من ذلك . ولكنها صدمتا عندما انطلقت أصوات تصرح بجلاء بأن هنالك اختياراً ثالثاً : وهو عدم الانحياز . ولم تستطعا تصديق هذه الاصوات المتعالية التي ما لبثت أن تعددت وامت ، وقامت تنددان بهذه السياسة فوراً وجهاً .

أخذ التنديد بسياسة عدم الانحياز أشكالاً مختلفة حسب عقائدية الدولة المنددة : فالولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى شبرت بسياسة عدم الانحياز واعتبرتها مناصرة للشوعية ومناوئة للاستعمار ، وأقبح من ذلك أنها لا أخلاقية أيضاً ، عند حد قول دالاس . واعتبر الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية الأخرى الدول غير المنحازة عميلةً واذئاباً للامبرياليين والرأسماليين ، ووصف الزعماء غير المنحازين بأنهم امبرياليون بورجوازيون . واختلط عدم الانحياز عند كتاب الغرب مع الحياد . ولكن زعماء

سياسة عدم الانحياز أوضعوا هذه السياسة في خطهم ، فمن ذلك أن البانديت نهرو قال في ١٩٥٥ : « لقد توصلنا نوعاً ما إلى ميزان عندما كان من المحتمل أن يؤدي أي نوع من عدوان عظيم إلى حرب عالمية . وذلك بذاته عامل مانع . وسواء أوقع العدوان في بلد صغير أم في بلد كبير فإنه ينزع إلى قلب ميزان العالم غير المستقر ، ومن المحتمل أن يؤدي إلى الحرب » .

• وأوضح الرئيس جمال عبد الناصر هذه السياسة في خطابه في الأمم المتحدة ، في ٢٧ ايلول ١٩٦٠ ، عندما قال : « انكم تعرفون أيها السادة ان الجمهورية العربية المتحدة تؤمن بسياسة عدم الانحياز وتتخذها أمامها ميزاناً لا يحد ولا يهتز . وما أظنني في حاجة إلى أن أعيد على مسامعكم قصة التضحيات التي بذلناها أمتنا العربية للحفاظ على عدم الانحياز ، إيماناً : بأن ذلك أدعى إلى ضمان استقلالها من ناحية ، وأدعى إلى صيانة السلام من ناحية أخرى . ولقد رفضنا ، رغم كل المؤثرات ، أن نكون من أدوات الحرب الباردة ، وكذلك سعينا ماوسعنا الجهد وواثقتنا الظروف لشرح هذه السياسة ادراكاً منا أن السلام لا يتوافر بانقسام العالم إلى أجزاء متخاصمة أو كتل متباعدة لاصلة بينها غير الحنادق والاسلاك الشائكة تربض وراءها معدات العدوان وأسلحة القتل والتدمير ، وإذ لا يتوافر السلام بأن تسمع جبهة اللقاء بين الشعوب ، وان يجري بينها الاتصال المنتج والتفاعل الخلاق على أوسع نطاق ممكن » .

ان عدم الانحياز ، بمنعه انتشار نفوذ إحدى الدولتين الكبيرتين في آسيا وإفريقية ، يضع حداً لانقسام العالم إلى معسكرين متعاديين ويمكن الدول الصغرى من أن تصنع مصائرهما بيدها وفي طريقها الخاص ، كما قضايا مصرنا (١) :

يمكن هذه الدول والأمم المتحدة أيضاً من أن تلعب دوراً هامياً على الدوام في تطوير الأمم المستقلة حديثاً في آسيا وأفريقية . ومن هذا الوجه كان عدم الانحياز على وفاق مع أحكام ميثاق الأمم المتحدة ، كما اعترف الأمين العام الراحل للأمم المتحدة ، همرشولد ، أثناء أزمة الكونغو . وهذا هو الدور الذي لعبته الأمم المتحدة في هذه الأزمة مع مساندة الدول غير المنحازة في آسيا وأفريقية

ولقد كانت التعبير « عدم الانحياز » معروفاً وسابغاً للتعبير « الحياد الإيجابي » الجديد . يقول نهرو في عدم الانحياز : ماذا يعني الانضمام إلى كتلة من الكتل ؟ انه يعني أخيراً شيئاً واحداً : نخلت عن وجهة نظرك في قضية خاصة وتبن وجهة نظر طرف آخر في هذه القضية لكي ترضيه وتنال حظوته . ولقد يبدو من هذا القول أن عدم الانحياز مرادف للاستقلال ، وان تكون منعازاً معناه ان تفقد استقلالك كلياً . ولكن وجهة النظر هذه لم يوافق نهرو عليها دوماً . ففي جواب على طلب من عضو « لوك صبا » أت على الهند أن تلتحق من كومنولث الأمم ، قال نهرو ، في ١٢ حزيران ١٩٥٢ : « على الأمم أن تعمل بكرامة وقوة ، وتبني ما تعتبره الاتجاه السليم وتوالي . ونحن نقبل أن نكون مشاركين في حلف مع أي بلد ، ولكننا نجنبنا الاحلاف التي تورطنا ... وفيما يتعلق بنا ، نحن مستعدون لأن ندخل في معاهدة صداقة مع كل بلد في العالم ... وفي الحلف يأخذ الواحد شيئاً ما ويعطي بالمقابل شيئاً . ولذا يرتبط كل بلد لحد ما ، ولكنه يتخلى عن حريته في العمل في الحد الذي يرتكب جرماً بحق نفسه إذا ارتبط في حلف أو اتفاق . ومع ذلك فان الحلف ليس بحاجة إلى الوقوف في طريق استقلال البلد .

وبصورة معاكسة ، عندما قبلت باكستان المساعدة العسكرية من

الولايات المتحدة في ١٩٥٤ ، صرح نـمـرو بأن هذه المساعدة تذهب إلى أصل قضية السلام بقدر ما تذهب إلى حربة بلاد عديدة في آسيا . ولقد توصلت هذه البلاد ، ومن ضمنها الهند ، الى الاستقلال حديثاً ، وتريد أن تحافظ عليه طويلاً بقدر ما هي أهل له وقادرة على حمايته والدفاع عنه . وقال أيضاً : « أستطيع أن أفهم ، ولو أنني لا أوافق ، الأحلاف العسكرية بين الدول الكبرى ، ولكنني لا أفهم موائيق عسكرية وأحلاف بين عملاق عظيم القوة وبلد قزم ضئيل . . ان ارتباط البلاد الصغيرة بأحلاف يعني في الواقع - وأقول هذا مع كل احترام لهذه البلاد - بأنها أصبحت تابعة جداً لبلاد هذه الأحلاف »^(١).

وعلى ما يبدو ، عند نشوء الحرب الباردة ، أن التعبيرين « عدم الانحياز » و « الحياد الإيجابي » كان لهما مدلول واحد . ولكن التسمية كانت تختلف من بلد لآخر في البلاد الآخذة بسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز . ثم ان التداعي الوثيق بين تعبير « عدم الانحياز » وتعابير مثل « عدم العنف » و « عدم التعاون » و « عدم المقاومة » و « النيرفانا » (عدم الوم) وكلها تدل على مفاهيم سلبية ، قد أسهم في سوء الفهم . ولكن وجهة النظر هذه تختلف عنها وجهة نظر نـمـرو الخاصة . وفي الواقع كان نـمـرو يستعمل نادراً هذا التعبير « عدم الانحياز » في خطبه الأولى في السياسة الخارجية ، حتى انه أبدى استياءه منها بسبب ما تتضمنه من معنى سلبي . ولهذا السبب نفسه فضل الرئيس جمال عبد الناصر وبعض السادة العرب عليه التعبير « الحياد الإيجابي » لما يتضمنه من معنى إيجابي . ولكن نـمـرو لم يجذب هذا التعبير أيضاً بقوله : « حتى انني لا أحب ... الحياد

(١) راجع M. M. Rahman, *The Politics of Non - Alignment*,

P . 35, Associated Publishing House, New Delhi, 1969

الاجباني، كما أطلق في بعض البلاد ...، وفضل عنه هذه التعابير : « البقاء بعيداً عن الكتل » ، « السياسة المستقلة » ، « العلاقات الودية مع الجميع » الخ . وصرح مراراً بأن سياسته الخارجية غير سلبية وغير استكائية . فقد قال في ١٩٤٧ : « لقد أعلننا في العام الماضي أننا لا نريد أن نربط أنفسنا بأي فريق خاص . وهذا لا يعني الجهاد أو الاستكائة أو أي شيء آخر » . وفي ١٩٥٢ ، قال : « يمكننا أن نسموه محايداً أو أي شيء تحبونه ، أما أنا فأحاول أن أرى كيف وكما هذه المحاولة أو الطريقة محايدة » . وفي ١٩٥٨ صرح بقوله : « عندما نقول ان سياستنا هي سياسة « عدم الانحياز » ، إنما نعني بوضوح عدم الانحياز إلى كتل عسكرية . إنما ليست سياسة سلبية . إنما سياسة ايجابية ، وآمل أن تكون سياسة حركية . » (١)

وفي ١٢ آذار ١٩٥٦ ، صدر البيان المشترك لاجتماع الرؤساء العرب جمال عبد الناصر ومعهود عبد العزيز وشكري القوتلي وورد فيه التعبير « عدم الانحياز » : « وانا نعقد عزمنا على تجنب الأمة العربية نار الحرب الباردة والبعده عن منازعاتها والتزام سياسة « عدم الانحياز » ، تجاهها ، والمحافظة بذلك على مصالحها الأصلية . وكذلك نعلن أن الدفاع عن العالم العربي يجب أن ينبثق من داخل الأمة العربية » .

كما أورد الرئيس جمال عبد الناصر عبارة « عدم الانحياز » في خطابه الذي ألقاه في مؤتمر بريوني ، في ١٩٥٦ ، حين قال : « كما أننا وقفنا من الحرب الباردة ، التي اعترضت طريق التعاون الدولي خلال الحقبة الأخيرة ، موقفاً ايجابياً يقوم على الامتناع عن اتخاذ سياسة من شأنها توسيع الهوة بين المعسكرين وازدياد حدة التوتر الدولي ، فكانت سياسة « عدم

(١) راجع ، المصدر السابق ص ٧ .

الانحياز ، وسيأتي إلى ذلك ... ، ولكن ، في سنة ١٩٥٧ ، بدأ التعبير « الحياد الإيجابي » يأخذ مكانه في الخطب السياسية وفي المؤتمرات الدولية ودرج على الألسن .

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٨ ، استقبل الرئيس جمال عبد الناصر بعثة من رجال الصحافة الأمريكية الذين زاروا مصر ، ودارت المناقشة حول مفهوم سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز ، وصرح الرئيس جمال عبد الناصر لأعضاء البعثة بأن هذه السياسة مستقلة وتنبع من المصالح الحقيقية للشعب المصري وتعتمد على مبادئ حُصها كما يلي :

- ١ - التفاعل السيامي مع الأحداث العالمية .
- ٢ - تأييد حق الشعوب في حريتها ومحاربة الاستعمار والرجعية والحفاظ على استقلال الشعوب واحترام سيادتها .
- ٣ - مقاومة تدخل الدول الكبرى في شؤون الدول الصغرى .
- ٤ - اقرار حق كل دولة في نظمها السياسية والاجتماعية .
- ٥ - مقاومة الأحلاف العسكرية والقواعد الحربية الأجنبية .
- ٦ - التعايش السلمي ونبذ الحروب وحل المشاكل الدولية بالوسائل السلمية .

٧ - إقامة العلاقات الدولية على أسس نظيفة ^(١) .

وهذه المبادئ مستلهمة من ميثاق الأمم المتحدة والمبادئ العشرة التي أقرها مؤتمر باندونغ . وان التعبيرين « الحياد الإيجابي » و « عدم الانحياز » يدلان على معنى واحد وسياسة واحدة . وهنا يتفق مفهوم

(١) راجع : محمد منير المعصرة ، « سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز »

نمرو ومفهوم السادة العرب . وقد جمعها سيادة أنور السادات في الكلمات التي عبر عنها في مؤتمر الشعوب في القاهرة ، في آخر ١٩٥٧ ، بامم مصر رداً على الاتهامات التي وجهها الغربيون إلى « العالم الثالث » بأن عدم الانحياز يعني في الواقع فتح الطريق أمام تغلغل النفوذ السوفياتي في دول هذا العالم ، بقوله : « نحن المصريين نؤمن بالحياد وعدم الانحياز ، ونؤمن بأننا إذا اتبعنا هذا الخط فإننا نبعد شبح الحوب . ان علينا أن نعمل للتقريب بين الكتلتين ، وأن ننشئ منطقة سلام تفرض نفسها تدريجياً على العالم بأكمله . ان الحياد الذي نؤمن به يعني أنه يجب أن نقف في معزل عن الكتلة العالمية على أن نبذل جهوداً ايجابية للتقريب بينها . » (١) .

على أن التعبير الذي كتب له البقاء هو تعبير « عدم الانحياز » . فقد ثبتته رسمياً دول « عدم الانحياز » في مؤتمر بلغراد في ١٩٦١ .

ومهما اختلفت التسميات فالمقصود من « عدم الانحياز » هو : « عدم الارتباط مع أي من المعسكرين العملاقين ورفض هيمنتها والرغبة في اتباع سياسة مستقلة نابعة من ذاتية الأمة ومحقة لمصالحها ومصالح الشعوب في العالم ككل » (٢) .

وفي الحقيقة ، ان الدولة صاحبة السيادة وذات الشخصية المستقلة التي تسلك سياسة عدم الانحياز ، أي لاتنحاز إلى احدى الكتلتين المتصارعتين ولا يقترن عدم انحيازها بأي نية أو قصد أو عمل من شأنه تعزيز أو موازنة احدهما على الأخرى ، وإنما تستلهم سياستها من مصالحها الخاصة

(١) راجع مجلة « الاسبوع العربي » البيروتية ، العدد ٧٤٣ ، الاثنين في ٣ ايلول ١٩٧٣ -

(٢) راجع الدكتور محمد عزيز شكري « الدول العربية الخليجية والمجتمع الدولي » ص ٢٦ . الكويت ١٩٧٤ .

وأهدافها القومية وضميرها الانساني الحي ، وتسعى لحـيـر البشرية جملةً
لا يمكن أن تعد دولة منجازه . وهي تستطيع والحالة هذه أن تذهب
من هذا المنطلق الحالي من أي ارتباط وتمدد يدها إلى الشرق أو الغرب ،
وتلتزم الحـيـر من أي يد أتى ، وتقبل المساعدات غير المشروطة ،
وتشتري السلاح من هذا الجانب أو ذاك ، وتؤيد وجهة هذا الطرف إذا
اتفقت مع وجهة نظرها دون أن تعتبر منجازه للطرف الآخر ، وتكافح
الاستعمار وتناصر الشعوب المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها ، ولا
تكون مع كتلة على أخرى .

وهكذا نرى أن سياسة عدم الانحياز تقوم على ثلاثة عناصر :

١ - العنصر المادي ، وهو عدم الانحياز إلى القوتين الكبريين
المتصارعتين .

٢ - العنصر المعنوي ، وهو نية المؤازرة لتوجيه كفة إحدى
القوتين الكبريين على الأخرى .

٣ - العنصر الغائي وهو تخفيف حدة التوتر وتحقيق التعايش السلمي
بين الدول ليسود السلام العالم .

مؤتمرات دول عدم الانحياز . - كان مؤتمر باندونج محاولة هامة
قامت بها الدول الافريقية الآسيوية الحديثة العهد بالاستقلال لوضع أسس
مشتركة لتحريرها الكامل من التبعية السياسية والاقتصادية . وقد أثيرت
فيه مناقشات وهجمات عنيفة على كل من الكتلتين الكبريين ، ثم ساد
الاعتدال أجواء المؤتمر ، وخلص إلى أن الاختلاف في العقائد والخطط
الاجتماعية لا يمنع الوصول إلى التفاهم بين الدول . وانتهى بمقرراته العشر
التي اعتبرت أساساً ومنطلقاً لسياسة دول عدم الانحياز ونهت اهتمام دول

-٦٤٨-

العالم إلى « العالم الثالث » وقضاياها الحديثة . ثم عقدت عدة مؤتمرات كان منها توسيع وشرح مبادئ باندونج وكيفية تطبيقها على صعيد السياسة ، مع عرض القضايا المطروحة على بساط البحث لكل بلد مشترك ، واستعراض لأهم القضايا الدولية . ولكن أهم هذه المؤتمرات كانت مؤتمرات القمة الأربعة التي كانت تسبق مؤتمرات ممهدية تحضر أعمالها .

مؤتمر بلغراد (١ - ٦ ايلول ١٩٦١) . - لقد سبق هذا المؤتمر بمؤتمر بريوني (١٨ - ١٩ تموز ١٩٥٦) الذي ضم الرؤساء ثم -رو وجمال عبد الناصر والرئيس اليوغوسلافي تيتو . وفيه انضمت يوغوسلافيا إلى مجموعة دول عدم الانحياز . وأكد البيان الختامي لهذا المؤتمر أن سياسة عدم الانحياز ليست مقصورة على البلاد التي تحررت من الاستعمار الغربي بل تشمل أيضاً الدول الاشتراكية ، كيوغوسلافيا ، التي لا ترتبط بحلف وارسو أو بالمعسكر الاشتراكي .

وقد عالج مؤتمر بلغراد قضايا أوربية صرفة . وكان لأعماله أثرها العميق على الرأي العام الاوربي ، إذ حاول الابتعاد عن روح العنف التي سادت بعض الوقت أجواء المؤتمرات السابقة عندما تعرضت للاستعمار والامبرالية ، وشرح المؤتمر أن مهمته الرئيسية والتاريخية هي العمل على صيانة السلام العالمي وارساء قواعد دائمة له ، وعالج موضوع التجارب والأسلحة النووية وقضية برلين ودور الأمم المتحدة ، وطرق حل الخلافات بين الشرق والغرب بالطرق السلمية . ونمّ المؤتمر ، بمعالجة هذه القضايا الكبرى ، عن « ايجابية » العالم الثالث ، كما تعرض لتحليل العلاقات التي تربط دول عدم الانحياز بعضها ببعض ، وأيد حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

مؤتمر القاهرة (٥ - ١٠ تشرين الأول ١٩٦٤) . - لقد عالج

-٦٤٩-

هذا المؤتمر القضايا العالمية الكبرى وانتهى بها إلى اقرار « برنامج للسلام » و « التعاون الدولي » وأعلن عن دعمه الكامل للشعب العربي في فلسطين في نضاله لتحرر من الاستعمار الصهيوني والتمييز العنصري .

مؤتمر لوساكا (٨ - ١٠ ايلول ١٩٧٠) . - لقد سبق أن الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، وهو أحد أقطاب « عدم الانحياز » ، دعا إلى انشاء منظمة خاصة بدول عدم الانحياز تتولى تنسيق العلاقات بين دول المجموعة . ونجحت مساعيه في مؤتمر لوساكا ، عاصمة زامبيا ، وانتهى هذا الجهاز برئاسة الرئيس الزنبي كينيث كارلدا (١) . وطالب هذا المؤتمر بانسحاب امراييل فوراً من جميع المناطق العربية التي احتلتها بعد الخامس من حزيران ١٩٧٠ ، وأعلن احترامه الكامل لحقوق شعب فلسطين الثابتة كشرط مسبق للسلام في الشرق الأوسط . كما أعلن دعمه لنضال الشعب الفلسطيني في سبيل التحرر من الاستعمار والصهيونية ، وأوصى الأمم المتحدة باتخاذ وسائل مجدية ضد امراييل اذا استمرت في رفضها الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة . واتفق المشاركون على المبادرة لاتخاذ اجراءات مادية ناجعة ضد القوى التي تنتهك حرمة استقلال دول عدم الانحياز وسلامة أراضيها . وان على هذه الدول أن تتعاون وأن تجري مشاورات فيما بينها كلما دعت الضرورة لذلك .

مؤتمر الجزائر (٥ - ٨ ايلول ١٩٧٣) . - عقد هذا المؤتمر في « قصر الصنوبر » أو « قصر الأمم » ، وضم ٧٦ زعيماً مرموقاً يمثلون ملايين من البشر ، و ١٤ حركة تحرير منها منظمة التحرير الفلسطينية ، و ١٤ حركة تحرير أفريقية ، وحركة تحرير بورتوريكو . وقا في أهمية هذا المؤتمر من أنه انعقد في وقت تطورت فيه العلاقات الدولية على

(١) كينيث كارلدا Kenneth D Kaunda .

صعيد الدولتين الكبوين ، وانتقلت من مرحلة التوتر إلى مرحلة المفاوضة ثم التفاهم والرفاق ، بما يجعل دول عدم الانحياز تفكر في أمرها وتطور سياستها تبعاً لهذا الاتجاه الجديد . فبينما كان اختلاف العملاقين في الماضي يدعوا دول عدم الانحياز إلى تجنب الانضمام إلى احدهما أو الخضوع لمنطقة نفوذها ، وضع الرفاق ، الذي تمّ بعد اجتماع نيكسوت بريجنيف في واشنطن ، مسؤولية جديدة على كاهل تلك الدول لتأخذ بعين الاعتبار هذا الواقع السامي وتقف منه موقف الحيطه لئلا يكون على حسابها ، وقد علمنا التجارب أن التفاهم بين الدول الكبوى يكون دوماً على حساب الدول الصغرى والمستضعفة . وفي هذا الصدد يقول سيادة الرئيس حافظ الأسد : « نحن مع السلام في العالم لأننا دعاة سلام صادقون ، ولكننا نؤكد على السلام العادل ، ونؤكد في الوقت ذاته أن الرفاق الدولي لا يمكن أن يكون على حساب الشعوب وحساب حقوقها في الحرية والتقدم وتقرير المصير وفي النضال من أجل هذه الحقوق إذا اغتصبت » .

« ان الشعوب بطبيعتها محبة للسلام ، ولكن قوى العدوان بطبيعتها أيضاً لا تقبل التسليم طوعاً بحقوق الشعوب ، ولا تقبل التنازلات مختارة عن مواقع السيطرة التي تمكنها من مواصلة استغلال الشعوب ونهب ثرواتها . وخلال الخمس عشرة سنة الاخيرة رأينا قوى الاستعمار والامبريالية تدفع بالعالم أكثر من مرة إلى حافة حرب شاملة نتيجة لتهديدها بالتدخل العسكري أو ممارستها العدوان فعلاً كلما شعرت أن مصالحها في خطر ومواقعها مهددة . ولكي يتحقق السلام لا بد من وقف حروب العدوان التي تشنها القوى الاستعمارية والامبريالية ضد الشعوب المحبة للحرية »^(١).

(١) راجع : جريدة « الثورة » السورية ، العدد ٣٢٠١ ، السبت في ٢٥

-٦٥١-

وشملت بقية بنود جدول أعمال المؤتمر الامور التالية :

- ١ - الخطوط الكفيلة بالتصدي للاستعمار القديم والحديث .
- ٢ - الموضوعات المتعلقة بالامن والسلام العالميين .
- ٣ - قضايا التخلف والتنمية في دول العالم الثالث .
- ٤ - العدوان الامريكي في كمبوديا والوضع في الهند الصينية .
- ٥ - زيادة الدعم الفعال لحركات التحرر الوطني في افريقية .
- ٦ - التصدي للتهديدات المواجهة لموارد بعض الدول ونشاط الاحتكارات البترولية في هذا المجال .
- ٧ - تنسيق مواقف دول عدم الانحياز ونشاطها في الامم المتحدة .
- ٨ - المشاكل الاقتصادية وعلاقات الدول الغنية بالدول الفقيرة .
- ٩ - تدعيم دور الامم المتحدة وفعاليتها .

ويلفت النظر حقاً ظهور القضية الفلسطينية كقضية أولى في مؤتمر الجزائر والاعتراف الواسع بالثورة الفلسطينية طريقاً مشروعاً للشعب الفلسطيني ، وتحول افريقية عن امرائيل . وقد صرح السيد بامر عرفات الذي حضر مؤتمر الجزائر بقوله : « نتيجة للجهود العربية والفلسطينية التي بذلت في المدة الأخيرة من أجل توضيح القضية ؛ ونتيجة أيضاً لوعي افريقية للخطر الامرائيلي الذي يهددها كما يهدد العرب ، باعتبارها الخطر الذي يهدد سلام واستقلال افريقية ، لقد كان موقف الدول الافريقية يساراً ويميئاً ووسطاً إلى جانب الثورة الفلسطينية وعلى أساس مبدئي »^(١).

(١) راجع العدد ٧٤٥ من مجلة « الاسبوع العربي » البيروتية ، يوم الاثنين في

وحقق المؤتمر كسباً آخره وهو أن الرئيس الكويتي كاسترو أعلن قطع العلاقات الدبلوماسية لبلاده مع اسرائيل ، وهذه البادرة هامة بالنسبة لشعوب أمريكا اللاتينية . وكما قال الرئيس الجزائري بومدين : « لقد تعرضت اسرائيل في مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر لهزيمة كبيرة ، ولم تكن هذه الهزيمة نتيجة النصوص التي أقرها المؤتمر فحسب ، وإنما هي نتيجة الوضع الذي ساد المؤتمر ازاء اسرائيل أيضاً . فلم يكن هناك دولة واحدة دافعت عن اسرائيل ونظرياتها » (١) .

ومن قائل ان المؤتمر نجح ، ومن قائل ان المؤتمر أخفق (٢) . وجهتا نظر مختلفتان في المزايدة والمنقصة . وإذا اختلفت وجهات النظر بين السادة الأعضاء ، فقد ساد الاعتدال أخيراً ، لأن دول عدم الانحياز لا بد وأن تتفق وتوحد جهودها في الدفاع عن قضاياها العادلة ومصالحها حيال الامبريالية الشرقية والامبريالية الغربية دونما تحيز لهذه أو تلك ، وإلا فقد عدم الانحياز معناه وانهار .

ومما يمكن ، فان الاعمال الحيرة قلما تأتي بالنتائج الطيبة المباشرة ، ودول عدم الانحياز تعلم أن الطريق أمامها طويل ، ولكنها لم تيأس . حسمها اليوم أنها وعت نفسها وقضاياها والمستقبل الذي تتطلع اليه البشرية قبل غيرها ، وإذا تمسكت في الماضي بعدم الانحياز لتجنب أخطار الحرب بين الكتلتين ، فقد زاد حرصها عليه في الحاضر لأنها تواجه ، كما يواجهه العالم معها ، مشكلة كبرى : وهي عمق الهوة بين كتلتين جديديتين أو عالمين

(١) راجع العدد ٧٤٦ من مجلة « الاسبوع العربي » البيروتية ، يوم الاثنين في ٢٤ ايلول ١٩٧٣ .

(٢) راجع المقال : « نتائج مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر » المنشور في ص ٩ من جريدة « السياسة » الكويتية ، يوم السبت في ١٥ ايلول ١٩٧٣ .

مختلفين : أكثرية فقيرة مستهتة وأقلية غنية مستغيلة ، أو بين « جنوب » محروم و « شمال » متخوم . وليس من مصلحتها فك الارتباط مع عدم الانحياز لأن ذلك يعيدها إلى ظلمات التبعية الأولى ، ويكفيها شرفاً أنها كانت سباقة إلى هذه الرؤية قبل غيرها . يقول السيد الرئيس حافظ الأسد : « وانما لشهادة كبرى تؤكد جدوى عدم الانحياز وأهميته ، أن نرى العالم يتعد عن خطر تدمير ذاته ، وأن نرى أيضاً القوى الكبرى في هذا العالم تتجه في أوائل السبعينات إلى ما نادت به حركة عدم الانحياز في مطلع الستينات . أليس هذا دليلاً على ما تميزت به الحركة من سبق الرؤية في نظرتها إلى عالم مشرق بالسلم مطمئن بالعدل والكفاية . وإن كان ما تحقق في هذا الاتجاه لم يأت نتيجة إسهام مباشر من قبل حركة عدم الانحياز ، فإن ما تحقق كان انتصاراً لفكر هذه الحركة ودليلاً على بعد نظرها ، » (١) .

وصفوة القول ، إن دول « العالم الثالث » التي تحررت من الاستعمار لم تستقر بعد في حياتها الاستقلالية الحديثة ، وأمامها مشاكل كثيرة ومصاعب جمة ترجع في أصلها إلى إفراط سكانها وتخلفها الاقتصادي . وقد أوجدت الظروف الجديدة فجاً بينها تضامناً عبرت عنه بتفهمها لقضاياها المشتركة والمختلفة تماماً عن قضايا الدول الممتازة اقتصادياً التي تمثلها البلاد المتقدمة في العالمين الرأسمالي والاشتراكي . وإن هدفها الأساسي من سياسة عدم الانحياز صيانة أمنها وتقدم بلادها والعمل الخير البشرية كافة .

(١) راجع خطاب السيد الرئيس حافظ الأسد في مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر ، وقد نشر في صحيفة « البعث » السورية ، يوم الجمعة ، ٧ أيلول ١٩٧٣ .

الفصل الرابع عشر

تقرير المصير

تمهيد

في غابر العصور المتزامية في التاريخ كانت الحرب وسيلة تتخذها الأقوام القديمة لفرض ارادتها على الأقوام الضعيفة ، وكانت شريعة الغاب قانوناً يسمح للأقوياء ان يلتموا الضعفاء . وكانت البشرية في فجر حياتها الحضارية فقيرة بالمثل العليا والمبادئ الأخلاقية الرفيعة والحقوق الوضعية التي تكفل حفظ النظام وتسوية العلاقات البشرية في المجتمع ، وتحول دون استعباد الانسان لأخيه الانسان .

ولكن عجلة التطور سارت مع الزمن تطوي العصور وتحت الخطا الى ان وصلت بالبشرية الى ما وصلت اليه ، وعلمت الانسان ما لم يكن يعلم ، ففنا الوجدان الفردي والشعور الاجتماعي والوعي القومي ، واستيقظت شعوب مضطهدة مهورة ظلت ترسف في السلاسل والاغلال قروناً مديدة ، ورأت الأخطار التي تهددها ان بقيت على ما هي عليه من ذل وصغار ، فقامت ترفع الحيف عنها ، وتطالب بحقوقها المضمومة لتفرض وجودها ، وتنعم بحريتها السليبة وحققها الطبيعي ، وتحقق رسالتها الانسانية كغيرها من الشعوب التي تعيش في ظل العزة والكرامة الوطنية .

وتحت تأثير عوامل فكرية ، وروابط اجتماعية ، وردود فعل

قومية ، قامت الشعوب المغلوبة على أمرها تلبية نداء الحرية المدوي في كل مكان بأن الناس ولدوا احراراً ويجب ان يعيشوا احراراً كما خلقهم الله احراراً . ولكن دروب الحرية مفروشة دوماً بالأشواك . ولا بد لكل من يسلكها من ان يكون مسلحاً بالفكر الواعي والايان العميق والعزم الثابت والقدرة الماضية على تحمل المسؤولية ، لأن وعوثة الطريق قد تننيه عن عزمه فيرجع القهقري ولا يصل الى ما يريد . الا ان الأخذ بهذه الطرق والوسائل دفع الشعوب الى القيام بحركات قومية قلبت الأوضاع رأساً على عقب ، والهبت القلوب بهوى حار وعقائد راسخة ، فتحررت اقوام لبثت زمنناً طويلاً تزح تحت نير الاستبداد واغلال الاستعباد وقيود التبعية ، وتوصلت الى تكوين وحدات قومية مستقلة استقلالاً تاماً ناجزاً . وستظل هذه الحركات تعمل عملها الى ان يزول كل استعباد على سطح الأرض ، وينعم كل شعب بحريته واستقلاله .

ولاشك في ان هذه الحركات التحررية - الاستقلالية كانت تسيرها الفكرة القومية كموجه ، والمبدأ القومي كمنهج للسلوك ، وان تبني هذا المبدأ القومي يدعو أي شعب من الشعوب بلغ مرحلة الأمة الى ان يحقق ذاته ويقرر مصيره أي يمارس الحق الذي يمارسه كل أمة في تقرير أمر سيادتها بنفسها دون ضغط او اكراه او تدخل اجنبي مهما كان نوعه . وهذا القرار الذي تتخذه الأمة يكون إما طلباً للاستقلال التام الناجز السليم من كل شائبة ، أو في سبيل الاتحاد والاندماج مع دولة أخرى تصبح وابها شيئاً واحداً . فهو اذن مبدأ يترك افراد الأمة ، أي أمة ، يختارون الاسلوب او الاتجاه الذي يرونه محققاً لسيادتهم والحفاظ على شخصيتهم القومية وسلامة أرضهم .

حق تقرير المصير

ان حق تقرير المصير ، أي حق البت في أمر الشعب واستلام زمام هذا الأمر بيده ، هو الحق الذي يدخل في اساس الاستفتاء الشعبي لتقرير مصير الشعب ، وهو الحق الذي نادى به القوميات التي خضعت للحكم الأجنبي في سبيل تحريرها القومي

والبحث في حق تقرير المصير يقتضي معالجة الأمور التالية :

- ١ - مقومات حق تقرير المصير .
- ٢ - المراحل التاريخية لحق تقرير المصير القومي .
- ٣ - ممارسة حق تقرير المصير .
- ٤ - وسائل تنفيذ حق تقرير المصير .

مقومات حق تقرير المصير . - ان مقومات حق تقرير المصير هي القومية و الديوقراطية والسيادة : فالقومية تعني تحقيق الشخصية القومية بتكوين الدولة القومية . والديوقراطية هي حكم نفسها بنفسها ، أي حكم الشعب المتناسك والمترابط اجتماعياً نفسه بنفسه . والسيادة ان تكون الأمة سيادة نفسها فلا سيطرة لأمة أو اشراف دولة عليها . وهذا يعني ان الأمة بلغت مرحلة الدولة المستقلة وذات السيادة كسائر الدول المستقلة ذات السيادة .

واذا تأملنا في تاريخ الدول الحديثة ، وجدنا ان تشكيلها بني على أساسين : الأول هو السيادة القومية ؛ والثاني هو المساواة بين هذه الدول التي تتمتع بسيادتها القومية . اما السيادة فقد كانت بيد الملوك والباطرة والامراء . وفي اوروبا ، التي بدأ فيها تشكيل الدول الحديثة

قبل غيرها ، في الأزمنة الحديثة ، نجد ان تركيز السلطة بدأ فيها منذ القرن الثالث عشر ، عندما انطلقت قبائير النهضة الاوربية الحديثة وكثير الاقبال على دراسة الحقوق الرومانية لتستخلص منها المبادئ والمؤيدات القانونية التي تدعم سلطة الملوك حيال الأمراء الاقطاعيين والمناوئين وتقوي هذه السلطة وتفرضها على الشعوب . وقد ظل هؤلاء الملوك يكافحون السلطات الاقطاعية الى ان قضوا عليها وانهار بناء العصر الوسيط وتربعوا على عروشهم . بيد ان هؤلاء الملوك اساءوا بدورهم استعمال السلطة واستبدوا بالأمور دون غيرهم ، واتجه منحى السير في الحكم نحو الحكم الاستبدادي المطلق ، واخذ الملوك يدهون بأنهم يحكمون بموجب الحق الإلهي الذي يخوله الله لهم . ولذا يعتبرون انفسهم غير مسؤولين أمام شعوبهم وإنما هم مسؤولون أمام الله الذي يخولهم السلطة .

وأخذت فلسفة القرن الثامن عشر المستنيرة بنور العقل توجه الأفكار وجهة أخرى ، وتسلط الأنوار على الشعب وحقه في حكم نفسه بنفسه ، بل وحقه في مقاومة الحكم الكيفي ، والنسلط الملكي . وكانت هذه الحركة الفكرية مقدمة لوضع أسس الديمقراطية ونموها في العصور الحديثة ، وما زالت تتسع وتتمو في القرن العشرين وتنتشر في أوربه وفي خارج أوربه ، بالرغم مما يصيب الديمقراطية من نكسات دورية ، بين فتوة وأخرى ، الى ان أصبحت الديمقراطية شعاراً من شعارات الحضارة الحديثة .

ولكننا اذا اخذنا الديمقراطية بمعناها الواسع ، لاعلى مستوى شعب وحكام وطنيين ، بل على مستوى شعب وشعب ، أمة وأمة ، أمة ودولة ، أمة محكومة ودولة حاكمة اجنبية عنها ، أمة خاضعة مقهورة قصايا عصرنا (٤٢)

ودولة متسلطة ، محتلة ، مستعمرة ، وجدنا شعوباً فقدت كيائها السيامي كدولة ، وظلت تحتفظ بقوماتها القومية من صلة ونسب ولغة مشتركة وعادات وتقاليد ودين وماض واحد وآلام واحدة وآمال واحدة ، ومصالح مشتركة وإرادة مشتركة وغير ذلك من العناصر المقومة للقومية . فمن هذه المفومات المعقدة بعضها أو كلها خرج حق تقرير المصير القومي المعتمد على تبني المبدأ القومي الذي يرمي الى تأسيس الدولة القومية التي تحق ذاتها بين الدول الأخرى على صعيد العلاقات الدولية وفي اطار من السيادة والمساواة والاحترام المتبادل .

المراحل التاريخية . - يمكننا ان نقسم هذه المراحل الى ثلاث :

١ - مرحلة الثورة الفرنسية

٢ - المرحلة الامريكية

٣ - مرحلة الأمم المتحدة

مرحلة الثورة الفرنسية . - لقد تركت فلسفة الاستنارة ، فلسفة

النور والعقل ، الفلسفة المستنيرة بنور العقل ، آثارها في النفوس الحرة الكريمة . وقام بتأثيرها الفكري حادثان عظيمان كان لهما اعمق الأثر في حياة الشعوب ، وهما : حرب الاستقلال الامريكية والثورة الفرنسية الكبرى .

ولقد كان تأثير الثورة الامريكية مباشراً على امريكا . أما الثورة الفرنسية

فكان تأثيرها مباشراً على اوروبا وغير مباشر على آسيا وافريقية ، نظراً

للصلة الوثيقة بين هاتين القارتين واورب . لقد ادخلت الثورة الفرنسية

لعام ١٧٨٩ عنصر الفكر في سير الحوادث التاريخية وارادت ان تقيم

الحق مكان الظلم والقوة . ونادت بحقوق الانسان ، والدفاع عن حريات

الشعوب ، ولبت نداءها الجماهير . وانا لنجد في آثار المؤلفين والناشرين

- ٦٥٩ -

من رجال الثورة مايشير جزئياً أو كلياً الى حق الشعوب في تقرير مصيرها . وفي ذلك يقول كالونو بامم اللجنة الدبلوماسية : « يجب الا يسمع بالانضمام الى فرنسا الا الى البلاد التي تطالب هذا الانضمام بناء على رغبة منها وحرية . لأن السيادة خاصة بجميع الشعوب ، ولا يمكن ان يكون هنالك اتحاد الا بموجب عقد صريح يتم بلاء الحرية . وليس لشعب الحق في اخضاع شعب آخر الى قوانين عامة مستقرة دون رضى واضح من هذا الشعب » . ذلك لأن كل شعب ، مهما كان صغيراً ، سيد شؤونه في بلده ، ومساو في الحق لاكبر الشعوب ، وليس لأحد ان يعتدي على استقلاله ،

وقد نفذت الثورة الفرنسية في بداية عهدها هذه الأفكار والمبادئ لتكون منطقية مع مذهبها ، ودعت الشعوب الى تقرير مصيرها بنفسها عن طريق الاستفتاء الشعبي . غير ان الظروف السياسية والأهواء القومية أخرت الثورة عن هذه المبادئ ، منذ ان تجاوزت حدود الأرض الفرنسية . حتى ان نابليون ، وهو ابن الثورة ، كان يمزأ بالثورة ، ويحق الشعوب ، وبفرنسا ، في سبيل طموحه الشخصي . وهذا ماآثر عليه الشعوب والدول وفرنسا ايضاً ، وآل الأمر أخيراً الى سقوطه وعقد مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ - ١٨١٥ .

الى مؤتمر فينا ، أثناء تعديل خارطة اوروبا السياسية على مائدة المؤتمر ، ببعض المبادئ الجديدة . فمن ذلك انه ا طرح القوة كقاعدة لاكتساب حق من الحقوق ، واعتبر ان السيادة على بلد من البلاد لا تخول بالفتح ، بل بالتنازل الارادي عنها من قبل سيدها الشرعي ، واخضع العلاقات الدولية الى قواعد العقل والعدل والاحترام المتبادل . ومن هنا يتبين لنا ان مؤتمر فينا لم يأخذ بحق الشعوب في تقرير مصيرها ،

والما جعل هذا الحق خاصاً بسيد الدولة الشرعي من ملك أو امير او امبراطور . كما ان المؤتمر لم يحترم ، في ترتيباته السياسية ، حق الشعوب في سيادة نفسها ، بل ألحقها بغيرها من الدول الكبرى ، وأرجع سادة اوروبا المعزولين او المزاحين الى عروشهم ، ودعم هذه الرجعية بالقوة . وهكذا ساد النظام الرجعي ، اوروبا ، وهدم مؤتمر فيينا ما بنته الثورة الفرنسية لصالح الشعوب من حق تقرير المصير .

المرحلة الامريكية . — يدخل في هذه المرحلة فترتان : فترة الرئيس مونرو ، وفترة الرئيس ولسون .

فترة الرئيس مونرو . — على اثر ثورة المستعمرات الاسبانية في امريكا اللاتينية على حكم نابليون ، عندما غزا اسبانيا ، وعدم اعترافها بحكم اخيه يوسف بونابرت ، انقلبت ثورة هذه المستعمرات بالتالي الى ثورة ضد اسبانيا وحركة انفصالية أدت الى حرب استقلال . وكان الاستياء عاماً في هذه المستعمرات ، لأن ثورة الولايات المتحدة على انكلترا ، والثورة الفرنسية على النظام القديم الفاسد كانتا تشجعتان الأمانى الوطنية في المستعمرات الاسبانية . وتعمدت الحرب بسبب تدخل الدول الاوربية وتهديداتها ومزاعمها في امريكا ، الأمر الذي دفع رئيس الولايات المتحدة في ذلك الحين ، الرئيس جيمس مونرو ، الى ان يعلن تصريحه الشهير بـ « تصريح مونرو » في العام ١٩٢٣ ، الذي اوضح فيه السياسة الأمريكية حيال دول القارة الاوربية ، وتتلخص هذه السياسة بما يلي :

١ — ان القارة الامريكية قسدت وصلت الى درجة من الحرية والاستقلال لا يصح معها احتلال أي جزء من اراضيها من قبل احدى الدول الاوربية .

٢ — ان كل محاولة من الدول الاوربية لفرض نظمها السياسية على

- ٦٦١ -

أي جزء من اجزاء القارة الأمريكية يعتبر خطراً على أمن وسلام الولايات المتحدة ، ولذا لن نسمح بمث هذا التدخل .

٣ - ان الولايات المتحدة لاتريد ان تتدخل في الشؤون الخاصة بدول اوروبا ، ولشأن لها بالحروب التي تقوم بين هذه الدول الا ما يقتضيه حق الدفاع عن نفسها اذا وقع اعتداء على حقوقها أو أصبحت مصالحها مهددة تهديداً جدياً ، أو وجهت اليها اتهامات من احدى الدول الاوروبية .

وهذا يعني ان « أمريكا للأمريكيين » . وقد افاد هذا التصريح بصورة مباشرة الحركات الانفصالية التي قامت في أمريكا الجنوبية على اسبانيا ، الوطن الأم ، واضطر نظام الضابطة الاوروبية الى الافلاس في العالم الجديد وعدم التدخل بشؤون أمريكا ، بما كان له أثره في العلاقات بين دول أمريكا والروابط التي تربطها بأوروبا .

ومن الواضح ان مبدأ مونرو ينطوي في ذاته على حق الشعوب في تقرير مصيرها ، ولو لم يتناول الشعوب الا بصورة غير مباشرة ، لأن مثل هذا المبدأ أمثله المصلحة الأمريكية قبل كل شيء . ومهما يكن فان هذا المبدأ سيكون له تأثيره على خلف مونرو البعيد وهو الرئيس ولسون الذي سيأخذ به ويوسعه ويعممه اثناء الحرب العالمية الاولى ويجاوب تطبيقه ما استطاع لذلك سبيلاً .

فترة الرئيس ولسون . - عندما نشبت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، اشتركت فيها الولايات المتحدة . ولسنا بصدد العوامل التي دفعت هذه الدولة إلى الدخول في الحرب الى جانب انكلترا وفرنسا وحلفائهما ، بل ان الذي يهمنا هو ان نبين المرحلة التي مر بها حق تقرير المصير .

-٦٦٢-

في كانون الثاني ١٩١٧ ، وجه الرئيس ولسون الى الكونغرس الأمريكي رسالة جاء فيها : « الرأي عندي أن تتفق الدول على قبول مبدأ مونرو وتعميم تطبيقه في جميع أنحاء العالم بحيث لا يصبح لأمة أن تكره أمة أخرى على انتهاج سياستها ، وإنما ينبغي أن يترك لكل شعب الحق في أن يقرر سياسته بنفسه ويرسم الطريق الذي يراه كفيلاً بأن يقوده إلى التقدم دون أن يكون عرضة بسبب ذلك لأي تهديد أو ارهاب أو حرج ، ودون أن يكون هناك فارق بين شعب ضعيف وشعب قوي . »

وفي ٢ نيسان ١٩١٧ ، أي في اليوم الذي صوت فيه الكونغرس على دخول الولايات المتحدة الحرب ، كان الرئيس ولسون قد وجه رسالة إلى الكونغرس قال فيها : « ان القانون شيء أغلى من السلام . ولذلك سنحارب دفاعاً عن المبادئ التي كانت دائماً أئمن من حبات قلوبنا . سنحارب من أجل الديوقراطية . وسنكفل لمن أذلهم الاستبداد الحق في أن يكون لهم رأي في توجيه حكوماتهم . سنحارب من أجل حقوق الأمم الصغيرة وحرياتها ، ولنرمي في جميع أنحاء العالم مبادئ حكم القانون ، ذلك القانون الذي سيعيد السلام والامن لجميع الشعوب ويجعل العالم كله عالمًا حراً . »

وأوضح الرئيس ولسون أهداف الحرب برسالته الشهيرة التي وجهها إلى مجلس الشيوخ الأمريكي ، في ١٨ كانون الثاني ١٩١٨ ، وفيها يعدد في ١٤ نقطة أسس السلام في المستقبل كما يريد أن يحققه . وانا لنجد في النقطة العاشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة ما يشير إلى حق تقرير المصير. ويقول الرئيس ولسون أيضاً : « ان هنالك مبدأً ضخماً يسود برنابجنا هو مبدأ العدالة لجميع الشعوب والقوميات وحققها في الحياة جنباً إلى جنب متمتعة بالحربة والامن سواءً أكانت قوية أم ضعيفة . واذا لم نوفق

لأرساء أساس هذا المبدأ فليس في استطاعتنا بناء أي جزء من صرح العدالة الدولية .

وفي تموز ١٩١٨ ، ألقى الرئيس ولسون خطاباً على ضريح واشنطن قال فيه : « ان الأمم المتحدة تحارب من أجل أهداف لن يتحقق السلام إلا ببلوغها . ومن بين هذه الأهداف تسوية المشاكل سواء أكانت متعلقة بالأراضي أم بالسيادة ، أم بالعلاقات السياسية ، على أساس ضرورة قبول تلك التسوية قبولاً اختيارياً محضاً من جانب الشعب صاحب الشأن ، لا على أساس المصلحة أو المنفعة المادية التي يمكن أن تعود على شعب يرغب في تسوية أخرى لفائدة نفوذه وسياسته . اننا لانريد إلا سيادة الحق القائمة على رضى الحكوميين أنفسهم ، هذه السيادة التي يؤيدها الرأي العام المنظم . »

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الظروف ، التي قلت اعلان ولسون لمبدأ تقرير المصير ، قد أوضحت بأن هذا الاعلان لا يتضمن المناداة بالتحرور والانفصال ، وإنما أراد أن يؤكد حقوق القوميات في حكم نفسها بنفسها ضمن كيان الدولة التي تنتسب اليها . كما يجب أن نعترف بأن نقاط الرئيس ولسون كانت دسائير عامة ومبهمة عن قصد ، وصعبة التكيف مع واقع الحال ، لأنها اتخذت احترام حقوق القوميات مبدأً أساسياً لها . ولكن هذه القوميات وجدت في عدة بقاع متداخلة ومختلطة بحيث يستحيل فيها وضع خط فاصل للتقسيم فيما بينها . ولذا فسحت نقاط ولسون مجالاً لتأويلات مختلفة . يضاف إلى ذلك أن الدول العظمى ، بعد الحرب ، وجدت نفسها أمام مطالب الأمم الصغيرة التي شاركتها في النصر . وكان بين هذه الأمم من لا يريد الاخذ بمبادئ ولسون ويحاول أن يفسرها تفسيراً يضع الحقوق التاريخية والمصالح الاستراتيجية والاقتصادية فوق حقوق القوميات . وهذا مايفسر لنا التناقض الذي وقع فيه ولسون بين المبادئ

والحقائق الواقعية ، فضلاً عن أن ولسون نفسه لم يكن يسعى وبذفس القوة لتطبيق مبدأ تقرير المصير على كافة شعوب العالم على حد سواء وبدرجة واحدة من الاهتمام . فقد وجه معظم اهتمامه إلى شعوب أوربة وأهمل الكثير من قضايا أمم آسيا وإفريقية .

أما دول الحلفاء فقد اعترفت أثناء الحرب مكرمة بحق الشعوب في تقرير مصيرها لتجربها إلى صفها وتفيد من مساعدتها ضد دولتي الوسط ، ألمانيا والنمسا ، وحلفائهما . ولكن ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وعاد السلام ، إلا وتكررت هذه الدول لمن كانت تستدر عطفهم بالامس . وهكذا كان وضع العرب بعد هذه الحرب ، لان الدول الكبرى لم تحترم وعودها لهم ، وأقسى من ذلك أنها قسمت بلادهم إلى أجزاء واختصت كل واحدة منها بجزء ، بل وقسمت الجزء الواحد إلى عدة أجزاء . فإين هذه السياسة من احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها ؟ وفي الحقيقة ، ان الدول الظافرة طبقت مبدأ تقرير المصير حيث طاب لها تطبيقه ، ومنعته عن شعوب أخرى لان مصالحها الحيوية تغلبت على احترام حق الامم . وهذا ما أثار مشاكل جديدة تجمعت فوق المشاكل القديمة المعلقة ، وظلت تقلق بال الدول طوال فترة ما بين الحربين ، ولاسيما بعد أن وعت مقدراتها وحققها في الحرية والسيادة القومية .

مؤحلة الامم المتحدة . - وفي الحرب العالمية الثانية ، بعد أن شن هتلر هجومه على الاتحاد السوفياتي ، قابل الرئيس روزفلت البريطاني الاول ، ونستون تشرشل ، في ١٤ آب ١٩٤١ ، على ظهر الدارعة الانكليزية « برنس اوف ويلز » الراسية في جون الارض الجديدة ، ووقعا معاً ميثاق الاطلسي الذي يعتبر أول معلّم لتشكيل تضامن شعوب الاطلسي . وقد أكدت الدولتان ، في هذا الميثاق ، بأنها لا تبغيان أي توسع أرضي أو

- ٦٦٥ -

خلافه ، وتعهدات بالا تحدثا أي تغير أرضي مضاد لاماني الشعوب ،
وتعترفان بأن لكل شعب الحق في انتخاب شكل الحكم بحرية ، وتعلنان
رغبتهما في إعادة السيادة والاستقلال للدول التي تمتعت بها من قبل ثم سلبا
منها . كما نص الميثاق على تأسيس نظام للأمن قائم على قواعد أوسع بما في
عصبة الأمم . واتجه التفكير لاحداث منظمة جديدة كل الجدة هي منظمة
الأمم المتحدة .

وبعد الحرب العالمية الثانية انعقد من ٢٥ نيسان الى ٢٥ حزيران
١٩٤٥ ، مؤتمر دولي في سان فرانسيسكو ووضع دستور المنظمة الجديدة
او شرعة الأمم المتحدة . وأصبح هذا الميثاق ساري المفعول بتاريخ ٢٤
تشرين الأول ١٩٤٥ ، هذا التاريخ الذي يعتبر ميلاد الأمم المتحدة .

ولقد اعلن موقعو شرعة الأمم المتحدة عن ايمانهم « بحقوق الانسان
الأساسية في الكرامة وقيمة الشخص البشري ومساواة حقوق الرجال
والنساء والأمم الكبرى والصغرى ، وبأنهم انصار الحريات الأساسية للجميع
دون تمييز عنصر أو جنس أو لغة أو دين ، وبأنهم يؤكدون حق
الشعوب في تقرير مصيرها » .

وان الفقرة الثانية من المادة الاولى ، التي تبين اهداف الأمم المتحدة .
تتعلق في حق الشعوب في تقرير مصيرها وتنص على ما يأتي :

« ان مقاصد الأمم المتحدة هي : انهاء العلاقات الودية بين الأمم
على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتساوي في الحقوق بين الشعوب
وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها ، وكذلك اتخاذ التدابير الاخرى
الملائمة لتعزيز السلم العالمي »

كذلك اقرت المادة ٥٥ من الميثاق نفس المبدأ أيضاً . وجاء في

-٦٦٦-

المادة ٧٣ في الفصل الحادي عشر المتضمن « تصريحاً يتعلق بالأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي ، ما يأتي :

« يقر اعضاء الأمم المتحدة ، الذين يضطلعون في الحال او في المستقبل بتبعات ادارة اقاليم لم تنسل شعوبها قسطاً كاملاً من الحكم الذاتي ، بالمبدأ القاضي بان مصالح اهل هذه الأقاليم لها المقام الأول ، ويقبلون ، أمانة مقدسة في عنقهم ، الالتزام بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم الى أقصى حد مستطاع في نطاق السلم والأمن الدولي الذي رسمه هذا الميثاق . ولهذا الغرض :

أ - يكفلون تقدم هذه الشعوب في شؤون السياسة والاقتصاد والتعليم والاجتماع ، كما يكفلون معاملتها بانصاف وحمايتها من ضروب الأساءة ، كل ذلك مع مراعاة الاحترام الواجب لثقافة هذه الشعوب .

ب - ينمون الحكم الذاتي ، ويقدررون الأمانى السياسية لهذه الشعوب حق قدرها ويعاونونها على اثناء نظمها السياسية الحرة ثمرأ مطردأ ، وفقاً للظروف الخاصة لكل اقليم وشعوبه ، ومراحل تقدمها المختلفة . ،

وقد رأت الدول الآسيوية والافريقية المستقلة والاعضاء في الأمم المتحدة ان الشرعة تتضمن اقرار الأمم الموقعة واعترافها بحق الشعوب غير المستقلة بالاستقلال ، وان هيئة الأمم المتحدة وسيلة لتحقيق هذا الاستقلال . وعلى ضوء هذه الاعتبارات يكون حق تقرير المصير حقاً طبيعياً وداخلاً في صلب شرعة الأمم المتحدة ، وان من واجب الدول الموقعة عليها ان تعمل على تطبيقه والتفديده ، والا فهي مسؤولة عما يسبب موقفها السلبي من تهديد الأمن الدولي والسلام العالمي .

ووافقت الجمعية العامة في الامم المتحدة على اقتراح الكتلة الآسيوية -

- ٦٦٧ -

الافريقية بدعوة المجلس الاجتماعي والاقتصادي ليطلب من الهيئة التي تعمل على وضع حقوق الانسان ، ان تدرس الطرق والوسائل التي من شأنها ان تضمن حقوق الشعوب والأمم في تقرير مصيرها ، وان تحضر التوصيات اللازمة من اجل بحثها في الاجتماع السادس لجمعية العامة .

وقبل العمل في هذه المقترحات كانت الدول الآسيوية - الافريقية قد تقدمت بطلب يقضي بأن تتخذ الجمعية العامة قراراً بإدخال حق تقرير المصير القومي كأداة كاملة في ميثاق هيئة الامم المتحدة . وقبل الاقتراح بأكثرية ٣٦ صوتاً مقابل ١١ صوتاً وامتناع ١٧ عضواً عن التصويت .

وعلى أثر التوصيات التي قدمتها الجمعية العامة تبنت هيئة حقوق الانسان مبدأ تقرير المصير القومي لتضمه إلى ميثاق حقوق الانسان كما يأتي :

أولاً - يجب أن يكون لجميع الشعوب والأمم حق تقرير المصير ، أي أن يكون لها الحق في أن تقرر بحرية وضعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

ثانياً - يجب على جميع الدول ، بما فيها الدول المسؤولة عن ادارة الاقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والاقاليم الخاضعة للصاية ، وكذلك الدول التي تتولى بأي صورة ممارسة هذا الحق نيابة عن شعب آخر ، أن تعزز تنفيذ هذا الحق في مناطقها ، وان تلتزم بالمحافظة على حسن سير تنفيذه من قبل الدول الأخرى وفقاً لشروط ميثاق الأمم المتحدة .

وبناء على اقتراح تقدمت به حكومة تشيلي أضيف الى هاتين الفقرتين من المادة ٤٨ من الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية فقرة ثالثة وهي :

-٦٦٨-

ثالثاً - يجب أن يتضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها السيادة التامة على ثروتها ومواردها الطبيعية ، ولا يجوز مجال من الاحوال أن يحرم شعب من وسائله الخاصة بالعيش على أساس أي حقوق قد تزعمها الدول الاخرى .

ووافقت الجمعية العامة على هذه البنود الثلاثة جميعها . وبهذا أصبح حق تقرير المصير جزءاً من ميثاق منظمة الامم المتحدة ومن حقوق الانسان . وما من شك في أن ادخال حق تقرير المصير في ميثاق الامم المتحدة كان خطوة موفقة في سبيل اعطاء هذا الحق الصفة الحقوقية اللازمة . ومنذ ذلك الحين وحق تقرير المصير يلقى التأييد والاعتراف تلو الاعتراف في المؤتمرات الدولية والشعبية ، حتى أصبح حجة قوية تتمسك بها الشعوب غير المستقلة لتقرير مصيرها . ونذكر على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر ، المقررات التي اتخذها مؤتمر الحقوقين الآسيويين الافريقيين ، في دمشق بين ٧ - ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وهي كما يلي :

د لما كان حق الشعوب في تقرير مصيرها حقاً طبيعياً ، ووضعياً ، ومعترفاً به في النصوص ، وذا شمول عام في المكان والزمان ؛ ولما كان هذا الحق في الواقع ، باعتباره ثرة تطور تاريخي طويل دفعت الشعوب ثمة غالباً ، قد نص عليه في نص دولي . أسامي هو ميثاق الامم المتحدة الذي وقعت عليه كل الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة ؛ ولما كان هذا الحق يعطي لكل شعب القدرة على أن يدير شؤونه بكل حرية وسيادة ودونما اكراه ؛ ولما كان هذا الحق يعني أن مصير قطر من الاقطار تقرره ارادة الناس الذين يسكنونه وحدهم ؛ ولما كان هذا الحق وكل مقتضياته لم تجد حتى الآن تطبيقها الشامل المرغوب ؛ ولما كانت

النظام الاستعماري انكاراً تاماً لهذا الحق ، وكان الاستعمار فوق ذلك ، وبحكم ماهيته جريئة في ذاته ومنبعاً للجرائم (كالحروب والجوارز وأعمال التعذيب ومحاولات القضاء على القوميات واذابة الكيان القومي لبعض الشعوب) ؛ وكانت تطبيق حق الشعوب في تقرير مصيرها ، واحترام هذا الحق ، من شأنها تأمين الطمأنينة العالمية ونوطيد السلام ؛ ولما كانت بلاد كثيرة لا تستطيع حتى الآن أن تمارس حقها في تقرير مصيرها بنفسها ؛ وكانت حق الشعوب في تقرير مصيرها حقاً أساسياً من حيث طبيعته ، وكان لجوء الشعوب إلى استخدام القوة في الدفاع عنه أمراً مشروعاً ؛ لذلك كله ، فإن مؤتمر الحقوقيين الافريقيين والآسيويين المنعقد في دمشق بين السابع والعاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، الامين لمبادئ الحق والعدل العامة ولروح مؤتمر باندونغ :

يؤكد من جديد ايمانه بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وبأنه حق ذو شمول عام دائم ، ويطلب تطبيقه فوراً ودواماً أي تحديد أو تقييد ، على جميع الشعوب المحرومة منه ، ويشجب النظام الاستعماري بوصفه جريمة واعتداءً دائماً على الشعوب والافراد ، ويطلب من منظمة الامم المتحدة ، بوصفها حارساً يقطاً لميثاقها وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، أن تسهر باستمرار على تطبيق هذا الحق واحترامه في كل أرجاء العالم ، ويناشد الدول الاعضاء في مؤتمر باندونغ بوجه خاص أن تدعم هذا الحق وتفرض احترامه .

والجدير بالذكر ان محوري ميثاق الامم المتحدة قد استنتجوا أن مبدأ « حق تقرير المصير » هو مبدأ مطلق ويجب أن يبقى هكذا دون أن يعاق بأي شرط أو قيد مهما كان نوعه . ولكن الدول التي مازالت مستعمرة وتدير أقاليم غير متمتعة بالحكم الذاتي وجدت أن مبدأ حق

تقرير المصير يقف عقبة في طريق استعمارها واستغلالها للشعوب التي تحكم بصيرها ، ولذلك حاولت أن تقيد هذا المبدأ المطلق بالشروط والقيود التي ترضاها أو تريد فرضها ، هذا مع العلم أن مقاصد الأمم المتحدة كانت غير ذلك . يضاف إلى ذلك أن الدول الكبرى والمنظمات العسكرية والاحلاف الكبرى كثيراً ما حاولت التهرب من هذا الحق أو اللعب به في كل فرصة مواتية لها .

بممارسة حق تقرير المصير . - وبعد هذه التطورات التاريخية نستطيع القول ان للشعوب الحق في تقرير مصيرها . ولكن كيف تمارس الشعوب هذا الحق ؟ ان الشعوب ليست حرة التصرف في أن تنفصل عن دولة كانت منضمة لها ومرتبطة بها ، أو أن تنضم إلى دول كانت منفصلة عنها ، دون التحقق من أن هذا الانفصال أو هذا الانضمام يعبر عن رغبة أكيدة ويتمشى مع قدرتها على مواجهة كافة النتائج المترتبة على ذلك وتحمل مسؤولياتها ، ودون النظر إلى النتائج الاقتصادية لهذا العمل بالنسبة للطرفين ، وبالنسبة لاستقرارهما الداخلي وأمنهما العام ، وكذلك بالنسبة لمصالح الدول الأخرى أو المجموعة الدولية عامة .

ولامرية في أن ممارسة حق الشعوب في تقرير مصيرها كثيراً ماتصطدم في الواقع بصعوبات مادية سياسية أو اقتصادية أو ادارية أو استراتيجية قد تتعارض مع رغباتها وتحول دون احقاق هذا الحق . فكيف تحدد أمة من الأمم وما هي الضوابط التي يجب الاعتماد عليها في هذا السبيل ؟ لقد قيل ان هنالك ضوابط اقليمية وقومية . ولكن من العسير جداً إيجاد ضابط يمكن أن يكون مقبولاً دون منازع . هذا بالإضافة إلى أننا كثيراً ما نجد قوميات متباينة تعيش مختلطة بعضها ببعض بحيث يتعذر تكوين دول كبرى دون أن تشمل هذه الدول أقليات كثيرة تخلق بدورها

ظروفاً عسيرة ، أو انشاء دولة في اقليم صغير تحيط به دول تناصبه العداء ، أو اقامة دولة على حساب دولة أو دول أخرى ، كما هي حال امرائيل التي أوجدها الاستعمار الامبريالي على حساب العرب . ان مثل هذه الدول أو الدويلات أو الكيانات على درجة عظيمة من الخطورة لأنها تظل بؤرة اضطراب وموئل قلق ومصدر خطر على الأمن الدولي والسلام العالمي .

وتقتضي ممارسة حق تقرير المصير ، قبل كل شيء ، استقرار الشعب على رأي موحد . وإذا تبسر له ذلك فكيف يمكنه أن يعبر عن ارادته ؟ لقد جرى التعامل أن يكون ذلك بالاستفتاء الشعبي ، شريطة أن يحاط بهذا الاستفتاء بالضمانات الكافية التي توفر حرية وسلامته ، كأن يكون التصويت مريباً وتحت اشراف لجنة دولية تتوافر فيها كل ضمانات الحياد ، وان نوضع تحت تصرفها قوات دولية لتساعد على أداء مهمتها بغية ضمان حرية التصويت والحفاظ على الأمن العام .

والثابت أن الاستفتاء ، إذا لم يكن نزيهاً ومحاطاً بالضمانات الجدية الدولية ، يكون عرضة للتلاعب ، وتؤدي اساءة استعماله إلى تشويه وإلى نتائج مغايرة لما يراد منه . والشواهد التاريخية على ذلك عديدة . فكثيراً ما استغل الطغاة والمستبدون عمليات الاستفتاء ووجهوها لصالحهم ، وليست الاستفتاءات التي أجراها نابوليون في عصره والاستفتاءات التي تجري في عصرنا إلا شاهدة على ذلك .

وكذلك تتطلب ممارسة حق تقرير المصير من الشعب اعداداً للتعبير عن ارادته بحرية . وقد يبلغ الشعب هذه المرحلة ، ولكن المصالح الحيوية لتبوير سياسة الدول الكبرى والتسلط الاستعماري وبقاء الاستعمار ، كثيراً ما تحول دون نمو الشعوب المستعمرة والمغلوبة على أمرها ، كما هي الحال في دولة اتحاد جنوبي افريقية ، وفي المستعمرات البرتغالية في الوقت

الحاضر . ولهذا الأسباب كلها رأت لجنة حقوق الانسان أن تضيف المادة ٤٨ الى مشروع الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية التي تتضمن وسائل تنفيذ هذا الحق ومباشرة .

وسائل تنفيذ حق تقرير المصير . - ان الميثاق الدولي لحقوق الانسان السياسية والمدنية ، كما رأينا سابقاً ، يتضمن بنوداً تبين طريقة تطبيق حق تقرير المصير للأمم الواقعة تحت الوصاية ، ولكافة الشعوب الأخرى التي لا تحكم نفسها بنفسها سواء اكانت محمية أم مستعمرة، وذلك بتنمية الامكانيات الداخلية ورفع الأمة الواقعة تحت سلطتها أو وصايتها إلى المستوى اللائق لحكم نفسها بنفسها . وفي المادة ٤٨ الآتفة الذكر ماينص على التزام الدول المتعاقدة ، بما فيها الدول المسؤولة عن ادارة الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي والاقاليم الخاضعة للوصاية ، بتقديم تقارير سنوية الى لجنة حقوق الانسان عن الاجراءات التي اتخذتها لتنفيذاً للالتزامات المفروضة عليها والتي تنص على حق تقرير المصير ، وكذلك التزام الدول الوصية باجراء انتخابات واستفتاءات وغيرها من الطرق الديمقراطية مع التفضل بأن يكون كل هذا تحت اشراف منظمة الأمم المتحدة بقصد تحديد الوضع السيامي لأي اقليم تحت ادارتها أو وصايتها . وتم هذه الاجراءات بعد ان تقترحها لجنة حقوق الانسان وتوافق عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وهكذا نرى ان حق تقرير المصير قد انتقل من مرحلة المبدأ الى مرحلة الحق الذي تطالب به الأمم في حركاتها التحررية ، وأن هذه المطالبة تأخذ بعين الاعتبار ارادة كافة افراد الأمة وليس جزءاً منها . وبعد ان تعتبر هذه الارادة العامة المشتركة يكون قرار الاكثية هو القرار الشرعي الذي يبنى عليه حق تقرير المصير .

ولئن كان هذا الحق مايزال محور نزاع ومساومة بين الأمم الضعيفة

والأمم القومية ، بين الشعوب المستعمرة المنطلعة الى الحرية والسيادة القومية والشعوب المستعمرة التي تريد الابقاء على احتلالها والحفاظ على استغلالها ، فان خط السير في المطالبة مستقيم بالرغم من العقبات التي تحاول كسره أو عطفه أو تحويله . وستصل هذه الشعوب المكافحة الى الحياة الحرة والعيش الكريم وإلى تقرير مصيرها بيدها وبعون من الدول الحرة ، التي سبقتها في ميدان الحرية ، ومن الدول الحرة المخلصة لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة ومقاصدها ، ومن احرار العالم ، وهم في تكاثرو ، لحسن الحظ ، يوماً بعد يوم .

ونتساءل أخيراً هل تقرير المصير سياسة أو موقف تتخذه الدول الكبرى في ظرف من الظروف وتوافق فيه على منح الاستقلال لشعب من الشعوب ، أو هو حق تنادي به الشعوب المطالبة بحريتها واستقلالها وتجاهد في سبيله لتحصل عليه ويعترف لها به ؟ الحقيقة أن وجهتي النظر مختلفتان . ان الدول الكبرى والدول الاستعمارية تجعل من تقرير المصير سياسة هبة أو منعة تمنعها عند ضغط الظروف لمن تشاء ، وتلمع بها حين تشاء ، وتريد ان تكون صاحبة القول الفصل بها لأنها تملكها . اما الشعوب غير المستقلة فتعتبره حقاً طبيعياً ، لأن الشعوب ، في الأصل ، نشأت حرة مستقلة كما خلقها الله وكما ارادها أن تكون ، ولكن المطامع البشرية اغتصبت هذا الحق الطبيعي عندما اعتدت الدول الكبرى على الشعوب الحرة وضمتها اليها أو استعمرتها . وما تبني الشعوب لحق تقرير المصير والكفاح الذي تبذله الا في سبيل احقاق هذا الحق ووصولها الى الحياة الحرة المستقلة كما ولدت حرة . وما حصولها على الاستقلال الا اعادة هذا الحق الى نصابه والحرية الى أهلها . وما من شك في أن انتقال تقرير المصير ، من مرحلة المبدأ الى مرحلة الحق المكتوب في شرعة الأمم المتحدة ، يعتبر خطوة تقدمية كبرى في حياة الأمم والشعوب .

قضايا عصرنا (٤٣)

الخاتمة

باستسلام الالمان ، في ٧ أيار ١٩٤٥ ، واليابان ، في ٢ ايلول ١٩٤٥ ، انتهت الحرب العالمية الثانية بعد أكثر من ست سنوات كانت البشرية فيها فريسة الأحوال والمعارك والضغائن السياسية والعرقية . ووقع الظافرون ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ ، معاهدات السلام في باريس مع الحلفاء الاوربيين لألمانيا المنزلة دوت أي تعبير ينم عن الرضى والارتياح بانتهاء الحرب وعودة السلام ، وبأن أبناءهم لن يكونوا عرضة للهلاك مرة أخرى في حرب قاتلة مدمرة مبيدة .

لقد ابتلي أبناء منتصف القرن العشرين أكثر من آباءهم في بداية هذا القرن في دمائهم ، وأكثر من ذلك في أرواحهم . وكانوا أكثر منهم وعياً بضعف السلام العائد بعد طول العناء وضرام الحرب حقاً لقد فقدوا الثقة وخامرهم سوء الظن والحذر ، وأصبحوا لا يصدقون ما يقال لهم . وهذا يرجع إلى الاسباب الآتية :

١ - ان السلام الذي فرضته المعاهدات في أعقاب الحرب العالمية الاولى كان ضعيفاً ، وكان يضر في طياته بذور الحرب ، ولم يستطع حل المشاكل المعلقة ، فضلاً عن أنه أوجد مشاكل جديدة عسيرة الحل ، وكان لصالح الدول الاستعمارية الكبرى .

٢ - الفكرة التي تساور هذه الشعوب من أنها ستكون ضحايا جديدة للآزمة الاقتصادية التي لم تضع الحرب العالمية الثانية لها حلاً نهائياً .

٣ - وإلى هذه الاسباب ، التي كانت ثمرة التجربة ، تضاف أسباب أخرى من ثمرة المعرفة . فقد كان الأبناء أكثر يقظة من آباءهم للقضايا السياسية والمنازعات العقائدية التي كانت تغذيها المنافسات الدولية والتيارات الفكرية المعاصرة المحركة للعالم . وكانوا يعلمون حق العلم بأن الحرب لم تحل شيئاً . وإذا احتجب العداء ، الذي يضع الرأسمالية والشيوعية على طرفي نقيض ، لضرورة النضال المشترك ضد الخطر النازي ، فقد بدأ عظيمًا بعد الحرب وغير قابل للإشفاء ، ومن الممكن ، في كل لحظة ، أن يتفجر عن نزاع مروع بالأسلحة النووية الجديدة وكارثة كبرى تقضي على البشرية . وكانت الحرب الأهلية التي اشتعلت في اليونان ، في ١٩٤٥ ، وضربة براغ ، في ٢٥ شباط ١٩٤٨ ، دليلاً على تصادم زعميي العسكريين الرأسمالي والاشتراكي ببعضهما عن طريق الدول الحاجزة قبل أن أوشكت الحرب أن تقع بينهما عند أزمة برلين وحرب كوريا وغيرها .

وفي الواقع ، ان هذه الخلافات لم تؤد ، بالرغم من كل ذلك ، إلى حدها المنطقي وهو الحرب المكشوفة . وهذا يرجع لما يلي :

١ - لأن قوة التدمير المتزايدة دون انقطاع الأسلحة النووية حرمت على مالكيها استعمالها عملياً تحت طائلة تدميرهم الذاتي .

٢ - لأن بذور التفرفة التي ظهرت في داخل كل من النأبيين كان من المتعذر خنقها ، بما اضطر الدولتين الكبيرين إلى تخفيف حدة النزاع خوفاً من مستقبل مظلم لا يعرف مداه . وفي الواقع ، حاولت الولايات المتحدة ، قبل كل شيء ، أن تبقى في طاعتها حلفاءها الاوربيين أو الآسيويين ، الذين لم يستطع خروج فرنسا من حلف الاطلسي أو الاخفاق الذي لاقته في فيت - نام ، ان يدفعهم إلى التحرر كلياً من واشنطون .

وتمسك الاتحاد السوفياتي بالحفاظ على الاسامي من قوائه ليلقي الديموقراطيات الشعبية في أوربة الشرقية في تبعية وثيقة سياسية وعسكرية واقتصادية، وبخاصة ليستطيع ، اعتباراً من سنوات الخمسين ، بحاجمة الاطماع الارضية والمفاهيم العقائدية الثورية لصين الشعبية التي اعتبرتها موسكو خطرة عليها.

وهكذا بدأ نزاع سيامي للمواقع التي حدثت في بالطا ويوتسدام في ١٩٤٥، ورأى هذا النزاع تفتحه في حركة الخلاص الكبرى من الاستعمار التي جرت البلاد التابعة في آسيا وافريقية إلى طرح وصاية «الوطن الام» الاوربي ، بعد أن شبت عن الطوق . غير أن حركيتها الديموغرافية وبؤسها الاقتصادي وأزمات النمو التي خلفها الاستقلال ومصالحها القومية دفعتها إلى الشعور بتضامنها مع دول أمريكا اللاتينية وتطبيق سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز بين الكتلتين الرأسمالية والاشتراكية .

وفي الحقيقة ، يبدو النزاع صفة أساسية من صفات العصر ، لأنه لايمكن في التشكيك في العلاقات بين دولة ودولة ، بل يمتد أيضاً إلى صعيد النظم والاقتصاد والاجتماع بل والثقافة والدين . عدا عن أن الشعوب تنزع إلى أن تلقى على بنيات ما بين الحربين مسؤولية الازمة الكبرى وابنتها الحرب العالمية الثانية .

ولذا أعيد النظر بالدساتير ، بل وبدلت بصورة عميقة بعد أن فكر بها تفكيراً جدياً . ووضعت المفاهيم الاقتصادية ، التي كانت موضع الشرف في بداية القرن ، موضع التشكيك من جديد . لأن أنصار الرأسمالية عزموا على التخلي عن ليبرالية القرن التاسع عشر الشاملة بعد أن أصبحت لاتتكيف مع متطلبات العالم المعاصر وحملوها توجيية مخططة ، بينما اضطر الاقتصاديون الاشتراكيون ، باسم القدرة على انتاج الربح لجهاز الانتاج ، ان يدخلوا مفهوم الربح من جديد في نظام تسيير

المشاريع ، بعد أن أخرجه موجهو هيثات التخطيط في الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية إلى الأبد من حساباتهم واهتماماتهم . وأعاد ليبرمان وتابيتزنكوف إلى الربح اعتباره في الاتحاد السوفياتي قبل أن يتصور الوزير التشيكوسلوفاكي اوتا سيك ، في ربيع براغ الوقت عام ١٩٦٨ ، تشكيكاً شاملاً لمبادئ وبنيات الاقتصاد الاشتراكي كما وجدت في بلاده .

ومن الواضح أن المبادئ والبنيات التي توجه التنظيم الاجتماعي قد تأثرت بحركة النزاع التي تدفع الرجال والشعوب إلى مشاركة متزايدة يوماً عن يوم في ثمار الانتاج وحماية أعظم كل يوم ضد أخطار الحياة اليومية في منظور المساواة الذي يذهب حتى التشكيك في النظم (المؤسسات) الموحدة بقوة ، بما في ذلك الملكية التي وجدت حقوقها محدودة بظهور مفهوم جديد : وهو مفهوم النفع العام . وهذه الحركة المندفعة إلى أقصى نقطة لها أدت ، في مجتمع الاستهلاك الحالي ، إلى نزاع شامل في مفهوم المجتمع نفسه في الحد الذي لا يستطيع أعضاؤه ان يتخلصوا من الرؤيا المروعة النووية الا بالانصراف إلى الذائذ الاصطناعية التي يوفرها لهم مجتمعهم ان فقدان التبرير المعنوي لهذا المجتمع يوضح السهام التي يطره بها النقد الفلسفي والادبي والفني كالتنقد الجامعي ، في ١٩٦٨ ، الذي ليس إلا تعبيراً أقصى لأزمة أوسع : أزمة الشباب غير المستقر الذي يبحث عن هذا المثل الأعلى الذي لا يستطيع الانسان أن يعيش بدونه ولا يستطيع العالم المعاصر أن يقدمه له . ولذا فهو مسوق عبر الجامعة والاستاذ معاً ، إلى منازعة « الأمرة » ، و « الرئيس » و « الدولة » وحتى « الدين » الذي وجد نفسه مشدوداً

(١) ليبرمان Liberman .

(٢) تابيتزنكوف Tapetznikoff .

(٣) اوتاسيك Ota sik .

بدوره في دائرة النزاع العام والخطير ، تحت تأثير ضرورة الحياة للتكيف مع عالم في طريق التطور المتسارع . هذا النزاع هو طابع عصرنا ويبدو أن هذا الطابع يهدد تدريجياً وبصورة خطيرة توازن البشرية ويضلها ، لأن هذه البشرية تتطلع في الواقع إلى النظام والاستقرار والسلام .

والآن ، مضت ثلاثون سنة ، على نهاية الحرب العالمية الثانية ، لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لتاريخ البشرية ، ولكنها تعتبر شيئاً كثيراً في نظر التقلبات العجيبة التي أثرت في كوكبنا الأرضي خلال هذا الدور . فبين انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتهاء الحرب العالمية الثانية ، حدث في التاريخ السيامي حادثان عظيمان وهما : افول أوربة ووصول الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي إلى مرتبة الدول الكبرى ، بل العملاقة ، ودخل « العالم الثالث » المسرح السيامي ، وهو على ما يبدو عليه من افراط سكان وبؤس وجوع ، ولكنه طموح ويريد أن يرفع الضنك عن أبنائه ، ويستغل خيرات بلاده ، ويشارك في الحياة الدواية .

وبصورة موازية ، تحولت الحياة الاقتصادية بشكل عميق على سطح الكرة ، كما تحولت الحياة السياسية بعد أن خرج الاتحاد السوفياتي من القمقم الذي أحكم الغرب سده بين الحربين العالميتين داخل الحزام الصحي . وقامت مجابهة مستديرة بين نظامي انتاج يعتمدان على مفاهيم متناقضة للحياة في داخل المجتمع ، ويجاول بعضها اليوم التغلب على التناقضات بفتح طريق ثالث وهو طريق المشاركة الذي حاول أن يسلكه في فرنسا الجنرال دوغول وأنصاره .

وتغيرت كذلك البنيات الاجتماعية - الاقتصادية التقليدية بهذه التجارب الجديدة ، وما زال النظامان الرأسمالي والاشتراكي اللذان يدعمانها

وافلين بالحياة ، وبخاصة النظام الرأسمالي . وخلافاً للأمال التي غذاها قوم أو المخاوف التي غاها آخرون ، استطاعت الرأسمالية أن تنجح في تنازع البقاء بتكيفها مع مسلمات الاقتصاد الحديث ، وأن تؤمن لنفسها ، وبشكل أفضل في حقل الزراعة ، وثيرة توسع متسارعة باستمرار لا تناقض شكلياً النتائج التي توصل اليها مالتوس في ركود الانتاج .

وما من شك في أن نهوض هذا الانتاج لم يكن ممكناً إلا بفضل استعمال طرق صنع جديدة ، واستخدام وسائل ميكانيكية جديدة كانت من ثمار الثورة العجيبة العلمية والتكنولوجية التي نقلت البشرية في الواقع ، في أقل من ربع قرن ، من عصر الكهرباء والمحرك ذي الانفجار إلى عصر الذرة والصواريخ عبر القارات وعلم الملاحة عبر الفضاء . وقد أسهم هذا التقدم على اختلاف أشكاله وألوانه في تغيير سلوك الانسان بصورة عميقة في علاقاته مع العالم . فقد تعلم كيف يعرف هذا العالم بشكل أفضل ، وبالتالي جرده من الأوصاف السحرية التي جعلته بغيضاً إلى أولاده .

وهو الآن يلفظ على أمل العيش فداً في مجتمع الوفرة ، بيد أنه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار أن البشرية ، باستثناء البلاد المصنعة في الغرب والاتحاد السوفياتي واليابان ، ترى خراب مستوى حياة أفرادها ، لأن ثلثي أبنائها يعيشان في حالة تقربط غذاء مستديم : فالزراعة ، في الواقع ، إلا في سنة ١٩٦٧ ، إذا كان محتوى تقرير منظمة الأغذية والزراعة دقيقاً ، تبدو عاجزة ، في جزء لأسباب فنية ، وفي جزء لأسباب اجتماعية ، عن تنمية انتاجها بوتيرة مشابهة لبوتيرة نمو السكان . وهذا النمو السكاني ، الذي تخلص من كل عائق بتقدم الطب ، يؤمن حالياً ، وفي أقل من أربعين عاماً ، ضعف السكان ، بعد أن قفز تعدادهم من مليار وخمسمائة مليون نسمة في ١٩١٣ ، إلى ما يقارب أربعة مليارات اليوم .

-٦٨٠-

والحدث العظيم في عصرنا هو أن هذه الثورة الديموغرافية تفوق ، بضخامة نتائجها المتوقعة ، كل أحداث نصف القرن الماضي ، وتمدد بغير القارات الخمس بمد موجاتها البشرية المتلاحقة القوية يوماً عن يوم ولا تعرف الجزر مطلقاً ، وتولد في معظم بلاد العالم الثالث توترات متزايدة الخطورة ومثقلة بخلافات المستقبل ، وتدفع أكثر من دولة إلى تغيير سياستها المشجعة لكثرة النسل ، وتضطر روما ، نفسها ، بعد الكنيسة البروتستانتية ، إلى أن تضع أمامها قضية شرعية ضبط الولادات التي لا يمكن الأمل بتحقيقها ، لضعف الإيمان عند الجماهير المسيحية ، بممارسة العفة التي أعلن عنها البلاغ الجبري ، الحياة البشرية ، الصادر في ثوز ١٩٦٨ ، بأنها الحل الوحيد الذي يتفق والمثل الأعلى الانجيلي .

وبهذه الحلول السياسية والاقتصادية والدينية ، التي تعطى لهذه القضية القائمة ، يتعلق ، في جزء كبير ، مستقبل سكان الأرض ، هذا المستقبل الذي تمسك الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بفاتيحه العسكرية على الأقل مادامتا تحافظان على حصر الأسلحة النووية التي تملكها دولة عملاقة . وإذا كانت بقاء الانسان منوطاً أخيراً بالحفاظ على توازن الارهاب بين واشنطن وموسكو فذلك أقل ما يكون من تناقض في تاريخ غني بالمفاجآت ، اللهم الا في حالة اليأس التي تكون فيها الرؤيا النووية المخرج الوحيد الذي يقدمه العلم الحديث لقضية افراط الاستيطان . ولكن أي مستقبل حزين لعالم نهم إلى السلام والحرية والوحدة !

ولكن لا داعي لليأس . ان البشرية على مسار تاريخها الطويل استطاعت أن تتدبر أمرها وتجد حلولاً لمشكلاتها ، وإذا كان العلم الحديث قادراً ، إذا صحت الرؤيا النووية ، على اباداة البشرية ، كما يقول المتشائمون ، فإنه قادر أيضاً على اعاشتها وتوفير الحياة الرغيدة لها كما يبشر المتفائلون .

١ - المصادر

مصادر الدور من ١٩٤٥ الى ١٩٧٢

ان معرفة هذا الدور ، من ١٩٤٥ الى ١٩٧٢ تنضج بمطالعة الوثائق التي يصنع التاريخ والتي بنجم الهام منها في الاقسام الثلاثة من المصادر المطبوعة :

أ - مجموعات الوثائق

Odette VOILLIARD, Guy CABOURDIN, François-Georges DREYFUS, Roland MARX, *Documents d'histoire contemporaine*, t. II : 1851 - 1963 (Armand Colin, coll. U, 1964).

Paul REUTER et André GROS, *Traités et Documents diplomatiques* (P. U. F., coll. Thémis, 1959).

Claude-Albert COLLIARD, *Droit international, et Histoire diplomatique* (1815 - 1950), Paris, 2^e édit., 1950.

Claude-Albert COLLIARD, *Actualité internationale et diplomatique* (1950 - 1956), Paris, 1957.

Jean-Marcel JEANNENEY, Raymond BARRE, Maurice FLAMANT et Marguerite PERROT, *Documents Economiques* (P. U. F., coll. « Themis », t. I, 2^e édit., 1966; t. II, 2^e édit., 1968).

ب - المصادر المطبوعة

ان مطالعة هذه النصوص يجب ألا تنسى مطالعة المجموعات الكبرى للوثائق الدبلوماسية ، ولا مطالعة المذكرات والذكريات والآثار المذهبية لرجال السياسة الذين لعبوا دوراً أساسياً على مسرح التاريخ من ١٩٤٥ الى اليوم .

(١) مجموعات الوثائق

مجموعة المعاهدات والافاقات الدبلوماسية الدولية المسجلة أو المصنفة والمدونة في مرجع أمانة منظمة الأمم المتحدة ، دورية ، ١٩٤٦ ، والسنوات التالية .

المذكرات والدراسات الوثائقية :

ان المذكرات والدراسات الوثائقية ، التي نشرت تحت رعاية رئاسة مجلس الوزراء الفرنسية ، تنسر جريئاً أو كلياً وثائق رسمية عديدة جداً سعلق بفرنسا والبلاد الاجنبية . وان نسر اللوائح السهرية واللوائح بحسب البلاد أو الموضوعات يساعد على التحري عنها بسهولة .

(٢) المذكرات . وثائق المذهب أو التراجم

Harry S. TRUMAN, *Years of decision*, 1945, trad. franç. : *L'Année des décisions*, 2 vol. (Plon, 1955).

Dwight David EISENHOWER, *Mandate for change, the White House Years, 1953 - 1956* (trad. franç. : *Mandat pour un changement. Mes années à la Maison Blanche, 1953 - 1956*. (Paris, Laffont, coll. « L'Histoire que nous vivons » 1963).

Waging Peace, the White House Years, 1956 - 1961 (trad. franç. : *Bataille pour la paix. Mes années à la Maison Blanche, 1956-1961*, Paris, Edit. de Trévise, 1968).

Commission Warren, Rapport Warren, 26 vol., New York, 1964. (Rapport sur les circonstances de l'assassinat de J. F. Kennedy.)

Rapport de la commission Warren sur l'assassinat du Président Kennedy (Laffont, 1965, 2 vol.).

Anthony EDEN, *Mémoires, 1945-1957* (trad. franç. Plon, 1960, 2 vol.).

Konrad ADENAUER, *Mémoires*, t. I 1945-1953, t. II 1953-1956 (Hachette, coll. « Histoire », 1965-1967).

Joseph STALINE, *Les problèmes économiques du socialisme en U.R.S.S.*, (Paris, Editions sociales, 1952).

Joseph STALINE, *Le marxisme et les questions linguistiques* (Moscou, 1950).

Svetlana ALLILUYEVA, *Vingt lettres à un ami* (Edit. du Seuil, Paris-Match, 1967). (Ouvrage rédigé par la fille de Staline dont il contribue à préciser la personnalité mais dont le contenu est fort controversé par les autorités soviétiques.)

Vladimir DEDIJER, *Tito parle* (traduction française, Paris, Gallimard, 1953).

Mao TSO-TONG, *Ecrits choisis* (François Maspero, 3 vol., 1969); t. I, 1926-1937 (Editions de Pékin, 1966); t. II, 1937-1941 (id., 1967); t. III, 1941-1945 (id., 1968); t. IV, 1945-1949 (id., 1969).

Mao TSO-TONG, *Citations du Président Mao Tso-tong* (Le Petit Livre Rouge), édition en langues étrangères [français], Pékin, 1966.

Mao TSO-TONG, *La guerre révolutionnaire* (Union Générale d'Edition, Plon, 1962).

HO CHI MINH, *Œuvres choisies* (Edition française ou anglaise, Hanoi, 4 vol., 1960-1962); *Œuvres* (Librairie du Globe, 1961); *Action et Révolution*, 1920-1967 (U.G.E.), coll. « 10/18 », n° 413.

Ji Jawaharlal NEHRU, *Speeches*, Delhi, 1949-1958.

Gamal Abdel NASSER, *Philosophie de la Révolution* (1954).

Charles DE GAULLE, *Mémoires d'espoir* (2 vol., Plon, 1970 et 1971).

- ٦٨٤ -

(٣) مجموعات الاحداث :

André SIEGFRIED, Edouard BONNEFOUS, Jean-Baptiste DUROSELLE, *L'Année politique* (P.U.F., un volume par an depuis 1944-1945. Dernier volume paru, 1970 en 1971).

Journal de l'année : t. I, 1^{er} juillet 1966-30 juin 1967; t. II, 1^{er} juillet 1967 - 30 juin 1970 (Larousse, 1967, 1968, 1969 et 1970).

L'Année dans le Monde, collection « Notre Temps » (Arthaud, 1963 et années suivantes) (un volume par an depuis 1962. Dernier volume paru, 1969-1970 en 1970).

The statesman's yearbook, publié par S. M. STEINBERG, Londres, Macmillan, un volume annuel.

٢ - كتب التاريخ العام

١ - الكتب المؤلفة :

Maurice CROUZET, *L'Epoque contemporaine*, « Histoire générale des civilisations » (P.U.F., t. VII, 1^{er} édit. 1957, 5^e édit. 1969).

Lucien GENET, *Cinquante ans d'Histoire : 1900-1950*. (Editions Tallandier, t. II, 1950; t. III, 1951).

René GROUSSET et Emile G. LEONARD, *Histoire Universelles*; t. III : *De la Réforme à nos jours*. Encyclopédie de la Pléiade, N.R.F. (Gallimard, 1^{re} édit., 1958).

Marcel DUNAN (et Collaborateurs), *Histoire Universelle*; t. II : *Du XVII^e siècle à nos jours* (Larousse, 1960).

Marcel PACAUT et Paul BOUJU, *Le Monde contemporain, 1945-1968* (Armand Colin, coll. U, 1971).

Robert ARON et ses Collaborateurs, *L'Histoire contemporaine depuis 1945* (Larousse, 1969).

Roger CERE, *Entre la guerre et la paix* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 351, 1962).

Claude DELMAS, *La stratégie nucléaire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1042, 1963).

Peter Calvocoressi, *World politics since 1945*, Second Edition, London, 1971.

Walter Consuelo Langsam and Otis C. Mitchell, *The World Since 1919* Eighth Edition the Macmillan Company, New York, Collier — Macmillan Limited, London, 1971.

R. D. Cornwell, *World in the twentieth century*, Longman, London, 1969.

George Lichtheim, *Europe in the twentieth century*, Weidenfeld and Nicolson, London, 1971.

Jacques Pirenne, *Les grands courants de l'Histoire Universelle*, vol. VII, de 1939 à nos jours edition de la Baconnière — Neuchatel, Albin Michel — Editeur, Paris, 1956.

Marcel Roncayolo, *Nos contemporains*, t. I et II, Bordas — Laffont, Paris, 1971-1972.

George A. Rothrock, *Europe : A brief History*, Chicago, 1971.

Pierre Thibault, *Le temps de la contestation*, 1947-1969, Librairie Larousse, Paris, 1971.

D. C. Watt, *A history of the world in the 20th century*, Part I : 1899-1918, Pan Books Ltd., London, 1970.

Frank Spencer, *A history of the world in the 20th century*, Part II : 1918-1945 Pan Book Ltd., London, 1970.

Neville Brown, *A history of the World in the 20th century*, Part III, 1945-1968, Pan Books Ltd., London, 1970.

التاريخ الدبلوماسي

(١) العلاقات الدولية :

Jean-Baptiste DUROSELLE, *L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales* (P.U.F., coll; Nouvelle Clio, n° 38, 3^e édit. 1970).

Jean-Baptiste DUROSELLE, *Histoire diplomatique de 1919 à nos jours.* (Dalloz, 5^e édit. 1971).

Pierre RENOUVIN, Jean-Baptiste DUROSELLE, *Introduction à l'Histoire des Relations Internationales* (Armand Colin, 1964).

André FONTAINE, *Histoire de la guerre froide; t. I : De la Révolution d'octobre à la guerre de Corée* (Fayard, 1966).

André FONTAINE, *Histoire de la guerre froide; t. II : De la guerre de Corée à la crise des alliances, 1950-1967* (Fayard, 1967).

(٢) المنظمات الدولية :

Pierre GERBET, *Les Organisations Internationales* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 792, 1963).

Charles CHAUMONT, *L'O.N.U.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 748, 4^e édit., 1964).

Marc MONTCEAU, *L'Organisation internationale du Travail* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 836, 2^e édit., 1964).

Gilles Y BERTIN, *L'Investissement International* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1256, 1967).

Henri BONNET, *Les institutions financières internationales* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 44, 1966).

Louis DOLLOT, *Les relations culturelles internationales* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1164, 1964).

Claude DELMAS, *Le Monde Atlantique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 771, 1958).

Herbert d'HEROUVILLE, *La Communauté économique atlantique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 396, 3^e édit., 1964).

(٣) قضايا السكان :

Marcel REINHARD et André ARMENGAUD, *Histoire générale de la population* (Domat-Montchrestien, 1961, dernière édition, 1968).

Robert SALOMON, *Les réfugiés* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 763, 1963).

Pierre GUILLAUME et Jean-Pierre POUSSOV, *Démographie Historique* (Armand Colin, coll. U, 1970).

(٤) التاريخ الاقتصادي :

André PHILIP, *Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours* (Aubier-Montaigne, 2 vol., 1963).

Jean-Alain LESOURD, Claude GERARD, *Histoire économique des XIX^e et XX^e siècles*; t. I et II (Armand Colin, coll. U, 1963).

Christian AMBROSI et Max TACEL, *Histoire économique des Grandes Puissances à l'époque contemporaine, 1850-1964* (Delagrave, 2^e édit., 1965).

Christian AMBROSI, Marcel BALESTE et Max TACEL, *Histoire et géographie économiques des grandes puissances à l'époque contemporaine*; t. I, 1967; t. II, 1^{er} fascicule, 1968; 2^e fascicule, 1969; 3^e fascicule 1969.

Robert SCHNERB, *Libre-Echange et Protectionnisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1032, 1963).

Jean CHARDONNET, *Les conséquences économiques de la guerre (1939-1946)* (Hachette, 1947).

Jean CHARDONNET, *L'économie mondiale au milieu du XX^e siècle* (Hachette, 1951).

Walt Whitman ROSTOW. *Les étapes de la croissance économique* (Seuil, 1962).

Colin CLARK, *Les conditions du progrès économique* (P.U.F., 1960).

François PERROUX, *L'Économie du XX^e siècle* (P.U.F., 4^e édit., 1969).

Joseph LAJUGIE, *Les systèmes économiques* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 753, 5^e édit., 1966).

Alain CHAZEL et Hubert POYET, *L'Économie mixte* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1051, 2^e édit., 1965).

٥ (التاريخ الاستعماري :

Henri GRIMAL, *La décolonisation (1919-1963)* (Armand Colin, Collection U, 1965).

Les Politiques coloniales. L'étude de ces dernières est abordée dans les ouvrages consacrés à l'histoire des grandes puissances coloniales : France, Belgique, Italie, Pays-Bas et Royaume-Uni.

٦ (التاريخ الاجتماعي :

Alian TOURAINE, *La civilisation industrielle (de 1914 à nos jours)*; t. IV de la coll. : *Histoire générale du travail* publiée sous la direction de Louis-Henri Parias (Nouvelle Librairie de France, 1961).

Annie KRIEGER, *Les internationales ouvrières* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1129, 1964).

Jacques DROZ, *Le socialisme démocratique (1864-1960)* (Armand Colin, coll. U, 1966).

Georges LEFRANC, *Le syndicalisme dans le monde* (P. U. F., « Que sais-je ? » n° 356, 1^{re} édit., 1949).

Paul SILVESTRE et Paul WAGRET, *Le Syndicalisme contemporain* (Armand Colin, coll. U, 1970).

(٧) تاريخ الافكار السياسية :

Jean TOUCHARD avec la collaboration de Louis BODIN, Pierre JEANNIN, Georges LAVAU et Jean SIRINELLI, *Histoire des idées politiques* (t. II. : *Du XVIII^e siècle à nos jours*) (P.U.F., coll. Thémis, 2^e édit., 1962).

(٨) التاريخ الديني :

DANIEL-ROPS, t. X : *Ces chrétiens, nos frères* (Fayard, *Les grandes études historiques*, 1965).

Pierre PIERRARD, *Histoire de l'Eglise catholique* (Desclée et C^{ie}, 1971).

Jean-Baptiste DUROSELLE, *Histoire du catholicisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 365, 2^e édit., 1962).

Henry MARC-BONNET, *La Papauté contemporaine (1878-1953)* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 209, 1951).

Yves CONGAR, *Vatican II. le concile au jour le jour* (Edit. du Cerf, 1963-1966, 4 vol.).

Olivier CLEMENT, *L'Eglise orthodoxe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 949, 1961, nouv. édit. 1965).

Emile G. LEONARD, *Histoire générale du protestantisme* (P.U.F., t. III, 1964).

Emile G. LEONARD, *Histoire du Protestantisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 427, 1950).

Berthe GAVALDA, *Le mouvement œcuménique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 841, 1959).

(٩) التاريخ الثقافى :

Raymond QUENEAU (sous la direction de), *Histoires des Littératures* (Encyclopédie de la Pléiade, Gallimard, 3 vol., 1955, 1956 et 1959).

Antoine ADAM, Georges LEMINIER, Edouard MOROT-SIR, *Littérature française*, t. II (Larousse, 1968).

قصايا عصرنا (٤٤)

René LALOU, *Histoire de la littérature française contemporaine de 1870 à nos jours*, t. II (P.U.F., 1953).

Geneviève BAZIN, *Histoire de l'Art de la préhistoire à nos jours* (éd. Charles Massin, 1953).

Louis HAUTECCEUR, *Histoire de l'Art* (Flammarion, 3 vol., 1959).

Hans TINTELNOT. *Du classicisme à l'art moderne*, t. XV et XVI, 2 vol., coll. « *Histoire de l'Art Payot* » (Petite bibliothèque Payot, 1966).

Robert MAILLARD (sous la direction de), *Dictionnaire universel de l'Art et des Artistes* (Fernand Hazan, 2 vol., 1967).

Norbert DUFOURCQ (sous la direction de), *La musique, les hommes, les instruments et les œuvres* (Larousse, 2 vol., 1964-1965).

١. تاريخ العلوم والفنون :

Fernand PERRIN, *Histoire des Sciences* (Lib. P. Beudart, 1956).

Maurice DAUMAS (sous la direction de), *Histoire de la Science des origines au XX^e siècle* (N.R.F., Gallimard, Encyclopédie de la Pléiade, 1960).

René TATON (sous la direction de), *Histoire générale des sciences*; t. III : *La Science contemporaine*, vol. II : *Le XX^e siècle* (P.U.F., 1964).

Louis LEPRINCE-RINGUET, *La science contemporaine, Les sciences physiques et leurs applications* (Larousse, t. I, 1964; t. II, 1965).

Pierre DUCASSE, *Histoire des Techniques* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 126, 1955).

Pierre ROUSSEAU, *Histoire des Techniques* (Fayard, 1956).
Histoires des Techniques et des Inventions (Hachette, 1967).

Maurice DAUMAS (sous la direction de), *Histoire générale des Techniques*, t. IV : *La civilisation industrielle* (P.U.F., à paraître).

Dominique DUBARLE O.P., *La civilisation et l'atome* (Les Editions du Cref, Plon, 1962).

٣ - أمريكا الانغلو - ساكسونية

أ - التاريخ العام :

Pierre CHAUNU, *L'Amérique et les Amériques (de la Pré-histoire à nos jours)* (Armand Colin, coll. Destins du Monde 1964).

Claude FOHLEN, *L'Amérique Anglo-Saxonne de 1815 à nos jours* (P.U.F., coll. Nouvelle Clio, n° 43, 4^e édit., 1969).

Raoul BLANCHARD, *Le Canada français* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1098, 1964).

ب - تاريخ الولايات المتحدة .

René REMOND, *Histoire des Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 38, 1959).

André MAUROIS, *Histoire des Etats-Unis* (Albin Michel, 1959, 2 vol.).

André MAUROIS, *Histoire du peuple américain* (Edit. Litt. de France, 1956, 2 vol.).

Frank FREIDEL, *Les Etats-Unis d'Amérique* (Sirey, 1966).

T. Harry WILLIAMS, Richard N. CURRENT, Frank FREIDEL, *A history of the United States (since 1865)*. New York (Alfred A. Knopf, 1963).

Henry PEYRET, *Les Etats-Unis* (P.U.F., coll. Le Monde a changé, 1961).

Marie-Louise HEERS et Eric BUCLOZ, *Les Etats-Unis contemporains* (Armand Colin, coll. U, 1970).

- Y. H. NOUAILHAT, *Histoire des doctrines politiques aux Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1345, 1969).
- Charles-Melchior de MOLESNES, *La carrière du président Kennedy et la vie politique américaine* (édit. Cujas, 1963).
- Jean-Jacques SERVAN-SCHREIBER, *Le défi américain* (Denoël, 1967).
- Shepard Bancroft CLOUGH, *Histoire économique des Etats-Unis depuis la guerre de Sécession* (P.U.F., 1953).
- Louis FRANK, *Histoire économique et sociale des Etats-Unis de 1919 à 1949* (Aubier, 1950).
- Louis FRANK, *Les Etats-Unis d'Amérique : Politique économique* (Sirey, 1966).
- Harold Underwood FAULKNER, *Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique* (P.U.F., 1958, 2 vol.).
- Melita OBRADOVITCH, *Les Récessions américaines d'après guerre et leur impact sur le reste du monde* (S.E.D.E.S., 1965).
- John Kenneth GALBRAITH, *Le nouvel état industriel* (N.R.F., Gallimard, édit. française, 1967).
- Claude FOHLEN, *Les Noirs aux Etats-Unis* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1191, 1965).
- Michel FABRE, *Les Noirs américains* (Armand Colin, 1967).
- Martin Luther King, *Révolution non-violente* (Seghers, 1965).

٤ — أوروبا واليابان

أ — تاريخ أوروبا العام :

- Lucien de SAINTE LORETTE, *L'idée d'Union fédérale européenne* (Armand Colin, 1955).
- François GAY et Paul WAGRET, *Le Benelux* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 870, 3^e édit., 1965).

- Jean LECREF, *Histoire de l'unité européenne* (Gallimard, N. R.F., coll. Idées Actuelles, 1965).
- François PERROUX, *L'Europe sans rivages* (P.U.F., 1^{re} édit., 1954).
- Charles MELCHIOR DE MOLENES, *L'Europe de Strasbourg* (Editions Roudil, 1971).
- Pierre DUCLOS, *Le Conseil de l'Europe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 885, 2^e édit., 1964).
- Jean de SOTO, *La C.E.C.A.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 773, 3^e édit., 1965).
- Lucien de SAINTE LORETTE, *Le Marché Commun* (Armand Colin, 3^e édit., 1963).
- Jean-François DENIAU, *Le Marché Commun* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 778, 6^e édit., 1964).
- François CLERC, *Le marché commun agricole* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1125, 1^{re} édit., 1963-1964).
- Pierre MAILLET, *L'économie de la Communauté européenne* (Sirey, 1968).
- Jean CHARDONNET, *Les grandes puissances, étude économique* (t. I : *L'Europe, France exceptée*, Dalloz, 4^e édit., 1968).

ب — التاريخ القومي للبلاد الاوربية :

(١) فرنسا :

١ — المؤلف :

- Louis-Henri PARIAS (sous la direction de), *Histoire du peuple français*; t. V, Jean-Marie MAYEUR, François BEDARIDA, Antoine PROST, Jean-Louis MONNERON, *Cent ans d'esprit républicain* (Nouvelle Librairie de France, 1958-1964).

Marcel REINHARD et Norbert DUFOURCQ, *Histoire de France*, t. II : *De 1715 à 1946* (Larousse, 1954).

Christian AMBROSI, *La France 1870-1970* (Masson, 1971).

Georges DUPEUX, *La société française 1789-1960* (Armand Colin, coll. U, 1964).

Maurice DUVERGER, *Les Constitutions de la France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 162, 7^e édit., 1961).

ب — التاريخ السياسى والاجتماعى :

Jacques CHAPSAL, *La vie politique en France depuis 1940* (P.U.F., coll. Thémis, 1966).

Jacques FAUVET, *La IV^e République* (Arthème Fayard, 1959, édit. revue, 1963).

Alfred GROSSER, *La IV^e République et sa politique extérieure* (Armand Colin, 2^e édit. 1967).

Alfred GROSSER, *La politique extérieure de la V^e République* (Edit. du Seuil, 1965).

Jacques DROZ, *Histoire des doctrines politiques en France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 304, 4^e édit., 1963).

René REMOND, *La droite en France, De la Première Restauration à la V^e République* (Aubier-Montaigne, coll. Historique, 1963).

Claude NICOLET, *Le radicalisme* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 764, 2^e édit., 1961).

Claude WILLARD, *Socialisme et communisme français* (Armand Colin, coll. U 2, 1967).

Georges LEFRANC, *Le syndicalisme en France* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 585, 1^{re} édit., 1953).

Georges LEFRANC, *Le mouvement syndical de la Libération aux événements de mai-juin 1968* (Payot, 1969).

— ٦٩٥ —

ح — التاريخ الاقتصادي :

Yves TROTIGNON, *La France au XX^e siècle* (Bordas-Mouton, coll. Etudes supérieures, 1968).

André ARMANGAUD, *La population française dans la première moitié du XX^e siècle* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1167, 1965).

Jean-Marcel JEANNENEY, *Forces et faiblesses de l'économie française* (Armand Colin, 1960).

Pierre MAILLET, *La structure économique de la France* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 791, 3^e édit., 1964).

André de LATTRE, *Politique économique de la France depuis 1945*, (Sirey, 1966).

Jean LECERF, *La percée de l'économie française* (Arthaud, 1963).

François PERROUX, *Le IX^e Plan française (1962-1965)* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 1021, 1962).

René SEDILLOT, *Du Franc Bonaparte au Franc de Goulle* (Calmann-Lévy, 1959).

André NEURISSE, *Histoire du Franc*, (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1082, 2^e édit., 1967).

Charles BETTELHEIM, *Bilan de l'économie française* (P.U.F., 1946).

د — التاريخ الاستعماري :

Hubert DESCHAMPS, *La fin des Empires coloniaux*, (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 409, 3^e édit., 1963).

Gilles NERA, *La Communauté* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 428, 1960).

هـ — التاريخ الديني :

Aline COUTROT et François Georges DREYFUS, *Les forces religieuses dans la société française* (Armand Colin, coll. U, 1966).

(٢) المملكة المتحدة :

Roland MARX, *Histoire du Royaume-Uni* (Armand Colin, coll. U, 1967).

André-J. BOURDE, *Histoire de la Grande-Bretagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 282, 1961).

Marc CASATI, *Le Royaume-Uni au XX^e siècle* (C.D.U., 1965).

Marc CASATI, *Le Royaume-Uni de 1914 à nos jours* (S.E.D. E.S., 1967).

Jacques CHASTENET, *L'Angleterre d'aujourd'hui* (Calmann-Lévy, 1965).

Albert MABILEAU et Marcel MERLE, *Les partis politiques en Grande-Bretagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1174, 1965).

Jean de SAILLY, *Politique économique du Royaume-Uni et du Commonwealth depuis la guerre* (Les Cours de Droit, 1962, 3 fascicules).

Jacques CROKAERT, *Histoire de l'Empire britannique* (Flammarion, 1947).

Henri GRIMAL, *Histoire du Commonwealth britannique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 334, 1962).

François CROUZET, *L'Economie du Commonwealth* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 403, 1950).

(٣) أوروبا الشمالية — الغربية :

Jean DHONT, *Histoire de la Belgique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 319, 1963).

Maurice BRAURE, *Histoire des Pays-Bas* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 490, 1951).

Pierre JEANNIN, *Histoire des Pays Scandinaves* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 704, 2^e édit., 1965).

{ المانبا الغربية :

Pierre GAXOTTE, *Histoire de l'Allemagne* (Flammarion, 1963, 2 vol.).

André DRIJARD, *L'Allemagne* (S.E.D.E.S., 1964).

Edouard VERMEIL, *L'Allemagne contemporaine, sociale, politique et culturelle (1890-1950)* (Aubier 1952 et 1953, 2 vol.).

Gilbert BADIA, *Histoire de l'Allemagne contemporaine (1917-1962)*; t. II. 1933-1962 (Editions Sociales, 1962).

Serge BERNSTEIN et Pierre MILZA, *L'Allemagne, 1870-1970* (Masson, 1971).

Alfred GROSSER, *La République Fédérale d'Allemagne* (P. U.F., « Que sais-je ? » n° 1069, 1964).

Alfred GROSSER, *La démocratie de Bonn (1949-1957)* (Armand Colin, 1958).

André MANNON et Léa MARCOU, *La République Fédérale allemande* (Fayard, 1967).

Jacques DROZ, *Histoire des doctrines politiques en Allemagne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1301, 1968).

Jean-François PONCET, *Politique économique de l'Allemagne occidentale* (Les Cours de Droit, 3 fascicules, 1963-1964).

Michel BEAUD, *La croissance économique de l'Allemagne de l'Ouest (1949-1962)* (édit. Cujas, 1966).

André PIETTRE, *L'économie allemande contemporaine (Allemagne Occidentale) 1945-1952* (Edit. M. Th. Génin [Lib. de Médecis], 1952).

هـ (بلاد الالب :

Jacques DROZ, *Histoire de l'Autriche* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 22, 3^e édit. 1961).

E. ZOLLNER, *Histoire de l'empire autrichien des origines à nos jours* (Roanne, Horvath, 1968).

Charles GILLARD, *Histoire de la Suisse* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 140, 4^e édit. 1964).

٦ (بلاد البحر المتوسط :

F. G. BRUGUERA, *Histoire contemporaine à Espagne* (1789 - 1950), (Ophrys, Gap, 1953).

Hugh THOMAS, *The Spanish civil war* (London, 1961) [tard. française].

Nicolas SVORONOS, *Histoire de la Grèce moderne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 578, 2^e édit. 1964).

Georges BOURGIN, *Histoire de l'Italie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 286, 2^e édit. 1957).

Jean REYNAUD, *Les partis politiques en Itanes*, (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1199, 1965).

Shepard Bancroft CLOUGH, *The economic history of modern Italy*. (Columbia University Press, 1964).

Pierre MILZA et Serge BERNSTEIN, *L'Italie, la Papauté, 1870-1970* (Masson, 1970).

ج — تاريخ اليابان :

Jean LEQUILLER, *Le Japon* (Coll. l'histoire du XX^e siècle, Sirey, 1966).

Jacques CHEROY, *Où va le Japon ?* (Hachette, 1954).

Françoise PONS, *Un cas de développement sans inflation : le Japon* (P.U.F., 1963).

Hubert BROCHIER, *Le miracle économique japonais* (Calmann-Lévy, coll. Questions d'actualité, 1965).

Robert GUILLAIN, *Le Japon, 3^e Grand* (Edit. du Seuil, coll. L'histoire immédiate, 1969).

٥ - العالم الشيوعي

أ - الاتحاد السوفياتي :

(١) الكتب العامة :

Roger PORTAL, *Les slaves : Peuples et Nations (VIII^e-XX^e siècle)*. (Armand Colin, coll. Destins du Monde, 1965).

Istran AGOSTON, *Le Marché Commun communiste. Principes et pratique du Comecon* (Paris, Minard, 1964).

(٢) تاريخ الاتحاد السوفياتي :

Jean BRUHAT, *Histoire de l'U.R.S.S.* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 183, 6^e édit., 1961).

Henri PEYRET, *L'U.R.S.S.* (P.U.F., coll. Le Monde a changé 1961).

Luca PIETROMARCHI, *Le monde soviétique*, traduit de l'Italien par Roger Hardy (Plon, 1964).

Histoire du Parti Communiste (Bolchevik) de l'U.R.S.S. (Edit. en langues étrangères, Moscou, dernière édit., 1964).

Révérénd Père Henri CHAMBRE, *Le Marxisme en Union Soviétique. Idéologie et Institutions, leur évolution de 1917 à nos jours* (Edit. du Seuil, 1955).

Serge N. PROKOPOVICZ, *Histoire économique de l'U.R.S.S.* traduit par Marcel Body (Au Portulan, chez Flammarion, 1952).

Charles BETTELHEIM, *l'Economie soviétique* (recueil Sirey, 1950).

— V. . —

Robert BORDAZ, *La nouvelle économie soviétique (1953-1950)*
(Grasset, enquêtes et documents 1960).

Alec NOVE, *L'Economie soviétique* (Plon, 1963).

Révérènd Père Henri CHAMBRE *Union soviétique et développement économique* (Aubier, 1967).

ب — الديمقراطية الشعبية ويوغوسلافيا :

René RISTELHUEBER, *Histoire des Peuples balkaniques* (Arthème Fayard, 1950).

Georges CASTELLAN, *La République démocratique allemande*
(P.U.F., « Que sais-je ? », n° 964, 1961).

Georges CASTELLAN, *D.D.R., l'Allemagne de l'Est* (Edit. du Seuil, 1955).

Emile TERSEN, *Histoire de la Hongrie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 678, 1955).

Henry BOGDAN, *Histoire de la Hongrie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 678, 1966).

Ambroise JOBERT, *Histoire de la Pologne* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 591, 1953).

Pierre BONNOURE, *Histoire de la Tchécoslovaquie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1304, 1968).

Henri PROST, *Destin de la Roumanie (1918-1954)* (Berger Levrault, 1954).

Marcel de VOS, *Histoire de la Yougoslavie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 675, 1955).

ج — الصين :

Robert LEVY, *La Chine* (P.U.F., coll. Le Monde a changé, 1964).

Jacques GUILLERMAZ, *La Chine Populaire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 840, 1959).

— ٧٠١ —

Jacques GUILLERMAZ, *Histoire du Parti communiste chinois* (1921-1949), (Payot 1968).

René DUMONT, *Révolution dans les campagnes chinoises* (Edit. du Seuil, coll. Esprit « Frontière ouverte », 1957).

Robert GUILLAIN, *Dans trente ans la Chine* (Edit. du Seuil, Coll. L'histoire immédiate, 1965).

René DUMONT, *La Chine surpeuplée, Tiers-Monde Affamé* (Edit. du Seuil, Coll. Esprit « Frontière ouverte », 1965).

Robert GUILLAIN, *Six Cent millions de Chinois* (Julliard, 1956).

Roger LEVY, *Mao Tsö-tong* (Seghers, coll. *Les Destins Politiques*, 1965).

Stuart SCHRAM, *Mao Tsö-tong* (Textes traduits et présentés, Armand Colin, 1963).

٦ — العالم الثالث

أ — الكتب العامة :

Josué de CASTRO, *Géopolitique de la faim* (Edit. Ouvrières, Paris, nouv. édit. 1962).

Yves LACOSTE, *Géographie du sous-développement* (P.U.F., Coll. Magellan, n° 2, 1965).

Yves LACOSTE, *Les pays sous-développés* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 853, 4^e édit., 1963).

François LUCHAIRE, *L'aide aux pays sous-développés* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1227, 1966).

Odette GUITARD, *Bandong et le réveil des peuples colonisés* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 910, 1961).

— ٧٠٢ —

ب — التاريخ الاقليمي للعالم الثالث :

(١) أمريكا اللاتينية :

Encyclopédie de l'Amérique Latine (P.U.F., 1954).

Pierre CHAUNU, *Histoire de l'Amérique latine* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 361, 1949).

Hugo D. BARBAGELATA, *Histoire de l'Amérique espagnole* (Armand Colin, 1949).

Cahier des Annales, n° 4, *A travers les Amériques latines* (Armand Colin, 1969).

Jean TOUCHARD, *La République Argentine* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 366, 1949).

Pierre MONBEIG, *Le Brésil* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 628, 1954).

Raymond AVALOS, *Le Chili* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 730, 1957).

François WEYMULLER, *Histoire du Mexique* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 574, 1964).

(٢) آسيا الشرقية :

١ — الكتب العامة :

Jean CHESNEAUX, *L'Asie Orientale aux XIX^e et XX^e siècles. Chine-Japon-Inde-Sud-Est Asiatique* (P.U.F., Coll. Nouvelle Clio n° 45, 1966).

Hélène CARRERE D'ENCAUSSE et Stuart SCHRAMM, *le Marxisme et l'Asie 1853-1964* (Armand Colin, coll. U, 1965).

Roger LEVY, *La révolte de l'Asie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 496, 1965).

٢ — آسيا الجنوبية الشرقية :

- Le THAN KHOI, *Histoire de l'Asie du Sud-Est* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 804, 1959, nouv. édit., 1967).
- Achille DAUPHIN1MEUNIER, *Histoire du Cambodge* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 916, 1961).
- Pierre FISTIE, *Singapour et la Malasie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 869, 1960).
- Pierre FISTIE, *L'évolution de la Thaïlande contemporaine* (Armand Colin, Cahier F.N.S.P., n° 156, 1967).
- André MASSON, *Histoire du Vietnam* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 398, 1960).
- Philippe DEVILLERS, *Histoire du Vietnam de 1940 à 1950* (Edit. du Seuil, 3^e édit., 1952).
- Pierre MEILE, *Histoire de l'Inde* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 489, 1951).
- R. GOPAL, *British rule in India, an assessment* (Londres, 1963).
- Tibor MENDE, *L'Inde devant l'orage* (coll. Esprit « Frontière ouverte ». Edit. du Seuil, 1950).
- Charles BETTELHEIM, *L'Inde indépendante* (Armand Colin, 1962).
- Jean BRUHAT, *Histoire de l'Indonésie* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 801, 1958).
- François TESTA, *Le Pakistan* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 970, 1962, dern. édit. 1968).
- Gaston WILLOQUET, *Histoire des Philippines* (P.U.F. « Que sais-je ? » n° 912, 1961).
- Li OGG, *Histoire de la Corée* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1310, 1969).

٣ — افريقية والشرق الأدنى :

١ — التاريخ العام :

Jean GANIAGE, Hubert DESCHAMPS, Odette GUITARD et André MARTEL, *L'Afrique au XX^e siècle* (Sirey, coll. Histoire du XX^e siècle, 1966).

ب — افريقية البيضاء :

Charles-André JULIEN, *Histoire de l'Afrique Blanche des origines à 1945* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 4, 1966).

Jean-Alain LESOURD, *La République du sud* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 463, 1963).

ج — الشرق الأدنى :

André MIQUEL, *L'Islam et sa civilisation VII-XX^e* (Armand Colin, coll. Destins du Monde, 1968).

Dominique et Janine SOURDEL, *La civilisation islamique* (Arthaud, coll. Les Grandes civilisations, 1969).

Vincent MONTEIL, *Les Arabes* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 722, 1964).

Fernand J. TOMICHE, *l'Arabie Séoudite* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1025, 1962).

Jean-Pierre ALEM, *Le Proche-Orient Arabe* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 819, 2^e édit., 1964).

Ferdinand L'HUILLER, *Le Moyen-Orient contemporain 1945-1958* (Paris, 1959).

Jean et Simone LACOUTURE, *L'Egypte en mouvement* (Edit. du Seuil, 1956).

Jean-Pierre ALEM, *Le Liban* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 1081, 1963).

Robert MANTRAN, *Histoire de la Turquie* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 539, 1952).

— V. 5 —

André CHOURAQUI, *l'Etat d'Israël* (P.U.F., « Que sais-je ? » 5^e édit., 1967).

د - افريقية السودان :

Marcel MERLE (sous la direction de), *L'Afrique Noire contemporaine* (Armand Colin, Coll. U, 1968).

Robert et Marianne CORNEVIN, *Histoire de l'Afrique des origines à nos jours* (Payot, 1964).

Robert CORNEVIN, *Histoire de l'Afrique* (t. Payot, 1966).

Henri BRUNSCHWIG, *L'avènement de l'Afrique Noire* (Armand Collin, 1963).

Philippe DECRAENE, *Le Panafricanisme* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 847, 1^{re} édit. 1959).

Denise PAULME, *Les civilisations africaines* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 606, 1953).

Hubert DESCHAMPS, *Les Institutions politiques de l'Afrique Noire* (P.U.F., « Que sais-je ? » n° 549, 2^e édit., 1965).

Dmitri Georges LAVROFF, *Les Partis politiques en Afrique Noire* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1380, 1970).

Vincent MONTEIL, *l'Islam Noir* (Edit. du Seuil, coll. Esprit, Frontière Ouverte, 1964).

Robert DELAVIGNETTE, *L'Afrique Noire française et son destin* (N.R.F., 1962).

Jean DROESSE, *Histoire de l'Ethiopie* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1393, 1970).

Robert CORNEVIN, *Le Dahomey* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1176, 1965).

Hubert DESCHAMPS, *Histoire de Madagascar* (Berger-Levrault, 3^e édit., 1965).

Robert CORNEVIN, *Le Togo* (P.U.F., « Que sais-je ? », n° 1272, 1967).

قضايا عصرنا (٥) :

الفرس

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

المقدمة

الفصل الاول

نهاية الاستعمار

الاستعمار ٧ . بوادر الخلاص من الاستعمار ١١ . المرحلة الاولى :
١٩٤٥ - ١٩٥٤ ، تحرير آسيا ١٦ . الكومنولث (رابطة الشعوب البريطانية)
٢٢ . الاتحاد الفرنسي ٢٨ . افريقية الشمالية ٣٢ . تونس ٣٢ . مراكش
٣٣ . الجزائر ٣٣ . المرحلة الثانية : ١٩٥٥ - ١٩٦٥ . باندونغ ٣٤ .
الآسياوات ٣٧ . اندونيسيا ٣٧ . تحرير افريقية المدارية ٣٩ . غانا ٤٠ .
نيجيريا ٤٠ . افريقية الشرقية ٤١ . كينيا ٤١ . تانغانيقا ٤١ . اتحاد
الروديسيين ونياسالاند ٤٢ . توغو ٤٣ . افريقية الشمالية والشمالية - الشرقية
٤٧ . تونس ٤٧ . مراكش ٤٨ . الجزائر ٤٩ . التجمعات الافريقية
والمقاومات البيضاء ٥٣ . اوروبا ، أمريكا ، اوقيانوسيا ٥٦ . نتائج الاستعمار
٥٧ . نهاية الامبراطوريات والاطنان الأم ٥٧ . قضايا التحررين من
الاستعمار ٦٠ . الحدود ، الوحدة ، العمران السيامي والاداري ٦١ .
التطور الاجتماعي والثقافي ٦٢ ، التنمية ٦٣ . المظاهر العالمية ٦٦ .

-٧٠٧-

الفصل الثاني

العلاقات بين الشرق والغرب

نهاية الأحلاف

(١٩٤٥ - ١٩٤٧)

الحرب الباردة (١٩٤٧ - ١٩٥٣) ٧٦ . الانفراج (١٩٥٤ - ١٩٥٧)

٨٩ . التعايش السلمي (١٩٥٧ - ١٩٦٣) ٩٨ . آخر مابعد الحرب ١٠٩ .

الفصل الثالث

تطور الحرب

١٩٤٥ ميراث الحرب العالمية الثانية

تطور الحرب ١١٩ . من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩ تحت الحصر النووي

الأمريكي ١٢٤ . من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٤ : حرب باردة وغراجات حارة

١٢٨ . من ١٩٥٤ إلى ١٩٤٩ تضليل ثنائي وحرب ثورية ١٣٥ . من

١٩٥٩ إلى أباننا . التساكن الذري ونزاع التضامن ١٤١ .

الفصل الرابع

التطور الاقتصادي والاجتماعي

مدخل ١٥٠ . ، ١٩٤٥ - ١٩٥٠ التعمير ١٥٤ . الاتحاد السوفياتي

١٥٥ . بريطانيا العظمى ١٥٦ . فرنسا ١٥٨ . ألمانيا ١٦٢ . اليابان

١٦٤ . ، ١٩٥٠ - ١٩٦٠ : التوسع الاقتصادي والاجتماعي بسيطر عليه

النزاع بين الدولتين الكبيرين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ١٦٥ . الاتحاد

السوفيياتي ١٦٦ . الولايات المتحدة ١٦٨ . الاتحاد السوفيياتي ١٧٥ . ،
١٩٦٠ - ١٩٦٨ ، اضطراب البنات ١٨٣ . التنافس على المكان العالمي
الثالث بين المعجزين : ألمانيا واليابان ١٨٤ . اليابان ١٩٣ تنافس بريطانيا
العظمى وفرنسا على المكان الخامس . بريطانيا العظمى ١٩٧ . فرنسا
٢٠٥ . مرء الصين الشيوعية وضراؤها ٢١٢ . قيام العالم الثالث والتضامن
الدولي ٢١٧ .

الفصل الخامس

التطور الديني

مدخل ٢٣١ . التغيرات المنجزة ٢٣٣ . العالم المسيحي ٢٣٣ . الاسلام
٢٣٨ . اليهودية ٢٤١ . الأديان الأخرى ٢٤٢ . انتزاع القداسة من العالم
٢٤٤ . الحركة الدينية من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٨ . الكنيسة الكاثوليكية ٢٤٧ .
الكنائس الأخرى ٢٥٣ . الاسلام ٢٥٦ . الأديان الأخرى ٢٥٨ .
الماركسية ودين العلم ٢٥٩ . ملاحظات ومنظورات ٢٦٣ .

الفصل السادس

الحياة اليومية

الحياة اليومية ٢٧٠ . النهوض السوفيياتي البطيء ٢٧١ . ألمانيا : من
العام صفر إلى الازدهار ٢٧٣ . كل الشعوب عندها فقراؤها ٢٧٥ .
تناقص حصة الطعام في موازنات الأمر ٢٧٧ . هل الاعتماد بروتستانتى غالباً
٢٨٢ . بعض صور الحركة ٢٨٥ . عالم الياقات البيضاء ٢٨٩ . الثورة
الريفية ٢٩١ . العالم على الشاشة الصغيرة ٢٩٢ . حكم ال - ١٧ - ٢٤ :
٢٩٤ . المال في الصعب الأول ٢٩٦ . محاولة تعريف السعادة ٢٩٧ .
تحت قشرة الحضارة ٢٩٩ . الحياة اليومية لفلح هندي ٣٠٠ .

-٧٠٩-

الفصل السابع

عصر العلم

- الحركة العلمية ٣٠٤ . تعصير العلم ٣٠٧ . البحث العلمي والتقني في المجتمع ٣٠٨ . جغرافية البحث ٣١٨ . الاتجاهات العلمية ٣٢٥ . العلوم الفيزيائية تبحث عن وحدتها النظرية ٣٢٨ . علم الحيوان وعلوم الانسان ٣٣٢ . علم الجراثيم وابطاح الحياة ٣٩٩ . تلاقي الفكر العلمي ٣٤٢ . تطبيقات العلم على الحضارة الفنية ٣٤٦ . تحديد الحدود التقنية : الطاقة والمواد الأولية ٣٤٨ . الموجات وقداول الفكر . الآلية والاستعلام ٣٥٧ . الآلية والمجتمع ٣٦٠ . التقدم التقني ، الفرد والجنس ٣٧٢ .

الفصل الثامن

الانجازات العلمية المعاصرة

- تمهيد ٣٧٩ . شروط العمل العلمي ٣٨٢ . الثورة العلمية والتقنية ٣٨٤ . النتائج الاجتماعية ٣٨٦ . تغير الحياة اليومية ٣٨٩ .

الفصل التاسع

حضارة العصر

- تمهيد ٤٠١ . خصائص حضارة العصر ٤٠٣ . البلاد المتخلفة ٤١٨ . أزمة الحضارة ٤٢٠ . اختلاف الآراء في النظر إلى حضارة العصر ٤٢٤ .

الفصل العاشر

تفسير عصرنا

- تمهيد ٤٢٩ . أزمت عصرنا الثلاث ٤٣٠ . أزمة العقل ٤٣٣ . أزمة

الوطنية ٤٣٨ . أزمة الاشتراكية ٤٤٥ . الموازنة الحالية للماركسية ٤٤٩ .
تجديد جهد ماركس ٤٥٢ . التشخيص ٤٥٦ . حادث : ثورة أيار ١٩٦٨
في فرنسا ٤٥٨ .

الفصل الحادي عشر

الدول الاوربية الاخرى

النمسا ٤٦١ . اختلاف الدول الغربية والاتحاد السوفياتي بشأن النمسا
٤٦٥ . معاهدة السلام واستقلال النمسا ٤٦٨ . سويسرا ٤٧٣ . بلجيكا
٤٧٦ . حفاظ بلجيكا على نظام الرابطة والحرية الاقتصادية في الكونغو
٤٨٦ . هولندا ٤٨٩ . تحقيق بينيلوكس ٤٩٩ . الدول الاسكندنافية
٥٠٢ . اسبانيا ٥٠٧ . البرتغال ٥١٥ . الفاتيكان ٥٢٢ . الدول المجاورة
للكتلة الاشتراكية ٥٣٩ . فنلندا ٥٣٩ . المجلس الشمالي ٥٤١ . اليونان
٥٤٢ . تركيا ٥٤٩ . الحلف البلقاني ٥٥٤ . توقيع الحلف البلقاني وعودة
تريستا إلى إيطاليا ٥٥٥ . المجاهدة اليونانية - التركية على قبرص ٥٥٦ .

الفصل الثاني عشر

التمييز العنصري

التمييز في العصور القديمة والوسطى ٥٦٠ . التمييز في العصور الحديثة
٥٦٣ . التمييز العنصري في الولايات المتحدة ٥٦٩ . التفرقة العنصرية في
جنوبي افريقية ٥٨٣ . عزل افريقية الجنوبية ٥٩١ . التمييز العنصري في
المستعمرات البرتغالية ٥٩٢ . التمييز العنصري في فلسطين المحتلة ٥٩٥ .

-٧١١-

الفصل الثالث عشر

الحياة الايجابية وعدم الانحياز

شريعة الأمم المتحدة ٦١٧ . الأحلاف العسكرية والبحث عن توازن عالمي جديد ٦٢١ . الحرب الباردة (١٩٤٧ - ١٩٥٠) ٦٢٢ . الحرب الساخنة والانفراج (١٩٥٠ - ١٩٥٦) ٦٢٥ . مبدأ آيزنهاور ٦٢٩ . الحياة الايجابية ٦٣٠ . عدم الانحياز ٦٣٨ .

الفصل الرابع عشر

تقرير المصير

تمهيد ٦٥٤ . تقرير المصير ٦٥٦ . مقومات حق تقرير المصير ٦٥٦ . المراحل التاريخية ٦٥٨ . مرحلة الثورة الفرنسية ٦٥٨ . المرحلة الامريكية ٦٦٠ . فترة الرئيس مونرو ٦٦٠ . فترة الرئيس ولسون ٦٦١ . مرحلة الامم المتحدة ٦٦٤ . ممارسة حق تقرير المصير ٦٧٠ . وسائل تنفيذ حق تقرير المصير ٦٧٢ .

الخاتمة ٦٧٤

المصادر ٦٨١

الفهرس ٧٠٦

أسماء الأشهر في البلاد العربية

يناير	=	كانون الثاني
فبراير	=	شباط
مارس	=	آذار
أبريل	=	نيسان
مايو	=	أيار
يونيه	=	حزيران
يوليو	=	تموز
أغسطس	=	آب
سبتمبر	=	أيلول
أكتوبر	=	تشرين الأول
نوفمبر	=	تشرين الثاني
ديسمبر	=	كانون الأول

الموسوعة التارخيية الحديثة



الموسوعة التارخيية الحديثة

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة

تاريخ القرن السابع عشر

تاريخ القرن الثامن عشر

تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر

تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تاريخ القرن العشرين

١٩٤٥ - ١٩٠٠

التاريخ الدبلوماسي

١٩٥٨ - ١٩٠٠

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء